



الدكتور نور الدين حاطوم
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر في جامعة الكويت

دار الفكر



منذ ١٩٤٥

تاليف
جماعة من المؤلفين الغربيين

تعريب
الدكتور نور الدين حاطوم
الأستاذ في جامعة الكويت

دار الفكر

١٩٧٠ م - ١٩٧١ م

المقـــدمة

يتضمن هذا الكتاب قسمين : الأول ، دراسات تاريخية خاصة بالمجموعات الكبرى القومية أو الدولية ، التي تتوزع فيا بينها حياة عصرنا السياسية ، مع دراسة عامة لتاريخ البلاد الأخرى .

والقسم الثاني ، خاص بقضايا العصر الكبرى ، وهي قضايا أساسية هامة ، قضايا حضارة ، كالخلاص من الاستعمار والعلاقات بين الشرق والغرب والتطور الديني والتقني والاقتصادي ، وكلها قضايا كبرى تتمثل فيها علاقات القوة والجاه والمنفعة . كما تظهر فيها أيضاً بعض الاختيارات الكبرى الروحية او الجدلية التي تقدم للبشرية . وقد لا يبعد أن ينشأ عن المجابهة بين الشرق والغرب أو عن التطور الاقتصادي مفهوم جـــديد للعلاقات البشرية وشكل جديد لحياة الناس وأفكارهم .

عصرنا الحاضر ثوري في الفكر والأخلاق والعمل السياسي: إنه يبحث عن قواعد جديدة ويقين جديد وطرق جديدة . إن حضارة بكاملها تطرح من جديد على بساط البحث، وربما حضارة أخرى لا يعرف مداها ولا منتهاها .

القسم الأول

الكيانات الكبرى القومية والفوقمية

الفصل الأول

فرنسا

لقد فتح فصل جديد من تاريخ فرنسا في صيف ١٩٤٤ ، ويبدأ به بعضهم في ٦ حزيران ، بانزال الوحدات الاولى من جيش الحملة الحليف على شواطىء نورمانديا ، وتحرير أول جزء من أرض الوطن الأم ، فرنسا ، وتنصيب أول سلطة فرنسية حرة ويرجع آخرون الاحتفاظ بيوم ٢٥ آب ، الذي شهد دخول الجنرال دوغول ، رئيس الحكومة الموقتة ، إلى باريس المحررة ، ووصوله إلى القصر البلدي حيث رجوه أن « يعلن الجمهورية » ، فأجاب : « إن الجمهورية ما زالت موجودة ولماذا أعلنها ؟ » . وأحياناً أيضاً يذهب فريق ثالث من ٩ ايلول ، تاريخ أول مجلس للوزراء عقدته في باريس الحكومة الجديدة لفرنسا المحررة ، وحدّدت فيه تحت رئاسة دوغول زعماء المقاومة الخارجية ، الذين أتوا معه من لندن والجزائر ، وزعماء المقاومة الداخلية ، الذين كان يوجههم جورج بيدو ، والسياسيين ، من الشيوعيين إلى المعتدلين . فقد جلس لوي جاكينو إلى جانب شارل تيللون ، دون نسيان ممثلي الجمهورية الثالثة ، مع جول جانيني ، رئيس مجلس الشيوخ في ١٩٤٠ .

واستقرت السلطة الجديدة على رأس بلد شجي الحال : أولاً ، لأن الحرب ما زالت مستمرة ، وستدوم أيضاً ، في اوربة ، أكثر من ثمانية أشهر ، حتى ٨ أيار ١٩٤٥. لقد تراجع المحتل الألماني ، ولكنه مازال يمسك

بصلابة — وسنلاحظ ذلك بعد قليل — بقسم من الأرض القومية ، والبؤس يهدد ، على عتبة شتاء قاس ، شعباً جائعاً تمزقه المحن والآلام ، ويعسكر في مدن لا يصل اليها التموين ، بسبب اضطراب المواصلات . وما كادت الحماسة الوطنية تسقط حتى فسحت مجالاً لأقسى تجاوزات سلطات الأمر الواقع أو الكتل المسلحة ، المتعطشة للثأر والدم ، بعد أن استهزىء بالنظام والقانون وسادت الفوضى ولم يعد العدل محترماً في أي مكان .

ولم يكن للدولة أجهزة ادارية ، ولا للأمة قوانين ، وفقدت فرنسا مكانتها في العالم . ومن الممكن أن يتساءل ما إذا كانت هزيمة الغالب في ١٩٤٠ ، طاغية السنوات السوداء ، ستترك المجال رحباً لسيطرة جديدة تقوض الاستقلال القومي لزمن طويل ، وربما للأبد . لقد كان يعوز فرنسا كل شيء : السلام والنظام والخبز اليومي . هذه هي التركة الفظيعة .

لذا ينبغي ، في هذه البلبلة القصوى ، وضع تسلسل للحالات العاجلة ، أي الاخطار : فقبل كل شيء ، يجب على السلطة المركزية أن تفرض نفسها ، وأن تقبض بيدها على زمام الأمر ، وأن تسمع صوتها ، وأن تطاع ، لأن السلطة الحقيقية للحكومة الموقتة لا تتجاوز أبواب العاصمة ، وأيضاً . وفي الوقت نفسه ، يجب تأمين الاعاشة والتموين ، واستئناف العمل . ففي هذا البلد المفتت ، المجمد ، يجب أن تعود المواصلات الهاتفية والحديدية ، والطرق كما كانت قائمة ؛ وأن تعود للخدمة محطات الراديو ، والمطارات ، والقاطرات والناقلات القابلة للاستعمال ومثلها الموانىء ، والمناجم ، ويجب أن تعود المعامل إلى نشاطها ، وأن تصلح التخريبات الخطيرة التي سببتها قنابل الحلفاء والمحتل عند ارتحاله .

ويجب أن يقوم هذا الجهد العظيم حسب الاولوية لصالح الحرب ،

التي ما زالت قائمة لا في الشرق وفي الالزاس وفي الآردين فحسب ، بل أمام « جيوب » الأطلسي ، حيث تحصن العدو ليؤخر انزال السلاح إلى البر ، والعتـاد ، والبترول ، والتموين الضروري للفرنسيين والجيوش الحليفة . كان يراد الغـلاب ، قبـل كل شيء ، وكانت فرنسا تريد أن تكون حاضرة في الكفاح ، بالرغم من أن قرابة مليونين ونصف من الرجال ما زالوا أسرى أو منفيين في ألمانيا : لأن استرجاع استقلالها واعتراف الحلفاء بحكومتها بهذا الثمن .

وإلى هذا الدمـار المتراكم والعوز الفظيع تضاف أيضـاً الخسائر ، والعبوديات ، والتقنينات التي يجب تحملها أيضـاً حتى السلام . وولد الاحساس بالرخاء والرضى ضلالاً فظيعاً : فقد استقبل الحلفـاء كالفرسان البواسل لأنهم أتوا ليخلصوا الجميلة الناعسة وليغمروها بالهدايا ، من الأعمام الاميركيين من ذوي الموارد التي لا تنضب والتي كانوا على استعداد لبذلها . ولقد بدا المحررون ، مهما كانت بدلاتهم أو لون أشرطة سواعدهم ، أبطالاً خلصاً جمعتهم وحدة القلب في حب الوطن ، حتى ان المعارك التي يقومون بها كان يشعر بها كشكليات بسيطة . وإن تحسين الاعاشة ، وعودة الغياب ، كانا ، في ذهن الشعب ، قضية بضعة أسابيع ، وان عودة الانتاج والتعمير يتطلبان بضعة أشهر .

وكانت هذه الاوهام ، الكريمة غالباً ، تحمل في طياتها خيبات أمل فظيعة أحياناً ، وستكون ، في جزء منهـا ، في أصل الاخطاء التي سترتكب ، والاغلاط التي ستطبع لزمن طويل الحياة السياسية الفرنسية وإدارة الخير العام . وستدمغ أيضاً السنوات الثلاث التالية (١٩٤٤ — ١٩٤٧) ، التي ستري على مهل ، من الحرب الحارة إلى الحرب الباردة ،

تهيئة الجمهورية الرابعة وتأسيسها أخيراً ، وستدوي في أرجاء هـذا النظام الذي سيجابه باستمرار خصوماً فظيعين (١٩٤٧ - ١٩٥٤) . ونجـد أثر ذلك في الفصل الثالث ، من هذا التاريخ الذي ندرسه ، المخصص لنهاية امبراطورية وأفول نظام (١٩٥٤ - ١٩٥٨) . وسيظهر الجنرال دوغول ، الشخصية الأساسية في هذه السنوات الاولى ، رئيساً للجمهورية الخـامسة وينتزع حركة التحرير من الاستعمار (١٩٥٨ - ١٩٦٢) والتحرير الكبير لفرنسا والفرنسيين إلى ما بعد الغولية (١٩٦٢ - ١٩٦٨) .

من الحرب الحارة الى الحرب الباردة (١٩٤٤ - ١٩٤٧). —

كان يجب عمل كل شيء : فبعد ظهر يوم السبت الأغر ، في ٢٦ آب ١٩٤٤ ، نزل الجنرال دوغول من قصر الايليزية محاطاً بالهتاف الشعبي ، يحييه مليونا فرنسي ، وسيستمد شارل دوغول شرعيته من هذا « الاجماع » الباريسي ثم القومي ويؤسس سلطته على هذا النحو . وفي الوقت ، الذي كان يوجه فيه عمل الحكومة الموقتة ، كان يشجع المجهود الحربي . وحاول أن يعيد للفرنسيين النظام والوحدة ، وإلى فرنسا مكانتها ، وطاف البلاد خلال شهرين :ففي ايلول ، زار ليون ومرسيليا وتولون وتولوز وبوردو واورلئان ونانسي وليل ولانس وآراس في ايلول ؛ وفي تشرين الاول ، زار روان ونورمانديا و رنس وشامبانيا وديجون وبورغونيا .

وفي كل مكان كان الشعب يستقبل الجنرال استقبال الظافرين ، وفي كل مكان كان الجنرال يرد الوجهاء إلى حظيرة العقل قليلاً أو كثيراً ويقطع دابر العصيان والتمرد ، ويحكم في الخلافات ، ويملي القرارات ، ويفرض وزراءه ومفوضي الجمهورية والمحافظين . أما بالنسبة إلى المناطق التي لم يزرها إلا آجلاً وإلى مجموع الأمة فكان يتكلم غالباً بالراديو ويكثر الاحتفالات والخطب .

الحرب . - وزار الجيوش مرات عديدة وهي في الكفاح ، ويجب أن نتذكر أن ديجون لم تتحرر إلا في ١١ ايلول ، وان الفرنسين لم يدخلوا ملهوز إلا في ٢١ تشرين الثاني ، وستراسبورغ إلا في ٢٣ . وعلى الهجوم الحليف الذي قام في تشرين الثاني كان الجواب آخر رجفة كبرى ألمانية في منتصف كانون الاول ، وهو الهجوم المعاكس الذي قامت به قوى فون روندشتيت في الآردين . وقد رفض دوغول باستعلاء ، في أول كانون الثاني ١٩٤٥ ، أن يجلو عن ستراسبورغ التي استردت حديثاً، عندما أعطى القائد الأعلى للجيوش الحليفة ، الجنرال آيزنهاور، الأمر للجنرال دولاتر دوتاسيني ، ولزم انتظار ٢ شباط ١٩٤٥ حتى سقطت كولمار بدورها ولم يعبر الراين إلا في آخر آذار . ولم تستسلم « الجيوب » الالمانية في رويان ولاروشيل، كل في دوره، إلا في آخر نيسان وأول أيار ، وتماسكت جيوب سن - نازير ولوريان حتى انهيار الرايخ .

وأخيراً انقضت جيوش الحلفاء على الارض الالمانية واستسلم الالمان في ٧ أيار ١٩٤٥ في رنس ، حيث حضرت فرنسا ، كما ستحضر أيضاً في ٢ ايلول القادم عندما تلقي اليابان بدورها السلاح .

التسيير . - ولكن لا يكفي توكيد السلطة ومتابعة الكفاح : بل يجب الحكم . ففي ١٣ ايلول ، قرر مجلس الوزراء زيادة الاجور بمقدار ٤٠ ٪ ، وفي ١٧ تشرين الاول رفع التعويض العائلي ٥٠ ٪ . وفي منتصف شهر تشرين الثاني ، طرح أول قرض كبير فكان نجاحاً ، وحاول أن يكبح تضخماً نقدياً جامحاً . فقد تكاثر تداول الاوراق النقدية والدين العام بأربعة أمثال بالنسبة إلى ما قبل الحرب . ونصت موازنة ١٩٤٥ على ٣٩٠ مليار فرنك للنفقات ، منها ١٧٥ مليار اعتمادات عسكرية ، بينما كانت الواردات ١٧٦ مليار وهذا يعني أن العجز كان ٥٥ ٪ .

وتجابهت في الحكومة نظريتان : كان بيير مانديس - فرانس ، وزير الاقتصاد القومي ، يفضل الجراحة وأراد أن يضرب الحديد وهو حام ؛ واقترح رونيه بليفن ، وزير المالية ، دواء أخف ، علاجاً أكثر تقدمية : وحكم دوغول لصالح الطبيب ، وفي ٥ نيسان ١٩٤٥ سجلت استقالة مانديس - فرانس منعطفاً هاماً .

وجرى تبديل الاوراق النقدية من ٤ إلى ١٥ حزيران وقننت رقابة الاسعار في ٣٠ من الشهر نفسه ؛ وفرضت ضريبة التضامن القومي ، الاقتطاع على الثروة ، في شهر آب . وشيئاً فشيئاً أعطى الفرنك علامات النهوض ولم تعد صناديق الخزانة فارغة ، وخرجت الاموال العامة بعد أن توقف نشاطها ، واستعاد الاقتصاد حياته .

الاصلاحات . — وفي الوقت نفسه طبقت الحكومة الموقتة ، بدافع من عناصر اليسار ، التي كانت تسيطر فيها ، أهم اصلاحات بنيوية عرفتها فرنسا وكانت أهم بكثير من اصلاحات الجبهة الشعبية في العام ١٩٣٦ .

وطوراً وطوراً ، وفي أقل من عام ، قررت براءات تأميم الفحم والغاز وبنك فرنسا ومؤسسات التسليف الكبرى ، ومعامل رينو ، التي أصبحت حصراً قومياً ، والطيران التجاري ، الذي ولد الطيران الفرنسي . وأوجدت قرارات أخرى مكتب البترول ، ومفوضية الطاقة الذرية ، ومفوضية التخطيط العليا ، والخزانة المركزية لفرنسا ما وراء البحار ، والمدرسة القومية للادارة . ونظمت من جديد التأمينات الاجتماعية ، وامتدت على جميع المأجورين ، وأعيد تنظيم التعويضات العائلية ووسعت . وأنشئت لجان المشاريع . وكل هذا يشبه ثورة تعطي للدولة سماء جديدة تماماً وتحول اقتصادها .

التطهير . – ولكن الاضطراب جاء أيضاً من الظروف التي وجد فيها تطهير العناصر التي كانت ضالعة مع المحتل . وقد ذكر الجنرال دوغول في « مذكرات الحرب » الارقام الرسمية : ١٠٨٤٢ ميتاً ، منهم ٦٦٧٥ قتلوا قبل التحرير ، واعدم الباقون بعده . ومنهم ٧٧٩ بنتيجة أحكام صادرة عن محاكم عدلية خاصة أنشئت في ١٣ ايلول ١٩٤٤ . وهذه المحاكم نفسها ، حسب « المذكرات »، حكمت على ٣٩٠٠٠ شخصاً بعقوبة الاعتقال ، بينما حكمت محكمة العدل العليا ، التي بدأت في آذار ١٩٤٥ ، على رجال حكومة فيشي ، وبخاصة بيتان ولافال ووزرائها وأعوانها .

وقد نوقشت هذه الارقام بشدة ، وذهبت التقديرات ، حسب المصادر ، من الضعف إلى العشرة أمثال في كل ما يتعلق بتنفيذ الأحكام بالاعدام الشرعية أو غير الشرعية ، مع الاخذ بعين الاعتبار تسوية الحسابات والاحكام العاجلة التي تلاحقت خلال شهور أيضاً ، حتى الاستسلام الالماني .

ويجب أن نذكر هنا ، مع اعتبار كل شيء ، أن حرب ١٩٣٩ – ١٩٤٥ كلفت فرنسا نحو ٧٥٠٠٠٠ ميتاً ، قتل ثلثاهم في الكفاح ، والباقون سقطوا اما تحت القنابل ، أو فتك بهم المحتلون ، واما أيضاً أسرى أو منفيين عرقيين ، أو سياسيين ، أو ماتوا من العمل في الأسر ، واما ضحايا التطهير .

المكانة . – ومعنى الحكم أيضاً أن تعاد إلى فرنسا مكانتها . فقد عارض دوغول منذ أربعة أعوام الحلفاء البريطانيين والاميركيين ، بحساسية يقظة دوماً ، وبتصلب متشدد وبكبرياء كاسرة ، ومع انه كان خالي اليدين ولا يمثل في النضال في سبيل الحياة ، الذي يقدمه تشرشل وروزفلت ، إلا بيدقاً على رقعة الشطرنج . فمنذ أن استقر في باريس ، وقبض على زمام

البلاد بيده ، وقبلت سلطته المطلقة ، غير القابلة للنقاش ، ما فتىء يضع فرنسا في الصف الاول بين « الكبار » . وان اعتراف لندن وواشنطون بحكومته سيأتي بنتيجة وقائع لا بنتيجة أعمال دبلوماسية .

وما كاد يأخذ مكانه ، إلا وسمى السفراء ، واستقبل الدبلوماسيين المعتمدين لديه ، واستقبل تشرشل وايدن في باريس ، وبضربة بوكر فائقة للعادة ، أبرم مع ستالين الميثاق الفرنسي – السوفياتي، في ١٠ كانون الاول ١٩٤٤ ، كمرحلة أساسية للصعود . ومع هذا فان الحلفاء الثلاثة لم يدعوه إلى مؤتمر يالطا ، ولذا رفض بشدة ، في ١٣ شباط ١٩٤٥ ، الذهاب إلى الجزائر للقاء الرئيس روزفلت على طريق العودة .

غير ان الجرأة والعزم بل والزهو لها ثمنها عندما يراد استسلام العدو واقتسام مناطق الاحتلال وإدارة المانيا المغلوبة ، وأخيراً الوصول إلى مجلس أمن الأمم المتحدة بين الخمسة الكبار . وفي واشنطون ، حيث التقى دوغول بالرئيس ترومان في نيسان ١٩٤٥، وفي بروكسيل، حيث ذكر لأول مرة في تشرين الاول ضرورة وحدة اوربة ، كان يكرر نفس العبارة : عظمة فرنسا واستقلالها .

الامبراطورية . — وبصورة موازية ، تشكلت الامبراطورية الاستعمارية الفرنسية وتجمعت بشكل جزئي حول فرنسا الحرة والحكومة المؤقتة في الجزائر . وكان سلطان مراكش في باريس لحضور احتفالات ١٨ حزيران ، وباي تونس لحضور استعراض ١٤ تموز ، وأعلن زعماء افريقية السوداء ولاءهم .

ولا يوجد في هذه اللقطات الجديدة إلا نقطتان خاطئتان : أولاً مذابح سيتيف ، في يوم النصر نفسه ، في ٨ أيار ١٩٤٥ ، وتدابير القمع الصارمة التي حملت في أصلها يقظة القومية الجزائرية وحرب الثائرة

أعوام التي نشبت في ١٨٥٤ . ومن ثم ، وبخاصة ، حرب الاسترداد القاسية في الهند الصينية في خريف ١٩٤٥ ، التي أثيرت على اليابانيين المغلوبين ، والصينيين الوطنيين الذين كانوا على رأس السلطة في بيكين ، والحلفاء الاميركيين الذين قرروا انهاء العصر الاستعماري : وهنا أيضاً انعقد القدر التاريخي فأدى إلى ثمانية أعوام حرب بعيدة .

السياسة . — وأخيراً ، السياسة التي لم تفقد أبداً حقوقها لا في لندن ، ولا في الجزائر ، حتى ولا في المقاومة الداخلية . ومنذ التحرير ، ظهرت من جديد في وضح النهار .

حدث أول صدام بين الفرنسيين الاحرار الذين أتوا من لندن والجزائر ومقاومي الداخل المتجمعين حول **مجلس المقاومة القومي** (C.N.R) الذي يرأسه جورج بيدو . إن الاحزاب التي تشكلت من جديد في السر مثلت في مجلس المقاومة القومي ، وأخذت مقاعدها في المجلس الاستشاري في الجزائر وكان لها بضعة رجال في الحكومة الموقتة . ولكن ، منذ اللحظة الاولى ، حدث التصدع في هذه الدرجات المختلفة : فقد اعتبر اليمين ضالعاً مع المحتل وفيشي ، وسحق ، وكان **الوسط** غائباً ، وأراد الناس كلهم أن يكونوا في **اليسار** . وكان السياسيون يرون الذهاب ، كما أعلنت الخطوط العريضة لأكثر الجرائد حماسة الصادرة في السر ، مثل جريدة « كفاح » لـ آلبير كامو ، وآلبير اوليفيه ، وباسكال بيا ، وديون آدون ، « من المقاومة إلى الثورة » . وكان أكثر الدوغوليين ، أنفسهم ، لا يفكرون ، على مثال زعيمهم ، إلا باعادة استتباب النظام ، وبتوطيد السلطة الجديدة .

وفي البلاد ، أحيا الشيوعيون ائتلافاً قوياً ، **الجبهة الوطنية** ، وأثقلوا ،

مع الجنود الفارين والانصار (F . T . P.)، على الحوادث، وأملوا في الغالب قانونهم. فقد سموا بلديات ، وسيطروا عليها ، وحكموا على لجان التحرير في المقاطعات وعلى مجلس المقاومة القومي نفسه . وكانت المليشا الوطنية الذراع المسلحة لهذه السلطة الواقعية الجديدة .

وانتظر دوغول ساعته ، وفي ٢٨ تشرين الاول ١٩٤٤ ضرب ضربته : بحل الميليشات الوطنية ، وتسليم الاسلحة ، والتسريح المدني والتجنيد العسكري للحرب المستمرة . وسجل الموجهون الشيوعيون لحظة تردد ، ثم انحنوا وشجعوا جيوشهم على استئناف العمل والكفاح ، ووقف الثورة ، ولزم شهران ، مع ذلك ، حتى سمعت تحريضاتهم وأوامر الحكومة الموقتة . ثم تألف مجلس استشاري جديد أوسع وأكثر سياسة وأخذ مكانه في ١٢ تشرين الاول ١٩٤٤ وانعقد لأول مرة برئاسة دوغول في ٩ تشرين الثاني . وشخص اليه أكثر من ثلاثين مرة خلال الأشهر الستة التالية ليوضح سياسته ويدعو الى الاتحاد والجهد .

الدستور . — واقتصر النزاع شيئاً فشيئاً على النقاش في الدستور ودام هذا النقاش قرابة عامين . وفي الحقيقة إن دستور ١٨٧٥ ، دستور الجمهورية الثالثة ، لم يعد له إلا قليل من الانصار . وكان دوغول جزعاً إلى مشاورة البلاد ، والسير باعداد الدستور الجديد ، والجمهورية الجديدة . هذا ولما كان الشيوعيون والانصار وضعوا يدهم على السلطات المحلية ، فمن هنا يجب البدء . وجرت الانتخابات البلدية ، أول استشارة حرة للبلاد منذ ستة أعوام ، في ٢٩ نيسان و ١٣ أيار ١٩٤٥ ، قبل عودة الاسرى والمبعدين ، وستتبع ، في ٢٣ و ٣٠ ايلول ، بانتخابات في المناطق عند عودة السلام واستعادت الاحزاب أماكنها ، وانطلقت العجلة السياسية .

وفي ٢١ تشرين الاول ، جرت الانتخابات التشريعية والاستفتاء الحاسم . وقد سبقها كثير من الجدل اشترك فيه ليون بلوم ، وقد عاد من المنفى ، وموريس توريز ، بعد أن رجع من الاتحاد السوفياتي ، وادوار هريو ، بعد أن حرره المحتل . واسهم هؤلاء الثلاثة ، في كل منصات المؤتمرات وفي جرائدهم ، بنصيب نشيط . ورأى بلوم الزعيم الاشتراكي القديم ، الذي اطرح دستور ١٨٧٥ ، أن الاستفتاء مناسب ، ولكن المجلس الذي سينتخب يجب أن يقبض في آن واحد على السلطات الدستورية والتشريعية . وأراد توريز الزعيم الشيوعي ، هو أيضاً ، أن يلغي قواعـــد الماضي ، ولكنه رأى أن الاستشارة المذكورة مضادة للديموقراطية . أما الرئيس القديم لمجلس النواب ، هريو ، فيرى أن الجمهورية الثالثة مازالت مستمرة ويجب أن تستمر بكامل حقها . وبعد مشاورات طويلة فصل دوغول في الامر . وكان على البلاد أن تقول ما إذا أرادت العودة إلى دستور الجمهورية الثالثة : فأجابت « لا » بنسبة ٩٦٪ من الاصوات وكان المجلس الذي انتخبته ، في الوقت نفسه ، مجلساً تأسيسياً ، ولم يمارس كاملاً السلطة التشريعيـة ، ولذا فان مشروع الدستور يجب أن يعرض من جديد على البلاد .

كان المجلس يضم ١٥٩ شيوعياً ومن حالفهم ، و ١٤٦ اشتراكياً ، و ١٥٠ من الحركة الجمهورية الشعبية ، ووسطاً ضعيفاً بـ ٤٢ من الاتحاد الديموقراطي والاشتراكي للمقاومة ، ومن ٢٩ راديكالياً أو منـــاصراً للراديكاليين ، ويميناً معتدلاً اقتصر على ٥٣ منتخباً . ولأول مرة ، وحتى الآن لآخر مرة في التـاريخ الانتخـابي الفرنسي ، كان للشيوعيين والاشتراكيين الاكثرية المطلقة في التصويت في البلاد وفي المجلس . وانعقد

وكان كل ارتفاع للأسعار ، — هذه الاسعار التي تضاعفت في ثمانية عشر شهراً ، بينما الاجور الحقيقية تناقصت — يمد الاضرابات بجذوة جديدة . وفي تشرين الاول ١٩٤٨ أخلى الجيش مناجم الشمال وبا - دو - كاليه ، حيث أدت اضرابات « السنة الفظيعة » إلى ضياع ٦ ملايين طون من الفحم ، وحيث كلفت اعادة الاجهزة إلى حالتها الاولى ٨ مليارات فرنك .

تهديم أو غزو . — ووجد ما هو أخطر من ذلك : ان المسؤولين السياسيين ، وزراء روبير شومان ، وآندريه ساري ، وهنري كوي ، الذين توالوا على السلطة أثناء هذا الدور الدرامي الذي رأى من « ضربة براغ » إلى حصار برلين ، نشوء الحرب الباردة ، كانوا جميعهم مقتنعين بأن الشيوعيين يحاولون قلب النظام وأخذ السلطة في فرنسا منتظرين بأن يجتاح السوفياتيون اوربة الغربية . وستظل آثار الجروح المفتوحة ، أثناء أشهر الأزمة الخارجية والداخلية ، مرئية الى عشرين عاماً . ومن إرادة مقاومة تهديم الشيوعيين وغزوهم نشأت خطة مارشل في مساعدة اوربة ، ولكن سرعان ما كشف بعضهم عنها بأنها أداة عبودية ؛ وميثاق الاطلسي الذي أبرم لعشرين عاماً في ١٩٤٩ ، ودستور الجمهورية الاتحادية الالمانية ، وإعادة تسلحها ، وبدايات الوحدة الأوروبية ... وفي الداخل ، انفجرت الحركة العمالية الموحدة من جديد ، وولد الانقسام ، في كانون الاول ١٩٤٧ ، قوة عمالية من وحي اشتراكي بينما ظل الاتحاد العام للعمل في أيدي الشيوعيين .

وفي أثناء ذلك نما تجمع الشعب الفرنسي الذي أسسه الجنرال دوغول ، وأعلن عن مليون مشترك ، (ولم يكن في الواقع أكثر من ٤١٠٠٠٠) ، وقام بمعارك منظمة ضد جيوش الصدام الشيوعية . وعدد زعيمه المظاهرات ، وبشكل لا يكل ولا يمل أخذ يهاجم ويفضح ويزدري

نهائياً على تأميم الغاز والكهرباء ، ثم على تأميم التأمينات ، والفحم ، والتسليف . أما التقنين الاعاشي ، الذي أبقي عليه ، ولزم معه في آخر كانون الاول ١٩٤٥ إعادة فرض بطاقة الخبز التي حذفت من قبل ، فقد كان موضع نقاش عنيف . وفي وسط هذا القلق والتضخم النقدي القافز ، والعوز المستحكم ، كانت الأعمال الدستورية تثير المناقشات الحارة .

الاخفاق الأول . – وصوت المجلس ، بعد مناقشات صاخبة على القانون الانتخابي ، اقتراع القائمة في المحافظة (المقاطعة) ذي النسبة مع توزيع البواقي ، وهو نظام يفيد بصورة عظيمة الاحزاب الكبرى . ثم هاجم دراسة مشروع دستور مهيأ من قبل لجنته التي كان مقررها ف . **دومانتون** ، وهو من الحركة الجمهورية الشعبية . وبعد قليل تمت القطيعة بين الاحزاب الثلاثة المتشاركة ، الشيوعي والاشتراكي والحركة الجمهورية الشعبية . واستقال فرنسوا دومانتون وخلفه التقدمي نصير الشيوعيين **بيير كوت** . وتدخل فيليكس غوين ، وفنسان اوريول عبثاً . وهذا المشروع ، الذي سيعرض على البلاد ، يعطي السيادة للمجلس الوطني ، الذي ينتخب وحده رئيس الجمهورية ويقلد رئيس مجلس الوزراء منصبه ، ويوافق على تشكيل الحكومة ، ويراقب بشكل وثيق سياستها ، ويشرع دون أن يخول هذا الحق أو أن يتنازل عنه ، ويسيطر على السلطة القضائية ، وباختصار يحكم دون تقسيم .

وفي ٥ أيار جرى الاستفتاء . وقام الشيوعيون ورفاقهم على الدرب والقطاع الفرنسي من الدولة العمالية (الحزب الاشتراكي) بحملة من أجل « نعم » . وأوصت الحركة الجمهورية الشعبية والاتحاد الديموقراطي والاشتراكي للمقاومة ، والراديكاليون ، والدغوليون والمعتدلون بـ « لا »

وتغلب هذا الجواب بـ ٥٣ ٪ على ٤٧ ٪ « نعم » . ولذا يجب إعادة كل شيء . ولم يكن للدولة اجهزة ، بينما كانت بواكير حرب الهند الصينية تثير القلق أكثر من الاتفاق الفرنسي — الاميركي في ٢٨ أيار ، الذي تفاوض به ليون بلوم معأمين دولة الولايات المتحدة بوونز ، وكان موضع نقاش كثير .

وهذا الاتفاق الذي يقضي بتصفية الديون وديون الحرب ، وفتح اعتماد جديد الى فرنسا بواسطة بنك الاستيراد والتصدير ، ويسمح من جهة أخرى للانتاج السينمائي الاميركي باجتياح الشاشات الفرنسية قد صودق عليه ، مع ذلك ، في الاول من شهر آب .

وفي ٢ حزيران ، كرس انتخاب المجلس التأسيسي الثاني فوز الحركة الجمهورية الشعبية التي حصلت على ٢٨،١٪ من الاصوات و ١٦٦ مقعداً . واحتفظ الشيوعيون بنسبة ٢٦،٢٪ و ١٥٣ نائبـــاً . وتراجع الحزب الاشتراكي ، فقد حصل على ٢١،١٪ و ١٢٨ مقعداً . وتضاءل الاتحاد الديموقراطي والاشتراكي المقاومة والوسط ، وتقدم المعتدلون قليلا . وفي الجزائر بدأت نتائج مذابح سيتيف تظهر بانتخاب ١١ نائباً قومياً يوجههم فرحات عباس .

عهد بالحكومة الى جورج بيدو ، وكان حزبه ، الحركة الجمهورية الشعبية ، وهي التشكيل الوحيد ، من بين التشكيلات الكبرى ، الذي حمل على مشروع الدستور ، في نقطة الأوج . ثم قطع دوغول صمته الذي راعاه حتى الآن . وفي خطاب مدو ، ألقاه في ١٦ حزيران في باتو ، عرض مطولاً نظرياته الدستورية التي ظلت تقريباً دون تغيير حتى ١٩٥٨ ، عندما وضعت موضع التنفيذ بشكل واسع .

الأزمات . كان التموين يجري بشكل سيء ، وكانت المالية

والاقتصاد في عز الأزمة . وكان صاحبا هاتين الحقيبتين يتغيران في كل شغور وزاري . وضاعفت الأزمة الاجتماعية الأزمة السياسية وأدت الى زيادة الاجور بنسبة ١٨٪ وسطياً ، وإلى دفع تضخم نقدي جديد . وبعد أن تأخر المجلس في معركة طعون طويلة ، واتهم بخاصة الزعيمين القديمين في الجمهورية الثالثة ، بول رينو و ادوار دالاديه ، وثبتت صحة انتخابها أخيراً ، استأنف عمله الدستوري . وبينما كان مقدم المسرح مشغولاً بمؤتمري فونتينبلو ودالات بشأن الهند الصينية ، وبالجدل في التموين والعوز ، وبالمؤتمرات السياسية ، وبحركات الموظفين الاجتماعية ومناقشات الموازنة انتهت المناقشات الدستورية إلى نص يشهد بالتنازلات التي قام بها الحزب الشيوعي والحزب الاشتراكي والحركة الجمهورية الشعبية . وبموجبه يستعيد رئيس الجمهورية ، الذي ينتخب بالاقتراع السري من قبـــل المجلسين ، قليلاً من الأهمية ، ويمارس المجلس كامل السلطة التشريعية . كما أعيد توطيد نظام المجلسين مع مجلس الجمهورية ، وازداد دور الحكومة . وكان ذلك تسوية بين حكومة المجلس والسلطة التنفيذية القوية .

واطرح دوغول دستور ١٩٤٦ كما فعل مع الاول . ودعا في ابينال ، في ٣٠ ايلول ، إلى التصويت بـ « لا » . وبالمقابل ، في هـذه المرة ، نصحت الحركة الشعبية بـ « نعم » ، مـع الشيوعيين والاشتراكيين الذين وضعوا على رأسهم ، في آخر آب ، أميناً عاماً جديداً ، غي موليه . وكانت أولى « فضائح » النظام ، قضية الخمور ، التي كشف عنها ايف فادج ، وتجارة المنسوجات ، وقد استرعت القضيتان انتباه الجمهور أكثر من حملة الاستفتاء . وفي ١٣ تشرين الاول صودق على الدستور بأقلية هبـة وإحسان : ٨ ملايين امتناع ، ٩ ملايين « نعم » ، ٨ ملايين « لا » . وولدت الجمهورية الرابعة

الحياة الصعبة للجمهورية الرابعة (١٩٤٧ — ١٩٥٤)

ان كل وجود هذا النظام ، الذي أقر عند بداية الحرب الباردة، ثم حدوث مجابهة الكتلتين في كوريا ، سيكون صعباً ومهدداً . فقد كان عليه أن يناضل تباعاً وأحياناً تواجداً ضد تهديد الشيوعية بالتهديم وضد مخاطرة الاستيلاء وتولي الغولية السلطة . ومن ثم كان على هذه الجمهورية أن تواجه البوجادية (من بوجاد) والدفع الماندیسي (من مانديس فرانس) ، وان تخشى تهديد القيام بحركة عسكرية ، وأخيراً أن تتحمل موجة المد النشيط الذي تقوم به الاحزاب وستتغلب أخيراً . وكان عليها أن تأخذ على عاتقها التعمير ، وأن توجه تعمير الطاقة الصناعية واقتصاد البلاد ، والقيام بارجاع كل شيء إلى النظام وإلى حاله في جميع الميادين وتهدئة الخواطر . وفي الوقت نفسه ، وجدت في نزاع ، فيما وراء البحار ، مع قضايا الخلاص من الاستعمار وستقوم بحربين موقوتتين ، في الهند الصينية أولاً ، ومن بعد في الجزائر ، وبالأعمال الدامية للحفاظ على النظام في مدغسكر ، حيث قضي على تمرد ١٩٤٧ بفظاعة لا تصدق ، وفي افريقية الشمالية ، حيث تهيأ المأساة . ومع هذا فالتاريخ مدين بالخطوات الأولى نحو الاتحاد الاوربي إلى هذه الجمهورية الرابعة الضعيفة جداً والمهددة جداً ، والمنقسمة جداً .

لقد جرى وضع النظم الجديدة الفرنسية موضع التنفيذ في اللامبالاة : وانتخب المجلس في ١٠ تشرين الثاني ، وكان يضم ١٨٢ شيوعياً و ١٠٢ اشتراكي ، و ١٧٣ جمهورياً شعبياً ، و ٦٩ راديكالياً ومن الاتحاد الديموقراطي والاشتراكي للمقاومة ، و ٦٧ منتخباً من اليمين ، من حزب الحرية الجمهوري والجمهوريين المستقلين . ورفع إلى رئاسته الاشتراكي ، فانسان

اوريول ، ولم يشغل هذا كرسيه إلا ستة أشهر ، لأنه أصبح ، في ١٦ كانون الثاني ١٩٤٧ ، أول رئيس للجمهورية الجديدة وترك مكانه عندئذ في قصر بوربون (المجلس النيابي) إلى رئيس مجلس الجمهورية الثالثة ، ادوار هريو .

طرد الشيوعيين . — وبعد محاولات غير مثمرة قام بها الزعيم الشيوعي موريس توريز ، ثم جورج بيدو ، الف ليون باوم ، في ٦ كانون الاول ، لمدة شهر ، مع أصدقائه الوحيدين الاشتراكيين ، حكومة انتقالية متجانسة سلكت سياسة تخفيض استبدادي ورمزي للاسعار بمعدل ٥ ٪ . وكان الرئيس الاول ، الذي دل عليه رئيس الدولة منذ انتخابه ، **بول رامادييه** ، وتوصل هذا بمشقة ، في آخر كانون الثاني ، إلى تأليف جهاز حكومي مع شيوعي واحد ، **فرنسوا بييّو** ، للدفاع الوطني ، وممثلين لجميع الأسر السياسية حول الكتيبتين الضخمتين اللتين جهزهما الحزب الشيوعي والقطاع الفرنسي للدولية العمالية (الحزب الاشتراكي) .

وكان هذا التشكيل اتحاداً قومياً تقريباً . وسيدوم ثلاثة أشهر ، أي بالضبط الوقت الذي انفجرت فيه الحرب في الهند الصينية في الواقع في ١٩ كانون الاول السابق ، وتم فيه ما لا يمكن علاجه وآخر حظ للسلام المبعد ؛ وحدثت فيه اضطرابات جدية في مراكش ، وثورات دامية في مدغسكر ، وكرس في مؤتمر موسكو ، في ٢٤ نيسان ، محضر القطيعة بين الشرق والغرب ؛ وفي فرنسا بلغ التضخم النقدي كل الارقام القياسية ، بينما انهار الانتاج ؛ وإذا أخذنا بالاستعلامات العسكرية ، كانت الحكومة تتوقع في كل لحظة ضربة قوة شيوعية ؛ وأخيراً في برونيفال في ٣٠ آذار ، ثم في ستراسبورغ في ٧ نيسان ، ومن جديد في تصريح

١٤ نيسان ومؤتمر صحفي ، في ٢٤ منه ، أعلن دوغول تأسيس « تجمع الشعب الفرنسي » .

وفي كل مناسبة وجد توتر ومناقشات وحتى منازعات بين المشتركين في السلطة . واتخذ بول راماديه قراراً حذف بموجبه الشيوعيين من حكومته . وسيسهل هؤلاء له العمل بالتصويت ، في ٤ أيار ١٩٤٧ ، ويدخل في ذلك وزراؤهم ، ضد الحكومة التي كانوا ممثلين فيها ، والتي حصلت مع ذلك على ثقة المجلس بـ (٣٦٠) صوتاً مقابل ١٨٦ . وفي اليوم التالي ، صدر قرار صغير في « الجريدة الرسمية » بالوظائف الوزارية التي يحتلها موريس توريز واصدقاؤه . وعاشت الثلاثية الحزبية . وتحرر النظام تباعاً من الجنرال دوغول ومن الشيوعيين ، وبقي عليه أن يحكم وأن يحكم ضدهم .

القوة الثالثة . — وسيكون هذا الحكم عمل ائتلاف يضم ، تواجداً أو توالياً ، كل من يؤلفون ما سمي « القوة الثالثة » ، من الاشتراكيين إلى اليمين الحر مروراً (بالحركة الجمهورية الشعبية) ، والوسط الراديكالي ، وكان المراد منها مسلمة واقع ، لا قوة حقيقية متجانسة ومتحركة . وبالحال كان يجب مجابهة مشاريع المعسكرين الآخرين . فمنذ حزيران شعر بتصاعد مدّ الاضرابات في البلاد ، وشهد الصيف القطيعة النهائية بين الغرب والشرق التي تجسمت باطلاق مشروع مارشل من جهة ، واعادة تأسيس الكومنفورم من جهة أخرى . ومنذ تموز بدأ دوغول يجوب فرنسا ويتخذ بين خطاب وآخر ومن مدينة لمدينة ، نغمة قاسية وكفاحية بالقاء التبعة على الشيوعيين ، الذين أطلق عليهم اسم « الانفصاليين » وعلى النظام اسم « المذهب » .

وفي الخريف كانت المعركة على جبهتين . وفي الانتخابات البلدية ، في تشرين الاول ، اهتزت أكثرية القوة الثالثة تحت ضربات تجمع الشعب

الفرنسي ، وحاولت الحكومة عبثاً أن تضع السد أمام موجة الاضرابات ، التي طغت ، في الواقع ، حتى آخر ١٩٤٨ . وتفتت ائتلاف السلطة بعد أن اهترأ ، حتى ان زعيمه نفسه امحى في ١٩ تشرين الثاني عندما أعلن غي موليه أنه وجد خلفاً لبول راماديه في شخص ليون بلوم الذي نقصته ٩ أصوات ليصل إلى مقاليد الحكم .

أحد عشر رئيساً لمجلس الوزراء . – ومن ١٩٤٧ إلى ١٩٥١ ، من حكومة ليون بلوم الموقتة إلى الانتخابات التشريعية التي أنهت الدور التشريعي الاول للجمهورية الرابعة بعد ما لا يقل عن احد عشر تقليداً لرؤساء مجلس الوزراء و ٩ حكومات . وحسب الترتيب الزمني : اشتراكي ، بول راماديه ، ظل في مكانه عشرة أشهر (من ٢٢ كانون الثاني إلى ١٩ تشرين الثاني ١٩٤٧) ؛ ورئيس من الحركة الجمهورية الشعبية، **روبير شومان** ، دام ثمانية أشهر (٢٤ تشرين الثاني ١٩٤٧ – ١٩ تموز ١٩٤٨) ؛ ورئيس راديكالي ، **آندريه ماري** ، ولم يتمم الصيف (من ٢٦ تموز – ٢٨ آب) . ومن جديد روبير شومان الذي قلد الوزارة ولم يبق إلا يومين (من ٥ – ٧ ايلول) ؛ ثم الدكتور **كوي** ، الراديكالي الذي ضرب الرقم القياسي لجميع فئات العصر بما يقارب ثلاثة عشر شهراً (١١ ايلول ١٩٤٨ – ٦ تشرين الاول ١٩٤٩ ؛ ثم قلد رئيسان ، **جول موك** ، الاشتراكي ، **وونيه مايو** ، الراديكالي ، ولكنهما لم يستطيعا تشكيل حكومتها ، وترك أمر حل عقدة الازمة إلى جمهوري شعبي ، **جورج بيدو** ، وماركته مشرقة : ثمانية أشهر (٢٨ تشرين الاول ١٩٤٩ – ٢٤ حزيران ١٩٥٠) والمرة الثانية هنري كوي الذي لم يبق في هذه المرة إلا يوماً واحداً (٣ – ٤ تموز) ؛ **ورونيه بليفين** ، وهو رجل من الوسط بقي في الرئاسة ستة أشهر ونيف

(١٣ تموز ١٩٥٠ إلى ٢٨ شباط ١٩٥١) ؛ وأخيراً ، للمرة الثالثة ، هنري كوي ، الذي قام بالانتخابات بعد أربعة أشهر فقط من وجوده في الوزارة (١٠ آذار - ١١ تموز ١٩٥١) .

وإذا تركنا تقليدين دون نتيجة وهما تقليدا جول موك وروبيه ماير والوزارات الموقتة لكوي وشومان طبعة ثانيـة فان اشتراكياً واحداً ، بول رامادييه ، وجمهوريين شعبيين ، روبير شومان وجورج بيدو ، وثلاثة راديكاليين أو رجال الوسط ، آندريه ماري ، هنري كوي ، رونيه بليفين ، هم الذين حكموا خلال هذه السنوات الاربع والنصف . وهذا يعني ، حسب قول مؤرخة الجمهورية الرابعـــة ، جوورجيت الجيه ، « جمهورية ماندارن » (موظفين) .

كان رؤساء الوزراء في هـذه الفترة تحت رحمة أجهزة الاحزاب ، ويخضعون لمزايدات لا تنقطع من قبل أصدقائهم السياسيين الخاصين ، ويقلبون غالباً على يدهم ، وتزعجهم مطاليب كتل الضغط من مقطرين ، والحامين ، ومدافعين عن المدارس العلمانية أو أنصار اعانة التعليم الخاص ، ونقابات أصحاب العمل ، والعمال الصناعيين أو العمال الزراعيين ، وحتى أحيـاناً « الكواليس » الاجنبية ، ولم يكن رؤساء مجالس الوزراء إلا منفذين لسياسة مهيئة خارجاً عنهم ، ووضعوا أنفسهم ، خلال بعض الوقت ، في المحل الهندمي لتناقضات ائتلاف أكثرية غير متحد ، وغالباً دون مذهب بل ينشأ فقط عن وجود نظريتين متطرفتين « غولية وشيوعية » . وفي الحقيقة كان الوزراء يتغيرون أقل من زعماء صفهم : وهكذا ، في خمسة أعوام ، توالى على وزارة الخارجية (كيه دورسيه) الفرنسية رجلان فقط ، روبير شومان وجورج بيدو ، بينما ظل دانيل ماير ثلاثة أعوام في وزارة العمل ، وجول موك عامين في وزارة الداخلية .

ولا توضع القضايا ، وعندما تفرض ، تسمح الازمة بالتفاوض بحل مبهم ونصف - ملون حتى تصطدم الحكومة ، ثمرة التسوية ، بالعقبة التالية وتنهار بدورها .

السنة الفظيعة . - وكانت سنة ١٩٤٧ - ١٩٤٨ ، بالنسبة إلى مؤرخ آخر لهذا النظام الذي يلفت الانتباه ، وهو جاك فوفيه ، « السنة الفظيعة » ودامت في الواقع ثمانية عشر شهراً ، من ٤ حزيران ١٩٤٧ إلى ٢٩ تشرين الثاني ١٩٤٨ . وقد توالت في هذا الدور ، منذ أول اضراب كبير إلى نهاية الاخير ، المظاهرات ، والصدامات ، وحتى العنف دون انقطاع تقريباً ، وهدأت فقط في الصيف دون أن تقف حقاً لتستأنف في الخريف .

وفي شهرين من آخر ١٩٤٧ ، ضاع ٢٣ مليون يوم عمل نتيجة للاضرابات مقابل أقل من ٤٠٠٠٠٠ لكل سنة ١٩٤٦ . وأكثر من ١٠٠٠ توقيف ، وفيها أكثر من ١٠٠ بسبب اعمال الاحباط والتخريب. ووقعت مشادات في مارسيليا هاجم فيها الجمهور قصر العدل والقصر البلدي واعمل فيها الدمار ، وسقط قتلى ، وكذا الأمر في فالانس . وتسببت حيدة (جنوح) قطار باريس - ليل بـ ١٦ ضحية : كما وقعت أحداث مماثلة في طرق أخرى في الاين والرون والسوم ، ولحسن الحظ لم يقع جرحى .

وفي كل مكان ظهرت الاسلحة التي كانت مخبأة للتحرير . وتوصل وزير الداخلية ، جول موك ، إلى أن طلب التصويت ، بعد معركة ماراتون برلمانية دامت دون انقطاع من ٢٩ تشرين الثاني الى ٢ كانون الاول وانتهت بحوادث غاية في العنف - من اخلاء قاعة المجلس بالقوة وملاكمة ومشاجرة ، بينما أحاطت الجنود بقصر بوربون - ، وصدرت القوانين المسماة « قوانين الدفاع الجمهوري » التي سماها الشيوعيون « القوانين الآثمة » .

وكان كل ارتفاع للأسعار ، - هذه الاسعار التي تضاعفت في ثمانية عشر شهراً ، بينما الاجور الحقيقية تناقصت - يمد الاضرابات بجذوة جديدة . وفي تشرين الاول ١٩٤٨ أخلى الجيش مناجم الشمال وبا - دو - كاليه ، حيث أدت اضرابات « السنة الفظيعة » إلى ضياع ٦ ملايين طون من الفحم ، وحيث كلفت اعادة الاجهزة إلى حالتها الاولى ٨ مليارات فرنك .

تهديم أو غزو . - ووجد ما هو أخطر من ذلك : ان المسؤولين السياسيين ، وزراء روبير شومان ، وآندريه ساري ، وهنري كوي ، الذين توالوا على السلطة أثناء هذا الدور الدرامي الذي رأى من « ضربة براغ » إلى حصار برلين ، نشوء الحرب الباردة ، كانوا جميعهم مقتنعين بأن الشيوعيين يحاولون قلب النظام وأخذ السلطة في فرنسا منتظرين بأن يجتاح السوفياتيون اوربة الغربية . وستظل آثار الجروح المفتوحة ، أثناء أشهر الأزمة الخارجية والداخلية ، مرئية الى عشرين عاماً . ومن إرادة مقاومة تهديم الشيوعيين وغزوهم نشأت خطة مارشل في مساعدة اوربة ، ولكن سرعان ما كشف بعضهم عنها بأنها أداة عبودية ؛ وميثاق الاطلسي الذي أبرم لعشرين عاماً في ١٩٤٩ ، ودستور الجمهورية الاتحادية الالمانية ، وإعادة تسلحها ، وبدايات الوحدة الأوربية ... وفي الداخل ، انفجرت الحركة العمالية الموحدة من جديد ، وولد الانقسام ، في كانون الاول ١٩٤٧ ، قوة عمالية من وحي اشتراكي بينما ظل الاتحاد العام للعمل في أيدي الشيوعيين .

وفي أثناء ذلك نما تجمع الشعب الفرنسي الذي أسسه الجنرال دوغول ، وأعلن عن مليون مشترك ، (ولم يكن في الواقع أكثر من ٤١٠٠٠٠) وقام بمعارك منظمة ضد جيوش الصدام الشيوعية . وعدد زعيمه المظاهرات ، وبشكل لا يكل ولا يمل أخذ يهاجم ويفضح ويزدري

النظام ، ورجاله ، وطرقه ، وعجزه . ولكنا ، بعد الحساب الدقيق ، في خريف ١٩٤٩ ، عندما خلف جورج بيدو هنري كوي ، نجد أن « الانطواء المطاط » الذي طبق امام الدوغولية ، وسياسة القوة التي جوبه بها الشيوعيون قد أثرا .

الحرب و « القضية » . – ومع هذا فإن إرادة كسر اليسار المتطرف لم تظهر في فرنسا فحسب بل أيضاً في الهند الصينية ، حيث أوقفت محاولات جديدة للمفاوضات بوضوح ، وحيث وجدت فرنسا ، مع « حل الامبراطور باؤ – داي » ، في حرب سيكون الخروج منها حزيناً .

وفي الوقت الحاضر ، كلفت قضية مظلمة يوميات الشرطة السياسية والعسكرية ، وذهبت طوال السنة ١٩٤٩ من قفزات إلى تغييرات . وذلك ان تاجراً من مستوى منحط ، عميلاً سرياً ، يسمى **روجيه بيريه**، عرف كيف يصبح رجل ثقة ، وعلى الأقل وصيفاً لعدة جنرالات ، وكان رئيس أركان الجيش أحدهم . فقد أثار نشر تقرير سري من هذا الرئيس ، الجنرال **روفير** ، عن الوضع العسكري في الهند الصينية – الوضع الذي يتردى بشكل خطر – هذه القضية التي عرفت باسم « قضية الجنرالات » ، وخنقت الفضيحة ، واقلع العميل السري إلى البرازيل ، و « استدعي » رئيس الأركان العامة ولكن سوء الظن الذي تفجر على النظام واستغلال الفضائح الغريبة والمناورات السياسية أو البوليسية ، والصدى الذي أعطي إلى الاذاعات المضللة والمقلقة للجنة التحقيق البرلمانية التي كلفت بالتنوير في القضية ، وبكلمة بالكشف عن القذارات ، أفادت المعارضات وزادت في الخلاف بين الجيش والأمة .

واستمرت حرب الهند الصينية مع ذلك ، ولتقويم الوضع الذي جاء النزاع الكوري وجعله أكثر خطراً أيضاً ، سمت حكومة بليفين عام ١٩٥٠ الجنرال دولاتر دوتاسيني وخولته جميع السلطات المدنية والعسكرية . وبدأ الوضع يقوى لولا أن موت هذا القائد ، في ١٩٥٢ ، عجل بحل القضيـة .

وبالرغم من كل هذه التقلبات ، فان هذا النظام أطلق مشروعاً كبيراً وهو مشروع الاتحاد الاوربي . فبايحاء من حان مونيه ، اقترح روبير شومان تشكيل اسرة الفحم والفولاذ ، بين فرنسا والمانيـا واربعة بلاد أخرى مجاورة في الغرب الأوربي . ولكن قيل ان كل ما حاولته الجمهورية الرابعة عاد بعد قليل ضدها : فمن هذه الاسرة الاولى تم الانتقال إلى الحلف العسكري ، اسرة الدفاع الاوربية ، وقد سمم هـذا المشروع الثاني الحياة العامة القومية حتى أثقل وجود النظام .

التحالف الانتخابي . — ومع ذلك قرب الوعد: وهو ان النواب، الذين انتخبوا عام ١٩٤٦ ، قربوا من انتهاء مدة انتدابهم . وكان الموظفون (ماندارن) مأخوذين بين فكي كماشة بين الغوليين والشيوعيين ، فحاولوا مخرجاً وذلك أن هذه الاحزاب التي حكم عليها أن تعيش معـاً ، في السلطة ، أخذت تبحث عن واسطة للائتلاف أمام الناخبين .

لقد وجدوا عمليات المزج التي تساعد القوائم الكثيرة المتحالفة على أن تجمع أصواتها ، وإذا بلغت الاكثرية المطلقة ، أن تأخذ جميع مقـاعد مقاطعة من المقاطعات .

عندئذ ارتكب دوغول عـــدة أخطاء كلفته أن يبقى سبعة أعوام أخرى خارج القضايا العامة . فلم يدر في خلده ان يتوصل خصومه الى

التفاهم فيما بينهم ، وانتظر ، بالمقابل ، من الناخبين ان ينفروا منهم ويتحولوا عنهم . ولذا حرم على مرشحي تجمعه كل تواصل معهم ، وطرح بذلك المعتدلين نحو القطاع الفرنسي لدولية العمال (الحزب الاشتراكي والحركة الجمهورية الشعبية .

وأثناء الانتخابات ، في ١٧ حزيران ١٩٥١ ، عزل الشيوعيون ، ولكنهم احتفظوا بأكثر من ربع الاصوات ؛ وتوصل الدغوليون الى المرتبة الثانية بـ ٢١،٥٦٪ من الاصوات . وكان هذا النجاح بالنسبة الى هؤلاء وإلى الآخرين نجاحاً انتخابياً ، ولكنه هزيمة سياسية . لأن التمازج ، رغم انهيار الحركة الجمهورية الشعبية التي خسرت نصف جنودها ، والبقاء على المستوى الضعيف الذي وضع الراديكاليون والمعتدلون أنفسهم فيه ، والتراجع الجديد للحزب الاشتراكي ، أوجد نحو ٣٤٠ مقعداً لأجل القوة الثالثة التي حافظت على الاكثرية .

قانون « بارانجه » . — لقد أنقذت الجمهورية الرابعة ، ولكنها ستضيع . وللبدء ، وجدت قضية سيطرت قليلاً أو كثيراً على الحملة الانتخابية ، ولكنها ما لبثت أن سممت الجو وقسمت حلفاء الامس : وهي قضية مساعدة التعليم الخاص فقد اتحدت من جديد الحركة الجمهورية الشعبية وتجمع الشعب الفرنسي والمعتدلون للمطالبة بهذا العون . وبعد ان تشكلت الحكومة الاولى للهيئة التشريعية ، برئاسة رونيه بليفين ، وهو من رجال الوسط ، وقد قلد السلطة من قبل حلفاء ١٧ حزيران ، طلبت التصويت على اقتراح أعدّه منتخب جمهوري شعبي وهو شارل بارانجه . وتبني هذا القانون « قانون بارانجه » بسرعة بـ ٣١٣ صوتاً مقابل ٢٥٥ . فانفجر الائتلاف . وذلك أن الاشتراكين حماة العلمانية مع الشيوعيين والراديكاليين لم يعودوا الى الحكم خلال الدورة التشريعية

كلها ، ومع ذلك ظهرت تصدعات أخرى أثناء الاقتراع ، وهكذا فإن الاكثرية الاجتماعية التي صوتت على السلم المتحرك للأجور وجدت في هذه المرة الشيوعيين والاشتراكيين والجمهوريين الشعبيين والدغوليين ضد المعتدلين والراديكاليين وحدهم . وشهد التصديق على خطة شومان ، التي أوجدت **الوحدة الاوربية للفحم والفولاذ** ، نشوء أكثرية اوربية تضم الحزب الاشتراكي والحركة الجمهورية الشعبية والراديكاليين والمعتدلين ضد المتطرفين من الشيوعيين وتجمع الشعب الفرنسي .

وخلال خمسة أعوام ، كان توجيه الحكم يذهب من المعتدلين الى الراديكاليين ، وخرج الاشتراكيون أما الحركة الجمهورية الشعبية فقد جنبت بالرغم من أنها الوحيدة التي يمكن ان ترى في الاكثريات القوية الثلاث ، المدرسية والاجتماعية والاوربية . وتلا حكومة بليفين (١١ آب ١٩٥١ - ٧ كانون الثاني ١٩٥٢) أولاً وزارة **ادغار فور** وكانت تضم اربعين عضواً ودامت اربعين يوماً من ٢٠ كانون الثاني الى ٢٩ شباط . سقطت الوزارة الاولى على التدابير التي وضعتها لمكافحة التضخم النقدي بانقاص مستوى حياة الدولة وبخاصة مساعدات الشركة القومية للخطوط الحديدية والمبالغ التي تدفع للتأمين الاجتماعي . وتعثرت الوزارة الثانية بالموازنة التي اقترحتها للتوازن بزيادة جميع الضرائب ١٥٪ . وعندئذ ظهر فجأة انطوان بينيه وكان هو و **بيير مانديس فرانس** بعده يطبعان هذه الدورة التشريعية بطابعهما الخاص .

معجزة بينيه . - سياسياً ، لم يكن له أي حظ بأن يقلد الوزارة . وعندما دعاه فانسان اوريول ، لتشكيل الحكومة ، كان يلزمه ٣١٣ صوتاً ، وما من أي إشارة تخول الى هذا المعتدل المعروف قليلاً اكثر من ٣٠٠ صوت . ولم يكن له أي حظ بالنجاح اقتصادياً ومالياً .

عندما انخرط في القضية لارجاع التضخم النقدي المتسارع وتحديد الضرائب . ومع ذلك فقد حدث ما يسمى « معجزة بينيه » المزدوجة .

اولاً ، فصل من تجمع الشعب الفرنسي سبعاً وعشرين نائباً وقلد الوزارة بـ ٣٢٤ صوتاً . ثم أنه جاء بالضبط في وقت انتهى فيه التضخم النقدي في البلاد المجاورة ، وصار يلهث في فرنسا ، واستطاع بما أوحاه من ثقة ان يعكس التيار . فقد كانت قرينة اسعار المفرق في آذار في في ١٤٨،١ ، وستكون ١٤٤،٥ في آخر أيار ، و ١٤٢،٨ في آخر تموز .

وفي هذه السنة ولدت وحدة الدفاع الاوربية ووقعت المعاهدة في ٢٧ أيار ، وآثار توقيف الوزراء التونسيين ، في ٢٦ آذار ، في المغرب دورة جهنمية من الارهاب والقمع . وهذان العملان ساعدا على تأكيد مصير نظام لا يستطيع أن يجابه مهامه .

وكانت « معجزة بينيه » قصيرة الأمـــد ، وانصرف في الايام الاخيرة من سنة ١٩٥٢ ، دون أن يقلبه البرلمان كالكثيرين من أسلافه وخلفائه : لأن دستور ١٩٤٦ لم يطبق بحق أبداً ومات دون أن يعيش . وكان خلف هذا الساحر ، بينيه ، رونيه ماير ، وقد سبقته شهرته بالذكاء والمهارة لدرجة لا نظير لها . ومع ذلك ، لم يتماسك إلا ثمانيـة عشر اسبوعاً في السلطة ، واحترس من أن يعرض قضية تصديق معاهدة وحدة الدفاع الأوربية ، وسقط كأنطوان بينيه بسبب هذه القضية الشائكة كمثيلاتها من القضايا ، بالرغم من أن حجة سقوطه كانت اقتصادية ومالية .

وكيل الافلاس . — وعندئذ ظهر لأول مرة في سياق التقليد الوزاري ، بعد

إخفاق بول رينو ، الرجل الذي يطبع بعمله السياسة الفرنسية في السنة التالية ، وهو : بيير مانديس فرانس . وبعـد خمسة أسابيع أزمة ، ودوران جورج بيدو وأندريه ماري ، قلد المجلس جوزيف لانيل، وكيل الافلاس .

وفي ٦ أيار ١٩٥٣ تخلى الجنرال دوغول وأعطى منتخبي تجمع الشعب الفرنسي حريتهم ، ولزم الصمت في قريته . وانتهت ولاية فانسان اوريول المقررة لسبعة أعوام ، وزال التهديد الداخلي . وبعد هذا هل يستعيد النظام أنفاسه ، وإذا حدث ذلك ، هل سيلقى ثانية وضعاً دولياً ؟

دورات فرساي الثلاث عشرة . — عقدت ثلاث عشرة دورة دون الكلام عن تأثير وحدة الدفاع الأوربية التي نسفت الأحزاب بكاملها ، وعن انهيار النظم التي بليت قبل أن تخدم، وعن الثقل المتزايد الذي كانت الدوامة الهندية ـ الصينية تثقل به الدبلوماسية واستراتيجية ما وراء البحار والوضع الداخلي للنظام . لقد شلت الاضرابات العفوية والواسعة فرنسا ، في شهر آب ، ووسع خلع سلطان مراكش ، محمد الخامس ، رقعة جبهة ما وراء البحـار . ولزم ستة أيام وثلاث عشرة دورة اقتراع في فرساي ، في شهر كانون الأول ، لتساعد البرلمان على انتخاب رئيس الجمهورية الجديد ، ستة أيام مناورات وترتيبات كواليس ، ومساومات شهدت جوزيف لانيل بجانبه تباعاً ، بين مرشحين آخرين ، جورج بيدو والاشتراكي م ـ أو. ناجيلين ومن بعده المعتدل بيير مونتل ، والمستقل الثاني ، لوي جاكينو ، قبل أن يضربه مستقل ثالث وهو رونيه كوتي .

إن مفتاح هذا المشهد الحزين يكمن ، أيضاً ودوماً ، في الكفاح حول وحدة الدفاع الاوربية. ولكن حصار موقع ديان بيان فو وسقوطه في

٧ أيار ١٩٥٤ ، والجهود البائسة التي بذلتها حكومة لا نيل لمحاولة الخلاص من الوضع الحرج الهندي - الصيني بالسلام أو بتسليم الحرب الى الحليف الاميركي ، الذي يمولها كاملاً ، كانت الضربة المميتة . وفي ١٢ حزيران انهارت تلقائياً الوزارة غير الشعبية للجمهورية الرابعة . ويكاد يلاحظ أن البلاد كانت ناضجة لتغيير النظام .

نهاية الامبراطورية وموت النظام (١٩٥٤ - ١٩٥٨) . - ودعا رئيس الجمهورية الجديد رونيه كوتي الزعيم بيير مانديس فرانس ، الذي بدا أن صوته لاقى في العام الفائت صدى في البلاد ، لتشكيل الوزارة دون أن يثق به . واحتفظ بآخرين « ممكنين » . وفي ١٨ حزيران رفض الوزير دون صعوبة أصوات الشيوعيين ، ورغم ذلك صوتوا معه ، وألف فريقاً من رجال جدد ، ووعد بالسلام في الهند الصينية قبل ٢٠ تموز ، وبالاستقالة إذا لم يتوصل الى ذلك . وقلد مهام منصبه وانكب على العمل .

وسيبرهن مانديس فرانس ، حتى في هذا النظام المناقض للمنطق على إمكان الحكم ، وفي الوضع غير الملائم جداً الذي وجد فيه الجيش الفرنسي في الشرق الأقصى والدبلوماسية الفرنسية في جونيف حيث عاود الاربعة اتصالهم وعقدوا مؤتمراً بشأن آسيا مع الصين منذ ٢٦ نيسان ، بل مع بلد فقد معنوياته وأصبح ريبياً . وأخفى الاسلاف ، وبخاصة جورج بيدو ، على رئيس الوزراء حالة المفاتحات مع الخصم . واستطاعوا أن يكتموا عنه أمر هانوي وانها فقدت فعلاً . وفي شهر من المناقشات المحمومة والمفاوضات المقطوعة ثم المستأنفة ، أدخل مانديس فرانس طوعاً أو كرهاً ، الحلفاء الغربيين ومحدثيه السوفياتيين والصينيين في محادثاته التي

عقدها مع الفيت ـ منه ، وكسب رهن السلام . فقد كلفت ستة أعوام ونصف حرباً ٣٠٠٠ مليار فرنك ، و ١٠٠٠٠٠ قتيل ومثلهم من الجرحى في جيوش الاتحاد الفرنسي ، للاشيء .

من جونيف الى تونس . — وبعد عشرة أيام على إبرام اتفاقات جونيف ، التي استقبلت براحة ، وأيدها البرلمان بأكثرية ساحقة ، طار رئيس مجلس الوزراء ، يصحبه الماريشال جوان الى تونس ، ووعـد بالاستقلال الداخلي ، وعين مقيماً عاماً جديداً ، كمقدمة للبدء بمحادثات مع الحبيب بورقيبة زعيم حزب الدستور الجديد الذي كان معتقلاً في فرنسا . وكان الحـل التونسي بطيئاً لأن الثوار لم يلقوا السلاح إلا في ١٣ تشرين الثاني ، ولأن اتفاقات الاستقـلال الذاتي لم توقع إلا في حزيران ١٩٥٥ في وزارة ادغار فور ، ولم يقبل الاستقلال إلا في شهر آذار ١٩٥٦ ، في عهد حكومة غي موليه . ومع هذا فإن البداية قد تمت .

واصطدمت حكومـة مانديس فرانس بقضية وحـدة الدفاع الأوربية . فقد قام الشيوعيون والدغوليون بنضال مستشر ضد المعاهدة ، ولكن جميع الأسر السياسية الأخرى ، وجميع أركان الأحزاب انقسمت بل وتمزقت ، وإذا كان بول رينو ، وأنطوان بينه ، وروبير شومان ، ورونيه بليفين ، ورونيه ماير ، وغي موليه ، مشجعين وباستشراء للجيش الاوربي ، فـإن ادوار هريو ، وفانسان اوريول ، ودالاديه ، وتوريز وحزبـه ، وفلاندان ، والجنرال دوغول ورجـاله ، كونت باريس ، والماريشال جوان ، وكل الجنرالات تقريباً ، لم يكونوا أقل عداءً وفظاعة للتصديق على المعاهدة . وانقسمت الحكومة وانصرف بعض الوزراء الدغوليين بعد أن رأوا أن رئيس مجلس الوزراء ضعيف بشكل خطر مع «المتخلين»

ثم انسحب وزراء آخرون واتهموا بيير مانديس فرانس بأنه كان سبباً في إخفاق مشروع الوحدة .

منازعة وحدة الدفاع الاوربية . — وللخروج من المأزق حاول رئيس الحكومة أن يتفاوض مع رفقاء فرنسا الخمسة في بروكسل ، بتخفيف نقاط المعاهدة المتعلقة **بالفوقمية** أي الفوق قومية . وعندما استقبل كدخيل ، ونسف في باريس ، قدم حساباته مؤكداً بأنه لا يوجد في البرلمان الفرنسي أكثرية لصالح المعاهدة . وكان خصومه الاوربيون يكذبونه صراحة ويجدون من يصغي اليهم . وأخفق البحث عن حل وسط كتسوية .

وارتفع نسق الصوت . وكانت القضية شبيهة بقضية دريفوس التي أحدثت الاضطراب في الفكر وقسمت العالم السياسي إلى معسكرين . وفي هذا الجو المتوتر جداً ، عرضت القضية على قصر بوربون (مجلس النواب) ، في ٣٠ آب ١٩٥٤ ، ورفضت المعاهدة لأول وهلة دون أن تتخذ الحكومة موقفاً . وأبرمت اتفاقات بسرعة فخولت المانيا جيشاً قومياً والوصول إلى ميثاق الاطلسي . ولا يغفر « الاوربيون » الى مانديس فرانس ما أسماه عنهم جاك فوفيه « جريمة ٣٠ آب » .

المؤامرة . — وإذا أيقظت الحماسة والمشايعات ، التي أثارها في الشبيبة وبين الموجهين مانديس فرانس ، مواهب سياسية دائمة تتجاوز الحدود الضيقة للحزب الراديكالي ، الذي لم يستطع رئيس مجلس الوزراء أن يطهره ويخضعه إلا لبضعة أشهر ، فقد كانت الاحقاد قوية أيضاً ، وسببت مؤامرة بشعة ، « قضية الفرار » دبرت خطأ ضد وزير الداخلية ، **فرنسوا ميتران** ، وتغذت بصورة متناقضة من الانفجار الذي حرك الجزائر في

الأول من تشرين الثاني ، وأدت ، في شباط ١٩٥٥ ، بعد بضعة أيام على تسمية جاك سوستيل حاكماً عاماً للجزائر ، إلى سقوط وزارة بيير مانديس فرانس التي خانها أصدقاؤها الراديكاليون وضربها المتخلون من رجال الحركة الجمهورية الشعبية واليمين .

وخلف ادغار فور ، وزير المالية ، صديقه في رئاسة مجلس الوزراء ، لاجتناب انتقال الحزب الى المعارضة ، وحكم تسعة أشهر مثقلة بالأحداث انتهت بحل المجلس .

وتمت المصادقة على اتفاقات لندن وباريس بشأن اعادة التسلح الألماني ، وعاد الحبيب بورقيبة الى تونس ، واستعاد سلطان مراكش عرشه بعد دور عنيف حاد ، وانتهى هذان الحادثان في الواقع ، وراء الاحتياطات الخطابية ، بالاستقلال .

ومسح انطون بينيه وزير الشؤون الخارجية الخطأ الذي ارتكبه جورج بيدو في حكومة لانيل . ولكن الحرب ، في الوقت ذاته ، استقرت في الجزائر لبضع سنين .

حل المجلس . — وجنح المجلس في اصلاح القانون الانتخابي ، بعد أن طرح أحد عشر نظاماً انتخابياً ، إلى العودة الى اقتراع المنطقة (الدائرة الانتخابية) الذي كان قبل الحرب . وسيكلف هذا الاصلاح الانتخابي وزارة ادغار فور حياتها ، في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٥٥ ، بعد أزمتين وزاريتين في أقل من ثمانية عشر شهراً بالاكثرية المطلقة : وساعد الدستور رئيس مجلس الوزراء على حل المجلس ، وقد صمم على ذلك رغم رأي أصدقائه الراديكاليين . إن جميع الخلافات ، الماضية — الخلافات على العلمانية والهند الصينية ووحدة الدفاع الاوربية —، والحاضرة ، وبخاصة المجابهة على السياسة الجزائرية ، سيطرت على الحملة الانتخابية التي فتحت فجأة .

وارتسم حلف : « **الجبهة الجمهورية** » ، بين الراديكاليين الذين يغريهم مانديس فرانس ، واشتراكيي غي موليه والدغوليين الذين يقودهم ج . **شابان — دلماس** .

وقامت حركة يمينية جعلت هدفها الأساسي الدفاع عن التجارة الصغيرة ضد الضريبة والدولة ، وقد أطلقها شخص سام في لونه ، وراق من بلدة سن — سيريه ، في محافظة اللوت ، وهو فاشي نوعا ما وطفل طيب واسمه ، بيير بوجاد ، وأثارت « البوجادية » تهكم لمتهوني السياسة وازدراءهم ، ولم تثر انتباههم .

ومع ذلك ، ففي انتخابات ٢ كانون الثاني ١٩٥٦ ، أعطى مليونان ونصف من الأصوات ٥٢ نائباً من البوجادية ، بينما جرت الماندبسية **الجبهة الجمهورية** — أو على الأقل وسط الحزب الاشتراكي ، لأن الحليف الدغولي انهار . وهذا النجاح فيه لبس ، وقابل للمناقشة ، لأنه لم ينتج إلا ١٥٠ منتخباً ، وسيفجر الشقاق بين بيير مانديس فرانس ، الزعيم الحقيقي للحركة ، و غي موليه الذي عهد اليه الرئيس رونيه كوتي بالسلطة .

٦ شباط في الجزائر . — وأقام الأمين العام للحزب الاشتراكي في رئاسة مجلس الوزراء . وقد انتخب بناءً على برنامج كانت مادته الاولى **السلام في الجزائر** ، ولكنه اصطدم رأساً بمانديس فرانس الذي تخلى عنه بعد قليل ، ومن ثم بجمهور الجزائر بعد أن ذهب اليها في ٦ شباط . وفي هذا اليوم ، وفي ساعتين ، ختم مصير النظام بالمظاهرات الشعبية لصالح سياسة القوة ، وبضغط الجيش الذي لم يعد يقبل ما كان يراه ويسميه « تخلياً جديداً » .

وأقام غي موليه على رأس الجـــزائر صديقه في الحزب ، روبير لاكوست ، وطلب سلطات خاصة ، وزج نفسه في آن واحد في طريق القمع والحرب في الجزائر وفي توجيه المفاوضات السرية والجلي مع الخصم القومي ، جبهة التحرير القومي الجزائرية .

وقد جرت محاولة المفاوضات ثلاث مرات وأخفقت .

وكانت الأدوار الدرامية تتوالى على صعيد الكفاح ، واكثرها اثارة اختطاف الطائرة التي كانت تقل بن بلا والزعماء القوميين الجزائريين الى الرباط ، في تشرين الاول ، وأكثرها ثقلاً بالنتائج الحملة الفرنسية — الانكليزية على السويس ، في تشرين الثاني .

المأساة الجزائرية — . ويجب أن نذكر لحساب هذه الحكومة ابرام وتوقيع معـاهدات ٢٥ آذار ١٩٥٧ التي أقرت السوق المشتركة وأسرة الطاقة الذرية الاوروبية (اوراتوم) . وعندما سقطت وزارة غي موليه في ٢١ أيار بسبب الضرائب ، كان خلفه راديكالياً بورجيس — مونوري وقد سقط في ٣٠ ايلول على مشروع القانون المبدئي (الأســـاسي) . وكانت الحكومة التالية ، حكومة فيليكس غايار : وسقطت هذه بدورها في ١٥ نيسان ١٩٥٨ على « المساعي الحميدة » التي اقترحها الانغلو — اميركيون بعد ضرب الطيران الفرنسي بالقنابل القرية التونسية ، ساقية سيدي بن يوسف . ولكن هذه الضرائب ، وهذا القانون الأساسي ، وهذه المساعي الحميدة تسمى كلها : الجزائر ..

وكانت الجزائر الدامية والممزقة توغل كل يوم وإلى الأمام في الحرب وفي الظلام : الجيش فيها يفنى ، والشباب يفقد روحه في افراط القمع الفظيع والضال معاً ، والأمة تلقي فيها أبناءها ومواردها وكل استثمارها ،

في خسارة محضة ، وتنقسم بشكل أعمق من أي وقت منذ الحرب العالمية .

وتبدأ من جديد مأساة الهند الصينية ، ولكن على أبواب العاصمة ، على أرض مستعمرة فرنسية يعيش فيها أكثر من مليون اوربي وشيئاً فشيئاً فقد التوجيه وسائل عمله ، والحكومة نفوذها ، والجيش قيادته ، ومضى كل شيء دون قوة ودون ارادة .

ولم تكن قضية الأزمة الوزارية تهم أحداً عندما حاول جورج بيدو وورنيه بليفين ، ثم بيير بفليملن طوراً وطوراً أن يشكلوا حكومة في بداية أيار . وتوصل الثالث إلى ذلك ، وفي الساعة التي مثل فيها أمام المجلس ، في ١٣ أيار ، دوت الثورة وانفجرت في الجزائر (المدينة) وامتدت إلى حي الشانزيليزيه في باريس ، وكانت النهاية .

الجمهورية الخامسة والخلاص من الاستعمار (١٩٥٨ - ١٩٦٢) . -

في مساء ١٣ أيار ، وبينما كان الجمهور يسيره نشيطو الجزائر الفرنسية ويستولي عنوةً في الجزائر على قصر الحكومة العامة ، لم يتصور أحد بجد أن الأزمة يمكن أن تعيد الجنرال دوغول إلى توجيه الشؤون العامة. وبعد سبعة عشر يوماً بالضبط ، وبعد عدة تقلبات متموجة فجرت في الأعين عجز النظام ، عهد المجلس ، الذي انتخب في ١٩٥٦ لابرام الصلح وقام بالحرب خلال حكومات ضعيفة ومنقسمة ، إلى شارل دوغول بجميع السلطات ، وبتحضير دستور جديد وعرضه على البلاد .

واستمرت مع ذلك حرب الجزائر بل وستدوم طويلاً أيضاً في عهد دوغول كما دامت في عهد الجمهورية الرابعة . ولكن النظام الجديد استقر في أربعة أعوام ، بعد ان ظن انه موقت ، وقلب المنظر القومي كثيراً بشكل لم يحدث خلال الخمسين سنة السابقة ، إذا ما استثنينا فترة فيشي ،

ويرجع ذلك على الاكثر الى الهزيمة العسكرية والى الاحتلال أكثر منه إلى رجفة داخلية .

كان دوغول يرى أن الاولوية ليست للجزائر ، بل للنظم وظلت السياسة الخارجية ميدان تفضيله . وكان الهدف الأول الذي رسمه لنفسه بامتلاكه السلطة بعد ستة أعوام من النضال ضد المذهب ، ثم بعد خمسة أعوام نفياً في الداخل ، « اعادة صنع الدولة » . ومنذ الصيف ، حررت الحكومة التي يرأسها مشروع دستور يستوحي بشكل عريض من المبادىء التي وضعها ، في ١٩٤٥ — ٤٦ ، رجل ١٨ حزيران . وكان محاطاً بزعماء الجمهورية الرابعة ، غي موليه ، انطوان بينيه ، بيير بفليملن ، الذين أتوا كل بدوره يرجونه أن ينقذ البلاد . ودرست لجنة استشارية ، كان فيها البرلمانيون أكثرية ، هذا القانون الأساسي الفريد نوعاً. وبموجبه يتصرف رئيس الجمهورية بسلطات واسعة جداً ، وبخاصة بالقدرة على حل المجلس ، وتكون فيه الحكومة تابعة لرئيس الدولة مع بقائها خاضعة لرقابة البرلمان . وبالاجمال كان هذا الدستور تسوية أو حلاً وسطاً بين النظامين الرئاسي والبرلماني .

دستور ١٩٥٨ . — لقد تم التصديق على هذا الدستور باستفتاء في ٢٨ ايلول ١٩٥٨ ، وصوت فيه أربعة ناخبين على خمسة « نعم » بالرغم من معارضة قسم من الأركان وبخاصة الشيوعيين .

وجرت الانتخابات التشريعية ، في ٢٣ و ٣٠ تشرين الثـــاني ، **بالاقتراع الاكثري الوحيد الاسم** ؛ ووضعت دوغولي اتحـاد الجمهورية الجـديدة في المرتبـة الثـانية من حيث الأصوات (١٧٫٦ ٪) وفي المرتبة الاولى من حيث المقاعد (٢١٢) وتقدمهم الشيوعيون (١٨٫٩٪

و ١٠ منتخبين) ، وتبعهم المستقلون (١٣٫٧٪ و ١١٨ نائباً) . وتراجع الاشتراكيون والوسط الأيسر ، وتماسكت الحركة الجمهورية الشعبية . وكما جرى في الاستفتاء ، صوت الناخبون الشيوعيون لدوغول ورجاله .

ولقد أظهر التطبيق الاتجاه الملاحظ بوضوح في تركيز السلطات في يدي رجل واحد ، رئيس الجمهورية ، هذا المنصب الذي احتله الجنرال دوغول في ٨ كانون الثاني ١٩٥٨ ، وفوراً سمى ميشيل دوبريه رئيساً للوزراء . وكانت الحكومة سيدة جدول أعمال المجلس، ولذا كانت تستعمل وأحياناً تسيء استعمال نظام التصويت المجمد والأصول الأخرى الجديدة ، ولا يمكن قلبها إلا بتبني اقتراح الرقابة بالاكثرية المطلقة . أما التقنينات والتحديدات الخفيفة التي أتى بها الدستور للسلطات الرئاسية والحكومية فقد أهملت بسرعة ، وكان رئيس الدولة يستطيع أن يعمل كل شيء أو تقريباً كل شيء .

من « سلام الشجعان » الى تقرير المصير . — لقد بدأ الجنرال سياسته الجزائرية على وهم : وهي الاكتفاء بأن يظهر ، ويتكلم ، ويضمن كلام الدولة ، ليسكت السلاح . وقــد رافق عودة النشيطين إلى الصواب مع العناصر العسكرية الجزعة أكثر من غيرها التي أسهمت كثيراً في إعادة دوغول الى السلطة ، قرارات يبدو أنها ذهبت أحياناً في اتجاه معاكس . غير أن هذه المرحلة الاولى انتهت في ٢٣ تشرين الأول ١٩٥٨ باقتراح سمي « سلام الشجعان »، وقد أسيء حسابه كما أسيء استقباله وظل دون مفعول .

ودامت المرحلة الثانية تسعة أشهر . واقتضت ، بعد الاستعاضة عن

المندوب العام والقائد العـام ، الجنرال **سالان** ، بموظف مدني سام ، **بول دولوفرييه** ، ورئيس عسكري جديد ، الجنرال **شال** ، الاهتمام معاً بالحرب التي سميت حرب « التهدئة » أو حرب السلام والبدء بتنفيذ حل اقتصادي واجتماعي حسب « خطة قسنطينة » ، والبحث عن « قوة ثالثة » مسلمة لا توجد ، بين المعسكر الفرنسي ومعسكر الثورة . وأدى الاخفاق أخيراً ، في ١٦ ايلول ١٩٥٩ ، الى سياسة جديدة ، سياسة تقرير المصير . وذلك بأن تدعى الجزائر الى الخيار بين الاستقلال (المسمى الانفصال) ، والفرنسة الكاملة ، والاستقلال الذاتي . وفي ثماني مرات في ثمانية عشر شهراً شخص دوغول الى الجزائر .

ومن تقرير المصير تم الانتقال بسرعة الى فكرة المفاوضة ، ثم إلى تحقيقها . وأدى اسبوع المتاريس في الجزائر (المدينة) وثورة النشيطين في آخر ١٩٦٠ ، وتطور اللغة الرئاسية نحو « الجزائر جزائرية » ، و « الجزائر صاحبة سيادة » ومن بعد « الجزائر المستقلة » ، في ١٤ حزيران ١٩٦٠ إلى دعوة الخصم . ولكن لقاء **مولن** ، بعد أحد عشر يوماً ، بين مبعوثين من « **جبهة التحرير الوطنية** » ورسولين من قصر الايليزيه ، دعا إلى التفكير بتحريف المفاوضات ولم يؤد الى شيء . وبينما كانت العمليات العسكرية تتلاحق بل وتتكاثف ، عقدت الخطوط المقطوعة من جديد وبشكل سري . وقطعت مرحلة من هـذا التكيف البطيء والاصولي للأفكار وللنصوص باستفتاء ٨ كانون الثاني ١٩٦١ فأعطى إلى سياسة تقرير المصير ضماناً بـ ٧٥٪ من المصوتين و ٥٦٪ من الناخبين .

حركة الجنرالات . — وعندما اقتربت ساعة المفاوضة الحاسمة ، قرر أربعة جنرالات : **جوهو** ، **زللر** ، **سالان** ، **شال** ، وبخاصة سالان وشال ، وهما ضابطان مسعورا الرأس ، أن يمنعوا هذه المفاوضة مهما

كلف الأمر ، وقاموا بحركتهم في الجزائر ، في ٢٢ نيسان ١٩٦١ ، وكانت هذه الحركة انفجاراً فاجأ العالم كله ، ولكنها انهارت، بعد ثلاثة أيام من القلق ، تحت سهام خطاب لا يرحم من رئيس الدولة ، وأصبح الطريق حراً نحو المفاوضة .

بدأت المفاوضة في ٢٠ أيار في ايفيان وعرفت أيضاً كثيراً من التقلبات ، وتوكت ، ثم استؤنفت ، ولم تدخل مرحلتها الأخيرة إلا بعد أن اعترف دوغول ، في ايلول ١٩٦١ ، بالصفة « الجزائرية » للصحراء . وأدت المفاتحات ، خلال اتفاقات آذار ١٩٦٢ ، إلى ميثاق تقرير المصير الذي أصبح باباً مفتوحاً على الاستقلال ، في استفتاء ٨ نيسان ، وبموجبه وافق الفرنسيون دون فرح ، ولكن بانفراج ، بـ ٩٠ ٪ من المصوتين على الحل المقترح .

أما ما يتعلق بافريقية السوداء الناطقة بالفرنسية فقد جدد دستور ١٩٥٨ بتأسيس الوحدة ، التي رفضتها غينة واختارت الاستقلال المباشر . وكان من الضروري عقد مناقشات طويلة لتحضير هذا الفصل الثالث ، الذي يبعد نهائياً الشكل الاتحادي ، ويرسم مجموعة مفتوحة بشكل واسع ومتشكلة بحرية . وفي أقل من ثلاثة أعوام ، في آخر ١٩٦١ ، تباهت جميع الدول الجديدة بحق اعلان استقلالها ، وسقط النظام في الاهمال ، وألغيت الاحكام الدستورية .

وهكذا تم الخلاص من الاستعمار في افريقية قبل أن يتدخل حل القضية الجزائرية وأصبحت فرنسا الكبرى اعتباراً من الآن لا تمثل على الكرة المسطحة إلا بأربع مقاطعات فيما وراء البحار (غواديلوب ، مارتينيك ، غويانة ، ريؤنيون) وبعض نقاط صغيرة مبعثرة على شاطىء

البحر الأحمر ، وفي أعماق المحيط الهندي أو في قلب المحيط الهادىء . ولكن فرنسا منذ الآن فصاعداً أصبحت في سلام . ولأول مرة منذ ربع قرن لم يقتل ولم يمت باسمها انسان .

انطلاق طيب . – إن عدم القدرة على حل القضايا بل وحتى وضعها أدى إلى زوال الجمهورية الرابعة . ولم يمر أيار ١٩٥٨ انفجار ثورة بل نمو أزمة أطول وأكثر تعقيداً من الازمات السابقة . ولذا يجب ألا ينتظر من النظام الجديد تقلبات عنيفة ، بل ضربة توقف وظروف انطلاق جديد . وكانت هذه خطة بينية – روئيف في شهر كانون الاول ١٩٥٨ التي كانت تتضمن تخفيض النقد وتوطيد مبادلة مع الخارج وخلق الفرنك الثقيل ، وعودة تحرير المبادلات ، والاقتطاعات الكثيبة من المساعدات والنفقات العامة . وكانت النتائج ايجابية جداً : تعمير سريع للاحتياطي في الذهب والقطع النادر ، وتخفيض الدين الخارجي ، واطفاء الدين المتوسط الأجل ، والنهوض العجيب في ميزان الحسابات ... ومع ذلك فإن الأحكام الصغيرة نسبياً في هذه الخطة مثل حذف تحديد الاسعار الزراعية وبخاصة تقاعد المحارب أثارت حركات نشيطة في الرأي وأحياناً مظاهرات عنيفة .

وكان تسيير الخير العام ، ابتداءً من وضع الأمور في نصابها ، يسيطر عليه النمو التدريجي للسوق المشتركة الاوربية وامتدادها إلى الزراعة ، والنضال ضد التضخم النقدي وتقلباته وتقصيره وعدم كفايته ثم شدته . فمن ذلك أن الاضطراب الذي لازم القطاع العام وكانت نقطة الذروة فيه اضراب عمال المناجم ، في آذار ١٩٦٣ ، لم يكسر بتنظيمات صوت عليها تباعاً ، ولا بالوعد ، المتجدد في الغالب الأعم دون أن تتبعه نتائج ، بـ « سنة اجتماعية » واصلاح الاجور .

وكانت أشد الانتقادات وأكثر المجادلات حدة ترمي إلى انشاء مساكن واصلاحات متوالية في التعليم وإلى حالة سوق الاستخدام . وبالمقابل ، إن سياسة تنظيم البلاد وبداية الاصلاح الاداري وقوانين التوجيه الزراعي في ١٩٦٠ و ١٩٦٢ ، بالرغم من عدم كفايتها ، قد استقبلت بترحاب . وبصورة قاطعة ، إن القضايا الشائكة التي أثقلت الحياة القصيرة للجمهورية الرابعة ، من اضطرابات احتماعية وحروب بعيدة ، والخلاص من الاستعمار ، وتعمير اوربة ، والقضايا المدرسية ، لم تأخذ ، ولو من بعيد ، نفس الأهمية في عهد الجمهورية الخامسة وستفرغ بعد قليل ، ولو جزئياً ، من محتواها الانفجاري

الدبلوماسية المنسجمة . إن سياسة الجنرال دوغول الخارجية ، التي كانت لها في نظره شروط مبدئية وهي العودة إلى النظام الأساسي والاقتصادي والنقدي ، قد تجسدت منذ ٢٤ ايلول ١٩٥٨ . ففي هذا التاريخ وجه مذكرة سرية إلى الحليفين الاميركي والبريطاني طالب فيها باقامة توجيه ثلاثي للغرب . ومن هنا أو بالأحرى من عدم القبول المعارض لهذا الطلب ، ظهرت دبلوماسية النظام وستراتيجيته .

لقد كانت هذه الكلمات : **الجاه ، العظمة ، الاستقلال** : مفاتيح اللغة الدغولية ، وقد أدت إلى صنع السلاح النووي ، وإلى البحث عن مناقشة ذروة بين الأربعة الكبار ، وثم ، بعد فشل مؤتمر باريس ١٩٦٠ ، إلى انفكاك تدريجي لروابط فرنسا مع الغرب ، توج بانسحابها من منظمة حلف شمال الأطلسي ، وإلى البحث عن الانفراج ، ثم التفاهم مع الشرق .

كان دوغول يزور دون كلل أو ملل جميع البلاد التي كانت تظهر بوادر استقلال في هذه الكتلة أو تلك ، ويستقبل ، في باريس ، جميع ملوك ورؤساء العالم بحفاوة وبذخ ، ويتابع انشاء اوربة الستة ،

ولكنه سحب منها كل أثر للفوقية ، وأخرج بريطانيا العظمى من هذه الوحدة وابرم المصالحة مع المانيا . ونادى متمنياً بـ« اوربه الكبرى من الاطلسي إلى الاورال ، اوربة الأوربية بحق » .

وبصورة عامة ، إن هذه الدبلوماسية التي نشطت بكل سعتها وعظمتها بعد حل العقدة الجزائرية في ١٩٦٢ استقبلت جيداً في البلاد لأسباب لم تكن أفضل من غيرها دوماً ولم يتوصل خصوم النظام الى النيل حقاً في هذا المضمار من سلطة رئيس الدولة .

نحو ما بعد ـ الدغولية (١٩٦٢ - ١٩٦٨)

لقد أدت تسوية القضية الجزائرية،التي وافق عليها استفتاء ٨ نيسان١٩٦٢ ، إلى أخطر أزمة هزت الجمهورية الخامسة . وذلك لأن ميشيل دوبريه دافع عن صالح انتخابات تشريعيه مسبقة . وفي ١٤ نيسان دعاه رئيس الجمهورية إلى الانسحاب وعين رئيساً جـديداً لمجلس الوزراء ، جورج بومبيدو ، وكان مديراً لمكتبه في عام ١٩٥٨ .

كانت بدايات رئيس الحكومة الجديد صعبة . ففي الجزائر كانت الفوضى ، وفي فرنسا نفسها ، كان الاضطراب . وكانت الاغتيالات ، والانفجارات ، وأعمال القتل تسجل انطواء مليون اوربي من الجزائر إلى العاصمة ، وطغت موجة الارهاب بعـد استقلال الجزائر في الاول من تمـوز . حاول جورج بومبيدو أولاً أن يوسع الأكثرية ، وترك مكاناً للحركة الجمهورية الشعبية في حكومتـه . وأخـذ الوزراء الجمهوريون الشعبيون، بعد شهر ،ينصرفون يوماً فيوماً، بعد أن سمعوا دوغول، في مؤتمره الصحفي الذي يعقده كل ستة أشهر ، يتهكم على اوربة الفوقمية التي أصبحت تعبر عن نفسها بلغة عالمية .

وفي ٢٢ آب ، وقف مغير كمين في بوتي – كلامار ، على طريق رئيس الدولة ، وكاد أن يقتله : وكان الأثر المباشر لهذا الحادث : أن قرر دوغول أن يدخل في الدستور الانتخاب المباشر بالتصويت العام لرئيس الجمهورية ، لتوسيع القاعدة الشعبية لنظامه ، ويسير في هذا الاصلاح بالاستفتاء .

ثار البرلمان ، وتكلم رئيس مجلس الشيوخ عن الغدر . وفي ٥ تشرين الأول صوت المجلس على المراقبة وقلب الحكومة . وكان دوغول قد احتفظ بالنواب وتخلى عن وزيره الأول في نيسان ، ولكنه ، في هذه المرة ، أقال النواب بحل المجلس واحتفظ بوزيره الأول .

حوية العمل . – وظهر الحساب صالحاً . وفي الحقيقة ، ان استفتاء ٢٨ تشرين الأول أعطى لأول مرة جواباً مبهماً سياسياً ، وان كان حقوقياً غير منازع : فمع ٦٢٪ من الأصوات المعبرة ، لم تبلغ « نعم » الأكثرية المطلقة للمسجلين على قوائم الانتخاب . ولكن انتخابات ١٨ و ٢٥ تشرين الثاني أمنت إلى الدوغوليين الأكثرية المطلقة للمقاعد في مجلس النواب (قصر بوربون) .

وسحق المستقلون والمعتدلون ، وخسروا ثلاثة أرباع منتخبيهم ، وخسرت الحركة الجمهورية – الشعبية أكثر من الثلث ، وحل أقصى اليمين النشيط . وفي اليسار ، عززت التحالفات بين الشيوعيين والاشتراكيين والراديكاليين الحزبين الأول والثاني من هذه الأحزاب . وألف اتحاد الجمهورية الجديدة (الدوغوليون) ، بـ ٢٣٣ نائباً ، أكثر الكتل النيابية عدداً من أي وقت مضى من الكتل التي دخلت في مجلس فرنسي . غير أن أفول النظام البرلماني سيظهر طوال الفترة التشريعية التي كانت الدوغولية فيها تسن القانون وحدها .

وقد دل التسيير والسياسة الخارجية ، كل على شاكلته ، على حرية العمل المطلقة تقريباً لرئيس الدولة . وجاءت خطة تثبيت النقد في آن واحد متأخرة جداً وقاسية جداً جداً فكسرت التضخم النقدي بكبحها التوسع بشكل خطر . وفي الخارج كان فساد العلاقات مع أمريكا تاماً ، وظهر بوضوح الاتجاه الجديد للدبلوماسية الدوغولية ، فأيقظ اهتماماً اكيداً ، ومع ذلك ، فإن التعاون ، ضمن ظروف خاصة بين فرنسا وبلاد المغرب المستقلة وأفريقية السوداء ، تما إجمالاً بشكل مرضي .

وحكم دوغول ، أكثر من أي وقت مضى ، بالكلام على أساس ثلاثة خطب أذيعت بالراديو والتلفزيون ومؤتمرين صحفيين في العام ، دون حساب الخطب العديدة التي خطبها أثناء رحلاته الكثيرة في الخارج ، وزياراته الرسمية للمحافظات في فرنسا وفي ما وراء البحار أثناء ولايته لمدة سبع سنين .

النفس الثاني . — انتهت هذه الولاية في آخر ١٩٦٥ . وكانت الثمانية عشر شهراً التي سبقت الانتخابات الرئاسية مشغولة بحملة طويلة ، فإلى الاهتمام بالعظمة والاستقلال تضاف ارادة « تأسيس المستقبل » وإقامة النظام بصلابة . وكانت هذه الارادة تظهر تدريجياً . وبعد محاولة الزعيم الاشتراكي غاستون ديفير للاتحاد مع اليسار غير الشيوعي ، جابه دوغول أخيراً ، في ٥ كانون الأول ١٩٦٥ ، فرنسوا ميتران عن اليسار ، والشيوعيين ، وجان لوكانويه عن الوسط ، وبيير مارسيلهاسي وجان – لوي – تيكسيه – فينيانكور عن الوسط الأيمن واليمين ، وضربت المشاركة في هذه الجولة الأولى جميع الأرقام القياسية في كل التاريخ الانتخابي الفرنسي : أكثر من ٨٥٪ . ولكن دوغول لم يحصل إلا على

٤٦٪ من الأصوات ، وجرى انتخاب تكميلي . وفي ١٩ كانون الأول انتصر على فرنسوا ميتران بـ ٥٥٪ من الأصوات .

ويبدو في هذه المرة ، أن النظام عادت له الحياة ثانية ، فرئيسه في مكانه لسبع سنوات أخرى حتى ١٩٧٢ . ويتصرف في المجلس بالأكثرية المطلقة ، أو بها تقريباً ، ويحافظ عليها ، ولو بأقصى الدقة وبفضل حلفائه المعتدلين الملتفين حول فاليري غيسكار ايستينغ ، في الانتخابات التشريعية في ٥ و ١٢ آذار ١٩٦٧ .

منعطف ايار ١٩٦٨ . — هل أثر ترشيح الجنرال إلى انتخاب الرئاسة عام ١٩٦٥ على سيماء الشخصية التاريخية « رجل الأمة » الذي أصبح رجل حزب ؟ لقد كانت الاضطرابات، طوال سنة ١٩٦٧ ، تهز أكثرية ظهر فيها الرفيق « الغيسكاردي » صعب القيادة وعرف دعمه بأنه شرطي ، وأن معارضة يسارية أدت فيها المحادثات مع الشيوعيين أخيراً إلى « صعيد » مشترك في بداية عام ١٨٦٨ . وفي الوقت نفسه، غذت المخاوف ، التي سببها ازدياد البطالة وبطء التوسع ، الجدل والمناقشات المختلفة .

وأخيراً ، إن اضطراب الطلاب ، الذي ظهر في بلاد عديدة ، وجد شيئاً فشيئاً ، في كلية الآداب الجديدة في نانتير ، أرضه المختارة .

ثم إن اغفاءة السلطة ، ولا مبالاة الرأي ، وتفسخ المعارضة السياسية ، والخمائر الثورية في الشبيبة المتطورة ، والهياج الأصم في جماهير العمال ، ولو لم تكن كثيرة، حتى ولو لم يحسب لها حساب بعد، تعتبر كافية لتجمع كل شروط الانفجار .

وقد حدث ذلك في الأيام الأولى من شهر أيار ١٩٦٨ ؛ وذلك ان شرارة بسيطة ، ظهرت باديء بدء صغيرة وموضعية ، ثم ، في بضعة أيام،

وبتسلسل فائق للعادة ، هددت النار بحرق كل شيء ، في نانتير ، حيث تكاثرت الحوادث منذ بداية السنة الجامعية ، وتشكلت منظمة جديدة « حركة ٢٢ آذار » حول طالب محرض ، دانيل كوهن- بنديت ، الذي أحاط به رأساً نائب رئيس الاتحاد القومي للطلاب الفرنسيين ، جاك سوفاجو ، والأمين العام لنقابة التعليم العالي ، آلان جيسمار . وبدأ هؤلاء الثلاثة ومناضلوهم بحركة ذهبت من الاحتجاج ضد تصلب التعليم العالي إلى منازعة الجامعة كلها ، وأخيراً المجتمع نفسه . ان شبيبة الشيوعيين الثوريين ومنتهزي الحالة ، والماوتسيين (من ماوتسي تونغ) والتروتسكيين والفوضويين ، العنوان يهم قليلاً ، كانوا في حالة غليان ينشرون أعلام الثورة الحمراء والسوداء .

وباغلاق كلية الآداب في نانتير ، في ٢ أيار ، بلغ الفيروس السوربون ، ودار فيها ، في ٣ أيار ، اجتماع احتجاج ، فجن جنون السلطات ، وأرسلت الشرطة ، وأخرجت الطلاب بالقوة ، وأغلقت الجامعة العجوز . وكانت المشادات قاسية ، ولم تبلغ بعد الثورة الشعبية ، ولكنها لن تتأخر .

وانفجرت الثورة في يوم الجمعة ، في ١٠ أيار ، يوم الجمعة الأحمر ، عندما قام بضعة مئات من « المسعورين » من اليوم الأول والتحقت بهم كتلة الطلاب وألوف التلاميذ من المدارس الثانوية . ووجد في الحي اللاتيني ستون متراساً ، ومئات الجرحى ، والسيارات المحروقة ، وحملات الشرطة وفرق الحفاظ على النظام ، والقنابل الاولى المسيلة للدموع وقتال الشوارع . وأمام هذا القمع ، أظهرت نقابات العمال والاحزاب المعارضة تضامنها مع الطلاب : ومر موكب كبير في يوم الاثنين في ١٣ أيار عبر باريس .

وفي اليوم التـــالي ، بدأت الاضرابات ، عفوياً في « القـاعدة » : وامتدت بسرعة ، بالرغم من المندوبين النقابيين العاجزين ، ولأول مرة منذ ١٩٣٦ ، احتل المضربون المعامل والمشاغل ، وأصبحوا بعد بضعة أيام ٩ ملايين .

وفي هذا الاضراب العام ، الذي أحدث الاضطراب في حياة البلاد ، أصبحت الثورة يوميـة في الحي اللاتيني ، ثم أخذت تنتشر في الأحيـاء الأخرى في العاصمة ، وامتدت في عشر مدن جامعية في الأقاليم . أما السلطة فبعد أن تصلبت في التعنت وعدم التسامح عادت فتـاهت بين الافراط في الحزم وشبه الاستقالة ، وأقامت معـارضة اليسار دون نجاح حاجزاً تافهاً اقترحت فيه الرقابة أمام القمع ، ثم انقسمت ، وكذلك كانت الادارات النقابية على أتم الاضطراب . واقترح دوغول ، في ٢٤ أيار ، كدواء لهذه الحالة ، استفتاءً على المشاركة . وفي الايام التالية ، وبصورة غير محسوسة تم الانتقال من مناخ التمرد إلى حالة ممهدة للثورة . وأدت محادثات محمومة في ٢٦ منه إلى اتفاق بـــين أرباب العمل والنقابات والحكومة . ولم تقف الاضطرابات ، بل تفاقمت وتضخمت أيضاً ، ومر يومان فظيعان دون أن يراقب أحـد أحداً . وصرح اليسار ، بأصوات فرنسوا ميتران وبيير مانديس فرانس بأنـه على استعداد للقيام بأعباء السلطة . أما دوغول فقد عقد سراً وبشكل مسرحي اجتماعاً مع الزعماء العسكريين . وجرى تساؤل ما إذا كانت هذه الحركة حركة هدامة أو حرباً أهلية .

وألقى الرئيس خطاباً جافاً وقاسياً في ٣٠ أيار دام أربع دقائق فقوم الوضع الخطير لصالح النظام الذي تجمع أنصاره حالاً بمئات الألوف في الشانزيليزيه . وحل المجلس الوطـــني ، واجل الاستفتاء ، وانهمت

« الشيوعية الجمعية » وأثير « العمل المدني » وعدلت الوزارة بشكل واسع ، ثم رفع الستار عن الفصل الأخير وهو الانتخابات التشريعية .

جرت هذه الانتخابات التشريعية في ٢٣ و ٣٠ حزيران بعد حملة قصيرة ومتدافعة ، وفي جو مضطرب ومتوتر ، وتمت العودة إلى العمل والتوطيد التدريجي للحياة القومية ، وعاد الهدوء ببطء ومشقة . وخافت البلاد من شر كارثة محتملة الوقوع ، فبدا لها أن النظام هو الحصن الوحيد ضد الاضطراب والبلبلة . ولم يستطع اليسار منذ الجولة الأولى أن يحقق وحدة الترشيح ، وقام عزم الوزير الأول ومهارة الدعاية الدوغولية بالباقي . وكان النصر للاكثرية ، وحصل الدوغوليون وحدهم على ٢٩٣ مقعداً ، بزيادة ٥٠ مقعداً ، على الأكثرية المطلقة . وحصل الغيسكارديون ، وقد أصبح الدوغوليون بغير حاجة لهم ، على أكثر من ٦٠ مقعداً . وسحق اليسار ، وخسر نصف منتخبيه ، وباد الوسط أيضاً. ولم تحصل كتلة سياسية على عدد من المقاعد في مجلس فرنسي في ظل الجمهورية في أي وقت مضى كما حصلت عليه الدوغولية .

وكمفاجأة عامة ، انفصل دوغول بهذه المناسبة عمن كان منذ ستة أعوام وزيره الأول ، جورج بومبيدو ، الذي تماسك وقاوم جيداً عند هبوب العاصفة ، وكان يعتبر ولي عهده ، وأصبح رئيس الحكومة الجديد موريس كوف دومورفيل وخلف هذا الأخير في الكي دورسيه (وزارة الخارجية) ميشيل دوبريه . وكان وزير المالية في هذه الوزارة فرنسوا اورتولي ، وكان موظفاً كبيراً . وعهد بالتربية الوطنية الى ادغار فور . ودخل الدوغوليون اليساريون الذين يوجههم دونيه كابيتان وزير العدل بالقوة في الوزارة . وقد أمسك هؤلاء الرجال بزمام قيادة الأمور ، بعد ربيع مضطرب ، لمجابهة المحنة الكبرى التي لاقتها الدوغولية في عهدها الثالث .

الفصل الثاني

بريطانيا ـ العظمى

لقد حولت الحرب العالمية الثانية الى نقطة لقاء سياسي للعالم الغربي الأرخبيل الصغير المؤلف من ٢٤٢٤٤٣ ك م٢ والواقـع في عرض الشواطيء الشمالية - الغربية في أوربة ، بعد أن طرحه كتاب العصر الوسيط على مصوراتهم الجغرافية على هامش العالم المعروف . ان جزراً هامة مثل بريطانيا ـ العظمى (انكلترا ، بلاد الغال ، وايكوسيا) أو مثل ايرلندا الشمالية ، وغباراً من الجزيرات مثل جزيرة وايت وجزر سورلينغ ، آنغليزي ، وجزيرة مان ، والاوركنيز والشتلاند ، أي ان كل أراضي المملكة المتحدة قد ساقتها الحرب فقلبتها تماماً ، حتى ان الحياة فيها لم تعد أبداً شبيهة بحياة سنوات الثلاثينات . وعندما استسلم الرايخ الثالث ، في ٧ أيار ١٩٤٥ ، دون شرط ، لم يبق إلا ذكرى ما كان في السابق يؤلف المجتمع البريطاني ، وسياسته الخارجية أو العسكرية وحياته الاقتصادية .

وعلى عكس ما مر في بعض البلاد المحررة من أوربه ، لم يبدأ ما بعد الحرب الانكليزي في ١٩٤٤ ، بل في ١٩٤٥ . ان النزول في نورماندیا (٦ حزيران ١٩٤٤) ، والانسحابات المتوالية للجيش الألماني (فرماخت) سجلت للبريطانيين تواريخ أساسية ، ولكنها تواريخ نصر ،

ولم تسجل لهم عودة السلام . لأن أسلحة الـ ف[1] والـ ف[2] المطلقة من الأراضي التي ما زالت محتلة بعد ، ظلت تمطر البلاد ، و ٥ ملايين من الرجال بدأوا في العـام ١٩٤٥ خدمة العلم ، و ٤ ملايين من المدنيين وقفوا أنفسهم لنشاط الحرب ، والناس رجالاً ونساءً استنفروا من ثمانية عشر الى ستين عاماً .

وكانت الجنـود تقاتل على جميـع الجبهات ، وتمسك بالحاميات في ألمانيا ، في النمسا ، في البندقية الجولينية ، في اليونان ، في الشرق الأوسط ، في آسيا . والتقنين قائم — كامل ، متكيف مع الحال،ولكنه منفر ومضجر في جميع النواحي . ولم تستأنف الحياة العادية الا مع النصر ، وعندئذ سارت الأمور بسرعة .

الكلام للبلاد . — إن هذه البلاد التي لم تستشر منذ ١٩٣٥ والتي انتجت آنئذ برلماناً مؤلفاً من ٣٨٧ محافظاً و ١٧ حراً ليبراليا ، و ١٥٤ عمالياً ، عادت في ٢٥ تموز ١٩٤٥ الى صناديق الانتخابات . وفي الرقم ١٠ دوننغ ستريت ، مقر الوزير البريطاني الأول ، حيث توالى ، منذ الانتخاب العام الأخير ، ستانلي بالدوين ، نيفيل تشمبرلن ، ونستون تشرتشل ، أقام زعيم حزب العمال ، كليمنت آتلي الذي أصبح فيما بعد اللورد آتلي .

لقد حدثت تغييرات كبرى في الـ ٦٣٠ دائرة انتخابية ، بالاقتراع الوحيد الاسم ، وبجولة واحدة . فقد قدم الشيوعيون الانكليز ، لأول مرة في تاريخهم ، ١٠٠ مرشح وحصلوا على مقعدين ، ثم أضاعوهما بسرعة . وخنق الحزب الليبرالي بين الحزبين الكبيرين التقليديين . ونصر العماليون، حسب كلمة تشرتشل،« نصراً مبيناً » . واستمرت الحياة ظاهراً .و « ما زال الملك في لندن »، كما كان يغنى أثناء الحرب . وظلت أجهزة الحياة العامة : حتى ان مجلس العموم الذي أصيب بقنبلة مباشرة أعيد انشاؤه

بشكله المستطيل التقليدي . وازيحت الانقاض ، ونظفت واجهات الوزارات في شارع الهوايتهول . ومع ذلك ، فإن وصول جهاز جديد إلى السلطة مع الوجوه التي أصبحت مألوفة : آتلي ، السير ستافورد كريبس هيربرت موريسون ، هوغ دالتون ، ارنست بيفين ، والحاد الطبع انورين بيفان ، وهارولد ولسون وآخرون ، يعتبر تحولاً في أعماق انكلترا العجوز . ولم يعد المحافظون للسلطة الا في ١٩٥١ ، وظلوا فيها ثلاثة عشر عاماً . وفي ١٩٦٤ امحوا من جديد أمام حزب العمال يوجهه في هذه المرة هارولد ولسون ، « الرجل ذو الغليون » .

ولكن الذي لا يظهر بالقراءة البسيطة من هذه اللوحة ، هو غليان الأفكار ، وضغط الحوادث ، وشجاعة « صغار الرجال ذوي السيوف الصغيرة ، المصممين والوحيدين ، الذين يطلقون تحديهم النحيل إلى سعة الفجر » . ان توالي الصعوبات والأزمات ، والقضايا والأخطار ، وكل هذه التبعية قالت إلى ماكميلان : « إننا نعيش عصراً جديداً اليزابيثياً » .

ولم تتغير الأطر الحقوقية – الادارية في الحياة السياسية فحسب ، بل الوجود الاقتصادي والاجتماعي ، والسياسة الخارجية وسياسة الدفاع . وكان جورج السادس أولاً ثم اليزابث الثانية ، ابتداء من ٦ شباط ١٩٥٢ ، شاهدين ، أكثر من الممثلين ، على هذه الثورة الصامتة » .

وفقد مجلس اللوردات آخر سلطاته ؛ وظهرت في الوزارات وظائف جديدة ، وتجددت الأحزاب ، كمجلس العموم . وقامت هيئات جديدة متكيفة مع أعمال غير منتظرة .

ثم ان المغامرة ، التي بدأت مع تفجير القنبلتين الذريتين الأميركيتين على اليابان ، – وهما تحقيق علمي أسهم فيه العلماء البريطانيون – ، استمرت مع نهاية الاعارة والتأجير و « الحلف الكبير » والخلاص من الاستعمار

والعودة إلى أوربه ، وعدم الالتزام ، وفي المضمار الاقتصادي ، « حالة الرفاه » ، و « قف وانطلق » ، والخطة .

الخلاص من الاستعمار دون دموع . — وبشكل مناقض ، إن هذه الأمبراطورية البريطانية ، التي جعلها خيال دزرائيلي قديماً اداة قوةوشوكة واسطورة ، أخذت تتحول إلى رابطة شعوب بريطانية (كومنولث) ، بل وتنحل دون اثارة أزمات ولا دموع ، ودون أن تعرض النظم القومية للخطر . ومن عجب أن من جهد أكثر من غيره « للخلاص من استعمار الأمبراطورية » كان رجلاً محافظاً وهو هارولد ماكميلان .

في ١٩٤٢ كان تشرتشل يؤكد بأنه لم « يصبح الوزير الأول لصاحب الجلالة ليرأس تصفية الأمبراطورية » . وفي ١٩٥٦ ، كتب اللورد هايلي : « ليس للاستعمار من مبرر الا تهيئة الطرق لالغائه » .

إذن ماذا بقي من الأمبراطورية ؟ ومن الكومنولث ؟ لقد أعطى هيوغ سيتون — وتسون عنها في « الانكونتر » ، في تموز ١٩٦٣ هذا التحليل :

« شبكة علاقات شخصية وتنظيمية تتحدى الوصف ... ان انكلترا ليست مركزاً لامبراطورية كبرى ، حتى ولا لوحدة عالمية من أمم من الألوان لها نفس المثل الأعلى وتقبل زعامة المملكة المتحدة المعنوية .. » . ومع ذلك فقد بقيت رابطة عواطف رخوة جداً .

وأكثر من ذلك أيضاً أن حكومة آتلي ، عندما استلمت السلطة فكرت بازدهار المملكة المتحدة أكثر مما فكرت بمجد الكومنولث .

ان « رفاه الدولة » ، واصلاحات التعليم ، وتوظيف الموظفين الاداريين ، والسكن ، والتأميمات ، والمكان الذي منح لتنميات العلم

أو التقنيات ، والاستخدام الكامل ، ان كل هذا هيأته جزئياً وزارة ائتلاف الحرب ، ويؤلف برنامج وعمل سنوات السلطة الست لحكومة العمال الأولى بعد الحرب .

ان انكلترا ، التي قامت من قبل بثورتين صناعيتين : ثورة الفحم والحديد في القرن الثامن عشر ، وثورة الكهرباء والبترول في القرن التاسع عشر ، تقترب اليوم من الثورة الثالثة : ثورة الذرة والآلية . كانت الثورتان الأوليان فظتين تدمغان الطبقة العاملة بخاتم البطالة ، والمرض ، والبؤس . أما رجال الثورة الصناعية الثالثة فيريدون أن يوجهوها وجهة العدالة الاجتماعية .

الرفـــاه وسوابقه . — أما بالنسبة لرجـــال السياسة في حكومة تشرتشل ، فقد كان لظرف العمل وجهان عرفوهما خـــلال سنوات الـ ٢٠ وهما البطالة والاضراب العام في الأول من أيار ١٩٢٦ ، الوحيد في تاريخ الحركة العماليه الانكليزية . وقد أثير بسبب عـدم قدرة بالدوين على أن يجعل من انكلترا « عـالماً أهلاً بابطـاله » . وصوت عليـــه ٣٥٠٠٠٠٠ مندوب مقـابل أقـل من ٥٠٠٠٠ « لا » و ٣٥٠٠٠٠ متردد ، فشل الأمة وفرض عليها صدمة صحية . ولكنه جعل الطبقة العاملة واعية لقوتها وطبـع في ذهنها بذلك معنى المسؤوليات . وجعل المحافظين المعتدلين ، الذين يعلنون « بأنه يجب الا يرى هـــذا أبداً » ، في أمرهم يتفكرون .

غير أن استئناف التسلح ازال قسماً من البطـــالة وانتهى النفير العام بحذفها . وفي الوقت نفسه تبلورت فكرة سياسية اشتبك فيها مأتى العمال ومأتى « المحافظين الشبان » . وعندما حان النصر ، قـال الرجال السياسيون ، الذين جهدوا في أن تبقى الأمة في النزاع ، بأنهم إذا كانوا

قادرين على إنشاء عجلة حرب مدهشة تنتج بوفرة « أشخاصاً حادي المزاج » لمعركة انكلترا وعصير « الليمون » العزيز على البحارة الانكليز، فمن الممكن اشادة عمل عظيم للسلام : « مجتمع الوفرة » .

وفي فيض الحماسة البريطانية القليلة كثيراً ، في ١٩٤٥ ، استملكت الحكومة أماكن وضعها اللوردات تحت تصرف مجلس العموم وبما يستطيع رجال مجلس العموم الدخول إلى حرمهم التقليدي المتضرر بشكل مؤسف. كما أن الاصلاحات ، التي بدىء بها أثناء الحرب ، بدافع من حزب العمال الذي كان يعلن أن اسهامه في حكومة ائتلاف لا يقتضي منه « التخلي عن مبادئه » ، تمت بسرعة .

وطلب المحافظ ، ريتشارد اوستن بتلر المسمى (راب) التصويت في ١٩٤٤ على ديموقراطية التعليم الابتدائي والثانوي ، دون أن يهاجم بالمقابل ، لنلاحظ ذلك ، قلاع النظام أي « المدارس العامة » ، والجامعتين الجليلتين ، جامعتي اوكسفورد (١٢٥٤) وكامبريدج (١٣١٨) . ولكن العمل الأهم كان عمل الحر السير وليم بيفيريدج (وهو اليوم اللورد بيفيريدج) الذي كلف بعمل جرد القوانين الاجتماعية الموجودة ، واقتراح صبرها من جديد وامتدادها . ونشرت دراسته بشكل « كتاب أبيض » في ١٩٤٢ ، وكانت حصيلة هذه الدراسة مؤثرة . فقد دخلت بكاملها في تشريع متجانس وغني جداً حول من ١٩٤٥ الى ١٩٥١ ظرف العامل بتنظيم الاستخدام الكامل والحماية ضد جميع آلام الانسانية (الخدمة الصحية)، والوصول إلى كل ما يجعل الحياة أكثر انسانية ، من المصحات الى المساكن ، ومن الراحة للعمل ، ومن رفع مستوى الحياة الى التقاعد . وهذه هي « حالة الرفاه »، إنها تحقيق وحيد في العالم الغربي ، وقد ألهمت بشكل يلفت النظر التشريع الاجتماعي في تشيكوسلوفاكيا اليوم .

وبنفس القوة ، في هذا البلد ، الذي وجدت فيه مدن كثيرة أكواماً من الانقاض النظيفة ، وأكثر من ذلك ، أن القرن التاسع عشر ترك فيه ارثاً ثقيلاً من فيض الاستيطان ، جابهت الحكومة قضية جعلتها الحرب العالمية الثانية واسعة ودون حدود . فقد وجد مليون ونصف من الولادات بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥ ، على حين أن داراً على ثلاث دور خربت أو تضررت .

ولمعالجة ما هو عاجل ، استعمل أولاً ما يمكن استعماله ، وأصلحت دور وأقيمت في كل مكان دور أخرى جاهزة ومعدة من قبل وانتهى هذا البرنامج الموقت في ١٩٤٩ . ومنذ ذلك الحين لم يبن إلا ما هو قطعي ونهائي (٤ ملايين ونصف سكنا بين ١٩٤٥ و ١٩٦٣) . أما الأحياء الفقيرة التي لم يسحقها سلاح الطيران الألماني ، مثل الايست أند في لندن ، فقد سحقتها كاسحات السلام . وأقيم السكان بمناطق كاملة في شوارع ، وأحياء ، ومدن ـ حدائق ، أو « مدن جديدة » (٢١مدينة جديدة ظهرت في بريطانيا ـ العظمى) . ويوجد اليوم نحو ١٧ مليون دار تملك ربعها هيئات عامة . وأكثر من دار على ثلاث دور (وكلها ٦ ملايين ونصف) يسكنها مالكها . وأسرة واحدة على أربع أسر تسكن بناء شيد بعد الحرب . وهذه المساكن جميعها تقريباً ، هي دور فردية وتتألف من طابقين تقريباً ، والباقي موزع بين « الدور الصغيرة» وكتل الأجنحة المؤلفة من طابقين الى عشرين طابقاً . وقد أسهمت في هذا الجهد السلطات المركزية أو الاقليمية والهيئات العامة أو نصف العامة ، والجمعيات الخاصة التي لا تستهدف الربح ، وعمرت للايجار أو البيع . وفرضت مبادىء وقواعد للبناء وحددت الأسعار . ويسع البيت النموذجي ٨٢ م^{2} ويتألف من غرفتين ، وغرفة جلوس ، ومطبخ ،

وحمام ، ومكان للقيامة ، ومرآب (كراج) ، وقد كان ثمنه ٢١٢٩ جنيه في ١٩٦٣ ويبدو اليوم أنه بلغ ٣٠٠٠ جنيه .

وأخيراً ، ان اصلاحات العماليين الاجتماعية وضعت في اقتصاد جديد مطبوع بتأميم التسليف والقطاعات الاساسية في الصناعة .

ومنذ ١٩٤٥ ، سقطت النصوص بكميات كبرى : توزيع قوانين الصناعات لعام ١٩٤٥ و ١٩٥٠ ، قوانين تخطيط المدينة والريف عـــام ١٩٤٧ ، وقوانين الخدمة القومية ١٩٤٦ ، ١٩٤٨ ، ١٩٥١ ، تأميم الفحم ، والطيران المدني ، وبنك انكلترا ، في ١٩٤٦ ، والخطوط الحديدية ، والنقل على الطرق ، والكهرباء في ١٩٤٧ ، والغاز في ١٩٤٨ ، والحديد والفولاذ في ١٩٤٩ ، وقد تمت هذه الاصلاحات في مناخ سياسي صعب ، في الخارج كما في المضمار المالي .

نهاية الحلف الكبير . — منذ ١٩٤٥ ، شهد الانكليز المكاومون تصدع حلف الحرب ، وارتخت الروابط التي عقـدت أثنـاء النزاع بين شاطئي المحيط الاطلسي .

لقد كان الحلف الكبير قليل التنظيم جداً ، ويعتمد قبل كل شيء على العلاقات الشخصية بين تشرشل وروزفلت . وقد مات روزفلت في ١٢ نيسان ١٩٤٥ . وفي ٢٥ تموز الذي يليه ، ضرب تشرشل في الانتخابات . وعندئذ ، كما كتب اللورد سترانغ ، كانت القضايا ، التي جابهها ارنست بيفن وزملاؤه ، تتطلب ، قبل كل شيء ، ضرورة سلوك سياسة خارجية معقولة تتناسب مع ضعف بريطانيا ـ العظمى الاقتصادي والعسكري » .

والواقـع ، ان بيفن ما أن أقام في وزارة الخارجيـــة ، محاطاً بالدبلوماسيين ، وكان بعضهم يوحي اليه بثقة محـــدودة ، حتى أبدلهم

بما أمكن من السرعة بما يسمون اليوم « غلمان بيفن » بعد مسابقة جديدة قل فيها اعتبار المحسوبية ، ووجد الوزير في نزاع مع أزمة عظيمة .

فمنذ ١٩٤١ ، كانت بريطانيا - العظمى تعيش بفضل الإعارة والتأجير . وكما قال مورغنثاو الامين الاميركي المالية في عهد روزفلت ، دون أن نصدقه تماماً ، « ان انكلترا على الشاطيء » . لأن المخول من الإعارة والتأجير اولاً حتى ١٩٤٣ لم يمدد إلا حتى ١٩٤٥ . وكان يراد في لندن تمديداً جديداً يساعد على تصحيح الوضع ، ولكن مورغنثاو ، بالضبط ، كان يخالف هذا الرأي . لأن الإعارة والتأجير في نظره تدبير حرب ؛ فإذا كانت لندن بحاجة الى مال ، فلتجر قرضاً . ولما علم اللورد كينز باتخاذ هذا الوضع وصفه بأنه « دنكرك دبلوماسية » . ومع ذلك فقد كافه آتلي بأن يفاوض بهذه القروض الاميركية الشهيرة ، التي خول أحدها في كانون الاول ١٩٤٥ ، والآخر في كانون الاول ١٩٤٦ . وكانت شروطها مخزية . فقد رفضت واشنطون أن تأخذ بعين الاعتبار وجود كومنولث أو « تفضيل امبراطوري » أو « منطقة استرلينية » ، وفتت بغبطة شوكة بريطانيا . وأكثر من ذلك ، ان مورغنثاو — وهو اقتصادي مدرسي جداً — طلب ان تتعهد لندن بإعادة توطيد مبادلة الجنيه الاسترليني في تموز ١٩٤٧ على أبعد حد .

ولما لم تكف هذه الضربة ، فقد انهالت ضربة أخرى على انكلترا وهي « انتهاء التعاون النووي » بين البلدين .

وكانت انكلترا تملك في الحرب ثروات مختلفة . ففي ١٩٤١ ، كان الانكليز متقدمين في دراسة الذرة على الاميركيين ، وكانوا يأبون تقاسم ثمرة أعمالهم . وفي آب ١٩٤٢ عوض الاميركيون تأخرهم ، وفي كانون الاول ١٩٤٢ ، شع أول بيل أميركي في شيكاغو ، وأعطى الرئيس

التعليمات التي تفيد كأساس لـ « مذكورة كونانت »، وكان ذلك بداية لقطيعة بين البلدين . ولم يستأنف العمل المشترك إلا في ايلول ١٩٤٣ ، خشية من أن يرى الرايخ الثالث يصنع أول قنبلة ذرية ، وكان يجهل في أي نقطة كان بعيداً عن هذه المرحلة . وفي أيلول ١٩٤٤ ، التقى روزفلت وتشرشل في هايد بارك ، في الولايات المتحدة ، وتفاهما على متابعة التعاون الذري الوثيق بعد الحرب .

والشيء الغريب ، أن التقرير الذي كتب عن هذه المحادثات اختفى خلال عدة سنوات من المحفوظات الاميركية . وفي آذار ١٩٤٦ ، أوقف الانكليز آلان نان ماي ، وهو عالم شاب يبشر بمستقبل عظيم ، واعترف بأنه بلغ معلومات نووية مصنفة سرية الى الروس ، فتمسكت الولايات المتحدة بهذا العذر . وفي نيسان ١٩٤٦ عاش التعاون الذري الانكليزي — الاميركي . وفي آب ١٩٤٦ ، صوت الكونغرس على « قانون ماكماهون » الذي يحرم إعطاء الأجانب أسراراً نووية عسكرية . ولزم الانتظار حتى كانون الاول ١٩٤٦ ليشع أول بيل سوفياتي ، ويتبعه أول بيل انكليزي في آب ١٩٤٧ ، لتستأنف الاعمال الانكليزية — الأميركية ، في أضيق الحدود تقريباً .

وبينما كانت انكلترا تجابه ضربات القدر هذه ، انفجرت في كانون الثاني ١٩٤٦ الحرب الأهلية في اليونان ، التي اعتبرها مؤتمر موسكو في تشرين الاول ١٩٤٤ ، أرض صيد لانكلترا . وفي ١٣ تشرين الاول ١٩٤٤ نزلت الجنود البريطانية في بيريه لتهيىء عودة الملك جورج . وفي كانون الاول قمعوا ثورة آثينة . ولكن الأمور تغيرت في ١٩٤٦ . فقد رأى بيفن بأنه لا يملك الوسائل ليلقي بنفسه في عملية مكلفة وطلب من الاميركيين ان يقوموا مقام الانكليز . وهذا ما فعلوه . فقد أفادوا

من ذلك وفرضوا وجهات نظرهم في اليونان ، بل وفي اسرائيــل ، وبولين ، وبراغ ، و رومانيـــا و في غيرها ، ولم يكن ترومان ليدافع دوماً عن الموقف البريطاني في هذه البلاد . ولكن بيفن كان مضطراً إلى التنازل . فقد كان ماثلاً في ذهنه تفكير ترومان في مؤتمر بوتسدام وهو : « ان بريطانيا ـ العظمى تابعة اقتصادياً للولايات المتحدة ، وما عليها إلا أن تنحني أمام قراراتها . وليتخلص بيفن من هذه العبودية ، فصل في الأمر بشكل لا يرحم في موازنة الدفاع . وفي ١٩٤٤ — ٤٥ كانت هذه الموازنة تمثل ٨٣ ٪ من النفقات العــامة الاجمالية . وفي ١٩٤٥ — ٤٦ ، لم تكن إلا ٨٠٪ (٤٢٪ في ١٩٤٦ — ٤٧ ؛ ٢٩٪ في ١٩٤٧ — ٤٨ ؛ ٢٤٪ في ١٩٤٨ — ٤٩ ؛ ٢٢٪ في ١٩٤٩—٥٠) . فهلل المحافظون لهذه الجهود . وقد أشار ايدن في « مذكراته » فيما بعد بأن بيفن ناور ما أمكن في حالة مستحيلة .

توازن ميزان المدفوعات . — وفي الواقع ، ان حساسية انكلترا الاقتصادية بطبيعتها ، تسيطر عليها ضرورة توازن ميزان المدفوعات ، ولهذا السبب لم تكن الحرب ولا ما بعد الحرب مؤاتيتين لها ، بالرغم من « مساعدة مارشل » .

في ١٩٣٨ كان الميزان التجاري في عجز خفيف . ثم أقيم التــوازن « بالموارد غير المرئية » التي تمرل ما يقارب ٣٠ ٪ من واردات البضائع .

وفي الحقيقة ، ساعدت سياسة الحكومة الغذائية منذ ذلك الحين على انقاص الواردات الغذائية . و بـ ٥٪ من مجموع العمال في الأرياف قدمت الارض الانكليزية ، في آخر النزاع ، ٥٠٪ من الغذاء . ولكنها ، من جهة أخرى ، بين ١٩٣٩ و ١٩٤٥ ، وفتت أكثر من مليون جنيه من

أموالها في الخارج لدفع واردات الحرب وقطعت طوعاً الصادرات نحو امريكا اللاتينية وآسيا . وتحمل الاسطول التجاري خسائر فادحة ، ورا كمت المملكة المتحدة ديون الولايات المتحدة وبعض البلاد في منطقة الاسترليني. وفي ١٩٤٥ ، قدرت الحكومة بأنها إذا زادت صادراتها ٥٠٪ بالنسبة إلى ١٩٣٩ استطاعت بالضبط أن تستورد ما كانت تستورده قبل الحرب . وإذا كان الانكليز ، في ١٩٥٢ ، ردوا عجز ميزان الحسابات إلى ١٠ ٪ فهذا النجاح يعود جزئياً إلى الظروف : فمن جهة ، كانت اوربة بكاملها بحاجة إلى الفحم ، وانكلترا تملك منه الكثير . ومن جهة أخرى أفادت انكلترا أيضاً من التقدم الذي حققته أثناء الحرب في ميادين الملاحة الجوية والكيمياء ، والالكترونيك والاجهزة الخفيفة ، والتجهيز الثقيل ، وتقنية العمارة والصناعة النووية .

وهكذا تم التحويل بين ١٩٤٥ و ١٩٥٠ بأسرع مما كان منتظراً . وكان الانتاج القومي الحامي يزداد بأكثر من ٤ ٪ في العام . ولكن لم يتوصل إلى هذه النتيجة إلا بالمحافظة على الاشراف الذي كان في زمن الحرب وبتوجيه الصناعات الأساسية نحو التصدير . وهذا الوضع ضعيف . حتى ان الانكليز شكروا ، بعد قليل ، من أن حياة الالمان رغم مصابهم كانت أسهل من حياة الانكليز . وقد وعدهم هارولد ولسون ، رئيس بورد العمال ، « نار فرح عظيمة تغذيها بطاقات التقنين . ولكنه ، في رأيهم ، تأخر كثيراً بايقاد الحطب .

أفول الآلهة . — بدأ التشريع بحماسة وانتهى ببرارة . ونسي الناس ما عمل ، وجزعوا لما لم يعمل بعد ، وأساءوا الفهم بأن « الاميركين كفوا عن اغراق البلاد بالكوكاكولا » .

وفي السياسة الخارجية ، لم يتحرك شيء . فقد تنازل الملك همبرت الثاني

عن عرش ايطاليا وغادرها في ١٣ حزيران ١٩٤٦ ، فكان ذلك دواءً مخففاً عظيماً لواشنطون ، وعويل وزارة الخارجية . وفي ٣٠ كانون الأول ١٩٤٧ ، تنازل ميشيل ملك رومانيا عن العرش وأصبحت البلاد « ديموقراطية شعبية » وانفجرت « ضربة براغ » في ٢٤ شباط ١٩٤٨ . وفي ١٩٤٧ ، رفض الاتحاد السوفياتي الاسهام في برنامج مارشل و « أسدل الستار الحديدي على العالم » في وقت لم يكن فيه جيش لانكلترا . وأخذ الاميركيون على عاتقهم وحدهم الجسر الجوي لبرلين . وطبعوا جمهورية المانيا الاتحادية بطابع ديموقراطي مسيحي قوي بعيد عن الاشتراكية كانت تحلم به لندن لهذا البلد « العجز » .

ثم ان توقيع ميثاق الأطلسي (٤ نيسان ١٩٤٩) أنجد حقاً الوجود الاميركي في اوربة ، أمام القوة السوفياتية . ولكن القضية لم تكن إلا قضية وقت لأن الاتحاد السوفياتي في هذه السنة نفسها ١٩٤٩ فجر أول قنبلة ذرية .

وفي ٢٣ شباط ١٩٥٠ جرت في انكلترا الانتخابات العامة وحصل العماليون على اكثرية ٦ مقاعد . وكان بيفن مريضاً فحل محله موريسون وطبق آتلي مع ذلك تأميم الفولاذ في ١٥ شباط ١٩٥١ ، واستمرت السلسلة الدبلوماسية السوداء . وبين حزيران وتشرين الأول ١٩٥١ ، فقدت انكلترا بترول ايران ، وفسخ النحاس باشا الاتفاقات الانكليزية – المصرية لعام ١٩٣٦

وعاد آتلي عندئذ امام البلاد . وفي ٢٥ تشرين الأول ١٩٥١ ، انتقلت السلطة إلى المحافظين ، ولكن بأكثرية قليلة ، لأن أكثرية الـ ١٧ مقعداً لحكومة تشرشل – ايدن قد كسبت بجموع وطني من الاصوات

أدنى من المجموع الوطني الذي انتقل إلى حزب العمال . وهـذه نتيجـة الاقتراع الاسمي الوحيد في جولة واحدة الذي يفوز فيه مرشح الرأس ، لأن رجال حزب التوري (المحافظين) الذين وجدت أصواتهم موزعة أيضاً في البلاد ، كان منتخبوهم أكثر من حزب العمال بجماهيره العـاملة المقيمة في مناطق محدودة ضيقة .

وهكذا حكم المحافظون لأول مرة منذ نهاية الحرب .

« الحرية المحافظة تسير » (١٩٥١ — ١٩٥٥) . — وتمسكاً بالوعود المقطوعة للهيئة الانتخابية ، بدأ المحافظون ، في ١٩٥١ ، بتطبيق تدابير التحرير الموعودة : أعيدت حرية الاسعار تدريجياً ، في ١٩٥٢ ، ١٩٥٤ ، ١٩٥٥ . وتحررت أسعار الغذاء في ١٩٥٤) . ولم يبق إلا الرجوع إلى مبادلة الجنيه والسماح بممارسة التجارة الخارجية دون قسر أو اكراه .

والشيء المفاجيء ، في بلد يبدو فيه أن تجديد توجيه التيارات التجارية العالمية غير ملائم ، بلد نسبة البطالة فيه لا تتجـاوز ١٫٥٪ ، وليس فيه احتياطي يد عاملة جاهزة ، هو أن هـذه السياسة نجحت . « الحرية المحافظة تعمل » ، كما تنـادي كراريس دعاية التوري . واذا ارتفعت الأسعار ، ارتفعت الأجـور أيضـاً باسرع منهـا ، وازداد الطلب على سلع الاستهلاك الدائمة . وإذ اوقف الافلاس الناجم عن حرب كوريا لحظة واحدة هذا التقدم فما كان ليشعر به إلا قليلاً . وبالعكس ، إن النزاع ، الذي دام منذ ٢٥ حزيران ١٩٥٠ ، ولم ينته إلا في ٢٧ تموز ١٩٥٣ ، خلق نقوداً جاهزة في حسابات الدومنيون في لنـدن ، وسوقاً للطلب وجد الصناعيون البريطانيون كل المتاعب لارضائه . وحتى ١٩٥٥ ، عرف الاقتصاد نسبة زيادة مدعومة . وكان بتلر آنئذ وزيراً للمالية قد طرح

شعاراً وهو : « وظفوا أموالكم في النجاح » ١٩٥٤ . وكانت القضية قضية وقت لأن سنة ١٩٥٥ كانت سنة وصل في الاقتصاد الانكليزي ، وهي سنة نهاية « الرخاء الاقتصادي الكبير » . وفي هذه السنة ، اصطدمت البضائع الانكليزية في الأسواق الخارجية بمنافسات جديدة . وانخفض ميزان المدفوعات . وأخذت حكومة المحافظين بين أمرين : لزوم الابقاء على الحرية الاقتصادية دون اشراف ، ولزوم دعم الرخاء والاستخدام الكامل لليد العاملة الجاهزة .

اتهم بعضهم « حالة الرفاه » بأنها تكلف غالياً جداً ، ولكنها لاتمثل ١٠٪ من الانتاج القومي الخام ، وهذا ما يجعل العبء مساوياً بشكل محسوس إلى العبء الذي تتحمله البلاد الأخرى من هذه النقطة . وكانت النفقات العسكرية موضع تساؤل بدورها . ولكنها لا تمتص إلا ٧٪ من الانتاج القومي الخام - كما في فرنسا - فضلًا عن أن منحة اميركية جوهرية ظهرت في موازنة الدفاع ، منذ ١٩٥٢ ، كإسهام في البحوث النووية العسكرية .

وهكذا نرى أن ١٩٥٥ تقارن بشكل غير ملائم بالسنوات السابقة التي يبدو أنها كونت بحق « عصر الرخاء ». ولكن رجال حزب التوري لم يفقدوا ثقتهم : لقد اكتشفوا « قف وانطلق » .

من « قف وانطلق » الى نيدي (١٩٥٥ - ١٩٦١) -

رفع التأميم عن الفولاذ في ١٧ آذار ١٩٥٣ . وكان ذلك وسيلة ضغط من الحكومة على السوق فزالت ، وبشكل اضطر وزير المالية ، في ١٩٥٥ ، إلى حيل سياسة ظروف صرفة (أي إلى وسائل عمل قصيرة الأجل مؤثرة على الظروف). وحتى ١٩٦١ ، أعطت هذه الوسائل إلى نمو العصر منحنى بارزاً قوياً بشكل اسنان المنشار . وهكذا تم دور

توسع سريع ، من ايلول ١٩٤٩ (انخفاض قيمة الجنيه) إلى حزيران ١٩٥١ . ومن حزيران ١٩٥١ إلى كانون الاول ١٩٥٢ ، عقب نزيف الذهب والعملة الصعبة ، ضيقت الحكومة الاعتمادات ، والواردات ، وسببت ركوداً صناعياً مصحوباً بزيادة في البطالة . وعندئذ فرجت عن الاشراف ، ومن بداية ١٩٥٣ إلى تشرين الاول ١٩٥٥ عاشت انكلترا دور نمو مدعوم أكثر من أي دور عاشته منذ ١٩٤٥ . ثم تلا ذلك دور « توقف » جديد من تشرين الاول ١٩٥٥ إلى تشرين الاول ١٩٥٨ ، ثم توقف جديد للنمو الاقتصادي : بلغت فيه البطالة ٢٫٤٪ . ثم عودة إلى « الانطلاق » من تشرين الاول ١٩٥٨ إلى نيسان ١٩٦٠ ، « ووقوف » بين نيسان ١٩٦٠ وكانون الأول ١٩٦١ . وفي الحقيقة إن عودة تقويم الفلورن الهولندي ودوتشمارك غربي المانيا ، أحدثت بالفعل موجة استغلال ضد الجنيه . ولذا ، وبالرغم من مساعدة المصارف المركزية الأوربية ، في آب ١٩٦١ ، اضطرت المملكة المتحدة أن تسحب ٧١٤ مليون من الجنيهات على بنك النقـــد الدولي . وفي تموز لجأت إلى تدابير جديدة لضمور النقد مثل رفع سعر الحسم وتضييق الاعتمادات وزيادة الضرائب غير المباشرة وتجميد الأجور .

إن أزمة ١٩٦١ والوسائل المتخذة لمجابهتها اعتبرها الاقتصاديون أخيراً كالحكم بالاعدام على سياسة « قف وانطلق » التي طبقهـا منذ ١٩٥٥ هارولد ماكميلان ، بيتر ثورنيكروفت وهيتشكوت اموري الذين توالوا على المنصب المخيف ، منصب وزير المالية .

أما هارولد ولسون ، الذي خلف في ١٤ شباط ١٩٦٦ هيوغ غيتسكل كزعيم عمالي ، فقد أشار إلى عقم ولا معقولية هذه اللعبة ،

وسياسة « قف وانطلق » التي كانت فيها أدوار « انطلق » تحدث في كل سنة انتخابية .

وقال : إن الضمور النقدي الذي سببه تضييق الاعتمادات ، واستعمال كتلة الأموال العامة ، ونظام الضريبة ، وندرة توظيف الأموال ، والسياسة النقدية ، لم تكن فقط غير كافية ، بل كانت مشؤومة ،وبالغت في أسنان منشار الاقتصاد وثبطت همة الصناعيين .

وهذا التثبيط لأكثر دعائم حكومة المحافظين حزماً سيضطرها الى ايجاد حل آخر ، ولذا اعتنقت فكرة الخطة .

التخطيط المحافظ (١٩٦١ - ١٩٦٣) . - وكما في فرنسا ، كانت الخطة في انكلترا ابداعاً عملياً ، وغير علمي ، وقد أعده أناس لم يكونوا مذهبياً مخططين ، ولكنهم أخفقوا في بحثهم عن ليبرالية دون أزمة . ولذا دعا وزير المالية ، في تموز ١٩٦١ ، أرباب العمل وممثلي العمال للنقاش معه في نظام تخطيط للاقتصاد . ومثل هذا العمل يتضمن تنسيقاً للطلبات وعملاً على اقتصاد سوق مفتوحة بسعة باتجاه الأجنبي ، وبالرغم من كل شيء ، وبعد أن اتخذت التدابير المباشرة للحيلولة دون أزمة ١٩٦١ ، دعا ساوين لويد ، في ٨ آب ، **اتحاد الصناعات البريطانية** ومؤتمر نقابات العمل برسائل متشابهة يقترح فيها عليهما « مائدة مستديرة » بغية تأسيس هيئتين جديدتين « مجلس التنمية الاقتصادية الوطنية » وساعده الزمني « مكتب التنمية الاقتصادية الوطنية » .

وجاء (المستخدمون) مباشرة واحتلوا أماكنهم في المجلس، أما مندوبو نقابات العمل فقد ندبوا عنهم في مؤتمر ايلول ١٩٦١ ، ولم يشاركوا فعلاً بالأعمال إلا ابتداءً من شباط ١٩٦٢ عندما لينت الحكومة تجميدالأجور ،

الذي فرض منذ صيف ١٩٦١ . وشوهد عندئذ أن أرباب العمل بل وأيضاً النقابات لم يتصوروا فكرة تخطيط حتى ان تقنيات هذا التخطيط كانت غريبة عليهم كلياً . ونشأ « النيدي[1] » في ١٩٦٢ ومكتب التنمية الاقتصادية الوطنية ولجنة التنمية الاقتصادية ، لعام ١٩٦٤ ، وكانت كلها ثمرة تفكير وزير المالية المحافظ : سلوين لويد .

اقترح « النيدي » أخيراً خطة اختيارية ، عامة جداً ، يعمل بها حتى عام ١٩٦٦ . وتنبأ بأن يزداد الانتاج الوطني الخام بنسبة ٤ ٪ في السنة وأن يزيد عرض اليد العاملة خلال هـذا الدور بـ ٠،٨ ٪ في العام ، والقوة الانتاجية للعامل بـ ٣،٢ ٪ في العام . وأن يمتص الاستهلاك المنزلي ٥٠٪ من زيادة الثروات ، بين ١٩٦١ و ١٩٦٦ ، بزيادة ٢،٩ ٪ للشخص وفي العام (عوضاً عن ٢،١ ٪ في السنوات الخمس السابقة) . وأن يزداد التوفير أيضاً ، لأن هذه ٢،٩ ٪ ظلت أخفض من نسبة ازدياد الانتاجية (٣،٢ للعامل) . وأن يخصص باقي الانتاج الوطني الخام إلى تثميرات (٥،٣ ٪ في السنة) . ويجب أن تزداد الواردات ، من جهتها ، بـ ٤،٧ ٪ ، وهذا يفترض زيادة في الصادرات بـ ٥،١ ٪ بالسنة ، وهذا التنبؤ مشروط بيقين ، أن المملكة المتحدة تكون قد دخلت « السوق المشتركة » قبل ١٩٦٦ . وأخيراً نص على التجديد التكنولوجي ، والتجزئة الاقليمية للخطة المخصصة لمعالجة فقر الشمال وشمال ـ شرقي البلاد . وإذا لم يتوطد ، بالرغم من كل شيء ، ميزان المدفوعات من نفسه في وضع ملائم ، فسيعالج بالتقنين المفروض على حركات رؤوس الأموال ، وبتقليص

---

(١) « نيدي » Neddy تصغير ادوار Edouard ، وكان لقباً ودياً للمؤسسة .

الواردات ، وبالعون المالي الذي يقدم للمصدرين ، وبتقوية تعادل الاسترليني وربما أيضاً بتخفيض قيمته .

وابتداءً من ١٩٦٢ ، بدأت الحكومة ، واثقة بفضائل الخطة ، بتطبيق تدابير توسعية . وفي ١٩٦٤ ، استجاب الطلب الداخلي بحرارة جداً لهذا الدافع ، وتم تجاوز نسبة زيادة ٤٪ فسبب خللاً أساسياً في ميزان المدفوعات . وكانت النفقات المنزلية والتوظيفات المالية ، وكانت هامة في ١٩٦٣ ، مسؤولة عن هذه الحالة .

ومن المؤكد أن الصادرات زادت هي أيضاً ، وأن ميزان المدفوعات الجارية لـ ١٩٦٢ - ٦٣ أبدى زيادة . ولكن فجأة ، في ١٩٦٤ ، انتقل العجز إلى ٨٧٤ مليون جنيه استرليني ، منها ٥٥٣ مليون جنيه لحساب ميزان البضائع وحده . وكان هذا العجز أكبر عجز سجل منذ ١٩٥١ . وأعيقت الحركة التجارية بتطور غير ملائم لحدود المبادلة . وتجاوز تصدير رؤوس الأموال بأكثر من ٢٠٠مليون جنيهصادرات ١٩٦٣ . وبدا ميزان الدور ١٩٦١ - ١٩٦٣ يظهر عدم تلاؤم بينالزيادة الاقتصادية وتوازن ميزان الحسابات ... إلا إذا كان اقتصاديو « النيدي » ببساطة أناساً أغراراً وقليلي الخبرة . وعلى أي حال ، إذا تنبأوا برؤوس حادة عابرة من الخلل ، فما كانوا ليتوقعوا عجزاً بـ ٨٧٤ مليون جنيه ! وفي ١٥ تشرين الأول ١٩٦٤ ، سجل الناخب عدم موافقته بطرد المحافظين ودعوة العمال للسلطة .

من الحلف المعتدل الى السويس (١٩٥١ - ١٩٥٧) . -

لقد سيطرت على الدبلوماسية العمالية ثلاثة مبادىء وهي :

١ - ضرورة عدم أخذ تعهدات تكلف غالياً في الخارج .

٢ — ضرورة الحفاظ على علاقات طيبة بصورة كافية مع الولايات المتحدة لإمكان متابعة سياسة نووية وطنية .

٣ — ضرورة توطيد الحالة الاقتصادية لإمكان العمل بحرية على المائدة الدولية .

وبموجب هذه القاعدة الثالثة ، اعتقد بيفن في ١٩٥٠ بأنه على درجة من القوة كافية لاقامة علاقات دبلوماسية مع الصين الشيوعية ، بالرغم من استياء الاميركيين . وكان العماليون يباهون بقوام : ففي ١٩٥١ ، أبرمت واشنطون ميثاقاً دفاعياً عسكرياً مع اوستراليا وزيلنده — الجديدة ، دون أن تعلم به انكلترا ، كما لو لم يكن عليها أن ترى شيئاً في قرارات دومنيوناتها !

أما تشرشل وايدن اللذان عادا إلى السلطة بعد انتخابات تشرين الاول ١٩٥١ فقد سلكا طريقاً يختلف تماماً عن الطريق الذي اختاره العماليون ، ربما لأن الحادث أعطاهما درساً ، وربما لأن هذا ميلهما الطبيعي ، وربما لأن حرب كوريا، التي نشبت في ٢٥ حزيران ١٩٥٠ ، أعطتهما انطباعاً بأن لها منذ الآن دوراً هاماً ليلعباه . وكان هدفهما مثلاً : التقارب مع الاميركيين ، وصيانة المصالح الانكليزية في العالم ، وحض بلاد القارة الأوربية على التجمع في ميثاق دفاع ، وحفظ نفسها ، على هذا النحو ، من أخطار عدوان سوفياتي ممكن .

أما ما يتعلق بالولايات المتحدة فان تشرشل لم يصل إلى الاعتقاد بأن الحلف الأعظم قد مات إلى الأبد . وكان يباهي بأنه يريد احياء روابط الحرب ، على حين أن ترومان أو آيزنهاور الذي خلف ترومان ، في كانون الثاني ١٩٥٣ ، لم يهتما بانكلترا بخاصة . وقد توصل البريطانيون بمشقة إلى

استئناف « المشاورات الضيقة جداً بين البلدين » ، كما تقول بلاغات اللقاءات الانكليزية — الاميركية .

وعلى الصعيد النووي ، لم تكن الولايات المتحدة التي جربت على الارض المحرك النووي للغواصة « ناوتيلوس » ، لترغب باستئناف التعاون مع بلد لا يأتيها بشيء عظيم ، لو لا أن السوفياتيين فجروا ، في آب ١٩٥٣ ، أول قنبلة هيدروجينية فقبل الاميركيون بتنظيم العون الذي قدموه ، منذ عام ، للبرنامج الذري الانكليزي ، وتعهدوا بأن يجددوه من سنة لأخرى .

ومن البديهي ، في كوريا ، حيث حرم ماك آرثر من وظيفته آخيراً ، وفي الهند الصينية ، حيث فكر الاميركيون ، بعض الوقت ، بالتدخل إلى جانب الفرنسيين بضربات قنابل ذرية ، أن الانكليز كانوا يبشرون بالاعتدال وانتصروا . ولكن ، إلى جانب ذلك ، كم من الاهانات !

وبالرغم من التنازلات البريطانية ، رفض الاميركيون التدخل عندما تخلص جمال عبد الناصر تباعاً من الملك فاروق ومحمد نجيب واستلم السلطة . وفي قبرص ، وفي كينيا ، وفي الشرق الاوسط ، وفي آسيا ، وفي افريقية ، وفي اوربة الشرقية ، وفي كل مكان لاقى فيه الانكليز صعوبات ، كانت الولايات المتحدة تتدخل بحجة الوساطة ، وتقيم في الواقع الخصوم الواحد ضد الآخر بقصد واضح وهو لمّ القطع الساقطة من التركة البريطانية . وإذا قنعت في ١٩٥٤ و ١٩٥٥ بالاهتمام بميثاقي دفاع ، على طراز منظمة حلف شمال الاطلسي (١٩٤٩) ، منظمة جنوب شرقي آسيا من أجل آسيا ، وميثاق بغداد ، الذي اصبح ميثاق الحلف المركزي من أجل الشرق الأوسط ، فذلك بشرط أن تخص نفسها بحصة الأسد لا من أجل تسهيل دبلوماسية لندن .

وفي أوربة ، لم تحصل حكومة المحافظين كذلك على أي فوز .

وقد بدأت الاعمال المتعلقه باشادة وحدة الدفاع الاوربية بمؤتمرات في باريس منذ آخر ١٩٥١ . وكان التقدم ضعيفاً هزيلاً ، ورفضت الحكومة الفرنسية أن تقبل بأي شكل كان اعادة تسلح المانيا ، وعلى أي حال ، لا تريد ذلك في هيئة يكون فيها الانكليز غائبين أو تلعب فيها قاعدة الفوقية . وقد وثق الفرنسيون بخطب تشرشل الحماسية ، واعتقدوا بأن وحدة الدفاع الأوربية تضم بريطانيا ـ العظمى . وعندما اجتمع في مؤتمر برمودا ، من ٤ — ٨ كانون الاول ١٩٥٣ ، ممثلو فرنسا والولايات المتحدة والمملكة ـ المتحدة ، فهم المندوبون الفرنسيون بأن العون الانكليزي ـ الساكسوني ، غير ذي موضوع ، وان اهتمامهم بوحدة الدفاع الاوربية حار دخاناً .

وعبثاً حاول انطوني ايدن ، الذي وضع شرفه في التمسك بوحدة الدفاع الاوربية على الاحواض المعمودية ، جميع الوسائل لتذليل العقبات بما فيها التهديد . وفي عدة جلسات برلمانية صعبة ، بين ٢٣ و ٣٠ آب ١٩٥٤ ، اطرحت فرنسا نهائياً كل مشاركة في وحدة الدفاع الاوربية المحتملة . وأسدل الستار . وعندما اضطر ونستون تشرشل ، في ٦ نيسان ١٩٥٥ ، بعد احتقان دماغي خطير إلى الاستقالة ، وتخلى عن منصبه لإيدن ، عاشت وحدة الدفاع الاوربية . ولم تكن إلا ذكرى سيئة . وكان الجميع على اتفاق في أن اعادة تسلح المانيا تفرض نفسها أمام التهديد السوفياتي ، ويبقى ايجاد الاطار .

وعوضاً عن هذا المخرج السيء ، جرت المفاوضة باتفاقات باريس ، التي دخلت في حيز التنفيذ ، في ٥ أيار ١٩٥٥ ، وتممت اتفاقات بروكسل

١٧ آذار ١٩٤٨) ، وولدت اتحاد اوروبة الغربية ، المكلف براقبة إعادة التسلح الألماني الذي يجب ألا يتجاوز بعض الحدود ، ومقابل ذلك دعيت جمهورية المانيا الاتحادية بالاجماع إلى المشاركة في ميثاق الاطلسي .

كانت سنة ١٩٥٥ مشؤومة على انطوني ايدن . فقد كانت نهاية ازدهار حزب المحافظين ، وبداية الاضطرابات في قبرص وحرب الماوْ ـ ماوْ في كينيا . وانتزع السودان الانكليزي ـ المصري استقلاله . وحاول ماكميلان ، وزير المالية ، أن ينقذ حطام « ديموقراطية الملاكين الصغار » هذه التي وعد المحافظون بها البلاد .

ولكن ١٩٥٦ كانت أكثر بلاء أيضاً . فقد شهدت هذه السنة ، في الواقع ، في ٢٦ تموز ، تأميم قناة السويس على يد جمال عبد الناصر ، وثورة هونغاريا المناوئة للسوفيات من ٢٣ تشرين الاول ـ ١٤ تشرين الثاني ١٩٥٦ وقمعها ، والانزال الفرنسي ـ الانكليزي في بور سعيد ونهايته المخزية في (٥ تشرين الثاني ١٩٥٦) .حتى ان اللورد سترانغ ، وهو الدبلوماسي المتعود على الصيغ الدقيقة الألوان ، حكم دون مراعاة على مغامرة السويس . فقد كتب : « ان العملية لم تثقل كاهل الحكومة بلوم دولي كامل لا مثيل له منذ حرب البوير فحسب ، بل انها قسمت الرأي العام بعمق ، كما قسمته حرب اسبانيا واتفاق مونيخ » .

والواقع ، ان ايدن ، في ٩ كانون الثاني ١٩٥٧ ، بعد مظاهرات صاخبة في ميدان طرف الغار في لندن ، قدم استقالته الى الملكة ، وكان يشكو من التهاب مرارته . وأصبح هارولد ماكميلان الوزير الاول .

ماكميلان و « ريح التغيير » . ـ اسلوب ماكميلان خاص . فما كاد يقيم في رقم « ١٠ » دوننغ ستريت ، إلا وأراد أن يحاول ثلاثة

مشاريـع في آن واحـــد : مد بلاده بأحدث الاسلحة النووية ، وبثمن تضحيات كبرى ؛ والدخول في السوق المشتركة لتلعب انكلترا في اوربة الدور السياسي والاقتصادي الخاص بها ؛ وأخيراً ، انهاء الخلاص من الاستعمار دفعة واحدة .

وفي هذا المضمار الأخير ، كان الفوز مدوياً . فقد توصل خمسة عشر بلداً ، بانتظام ، الى الاستقـلال بين ١٩٥٧ و ١٩٦٤ . وفي ٥ كانون الثاني ١٩٦٠ ، قام ماكميلان برحلة كبرى في افريقية . وظل فيها حتى ١٥ شباط . وخطب أمام برلمان اتحاد جنوبي ـ افريقيـة خطاباً معادياً بعزم الى التمييز العنصري ، وباهى فيه بحسنات « ريح التغيير » . ففهمت افريقية الجنوبية . وعندما وضعتها الدومنيونات الأخرى موضع اتهـام ، خرجت من الكومنولث ، رابطة الشعوب البريطانية . واستطاع ماكميلان ان يخلص بلاده من روابط الاستعمار ، ولم يرتفـع في انكلترا أي صوت مسؤول للومه .

وأتى بعد ذلك دور المشاريع النووية . ولم ير هارولد ماكميلان فيها أي رمز ، أو أي اداة للجاه . وببساطة ، عندما اطرح الامير كيون مشروع راباكي في نزع الاسلحة الذرية الاقليمية في اوربـة (في ٣ أيار ١٩٥٨) بالرغم ممـــا يبدو من تقدم المفاوضات في معاهدة لوقف التجارب العسكرية النووية ، (لقد أدت في الواقع ، في ١٩٦٣ ، الى معاهدة موسكو) ، عندما أخفق مؤتمر قمـة الشرق ـ والغرب المنعقـد في ١٦ أيار ١٩٦٠ في باريس ، قـــال البريطـاني الاول ان الانفراج ما زال بعيداً ويلزمه مظلة نووية لبسطها فوق الجزر البريطانية الصغيرة . واتجه نحو أمريكا ، الدولة الوحيدة التي يمكن أن تساعده ، وقبل بغبطة ، عندما طلب اليه ايزنهاور ، في ٢٤ شباط ١٩٥٨ ، قواعد

في بريطانيا العظمى لطائرات قيادة الجو الستراتيجية . ألم يأخذ مكافأته في تموز ١٩٥٨ ، بشكل تليين لقانون ماكماهون : فقد كان لرئيس الولايات المتحدة الحق في ان يشرك في الاعمال النووية الاميركية السرية أعمال حلفائه الذين حققوا لحسابهم الخاص « تقدماً جوهرياً » . ولذا ، ففي ١٣ نيسان ١٩٦٣ ، تخلى الانكليز عن صنع صاروخ « بلوستريك » المخصص لتسليح طائرات قاذفات قنابل القوة V (فاليانت ، فولكان ، فيكتور) وغواصات المستقبل ذات الدفع النووي ، وكانت أول واحدة منها وهي الدريدنوت في رحبة الصناعة .

وعوضاً عن صاروخ بلوستريك عرض الاميركيون ، الذين يشتغلون لتحقيق سلاح مشابه وهو السكايبولت . على الانكليز ان يضموا اليهم جهودهم . ومقابل ذلك ، أخذوا على عاتقهم تكاليف البحث كلها ، وتعهدوا بأن يقدموا للقوى البريطانية مائة سكايبولت ابتداء من ١٩٦٥ بسعر الكلفة .

اعتقد ماكميلان بأنه لامس الهدف : وهو استئناف التعاون النووي الانكليزي - الاميركي . وفي الواقع ، باع القوة النووية الانكليزية بصحن عدس (بثمن بخس) . فعندما يريد الاميركيون التخلي عن « السكايبولت » لتعذر نجاحه ، وعلى أي حال ، عندهم صواريخهم من طراز « بولاريس » التي تستطيع أن تؤدي نفس الخدمات ، ويفرضون هذا التبديل في البرنامج على ماكميلان ، لايسع هذا الاخير إلا أن يمتثل لما يريدون.

ففي ١٨ كانون الاول ١٩٦٢ ، أثناء لقاء ماكميلان - كينيدي ، في ناسو (عاصمة جزر باهاما) ، قال الرئيس الشاب ما على الانكليز إلا أن يشتروا صواريخ « بولاريس » ، وان يكيفوا حسبها عقوداً ،

رؤوساً نووية انكليزية، ويستعملوها على متن طائرات القوة V أو على غواصاتهم ذات الدفع النووي في المستقبل .

وامتد العرض الى الجنرال دوغول فرفضه : ولم يكن لديه غواصات نووية أو عقود صواريخ ، فماذا يعمل بصواريخ « بولارس » .

والمؤسف، أنه آلى على نفسه ، في الوقت ذاته ، بأنه سيدع ماكميلان يدفع غالياً ثمن هذا الخضوع لرغبات الاميركيين . وفي ١٤ كانون الثاني ١٩٦٣ ، قال ، في مؤتمر صحفي : « انكلترا جزيرية ، بحرية ، ترتبط بمبادلاتها ، وأسواقها ، وتموينها ، ببلاد مختلفة وغالباً بعيدة . . . ولها ، في عملها ، عادات وتقاليد ملحوظة جداً وأصيلة جداً . وباختصار ، ان الطبيعة ، والبنية ، والظروف الخاصة بانكلترا تختلف عما في البلاد الأخرى القارية ». وفي ٢٩ كانون الثاني ١٩٦٣ ، استعمل موريس كوف دو مورفيل ، وزير الشؤون الخارجية الفرنسي ، في بروكسل ، حق الفيتو ، حق رفض فرنسا بهذه العبارات : « ان بريطانيا العظمى ليست بعد في حالة تجعلها تقبل انظمة المعاهدة » .

وكان الاخفاق خطيراً لحساب لندن،عندماتفاوض لورد الخاتم الخاص، ادوارد هيث ، مع حكومات دول اوربة الست في ٨ تشرين الثاني ١٩٦١ ، واعتقد بأنه قريب من الهدف . وأشرف الاقتصاد الانكليزي كله على الخطر ، لأن مشاريع « النيدي » ، كما رأينا ، وضعت على أساس اشتراك بريطانيا بمعاهدة روما .

وفي هذه السنة المضطربة التي شهدت معاهدة الصداقة الفرنسية — الالمانية (٢٢ كانون الثاني ١٩٦٣) تؤيد مصالحة البلدين الكبيرين القاريين ، فرنسا والمانيا ، انفجرت ، لزيادة المصيبة ، قضية بروفيومو .

لقد اتهم جون بروفيومو ، أمين الدولة الشاب الوسيم في وزارة الحربية ،

في آذار ١٩٦٣ ، بأنه قبل عطف جميلة شابة كانت تمنحه في الوقت نفسه للملحق البحري السوفياتي لدى بلاط سان جمس . وفي ٥ حزيران ١٩٦٣ اجبر الوزير على الاستقاله .

وفي ١٣ نيسان ١٩٦٤ ، أكد ايان سميث الوزير الأول الجديد في روديسيا الجنوبية عن عزمه على ترك الكومنولث ، إذا لزم الأمر ، وعلى أي حال على جعل المستعمرة المجاورة لاتحاد جنوب افريقية جنة صغيرة جديدة للتمييز العنصري .

وقد اضنى سوء الحظ والمرض هارولد ماكميلان فالتجأ إلى مستوصف، ومنه ارسل استقالته إلى الملكة ، في مؤتمر محافظ كامل في (١٠-١٨ تشرين الأول ١٩٦٣) ، ولم يكن لدى « نوابه الاوفياء » وقت لتهيئة خلافته في الكواليس . وأخذ المدعون يتنافسون عليها في وضح النهار في قلة لياقة بعيدة جداً عن حزب التوري (المحافظين) .

وكان الفائز « العائم » ، كما قال ماكميلان ، وزير الشؤون الخارجية اللورد هيوم « الكونت هيوم الرابع عشر » ، وقد تخلى عن لقبه ليأخذ مقعده في مجلس العموم ويصبح الوزير الاول تحت اسم السير اليك دوغلاس هيوم .

وبقي له بالضبط عام واحد لتنظيم الانتخابات ، وفيه بذل جهده بالقيام بحملة ضد العماليين واتهمهم فيها بأنهم يريدون تأميم نشاطات البلاد الاقتصادية كلها ، واستحوذ الحزب المحافظ على هذه الفكرة اللامعة وجعل منها كراس دعاية تحت عنوان : « للبلاد الحق في أن تعرف » . فثار هارولد ولسون لنفسه ولقب السير اليك « الكونت هيوم الرابع عشر » و

« عدم التواقت الرشيق ، وأخيراً ، في ١٥ تشرين الأول ١٩٦٤ تغلب العماليون بأكثرية قليلة ، ٤ أصوات ، على وجه الصحة .

الرجل ذو الغليون في الرقم ١٠ دونلنغ ستريت . — أصبح هارولد ولسون الوزير الأول عندما فجرت الصين أول قنبلةذرية(١٦ تشرين الأول ١٩٦٤ واستقـــال نيكيتا سرغيفيتش خروتشوف (في ١٥ تشرين الاول ١٩٦٤).

كانت وزارته عياراً علمياً من الوزراء العماليين المعتدلين ، مثل **باتريك غوردن ووكر** ، ومن شخصيات من الجناح الأيسر لحزب العمال (**فرانك كوزنز**، **بربارا كاسل**)، ومن انصار اوربه (**جودج براون**)، ومن خصوم هذه المغامرة (**دوغلاس جاي**) وبهذا الجهاز الغريب الخليط وضع مباشرة طابق افلاس المحافظين ، واعلن في خطاب العرش (٣ تشرين الثاني ١٩٦٤) تأميم الفولاذ من جديد ، والاقتطاع من برامج الوجاهة .وبدت «الكونكورد» الطائرة الفرنسية — الانـكليزيـــة ، بعض الوقت (٢٧ تشرين الأول ١٩٦٤) في خطر ؛ ومن الممكن أن تكون أكثر من ذلك لولم يحاول ولسون أن يكسب على الأقل حيـــاد الجنرال دوغول في القضايا الاوربية . وفي ٢٧ تشرين الاول أيضاً « طبق زيادة رسم ١٧ ٪ على الواردات التي وصل بها تدريجياً إلى ٧ ٪ قبل حذفهـا . وأخيراً ، في ٢٤ تشرين الثاني ١٩٦٤ ، أقرض أحد عشر بنكاً مركزياً الحكومـة البريطانية ٣ مليارات من الدولارات « لانقاذ الجنيه » .

وعلى اثر ذلك ، أراد ولسون ، أن يعطي « اسلوباً حركياً» لحكومته فطلب مائة يوم لتنظيم الحياة الاقتصادية الانكليزية من جديـد . وفي الواقع ، يعلم اليوم ، ان القصد من ذلك كان « وسيلة دعاية » وان الخطة

نفسها ، التي يعمل لاجلها جهاز مختار بكل عناية بوجهه الاستاذ بولوغ ، لا تكون جاهزة الا في ١٩٦٥ ، وبانتظار ذلك ، حولت « تدابير قف » ، الـتي كان ينتقدها ولسون ، عندما كان في المعارضة ، فترة استراحة .

ولم تكن له أحلام عظيمة في السياسة الخارجية . لانه لم يكن له ، في الحقيقة ، الا حلم واحد لعوامل اقتصادية : وهو أن يرفع ترشيح بلاده إلى « الاسرة الاقتصادية الاوربية » وان ينجح في ذالك .

ولهذا أطلق وسيطلق عصا التسيار دون امهال . وبين ١٩٦٤ و ١٩٦٧ جاء مرتين إلى باريس ، ومرتين الى روما ، ومرتين الى بون ، ومرة الى بروكسل ، ومرة الى لاهاي ، عدا عن الزيارات التي قبلها من هذه العواصم ، وعن زيارات وزرائه « بقصد المشاورة » وفوق ذلك ، أرسل الملكة اليزابيث الثانية الى بون ، وهذه أول زيارة لعاهل بريطاني لهذه البلاد منذ ١٩١٣ ، ودوق ادمبره الى فرنسا حيث استقبله الجنرال دوغول في قصر تريانون الكبير . ولم يزر ، في الوقت نفسه ، كلاً من واشنطون وموسكو الا مرة واحـدة . وفي القطاعات الاخرى ، كانت سياسته الخارجية أقل نشاطاً بكثير ، وما كانت في الحقيقة لتقلق أحداً .

وطبق ، مع الولايات المتحدة ، لعبة ناعمة ، وهي لعبة القبان ، وذلك بأن شجب ، دون قوة ، حرب فيتنام (الأول من تموز ١٩٦٦) ، وترك جورج براون يقترح على هانوي مشروع سلام دون أمل (٢٢ تشرين الأول ١٩٦٦) ، وحافظ على سكوته عن التدخل الاميركي في سان - دومينغ (٢٩ نيسان ١٩٦٥) ، وعن استلام العسكريين السلطة في اليونان (٢١ نيسان ١٩٦٧) ، وتبـع واشنطون دون أن يلعب دوراً من المستوى الأول في النزاع العربي - الاسرائيلي (حرب الستة

أيام : من ٥ — ١١ حزيران ١٩٦٧) ، ولم يخرج من هذا التحفظ الا ليرفض بقوة مبادلة صواريخه « بولاريس » مقابل « بوزايدون » الأحدث (وعلى ما يبدو أنه فكر بان ناسو واحدة تكفي) .

واذا دعم ، مع ذلك ، في مفاوضة « دورة كينيدي » التي انتهت في ١٥ أيار ١٩٦٧ ، النظريات الاميركية ضد النظريات التي أوضحتها بجد « اوربه الصغرى » ، فهذا يعني ، كما قال ، ان ليس له أي ارادة في توحيد منافعه مع كتلة الدول الست قبل أن يشارك بها .

وامتد اعتداله الدبلوماسي إلى جميع النواحي التي كانت بريطانيا العظمى تود بداعي التقليد أن تكون حاضرة بها ، فدل بذلك على أن هذه الأزمنة قد ولت .

وتحمل ، دون ان يقوم برد فعل ، « الاهانات » التي تعرضت لها السفارة البريطانية في بكين ، وترك حامية هونغ كونغ محاصرة دون ان يحتج . وفي ٢٧ تموز ١٩٦٧ قرر ان يسحب ٤٠٠٠٠ رجل من ماليزيا وسنغافوره ، فأفهم بذلك واشنطون بأنه لايهتم بدور المملكة المتحدة ، في « شرقي عدن » .

وفي روديسيا ، وجبل طارق ، وفي امارات الخليج العربي، لم يشأ ولسون ان يحتذي احذية ايدن . ونظراً لأنه كان مضطراً ، في ١٢ أيار ١٩٦٥ ، أن يسحب ١٤٠٠ مليون دولار على بنك النقد الدولي ، وان يقبل بمساعدة البنوك المركزية في ١٣ حزيران ١٩٦٦ ، وان يتخذ تدابير جديدة مضمرة للنقد ،في ٢٠تموز ١٩٦٦ ،فقد شعر بانه كان منزعجاً لأنه لم يستطع دوماً أن يقتطع من نفقات «الجاه»، لدواعي السياسة الخارجية . وعندما استطاع ذلك ، تخلى براحة عن الطائرة TSR – 2 ووعد العسكريين بان يشتري

الـ F-111 الاميركية ، ومرجئاً دوماً ، هذا الشراء ليتخلى عنه أخيراً في بداية ١٩٦٨ ، وبأنه يريد أن ينسحب من مشروع E. L. D. O. (منظمة تنمية اطلاق الصواريخ الاوربية) في حزيران ١٩٦٦ بحجة أن القضية اميء التزامها وانها تعيق تحقيق الطائرة ذات الهندسة المتغيرة . على حين أنه يرى ، بالعكس ، أن ترصد مبالغ هامة (في ٢٣ شباط ١٩٦٧) لانشاء مركز نووي عملاق ينتج الكهرباء ، لأن الفحم ينضب والبترول يدفع بالدولار ، أو للبحث ، في ١٦ تشرين الثاني ١٩٦٥ ، عن مناجم جديدة للغاز الطبيعي المكتشفة في بحر الشمال واستغلالها .

وفي الوقت نفسه ، في ٨ تشرين الثاني ١٩٦٥ ، طمن جناحه الأيسر ، على الصعيد الداخلي ، بنشر قانون يلغي عقوبة الموت . وظل يتبع الساعة الاوربية ، وتبنى ، في ٢٤ أيار ١٩٦٥ ، النظام العشري ، وذكر ، بهذه المناسبة ، بأن بلاده تحسب الحرارة بالدرجات المئوية منذ ١٩٦٣ .

وفي ٣١ آذار ١٩٦٦ ، شعر بأن الرياح تدفعه ، فدعا البلاد إلى انتخابات جديدة عامة . وعاد العماليون في هذه المرة إلى مجلس العموم بزيادة ٩٧ مقعداً على المحافظين .

وأصبح الآن بامكان هارولد ولسون أن يستعيد انفاسه وينظر حوله . فقد عرف بان لديه متسعاً من الوقت ، ولن يضطر إلى القيام بانتخابات جديدة قبل ١٩٧١ . واذا حدث واضاع مقاعد في بعض الانتخابات الجزئية ، فقد بقي له ايضاً ، في ربيع ١٩٦٨ ، أكثرية ٧٤ صوتاً . وسارت الخطة ، المقررة في ١٩٦٥ ، في طريقها ونفذت بصمت .

ولم يبق له الا شيء واحد هام ليعمله وهو الحصول على دخول بلده في السوق المشتركة .

وشيئاً فشيئاً ، عدل وزارته ليخرج منها خصوم أوربة . ودخل دوغلاس جاي ، هوبرت باودن ، فرانك كزنز ، في الكواليس ، وصبأت بربارا كاسل ، وزيرة النقل ، وشكات مع انتوني كروسلاند مؤلف « مستقبل الاشتراكية » ، وروي جنكنز وجورج براون ، وزير الشؤون الخارجية ، حول ولسون نفسه وبيترشور نواة « الأوربيين » .

وفي ٢٨ نيسان ١٩٦٧ ، اعلم ولسون رسمياً إلى شركائه ، شركاء « أوربه السبعة » ، (أو الرابطة الاوربية للمبادلة الحرة : A. E. L. E)بأنه ينوي بأن يقدم رسمياً ترشيحاً إلى الأسرة الاقتصادية الاوربية.وتبعت ايرلنده الشمالية ، والدانيمارك ، والنوروفيج ، ولحد ما السويد ، الحركة وقدمت ترشيحها .

وأخيراً ، في ٢٩ ايلول ، قدمت لجنة الوحدة الأوربية التي يرأسها البلجيكي جان دي تقريراً يحلل صعوبات الترشيح البريطاني ، ولكنه ختم تقريره بضرورة القيام بمفاوضات مع المملكة المتحدة . وفي ٥ ايلول ١٩٦٧ ، اجتمعت النقابات في مؤتمر اتحاد العمل وصوتت بأكثرية ساحقة لصالح دخول البلاد في اوربة الصغرى . وهكذا استطاعت الحكومة أن تعتمد في آن واحد على المحافظين وعلى العماليين وعلى النقابات وعلى مجلس العموم . وهذا دعم لا سابق له تخوله الأمة على هذا النحو لهارولد ولسون في مشروعه .

ولكن انكلترا هذه التي تمثل على باب نظام ما كان ليوحي اليها في السابق الا بالحذر ، بأي حال تعمل ؟ وبأي استعدادات فكرية ؟

الاتجاه نحو اوربة . — يبدو من ، الوجهة السياسية أولاً ، ان الحكومة ضعفت وفقدت سرعتها : لأن الانتخابات الجزئية لم تكن في صالحها .

ثم ان تدابير « قف » التي لجأ اليها العماليون كانت سبباً في حركة المزاج هذه ، وفي الأمر مافيه : رسوم على الواردات ، مكافآت على الصادرات ، ارتفاع سعر الحسم ، قروض خارجية ، تجميد الأجور ، بطالة ، فكيف يمكن لكل هـــذا أن يكون شعبياً ، اي متمتعاً بثقة الشعب ؟

فمن الخطة ، من هذا المجلد الضخم غير المهضوم والمؤلف من ٥٠٠ صحيفة والمنشور في ١٩٦٥ ، من الذي يتذكر بعد ؟

ولكن هذه الخطة مازالت موجودة ، وترمي إلى ايقاف « نزيف الأدمغة » ، هرب الباحثين ، وحاملي جائزة نوبل العلمية (منذ ١٩٤٥ كان عند انكلترا ١٤ منهم) وتجذبهم الولايات المتحدة بأفضل شروط للعمل ، معرضة التقدم التكنولوجي الانكليزي للخطر .

وتنص الخطة ايضاً على زيادة الانتاج القومي الخام بـ ٢٥ ٪ بين ١٩٦٤و١٩٧٠ ، وعلى أن اصلاح البلاد يجب أن يعالج البؤس الجديد في الشمال والشمال الشرقي واولستر ويعوض على هذا النحو ٢٠٠ ٠٠٠ عامل .

وعلى المساعدة العسكرية الى الخارج حسب اقتصاد سنوي قدر من ٥٠ إلى ١٠٠ مليون جنيه . وحتى ١٩٧٠ ، أرادت حكومة ولسون ان تعتدل في النفقة الداخلية التي ليست تثميراً (الانتاج القومي الخام : ٣،٨ ٪ في العام ؛ والاستهلاك ٢،٢ ٪) .

وكان مستقبل انكلترا ومستقبل الحكومة العمالية يلعبان على هذا هذا النحو على حظين : الخطة والدخول في السوق المشتركة .

ولكن يتساءل غالباً على القارة : هل هذا الايمان باوربة مخلص ؟ وكيف يوضح ؟

يبدو أنه مخلص . ولفهمه يجب الصعود الى ما قبل ١٩٦٤ ، لأنه يؤلف ثورة صامتة كانت في حالة حمل خلال سنوات الخمسينيات . وان ما يعجب له هو أن نراه يحدث بزمن أقل من الزمن الموضوع لبلوغه .

لماذا أتت انكلترا ببطء إلى أوروبة بين ١٩٥٠ — ١٩٦٧ ؟ ولماذا حافظت طويلاً على رؤية تشرشل للعالم ودورها في العالم ؟ ربما لأن الأجنبي لم يحتل المملكة المتحدة ، ولأنها كانت في آخر الحرب في معسكر « الغالبين الحقيقيين » ، ولأنهـا قامت بهذه المعجزة بمساعدة الولايات المتحدة ورابطة الشعوب البريطانية أكثر منها بمساعدة باقي اوربة .

وبسبب هذا ، وبسبب الثقافة الماضية أعتقد رجال مثـل آتلي ، ايدن ، ماكميلان أن بلدهم كان مركز ثلاث دوائر متقاطعة : الولايات المتحدة ، الكومنولث ، اوربة ، وان هذه الدائرة الاخيرة بالبداهة أكثر عطباً .

والواقع ، فضلاً عن ذلك ، هو أن تفجير بريطانيا — العظمى بسرعة لقنبلتها الذرية ثم قنبلتها الهيدروجينية اخفى عنها الواقع القاسي : وهو أنه لا يوجد الا غالبان ، لا ثلاثة غالبين كبار ، الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي .

وعندما تكلم تشرتشل عن امرة الدفـاع الاوربي في ١٩٥٣ ، استطاع أن يقول : نحن معهم دون أن نكون تابعيهم » .

وهكذا التقى العماليون ، الجزيريون الاطهار الذين لايتكلمون إلا الانكليزية ، مع المحافظين الذين يحلمون بـ« الروابط الخاصة » .

وقد لزمت السويس لتوي الحالة التي تصنعها واشنطون من هذه الروابط . ولزمت كوبا لتوضح أن التفاهم بين العملاقين يتم بسهولة «بمساعي حميدة» . ولزم ايضاً فظاظة رئيس شاب ، كينيدي ، يستقبل ماكميلان في كي وست ، متأثراً بتلميحات الوزير الأول الى «الروابط الخاصة» ، ويجيب فجأة : « أي روابط ؟ » .

وبخاصة ، لزم جيل جديد . ففي ١٩٥١ ، كان نصف الوزارة يتألف من رجال عاشوا الحربين العالميتين . وأتى بعدهم جيل ، « الشبان الحانقين » الذي كبر اثناء الحرب ، ويحذر الغريب الأجنبي ويرفض أن يتعلم لغة اجنبية لأن هذا يجعل منه جيلاً معجباً بكل ما هو راجح في الأوساط الممتازة ويدعو الى الغرور .

ومن الممكن أن يكون هارولد ولسون منتسباً لهذه الموجة الثانية . ومع ذلك فقد قال الى دنكان صانديس الذي عجب لغيرته الأوروبية : « انني صابىء والصابئون دوماً اكثر الناس حماسة » . ماذا جرى له ؟

من البديهي ، ان الكومنولث يوحي اليه اليوم بالقلق أكثر من الرضى ، وكانت علاقاته مع الولايات المتحدة متوترة . وكان والرئيس جونسون يكره احدهما الآخر بود . كان جونسون تكساسياً واوربه في نظره غير موجودة ، حتى انه لم يأت لجناز تشرتشل ، على حين أن الجنرال دوغول شخص اليه .

وعندما لم يستطع ولسون أن يعتمد على الولايات المتحدة أو على الكومنولث ، كان طبيعياً أن يتجه نحو القارة . فهل لتخفيض قيمة الجنيه ،

في ١٨ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، ان يسهل له الدخول في الأسرة الاقتصادية الاوربية ؟ من السابق لاوانه ان نعرف ذلك . ولكن بريطانيا العظمى ، بالرغم من نكبة العملية (لأن هذا هو ثالث تخفيض للنقد الانكليزي منذ ١٩١٤) ، لم تبد خالية اليدين كما يمكن أن يعتقد لأول نظرة .

ان النفقات الجسيمة العامة كانت في السنوات الاخيرة قد امتصت في قسم عظيم منها بالبحث وبخاصة من قبل « **سلطة الطاقة الذرية** » . وقد تقدمت بريطانيا بنتائجها الى دول اوربة الست . وهذا هو المهر « الدوطا » الانكليزي . فمم يتألف هذا المهر ؟ .

إن ٦٠ ٪ من الاختراعات التقنية الكبرى ، منذ ١٩٤٥ ، جرت في أوربة والنصف في بريطانيا ـ العظمى . وان ٦٣ ٪ من الباحثين الأوربيين (الدول الست وانكلترا) هم بريطانيون . وان موازنة البحث البريطانية تساوي ٦٠ ٪ من موازنة الست دول مضافاً لها انكلترا . وان الرأسمال الوحيد المخصص للأدمغة الالكترونية في أوربة الذي نجا من الرقابة الاميركية هو L' I. C. T. البريطاني . وفي مركز كابنهورست[1] يشتغل «معمل جديد منخفض» لفصل اليورانيوم البريطاني على الكهرباء الذرية . وان سحابة الاسلاك A. G. R. تفوق السحابات الفرنسية في هذا المضمار . وبفضل المولدات الكبرى الجديدة التي دخلت في الاستعمال ، سيكون ابريطانيا العظمى في العام ١٩٧٤ أوفر كهرباء نووية وارخص كهرباء في العالم وارخص من الكهرباء التقليدية . وكابنهورست ، من جهة أخرى ، في تقدم في مضمار الصواريخ ، وفي تمنمة العقود (الرؤوس النووية) . ولم ترغب بريطانيا العظمى كثيراً أن تلقي بنفسها في سباق الأقمار الاصطناعية ، ولكنها ، قامت بجهد كبير في توضيح

(١) يقابل هذا المعمل في فرنسا معمل بيرلات .

وتحسين محطات الاستقبال التي تلتقط اذاعات هذه الأقمار . وهي، في هذا المضمار ايضاً ، في تقدم ، وتفكر أن تبيع اثنتي عشرة محطة مستقبلة بعد قليل. وأخيراً ، في البحث الأساسي ، اشتغلت بريطانيا كثيراً في حقل فيزياء الطاقات العليا ، كما في المضمار الدارج على الموضة وهو « علم حياة الذرة » ، ويأتي في الطليعة مخبر كامبريدج ، الذي يمده مجلس البحث الطبي ، وهو يعمل على نفس القضايا كمعهد باستور في باريس ، ولكن في شروط مادية افضل .

وما فتيء هارولد ولسون يقول للجنرال دوغول بأنه سيأتي بهذه الطاقة العلمية والتكنولوجية إلى دول اوربة الست . قال ذلـــك في باريس ، في ٢ نيسان ١٩٦٥ ، وكرره في ٢٤ — ٢٥ كانون الثاني ١٩٦٧ ، وايضاً في حزيران ١٩٦٧ . وأخيراً ، في ١٣ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، عندما دعا اللورد ـ العمدة الوزير البريطاني الأول إلى مأدبة غايلدهول، كرر الوزير عرضه ، واضاف بأنه يجب صنع «اوربة العلم والتقنيات» رأساً ، دون أن ينتظر نهاية مناقشة الترشيح الانكليزي الى الاسرة الاقتصادية الأوربية ، لأن العلم لا ينتظر وبدون ذلك سيفوت الاوان لمقاومة الاميركيين والروس .

ومع ذلك ، فان فرنسا ترى بأن بريطانيا العظمى غير « ناضجة » من أجل السوق المشتركة ، وابدت ، في ١٩ كانون الأول ١٩٦٧ ، فيتو جديداً خطراً على تماسك الأسرة الاقتصادية الاوربية . وحافظ الجنرال دوغول على هذا الرفض أثناء مؤتمره الصحفي، في ٩ ايلول ١٩٦٨ ، دون أن يثبط لذلك عزم الانكليز الذين يقولون ان ترشيحهم ليس قضية حزب ، وانما يهم الأمة بكاملها ، التي ستطرق الباب الى أن يفتح لها . وظل النزاع كاملاً بين باريس ولندن ، وبقيت هذه العاصمة الأخيرة تعتمد على المساندة الودية البلاد الأخرى الأعضاء في الأسر الاوربية .

الفصل الثالث

بريطانيا - العظمى والكومنولث

يتضمن التعبير « كومنولث » حقائق مختلفة . فهو ، بالمعنى الضيق والدقيق ، يدل على رابطة دول حرة ومتساوية ومستقلة تضم في ١٩٦٨ : المملكة المتحدة ، كندا ، اوستراليا ، زيلاندة الجديدة ، الهند ، الباكستان ، سيلان ، غانا ، ماليزيا ، نيجيريا ، سيراليون ، قبرص ، تانزانيا ، جامايكا ، ترينيتي ، توباغو ، اوغاندا ، كينيا ، مالاوي ، مالطة ، زامبيا ، غامبيا ، سنغافورة ، غوايانه ، ليزوتو ، بوتشوانا ، بارباد ، المالديف ، ناورو ، ساموا الغربية ، جزيرة موريس ، وسوازيلاند .

ومع هذا ، فان اللغة الدارجة لا تدل عفوياً تحت هذا الاسم على هذه البلاد صاحبة السيادة فحسب ، بل على توابعها التي ترتبط في معظمها بالمملكة المتحدة . ويأخذ المجموع عندئذ الاسم « بلاد الكومنولث » . ونجد فيها بعض مستعمرات أو محميات تعرف في معظمها أنها موعود بها إلى أكثرية قريبة ، إلى جانب غبار من جزر بحر الكريبي والمحيط الهادىء أو جنوبي الاطلسي لم يتأخر وصولها إلى السيادة الكاملة إلا بسبب الصعوبات الاقتصادية التي تلقاها هذه البلاد إذا تركت وحدها . وأخيراً يجب أن نضع في طبقة جانباً روديسيا الجنوبية التي تعتبرها

المملكة المتحدة متمتعة باستقلال ذاتي داخلي ، ولكن لا بسيادة ، بالرغم من تصريحها غير الدستوري بالاستقلال في العام ١٩٦٥ .

يبلغ السطح الكلي للكومنولث ، « بالمعنى الواسع » ، نحو ٣٨ مليون كيلو متر مربع ، ونفوسه في ١٩٦٤ تقارب ٧٥٥ مليون نسمة، منها ٤٣٩ مليون للهند ، أي أكثر من النصف ، و ٥٣٫٦ مليون في بريطانيا — العظمى ، و ١٩٫٥ مليون في كندا ، و ١١ مليون في اوستراليا ، و ٥٩ مليون في نيجيريا (وهي أكثر البلاد استيطانا في افريقية) . وبالمقابل إن دولاً مثل قبرص وغامبيا أو ليزوتو (باسوتولاند في السابق) لا تتجاوز المليون نسمة .

وأخيراً ، إلى جانب الامبراطورية القديمة والكومنولث الحاضر ، كان لبريطانيا — العظمى ، حوالي آخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، محميات مثل الكويت وبلاد العرب الجنوبية . وقد حصلت الاولى على استقلال جزئي في ١٩١٤ ، وهي ، منذ ١٩ حزيران ١٩٦١ ، مستقلة تماماً . كما استقل الجنوب العربي ، في تشرين الثاني ١٩٦٧ ، وترك الكومنولث .

والكومنولث ، كما يرى ، عظيم بآن واحد في سعته وفي تنوعه . ويجد فيها في الوقت ذاته مصدر قوة وسبب ضعف . وهو ثمرة تحويلات الامبراطورية البريطانية تحت تأثير الحرب العالمية الثانية . وتعكس هذه التغييرات بشكل يضرب الحس التبديلات التي طرأت على سلطات المصالح التي كانت في السابق مكلفة بادارة الامبراطورية .

ففي ١٩٤٤ ، كانت الاراضي الخاضعة للتاج البريطاني تنتمي لثلاثة أقسام وزارية كبرى : وزارة الدومنيون ، وزارة الشؤون الهندية

(مع وزارة برمانيا الصغيرة الملحقة بها) ووزارة المستعمرات . وعلى هذا يقسم الانكليز ، تحت الزاوية الادارية ، ممتلكاتهم إلى ثلاث فئات : اولا ، الدومنيونات القديمة ، كندا واوستراليا ، وزيلاندة الجديدة ، واتحاد جنوب افريقية ودولة ايرلنده الحرة) ؛ وجانباً افريقية الجنوبية، ولها وضع خاص ، وهي بلاد تستوطنها أكثرية أوربية ، وتحكم دون استثناء على الطريقة الاوربية . ونظامها المعرف في ١٩٢٦ يمتاز بالمساواة والاستقلال الذاتي ، والولاء للتاج . وفي ١٩٤٤ ، أصبحت ، في الواقع ، ذات سيادة كاملة ، لان كل واحدة منها في ١٩٣٩ و ١٩٤١ ، باستثناء ايرلنــدة التي ظلت محايدة ، اعلنت ، لحسابها الخاص ، الحرب على المانيا واليابان . ومع أنها تحررت من كل رقابة بريطانيــة ، فقد ظلت تقيم مع المملكة المتحدة علاقات خاصة ، حتى ان وزارة الدومنيون تعرف طوعاً بـ « وزارة الشؤون الخارجية المكلفة بعلاقات مع الاسرة » .

وقد وعدت انكلترا الهند بنظام الدومنيون هذا ، منذ ١٩١٧ . ولكن التقدم كان بطيئاً ، حتى ان نائب الملك في نيودلهي كان مكلفاً من قبل أمين الدولة في الشؤون الهندية بأن يصرح في ايلول ١٩٣٩ بدخول الهند الحرب دون أقل استشارة للرجال السياسيين في البلاد . وفي ١٩٤٥ كانت هذه الوزارة مسؤولة أمام برلمان وستمنستر عن حكومة الهند .

أما بلاد افريقية وجنوب شرقي آسيا والهند الغربية والمحيط الهادىء والبحر المتوسط أو التي توجهها وزارة المستعمرات فلم يعرض على بساط البحث تحويلها إلى دومنيون . إن وزارة المستعمرات تديرها مباشرة ، وتتفرع شيئاً فشيئاً كلما نمت الخدمات الاقتصادية أو الاجتماعية : حتى ليبدو أنها مصابة بمرض التضخم إلى جانب وزارة الدومنيون التي تتقلص كثوب الحزن . ولكن هذه الظواهر خادعة : لأن المستقبل سيكون لهذه

الأخيرة ، وزارة الدومنيون . ففي ١٩٦٦ ، كانت وزارة الشؤون الهندية قد زالت منذ زمن طويل ، واستعدت وزارة المستعمرات لتعمل مثلهـا ، وأطلق على وزارة الدومنيون اسم « وزارة العلاقات مع الكومنولث » في ١٩٤٧ ، ثم ورثت « وزارة الكومنولث » ، في ١٩٦٦ ، جميع علاقات المملكة - المتحدة مع بلاد امبراطوريتها القديمة ، قبل أن تنصهر مع وزارة الخارجية في ١٩٦٨ ؛ وفي عشرين سنة ، حازت جميع التبعيات الاستعمارية التي ما زالت موجودة في ١٩٤٥ ، مع بعض الاستثناءات ، على نفس الاستقلال الذي وصلت اليه الدومنيونات القديمة . بل انها ذهبت إلى ما هو أبعد من ذلك ، لأنه اضيف إلى حق الاشتراك في الكومنولث حق الخروج منه ، كما فعلت بورما (برمانيا) في ١٩٤٨ وايرلنده عام ١٩٤٩ .

وكانت هذه الاستحالة النهائية للامبراطورية البريطانية ثمرة قناعة ، حقاً ، ولكنها أيضاً ثمرة تجربة وظروف

فمن ١٩٣٩ إلى النصر ، كافحت المملكة المتحدة ودومنيوناتها معاً . دخلت كلها الحرب بعمل سيادة . وخلال عام ، حسب كلمة تشرشل ، « قاتلت وحدها » على جميع مسارح العمليات ، من المحيط الهادىء أو جنوب شرقي آسيا الى البحر المتوسط أو الى اوربة الغربية . وقد رأت شعوب بريطانيا - العظمى والدومنيون فيها برهاناً ساطعاً لفوز تجربة رابطتها الحرة المؤلفة من دول ذات سيادة .

تحرير الهند وباكستان وسيلان . - لقد وصف الجنرال سمتس ، أثناء زيارته الاولى إلى لندن أثناء الحرب ، في ١٩٤٣ ، الكومنولث بأنه « آبدة سياسية وحيدة تدعو إلى الاعجـاب » . ولكن لا أحد يمكن أن يقول كذلك في المستعمرات . وأكثر من ذلك أيضاً أن

الرأي العام الانكليزي ، والرأي العام في الدومنيون كان يؤلمها كثيراً التوفيق بين حبها للحرية وبين حالة تبعية الهند . حتى ان تشرشل ، والله أعلم ، وان لم يشارك في هذه الوسوسات ، وجد نفسه مكرهاً ، في ١٩٤٤ ، بأن يعلم الملك جورج السادس بأن أيام الملكية الانكليزية في الهند معدودة .

إن مفهوم الامبراطورية الاستعمارية نفسه قد سقط أثناء الحرب العالمية الثانية . فقد زالت حظوته بانتصارات اليـــابان في الجنوب ـ الشرقي الآسيوي ، وخاصـة بسقوط سنغافوره الذي كان من أخـزى الهزائم الانكليزية في العصور الحديثـة . وان انتصارات الكومنولث ، بمقارنتها باخفاقات الامبراطورية ، ستقرر تطور الشعوب المستعمرة . يضاف إلى ذلك أن الحرب كانت تسيطر عليها الدولتان الكبريان في العالم ، وكانت كل واحدة منها ، لأسباب مختلفة ، مناوئة للاستعمار أيضاً ، وهذا ما شجع تمرد شعوب المستعمرات في الوقت الذي نقصت فيه قـدرة ، بل وإرادة ، مقاومة الدول الغربية ، التي كانت ، كالمملكة ـ المتحدة ، تتباهى كلها بمعارضة تطورٍ يذهب في اتجاه التاريخ .

ولكن لا يراد من ذلك شجب كلي ودون فروق دقيقة . لأن التمييز يظهر بين الكومنولث والامبراطورية . فقد كان الاميركيون ، جيران كندا ، يحسون به بعمق . أو لم تكن هذه دومنيون من أقدم دومنيوناتها ، وعضواً مؤسساً مع المملكة المتحدة للكومنولث ؟ وما من اميركي عاقل يجرؤ على أن يزعم بأن كندا هذه ، التي لعبت دوراً من المستوى الأول في النزاع ، ودافعت تحت قيادة ماكينزي كينغ بتعقل وحصافة عن استقلالها الذاتي ، يمكن أن تعتبر تابعاً سياسياً للندن . حتى ان الاتحاد السوفياتي ومن بعده الصين تعجبان من أن الكومنولث كان شيئاً آخر غير بقيـة

من امبراطورية . ويبقى مع ذلك أن نعرف عاطفة الشعوب نفسها : اما ان تكون معادية للامبريالية فذلك أمر لا يشك فيه ، ولكن ذكرى الفتح والاستغلال اللذين تحملتها الا تحضها على الاندفاع إلى أقصى حدود القومية الافريقية أو الآسيوية ؟ في الهند كانت التجربة الاولى .

في ١٩٤٧ ، كانت شبه القارة الهندية منقسمة إلى بلدين ، ثم تحررت ، ولم يقبل حزب المؤتمر بذلك إلا مكرهاً . حتى ان المهاتما غاندي ، من جهته ، لم يقبل بهذا « التقطيع لأمنا الهند » إلا كثمن مؤلم للاستقلال المباشر . وقد وصف البلدان الخلفان ، الهند وباكستان ، بأنهما «دومنيونان» ، ولم يكن ذلك إلا وسيلة لتسهيل انتقال السلطات . ولا يجهل أحد أن هنالك قضيتين رئيسيتين لم تحلا بعد وهما : هل الهند والباكستان يريدان أن يبقيا في الكومنولث ؟ وفي حال الايجاب هل يستطيعان أن يتلاءما والاشكال التقليدية لهذه الرابطة ؟

من الوجهة النظرية ، كانت القضية واحدة بالنسبة للبلدين ؛ وفي الواقع ، حلت الهند القضية ، لأن الباكستان ، دون أطر ادارية ولا عاصمة سياسية ، لا تستطيع ، وعلى الاقل في الفترة الاولى ، أن تستغني عن مساعدة الكومنولث .

وفي الهند ، كانت فترات الاستقلال الاولى مطبوعة بيقظة ذكريات وتقاليد ماض قديم جداً . وبلد كهذا مشرب ومقتنع بمآسيه القديمة وبأمجاده العتيقة هل يستطيع بحق أن يتفتح في وسط كومنولث ظل حتى الآن اوربيـاً ؟ كومنولث يشارك في رمز ملكية غريبة عن الهند تماماً ؟ الجواب بالنسبة للجيل القديم لحزب المؤتمر ، لا مجال للشك فيه : ألم يبدل ميثاق الحزب ، في ١٩٣٩ ، لاختيار الاستقلال الكلي

المتخلص من الكومنولث هدفاً له ؟ ولكن وجد ما هو أكثر من ذلك . ألا تكون التبعية مستحيلة على أمة أعلنت عن عزمها في أن تمنح نفسها دستوراً جمهورياً ؟ وأخيراً ، ألا يجب أن نأخذ بعين الاعتبار الدعاية اليابانية التي كان شعارها خلال سنوات « آسيا للآسيويين » والتي امتدت اصداؤها إلى المؤتمر الآسيوي في نيودلهي (آذار ـ نيسان ١٩٤٧) ، ومطاليبه بالتحرير من الأنظمة الاستعمارية ، والقطيعة التامة مع السادة القدامى ؟ والواقع ، ان برمانيا (بورما) تأثرت بخاصة بالاحتلال الياباني ، وقررت ، في ١٩٤٨ ، الخروج من الكومنولث . وبالعكس ، إن هذا المثال الذي يري قوة النزعة القديمة والانفصالية كلها كانت له نتائج غير متوقعة . فمن ذلك ان اللورد ليستاول صرح بشكل تفسير : « لا نريد شركاء مكرهين » . ولاحظ الرأي ان لا أحد يمارس ضغوطاً على الهند ، وانها ، كبرمانيا ، حرة تماماً في أن تختار وحدها طريقها .

ومع ذلك ، فقد شرع في هذه القضية كلها حيث يجب أن تنتهي . وكان من الواجب ان يتساءل ما اذا كانت الهند تريد أو لا تريد أن تشترك في الكومنولث قبل أن يبحث ما اذا كان من الممكن ان تجد فيهـــا الجمهورية الشعبية مكاناً او لا . وفي الهند كما في انكلترا وفي الدومنيونات الأخرى ، نوقشت النقطتـان معـاً لا لأنهما كانتـا بشكل لا يمكن فيه فصل الواحدة عن الأخرى فحسب ، بل أيضاً ، لأن طبيعة الكومنولث نفسها ستوضع من جديد على بساط البحث .

وضعت عدة حلول ، منهـا حل كومنولث يضم دولاً اعضاء ودولاً شريكة . ولكن آتلي صرح ، في وثيقة قدمها الى الملك جورج السادس ، بأنه لا يرى للكومنولث الا مخرجاً واحداً عاماً مشتركاً وهو : الولاء للتاج ،

حتى انه كان يتصور بمشقة كيف يمكن ان يضم « جمهوريات » . ولكن الكثيرين ، لحسن الحظ ، لا يشاركون آتلي في هـذه الريبية . وفي كانون الأول ١٩٤٨ ، صرح حزب المؤتمر ، في جايبور بأن « الاستقلال المطلق » يتلاءم تماماً مع تبعية الجمهورية الى الكومنولث . وبالحال ، اكدت الدومنيونات القديمة بأنها تكون جد سعيدة اذا ارادت الهند أن تكون واحـدة منها . وقد كتب بيتر فرازر ، رئيس وزراء زيلاندة الجديدة ، الى البانديت نهرو : « ان التبعية للكومنولث تؤلف بالمعنى الخاص الاستقلال مع شيء آخر » ، وهذا ما لخصه الصحفيون في التعبير « أكثر من الاستقلال » .

ولانهاء القضية عقد مؤتمر لرؤساء وزراء الكومنولث في لنـدن في نيسان ١٩٤٩ . وحضره ، فضلاً عن رؤساء وزراء الدومنيونات القديمة ، رؤساء وزراء الهند وباكستان وسيلان . ونشروا بلاغاً أشاروا فيـه الى ما أعلمتهم به حكومة الهند من أن دستوراً سيدخل قريباً في حيز التنفيذ وستصبح الهند بموجبه جمهورية ، ولكنها ترجو البقاء في الكومنولث وتقبل بالتالي بالملك كرمز للرابطة الحرة بين الدول الأعضاء . وايماناً بذلك ، ودون تبديـل أسس ولائهـا الخاص ، تستقبل دول الكومنولث الهنـد في رابطتها .

كانت تصريحات لندن في نيسان ١٩٤٩ هامة بخاصة . فقـد توجت الامكان لجمهورية ان تشترك في الكومنولث ، وهذا ما كان يرجا كثيراً . ولو قبلت قبل هـذه الآونة ، لكانت العلاقات الانكليزية — الايرلندية في السنوات ٣٠ — ٤٠ ومـا بعدها أقل توتراً . حتى ولو امكن اعتبار هـذه الخاتمـة ثمرة للتجربة الايرلندية لعام ١٩٢١ ، فمن المؤسف انهـا

حدثت بعد فوات الاوان بالنسبة لايرلندة . ففي ١٩٤٨ ، قطعت آخر روابطها مع الكومنولث وانفصلت رسمياً باعلان الجمهورية في أحد الفصح ١٩٤٩ (الذكرى السنوية الثالثة والثلاثون لثورة ١٩١٦) .

وأصبحت الهند جمهورية ، في ٢٦ كانون الثاني ١٩٥٠ ، وبقيت في الكومنولث رافضة كل ولاء للتاج ومؤكدة بأنها لا تعترف إلا على رئيسها ودستورها .

كان هذا التحويل المكرس على هذا النحو عميقاً وذا مغزى . لأن الكومنولث لم يعد بخاصة « بريطانياً » بالمعنى التقليدي للتعبير بعد أن اطرح لزوم رابطة خاصة مع التاج . وفتحت السابقة الهندية الطريق لجمهوريات آسيا وافريقية ، حتى انتهى هذا النظام بأن أصبح ممثلاً بشكل أوسع من الملكية . ولكن قرار المبدأ هذا يؤالف ، نفسياً اكثر منه دستورياً ، خطاً فاصلاً . لقد زال مفهوم الكومنولث المتجانس الذي يضم بريطانيا العظمى مع بعض مؤسساتها او مستعمراتها القديمة متحدة بلغة وبولاء مشتركين . وحل مكانه كومنولث أمم واجناس ، وثقافات مختلفة ، مترابطة بحرية بارادة واحدة في الدفاع معاً عن مصالحها المشتركة والأسباب التي تحركها قلبياً .

والآن ، فإن هـذا الكومنولث الجديد الموسع بانضمام الهند ، وباكستان ، وبسيلان في ١٩٤٨ ، سيلقى في طريقه ، على حدٍ سواء ، ظروفاً طيبة وظروفاً سيئة .

١٩٤٧ — ١٩٥٤ ، عصر الكومنولث الذهبي — ان تقلبات الكومنولث الجديد يجب ان توضع ثانية في منظور نمو نظام جديد رأى النور في اعقاب الحرب العالمية الثانية .

لم يكن الكومنولث المتشكل على هذا النحو سلطة تنفيذية اتحادية

ولا سلطة تشريعية ، ولكن اكثرية الرجال السياسيين في البلاد الاعضاء وجدوا ان هذه الحالة جيدة على هذا النحو .

لقد استعيض عن المؤتمرات الامبراطورية القديمة وقواعد احتفالاتها الصارمة الدقيقة بمؤتمرات رؤساء وزارات وتبادل وجهات نظرهم مرات عديدة دون نتيجة . ولم يبدل شيئاً قبول الهند ، وباكستان ، وسيلان في هذه الأعراف . وهذا النظام المرن غير المركزي الذي يترك السلطة بأيدي الحكومات القومية ، هو الذي اقنع هذه البلاد الثلاثة بالاشتراك في الكومنولث .

وسار هذا الأصول كاملاً بين ١٩٤٧ و ١٩٥٤ . ولكن ما من أصول ، مهما كان تاماً ومرضياً ، يمكن ان يساعد على حل التناقضات الداخلية الأساسية . وبدا من الصعب تجنب مجابهة في قضايا الاستعمار أو العرقية .

وظلت بريطانيا - العظمى ، في هذه الفترة ، الدولة الاستعمارية الأساسية ، وأصبحت افريقية الجنوبية في كل يوم اصلب بطل في التفاوت العرقي . واذا كان بالامكان تهدئة بعض الحساسية بالقول بأن انكلترا تعهدت بتحرير امبراطوريتها كلها ، وان تحقيق نهاية الاستعمار ليس إلا قضية زمن، فإن حجة كهذه تصبح باطلة اذا كان القصد بقاء التمييز العنصري في افريقية الجنوبية ، بعد أن أصبح التمييز فيها مذهب الدولة ولا تمكن مخالفته دون التعرض لصواعق القانون .

وقد يوجد في ذلك ما يعرض وحدة الكومنولث للخطر . ولكن لاشيء من هذا ، لأن الخطر جاء من مكان آخر . فقد حدثت المجابهات الخطيرة ، في الواقع ، على السياسة الخارجية . وطوراً وطوراً ، أثار تنظيم اوربة والمواثيق العسكرية وعملية السويس أزمات وتصادمات عميقة .

لقد وضعت القضية في اوربة أولاً ، لأن بريطانيا ـ العظمى ، وقد ضعفت بشكل خطير ، كانت تبحث ، زيادة عن الكومنولث ، عن تحالف يساعدها على التماسك تجاه عملاقي العالم الجديدين : الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة .

وبالرغم من دعم الكومنولث ، ظهر عليها الكبيرات ولم تقم التوازن إلا بنجدة اوربة الغربية . ولكن كان يفهم ، في هذا الحلف ، بأنه يجب على جميع الاعضاء الحفاظ على كامل سيادتهم . وكان الكومنولث يعتبر هذه النقطة الأخيرة رئيسية دوماً ، وحتى بعد الحرب العالمية الثانية . ولم يكن هذا رأي القارة دوماً . ولكن انكلترا ، في هذا المضمار ، كانت تقف دوماً الى جانب الكومنولث ، ولم تخف ، خلال فترة طويلة ، عند الاختيار بين الحلف الاوربي وهـذا الكومنولث ، بأنها تفضل كثيراً الكتلة الثانية من الاصدقاء .

ولأسباب أخرى وجد هذا القلق طنيناً في آسيا ، حيث جرى تساؤل حول ما إذا كان حلف انكلترا واوربة يمكن أن ينشىء كتلة امبريالية قوية .

والفرصة الثانية للاحتكاك بين لندن وعواصم الكومنولث الأخرى كانت في توقيع معاهدة شمال الاطلسي ، وهي فرصة أضيفت لها فيما بعد فرصتا توقيع ميثاقي دفاع آخرين : (اوستراليا ـ زيلاندة الجديدة ، الولايات المتحدة) و(منظمة معاهدة جنوب ـ شرقي آسيا) .

لقد وقعت ميثاق شمال الاطلسي ، عام ١٩٤٩ ، كندا مثل انكلترا ودافع لوي سان ـ لوران ، وزير الشؤون الخارجية الكندي ، عن اختياره أمام المجلس ، في ٢٩ نيسان ١٩٤٨ على هذا النحو : « يجب أن نتجنب ، مهما كلف الأمر ، تكرار تاريخ سنوات ما قبل الحرب ، عندما كان للعادي النازي كل الحرية في اختيار ضحاياه الواحدة بعد الأخرى » . وتركت

الحجة بلاد آسيا باردة ، فلم تشاطر في هذه التجربة . لقد كانت قلقة وقالت ذلك . وكانت أكثر قلقاً أيضاً من توقيع ميثاق اوستراليا - زيلاندة الجديدة - الولايات المتحدة - وهو أول ميثاق أبرمه عضوان في الكومنولث مع بلد ثالث دون حضور بريطانيا العظمى وباستنكار تشرشل ، وفي ذلك ما يجعل بشكل خاص تبعية هذه الدومنيونات فجة حيال الولايات المتحدة فيما يتعلق بالدفاع ، مع أن معاهدة شمال الاطلسي أشارت إلى تبعيـــة انكلترا وكندا العسكرية حيال الولايات المتحدة نفسها . ولكن الحالة تفاقمت أيضاً ، من وجهة نظر الآسيويين ، عندما امتدت ، في ١٩٥٤ ، شبكة الاحلاف الاقليمية هذه الى جنوب وجنوب - شرقي آسيا ، شاملة بذلك الكومنولث كله أو جزءاً منه .

ونشأت منظمة معاهدة جنوب - شرقي آسيا من ميثاق مانيلا ، وأظهرت بفظاعة اختلاف وجهات النظر بين بلاد آسيا . فقد وقعت الباكستان هذا التعهد ، ورفضته الهند وسيلان . وطالب نهرو ، في استنكاره ، لماذا « تناقش قضايا آسيا وسلامها وأمنها ، ويفصل بها ، وتحل ، بمعاهدات تبرم بالاكثرية بين بلاد غير آسيوية » .

كان لهذا العداء سببان أساسيان : فمن جهة ، حاولت الدبلوماسية الهندية أن تحمي آسيا من المخاطرة بحرب ، لأن امتداد المواثيق العسكرية لا يسهل شيئاً ؛ ومن جهة ثانية ، اوجدت حرب كوريا عاطفة : وهي أن العالم الغربي ، ومن ضمنه الولايات المتحدة ، لا يشعر اليوم بآلام شعوب آسيا ، كما كان في السابق لا مبالياً بشرور الاستعمار .

غير أن الحذر ، الذي أبدته الدومنيونات القديمة والباكستان من « منظمة معاهدة جنوب - شرقي آسيا » ، أثار حماساً جديداً لسياسة عدم الانحياز ، في الدومنيونات الجديدة في آسيا . وبينت الهند ، بالاضافة الى الحجج

التي أدلت بها سابقاً ، أن عدم الانحياز لعب دوراً لا يمكن اهماله في تسوية قضية كوريا . ولذا فمن الطبيعي أن تتضمن معاهدة ١٩٥٤ السارية على التيبت مع الصين توكيداً جديداً للمبادىء الخمسة (بانش شيلا) في التعايش والتعاون وعدم التدخل . وفي سنوات الخمسين وحتى اجتياز الجيوش الصينية الحدود الهندية ، في ١٩٦٢ ، اعتبرت دول الكومنولث الجديدة الافريقية والآسيوية والجنوبية الآسيوية ، هذه القواعد حجر الزاوية في سياستها الخارجية . وكانت تؤلف ، فوق ذلك ، خط التقسيم بين الدومنيونات القديمة والجديدة .

ومع هذا ، فان هذه البلاد ، التي يسلك سيرها نحو السلام طرقاً مختلفة ، استمرت على الاقل في حوارها المثمر في داخل الكومنولث . وظل هذا النظام ، كما قال في ١٩٥٥ السير ونستون تشرشل ، الذي كان يرأس ، لآخر مرة في حياته ، مؤتمر رؤساء وزراء الكومنولث ، « رابطة اخوية » . ولا مشاحة في أن الكومنولث ، بفضل ما أسماه ماكنزي كينغ المشاورة غير المنقطعة للحكومات ، قد جعل ، خلال زمن على الأقل ، رجالاً سياسيين من جميع القارات يعيشون ، خلال فترة من الزمن ، في تفاهم طيب . ومع ذلك ، فان هذا الانسجام لا يمكن أن يدوم .

في ١٩٤٨ ، توصلت سيلان الى الاستقلال وتعهدت باحترام مبادىء وتطبيق المشورة في داخل الكومنولث في قضايا السياسة الخارجية . ولكن هذا النموذج الممتاز لم يستأنف عندما دخل « النادي » أعضاء جدد . وربما سارت الأمور من نفسها ، ولكن ما من أحد يرغب أن يقول ذلك .

وكذا الأمر بالنسبة لانكلترا . ففي ١٩٥٥ ، قالت الملكة منهية

خطاب العرش : « ان حكومتي ستحافظ وستقوي المشاورات في داخل الكومنولث لانجاز سياساتنا المشتركة » . وهذه الجملة ايضاً زالت من خطاب العرش .

وهكذا تهيأ تزييف المبادىء ، وظهر في السنة التالية ، عندما انطلقت بريطانيا العظمى مع فرنسا في عملية السويس دون أن تشاور أو تعلم اعضاء الكومنولث الآخرين . ولم يكن هذا منها عن عدم انتباه ، بل عن ارادة واعية ، لأن لندن مقتنعة بان باقي الكومنولث كله سيكون معادياً لهذه العملية العسكرية . وهكذا ارتأى الرفيق الأسامي في الحلف ان يزج نفسه ، دون أن يعلم احداً ، في طريق يخاطر ، على الأقل ، بنسف تماسك الكومنولث ، على حين أن المشاورات المبدئية يمكن ان تجنب على الأقل عدم التفاهم الناشيء عن المفاجأة ، اذا كان حقاً انها ستظهر اختلافات عميقة في الرأي .

وفي الحقيقة ، انطلقت ردود فعل الدومنيونات القديمة ، من العطف المتفهم الذي أبداه السير روبرت منزيس ، في اوستراليا ، الى عدم اللامبالاة القاسية الجافة من افريقية الجنوبية ، مروراً بالانتقادات الليبرالية في كندا ، حيث اظهرت الصحافة ، عند حد تعبير مراسل « الاقتصادي » ، من الحزن اكثر من الغضب ، « قليلاً كما لو علمت ان عمها المفضل اتهم بالهتك » .

واعتبرت آسيا ، بالمقابل ، ان مثل هذا الاعتدال غير مقبول ، واكد نهرو بالرغم من « تجربة قديمة في القضايا الخارجية » بأنه لم ير في الماضي « حالة تتصف بالعدوان اكثر منها » ، وانا في عز القرن العشرين نعود ظاهراً «لطرق القرنين الثامن عشر والتاسع عشر العدوانية».

ولم يكن المندي الأول وحيداً في اظهار امتعاضه ، فقد اتهم ليستر بيرسون ، وزير الشؤون الخارجية الكندي آنذاك ، انكلترا بعبارة أكثر تنوعاً ، بأنها كادت تنسف الكومنولث عن عمد » .

والواقع ، اذا لم يحدث ذلك فلأن جميع الأمم الاعضاء رصت صفوفها ، واستخلصت من الأزمــة درساً خطيراً ، واعجبت من ان بريطانيا العظمى ظلت عضواً أساسياً في تحالفها ، ولكنها أضافت في الحال بأن هذا لا يلزمها بأن تمتثل لدبلوماسيتها .

وجرح هذا الاستقلال الفكري بعمق المحافظين البريطانيين القائمين على السلطة آنذاك ، لدرجة انهم تساءلوا فجأة ما اذا كان الكومنولث يبدي احيانا من المحاذير أكثر من الفوائد .

ولما كان من الواضح في كل يوم أن التغلب على الصعوبات الاقتصادية الانكليزية غير ممكن بمساعدة الكومنولث وحده ، فقد فكر شيئاً فشيئاً بالانضمام الى السوق المشتركة ، وفي ذلك ما يؤثر على تماسك الكومنولث .

افريقية في الكومنولث . – وفي السنوات العشر التي تلت قضية السويس سيطر على الكومنولث وصول البلاد الافريقية الى القوة . أما ان يكون تحررها قد تلا تحرر آسيا فلا غرابة في ذلك ، ولكن المفاجيء بالنسبة لانكلترا ، هو وقع وصولها الى السيادة . فتحت غانا الزحف في ١٩٥٧ . وتلتها نيجيريا في ١٩٦٠، ثم جاء سيراليون وتانغانيكا (١٩٦١) ، اوغاندا (١٩٦٢) ، وكينيا وزنجبار (١٩٦٣) ، ونياسالاند (مالاوي) وروديسيا الشمالية (زامبيا) في ١٩٦٤ ، وغامبيا في ١٩٦٥ ، والمحميات الثلاث ، باسوتولاند ، بتشوانالاند ، وسوازيلاند في ١٩٦٦ – ١٩٦٨ . وهذا الوابل لا يتضح بالضغط الصاعد للقومية وحده

فهنالك بلاد أخرى ، مثل الهند أو ايرلنده ، ظلت قديماً تحت النير بالرغم من أنها كانت قومية وافضل تنظيماً . ولكن الحادث الجديد هو ان المطاليب الافريقية وجدت أرضاً صالحة ، وأن بريطانيا - العظمى ، كسائر الدول الاستعمارية ، كانت معجلة بالخلاص من عبء الامبراطورية .

ان التوازن الدولي الجديد في العالم ، والتقدم التكنولوجي ، والثورة الصناعية الثالثة في الغرب ، وتفجر قومية الدول الناشئة ؛ ان كل هذه العوامل تختلط مع بعضها لتصرف النظر عن المستعمرات القديمة التي أصبحت تعتبر اليوم عبئاً اكثر منها حظاً .

ولذا فان هارولد ماكميلان ، اثناء رحلته الى افريقية ، في ١٩٦٠ ، عندما كان رئيساً لمجلس الوزراء المحافظ في بريطانيا العظمى ، قال ، في ٣ شباط أمام المجلسين المجتمعين لبرلمان افريقية الجنوبية ،بأنه اخذ « بالقوة التي وعت فيها افريقية شخصيتها . وان اشكال الظاهرة تختلف حسب الامكنة . ولكنها حدثت في كل مكان . وان ريح التغيير تهب على هذه القارة » .

ولاحظ المعمرون الانكليز بأنفسهم في افريقية ، معمرو كينيا وروديسيا بخاصة ، بعد قليل ، لخسارتهم ، ان ريح التغيير هذه لاتهب على افريقية وحدهـا ، بل على بريطانيا العظمى ايضاً . وكانوا حتى الآن يقولون في انفسهم ، اذا عاد العماليون الى السلطة كانوا قادرين على أن يسلكوا في افريقية سياسة الاستقلال القومي التي طبقوها في آسيا . ولكنهم لم يتصوروا مطلقاً بأن حكومة المحافظين يمكن ان تختار هذا الطريق ؛ ومع ذلك ، كان عليهم أن يتذكروا ان النظام السياسي الانكليزي يعمل بشكل يجعل المحافظين الاقوياء بمراكزهم قادرين بخاصة

على سلوك سياسة يسارية عندما تأخذهم الرغبة . ولقد لوحظ ذلك بسرعة في افريقية ، بل وفي كل ما بقي من الامبراطورية في البحر الكريبي والمحيط الهادي والبحر المتوسط . وفي قبرص فقط ، في ١٩٥٤ ، قررت الحكومة ان تقاوم ، واضطرها ذلك بالتالي الى بهلوانيات فظيعة عندما ارادت أن ترجع عن هذا القرار دون أن تعترف به . وأخيراً ، في فجر سنوات الـ ٦٠ ، لم تكن القضية بالنسبة للندن معرفة أي المستعمرات ستتوصل الى الاستقلال ، بل بكل بساطة متى وبأي ترتيب ستتوصل اليه جميعاً .

وفي الأول من تشرين الأول ١٩٦٣ ، اعرب وزير الشؤون الخارجية ، الكونت هيوم ، عن أمله بان « تتفاهم انكلترا مع اكثرية الأمم المتحدة في النطاق الاستعماري ، لأنها تتكيف مع مبادىء تقرير المصير ، وتفوق الاكثرية وحماية الاقليات » . وهذه المبادىء ، التي تكون في الغالب سهلة الاعراب أكثر من وضعها موضع التطبيق ، سنرى منها مثالاً يلفت النظر في مدينة جبل طارق .

ففيما يتعلق بهذه المدينة كانت القضية الموضوعة بشكل متناقض هي معرفة ما اذا كان يجب اعتبار أماني الاكثرية ، التي يعبر عنها بوضوح بالتصويت . وقد طالب الاستفتاء ، الذي تم في ١٩٦٧ ونظمته بريطانيا العظمى ، بدوام الارتباط مع هذا البلد بنسبة مئوية ساحقة . ومع هذا فان منظمة الأمم المتحدة اعطت الحق لاسبانيا التي ظلت تطالب بعودة جبل طارق الى الوحدة الاسبانية ، وتدعي بان « الصخرة » لا تؤلف كياناً ذاتياً مستقلاً ، وليس لها الحق في تقرير المصير (قرار لجنة الـ ٢٤ في الاستعمار) . والى الآن ، لم يؤت بأي حل لحوار الصم .

ومع هذا ، فان هذه الأمور ليست الا « مراحل » ، ولكن الصعوبات الشائكة أكثر من غيرها ، كما سنرى ، حدثت في افريقية .

لقد حيا جميع اعضاء الكومنولث بفرح وصول غانا وامم افريقية السوداء اليهم والجلوس بينهم . وانحنت افريقية الجنوبية . ولكن لم يذهب عن بالها أن صفة الكومنولث كانت تتبدل بتركيبه ، وان مستقبله يتعلق قليلًا ببريطانيا العظمى والدومنيونات القديمة البيضاء ، وأكثر فأكثر بالشعوب غير الأوربية . وكانوا كلهم معادين للتمييز العنصري . وبهذا الاعتبار لم يعد بالامكان الا حلان : إمّا انفجار الكومنولث على قضية المساواة العرقية أو ذهاب افريقية الجنوبية . وهذا الفرع الثاني من الاختيار هو الذي تحقق ، ومن سخرية القدر ، أن يحدث بعد قضيه اثارتها افريقية الجنوبية نفسها .

كانت هذه القضية قضية الحفاظ في داخل الكومنولث على البلاد التي تبنت النظام الجمهوري . فمنذ سقوط جمهورية كووغو ، كان أكثرية الافارقة يتمنون رجوعها . وكانت بالنسبة لهم رمز الأمة نفسه ، ودليلًا على ارادة الشعب الحية . وقد ساعد استفتاء عام ١٩٦٠ ، الخاص بالأوربيين ، على تبني الدستور الجمهوري في ١٩٦١ . وهنا فسدت الأمور .

وكان متوقعاً أن يدخل الدستور الجديد في حيز التنفيذ في ٣١ أيار . وقبل هذا التاريخ ، تكيفت حكومة جنوبي افريقية مع سابقة الهند ، وطلبت السماح بالبقاء عضواً في الكومنولث على الأقل .

وإذا تمسكنا بالنطاق الدستوري الصرف ، لتغلب اتحاد جنوبي افريقية . ولكن معظم رؤساء الوزراء وسعوا النقاش وأفادوا منه للاشارة إلى أن التمييز العنصري مخالف للمبادىء التي تحكم كومنولث متعدد الأجناس .

وعرفت النتيجة : وهي أن فصل افريقية الجنوبية وتصويت كندا اتفقت مصلحتها مع خصوم التميز العنصري الافروآسيين. وباعتراف الجميع يبدو أن هذا الحل يقوي تلاحم الكومنولث . إلا أن السير روبرت مانزيس وحده اعترف بأنه اضطرب بعمق بهذه الأحداث . وسيبرهن المستقبل ، مع ذلك ، على أن الخصوم الأنسانيين لنظام جنوبي ـ افريقية بالغوا بشكل عظيم في تقدير نتائج هذا الطرد وبخسوا امكانات بقاء افريقية الجنوبية على قيد الحياة . أما حكومة لندن فقد تبنت موقفاً ذرائعياً ورأت بأن تبقى افريقية الجنوبية في الكومنولث ما دامت سياستها لا تخاطر بتفجير نظام متعدد العروق ، ولكن لا لزمن طويل .

ولقد وقفنا عند هذا المثال لأنه يساعد على فهم كيف أن وضع الأعضاء الآخرين في الكومنولث يمكن أن يؤثر في السياسة البريطانية ، وسترى السنوات التي تلي طرد جنوب افريقية ظهور مثالين آخرين من نفس النمو وهما : ترشيح انكلترا للوحدة الاقتصادية الأوروبية وقضية روديسيا الجنوبية .

الكومنولث والوحدة الاقتصادية الأوروبية . —

في ١٣ حزيران ١٩٦١ ، أرسل هارولد ماكميلان ، الوزير البريطاني الأول ، ثلاثة من أهم وزرائه لزيارة عواصم الكومنولث والتباحث مع الحكومات في توطيد علاقات جديدة بين لندن والوحدة الاقتصادية الأوروبية . وكان هذا الأصول في المشورة مطابقاً تماماً لقواعد الوحدة المألوفة ، أما في الأعماق فقد ظهر أن الدومنيونات كانت أكثر تردداً ومقاومة مما كان يتوقع بكثير . ومع قبولها بأن تقوية اوربة الغربية على الصعيدين الاقتصادي والسياسي ستكون مفيدة لها ، واعترافها ،

في البلاغ الذي تلا هذه الزيارات ، بأن الترشيح الانكليزي يتعلق وحده بالحكومة البريطانية ، لم تخف قلقها عندما رأت المملكة - المتحدة تبتعد عنها كلما تقربت من البلاد القارية في اوربة . ورجعت القضية المناقشة أولاً أمام المجلس الاقتصادي الاستشاري لوزراء الكومنولث (في اكرا ، في ايلول ١٩٦١) ، ثم في مؤتمر رؤساء الوزراء في الكومنولث (في لندن ، ١٩٦٢) . وأثارت للمرة الأولى سيلاً من الانتقادات ، وفي المرة الثانية ملاحظات محدودة متزنة ولكنها مع ذلك انتقادات . وفي الوقت ذاته ، كان الكومنولث يخشى من أن تضحي مصالحه الخاصة (ومن هنا يظهر ، جزئياً ، بطء مفاوضات بروكسل) ؛ ولأجل طويل ، خاف من أن يعايش — ويستطيع ذلك — انكلترا جديدة ومغايرة . وتصور بريطانيا - العظمى كما وصفها الجنرال دوغول في مؤتمره الصحفي ، في ١٤ كانون الثاني ١٩٦٣ ، الذي أبدى فيه رفضه للترشيح البريطاني) : « ... جزيرية ، بحرية ، مرتبطة بمبادلاتها ، وأسواقها ، وتموينها ، ببلاد مختلفة وغالباً بعيدة. »؛ ولم يتمن أن يراها تتغير . وقد لزمه زمن طويل وتفكير كثير حتى انحنى أمام ما لا يمكن اجتنابه واستطاع أن يرى فيه بعض الفائدة .

وفي ١٩٦٢ ، بدا أن المعارضة ملحوظة جداً بين الكومنولث والسوق المشتركة . فقد كانت الصحافة المحافظة تحبذ الترشيح الانكليزي للوحدة الاقتصادية الأوربية ، ولذا كانت تهتم بأن تقلل أهمية الروابط مع الكومنولث. وكان العماليون ، بالعكس ، يعتزون بأنهم دشنوا ، في ١٩٤٧ ، بمنح الاستقلال إلى الهند وباكستان ، تقاليد الكومنولث المتعدد الاجناس ، وكانوا ، رغم انقسامهم على أساس النقاش ، يميلون إلى منح أهمية خاصة جداً للروابط مع الكومنولث .

كانت الحالة من الوجهة الجذرية مغايرة ، في ١٩٦٧ ، عندما قدم هارولد ولسون الوزير الاول العمالي الجديد للمرة الثانية ترشيح بلاده للوحدات الاوربية . ولم يظهر الكومنولث ، في الواقع ، في النقاش بشكل متفوق . بل كان بالضبط موضع تصريح ، في مجلس العموم ، في ٨ أيار ١٩٦٧ ، من جانب أمين الدولة للعلاقات مع الكومنولث ، يؤكد بأنه لا يوجد تعارض مبدأ بين الانتساب للكومنولث والانتساب للوحدة الاقتصادية الاوربية ، عدا أن مجموع الكومنولث لهما يكسبه اقتصاديا وسياسياً من تقوية الاوضاع الانكليزية ، وانهى حديثه قائلاً : « هذه هي النتيجة التي توصل إليها الرجال السياسيون في الكومنولث » .

ولكنه لم يضف بأن الامر إذا كان على هذه الحال فذلك لأن بلاد الكومنولث منذ ترشيح ١٩٦٢ — ١٩٦٣ قد بدلت بشكل عظيم اتجاه تياراتها التجارية ، حتى ان التجارة ، مثلا ، بين اوستراليا واليابان ، في ١٩٦٧ ولأول مرة ، تجاوزت في الاهمية تجارة اوستراليا مع بريطانيا العظمى . وكذا الحال مع الدومنيون القديم ، الجمهورية الايرلندية : ففي ١٩٦٥ ، وقع هذا البلد مع لندن اتفاقاً بانشاء منطقة تبادل حرة بين البلدين ، ودخول هذا الاتفاق في حيز التنفيذ تدريجياً ليكون في مكانه تماماً ، في العام ١٩٧٥ ، بغية تسهيل دخول الطرفين الساميين المتعاقدين في الوحدة الاقتصادية الاوربية . ومن سخرية القدر التي تلفت النظر ، ان ايرلندة التي ما فتئت تقول بأنها تنفصل عن الكومنولث وعن المملكة المتحدة ، أصبحت فيما بعد مرتبطة بشكل وثيق بالاقتصاد البريطاني أكثر من أي عضو في الكومنولث الحالي .

ونظراً لتواجد الترشيح الثاني الانكليزي للوحدة الاقتصادية الاوربية مع أزمة ميزان المدفوعات ، ومع تخفيض قيمة الجنيه ، فقد لفت الانتباه

العام إلى روابط بريطانيا العظمى والكومنولث مع نظام مؤسسة المنطقة الاسترلينية .

وفي الحقيقة ، ان الكومنولث ومنطقة الاسترليني لا تتواجدان تماماً . فهناك بلاد ليست ولم تكن أعضاء في الكومنولث ولكنها تابعة لمنطقة الاسترليني . وكذلك ، يوجد بعض أعضاء في الكومنولث ، مثل كندا ، ولا تشترك في هذه المنطقة . ومع ذلك ، يوجد بين هذين النظامين رابطة لا يمكن نكرانها . وقد نشأت منطقة الاسترليني ووجدت المنطقة الاسترلينية ، لأن بعض الأمم ، وهي غالباً أعضاء في الكومنولث ، كانت تتمنى توازن ميزان مدفوعاتها بالاسترليني ، وتجد في ذلك فوائد اقتصادية وتجارية . وعلى هذا النحو جعلت هذه البلاد من الاسترليني عملة من العملات الصعبة الدولية الهامة . وعلى العموم ، وهذه الحالة كانت قبل الحرب العالمية الثانية ، إن التوازن ما دام قائماً بين فائض البلاد الخارجة عن منطقة الاسترليني وبين عجز بريطانيا العظمى حيال البلاد غير الاعضاء في هذه المنطقة ، فلا يوجد مشكلة . ولكن ، في السنوات الحديثة ، عندما استدانت أكثرية بلاد منطقة الاسترليني من البلاد الخارجة عن هذه المنطقة ، وجد أن هذه الحالة قد اثقلت بشكل فادح على احتياطات الجنيهات واضطرت بريطانيا ـ العظمى إلى تدابير دراكونية .

وقال جمس كالاغان ، وزير المالية ، في ٩ أيار ١٩٦٧ : بالرغم من هذه الضغوط الدورية على الجنيه ، فإن الحكومة البريطانية ترى أن يبقى الاسترليني عملة من العملات الأساسية الدولية ، سواء اشتركت بريطانيا ـ العظمى أم لم تشترك في الوحدة الاقتصادية الأوربية . وأضاف ان هذا الدور لا يمكن أن يتخلى عنه « لأن موازين بلاد منطقة

الاسترليني تدين بريطانيا العظمى » . ومن الواضح « أننا لا نستطيع أن نتخلص من التزاماتنا ، ولا أن نبدل طبيعة موازين الاسترليني للكومنولث أو بلد غيره دون موافقتها » .

وأضاف الوزير بأن دور الاسترليني لم يكن قضية جاه ، بل قضية فوائد عملية ، متبادلة ، وسيكون للوحدات الاوربية منها نصيبها إذا دخلت بريطانيا العظمى في الوحدة الاقتصادية الاوربية . وستكون أمم أوربه الصغرى بعيدة عن تحمل مسؤليات جديدة ، بل ، على العكس ، سترى نمو طاقتها الاقتصادية والمالية . ولم يكن هذا وضع فرنسا ، فقد كانت باريس ترى بأن الدور الدولي للاسترليني كان عقبة في دخول بريطانيا العظمى في السوق المشتركة .

قوى الكومنولث المتشعبة . إن الكومنولث المتعدد الأجناس ، والمؤسس على مساواة الحكومات وشعوب الاجناس المختلفة ، يجب ، كما يؤمل على الأقل ، ان يسهل تعايش وتساكن الأجناس في داخل الأمم . وهذا الأمل وضع أكثر من مرة على محك قاس ، كما يرى في نيجيريا أثناء الحرب الداخلية التي أثارتها بيافرا في ١٩٦٧ .

لقد بدا الهدف صعباً في أكثر من نقطة على سطح الكرة الأرضية. وهكذا قسمت الهند تبعاً لاختلافات دينية ، أو محلية أكثر منها عرقية . وظلت قبرص وغويانه وفيجي والدول الأخرى ميداناً مغلقاً للاعراق والثقافات المختلفة . ولقد أظهر مصير الاتحادات ، التي شجعت بريطانيا ــ العظمى على نشوئها ، صعوبة القضايا الاقتصادية والثقافية والعرقية واختلاطها . وما من اتحاد من الاتحادات الهامة الأربعة : الهند الغربية ، ماليزيا الكبرى ، افريقية الوسطى والجنوب العربي ، استطاع أن يعيش بشكل متكامل .

فمن ذلك ان الجنوب العربي ، المؤلف من دول غير متجانسة وبخضع لضغوط مصر المعادية ، لم يكن له أقـل حظ بالتأصل والرسوخ . وخضعت بلاد بحر الكويبي لمعضلة المنافسات الجزيرية والتفاوت العميق في مستوى الحيـاة . إلا أن الاتحاد الماليزي وحده عاش بعـد انفصال ميناء سنغافوره (ذات سيطرة صينية) ؛ وظل ، مثل سنغافوره ، في تبعية الكومنولث ، وبخاصة في منطقة الدفاع الانغليزي - الاوسترالي. وهذا ما خوله سنداً رصيناً في منازعاته مع اندونوسيا ، وهـذا ما ساعد بريطانيا - العظمى على التصرف بقاعدة سنغافورة ، باتفاق مع الحكومة المحلية ، من أجل الدفاع عن مصالحها « في شرقي السويس » . ولكن هذه الحالة انتقالية ، لأن لندن ، بالرغم من قلق الحكومة الاوسترالية ، لم تخف عزمها ، الذي أعادت توكيده ، في كانون الثاني ١٩٦٨ ، على انطواء قواها في الشرق الأقصى ، ومن ضمنها سنغافوره ، قبل ١٩٧٢ ، في الحـد الذي تسمح به الحالة العامة . وفي الوقت ذاته ، بعد أن غادرت المملكة المتحدة عدن ، في ١٩٦٧ ، أعلمت الجنوب العربي بأنها لا تنوي ابرام مواثيق دفاعية في الخليـج العربي .

ولكن آخر قضية خطيرة للخلاص من الاستعمار وضعت أمـام بريطانيا - العظمى بتفجر اتحـاد افريقيـة الوسطى (روديسيا الشمالية والجنوبية ونياسالاند) . فقد تشكل هذا الاتحاد في منتصف عام ١٩٥٣ ، وتطور نحو تقسيم ديموقراطي للسلطـة بين الاقليات البيضاء والاكثريات الافريقية في البلاد الثلاثة . وكان هذا الحل مفيـداً للجميـع ، وخاصة بالنسبة لبلد أفقر من غيره وهو نياسالاند . ولكن هذه الفوائد ، في أعين الافريقيين كانت خفيفة الوزن أمام بقاء الأقلية الاوربية في السلطة .

وفي ٣١ كانون الأول ١٩٦٣ انفجر الاتحـــاد ، فاستنكره المعمرون ودعمته بريطانيـا . واستلمت حكومات افريقية السلطة في نياسالانـد (مالاوي اليوم) وفي روديسيا الشمالية (زامبيا اليوم) . وفي روديسيا الجنوبيـــة ، حافظت الاقلية البيضاء على الإشراف السياسي . وكافح القوميون الافريقيون هذه الحالة علنـاً وبشكل مفتوح ، كما نسفها جزع البريطانيين بعد أن رأوا بسرعة اقامة حكم الاكثرية . ولما رأت الاقلية الاوربية في روديسيا أنها تركت في الخارج ، واقلقتها حوادث الكونغو، رفضت أن تتخلى عن امتيازاتهـــا ، وقررت أن تنتقل إلى الهجوم . ونشرت حكومـة ايان سميث ، في ١١ تشرين الثاني ١٩٦٥ ، تصريحاً جانبياً بالاستقلال .

دعم الكومنولث كله الحكومـــة البريطانية فأجابت بؤيدات ضد المستعمرة المتمردة ، وفي الأشهر التـالية حاولت أن تفرض إجراءات قسر اقتصادية،ولكن هذه التدابير احترمت بشكل متفاوت . ورفضت بريطانيا العظمى والدومنيونات القديمة اللجوء إلى القوة . وهذا مـا آخذتها عليـه أكثرية الدول الافريقية . لأن هذه الحالة كانت اختباراً شديداً لانسجام الكومنولث المتعـدد الأجناس . وقد شوهد ذلك عندمـا هددت بعض الدومنيونات الجديدة بالانفصال وقطعت علاقاتها الدبلوماسية مع لندن .

وفي مؤتمر رؤساء وزراء الكومنولث(لندن ١ ايلول ١٩٦٦) أشار معظم رؤساء الحكومات إلى الإخفاق الجزئي للعقوبات الاقتصادية وطلبوا بالتالي أن يخضع معمرو روديسيا بالقوة . إلا أن البريطاني الأول ، هارولد ولسون ، ولم يكن منعزلاً ، رفض ذلك بقوة ، ولكنه وعد بشد الاجراءات القسرية متعهـداً في الوقت ذاتـه بالا يخول الاستقلال ما لم تطالب به أكثرية البلاد .

مستقبل الكومنولث . – لقد كانت السنوات ١٩٤٥ – ١٩٦٨ ، بالنسبة لبريطانيا – العظمى والكومنولث ، مطبوعة بوصول آسيا وافريقية إلى الاستقلال . وكان هذا التحويل رئيسياً وستكون له انعكاسات هامة على تطور الكومنولث . حقاً ، لقد فقد قسماً من تلاحمه القديم . ولكنه انفتح على عوالم جديدة . لقد وضعت فيه قضايا التربية والتنمية الاقتصادية والعدالة الاجتماعية بجـــدة ظلت مجهولة حتى ذلك الحين . ففي جنوب شرقي آسيا ، تفوق التعاون ، الذي نص عليه في خطة كولومبو ، التي أوحت بها الدومنيونات ، على منازعات « المنحازين » و « غير المنحازين » . وفي افريقية ، كانت الجامعات ، ومدارس الطب ، والمبادلات الاكاديمية أو المسلكية ، والمساعدة الفنية من البلاد الأكثر تطوراً إلى البلاد التي هي في طريق التنمية ، تشكل مآتي إيجابية ، ربما كانت قليلة لو لم يكن اطـار الكومنولث موجوداً . ولذا ، فإن الدول الافريقية كانت أول من طالب بالتنظيم الاداري للكومنولث : فقـد تأسست أمانة السر في ١٩٦٥ ، وكان الأمين العام الأول لهـا كندياً . وهكذا كانت الدول الافريقية نفسها تتمنى أن ترى الكومنولث يغامر في هذه العوالم الجديدة . ولم يكن هذا ممكناً لو لم تستمر الدومنيونات القديمة بمشاركتها . وفي الحالة الاقتصادية لبريطانيا – العظمى بعد الحرب (وهـذا مظهر للقضية اليه لم يشر دوماً بصورة كافيـــة) ، كانت دومنيونات آسيا السائرة في طريق التنمية تعتمد كثيراً على اوستراليا . فقد أسهمت جيوشها في الدفاع عن ماليزيا ، وسهل عونها الاقتصادي تطبيق مشروع كولومبو .

وكذا الحال بالنسبة لكندا . فلولاها لتقدم جنوب شرقي آسيا أولاً ، ومن بعده افريقية الغربية والشرقية ، ابتداء من السنوات ٦٠ ، بسرعة

أقل من الواقع ، ولكانت كندا نفسها أقل اهتماماً بنمو هذه البلاد ، لو لم تكن كلها أعضاء في كومنولث واحد .

ولعبت كندا في كل هذه المشاريع دوراً رئيسياً ، لا لأن ماتاها يجيء تواً بعد مأتى المملكة المتحدة فحسب ، بل أيضاً ، لانها بلداستيطان اوربي ، ومدينة إلى أصولها المزدوجة الثقافة بتفهم خاص للقضايا التي توضع للأمم المتعددة الأجناس في آسيا وأفريقية . وهي ، فوق ذلك ، اليوم ، الحارس اليقظان للتقاليد الليبرالية في الكومنولث . وفي الهند ، في فترات الاستقلال الاولى ، نسجت الحكومة الكندية روابط وثيقة بخاصة مع حكومة المؤتمر . وما من شك في أن هذا التفاهم الهندي ـ الكندي الذي تم في بداية سنوات الـ ٥٠ قد أسهم في تجنيب الهند عن قطع علاقاتها مع الكومنولث اثناء أزمة السويس ١٩٥٦ . وكذلك كان دور اوتاوا مفيداً حقا في طرد افريقية الجنوبية من الكومنولث . فقد اصطفت كندا في جانب الافرو آسيين ولم تدل بهذا على عدالة قضيتهم فحسب ، بل حالت دون انقلاب النقاش إلى مجابهة بين الاوربيين وغير الاوربيين. ولذا فان كندا ، كما يدعم لوي سان لوران ، الوزير الاول، الذي خلف ما كنزي كينغ ، ترى بأنها كانت الصانع الأساسي للكومنولث الجديد، ولم تخطىء في ذلك ، لأنه ملحوظ . ولهذا السبب فان العداء المتعاظم بين الوحدتين الكنديتين قد اهاج بعمق باقي الكومنولث .

وعند اقتراب الاحتفال بالذكرى المئوية لتأسيس هذا الدومنيون وفي خلال هذا الاحتفال (في الأول من تموز ١٨٦٧ — ١ تموز ١٩٦٧) كان كل انسان يتساءل بقلق ما إذا كان هذا الاتحاد سينفجر . ولكن بدا أن التعديل ، على كل حال ، لا مندوحة عنه ، وأصبح ضروريا لمتطلبات كيبك التي يجعل نموها الاقتصادي الحديث أكثر مطالبة .

لقد لاحظ هذا الاقليم ، في الواقع ، أن كندا ليست بلداً مزدوج اللغة ومزدوج الثقافة ، لأن الدستور الصادر عن المعاهدة الانكليزية — الشمال — أميركية عام ١٨٦٧ وملحقاتها لا يجعل من كيبك الا اقليما من أقاليم الأمة العشرة . ولكن هذا ليس كافياً بالنسبة للكيبيكويين ، الذين لا يطالبون باحترام حقوقهم الاقليمية فحسب ، بل بالمساواة التامة مع الكنديين الناطقين باللغة الانكليزية في اتحاد متجدد .

حتى ان بعضهم يذهبون أيضاً الى ابعد من ذلك ويريدون لانفسهم دولة شريكة ناطقة باللغة الفرنسية .

ولكن الواضح المؤثر المرئي تحت زاوية الكومنولث ، هو الأهمية التي تعلقها جميع الدومنيونات على قضايا قد تبدو لأول وهلة أنها كندية بخاصة . وهذا يرجع إلى الوضع البارز لكندا في الكومنولث اليوم . ويبرهن لأي درجة أصبح تضامن امم هذا الكومنولث حقيقة حية .

* * *

الفصل الرابع

المانيا الاتحادية والمانيا الديموقراطية الشعبية

ان التعابير بلجيكا ، فرنسا ، بريطانيا — العظمى تدل ، في اللغة العامة ، على مفاهيم جغرافية وتاريخية معينة جيداً . وإذا استثنينا ما في الوثائق الدبلوماسية ، فان الكلمتين « مملكة » او « جمهورية » لا تشترك فيها أبداً . وهذه الملاحظة ضرورية لوضع لوحة تاريخ المانيا الحديث في معناها الدقيق الثابت المحدد .

فمن جهة ، لا يوجد ، في الواقع ، منذ آخر الحرب العالمية الثانية ، أي كيان متجانس ترتبط به موافقة الدول الاجماعية وبنود المعاهدات اسم « المانيا » . وهو ، من الوجهة الحقوقية والسياسية والعرقية ، لا يرجع الى شيء واضح دقيق . ومن الثابت ، من جهة أخرى ، ان الوحدات السياسية ، التي تضم شعوبا ناطقة بالالمانية ، كان يدل عليها دوماً بارتباط اوصاف تعبر إما عن طبيعية ارتباطها الصوفية مثل **الامبراطورية الجرمانية المقدسة** ، الريخ الأول ، الثاني ، الثالث ، أو عن ارادات وبنية نظامها في الحكم: مثل : **المانيا الجمهورية الاتحادية** » أكثر من جمهورية المانيا الاتحادية **والجمهورية الديموقراطية الالمانية** [1] .

لقد ضمت تقاليد اللغة مع ذلك « المانيا » الى تاريخ اوربه مابعد

---

(١) من أجل هذه الجمهورية راجع الفصل الثامن في هذا الكتاب .

الحرب ، على حين أن مصيرها لن يحدد إلا في ختام مفاوضات معاهدة سلام مشكوك فيه وغير يقيني . ان الحدود الأرضية ، التي يعيش بينها الالمان ، رسمت في العام ١٩٤٥ بيد الجيوش المنتصرة ، ولم يؤيدها الدبلوماسيون ، بالرغم من أن دوام حالة الأمر الواقع جعلتها غير قابلة للالغاء خارجا عن كل نزاع جديد .

خلال هذا الدور ، قام الألمان معاً بجهدين متناقضين : أحدهما ينزع إلى الخروج من دمار الهزيمة الجذرية وظروف الحياة الضعيفة لينشيء بشكل نهائي بنيات توسع اقتصادي وتوازن اجتماعي مطمئن ؛والآخر يحاول ،بالعكس، أن يحافظ في النظام السياسي على الأوهام التي تظهر بالبداهة ان تقسيم المانيا موقت .

ان الاطار البدائي ، الذي يدل عليه اسم هذه الأمة ، قد رسمته حدود ١٩٣٧ ، التي خطتها معاهدة فرساي . وقد اخذه الغالبون الأربعة على عاتقهم كما هو في عام ١٩٤٥ ، ولكن السطح الذي يحتويه هـــذا الاطار كان مقسماً إلى خمسه أقسام .

١ ـ مناطق الاحتلال الثلاث (الاميركية والانكليزية والفرنسية) في الغرب ، التي تؤلف ، منذ ٧ ايلول ١٩٤٩ ، « **الجمهورية الاتحادية (الفيدرالية)** ؛

٢ ـ منطقة الاحتلال السوفياتية التي أصبحت « **الجمهورية الديموقراطية الالمانية** » ، في ٧ تشرين الأول ١٩٤٩ .

٣ ـ العاصمة القديمة ، **برلين** ، التي ظلت حقوقياً موضوعة تحت اشراف المحتلين الاربعة منذ ١٩٤٥ ، بالرغم من تقسيمها إلى قطاع سوفيـــاتي وقطاعات غربية .

٤ — سيليزيا وبوزنانيا ، وقد عهد « بادارتها المؤقتة » إلى بولونيا وأصبحا تماماً أقليمين من أقاليمها .

٥ — بروسيا الشرقية التي قسمت بين الاتحاد السوفياتي وبولونيا بصفة موقتة ثم أصبحت نهائية .

ان الدمج المطلق لهذه الاراضي الاخيرة بالسيادة السوفياتية أو البولونية لم يثر نزاعاً ابداً ، ولو من حيث المبدأ ، من جانب الدول الغربية الثلاث . حتى ان نزوح الشعب الألماني طوعاً أو كرهاً ونشوء اجيال بولونية جديدة قد أوجدا حالة واقع لارجعة لها .

لقد جاء من ثلاثة عشر إلى أربعة عشر مليوناً المانياً مضطربين بعد أن دفعتهم الجيوش السوفياتية المنتصرة أو ازاحتهم واقتلعتهم من جذورهم ، بين الراين والاودر ، في الأشهر الاولى من ١٩٤٥ . ودخلوا في مناطق كانت حتى ذلك الحين غريبة عنهم . وهذا الحشد الذي تم لهؤلاء الألمان بين حدود دقيقة واضحة المعالم شكل المانيا الحالية .

فقدت المانيـــا ، بالنسبة الى المانيا ١٩٣٧ ، ١١٤٠٠٠ كم٢ . وشطرها « الستار الحديدي » إلى شطرين : فعلى الحد الاداري لمناطق الاحتلال السوفياتي والغربي ، الذي ثبتته مصلحة التحديـــد والتحرير (المساحة) الألمانية بموجب اتفاقات كيبيك في أيلول ١٩٤٤ ، نجد أن القوى السوفياتية ، التي لم تبلغه على كل رسمه ، قد اتخذت مواقعها في الأول من تموز ١٩٤٥ . وابتداء من أيار ١٩٥٢ ، بدأ خط الحدود الفاصل بالتحول إلى منطقه ميتة ، إلى شريط صحراوي مجهز عسكرياً في قلب المانيا ، على طول ١٣٨١كم ، **من لوبيك الى هوف** وبذلك سدت ٣٦ خطاً حديدياً ، وثلاثة طرق سيارات ، ومائة طريق وطني ، ومثلها

طرق محلية ، دون الكلام عن الممرات والطرق الصغيرة . وعلى جانبي هذا الحد الاصطناعي الصرف وضعت كل من ألمانيا الشرقية والغربية جيوشاً خاصة لا تنقطع جولاتها المتنافسة . ففي الشرق يسهر رجال الشرطة الشعبيون على منع ابناء وطنهم من محاولة مغامرة فرار عبر حقول الالغام والاسلاك الشائكة : وفي الغرب نجد حرس الحدود ، الذين كانوا أول تشكيل عسكري واق تألف في الجمهورية الاتحادية ، يقفون ، بالعكس ، يقظين لاستقبال الفارين . ووراء هؤلاء الاخوة الأعداء ، وعلى بضعة كيلو مترات في داخل البلاد ، يقيم حلفاؤهم ، الجنود السوفياتيون من جهة ، والاميركيون والانكليز والفرنسيون من جهة أخرى .

وفي الاطار الذي رسمته الحرب وجد شطرا المانيا وجهها الغريب المكتسب من ردود الفعل المنعكسة الجديدة . وكان يظن أن عقوداً ستمضي بالضرورة لتجعل كل واحد منها أجنبياً عن الآخر ، وأن اختلاف النظامين لن يتوصل إلى ذلك . وفي الحقيقة ، لقد أفادت المانيا الغربية ، الديموقراطية الحرة الليبرالية في الخمسة عشر عاماً التالية ، كقطب لجذب المان الشرق ، وكل من لم يتكيفوا على الأقل مع روح وطرق ديموقراطية شعبية صارمة بخاصة . ان ما يقارب الثلاثة ملايين منهم يقتحمون الاخطار المتزايدة عاماً بعد عام ويغادرون منازلهم للوصول الى « المانيا الأخرى » ويكفي الكثيرين منهم أن يأتوا الى برلين ، ويأخذوا المترو لبلوغ القطاعات الغربية . ومن هناك ، الطائرة للغرب . ولكن العاصمة القديمة قسمت ، في ١٣ آب ١٩٦١ ، الى قسمين : وسد سور من الحجر ، مثقوب بعدة نقاط رقابة ، آخر ثغرة مواصلات بين المانيا الشرقية والغربية ، بين شرقي اوروبة وغربها .

وحول هذا الجدار ، حول هذه الحدود الداخلية ، كتب كل تاريخ المانيا الحديث العهد .

بين الشرق والغرب . - في ١٩١٩ ، لم تضع الهزيمة العسكرية استمرار الدولة الألمانية موضع اتهام ، وبقي تغيير النظام قضية خاصة بالالمان وحدهم ووقف وجود الأجنبي الغالب على الراين ، بل وعرف أيضاً حدوده : لأن الادارة الالمانية بقيت منوطة ببرلين . ومع ذلك لم تكن معاهدة السلام في فرساي موضع مفاوضات ، بل فرضت على المغلوب .

وفي ٩ أيار ١٩٤٥ ، بعد توقيع استسلام الريخ الثالث دون شرط ، زالت الدولة الألمانية وزال النظام . وأخذ الأربعة الغالبون والمحتلون على عاتقهم مصير الأمة . وهيأت مؤتمرات زمن الحرب ، طهران ١٩٤٣، يالطا في شباط ١٩٤٥ ، القرارات ، وحددت المبدأ بأن تبقى المانيا وحدة سياسية تدار بالاتفاق معاً . ويرمز احتلال برلين من قبل الثلاثة الكبار الى هذه الحالة . وفي الأول من أيار ١٩٤٥ ، صدر بروتوكول اضافي احدثت بموجبه منطقة احتلال فرنسية اقتطعت من المنطقتين الانكليزية والاميركية . وفي الأول من تموز احتلت القوات المنتصرة الحدود الادارية : فقد اخلى الاميركيون قسماً من الساكس وتورنجه ، حيث أوصلهم تقدمهم ، ودخلت الجيوش الغربية برلين بعد أن ظلت الجنود السوفياتية وحدها تقبض عليها حتى ذلك الحين . واحترمت جميع الاطراف المعنية الاتفاقات المبرمة .

وفي ٢ آب ، ضم مؤتمر بوتسدام ستالين ، والرئيس ترومان ، وتشرشل ثم آتلي ، وتقرر فيه « أن تعامل المانيا في فترة الاحتلال ككيان اقتصادي وحيد » ، ونص على اعادة تأليف الأحزاب السياسية في المانيا بمجموعها وعلى انشاء مقاطعات ادارية مركزية .

وعندما دعيت حكومة الجنرال دوغول الموقتة لمشايعة ترتيب مؤتمر بوتسدام ، الذي انعقـد ولم يحضره أي ممثل فرنسي ، أبدت في ايلول تحفظات باتة بروح عبرت عن نفسها بهذا الشكل : « لو كان تقسيم المانيا الى عدة دول نتيجة تطور طبيعي ، لا نتيجة حل مفروض ، لـكان ملائماً للحفاظ على الأمن في اوربة » . وطالبت عندئذ « بفصل المنطقة الرينانية — الوستفالية » فصلاً نهائياً ، ومن ضمنها ، الرور ، عن المانيا .

وإذا كانت المعارضة الفرنسية للوحدة ملحوظة جداً ، وناجعـة جداً أيضاً لأن ممثل باريس في مجلس الرقابة (الاشراف) ، الجنرال كونيغ ، كان يتمتع بالمساواة التامة في الحقوق ، فقد رافقت ، أكثر مما أثارت ، الحركة نحـو تقسيم المانيا . وبسرعة لوحظ انشاء أربـع دول المانيـة ، دولة في كل منطقة احتلال . وكان القـادة الاعلون في منطقة احتلالهم سادة مطلقين ، ويطبقون فيها سياسات وطرقاً لا يمكن التوفيق بينهـا ، وعلى كل حال ، غير مهيأة معاً .

وفي وسط مجلس الاشراف ، كان الاختلاف على المعاملة الاقتصادية الخاصة بألمانيا يستلهم من مذاهب أو من مشاريع متعارضة تماماً . لقد كان السوفياتيون والفرنسيون يريدون تعويض الخسائر التي سببها الألمان لبلادهم ، ويتطلبون تعويضات تستأصل جذور كل ما تبقى من البنـــاء الاقتصادي التحتي . وبالعكس ، كان الانغلو — ساكسون يتمنون اعادة الاقتصاد الالماني الى مجراه لاختصار الدور الذي تتعلق فيه حيـاة مناطق الاحتلال بالموارد التي يقدمها الحلفاء .

وكانت الاختلافات في المضمار الاجتماعي والسياسي أيضاً . فقد ظهرت ، منذ ٢ ايلول ١٩٤٥ ، بادخال اصلاح الاراضي في المنطقة السوفياتية حيث

أوحى تحويل البنيات الاجتماعية لصالح الطبقة العاملة والحزب الشيوعي بالتطور كله . إن تطهير الادارة والشعب قد فهم فيها عملياً كتعويض عن « صغار النازيين » . وفي المناطق الغربية أدى التطهير بهم الى طرد صارم .

وكان المنعطف الكبير ملحوظاً في ٦ ايلول ١٩٤٦ بالخطاب الذي خطبه في شتوتغارت أمين الدولة الاميركية بورنز ، بعد مضي ثلاثة أشهر على مؤتمر وزراء الشؤون الخارجية غير المثمر . لقد رأى استحالة تأليف كيان اقتصادي الماني ، والغاء تقسيم المناطق ، ورفض نهائياً أن يقدم للحكومة السوفياتية تعويضات تأتيها من المناطق الغربية ، ولكن يدفعها عملياً الانغلو - ساكسون . وأعلن انهاء دور عقوبة الاحتلال ، وامتدح ذوبان المناطق الغربية وأوحى بنص حياة المانيا .

هل يؤدي تقسيم اوربة الى تقسيم المانيا ؟ من العبث الفصل هنا بين العلة والمعلول : لقد كانت المانيا الاختبار ، الحقل المغلق الذي ظهرت فيه بشكل ممتاز منازعات لم يحذفها تحالف زمن الحرب . وفي ١٩٤٧ ، بعد اخفاق مؤتمر موسكو ، بدأ التطور الذي أخذت ترسم فيه بشكل أقوى كل مرحلة من المراحل فردية كل من المانيا الشرقية والغربية . وحافظ الكبار - ويحافظون أيضاً - على الدقة الحقوقية القصوى : فقد قلموا بالتدريج هوامش اتفاقات بوتسدام ، وجابهوا روحها ، ولكنهم عنوا دوماً عناية كبرى بالحفاظ على نواتها ، أي على وضع نظام برلين . وان دقة الاصول فيه قضية وجدانية . ومع ذلك فان الانتهاكات لم تمس الجوهر أبداً . ولنقل ما بقي منه : ان العاصمة القديمة ما زالت مقسمة الى اربعة قطاعات وتحكم بحكام عسكريين ولا تضم أي حكومة من المانيا الشرقية أو الغربية . وان نواب برلين الشرقية في مجلس الشعب

في الجمهورية الديموقراطية لهم نفس وضع نواب برلين الغربية في بوندستاغ بون : وهو صوت استشاري بسيط . وبالرغم من « الجدار » فان ظاهر المرور الحر محترم من أجل مغتربي المحتلين الاربعــة في داخل حـدود « برلين الكبرى » . وأخيراً ، يتمتع الغربيـون بكامل حرية الدخول بالجو ، والطرق والسكك الحديدية ، على الطرق المحددة في ١٩٤٥ . وهذه الحالة الدائمة هي واقع سياسي ، وهذا الارتباط الاداري يرمز إلى بقاء المانيا بكاملها تحت الوصاية .

وفي هذه البلبلة الألمانية أخذ رجل على عاتقه أبوة اجراء لم يلق في بادىء الأمر الا العداء العام ، وهو : لودفيـغ ارهارد ،وكان مديراً،ان لم يكن بصورة مطلقة موجداً ، للاصلاح النقدي » في ٢٠ حزيران ١٩٤٨ . لقد كلف باقتصاد المنطقة الانكليزية ـ الاميركية ، ففرض بين عشية وضحاها صرف الويخشمارك مقـــابل الدويتشمارك ، الذي هو أقل منه بعشر مرات . وهـــذه العملية في ضمور النقد مباشرة شجعت ملاكي الأموال العينية على حساب الموفرين . ولكن المضاربة توقفت صراحة : وظهرت البضائع من جديد في المخازن ، وعاد الانتاج الصناعي . ولزم عامان لامتصاص البطالة ، وتوطيد ميزان التجارة الخارجية ، وتعميم الليبرالية التامة . وقد جرى هـذا الظفر في قوانين السوق على حساب العدالة الاجتماعية ، ولكنه ساعد الصناعة على استعادة قواهـــا ، بفضل سياسة التسليف وتدابير رعاية التمويل الذاتي التي أتمت الاصلاح .

وفي ١٩٤٧ نشأت بـذور التمثيل الشعبي : ففي ٢٥ حزيران نشأ المجلس الاقتصادي الألماني في «المنطقة المزدوجة » الانكليزية ـ الاميركية؛ وفي ٦ كانون الأول ، مؤتمر الشعب الألماني في المنطقة السوفياتية . واثناء

الازمة الطويلة لحصار برلين ، من ٣١ آذار ١٩٤٨ ، إلى ١٢ أيار ١٩٤٩ ، الذي يسجل اخفاق السوفياتيين الذين يرغبون بالغاء نظام العاصمة أدمج الغربيون مناطقهم الثلاث في الأول من آب ١٩٤٨ ، ودعوا إلى « مجلس برلماني » انتخب على رأسه كونراد اديناور . انعقد هذا المؤتمر في فرنكفورت وتبنى في ٨ أيار ١٩٤٩ « قانوناً اساسياً » ليفيد دستوراً للجمهورية الاتحادية المستقبلة . وفي ٣٠ أيار ، وافق مؤتمر شعب المنطقه السوفياتية بدوره على دستور ديموقراطي الحرف بشكل لا يقبل النقاش . ولكن كل شيء يتعلق باستعماله .

لكل كتلة المانيا خاصة بها — شهد خريف ١٩٤٩ تاريخي المانيا الشرقية والغربية الرسميين : ففي ١٤ آب ، انتخب برلمان الجمهورية الاتحادية ، وانعقد في بون ، التي اختيرت في ١٠ أيار الفائت عاصمة موقتة ، وسمي الأستاذ تيؤدور هويس الليبرالي من تقليد ١٨٤٨ القديم ، رئيساً للجمهورية ، وفي ١٥ أيلول قام بتعيين المستشار . وبأكثرية صوت واحد فاز كونراد اديناور ، رئيس الاتحاد الديموقراطي — المسيحي . وفي الشهر التالي ، اعطت المانيا الشرقية لنفسها بدورها جهاز دولة : فقد انعقد مجلس الشعب في ٧ تشرين الأول وانتخب في ١٢ منه حكومة يرأسها اوتو غروتفول الاشتراكي — الديموقراطي القديم وهو الذي أذاب حزبه بالحزب الشيوعي في الحزب الاشتراكي الموحد . وأصبح فيلهلم بيك رئيساً للجمهورية وكان رفيقاً قديماً إلى كارل ليبكنخت وروزا لوكسمبورغ في ايام ثورة برلين في ١٩١٩ .

ومنذ الآن ، وضعت كل من المانيا الشرقية والغربية نفسها في داخل الكتل المتجابهة على حدودهما المشتركة . ولآخر مرة ، في ١٠ آذار ١٩٥٢ حاول الاتحاد السوفياتي بشيء من الاقتناع الظاهر ان يلقي ثانية بميكانيكية

التوحيد في نظام الحياد المسلح ، ولكن مثل هذا المخرج لا يتصور في مناخ الحرب الباردة .

كانت الجمهورية الاتحادية تابعة ، في الواقع ، على قدم مساواة تامة، لبداية منظمة الوحدة الأوروبية ، رغم أنها ما زالت خاضعة لبنود اتفاقات الاحتلال التي وسعت تدريجياً . إن ثورة ١٧ حزيران ١٩٥٣ في برلين - الشرقية وفي المنطقة السوفياتية كلها ، قمعها الروس بقساوة ، دون أن يستطيع الغربيون فعل شيء آخر سوى إظهار عجزهم عن التدخل . ولم ينه الاتحاد السوفياتي بعد حالة الحرب مع المانيا ، وهذا الحادث يمكن أن يبرر عمليته في معاودة أخذ كل شيء بيده . ولم يتخذ هذا التدبير الحقوقي إلا في ٢٥ كانون الثاني ١٩٥٥ ، أي بعد أربع سنوات على ما فعله الغربيون (في ٩ تموز ١٩٥١) .

وإذا كان القصد الحصول على السيادة ، فقد سبقت المانيا الشرقية المانيا الغربية . ففي ٢٦ آذار ١٩٥٤ ، بعد إخفاق مؤتمر جديد لوزراء الأربعة للشؤون الخارجية ، في برلين ، اعترف الاتحاد السوفياتي بهذه الصفة للجمهورية الديموقراطية . وأفادت الجمهورية الاتحادية من ذلك بدورها على اثر المفاوضات التي أثارها اجهاض وحدة الدفاع الأوروبية . وفي ٥ أيار ١٩٥٥ ، الغي نظام الاحتلال ، مع التحفظ ببعض التحديدات النظرية ؛ وفي ٩ أيار ، دخلت في منظمة معاهدة حلف شمال الاطلسي بصفة العضو الخامس عشر ، وبكامل المساواة . وفي ٢٧ كانون الثاني ١٩٥٦ ، قبلت الجمهورية الديموقراطية في ميثاق فارسوفيا (وارسو) .

عندئذ جمد التطور ، لكل ما هو أساسي ، لأن كلاً من المانيا الشرقية والغربية ادمجت بشكل وثيق في نظام الاحلاف الذي أدخلها

في جسمه ، حتى ان كل اتحاد لهذين الجزأين من جسم واحد يمكن أن يعني انفجاراً اما لحلف الاطلسي واما لميثاق وارسو . ان اتحاداً كهذا الاتحاد يمكن أن يرافق بالضرورة بالحياد العسكري . وكل تفكير في هذه النقطة يتعثر في واقع بسيط وهو انه لم يكن لواشنطون ولا لموسكو دواع ستراتيجية ، وسياسية ، وعقائدية ، في التخلي عن نصيبها من قطاع لعالم تكون فيه مصالحها المتعارضة على اتصال مباشرة . ان تقسيم المانيا بالنسبة للسياسة الاميركية كما هو بالنسبة للسياسية السوفياتية « أقــل الضررين » وضمان بأن الدولة الثالثة في العالم في قلب اوربة لا تأتي ، عندما تقوى ، فتخل بشكل خطير بالتوازن العالمي لصالح معسكر تمنحه تحالفها ، أو لسبب بسيط لترددها .

ولدينــا الدليل على ذلك بعدم وجود رد فعل من الولايات المتحدة عندما شيد جدار برلين ، في ١٣ آب ١٩٦١ . فقد عبر الاستنكار عن نفسه باحتجاجات دبلوماسية ، في بضعة أسابيع من التوتر . وبعد عامين جاء جون كينيدي يقول للالمان ، من شرفة القصر البلدي في برلين : « خذوا مسؤولياتكم » ، الأمر الذي لم يبدل في شيء الهوامش الضيقة لحرية مناورة بون أو برلين — الشرقية .

ومنذ ١٨٦١ ، تعمق انقسام المانيــــا بضربات صغيرة ، على اثر اجراءات حقوقية تقررت جانبياً من قبل الجمهورية الديموقراطية ، وأدت ، في شباط ١٩٦٧ ، إلى التصويت على قانون ينشيء ، بمفعول رجعي ، مواطنة الجمهورية الديموقراطية الألمانية . وكانت النتيجة مزدوجة : فمنــذ الآن فصاعداً يعتبر المان الغرب كأجانب مجبرين على طلب تأشيرات المانية — شرقية للذهاب إلى برلين — الشرقية . والألمان الشرقيون اللاجئون في الغرب يمكن توقيفهم وتسليمهم إلى الجمهورية الديموقراطية

الألمانية ، إذا سافروا إلى الديموقراطيات الشعبية . وهذا النص ، الذي كانت بون حياله عزلاء من السلاح ، أنهى الفترة التي كانت فيها كل من المانيا الشرقية والغربية تعتبر المانيا ومغتربيها بشكلون وحدة غير قابلة للقسمة ، ينطبق عليهـا قانون ١٩١٣ ، المتمم في ١٩٣٤ ، في وحدانيـة المواطنة الالمانية .

إن تغير المفردات ، وان كان صغيراً في شكله ، ولكنه عظيم في معناه ، تدخل في بون في ١٥ كانون الأول ١٩٦٦ : فبعـد تشكل حكومة الائتلاف الكبير ، كان الناطق الرسمي له فون هازه ، يستعمل لأول مرة التعبير « المانيا الشرقية » متخلياً عن كل التعابير السابقة : منطقة الاحتلال السوفياتي ، المانيا الوسطى ، الجمهورية الديموقراطية المزعومة.

وان تطور اللغة ينبىء بالاعتراف المؤلم الذي لا يمكن اجتنابه لحقائق الواقع من قبل حكومة المستشار كيسنغر : فمنذ ربيع ١٩٦٧ ، لم يرفض اتصالات غير مباشرة مع رئيس حكومة المانيـا الأخرى ، فيلي شتوف . وهـذه مرحلة جديدة على طريق ربما يؤدي إلى الاتحاد (الكونفدراسيون) الألماني . وفوق ذلك ، ابرم اتفاق لعقد علاقات دبلوماسية مع رومانيا ، وهذا ما حصل في ١٩٦٧ ، ومع يوغوسلافيا .

ولكن اتفاقات ١٩٤٥ بقيت ، واحترس موقعوها دوماً من أن يحفظوا عنهـا علامة مشخصة بالابقاء في برلين على الشكليات البروتوكولية التي تصعد إلى أزمنة « التقسيم الرباعي » النشيط . ان علاقات الجمهورية الاتحادية (الفدرالية) مـع حلفائها هي في الحقيقـة غامضة . وهؤلاء الحلفاء الحماة والرفقاء هم الذين يتصرفون أخيراً بتنظيم التطور الألماني .

وحيال الولايات المتحدة ، كانت الحماسة قاعدة في عهد اديناور ، وأكثر

من ذلك أيضاً في عهد المستشار ارهارد ، ولكنها فقدت كثيراً من شدتها . وشيئاً فشيئاً بدا أن بون قبلت الفكرة الفرنسية في أن ضمانات المساعدة الاميركية ربما لا تلعب دورها في وقت الخطر . ومن جهة أخرى ، تحولت العلاقات البشرية . ولكن القوة الاميركية لا تتحدى بسهولة ، وما فتئت بون تخشى من أن تعمل تسوية شرقية - غربية على حسابها. وعدا عن وجود الرساميل في الصناعة الألمانية ، كانت واشنطون تتصرف بهذه الرساميل كوسيلة ضغط ضمنية لن تفقد نفاذها زمناً طويلاً .

وحيال فرنسا ، ان معاهدة التحالف عام ١٩٦٣ لم يكن منها إلا أن أبدت تقارباً كانت بوادره سابقة لوصول الجنرال دوغول إلى السلطة. ولقد نظر إلى باريس باستياء عندما ارتدت وخرجت من القيادة الاطلسية وتقربت من الشرق . ولكن فات الوقت الذي كانت فيه بون لتتساءل دون نهاية عن نقطة معرفة ما إذا كان ينبغي الاختيار بين صديقيها . وكان السؤال غير مجدٍ . لأنه لا يوجد اختيار ممكن ، حتى ولا اختيار يرتجى من هؤلاء الأصدقاء .

لأن كليهما يقومان حيال بون بدور مغاير . ان الجيوش الاميركية (نحو ٣٠٠٠٠٠ رجل) تحمي أرض الجمهورية الاتحادية باسم منظمة معاهدة حلف شمالي الاطلسي ، بينما الجيوش الفرنسية ظلت مقيمة فيها بعد انسحابها من هذه المنظمة اثر اتفاق ثنائي في كانون الأول ١٩٦٦ . وقد عرضت فرنسا زميلاً دبلوماسياً في داخل أوربة الست كما عرضت في الوقت نفسه كاشفاً لمنظورات (آفاق) يمكن أن تفتح في الشرق .

وإذا كان جيش الاتحاد بـ ٤٠٠٠٠٠ رجل ، وتجهيزاته الحديثة واسلحته الذرية ، التي يملك الاميركيون « مفتاحها » ، يؤلف أساس القوى المرابطة في المانيا ، فقد ردت الجيوش الأجنبية الأخرى إلى شيء

قليل : يكاد يوجد ٥٠٠٠٠ بريطـاني ، وبضعة الوف بلجيـكي ، ونحو ١٠٠٠٠ كندي . ان محتلي ١٩٤٥ ظلوا حتى ١٩٥٥ . ومنذ هـذا التاريخ ، أصبحوا رفقاء سلاح ، وغادرت الجنود المرابطة مناطق الاحتلال القديمة . وكان هـذا الوجود الطبيعي ضرورياً ليعادل القوى السوفياتية التي ظلت في المانيا الشرقية . لأن كل مجابهة بين القوى الألمانية المتنازعة يؤدي إلى دخول الجيوش الأجنبية في النزاع ، والحرب العالمية . وأخيراً هـذا هو معنى الوجود في نظام لم يعرف معادلاً ، ويبدو أن ليس له نهاية يمكن تصورها . إلا ان حياد المانيا وحده يمكن أن يضع له حداً. ولكن من يفكر فيه بجد ؟

فوائد الدوام . — ولكن المانيا الغربية والشرقية ، في هذا النطاق الدولي ، الذي يشدهما بقوة ، وجدتا ، على الأقل ، مع الزمن ، ضمانات للعمران السياسي والمعنوي والاقتصادي .

فبالنسبة للجمهورية الاتحـادية ، انطوت مرحـلة كبرى عندما استلم السلطة كودت – جودج – كيسنغو ، في كانون الأول ١٩٦٦ ، على رأس ائتلاف الديموقراطيين – المسيحيين والاشتراكيين . فمنذ ١٩٤٩ ، حتى ذلك الحين ، حـكم اديناور ولودفيـغ ارهارد ، ابتداءً من ١٦ تشرين الأول ١٩٦٣ ، مضيفين الى حزبها ، الاتحاد الديمقراطي – المسيحي ، تحالف الحزب الليبرالي الصغير ، وكان جلياً أن كونراد اديناور ، منذ ١٩٦١ ، لم يكن بالرجل الذي تطالب به قضايا المانيا في النصف الثاني من القرن العشرين . ولكن الموازنة التي اقيمت عند وفاته ، في ربيع ١٩٦٧ ، كانت ايجابية بشكل واسع : فهو لم يوطد من جديد دولة مستقرة مع كثير من الفطنة والتعقل والحنكة فحسب ، بل إنه اعاد الثقة الى كلام بلاده بدمجها بقدم راسخة وبحرية في أوربة . ان صورة شعبه وبلاده ، وردود الفعل

التقليدية من الأجنبي أمامها تحـولت بصورة جذرية . وكان الموكب الجنائزي للمستشار العجوز في كاتدرائية كولونيا يؤلف احتراماً لم تره المانيا منذ دفن ملوك بروسيا .

من ١٩٤٩ إلى ١٩٦٥ حصل حزبه ، **الاتحاد الديموقراطي المسيحي** حليف الاشتراكيين ـ المسيحيين البافاريين ، على اكثرية أصوات الناخبين ، حسب منحنى صاعد يتبع بشكل وثيق استعادة الجمهورية الاتحادية استقلالها الذاتي : ٣١ ٪ في ١٩٤٩ ؛ ٤٥٫٢ ٪ في ١٩٥٣ ؛ ٥٠٫٢ ٪ في ١٩٥٧ ؛ ٤٥٫٣٪ في ١٩٦١ ؛ ٤٧٫٦٪ في ١٩٦٥ .

اما المعارضة الاجتماعية ـ الديموقراطية فقد انطلقت من ٢٩٫٢ ٪ في ١٩٤٩ ، وانتقلت الى ٢٨٫٨ ٪ في ١٩٥٣ ، ٣١٫٨٪ في ١٩٥٧ ، ٣٦٫٢٪ في ١٩٦١ ، ٣٩٫٣ ٪ في ١٩٦٥ .

وتراوح الحزب الليبرالي من ٧٫٧٪ في ١٩٤٩ ، الى ١٢٫٨ ٪ في ١٩٦١ ليعود منها الى ٩٫٥٪ في ١٩٦٥ .

وهذه التغيرات النسبية تحدد جيداً صورة المجتمع الألماني ، المدفوع بدوافع اقتصادية واجتماعية اكثر منها سياسية . لقد اصبح **الاتحاد الديموقراطي المسيحي** الحزب المستقطب للطبقات الوسطى والصناعة الكبرى ، منذ أن صبأ في ١٩٤٨ وترك البوادر « اليسارية » التي كان عليها جناحه في دوسلدورف ، عندما أراد ان تسيطر فيه المسيحيه الاجتماعية . لقد كان حـزب الحيطة اكثر من المحافظة ، وباعتباره حزب الاصلاح ، تقدم كملجأ طبيعي لكل من كانوا يجتازون الرايخ الثالث متكيفين ، ليعيشوا مع حلول تسويات لايمكن اجتنابها . ولم تنتابهم الاضطرابات العقائدية : فقد كان يجب قبل كل شيء انقاذ مابقي من تقاليد الطبقة البورجوازيه والفضائل المنزلية ، ونظام التسلسل الطبيعي التي اقترح المستشار اديناور

تجسيدها الحي . وخلفه صعدت اجيال دون ماض سيامي وافادها الاتحاد الديموقراطي المسيحي كوسيلة شريطة أن يكون عندها من الصبر مايجعلها تحترم التشريفات .

وهكذا لزم ما يقارب الخمسة عشر عاماً حتى ترك المستشار العجوز المكان لمن هم اصغر منه : شرودير ، وكان وزيراً منذ ١٩٥٣ ، ولكنه ظل تحت الوصاية ولم يجد ولاشك الا في ١٩٦٦ ، بحقيبة وزارة الدفاع ، وسيلة اطماحه المستقبلة ؛ وغوستنماير ، الذي ظل في دور رئيس البرلمان ؛ وكيسنغر الذي لم يتردد في ترك بون ليترأس حكومة فرتامبرغ ـ باد . وهذا الوهن الذين خاطر به ربحه في اليوم الذي استدعي فيه لاستلام المستشارية .

اما الحزب الاشتراكي نفسه فلم ينم زبائنه الا ابتداءً من يوم مؤتمر ١٩٥٩ الذي لم يتردد فيه بترك الارذثوكسية الماركسية التي كانت ترتبط بالنسبة لكثير من الناخبين ، على الأقل اسمياً ، بنظام المانيا الشرقية . وكف عن أن يكون حزباً للعمال ، وسمى نفسه « حزب الشعب » ، وهذه التسمية غامضة لتجذب البورجوازية الصغيرة ، « الطبقة الكادحة في الياقة البيضاء » القلقة من اظهار انها كانت تشارك في التطور العام نحو الاصلاحات المعقولة التي يحافظ فيها المشروع الخاص على اليد العليا . وهو يضم عقولاً سياسية ممتازة ، مثل فريتز ادلر ، كاردلو شميد ، وقد دمروا مواهبهم وآمالهم في انتظار لم ينته الا في ١٩٦٦ عندما أتت أخيراً الاجتماعية ـ الديموقراطية ، بتوجيه فيللي براندت ، عمدة برلين ، واشتركت في السلطة .

البنيات والقضايا . ـ لقد تركت نهاية عصر اديناور ـ ارهارد

قضايا مفتوحة ، وهي جزئياً قضايا يضعها الازدهار ، وجزئياً قضايا يثيرها الجدل في مطاليب مبدأ وحقائق نظام موقت أصبح دائماً .

القضايا السياسية ؟ بعضها خاص بجميع الديموقراطيات : مثل الأهمية التي يأخذها كبار الموظفين ، وزعماء المشـــاريع الاقتصادية والأمناء العامون للأحزاب ، وتكون هذه النخبة ، اجمالاً ، من الشخصيات غير المنتخبة بالتصويت العام ، ولكنها تمسك في الواقع بحقيقة سلطات القرار السياسي . ومعظم العمل البرلماني في بون يسوى في اللجـان التي تكون اكثر حساً بالضغوط الخارجية أو بمعنى النفاذ والتأثير .

إن الصفة الوسطى للـ ٤٩٦ نائبـاً لم تعط لمناقشات مجلس البندستاغ الوضع والاندفاع اللذين كان يحلم بهما واضعو القانون الأساسي عام ١٩٤٩ الذي أفاد كنص دستوري . ان الطابع الذي فرضه بحـزم المستشار آديناور ترك أثره في عادات العمل والفكر . فعندما يقبض زعمـــاء الأحزاب في الوقت نفسه على السلطة ، كما هي الحال بالنسبة الى كيسنغر وبراندت ، لا يكون اشراف الأحزاب البرلمانيـة على السلطة التنفيـذية اكثر من فضيلة مهملة .

وفوق ذلك ، بعثرت الطبقة السياسية الألمانية طاقاتها ومواهبهـا في برلمانات الدول العشر التي تؤلف الجمهورية الاتحادية . واكثر من ذلك ، ان هذه الدول مدينة بوجودها الى ارادة المحتلين في ١٩٤٥ اكثر منهـا الى التقليد التـــاريخي ؛ وخارجاً عن بافاريا ، التي تحافظ على اسمها : « دولة حرة » وعلى حدودها لعام ١٨٠٦ (عدا بالاتينا) ، فإن هذه الدول صنعت من اجزاء من كيانات قديمة كانت في السابق ذات سيادة . وحكوماتها التي تعينها المجالس المنتخبة ، تتمتع بسلطات غير قابلة للاهمال في مضمار التشريع ، والشؤون الثقافية والمدرسية . ويثير توزيع الموارد

المالية بين الدول والاتحاد (فدراسيون) منازعات دائمة . وبون عاجزة عن تعويض كفاءات مركزية لم يقبل بها « القانون » الأسامي ويبررها تسيير دولة حديثة . لأن البندسرات (المجلس الاتحادي) الذي يلعب دور المجلس الأعلى ، مجلس العقلاء ، يضم رؤساء الدول - الوزراء الذين يكونون غير مهيئين حقاً لأن يضمنوا موافقتهم على اصلاح دستوري يخرج دورهم متصاغراً .

أما رئيس الجمهورية فهو محدود في سلطاته بعناية لئلا تسول له نفسه باعادة تجارب الماريشال فون هندنبرغ في عهد جمهورية فيار ، ولذا فليس له من نفوذ حقيقي إلا بما يتسامح به المستشار . ومع ذلك ، فان البروفسور تيؤدور هويس ، أول من حمل اللقب ، من ١٩٤٩ إلى ١٩٥٩ عرف كيف يعرف السلطة المعنوية من النوع العظيم . وجسد خلفه هينريك لوبكه بأفضل منه حقاً شكلاً من الروح صان به التقاليد التي أفادت كدعامة قوية لمجتمع الرخاء .

وظهر خطران يهددان هذا المجتمع والاستقرار الذي هو مصدره . واحد هذين الخطرين سياسي وقد نجم عن يأس العاطفة القومية : فقد رأت الأجيال الفتية البريئة من الدكتاتورية القومية - الاشتراكية والحرب ان الاتجاه الذي اعطاه المستشار آديناور لم يخلص البتة المانيا من الارتباطات والوصايات الدولية . وان المنظورات المفتوحة بالدمج الاقتصادي والسياسي في اوربة الست قد امحت شيئاً فشيئاً . لقد شعر الألمان انهم كانوا رهناً ، واوراق لعب في لعبة لا يوجهونها . وقد عبر بعضهم عن ثورتهم باعطاء اصواتهم لممثلي اقصى اليمين الذي كان يحركه النازيون القدماء جزئياً . ومن كانوا منهم يحنون الى العهد السابق اختلطوا بممثلي حالة الرأي الجدد « الحاقدين » الذين ساهموا كثيراً في خلل جمهورية فيار . ولكن اكثرية الناخبين ومعظم الرجال السياسيين في بون ، الاكثرصفاء

في الظاهر ، تطوروا ببطء في البحث عن وسائل الدفاع عن المصالح النوعية الألمانية . وارتسمت قومية حديثة ، كرد فعل ضد تميز الجمهورية الاتحادية . ورأت واشنطون وموسكو ان تبرما على حسابها معاهدة في عدم تبذير الأسلحة النووية . ولم تتمسك باريس بتعهدات معاهدة التعاون المؤرخة في ٢٢ كانون الثاني ١٩٦٣ وعاملت الجمهورية الاتحادية معاملة حليف غير متوقع . فعلى أي الآفاق ينفتح المستقبل ؟ ما من أحد يعد بالسيادة الحقيقية الأصلية . وخيبة الصداقة تخاطر غداً باعطاء صورة اخفاق لسياسة المستشار اديناور ، التي كانت مع ذلك نجاحاً حقيقياً .

والخطر الآخر اقتصادي : « إن المعجزة الالمانية » التي كان البروفسور ارهارد اشبينها ، بله العامل الألماني الصانع الثابت والشجاع ، اصطدمت بنجاحها نفسه . لأن الاقتصاد ، الذي كان مضطراً دوماً الى التوسع ، والى فتح اسواق خارجية ، واصلح على أسسه القديمة ، انفتح فيما بعد على تدفق رؤوس الأموال الأجنبية وبخاصة الاميركية ، وقاعدة الحرية التامة لم تحفظه تماماً من الازمات التي يمكن التنبؤ بها مع ذلك . فقد طرأ التقهقر والبطالة على مقياس متواضع جداً . ولا شيء اليوم يدعنا نتنبأ باضطراب ظروف الحياة ، ولا بالحركات العميقة التي تتضافر على الآراء المتطرفة في السياسة . ان حكومة الائتلاف الكبير حددت عملها بوضع تخطيط واشراف على الاقتصاد لم يكونا ممكنين فنياً في وزارة فيار .

وهذا الاسناد نفسه يعود غالباً الى تفكير المفسرين والرجال السياسيين الألمان . فالماضي يغمرهم ويسيطر عليهم . اما لأنه يقدم صورة التنميات الصحية والسهلة التي كان عليها الريخ الثاني ، الذي كانت متانته ويقينه مثلاً اعلى واعياً لبناة الجمهورية الاتحادية المهتمين بتواجد النظام الاجتماعي ومفهومهم العاقل للنظام الطبيعي ؛ واما لأنه يذكر بالمآسي التي أدت عبر

نظام فيمار الى وصول هتلر الى السلطة . فلا شيء يعيد نفسه ولا شيء ينبيء بكتائب جديدة رمادية تعلن يوماً ما بعث أساطير الدم والعرق عبر مدن المانيا الغربية .

ومهما تكن فكرة المانيا غير دقيقة وواضحة جداً فهي حقيقة واقعية . فقد نمت في الشرق دولة شيوعية شادت صناعة واقتصاداً ومجتمعاً وحققت نجاحات لا سبيل لنكرانها . وقامت فيها اجيال ناشئة مناضلة مقام الشيوعيين الشيوخ الباقين من ثورات ١٩١٩ . **وفالتر اولبرخت** هو أحد الأواخر الذين يمثلون تقليدهم . ان وجوده في المركز الواقعي للسلطة كأمين عام **للحزب الاشتراكي الموحد** يكبح بعض التطورات . وربما يفتح زواله لألمانيا ، لألمانيا الشرقية والغربية ، ابواب المستقبل الذي تنتظرانه دون تمييزه .

المانيا في اوربة الست[1] . — هناك قضية خطيرة توضع لأوربة الست وهي : كيف يتبدل توازنها في اليوم الذي تشد المانيا الشرقية والغربية الأواصر بين اقتصاديها ؟ ان هذه الفرضية ليست غريبة في شيء .

ان مقارنة ارقام الانتاج الصناعي تدل دون نزاع ، ودون دخول بريطانيا — العظمى في الوحدة الأوربية ، على أن التفوق الألماني في الحياة الاقتصادية للقارة سيكون ساحقاً . وفوق ذلك ، اذا عارضت الحكومة الانكليزية وحدها كل دمج سياسي ، فان هذا الدمج وحده قادر على وضع الاقتصاد في خدمة الوحدة كافة وعلى تجنب صدام المطامع القومية في وحدة صنعت ببساطة من أمم صفت ووضع بعضها الى جانب بعض .

وفي آخر ١٩٦٦ ، أخذت الجمهورية الاتحادية في اوربة الست مكانها في الصف الأول كما تبرهن على ذلك ارقام لوائحها الاقتصادية .

---

(١) دول اوربة الست هي : فرنسا ، الجمهورية الاتحادية الألمانية ، ايطاليا ، البينيلوكس : بلجيكا ، هولندا ، لوكسمبورغ .

الفصل الخامس

ايطاليا

إن تاريخ ٨ أيار ١٩٤٥ يحسب لايطاليا أقل مما يحسب لجيرانها ، لأن منظور ما بعد الحرب ، بوادر الجمهورية ، والدخول ثانية بلء الحق في اتجاهات الفكر والارادة السياسية التي توجه دول اوربة الغربية قد ارتسمت بشكل سابق للهدنة ضد المانيا . إن ما بعد الحرب في ايطاليا يمكن أن يصعد إلى اضرابات العمال الكبرى التي انفجرت في تورينو ، في ٥ آذار ١٩٤٣ ، وغطت بعد ذلك المنطقة الصناعية كلها في شمال البلاد . ففي واقع ذلك الحين ، ظهرت في وضح النهار الحياة التحتية لمعارضة لم تقض عليها عشرون عاماً من الحكم الفاشي ؛ ولذا فان ايطاليا المعاصرة لا توضح إذا قطعناها عن أصولها السرية والمقاومة .

لقد انضجت الحرب إلى جانب المانيا أمارات الانفصال بسرعة عن الفاشية . فقد تابع الجنود الايطاليون دون حماسة أوامر النفير ، التجنيد ، ودون اندفاع قومي ووطني ما لبث في آخر (١٩١٧) أن أثار على نهر البياف مقاومة شديدة ضد التهديد النمساوي . لقد عومل الجيش الايطالي معاملة حليف من المنطقة الثانية وجر إلى ميادين قتال بعيدة ، وضحت به القيادة الألمانية في روسيا بخاصة : ولذا لم يقاسمها الدواعي السياسية لحرب أخذت شيئاً فشيئاً شكل مشروع يدعمه الحزب الفاشي وحده . وهذا الاعياء ، الذي تغذيه عاطفة عتيدة مناوئة للجرمان ، والذي أفاد غالباً

كدافع لمناضلي أحزاب اليسار السرية ، كان شرطاً اولياً للارتدادات الكبرى في عام ١٩٤٣ .

دفع الأحزاب السرية . – في الأيام الأخيرة من عام ١٩٤٢ ارتبطت الاتصالات الاولى بين زعماء الأحزاب السرية التالية :

١ – الشيوعية التي صانت جزئياً تنظيمها ، معتمدة على المراكز الواقعة في البلاد الأجنبية ، وبخاصة في فرنسا .

٢ – الاشتراكية ، وكانت أغنى بالرؤوس الموجهة منها بالمناضلين ، ولكن تقليدها القديم ، ويعود لخمسين عاماً ، ما زال يوقظ اصداءً في كتلة العمال .

٣ – الكاثوليكية ، وارثة حزب الشعب عام ١٩١٩ ، التي ادينت جزئياً بالعون الذي قدمه بعضها الى الفاشية ، ولكنها صينت بالاستقلال الشديد عند بعض زعمائها ، مثل آلسيد دو غاسبيري ، وبالحظ الذي تمثله قوة العمل الكاثوليكي العظيمة .

٤ – وأخيراً ، الأحرار ، وكانوا غير منظمين ، ولكنهم متجمعون حول شخصيات وجيهة مثل بينيدتو كروتشه الفيلسوف ، ولويجي آينودي ، الاقتصادي . وهم أقوياء بخاصة لأنهم الوحيدون الذين يصغي الملك اليهم .

٥ – حزب العمل ، والى هذه الأحزاب ، التي ظهرت في السنوات السابقة لوصول الفاشية الى الحكم ، يضاف حزب آخر ، مات في ١٩٤٧ ، ولكن تأثيره الفكري وتوجيهه ما زالا مميزين اليوم : وهو حزب العمل الناجم عن حركة العدالة والحرية التي أنشأها كارلو روسيللي في عام ١٩٢٩ . فقد كان هذا الحزب يفضل الجمع بين الاشتراكية غير الماركسية ومطاليب الحرية ، والاصلاح العميق للنظم (المؤسسات) والغاء الملكية .

وقد جعل التجديد والمطالبة بالحرية الفردية والاهتمام بجمع العقائديات (الايديولوجيات) غير المتجانسة تماماً من حزب العمل محلاً لبث التشكيلات السرية . واقترح على المفكرين والتقنيين (الفنيين) ، الذين يئسوا من الفاشية ، حلاً ناجعاً لاصلاح الدولة . وكان يجسد دوماً رغبة حاضرة ، ما زالت موجودة الى اليوم في الحزب الاشتراكي ، وهي التخلي عن النظريات العقائدية ليجد في العمل السياسي وسائل عمل عميق .

ومقابل هذه الأحزاب السرية ، المنحلة منذ ١٩٢٦ ، ولكنها حية ، يوجد « الحزب القومي الفاشي » ، وهو حزب وحيد ويتصرف بالسلطة وبقوته العسكرية الخاصة . هذا ولما كان كل تمرد مستبعداً ، فان انهيار الفاشية لا يمكن أن يأتي إلا بقلب الميكانيكيات الدستورية التي رفعته إلى السلطة ؛ وبالاجمال ، بقيام انقلاب يدبره الملك . وهذه الأحزاب المتعارضة ، بشأن مقدرات المجتمع الايطالي في المستقبل ، التقت على التدابير التعبوية الاولى التي يجب تبنيها .

ولاقى ضغط هذه الأحزاب غير المباشر ، المنضم الى ضغط حاشية المليك وعمل الفاتيكان ، حلفاء في قلب المجلس الفاشي الأكبر . وعجلت حوادث الحرب بالأمور : ففي ١٠ تموز ١٩٤٣ ، نزل الانغلو - اميركيون في صقلية ؛ وفي ١٩ تموز ضرب الطيران الامريكي روما بالقنابل ، ونزعت الأركان العامة تماماً إلى فكرة الخروج من الحرب التي قامت بها إلى جانب الألمان . وأعطيت ضربة الوقوف في شروط مريحة بشكل عجيب .

وفي ٢٥ تموز ١٩٤٣ صوت المجلس الفاشي الأكبر على جدول أعمال ينزع الثقة من موسوليني ، وأمر الملك بتوقيفه بعد الظهر . وشكل الجنرال بادوليو حكومة جديدة من كبار الموظفين ، وباشر اتصالاته الاولى مع الحلفاء ، ووقع في ٨ ايلول هدنة ، وبعد خمسة أيام احتل

الالمان روما واصطدموا بمقاومة محلية من عناصر الجيش والشعب . وغادر الملك والحكومة العاصمة وذهبا الى برنديزي دون أن يكون هنالك حل لمتابعة الممارسة الشرعية للسلطة على الأرض الايطالية .

من المقاومة الى الاعتدال . — لقد شعرت الأحزاب انها خدعت بالنتائج التي استخلصها الملك من ذهاب موسوليني . فمن يستفيد من ذلك ؟ الجيش والطبقة الموجهة اللذان في الواقع أقاما الفاشية . ولم تلفظ القطيعة مع المانيا بوضوح أو مباشرة ، وما زالت الملكية في لبس كامل . أما أنصار الثورة الاجتماعية والثورة على النظم فرأوا أنفسهم وقد لعب عليهم الملك ، بل وحلفاؤهم الشيوعيون انفسهم المرنون جداً في تعريف الغايات واستعمال الوسائط .

وحال تطور الحرب دون توسع هذا النقاش . لأن ايطاليا قسمت تواً الى قسمين بجبهة تذهب من غاريليانو الى بسكارا حيث ظلت قوى الحلفاء معسكرة حتى أيار ١٩٤٤ . وفي جنوبي هذا الخط انتقلت الحكومة الشرعية من برنديزي الى سالرنو ، برئاسة بادوليو ، وأخذت تحكم وتوجه ، أمام معارضة الأحزاب المنقسمة على وسائل انقاذ الملكية . غير أن مؤتمراً للأحزاب عقد في باري وطالب ، في كانون الثاني ١٩٤٤ ، بتنازل الملك فيكتور عمانوئيل عن العرش والدعوة لمجلس تأسيسي بعد نهاية الحرب مباشرة .

وفي شمال الجبهة ، في منطقة الاحتلال الألماني كلها ، تمت المقاومة المسلحة بطرق مختلفة . ففي سهل البو حشدت حرب الانصار ، التي تحركها لجان التحرير القومي ، طبقات الشعب كلها وبشكل واسع . وكان القمع فظيعاً . ورافقت المقاومة ضد المحتل الحرب الأهلية ضد

العناصر الموالية للجمهورية الاجتماعية الايطالية التي أسسها موسوليني . وحتى نيسان ١٩٤٥ ظلت ايطاليا الشمالية مسرحاً للعمليات .

ولكن إلى أي شيء يجب أن تؤدي المقاومة ؟ إلى الثورة ؟ إلى الاصلاحات ؟ إلى ارجاع البنيات السياسية والاقتصادية والاجتماعية القديمة ؟ لقد كان هذا التساؤل في ايطاليا كما في فرنسا أساس المناقشات . غير أن التنسيق العسكري بين الفئات المسلحة المختلفة الأصل قد تحقق ، فضلاً عن أنه عبر عن الانعكاس العام في ترجيح التدخل الايطالي النشيط في الحرب ، ضد وجهات نظر الحلفاء . وظل التعاون السياسي معلقاً .

وفي حزيران ١٩٤٤ حررت جيوش الحلفاء روما ، واستقرت الحكومة الجديدة فيها برئاسة رجل يرجع إلى ما قبل الفاشية وهو الاشتراكي بونومي . وبضربة غير منتظرة جعل الحزب الشيوعي نفسه منقذاً للملكية والنظم . وعاد زعيمه توليياتي من الاتحاد السوفياتي ، في نيسان ١٩٤٤ - في نفس الوقت الذي أعطى فيه الاتحاد السوفياتي اعترافه الدبلوماسي بالدولة الايطالية ، وباغت بذلك الانغلو - اميركيين - وامتدح تشكيل حكومة اتحاد قومي وتأجيل مشكلة الملكية إلى ما بعد الحرب . وقبل المليك هذا المخرج وتعهد بتسليم سلطاته إلى ابنه همبرت ، الذي أصبح نائباً عاماً للمملكة بعد تحرير روما ، وباستشارة الشعب باستفتاء (ريفراندوم) .

وللمرة الثانية في التاريخ الحديث أفاد أخذ روما في بلورة رجعة الوحدة الايطالية . وصان وجود البابا بيوس الثاني عشر العاصمة وكفل نظاماً متحداً بالطبع بالنظام الذي تمثله الملكية . وعاش الجنوب والشمال ، في نيسان ١٩٤٥ تجارب حرب مختلفة جذرياً عززت اختلافاتها الطبيعية . وأعلن بيترو نيني الزعيم الاشتراكي القديم ، ورفيق موسوليني في صباه في رومانيو ، بأن « ريح الشمال ستجلب التجديد ، بإزالة كل مقاومة »

في ايطـــاليا بعد أن أصبحت حرة . وجرت « ريح الشمال هذه » منذ ذلك الحين في اللغة السياسية الايطالية .

وهذا هو مفعولها الوحيد .

لأن وجود الجيوش الحليفة ، وتأثير الكابح الذي تمارسه بالطبع ادارة مفرطة عاشت بالضرورة بعد الفاشية ، والتدخل المباشر للبابا لدى الاكليروس والكاثوليك الايطاليين لعبت دورهـــا ضد أي فوضى واضطراب عنيف .

فمن حزيران إلى كانون الأول ١٩٤٥ حكم فيروتشيو باري ، ممثل حزب العمل ، بلدأ كان فريسة المجاعة والتضخم النقدي والفوضى ، وخلفه آلسيد دوغاسبيري زعيم الحزب الديموقراطي - المسيحي الجديد .

وظـــل غاسبيري ثمانية أعوام في السلطة رسخ بصلابة الاكثرية الوسطى التي لم تعوض منذ ذلك الحين . إن جميع التغيرات الظاهرية في آداب وتوازن الأحزاب فقدت معناها الحقيقي . لأن الضلال الظاهر في تلاعب السياسة الايطالية كان يخفي في الغالب الأعم دوام حقيقة واقعية شاد كافور سلطته عليها : وهي « الكونوبيو » ، أي اتحاد الوسط الأيمن والوسط الأيسر . أما العناصر الثورية للمقاومة فمن الواضح أنها كانت تحكم بشيء آخر . ولكن الحزب ، الذي دل عليه ، في ساليرنو ، بالميرو تولياتي ، ذهب إلى أبعد من مكيدة (حيلة) تعبوية بسيطة : فقد شوهد بعد قليل ان الاختيار الموقت للشعار : « الوحدة القومية » قد أدى إلى قبول وسائل برلمانية للسير نحو الثورة .

وهكذا كان في فرنسا الاختيار الذي فرضه موريس توريز . فهو لم يوفر العزلة على الحزب الشيوعي الفرنسي .

أما في ايطاليا فقد جعل الحزب الشيوعي منه مبدأ « الطريق الايطالي نحو الاشتراكية » . ونظراً لاضطراره إلى المعارضة البرلمانية كان في الواقع يندمج تماماً في بنيات النظام كلها . كما أن تضامن دور المنفى أو المقاومة أبقى روابط الصداقة حية فحال دون معارضات مطلقة .

استقرار الجمهورية . ـ وعندما أخذ آلسيد دو غاسبيري على عاتقه عبء رئاسة مجلس الوزراء ، في ١٠ كانون الأول ١٩٤٥ ، كان الاتحاد يعيش أشهره الأخيرة . وقد أخذ إلى جانبه بيترو نينّي نيابة ـ رئاسة مجلس الوزراء ، وبالميرو تولياتي حقيبة العدلية ، وكانت هذه المهمة ، في ذلك العهـــد من التطهير ، تسمح للحزب الشيوعي بأن يؤمن لنفسه ، باللين أو بالشدة ، بمراقبة الفاشيين القدامى . وكذلك أسهمت الأحزاب الأخرى المناوئة للفاشية في الحكومة .

وفي بداية أيار ١٩٤٦ تنازل فيكتور ـ عمانوئيل الثالث عن العرش لصالح ابنه همبرت الثاني ، « ملك أيار » . وفي الواقـع ألغى استفتاء ٢ حزيران الملكية بأكثرية مليوني صوت . وغـــادر المليك قصر « الكويرينال » ، دون أن يتنازل رسمياً وصراحة وترك بلداً برهنت فيه هذه القضية الدستورية مرة أخرى على الانقسام العميق : لقد كانت الاكثريات لصالح الملكية في الجنوب وفي الجزر ؛ وصوت الوسط والشمال للجمهورية . وبحرية اختار الناخبون ، في الوقت نفسه ، ولأول مرة منذ خمس وعشرين عاماً ، ممثليهم في المجلس التأسيسي : ٢٩٧ ديموقراطياً ـ مسيحياً ، ١١٥ اشتراكياً ، ١٠٤ شيوعيين ، ٢٣ جمهورياً ، ١٩ حراً ليبرالياً . أما الأحزاب الحديثة الصغيرة ، مثل حزب العمل ، فقـــد كشته المروحة البرلمانية .

ولكن ، في الفترة التشريعيـة ، ظهرت في الجنوب « جبهة الرجل

العـادي » وهي تشـكيل احتجاجي على « نظام الأحزاب » وسيطرة التأثيرات الشمالية وطموحها الثوري .

وتم تأثير الاكثرية أخيراً بين كتل ثلاثـة أحزاب ، ظلت نسبها المئوية في التصويت منـذ ذلك الحين في توازن نسبي ثابت تقريباً ، كما تدل على ذلك أرقام الانتخابات منذ ١٩٤٦ .

ومن هذه المعطيات تخرج الخطوط الموجهة وامكانيات المناورة في السياسة الداخلية الايطالية :

ـ لم تستطع أحزاب اليسار بمجموعها ولا الديموقراطية ـ المسيحية أن تحكم وحدها .

ـ الديموقراطية ـ المسيحيـة محور كل أكثرية وهي التي تشكل الحكومات دوماً .

ـ تستطيع الديموقراطية ـ المسيحية أن تبحث عن ١٢ إلى ١٥٪ من الأصوات التي تنقصها في كتل الـ ٢٥٪ من النواب المنتسبين إلى التشكيلات الصغرى : الاشتراكيون ـ الديموقراطيون والجمهوريون على يسارهـا ، والأحرار والملكيون على يمينها .

وأخيراً ، تستطيع الديموقراطية ـ المسيحية أن تفصل الاشتراكيين عن الشيوعيين .

ولقـد تمت محاولة جميع العمليات بين ١٩٤٧ و ١٩٦٣ ، التاريخ الذي تدخل فيـه تأليف الأكثرية التي تسمى « الوسط الايسر » الذي يذهب من الجناح الأيسر للحزب الاشتراكي الى الجناح الأيمن للديموقراطية ـ المسيحية ، شاملاً الاشتراكيين ـ الديموقراطيين والجمهوريين . وقد برهنت التجربة المكتسبة على أنه لا توجد صيغة غيرها قابلة للحياة منذ الآن فصاعداً ، عدا فوضى الهيئة الانتخابية .

الوسط الأيسر وتوتراته الداخلية . ـ لقد ظهر دوماً أن الديموقراطية المسيحية تمارس دور التحكيم، حسب الجهة التي تحمل كتلتها عليها . ولكن الحزب الاشتراكي ، المأخوذ بين الشيوعيين والكاثوليك ، لم يكن أقل منها دفعاً وقطعية . فما دام وفياً لدستور الجبهة الشعبية ، وما دام بيترو نينّي يتخذ ميثاق وحدة العمل مع الشيوعيين مرجعاً لكل اختياراته فقد أجبر الديموقراطية المسيحية على الاعتماد على يمينه أو على يساره الاشتراكي ـ الديموقراطي المعادي جداً للشيوعية . ومنذ اليوم الذي بدأ فيه بيترو نينّي ، ابتداءً من ١٩٥٣ ، وتواجداً مع أفول نجم السيد دو غاسبيري ، بالكلام عن « الاختيار الاشتراكي » ، وبطرح شعار دكتاتورية الطبقة الكادحة رسمياً وعلنا ، وباطراء الاستقلال الذاتي ، أثار برد الفعل ، في الديموقراطية المسيحية ، ميولاً ملائمة نحو « الانفتاح على اليسار » ، أي بالتعاون مع الاشتراكيين .

وفيما وراء الطرق الآنية ، فإن هذه التطورات تغير بوضوح في ملامح الحركات الكبرى للسياسة الدولية .

وكان على الجمهورية الايطالية ، منذ ولادتها ، أن تتحمل نتائج السياسة الفاشية والحرب : وبالرغم من الكفاح الذي قام به دو غاسبيري وبونومي ، وساراغات ، فإن معاهدة السلام الموقعة في باريس ، في ١٠ شباط ١٩٤٧ ، أجبرت ايطاليا على التخلي عن ممتلكاتها الافريقية ؛ ومن البديهي أن يسري ذلك على الحبشة (إثيوبيا) ، أما ليبيا والارتيريا والصومال فقد فتحت بين ١٨٨٩ و ١٩١٢ . وجرحت القومية الايطالية كثيراً بجعل تريستا أرضاً حرة . وفي ١٩٥٤ ثبتت اتفاقات لندن « الوضع الراهن » : وهو أن تحافظ ايطاليا على المنطقة آ ، ويوغوسلافيا على المنطقة ب ، التي تحتلها من قبل . ومن الوجهة النظرية

لم تتخل ايطاليا عن المطالبة بالمنطقة ب . أما في الواقع ، فإن الاتفاقية الموقتة التي صيغت في لندن فقد أصبحت قطعية ، وبدأت روما وبلغراد بسرعة سياسة تقارب أدت إلى تعاون وثيق وودي .

وتدخلت بعض تعديلات في الحدود لصالح فرنسا في شعب سان - برنار الصغير في جبل مونسيني ، وفي شابرتون وفي ودبان : التينه وفيزوبي ولا رويا . وادخل في معاهدة السلام اتفاق غاسبيري - غروبر ، في ٦ نيسان ١٩٤٦ ، على المساواة في الحقوق بين المواطنين الايطاليين والناطقين بالجرمانية في منطقة نهر الآديج الأعلى . ومالبثت الحكومات النمساوية المتعاقبة أن نازعت تطبيقه . ولما ضغطت عليها الاستردادية التيرولية أخذت على روما سلوكها سياسة الايطاليانية الاجبارية .

وفي البحر المتوسط أرجعت ايطاليا إلى اليونان جزر الدوديكانيز واعترفت باستقلال البانيا التام .

وحددت بنود عسكرية دراكونية قدرة القوات الايطالية : فقد جعل الجيش ٢٥٠٠٠٠ رجل ، ومن ضمنهم الدرك (الجندرمة) المجهزين بـ ٢٠٠ دبابة ، و ٢٠٠ طائرة ، وجعل الاسطول أدنى من ٦٧٥٠٠ طون . ومنعت من إنشاء السلاح الذري والصواريخ والمدافع الثقيلة والطوربيدات البشرية ، وفرض عليها دفع تعويضات بلغ مقدارها ٣٦٠ مليون دولار .

وغداة التوقيع ، وجهت الحكومة الايطالية إلى جميع الحكومات الموقعة مذكرة احتجاج على شدة المعاهدة وأشارت إلى خطورة انعكاساتها الاقتصادية . غير أن نص هذه المعاهدة لا يتلاءم مع زمانه منذ ولادته . ولم تستطع الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى وفرنسا أن تتطلع في آن واحد إلى إدخال ايطاليا في نظام التحالف والبناء الاوربي وهو في حال

التشكيل ، وإلى إبقائها في حالة فصل وانعزال . وفي خمسة أعوام ، وبدافع من الكونت سفورزا ، وزير الشؤون الخارجية ، أخذت إعادة النظر بالمعاهدة طريقها ، وبسرعة أدخلت ايطاليا بمساواة تامة في الحقوق في البنيات السياسية الجديـــدة وبخاصة في الحلف الاطلسي ، ومجلس أوربة ، ثم في الاسرة الاوربية للفحم والفولاذ . وقد سجل قبولها في الأمم المتحدة ، في كانون الأول ١٩٥٥ ، في « جمع » يضم كل الدول القديمة ، حليفة المانيا ، في أوربة الشرقية ، ختاماً لهذه المسيرة والنمو .

وعلى الصعيد الداخلي ، اقتضى تسلسل الحوادث اختياراً بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي .

أما انقسام الحزب الاشتراكي ، في كانون الثاني ١٩٤٧ ، الذي أثاره ساراغات ، زعيم الجناح الاصلاحي فقد تعلل بدوافع ايديولوجية . وفي الواقع ، كان كل شيء كما في فرنسا في العصر نفسه ، وهو أن هـذه الايديولوجية كانت تخبىء رهناً على الغالب . فقد كانت « ريح الشمال » بالنسبة إلى بيترو نينّي تنفخ في هذه المرة في الاشرعة السوفياتية ، قبل أن تأتي وفاة ستالين ، في ١٩٥٣ ، فتلعب دوراً أكيداً في ابتعاده عن الشيوعيين . وقد انتقل الاشتراكيون من العداء المطلق للحلف الاطلسي وللبناء الاوربي إلى الارثوذكسية الصارمة . وتوصلوا ، من المعارضة لكل تفاهم مع الديموقراطية المسيحية إلى التوفيق بين نينّي وساراغات ، في ١٩٥٧ ، ثم إلى الدعم الخارجي لأكثرية الوسط الأيسر في ١٩٦٢ وإلى المشاركة التامة في السلطة في ١٩٦٣ . وكانت هذه المراحل كلها مترافقة كذلك بانقسامات الأجنحة ، قبل الوصول الى توحيـــد الاشتراكيين « النينيين » مع الاجتماعيين — الديموقراطيين من جديد في ٣٠ تشرين الأول ١٩٦٦ .

وفي غضون ذلك ، رفع ساراغات في ١٩٦٤ الى رئاسة الجمهورية . وكان رجل توفيق ومصالحه ، ويعتبر المحرك الأول لسياسة الوسط . وقد ضمنت كفالته للديموقراطية المسيحية صلابة التحالف الاشتراكي . واستطاع الحزب بامساكه جزئياً بوسائل عمل السلطة أن يسعى جهده في تقــدم الحركة نحو هـذا « الاختيار الاشتراكي » والعلمـاني ، ولم يتخل عن اقتراحه على الناخبين .

وقد قال السيد دوغاسبيري ذات يوم : « الديموقراطيـة المسيحية حزب الوسط الذي يذهب نحو اليسار »، ولكنه ثبت بنفسه حدوداً آمنة للحركة ، وهي التي يدل عليها كل تهديد ببتر وحدة الحزب . وقد توصل من ١٩٤٥ الى وفاته ، في آب ١٩٥٤ ، الى الحفاظ على التماسك المذهبي بالاستناد على من يؤلفون اليوم الجناح الأيمن ، بقايا الاحيـاء من حزب الشعب ، المقاومين اللاجئين في الفاتيـكان ، انصار السياسة المحافظة بشدة التي فرضها بيوس الثاني عشر .

وفي بضع سنوات كان دوغاسبيري يكبـح في داخــل الحزب فئة صغيرة من الجامعيين الذين تشكلوا في الجامعة الـكاثوليكية في ميلانو ؛ وكانوا يسمون « الاساتذة الصغار » . وحول دوسيتي الذي أصبح كاهناً في بولونيا ، كان فانفاني و لابيرا ، ولا نذكر الا المعروفين اكثر من غيرهم ، يحلمان بتطبيق صوفي جداً لاتجاهات الـكاثوليكية الاجتماعية الاكثر تقدماً . وهم يرون أن العدالة تتوطد باتساع نطاق الدولة ونفوذها شريطة ان تكون هذه الدولة في قالب كاثوليكية متشددة ، وقد رجع هؤلاء اليساريون ، في عدة نقاط ، الى مفهـوم ساد في العصر الوسيط وهو وجود الكنيسة في العالم .

ومنذ ١٩٥١ يئس دوسيتي من معارضة زعيم الحزب ، وانسحب من

الحياة السياسية النشيطة . أما فانفاني الاكثر واقعية ، فقد ظل شاهداً على احلامهم المشتركة . وسجل وصوله الى الامانة العامة ، في مؤتمر نابولي في ١٩٥٤ ، استبدالاً للاجيال وبداية النزاع ، في وضح النهار بين الرجال والاتجاهات ، الذي استطاع دوغاسبيري ان يحتويه بنفوذه الخاص . وانتهت « التيارات » بأخذ شكل رسمي ، رغم انظمة الحزب ، وبالنسبة لرؤساء مجلس الوزراء ، كان كل تشكيل لاكثرية الحكومة يبدأ بالبحث عن أكثرية في داخل حزبهم الخاص .

ومنعت أكثر من عشرين سنة من السلطة الديموقراطية المسيحية أن تعرف عقائديتها ، وان تحدد أهدافها بعبارات سياسية ايجابية . فهي مرتبطة أشد الارتباط ، أكثر من أي حزب آخر ، بحادث زبائنها . وتظهر أيضاً في الغالب كساعد زمني للفاتيكان الذي لم يكن حضوره في السياسة الايطالية قوياً في أي وقت مضى كما هو قوي منذ الحرب . وتأتي قيادات (كوادر) الديموقراطية المسيحية من العمل الكاثوليكي ومن اتحاد الجامعيين الكاثوليك ، وكانت في هاتين الهيئتين مرتبطة بصداقة مع كهان أصبحوا أمراء الكنيسة .

وقد سار في صفوفها وجهاء الاقاليم والبورجوازية الصغرى والرأسمالية الكبرى « الحديثة العهد » وقسم من « الفنيين » (التكنوقراطيين) وتشرف جزئياً على الاحتكارات الضخمة للدولة مثل ادارة حصر البترول ومعهد الاعمار الصناعي ، عدا عن التحقيقات العظيمة النافذة . وهي تمسك ، اكثر من الحزب الليبرالي القائم على المعارضة ، عدداً من المفاتيح التي تضطر الصناعة الخاصة المتفوقة أن تطلبها من السلطة السياسية . وأي ايديولوجيا تتوصل إلى التوفيق بين العديد من الصعوبات والمتطلبات ؟ . لقد اعلنت الديموقراطية المسيحية أنها « بين الطبقات » وهذا التعبير

يدل على وظيفته في التوفيق . ولكن كثيراً من المؤتمرات حاولت أن تبني عليه مذهباً .

والموضوع الوحيد لنزاع محتمل الوقوع رفع عنها بفضل الدعم الشيوعي، عندما صوت على المـــادة ٧ من الدستور ١٩٤٧ : الدولة والكنيسة الكاثوليكية ، كل في نظامه الخاص ، مستقلان وصاحبا سيادة . وتنظم علاقاتها بمواثيق لا تران . وان تعديلات هذه المواثيق،التي يقبلها الطرفان ، لا تتطلب أي أصول لاعادة النظر الدستورية » .

الكاثوليك والشيوعيون . ـ لقد أثار هذا النص اعتراضات مختلفة كما يأتي : هل كان من المذهب الصالح إدخال معاهدة دولية في دستور !؟ الا تحصر بعض البنود في الكونكورداتو ،التي هي جزء مكمل لاتفاقات لاتران عام ١٩٢٩، تطبيق مواد الدستور الضامن لحرية الوجدان والاشخاص؟ الا تشكو منه الأقليات الدينية ؟! وهل تبقى السيادة الايطالية تامة في الحق المدني ؟ .

ومثل ذلك من الأسئلة التي نوقشت في جلسات هاجمت فيهـــا الاحزاب العلمانية (حزب العمل ، الأحزاب الاشتراكية ، الجمهورية ، أحزاب العمل الديموقراطية) بعنف تحرير المادة ٧ محرمة على نفسها اثارة الشقاق بين الكنيسة والدولة .

وقد أعرب توليياتي عن عزمه على تصويت ملائم ، لأن الحزب الشيوعي، كما قال ، لا يريد انقسام الطبقة العاملة بسبب القضايا الدينية . وهـذا التحالف ، الذي هو من محض الظروف ظاهراً ، كان يعبر عن ستراتيجية مميزة للشيوعية الايطالية التي تمسك دوماً في النار حديد التقارب مع الكاثوليك فوق الاشتراكيين . لقد كانت جاذبية « الحوار » تخفق دوماً على الصعيد القومي ، وتقترح دوماً كل ، على درجات محلية ، لعمليات واضحة ،

على كاثوليك اليسار . وقد سمحت في الغالب ، في فلورنسا مثلاً ، حيث مارس لابيرا القضاء البلدي زمناً طويلاً ، بتهديد ائتلافات الوسط الأيسر من الداخل متلاعبة بانقسامات الديموقراطية المسيحية ، وبتفجيرها .

ومثل هذه المناورات تعين حدود القـــوة السياسية للحزب الشيوعي الايطالي . فمنذ ١٩٤٧ لعب في البرلمان دوراً وجيهاً ، بوضع نفسه حارساً دقيقاً للدستور . وبفضل استيلائـه على العمدات والأكثريات في المجالس الاقليمية (وهي تقابل المجالس العامة في المقاطعات الفرنسية) وتسييره فنياً الوف تعاونيات الشراء والبيـع ، العمالية أو الريفية، استطاع أن يؤمن لنفسه الاشراف المنيع على وسط ايطاليـا (توسكانا وايميليا) وهو بـ ١,٧٠٠٠٠٠ مناضل يغطي البلاد كلها بشبكة كثيفة . ولكن تاريخـه بقي بصورة أساسية كما وضعه رجل واحـــد ، بالميرو تولياتي ، مرناً وترك جميـع الاختلافات الداخليـــة ، في مجلس امزجـة لاتينيـة لا يعرف ضبطها ، تفصح عن نفسها ، واثقاً بسلطته بحيث يفرض الخط النهائي الذي يجب سلوكه .

ويعرف تولياتي في الغالب انه مباده جرىء في استقلال الرأي والواسطة العريضة الموصلة إلى الغاية . وفي الواقع ، كان ستالينياً دقيقاً جداً حتى ١٩٥٣ ، قبل اكتشاف مزايا « المركزية المتعددة » . أما التذوق لشكل ما من الاستقلال فقد طرأ مع وصول خروتشوف إلى السلطة ، الذي يبدو ان اتجاهاته الاصلاحية كانت تبرر الوسائل التي اجبر وضعه البرلماني والسيامي الشيوعية الايطالية عليها .

وبعد موت تولياتي ، في آب ١٩٦٤، الذي نال من جميـع الاحزاب التكريم الخاص بأب الأمة ، انتخب لويجي لونغو أميناً عاماً . وكانت سلطته أقل حذاقة من سلطة تولياتي حتى تفرض نفسها ، ولكن القضية

التي جابهها ظلت ، في الأساس ، القضية التي وضعت في ١٩٤٧ على الاشتراكيين النينيين ، وهي : هل يجب على الحزب الشيوعي أن يقبل العزلة البرلمانية ، ويحاول في داخله تقوية الموهبةالثورية ، ويهيء مذهبياً المستقبل ، ويعود ثانية حربة رمح ، وقطباً جاذباً للاجيال الفتية التي خيبها اليسار المستقر ؟ أو ، على العكس ، يجب أن يتابع النمو المنطقي لاندماجه في سياسة الأحزاب ، ويستعمل جميع وسائط البرلمانية ، وسيادة الفطنة والتعقل على القوة ، ويحاول بشكل لا يمل في تهيئة المناخ لانشاء « حزب عمال كبير » قريب من العمالية البريطانية تذوب فيه جميع التشكيلات القائمة على يسار الديموقراطية المسيحية ؟

مزايا التجربة . — ان الانتخابات التشريعية التي جرت في ربيع ١٩٦٨ لم تهز بحق الحياة السياسية الايطالية بالرغم من انتقال الاصوات الظاهري . فقد تماسك الحزبان الكبيران ، الكاثوليكي والشيوعي ، ببرنامج ، على العموم غامض بشكل فريد ، أقل من تماسكهما بقوة رسوخ أجهزتهما والمنظمات الملحقة ، وبروابط المصلحة المباشرة لا السياسية التي نسجت بين المواطن وهذه المنظمات ، كأن يكون القصد ، بالنسبة للكاثوليك ، اتحاد المزارعين ، والاتحاد النقابي ، أو ، بصورة هامشية ، العمل الكاثوليكي ؛ وبالنسبة لأحزاب اليسار ، النقابات ، والتعاونيات ، وبيوت الشعب .

ان استقرار الكتل الكبرى في الرأي ، والائتلاف الضعيف دوماً بين الاتجاهات اللامتجانسة في داخل كل حزب ، والمفاوضات الدائمة لرؤساء مجالس الوزراء لتأمين التماسك الداخلي للاكثرية ، تلك هي الصفات التي تجعل سير النظام البرلماني في ايطاليا ضعيفاً جداً وبطيء الحركة جداً. ومع ذلك فقد وجد عنصران يؤمنان الحركة .

الأول : العمل السري ولكن المباشر الذي يقوم به ر. ر اء الجمهورية (انريكو دو نيقولا ، الحر ، ١٩٤٦ — ١٩٤٨، لويجي اينودي، الحر ، ١٩٤٨ — ١٩٥٥ ؛ جيوفاني غرونشي ، الديموقراطي ـ المسيحي ، ١٩٥٥ — ١٩٦٢؛ انطونيو سيغني، الديموقراطي ـ المسيحي ، ١٩٦٢ — ١٩٦٤ ؛ جيوسيب ساراغات ، الاجتماعي — الديموقراطي ، ١٩٦٤ — ...) وقد ساعد هذا العمل غالباً ، في حدود السلطات الدستورية ، على الحيلولة دون شلل الدولة .

الثاني : وجود هيئة دون بنية ودون ظاهرة خارجية ويدل عليها باسم « حكومة تحتية » (سوتو غوفرنو) ، يلتقي فيها في الواقع بعض كبار الموظفين ، وقد أمنت هذه الهيئة الاعمار والنمو العجيب لايطاليا بعد الحرب ، بالرغم من كل تمسك مذهبي .

والى القضايا المستوطنة : عدم توازن البنيات الصناعية ، والملكية الريفية ، والبطالة ، وبؤس الجنوب ، اضافت الحرب تخريباتها : ٢٠ ٪ من الثروة القومية المتهدمة ، افلاس الانتاج الزراعي ، الأضرار الواسعة في شبكة المواصلات التي تجعل من وحدة شبه الجزيرة الايطالية حقيقة اقتصادية واقعة ، وأخيراً ، التضخم النقدي ، وعجز موازنة الدولة عن تأمين الأعمال الكبرى .

وقد أسهم الفن الايطالي في الحلول العملية بشكل عريض في التغلب على حالة من الحالات الشديدة التي عرفتها أوربة بعد الحرب . ولم تقصر المساعدة الاميركية في توفير صناعة الشمال لما هو أساسي . ان الخلط ، الذي أملاه الحس بالانتهاز أكثر من الأهداف الطويلة الأجل ، بين الأدوية المختلفة ، كان مفيداً . فقد أنمى التخطيط الهيئات الكبرى العامة المكلفة ببعض القطاعات الاقتصادية ، وجعل منها دولاً في الدولة ،

ولكن أيضاً محركات لا بديل لها . وبدأ الاصلاح الزراعي ، بالرغم من اخطائه ، بتحويل أرياف الجنوب . ووجدت حركية الصناعة الخاصة في اجهزة السلطة احلافاً أكثر من رقابات . وهذا الضم للقوى المجرد من كل تصنيف عقائدي قد تغلب عملياً على مراحل الخوف وفقدان الثقة حيال السلطة السياسية وأوصل ايطاليا إلى الصف الذي وجدت نفسها ، في الوقت الحاضر ، في أوربة الست وفي العالم ، احدى الأمم الأولى في دفع توسعها .

ولكن هذا الدفع كبحته مشكلة تنمية الجنوب (الميزوجيوردنو) التي يرجع عهدها إلى عدة قرون . وهذا « الجنوب » في ايطاليا يضم الجزر ، وتلامس حدوده الشمالية تخوم روما الجنوبية ، ويصعد على الشاطىء الادرياتيك حتى بسكارا . فهو يشتمل على نصف شبه الجزيرة الذي يغطي في الواقع مملكة الصقليتين القديمة . وان تراجع هذه المنطقة المتخلفة لا يتعلق فقط بتدابير اقتصادية . وبالرغم من القوانين الجزئية المتخذة في بداية القرن ، شهد الجنوب تعاظم الفارق عن الشمال ، سهل البو ، الآخذ بالتصنيع دوماً وبقوة .

وفي ١٩٤٧ ، اتخذت الدولة القرارات العضوية الاولى لتمويل تنمية الجنوب . وفي ١٩٥٠ دشن انشاء « صندوق الجنوب » تخطيط الاستثمارات والابحاث التكنولوجية بتقديم وسيلة تطبيق الاصلاح الزراعي . وتوجب بناء التحتية كلها : الطرق المعبدة ، الري ، طرق النفوذ ، التعقيدات السياحية ، واصلاح التربة . وكانت جميع الأهداف ذات اسبقية ايضاً ، ولكن سعتها بدت تحدياً .

وفي قرابة عشرين عاماً أوشكت النتائج الاولى المكتسبة أن تعطي مردودها ، وعلى الاقل فيما يتعلق بالارادة الأساسية : وهي تثبيت الشعب

على الأرض والقيـــام بتربيته لاصلاح انعكاساته . وبعـــد سنوات طويلة مرتكزة على استغلال الزراعة ، فتحت مرحلة جديدة : فقـــد توخت الخطة العامة ان تنشيء في الجنوب صناعات ثقيلة لتصبح قطباً لصناعة التحويل . وان انشاء طريق السيارات « طريق الشمس »، الذي يصل ميلانو بنابولي وينتهي عام ١٩٧٠ حتى آخر كالابر ، وسع بسرعة انفتاح الجنوب على باقي ايطاليا ، كما علم نمو التلفزيون،في الارياف المنعزلة، الجنوبيين تبعيتهم المحسوسة المشخصة للوحدة القومية .

ولم تستطع ايطاليا وحدها في الماضي أن تزيل جميع التحديات التي نقلت اليها . وعرف الجنوب حركات توسعه الأساسية عندما أدخلته اللجنة التنفيذية للسوق المشتركة في برامجها . وقد اسهمت المساعدة الاقتصادية الأميركية في ذلك .

ونظراً الى ان ايطاليا عضو وفي جداً للحلف الاطلسي ، فقد تخلت، عدا بعض التظاهرات الطارئة ، عن ان تلعب دوراً عظيماً في البحر المتوسط . ان نمو منافعها الاقتصادية في الخارج فاق نمـــو طموحها في العظمة القومية . وقد اندفعت ، دون بريق ولكن بشكل ناجح ، نحو أسواق الشرق ، وأبرمت مع الاتحاد السوفياتي اتفاقات اكثر فائدة من أي اتفاقات موقعة مع امة أخرى . ووجدت في الغالب بفنييها عندما حفرت آبار البترول الجديدة في الارض العربية . وعرفت كيف تستعيد صداقة الشعوب التي فتحتها سابقاً ، وتعطي اشكالاً جديدة لنفوذها في افريقية .

وتوجد احياناً اشارة القومية في سياستها الأوربية . فقد تركها الحلف الفرنسي — الألماني تشعر بالمرارة ، وتميل في الحكم على نفسها بانهـــا وضعت في الصف الثاني . وتراودها نفسها في ان تقيم حيال هذا الحلف

تأميناً معاكساً بتقارب وثيق مع بريطانيا العظمى . ومن المؤكد أن السياسة الايطالية ليست مسؤولة عن ذلك لولا أن شبح ميزان القوى الغابر في أوربة عاد من جديد على هذا النحو إلى حاضر ظاهر .

وبعد قرن على تحقيق الوحدة تشعر ايطاليا بأنها أمة فتية ناشئة لم تجد بعد توازنها الداخلي الصحيح . لأن تراث البعث (ريزور جيمنتو) والمقاومة لم يدخل بعد في جميع العقول ؛ ولأن الجماهير الصناعية الكبرى موزعة بشكل متفاوت جداً في البلاد ؛ ولأن كثيراً من الايطاليين مضطرون للهجرة ؛ ولأن كثيراً من العادات القديمة التي أخنى عليها الدهر تحافظ على الأقطاعية في الجنوب والجزر . ولكن يلاحظ وجود تطورات شجاعة بشكل لا ينكر ، كما يرى وراء الحسابات اليومية ، ان ائتلاف الوسط الأيسر والموحين به يريدون اصلاح الحياة السياسية ، وتحويل العادات الاجتماعية بطبعها بطابع الزخم الذي يدفع التنمية الاقتصادية .

والواقع ان ايطاليا تحتل في أوربة الست مكاناً مختاراً ، كما تدل على ذلك أرقام احصاءاتها .

الفصل السادس

البينيلوكس

لقد ضمت وحدة الاتحاد الاقتصادي ، في ٣ شباط ١٩٥٨ ، تحت هذه المجموعة من الأحرف الاولى بينيلوكس[١] ثلاث أمم تمثل كلها ٦٦٠٠٠ كم٢ ، وأكثر من ٢٢ مليون نسمة ، أي بنسبة ٣٤٠ نسمة في الكيلو متر المربع الواحد ، ولكن بمجموع موزع بشكل متفاوت جداً كما يلي :

	هولندا	بلجيكا	لوكسمبورغ	
المساحة (بالكيلومتر المربع)	٣٣٥٠٠	٣٠٥٠٠	٢٦٠٠	
السكان (بألوف النسمات)	١٢٥٠٠	٩٣٠٠	٣٢٥	
الكثافة (بـ كم٢)	٣٦٠	٣٠٠	١٦٥	

ويجتذب البينيلوكس ٧ ٪ من التجارة العالمية (فرنسا : ٥،٤ ٪) ويأتي ، في هذا المضمار ، في الصف الرابع ، بعد الولايات المتحدة

(١) ان كلمة بينيلوكس Bé - né - lux مركبة من الأحرف الاولى للكلمات : Belgium و Nétherlands و Luxemburg أي بلجيكا وهولندا ولوكسمبورغ .

وبريطانيا العظمى وجمهورية المانيـا الاتحادية . ويصدر بـ ٤٠٠ دولار في العام بالنسبة لكل ساكن (مقابل ٢٠٠ دولار لانكلترا ، و ٢٤٠ دولار لجمهورية المانيا الاتحادية ، و ١٦٠ دولار لفرنسا) ونصف تجارته الخارجية تقوم على بلاد ليست أعضاء في السوق المشتركة . ويملك أول ميناء عالمي ، روتردام ، وهو يفوق نيويورك بقليل . و ٤٥٪ من سكانـه صناعي ، ونموذج اقتصاده كثيف .

ومن الوجهة الجغرافية، يرى أن المناطق الطبيعية للبينيلوكس لا تتفق وأي حدود سياسية ، حتى ان هذه السوق المؤلفة من ٢٢ مليون مستهلك شهدت بسهولة كافية توطيد أقامـة النشاطات البشرية تتجاوز بسهولة حدود الدول .

وفي الحقيقـة ، بقيت بعض التوترات ، بعض المنافسات ، فأقامت أيضاً تعارضاً بين مدينتين من قومية مختلفة ، مثل آنفوس وروتردام ، أو بين فروع الصناعات البلجيكية والهولاندية ، مثل الصناعات الميكانيكية والكيميائية ، والنسيجيـة والقطنية ، والغذائية ، والنشاطات الزراعية ، مثل زراعات الحبوب الثانوية ، انتاج تربية الطيور والحليب أو الخضار ، وتعارضاً بين مناطق من بلد واحد ، كما يبـدو من التوتر الديموغرافي ، في بلجيكا ، بين الفلاندر والفالونيا .

ومع ذلك ، فقد زادت المبادلات بين بلاد البينيلوكس بأربعـة أمثالهـا ، من ١٩٤٨ إلى ١٩٦٢ . حتى ان الخوف الذي عبر عنـه غالباً في بداية المؤسسة لم يتحقق : من ذلك أن حذف الحواجز الجمركية لم يكن سبباً على الاطلاق في سحق المناطق المزدهرة للمناطق الضعيفة . بل ، بالعكس ، يرى ، بدافع الضرورة وأمام منافسة المناطق المتقدمة ،

ان المناطق الأقل نماءً قد تجددت بدورها . ومن وجهة النظر هذه ، فإن البينيلوكس ، على الأقل ، « حقل تجربة السوق المشتركة » ، يؤلف « مخبراً » مطمئناً يوحي بالثقة .

مواحل البينيلوكس . — لم يستطع التجمع الاقتصادي لبلجيكا وهولانده واللوكسمبورغ أن يتألف إلا بعد الحرب العالمية الثانية . وقد لعب عنصران لصالح تبني البينيلوكس : من جهة ، إن هذه البلاد الثلاثة ، التي تقوم على المبادلة الحرة ، ولم تر في الماضي ضرورة ملحة لتشكيل اتحاد جمركي ، وجدت مسوقة بتيار الحماية الجمركية العالمي وحاولت بالحال أن تصلحه . ومن جهة أخرى ، إن الحكومات التي كانت في المنفى ، في لندن ، وقررت أن تذيب معاً اقتصادها تدريجياً استطاعت أن تقرر ذلك بسرعة لا سيا وأنها لم تكن خاضعة للضغوط ، والمخاوف ، والندم ، ومماطلة المنافع الخاصة . وهكذا أبرم ، في ٢١ تشرين الأول ١٩٤٣ ، اتفاق نقدي ، ثم ، في ٥ ايلول ١٩٤٤ ، اتفاق جمركي على أن يدخلا في حيز التنفيذ عند التحرير وأن يفتحا الطرق إلى اتحاد اقتصادي شامل . وفي الواقع ، سارت الامور بأقل سرعة مما كان يتوقع ، لأن صعوبات ما بعد الحرب المباشرة وانسجام السياسات قد تجاوزت ما كان منتظراً . وانتظر « اتفاق البينيلوكس » نهاية المرحلة الاولى من التعمير ، ووضع موضع التنفيذ في الأول من كانون الثاني ١٩٤٨ . ويتوقع تنمية على أربع مراحل :

١ — وحدة تعرفة جمركية ، تعرفة جمركية عامة ، حيال البلاد الأخرى ، وتخفيض الرسوم الجمركية وتدريجياً حذفها بين البلاد الأعضاء .

٢ — تحرير تدريجي للمبادلات .

٣ - تقـــارب « الرسوم الضريبية » الذي بدىء بـه في ١٩٥١ ويساعد ، ابتداءً من ١٩٥٤ ، على الانتقال الحر للرساميل .

٤ - وأخيراً ، في ١٩٥٨ ، فتح المرحلة الأخـيرة ، مرحلة « الاتحاد الاقتصادي » .

ووضعت وثيقة من ١٠٠ مادة تقنن الاتفاقات المبرمة منـذ ١٩٤٤ وتؤلف ميثاق « الاتحاد الاقتصادي » . وأبرم هذا الميثاق لخمسين عاماً ، وهو قابل للتجديد حكماً لأدوار عشرة أعوام ، ودخل حيز التنفيذ في ١٩٦٠ ، ولم يشمل تجديد القطاع الزراعي وتحريره إلا ابتداءً من ١٩٦٥ .

والهيئات النظامية في البينلوكس مرنة جداً وبخاصة فنية . وأهمها : اللجان المختلطة للاختصاصيين والموظفين وينسقها مجلس الاتحاد (استشاري) ؛ والهيئة التحكيمية ، وتسوي الخلافات دون الرجوع إلى طريق من طرق المراجعـــة ؛ والمجلس البرلماني والمجلس الاقتصادي والاجتماعي ، اللذان يمارسان بعض الاشراف على قرارات الاتحاد الاقتصادية .

وبالرغم من هـذا الإحكام الحذر والتعقل العظيم فقد عرف الاتحـاد أزمتين خطيرتين :

الأزمة الأولى ، في ١٩٤٨ - ١٩٤٩ ، وفيها عارضت البلاد المنخفضة بلجيكا لأن السياسة الاقتصادية الموجهـــة العامة الهولاندية كانت على ما يبدو آنذاك تتلاءم بصعوبة مع السياسة البلجيكية الحرة ؛ وأيضاً ، لأن بلجيكا توطد وضعها بسرعة أكثر من البلاد المنخفضة .

والأزمة الثانية ، في ١٩٥٢ - ١٩٥٣ ، وكان لها نفس الدوافع ، ولكن بوضع معكوس . فقـد صعدت الأسعار البلجيكية بأسرع من الأسعـار الهولندية ؛ وكان تحت تصرف البلاد المنخفضة مواد فائضة قابلة

للتصدير ، حتى ان الصناعيين والتجـــار البلجيكيين كانوا يتظلمون بأنهم ضحايا « الاغراق » . وأجاب الهولانديون بأن تفوقهم يعود إلى امتياز تجهيزهم وخططهم . وأخيراً عقـد مؤتمر في كنوك - لو - زوت ، في تشرين الأول ١٩٥٢ ، فساعد على توطيد الوضع وعـــاد كل شيء إلى النظام .

دروس البينيلوكس . — لقد نجح البينيلوكس ، بفضل بنية تجارته الدوليه ، وباتخاذه وضع « جسر » ، بين بريطانيا - العظمى وباقي السوق المشتركة ، استطاع أن يسهل توسع هذه الأخيرة (السوق) . كما أنه منع ، لحـــد ما ، المجلس الاقتصادي الاوربي من الوقوع في الاكتفائية . والواقع ، ان البينيلوكس ، بمجموعة الموانئ: آنفرس — روتردام — امستردام ، وجـد منفتحاً بشكل واسع على الخارج ، بينما كانت روابطـه وثيقـة مع الأمم الأخرى في اوروبة الصغرى ، بسائق التقليد والطبيعة .

وهذا الاستعداد الطبيعي المزدوج يعتبر نجاحاً ومثلاً معاً للبلاد الكثيرة التخوف .

ومن جهة أخرى ، لقد سبق الاتحاد الاقتصادي ، بعشره أعوام ، السوق المشتركة في مضمار دمج الاقتصادات القومية . والمثال يبرهن على أن هذا الدمج في الغالب مفيد للجميع . وهكذا ، فإن البلاد المنخفضة ، التي هي في الأصل أقل صناعة ، قد لحقت بشكل عريض ، بل تجاوزت اقرانها . وفي الواقع ساعد تركيز المشاريع وتخصصها على التكيف مع الحالة الجديدة . وأخيراً ، سهل الاتحـــاد تحسين الانتاجية ، وانخفاض الأسعار ، وزيادة المبادلات التجارية بين الشركاء ، وكلها حوادث مشجعة لمستقبل السوق المشتركة .

أمـــا في المضمار الرئيسي وهو « تنسيق السياسات الاقتصـــادية والماليـة » ، فيظهر أن دور « صعيد محاولة » البينيلوكس أساسي ، لأنه يرى بأنه مدعو إلى حل قضايا لا توضع للسوق المشتركة إلا آجلاً .

ومن المعلوم أن هذا التنسيق يقتضي حداً من التخلي عن السيادة، لأنه يحرم ، مثلاً ، على بلد ما أن يختار طريق الشدة في الوقت الذي ينخرط فيه آخر في طريق التوسع النقدي . وفي ذلك حالة شائكة للدول التي تكون فيها التقاليد ملحوظة وأصيلة جداً . إن مثال البينيلوكس يساعد على إظهـار طبيعة المشاكل ومحتواها ، وامكانات الحل ، ويري أخيراً أعضاء السوق المشتركة بأنه لا يمكن تجنب الفوقمية باستمرار . وان السوق المشتركة ، كالبينيلوكس ، سترى ذات يوم بأن لا اختيار لها إلا بين الفوقمية والانفجار ، وربما تساعد تجربة البينيلوكس الرائدة على أن نعرف عندئذ إلى أين « يجب » الذهاب في هذا الطريق دون إثارة ردود فعل سياسية خطيرة .

اللوكسمبورغ

لقـد رفع مؤتمر فينّا ، عام ١٨١٥ ، هـذا البلد الصغير إلى مصف « دوقية كبرى » ، وأصبح محايداً منـذ مؤتمر لندن ١٨٦٧ ، وخرج من حياده في ٢٨ نيسان ١٩٤٨ للاشتراك في الحلف الأطلسي .

وهكذا انتهى تطور أمة ترتبط فيها مناجم الحديد ، ثروتها الأساسية، بمناجم الرور واللورين ، وتحلم بسائق التقليد بأن تفيد كصلة بين فرنسا وألمانيا . غير أن توازن هذا البلد ضعيف ، وقـد لاحظت ذلك الدوقة الكبرى آديلاييد في آخر الحرب العالميـة الأولى . وأخذ عليهـا تعاطفها

الجرماني واضطرت معنوياً إلى التنازل عن العرش لصالح اختها شارلوت. وبالعكس شهدت الحرب العالمية الثانية اللوكسمبورغ تقف ضد المتاربة، وتنخرط في معسكر الحلفاء . وأعلن الوايخ الثالث عن عزمه على معاملة اللوكسمبورغيين كـ « شعب آخ » . وعبر عن ذلك بزج ٦٠٠ مقاوم و ٤٠٠٠ موقوف في السجن ، ونفي ٤٠٠٠ نسمة . وجاء التحرير من الجنوب ، وجرى دون ألم . ولكن الهجوم من جبال الآردين خرب البلاد . ورقد ٥١٠٠ جندي من جنود الجنرال باتون ، في مقبرة هام ، ثم لحق بهم هذا الجنرال فيما بعد .

لقد حرر الجيش الاميركي اللوكسمبورغ ، وعمرت بفضل مشروع مارشل ، وسبق أن التجأت دوقتها الكبرى في الولايات المتحدة ، ولذا فهي تكن احتراماً حقيقياً للجمهورية الاميركية الكبرى . وبالمقابل قلما تجذبها بريطانيا العظمى بالنسبة لشريكتيها في البينيلوكس .

وعدا ذلك استرجعت بغبطة دورها كجسر بين فرنسا والمانيا الغربية. ففي ١٩٥٥ و ١٩٥٦ ، بحث الفرنسيون والألمان في اللوكسمبورغ عن حل قضية السار فوجدوه ، وأكثر من ذلك ، في ٢٧ تشرين الأول ١٩٥٦، أن رأى النور اتفاق ثلاثي فرنسي - جرماني - لوكسمبورغي بغية تقنية نهر الموزيل . وكست اللوكسمبورغ في ذلك ميناء نهرياً كبيراً ، وتدشيناً جميلاً أيضاً كان فيه الجنرال دوغول ورئيس ألمانيا الغربية ، لوبكه ، في ٢٦ أيار ١٩٦٤ ، إلى جانب الدوقة الكبرى .

تشكل اللوكسمبورغ ملكية دستورية وراثية في بيت ناسّو ، ولها سلطة تنفيذية : مجلس الوزراء ؛ وسلطة تشريعية : مجلس مؤلف من ٥٨ عضواً يمثلون ٥ أحزاب . ومنذ تحرير البلاد لعب فيها ٦ رجال دوراً من الصعيد الأول ، اما بصفة وزراء دولة ، أو بصفة وزراء الشؤون

الخارجية : دوبونغ ، بيش ، فويدين ، فيرنير . شاوس ، غريفواد .

وتعرف اللوكسمبورغ بأنها بلد تقليدي متعلق بأعراقه الدينية وما زال يؤلف مجموعة اجتماعية مبنية على نظام التسلسل يبدو فيها الاشتراكيون « حمراً » .

وفيها ثلاث شركات كبرى حديدية تشكل قوام الحياة الاقتصادية والاجتماعية وهي : هادير ، آربيد ، رودانج . وتنتج ٤ ملايين طون من الفولاذ في العام . وترتبط بكل معامل الفولاذ الكبرى في أوربه . وتستخدم ٢٤٠٠٠ شخص ، وتمثل ٥١٪ من الانتاج الخام الداخلي ، و ٨٠٪ من الصادرات .

ومنذ أزمة الفولاذ ، شجعت اللوكسمبورغ عن سعة نمو الصناعات الغذائية والكيمائية ، والخشب واللباس ، وتأسيس فروع لشركات غوديير ، ودوبون دونومور ، مونسانتو الكيميائية الاميركية .

والزراعه فيها حديثة جداً وتغطي ٥٢٪ من الاراضي (البلاد الطيبة وقسم من الآردين) . وتبلغ نفوس عاصمتها ٦٣٣ ١٧١ نسمة . وتحلم بأن تخطف من بروكسل دورها كمركز لأوربه السياسية : ولم تتوصل إلى ذلك إلا جزئياً .

وفي ٤ أيار ١٩٦١ ، عهدت الدوقة - الكبرى بـ « وكالتها » إلى ابنها الدوق - الاكبر جان . وتنازلت عن العرش لصالحه في ١٢ تشرين الثاني ١٩٦٤ بعد أن لبثت على كرسي الحكم ٤٥ عاماً .

بلجيكا

لقد حولت أعقاب الحرب العالمية الثانية ، أكثر من الحرب ، بلجيكا بشكل عميق . وفي الواقع ، ان الحرب ، مع مماطلة الملك ليوبولد

الثالث ، الذي كان يفضل الاستسلام في بلده على النفي إلى انكلترا مع الحكومة ، ومع الاحتلال النازي ، لم يكن منها إلا أن انتزعت بلجيكا من حيادها . والقت بها بعد الحرب في طريق التعاون الدولي واضطرتها أن تشك بقيمة أبوتها الاقتصادية والاستعمارية .

وقد أوحى بهذا التطور أحد كبار رجالها السياسيين ، بول - هنري سباك . وهذا الاشتراكي ، الشامخ في لونه ، الذي يعتبر نفسه مركز العالم ، الفوقمي باخلاص ، لا سيا وأنه يرى أن مسرح السياسة البلجيكية صغير جداً بالنسبة له ، كان أول أمين عام لمنظمة الأمم المتحدة وظل زمناً طويلًا أميناً عاماً لمنظمة حلف شمالي الأطلسي . وباعتباره رئيس مجلس الوزراء أو وزير الشؤون الخارجية البلجيكي ، فقد غلب عليه حسه الحي النشيط بارتباط الأمم ببعضها ، وبسقوط قيمة الحدود . وفضل الرأي اتباعه لا سيا وانه كان يقاسمه، بشكل غير واضح تماماً ، مفهومه في الوحدة الأوربية ، واخلاصه العميق لتحالف لندن وواشنطون . وهو أحد الذين دعوا لقبول الحلف الاطلسي والسوق المشتركة في بلجيكا . غير أن الفصل العميق بين الماضي والمستقبل الذي نتج عنه ، قوي أيضاً بـ « أزمة ملكية » كادت تسقط فيها الملكية ، ولم يخرج منها النظام ، بالرغم من صفات بودون الأول الشخصية ، إلا بعد أن دان رأسه للضيم .

وعدا ذلك ، فاجأت أزمة العالم على حين غرة : فعندما عادت حكومة بيرلو من لندن في ١٩٤٤ ، وجدت العرش شاغراً : فقد انتزع النازيون ، في انسحابهم ، الملك من قصره ، قصر لاكن . ولاحظ الجلسان « عدم كفاءته للحكم » فسميا أثناء قصور بودون ، وصياً ، الأمير شارل ، وكان سلوكه في المقاومة شجاعاً وكريماً . ولكن الملك

ليؤبولد عقد كل شيء بعد أن حرره الاميركيون في ١٩٤٥ ، وعاد إلى لاكن ، وأعرب عن عزمه على الحكم من جديد .

وقسمت انتخابات ١٩٤٦ ، ١٩٤٩ ، ١٩٥١ والاستفتاء البلاد إلى « انصار ليؤبولد » و « خصوم ليؤبولد » . ويضم الأوائل الطبقة الارستقراطية ، أصدقاءه الديموقراطيين — المسيحيين أو الأحرار ، والاكليروس ، والاوساط الكاثوليكية ، أي ، بالاكثرية ، **الفلاندر** . والآخرون ، الاشتراكيون ، والشيوعيون ، وعددهم يتناقص في كل انتخاب ، لأنهم من ٢٣ في ١٩٤٦ سقطوا إلى ٧ في ١٩٥١ ، والطبقة العاملة ، أي ، بالاكثرية ، **الفالونيا** . وعدا ذلك ، ثار الشعب ، وكان سبباً في اضراب ٥٠٠٠٠٠ رجل ، فقد تظاهر في **غراس — بيرلود** ، بالقرب من ليبج ، حيث حملت الشرطة ، وقتلت ثلاثة أشخاص . ثم قام **الحزب الاشتراكي البلجيكي** أخيراً وأعلن في أول آب ١٩٥٠ اضراباً اضطر ليؤبولد الثالث إلى الانحاء لصالح ابنه بودون الأول ، وتنازل فعلاً عن العرش في ١٦ تموز ١٩٥١ .

انتهت الأزمة الملكية ، ولكن التاج لم يعد رمزاً لوحدة البلاد غير منازع . فقد قسم العداء بين الفلامانديين والفالونيين الأمة . وتغلبت في الاستفتاء « نعم » بـ ٥٧٫٦٨٪ مقابل ٤٢٫٣٢٪ ، وكان ٧٢٪ من « نعم » فلامانديين ، و ٥٨٪ من « لا » فالونيين .

القضية الفلاماندية . — القضية الفلاماندية قضية لغوية ، أي ثقافية ، لا تخلو من الزهو ، ولكنها أيضاً سياسية ، لوجود تعارض بين التقليد والتقدم ، الديموقراطيين وأنصار « حكومة قومية » .

على الصعيد اللغوي ، تنقسم البلاد تقريباً إلى قسمين : فعلى ٩

أقاليم ، يوجد ٤ ١/٢ أقاليم ناطقة باللغة الفلاماندية : الفلاندر الغربيــة والشرقيــة ، آنفرس ، الليمبورغ ، نصف برابانت وبروكسل ، على حين أن هينوت ، ونامور ، واللوكسمبورغ ، وليبج ، والنصف الثاني من برابانت وبروكسل ناطقة باللغة الفرنسية . ولكن الفرنسية ، على الصعيد الثقافي ، تسيطر بوضوح . وهكذا ترأس الحكومات في بلجيكا من ١٩٤٤ إلى ١٩٦٨ ، السادة بييرلو ، فان اكر . سباك ، هويسمانس ايسكنس ، دوفيوزار ، فوليَنْ ، فان هوتْ، لوفيفو ، هارمل ، فاندن بوينانتز . ومن من هؤلاء الرجال يقول في ذاته بشرف أن ثقافته فلاماندية ؟ وعند الدخول في الوظائف العامة يوضع امتحان باللغة الفلاماندية ، ولكن من من كبار موظفي بلجيكا يمكن أن يباهي بأنه يتكلم هذه اللغة بشكل يساوي أو يفضل أي لغة أوربية أخرى ؟ إن عاطفة صغار الفلاماندين تتأتى عن ذلك . ولكن يوجد ما هو أكثر. فإلى هذا التعارض في الثقافة يضاف النزاع العمالي .

إن الفلاماندين بطبيعتهم فلاحون ، كاثوليك ، يؤسسون عائلات كثيرة العدد ويعتزون « بقناعتهم » . والفالونيون ، في الغالب ، عمال ، ومفكرون أحرار ، يصوتون لليسار ، وهم في أصل حركة نقابيـة تضم اليوم ٧٠٠,٠٠٠ نقابي اشتراكي ، ومثلهم ديموقراطي ـ مسيحي، و١٠٠,٠٠٠ حر ، وهم بالطبع أكبر تطلباً من الفلاماندين على صعيـد الاجور والفوائـد الاجتماعية . ونجم عن ذلك حسد ومنافسة عبر عنها بمطالب ، مثـل التمثيل النسبي للطائفتين ، وتصحيح الحـدود اللغوية ، وتسهيلات مدرسية وجامعية . حتى ان الاصلاحات الممنوحة إذا كانت خجلى ، مثل قانون ٦ تشرين الثاني ١٩٥٨ في التعليم ؛ أو إذا ارجئت إلى زمن طويل جداً ، مثل الاصلاح الدستوري ، الذي أعلن عنـه في ٦ شباط

١٩٦٢ وظل دوماً في حال الانتظـــار ، تقوم المشادات ، ومظاهرات الشارع من نوع التي طرحت ، في ١٤ تشرين الأول ١٩٦٢ ، في بروكسل ٦٠٠٠٠ فلاماندي على قارعة الطريق دون عمل .

وفي ١٩٦٨ ، عاد الجدل بمناسبة مصير القسم الناطق بالفرنسية في جامعةُ لوفن الكاثوليكية الذي أراد الفلامانديون تهجيره إلى الفالونيـا . وانتهى بسقوط وزارة فاندن بوينـــانتز ، وحل المجلسين ، وانتخابات جديدة ، في ٣١ آذار ١٩٦٨ . وتضرر الحزبان الاشتراكي والاجتماعي — المسيحي بشكل عميق ، حتى انهما انقسما في بادىء الأمر إلى قسمين ، أحدهما فلاماندي ، والآخر فالوني . وجرت محاولة اتحاد في وزارة تضم هذين القسمين حول غ . ايسكنس الوزير الأول للمرة الثالثة .

الحرية الاقتصادية لا تسير . — لقد ظهر كل شيء في البداية ورداً ، وعالج البلجيكيون قضية الإعمار بعد الحرب في ظروف ملائمة ، ولم يخل الأمر من المجاملة والتنازل لجيرانهم الذين كانوا أقل منهم وضعاً .

إن « عملية غوت » ، باسم وزير المالية ، أي مبـادلة أوراق البنك ، وتضييق الاعتماد ، والضريبة على ارباح الحرب ، وتجميد الأموال وضعت السد في وجه التضخم النقـدي . وانهت بلجيكا الحرب في وضع اقتصـادي ملائم ، واعتبرت الحكومة ذلك دليلًا على مزاياها الفطرية ، بالرغم من أن الظروف كانت مواتية بعض الشيء . فقـد كان تخريب وتهديم المعامل محدودين ، وحرر ميناء آنفرس دون أن يمس . وعـدا ذلك ، قام الحلفاء ، لدواعي ستراتيجية ، بحشود كبيرة للجنود في بلجيكا . وفي ختام « قانون الاعارة والتأجير » دفعت نفقات اقامة هؤلاء الجنود إلى البلد المضيف بالعملات القوية . وبين ١٩٤٨ و ١٩٥٢ ، أخيراً ،

يضاف ربح « مساعدة مارشل » (نقداً وبضاعة ، ٨٥ ٪ منها مجاناً و ١٥ ٪ تدفع لأجل طويل) . وتمكنت البلاد من أن تتجدد جزئياً ، بينما كانت الارباح والأجور تتصاعد بشكل جدير بالتقدير . ولكن هذا التوسع تحقق في الفوضى ، وبخاصة ، صناعة استخراج الفحم التي كانت غير مجهزة بشكل كاف ، واكتفت ، تحت تأثير رؤساء مشاريع قصيري النظر ، بأن تفيد من عوز فترة ما بعد الحرب المباشرة . ومن الحمة أحواض البلجيكية : البوريناج ، الوسط ، شارلوروا ، ليبج ، الكامبين ، يعتبر هذا الأخير سهل الاستغلال ويحتوي ٧٠ ٪ من الاحتياطيات البلجيكية . وعندما انقلبت الظروف ، عاد الاستخراج في كل مكان في اوربة وفقد الفحم أهميته كمصدر للطاقة ، وكانت المناجم البلجيكية بين المناجم التي أصيبت اكثر من غيرها .

وفي ثلاث مرات ، أثناء دور الانتقال ، في ١٩٥٩ ، وفي ١٩٦٢ ، عزلت الأسرة الأوربية للفحم والفولاذ السوق البلجيكية ، بتطبيق المادة ٣٧ من المعاهدة ، بل وقبول سلف لتجنب تسريحات جماهيرية . ومن الطبيعي ، ان السلطة العليا لم تدخر انتقاداتها ، وباعتبارها الدافعة جعلت من نفسها ناصحاً أيضـاً . واندفعت حكومة ايسكنس فهيأت بالحال « القانون الوحيد في الاصلاح » لتثقل على سعر كلفة الانتاج . وقدر العمال أن يقوموا وحدهم بنفقات العملية . واضربوا في ٢٠ كانون الأول ١٩٦٠ ولم يستأنفوا العمل إلا في ٢٣ كانون الثاني ١٩٦١ . لقد وجهت الحركة أولاً ضد القانون الوحيد بتأثير نقابي يسمى دونار ، ثم أصبحت احتجاجاً على نقل الصناعة الثقيلة من الفالونيا إلى الفلاندر ، حيث كانت اجور العمال أخفض . وهكذا اختلطت القضية الفلاماندية بمطاليب اقتصادية محضة في الأصل ، وبنقد لتسيير المناجم قوي في معظمه ، كما يرى عندما

أظهرت نكبة مارسينيل ، في ٨ آب ١٩٥٦ ، فساد الأجهزة وكانت حياة البشر ثمناً له .

وهذه الصعوبات الاقتصادية المفاجئة بعد دور الوفرة السهلة والاكتفاء الذاتي ، زعزعت ثقة الاوساط الموجهة البلجيكية باقتصاد سوق دون معدلات ، وانصفت الهولنديين الذين يدعون دوماً إلى « تنظيم الاقتصاد ». وفكرت بلجيكا منذ ذلك الحين بالسوق المشتركة تحت زاوية جديدة : زاوية وحدة منفتحة على اوربة الشمالية ، وبخاصة ، على بريطانيا العظمى ، وأيضاً زاوية كيان اجتماعي ومالي واقتصادي وخطط تدريجياً وبقوة .

وهكذا ساعدت الأزمة الملكية والأزمة الاقتصادية على تشكيل بلجيكا جديدة مختلفة جداً عن سلوكها القديم ، لولا أن « أزمة الكونغو » جاءت بدورها وحفرت وهدة عميقة بين ما قبل الحرب وما بعدها .

كاشف الخلاص من الاستعمار . — وهنا أيضاً ، تجاوز الحادث بلجيكا واضطرت أن تفرض على نفسها تجديداً كاملاً في التفكير السياسي . فبينما كان العالم الثالث يتكلم عن الاستقلال ، كان يعتقد ، في بلجيكا أيضاً ، بألا تصل هذه الحركة إلى الكونغو المجردة من كل استقلال ذاتي في تسيير شؤونها . ولكن مستوى حياة ابناء البلاد كان أعلى مما في افريقية ، حتى ان الملك ، بعد دور مضطرب ، عندما اقترح ، في ١٣ كانون الثاني ١٩٥٩ بعض الاصلاحات الخجلى ... إلى أجل ، استقبل استقبالاً سيئاً . وانعقدت المائدة المستديرة في بروكسل من ٢٠ كانون الثاني إلى ٢٠ شباط ١٩٦٠ ، وكانت فرصة لحوار الصم بين بلجيكيين يتكلمون عن « الخبز » وكونغوليين يجيبون « الحرية » . وأخيراً ، في ٣٠ حزيران ١٩٦٠ أعلنت الكونغو استقلالها وحملت إلى السلطة باتريس لومومبا . وفي ١١ تموز انفجرت الثورة في اقليم كاتانغا . واتهم اصدقاء بلجيكا

أنفسهم الحكومة البلجيكية وشركة المناجم في كاتانغا العليا باثارتها بغية اخفاق السلطة الناشئة السوداء والحفاظ على اليد العليا على مناجم الاورانيوم والنحاس . وبالتالي أجبرت منظمة الأمم المتحدة بلجيكا ، في ٣ آب ١٩٦٠ ، على سحب جنودها من الكونغو وأرسلت اليها حملة مكانها . وتعاقب حينئذ على الحكومة الكونغوليـــة كازافوبو ، و تشومبه ، وموبوتو ، في وسط الثورات والاغتيالات . ومن ١ إلى ٦ شباط ١٩٦٥ ، سوي الخلاف البلجيكي — الكونغولي ، ولكن الحرب الأهلية عادت في ١٩٦٧ ، بالرغم من أن بلجيكا لم تعد تهتم بمصير مستعمرتها القديمة .

وأخيراً ، بدا لها أن لا غنى لها عن الكونغو فاتخذت منطلقاً جديداً .

الازدهار الجديد . — إن ازدهار بلجيكا الاقتصادي اليوم يغاير تماماً الازدهار المفاجىء والوهمي الذي كان دون غد في السنوات ١٩٤٥ — ١٩٥٥ . فهو مدين في جوهره المتين إلى التجهيز الجديد في الطاقة . لأن الصناعة الفحمية ومشتقاتها لم تنظم من جـديد فحسب ، بل ان مفاعل مول BR - 3 ، الذي يعطي قدرة ١١٥٠٠ كيلوواط ، يؤلف خطوة اولى في استغلال الذرة السلمي ، بينما تأتي مصفاة غاند ومصافي آنفرس الخمس بزيادة جديرة بالتقدير جداً من البترول والصناعات البتروكيميائية .

وإلى جانب الصناعة المعدنية ، الصناعة التقليدية ، نمت صناعة كيميائية ضخمة ، وصناعة غذائية ليست أقل أهمية منها ويعمل بها مليون عامل ، وتجهز مادتها الاولية زراعة جددت كلياً. وتستخلص بلجيكا اليوم من هكتار الأرض ٦ ملايين كالوري ، بينما فرنسا ٢,٢ مليون ؛ ومردودها السنوي للعـــامل ٢٤٠٠ دولار ، بينما المزارع الفرنسي لا ينتج إلا من أجل ١٢٠٠ دولار .

وأخيراً ، ان ميناء آنفرس ، وهو أسرع ميناء في العالم يعامل في العام ١٨٠٠٠ سفينة ، أي ٦٠،٠٠٠،٠٠٠ طون من البضائع ويستقبل زيارة ٢٩٠ خطاً منتظماً .

وأخيراً ، قدم البينيلوكس اولاً ، وبعده السوق المشتركة إلى بلجيكا الحض الضروري على صهر اقتصادي كامل يخولها اليوم مستوى عالياً في الحياة والانتاجية .

وبفضل هذا ، فان مملكة بلجيكا الصغيرة ، وقد تخلصت من بعض المحرمات ، دخلت في طريق التعاون الدولي الكثيف فبدل بعمق وجهها التقليدي ، بالرغم من أزمة بنيتها الداخلية في العام ١٩٦٨ .

البلاد المنخفضة

البلاد المنخفضة بلد الاختلافات والتناقضات ، حتى انها تعطي في البدء عاطفة الاستمرار في الجدل الذي كادت تقطعه معترضة الحرب العالمية الثانية .

انها بلد صغير مصاب بالضخامة ، ولد فيه اللاهوتيون الكالفنيون « دوافع » يوجه فيها الاقتصاد بحزم باسم المشروع الحر . وكما يلاحظ ديركشتيكو ، «سكانها في نزاع عميق دائم على عدة موضوعات ... والقطيعة بين الكاثوليك والبروتستانت مستمرة إلى أيامنا ، وهذا هو الانقسام الكبير في الحياة الهولاندية . حتى ان الذين يطرحون هذه القطيعة ، كالاشتراكيين ، لا يؤلفون جسراً بين الفريقين المتنافسين ، بل فئة ثالثة من الهولانديين » .

لقد تصالح الهولانديون في عدائهم للنازية خلال خمسة أعوام ، ولكنهم استأنفوا منازعاتهم وكأن شيئاً لم يكن ، بالرغم من ذكريات الاحتلال ، وكان شرساً عليهم بخاصة : فعلى ١٠ ملايين نسمة في ١٩٣٩ وجد

٤٥٠،٠٠٠ منفيّ ، و ١٥٠ ٠٠٠ ميت ، منهم ١٥٠٠٠ جوعاً في آخر شتاء للحرب . وتهدم ٩٢٠٠٠ دار ، وغمرت المياه ٢٢٨٠٠٠ هكتار ، وخرب ٨٦٠٠٠ مركز صناعي أو نقل إلى المانيا . وتكاد قدرة الانتاج في ١٩٤٥ تمثل ٤٤٪ من قدرة ١٩٤٠ عندما مسح سلاح الطيران النازي روتردام من الخارطة ، وهذا يعني « الشرف » المخيف من أن يعتبره الرايخ الثالث « شعباً شقيقاً » .

وعندما التجأت الامرة الملكية والحكومة في انكلترا نظم الشعب « حرب المتسولين » على الأرض القومية ، في اندفاع وحدة مثير . ودامت حتى التحرير ، أي حتى ٨ أيار ١٩٤٥ ، لأن اخفاق عملية آرنهم كلفت البلاد المنخفضة شتاءً أخيراً وفظيعاً تحت الجزمة النازية .

يقظة المنازعات القديمة . — وهذا الشتاء الأخير ، قبل التحرير الكلي ، يسجل يقظة الجابهات القديمة وعودة تآليف الأحزاب . فقد استطاع الاشتراكيون أن يجمعوا اليسار من جديد . ولكن الحركات المحافظة ، المنقسمة إلى كاثوليكية وبروتستانتية ، ظلت متفتتة بشكل لا يمكن تبسيطه . ولم تجد ما يشبه الاتحاد إلا لتتهم ، أمام لجنة تحقيق لا تعرف التسامح ، حكومة غيربراندي التي عادت من لندن ، لعملها الحربي ، وهي في المنفى . ولذا اضطرت، في ٢٤ حزيران ١٩٤٥ ، أن تتخلى عن مكانها إلى فيلمّ شيرميرورن بعد أن عاد من احتجازه في المانيا ، ويتضمن برنامجه : التطهير ، وتجديد الاقتصاد والمالية ، وسياسة جديدة للأجور والأسعار ، وتجديد تنظيم الجيش والدبلوماسية والصحافة والراديو . وهذا كثير على يمين كان منذ اكثر من عام يتنبأ بالانزلاق نحو « الحمر » واتهم شيرميرورن بأنه أفاد من عدم انعقاد البرلمان المنتخب في ١٩٣٧ ، لأنه لا يمثل شيئاً ، ليفرض دكتاتوريته .

وفي ٢٥ حزيران ١٩٤٥ سمي « مجلس قومي استشاري » ؛ إلا أن شيرميرورن استعاض عنه ، في ٢١ تشرين الثاني ١٩٤٥ ، بـ « المجلس العام » (هكذا سمي انعقاد المجلسين المؤلفين كل بمفرده من ١٥١ و ٧٥ عضواً) « الموقت » ، دون تطمين أحد . ومنذ ١٩٤٦ ، أجريت الانتخابات الاولى بعد الحرب . وهذا المجلس، الذي لم يضم بعد إلا ١٠٠ نائب ، انتخب بسائق التقليد بالاقتراع النسبي فأعطى : ٣٢ كاثوليكياً ، ٢٩ عمالياً ، ١٣ مناوئاً للثورة ، ٨ مسيحيين تاريخيين ، ١٠ شيوعيين ، ٦ أحرار ، ٢ مصلحين حنيفيين (ارثوذكس) . وترأس بيل الائتلاف الاشتراكي - الكاثوليكي ، وهو نموذج الائتلاف الاكثر شيوعاً في البلاد المنخفضة ، لأنه وجد له ائتلاف ثان من ١٩٤٨ إلى ١٩٥٩ ، وثالث ابتداءً من ١٩٦٥ .

وامتازت الحكومة النظامية في زمن السلام بتنازل الملكة ويلهلمين عن العرش لصالح ابنتها جوليانا ، وبأول قانون في الاصلاح الاقتصادي تم في ١٩٥٠ . وجرت انتخابات مسبقة ، لأن مدة المجلس عادةً ٤ سنوات ، في ٧ تموز ١٩٤٨ ، فلم تبدل إلا بصورة غير محسوسة فسيفساء الرأي الهولاندي الكلاسيكية . كان البروتستانت يطالبون دوماً « بتحديد سلطات الدولة » ، وهم تقليدياً اكثر محافظة من الكاثوليك ، و الاحرار بـ « اللامركزية » ؛ والاشتراكيون « بتفوق السلطة العامة على المصالح الخاصة » . وقد تحالف هؤلاء الأواخر مع الكاثوليك وانجزوا عملاً مثيراً في التخطيط الاقتصادي ، وهذا شيء يكرهه الهولانديون ، ولكن الاحتلال عودهم (لأنه كان يجب تنظيم الفاقة والعوز) على التوجيه الاقتصادي دون أن يعلموا ذلك أو يلاحظوه إلا قليلاً .

قانون التنظيم الاقتصادي . — وهم من جهة ثانيـة فخورون جداً بقانون ١٥ شباط ١٩٥٠ الذي يعتبر في الواقع آبدة فريدة في التاريخ الغربي ، ومشروعاً متميزاً للبلاد المنخفضة بما أدخل من خطة شديدة لانجرأ على قول اسمها .

وهذا القانون ينشيء ، في قسمه الأول ، « مجلساً اقتصادياً واجتماعياً » (ينتخبه المستخدِمون والمستخدَمون مع أعضاء يعينهم التاج) ، وله قليل من السلطات التنظيمية ، ولكنه يتمتع بنفوذ فكري عظيم ؛ وفي قسمه الثاني ، « منظمات صناعية للحق العام » أفقية وشاقولية تساعد القطاعات المسلكية على التجمع للدفاع عن مصالحها وتقرر مع المجلس الخطة اولاً ، وتراقب تطبيقها فيما بعد . ويوجد منها اليوم ١٥ منظمة شاقولية و ٣٠ منظمة أفقية . وان ما يمنع هذه المنظمة الاقتصادية من أن تكون خاصة بشكل محض ، إنما هو الدور الأساسي الذي تلعبه السلطة العامة في انشاء بنية تحتية « خطة الدلتا ، تجفيف زويدرزه ، وتعويض تملك الاراضي وازالة ملوحتها ، وتجهيز الموانى ، والطرق المائية ، ووسائل المواصلات ، ومصادر الطاقة مثل الفحم والبترول والغاز الطبيعي) وبدونها ما كان للصناعة والزراعة الهولانديتين أن تبلغا درجة الازدهار الحالي .

وهذا الازدهار الذي لا يمكن تقييمه إلا بمقارنة الحالة في ١٩٤٧ قبيل خطة مارشل القديمة مع حالة اليوم .

من أعماق الهوة إلى الازدهار . — في عـام ١٩٤٧ ، بالرغم من التدابير الدراكونية المطبقة منذ ١٩٤٥ (تجميد الحسابات ، مبادلة الأوراق النقدية ، تجميد الأجور والأسعار ، مساعدات المنتجات الغذائيـــة الأساسية) ، وبالرغم من أن الصادرات غطت ٤٣ ٪ من الواردات

اضطرت البلاد المنخفضة أن تحقق ٧٤٧ مليون دولار من الأموال في الخارج ، وأن تستقرض ١ مليار و ٧٠٠ مليون ، منها ٧٠٠ مليون لأجل قصير ، وأن تنفق ٦٥٣ مليون مما في خزائنها من ذهب . ومثل هـذا النزيف قد يؤدي لا محالة إلى تخفيض قيمة الفلورين المنكوب ، حتى ان « مساعدة مارشل » المخصصة بكاملها لتجهيز الأمة حسب خطة دقيقة ، لم تساعد على البدء بالنهوض ، الذي يعبر عنه اليوم بنشاط عظيم .

والتحقت بالصناعات القديمة صناعات جديدة في قطاعات الاستهلاك. فقد حققت الرويال دتش رقم اعمال بـ $6\frac{1}{2}$ مليار دولار في العـام ؛ واونيليفر بـ $4\frac{1}{2}$ مليار دولار . ويعامل ميناء روتردام سنوياً ٨٠ مليون طون بضـاعة . وقد انشأت ٢٧٠ رحبة بحرية ، في ١٩٦٦ ، ١٢٧ سفينة لاختراق البحر العـالي باستيعاب كلي بـ ٢٣٣٠٠٠ طونو . وبلغت الواردات في تلك السنة ٢٩ مليون فلورين ، والصادرات المرئية ٢٤٫٤ مليون ، واستقرت البطالة المتوسطة على ١٫٥٪ .

وأصبحت الزراعة نفسها صناعة ، نظراً لطرقها العقلانية ، لأن الفلاح الهولاندي « أكثر الفلاحين ثقـافة في العالم » . وبـ ٨٪ من الشعب العامل في خدمتها ، تحصل على غلات قياسية وتستطيع أن تصدر إلى جميع جيرانها .

ولكن الأرقام لا تكفي التعبير عن ازدهار هذه الأمة الصغيرة من الملاحين الذين أصبحوا عمالاً أو فلاحين دون الانقطـاع عن سماع نداء البحر. فهي في « حزام المدن » التي تحيط بحدائقها امستردام ، روتردام ، لاهاي ، في عذوبة القنوات ، ورشاقة البناء ، وخصب الأرياف ، وبريق

المعامل ، وفقدان الأكواخ الحقيرة ، ورفاه النقل العام ، ونظافة جماهير العمال المرفهة .

من اندنوسيا إلى السوق المشتركة أو القلق الميتافيزيكي . - ومع ذلك ، فمن خطل الرأي أن تتصور البلاد المنخفضة كبلد شبعان وغاف . ان القلق الميتافيزيكي ، ومجابهات الأفكار هي بالمعنى الدقيق رياضة قومية . فما من قضية عامية جداً إلا وتفحص تحت زاوية معنوية . وقد لوحظ ذلك خلال خلاص اندنوسيا من الاستعمار . وربما يفكر بعضهم بأن حركة الاستقلال ستحرم هولندا من مصادر التوابل المفيدة والبترول ، والبوكسيت (فلزات الالومنيوم) والسكر والتبغ والقهوة أو الألياف النسيجية ، ولكن عندما يقوم نائب ليشجب مشاريع الرئيس سوكارنو ويقول بكل بساطة : « انظر الرسـالة إلى أهل رومية ، الاصحاح الثالث عشر ، الآية ١ » (كل سلطة تأتي من الله) فانً هذا دليل على نقاش عنيف عظيم أقل في مصير اندنوسيا منه في تفسير النص المقدس .

ومن المعلوم ، أخيراً ، أن البلاد المنخفضة أذعنت لفقدان مستعمراتها الغنية ولاحظت بأنها لم تكن ، بسبب ذلك ، أفقر مما كانت عليه . والشيء العظيم بخاصة في تقاليد هذا الشعب الصغير القوي هو أنه لا ينطوي مطلقاً على نفسه رغم انطباعه في أن جميع أصدقائه تخلوا عنه .

إن هولنده مهد محكمة العدل الدولية في لاهاي ، والمرتبطة بمبادلاتها ببلاد مختلفة وبخاصة البعيدة منها . وبتقاليد ملحوظة جداً وأصيلة جداً ، صنعت لأوربة وللمصلحة العامة الفوقمية ، ولم تكن بحاجة إلى الحرب لتعلم ما للحدود من قيمة قليلة . ولم تتعلم منها إلا التخطيط الاقتصادي . ولذا اتجهت بشكل غريزي نحو الحلف الأطلسي واوربة ، « اوربة دون شواطيء » منفتحة على رياح البحر التي تهب على اراضيها باستمرار . وهناك

رجلان نحتا صفات اوربة التي تريدها هولانده : وهما جوزيف لونز ، الاقتصادي ووزير الشؤون الخارجية ، وسيكو مانشولت الاختصاصي بالزراعة . كلاهما يدافع عن اوربة التي لا توجد بعد ، التي يتجاوز فيها التخطيط ، الصناعي والزراعي ، الحدود ، ويعقلن النشاطات البشرية ، وينشر الوفرة ، ويطرد الاكتفائية ، وعدم الثقـة ، واحترام السيادة القومية ، لصالح انفتاح بشري كريم .

ولا تعد المرات التي كان يلتقي فيها جوزيف لونز مع الوزير الفرنسي للشؤون الخارجية ، موريس كوف دومورفيل ، في المجابهة التي أصبحت كلاسيكية اليوم بين المجتمع الهولاندي المنفتح والمجتمع الفرنسي المغلق . إن القوة الفكرية عند رجال هذا البلد الصغير المبشر دوما كلل بالوعظ الذي يشجب الأفكار القديمة في توازن الدول ، إنما هي ظاهرة تولد الاحترام . وستبقى هولانده بلد المبشرين الأقوياء في خدمة الحريات البشرية الكبرى .

الفصل السابع

دمج أوربة

المدخل . ـ الفكرة الاوربية جديدة . ومن المؤكد ، في دور كانت الدولة صاحبة السيادة تسيطر على الحياة السياسية ، ان رجالا منعزلين حلموا بـ « دول متحدة أوربية » . ففي القرن الخامس عشر والسابع عشر فكروا بها لمجابهة التهديد التركي . ثم اوحت مقاومة الهيمنات القومية وتنظيم السلام بردودهما . وفي العصر الحاضر يرى فيها اليسارتطبيقاً مجسداً لمذهبه الدولي الفوق قومي (الفوقمي) الذي تلحق بموجبه المصالح القومية بالمصلحة العامة الدولية الفوق قومية .ولكن الفكرة في اي وقت مضى لم تصبح سياسية ولم تصبح الطوبائية حلًا كما في هذا الوقت،وحتى أيامنا ظلت « أوربة » مفهوماً جغرافياً ، وافضل من ذلك ، تعريفاً لثقافة . ومنذ آخر العصر الوسيط حدث انفجار المسيحية في أمم متعددة منفردة ، وفي الغالب متعادية ، وسيطر « داعي الدولة » على السياسة الخارجية ، وكل من لمح الى اي « اتفاق اوربي » دل بذلك ، كما قال بسمارك ، على ان له اهدافاً طموحة ويرغب في اخفائها تحت ظاهر محب للانسانية . فلم الشكوى من ذلك ، واوربه ، ولو مجزأة ، تسيطر على الكرة الأرضية ؟

وفي بداية عصرنا ، تحولت الحال ، وحدث حادثان هامان : من جهة ، ظهور الدول الجديدة العملاقة ؛ ومن جهة اخرى ، العلامات الاولى لثورة المستعمرات . وفي ١٩١٤ ، انفجرت الحرب ، دون ان تأتي

بحلول للمشاكل ، واستنزفت المتحاربين ، وبعـد ذلك سوى سلام سيء قسم الحلفاء القدامى ، وأغاظ المغلوبين وقوض الوحدة الدانوبية وانشأ الوف الكيلومترات من الحـدود الجديدة ، دون ان يحل بذلك مشكلة القوميات . وعندئذ ، نشأت ، للمرة الاولى ، حركة حقيقية للاتحـاد الاوربي « الجامعة الاوربية » (بان اوروبا) التي قال بها الكونت ريشار كودنهو ف ـ كاليرجي وبدت تعد بتحقيقات ملموسة .

وفي ايلول ١٩٢٩ ، يبدو ان المشروع نجح . فقد اقترح آريستيد بريان ، وزير الشؤون الخارجية الفرنسي ، على مجلس عصبه الامم انشاء « نوع من ولايات متحدة اوربية » . ودعمه زميله الالماني غوستاف شتريزمان وأصبحت الفكرة مذكرة ، ثم غاصت . من جهة ، لأن ابطال المشروع زالوا بعد حين عن المسرح ؛ ومن جهة أخرى ، لان الازمة العالمية طرحت البلاد كلها نحو الحماية القومية . الا ان بريطانيا العظمى كانت قد صرحت في السابق بأنها لاتفكر بالمشاركة وأخذت ، على حق ، على الوثيقة المقترحة بأنها بقيت غامضة .

واقتراح بريان ، رغم ضعفـه ، كان محاولة محسوسة ومشخصـة ، والوحيدة ، لتنظيم اوربة ، وانتزع اخفـاقه كل منظور للمستقبل ممن كانوا في المانيا ، يناضلون ضد مد القومية الصاعد . وكانت النتيجة ، في ايلول ١٩٣٠ ، في انتخابات الرايخشتاغ ، ان النازيين زادوا عدد منتخبيهم من ١٤ مقعداً الى ١٠٧ . وبعد حين كانت الحرب . ولكن بينما كانت الاسلحة تتكلم ، مافتئت الفكرة الاوربية تتأكد من جديد وبحزم .

الحرب وما بعد الحرب . ـ في سياق الحرب العالمية الاولى ، لم تظهر فكرة « هدف السلام » الا مع ولسون . وبينما كان يظهر كافياً في

بداية النزاع ان يكافح الخصم لتفرض عليه ارادة الغالب ، القى الرئيس الاميركي ، في عام ١٩١٦ ، بنقاطه الاربع عشرة . وهكذا دخلت حقيقة جديدة في الحياة الدولية : وهي حقيقة برنامج يوضع لما بعد النزاع .

ومن الممكن أن يفكر ، في سياق الحرب العالمية الثانية ، ان ضرورات الدعاية تضطر المتحاربين الى تعريف رؤاهم للمستقبل منذ بداية الحرب . الا أن الاقتراحات التي قدمها الجانبان كانت مخيبة .

فمن جهة ، التقى تشرشل وروزفلت ، في آب ١٩٤١ ، قبل دخول الولايات المتحدة الحرب على متن سفينة حربية ، ووقعا « ميثاق الاطلسي » ، الذي يعيد فيؤكد المبادىء الكبرى للديموقراطية الليبرالية ويعلن صهر عصبة الامم من جديد ، واعطاءها اسم « منظمة الامم المتحدة » . ولكن ، خلافاً لأمل الكثير من « المقاومين » لم يعمل أي تلميح الى اتحاد اوربي في المستقبل . ولا شك في ان الوزير البريطاني الأول قد فكر في حلول من هذا النوع ، وبعد عامين اطلق « منطاد تجربة » ، ولكن الظروف لم تكن مواتية بعد . ودخلت الحكومات المنفية في لندن، اثناء التحرير ، فارغة الايدي ، دون مشروع للمستقبل . الا ان حكومات البلاد المنخفضة ، وبلجيكا واللوكسمبرغ وحدها وقعت ، بدافع من بول هنري سباك ، معاهدة لانشاء اتحاد جمركي يقتصر على بلادها ويسمى « البينيلوكس » . والواقع ان قضايا الدمج الفنية قد جربت في هذا الاطار .

غير ان الحصاد يمكن ان يظهر اغنى في الجهة الأخرى من المتراس . وبخاصة منذ غزو الاتحاد السوفياتي . فقد بدا ان الدعاية الهتلرية مرتكزة على « اوربه » ، ونظمت حملات صحفية على عرض دفاع اوربه المشترك ضد « البولشفية الآسيوية » ، ولم تبق هذه الدعاية دون بعض الاثر . حتى ان بعض « المتعاونين » قد استلهموا منها . فتحت ريشتهم ، نجد حججاً

تقرب من حجج « الجامعة الاوربية » . وهكذا يشار الى ان « البيون الخائنة [١] » ، بانعزاليتها التقليدية ، لم تفكر في الماضي الا بانقسام القارة الاوربية على نفسها . ومن المؤكد ان مثل هذا الديموقراطي النادم بشكل سيء يمكن أن يأسف على أن اتحاد اوربه لم يتم باتفاق مقبول بحرية ، في اسلوب جونيف . وسواء اريد ذلك أو لم يرد فقد قدم مذهب الهيمنة حلاً ، أفلا يمكن تأنيس المذهب القومي- الاشتراكي من الداخل ؟ هكذا كانت ، على كل حال ، آمال بعض « التعاونيين » الذين يحاولون أن يتفهموا اختيارهم . ولكن الواقع هو أن هتلر لم يفكر مطلقاً بالتعابير « الأوربية » لأن المستقبل بالنسبة له في السيطرة الألمانية بكل بساطة ، أي أن يكون حول الرايخ توابع تتطور ، وكل انحراف وطني من جانبها يعاقب بشدة . ولا شك في أنه يوجد في اوربة الجديدة هذه كثير من الحواجز الجمركية ، ولكن جميع الشعوب تعمل فيها لقوة المانيا الدكتاتورية . والباقي ضلال .

وهكذا كانت الاتحادية الاوربية غائبة عن اهتمامات الحلفاء وفي الوقت نفسه لاتتواءم مع الاهداف الهتلرية . وبالعكس ، بدت قوية وحية جداً في فكر كثير من المقاومين ، وهذا مفهوم . وبينما كانت بريطانيا العظمى تحارب ــ لحرية العالم ، بالتأكيد ، ولكن في المحل الاول للدفاع عن ارضها ضد غزو العدو ــ ، كانت المقاومة تفكر فيما وراء العوائق المباشرة . وتتألف في الغالب من عناصر فتية غير مستعدة للمجازفة بحياتها لعودة نظام خيب رجاءها تماماً في ١٩٤٠ . وكان هؤلاء الوطنيون

---

(١) آلبيون Albion اسم اطلقه القدامى على بريطانيا العظمى بسبب جرفاتها البيضاء، ويعنون به شعرياً انكلترا .

يشعرون بارتباطهم مع وطنيي البلاد الأخرى - وهـــذا ماكان يبعدهم عن القومية .

وفي منشورات لا "عد" لما كانوا يقترحون الاتحاد الاوربي كـ « هدف سلام » . وفي ١٩٤٤ ، اجتمعوا في جونيف لإعداد بيان في هذا الروح . ولكنهم ما كانوا ليمثلوا أوربه الغربية على سبيـل الحصر : بل شاركهم يوغوسلافيون وبولونيون ، ومن جهة أخرى ، كان المندوبون الايطاليون نشيطين بخاصة ، فهم الذين فكروا بقضايا بعد الحرب في منفاهم في جزيرة فانتوتين . وكان البيان المنشور ، في قسم كبير منه ، من عملهم . لقد استطاعو أن يفكروا وأن يستخلصوا . ولنشر إلى أنه كان إلى جانبهم وفد ألماني ، بريء من كل قومية ، مثل الاتحاد كوسيلة وحيدة لاعادة اعمار ألمانيا دون أن تصبح تهديداً لجيرانها .

وهكذا ، كان لدى المقاومين وحدهم أفكار مشخصة عن الشكل الذي يجب به تحقيق الوحدة الأوربيـة – من نزع السلاح الجركي ، والاشراف الدولي على الأنهار الكبرى ، وحمـــاية الأقليات ، الخ .. ويبدو أن ساعتهم حانت بعد التحرير . ولكن الفرصة فرت منهـم ، وذلك لعدة أسباب .

أولاً ، في بعض البـلاد ، ضغط العائق الشيوعي بوزنه ثقيلاً على المقاومة ، وما كان ستالين ليرغب بشيء أقل من رغبته في إنشاء أوربة : لقد كانت سياسته تهدف إلى « تبعية » القسم الشرقي من القارة وتجزئة الباقي . وبعد استسلام الجيوش الألمانيـة ، عدلت قضايا مباشرة قوى التجديد : لا سيا وان دعاوى التطهير كانت تتطلب جهوداً دائمـــة ، وبالاجمال عقيمة . وضاع الزمن الثمين بالجري على العاجل ، وهـذا

ما ساعد قوى المحافظة على التجمع . وأخيراً ، انتهى الكفاح القامي ضد المحتل باثارة الحقد على ألمانيا ، ولم يكن التحرر منه إلا تدريجياً .

والحاصل هو أن الاتحاديين الاوروبيين الاولين استطاعوا بعد الحرب أن يلتقوا في آب ١٩٤٦ في مؤتمر دولي عقـــد في هوتنشتاين ، على شاطىء بحيرة الكانتونات - الاربعة ولكن العودة إلى القومية تمت من قبل . ومع ذلك ، فان الحركات السياسية وليـدة المقاومة ضربت في الانتخابات : وهذه هي حال « حزب العمـــل » وحزب « الاتحاد الديموقراطي البلجيكي » . وان تجمعات أخرى ، مثل الحركة الشعبية الهولاندية ، أرادت أن تبقى خارجاً عن السياسة النشيطة : وزالت دون مجد . وأخيراً ، الحركة الجمهوريه الشعبية الفرنسية ، التي فهمت في البدء كتجديد ، أصبحت حزباً سياسياً تقليدياً ، وحلت محل الديموقراطية المسيحية التي كانت قبل الحرب . وكانت هذه الحركات كلها محشورة في معارك في داخل دولها الخاصة : ولم تكن أوروبيــة إلا ببرنامجها ، حتى ان تصريحاتها في هذا الموضوع أصبحت افلاطونية .

وبعد الحرب كان يجب قيام الحركة الأوروبية من جديد . وكانت هرتنشتاين بداية هذا التجديد . وأعدّ برنامج وضعت فيه مبادىء أساسية في الاتحادية الاوروبية : أوروبة - المتحدة المعتبرة كعنصر تركيبي لنظام عالمي ، أوروبة عصبة منفتحة ، ميثاق الحقوق المدنيـــة ، التجمعات الاقليمية ذات السلطة في القول والفعل بل والمرتجاة ، تنسيق وتخطيط تكنولوجي واقتصادي على المستوى الاوروبي ، انشاء سلطة فوقمية القضايا التي تتجاوز الأمم . وبعد بضعة أشهر أسس الاتحاد الاوروبي للاتحاديين في باريس . وبسرعة تتابعت المؤتمرات : مؤتمر امستودام في نيسان

١٩٤٧ ، ثم مؤتمر مونترو في آب — ايلول من السنة نفسها . ولكن بدا أن الاتحاديين لم يكونوا وحدهم يفكرون في أوربة .

وفي الوقت الذي كانت فيه جماعة هرتنشتاين المتواضعة تحرر نصها النهائي ، القى ونستون تشرشل خطابه الشهير في زوريخ وأنهاه بهـــذه الكلمات : « انهضي يا أوربة » وكان تأثيره صاعقاً . وبالحال ، وضعت قضية الاتحاد الاوربي أمام الرأي العام الواسع . وبما أن الغالب في الحرب العالمية الثانية قد دافع عن الفكرة ، فلم يعد بالامكان أن تجنب باعتبارها طوبائية . وفي الحقيقة كان تشرشل في المعارضة ، وهذا ما خوله الحرية الكاملة في العمل . ولا شك أيضا ، في انه لم يوضح تحت أي شكل يجب أن يكون الاتحاد : وفي الحقيقة ان تعبيره عن المشروع كان مبهما أيضا كتعبير بريان في الماضي . وأخيراً ، يبدو أن رجل الدولة البريطاني لم يفكر مطلقا باشراك بلده الخاص في المشروع : فقد احتفظ له بدور الاشبين ، ومع هذا فقد أصبحت القضية موضوعة منذ الآن .

وبالمقابل ، ان فكرة الاتحاد الجمركي سلكت طريقها في الأوساط الاقتصادية . وفي بداية ١٩٤٧ ، أنشأ الوزير البلجيكي الأول بول فانزيلاند العصبة المستقلة للتنسيق الاوربي ، وتضم رجالاً سياسيين أو أصحاب مصارف ، وصناعيين وخبراء . ثم التحقت بها فيما بعد عناصر أخرى . وقامت مباشرة اتصالات مع لجنة أوربة المتحدة التي شكلها تشرشل في لندن .

وأخيراً ، وفي الوقت نفسه ، عاد الكونت كودنهوف — كالرجي من الولايات المتحدة ، حيث علّم طوال سنوات الحرب . وفي هـذه المرة ، لم يشأ أن يستأنف العمل تحت شكله التقليدي ، بل قرر أن يؤسس العمل الاوربي على أعضاء من مختلف البرلمانات صاحبـة السيادة

القومية . وباشر العمل بالقيام بتحقيق ، وكانت النتائج مشجعة . وصرح عدد عظيم من النواب والشيوخ بأنهم على استعداد لدعم القضية الاوربية. ثم عقد المؤتمر الأول في غشتاد ، حيث يقيم مؤسس « الجامعة الاوربية» (بان أوروبا) . وتأسس الاتحاد البرلماني الاوربي ، تحت رئاسة الاشتراكي البلجيكي جورج بوهي . ومع ذلك فان الاتحاد البرلماني الاوربي وقف في معزل عن الحركات الأوربية الأخرى .

وهكذا ترى وفرة النشاطات الاوربية ، وكان من اللازم العاجل التنسيق فيما بينها . وتشكلت لذلك لجنة مختصة وخرجت عنها الحركة الاوربية ، التي فهمت على أساس كونفدرالي . وتأسست هذه الحركة في بروكسل ، في تشرين الأول ١٩٤٨ ، تحت رئاسة وزير محافظ قديم (وآت في المستقبل) دونكان سانديز (من بريطانيا ـ العظمى) ولكن لزم بخاصة ، انتظار اللحظة التاريخية التي يمكن أن يجابه فيها المذهب قضايا الساعة . أي أن الفكرة يمكن أن تصبح سياسة وهذا ما حصل في ١٩٤٧ .

السنة الخامسة ١٩٤٧ . ـ في عام ١٩٤٦ بدأ إصلاح الدول المتحاربة يجري « بشكل » عادي ، ومن ثم جاءت عدة قضايا أمسى حلها تنهال على البلاد الأوربية « الغالبة » أو « المغلوبة » . وأولى هذه القضايا قضية الاعمار المادي وعودة الحياة الاقتصادية إلى مجاريها . ولكن الاعمار لا يكفي بل يجب الافادة من « الصفحة البيضاء » لعمل الجديد ، لأن التجديد الاقتصادي والتكنولوجي كان بخاصة ملزماً ولا سيما بعد ضياع عدد من الأسواق التقليدية . وقبل كل شيء ، يجب حقن عظيم من رؤوس الأموال التي تستطيع امريكا وحدها أن تسلمها . ولا شك في أن الولايات المتحدة قدمت في السابق مساعدة مباشرة عظيمة بواسطة منظمة تحمل

عنوان الأمم المتحدة وهي « منظمة الأمم المتحدة للغوث والتعمير » أو «ادارة الأمم المتحدة للغوث والتعمير » ولكنها حلت بعد قليل . وكان من الضروري وضع خطة جديدة ، القيام باقتصاد جديد : اقتصاد الهبة . إلا أن هذه الهبة لا تخول إلا إذا أراد الاوربيون أن يعتبروا أوربة كـ « مجموعة » ، لا كوضع مصالح متنافسة إلى جانب بعضها .

وكانت الخطة خطة مارشل : ففي ٥ حزيران ١٩٤٧ ، القى الجنرال مارشل ، أمين وزارة الخارجية الجديد ، خطاباً مدوياً في جامعة هارفرد أعلم فيه انشاء موجة جديدة من الاعتمادات المعطاة بسخاء ، وأضاف في هذه المرة ، بأن المساعدة يجب أن تتفق مع جهد في التعاون من جانب الدول الأوربيه . ولاحظت أمريكا ، أفضل من أوربة نفسها ، ضرورة اعمار منسق .

والح مارشل مراراً على هذه النقطة وهي : ان عرضه موجه إلى أوربة بكاملها ، مهما كان النظام الاقتصادي والاجتماعي في البلاد المعنية: وعلى هذا فان ألمانيا وايطاليا ستفيدان من هذا العرض كالحلفاء . ودعي إلى مؤتمر عقد في باريس ، وعلى اثره ، رأت النور منظمتان : من جانب الولايات المتحدة ، ادارة التعاون الاقتصادي التي تعهد بول هوفمان بتوجيهها ؛ ومن جانب أوربة ، المنظمة الاوربية للتعاون الاقتصادي .

وكان الأمين العام الأول لها روبير مارجولن الذي شارك ، فيما بعد ، في اللجنة الاوربية للسوق المشتركة . واشتركت في هذه المنظمة : ألمانيا الاتحادية ، النمسا ، بلجيكا ، الدانيمارك ، فرنسا ، اليونان ، ايرلانده ايسلانده ، ايطاليا ، اللوكسمبورغ ، النوروفيج ، البلاد المنخفضة، البرتغال المملكة - المتحدة ، السويد ، سويسرا ، تركيا .

وهكذا أطلقت الحكومات الأوربية ، مع شيء من الاكراه ، على طريق التعاون الدائم والعضوي . ففي باريس ، في قصر لامويت ، مقر المنظمة الاوربية للتعاون الاقتصادي تعلمت أن تتعرف مشاكلها بشكل متقابل ؛ وبدأت تسود ثقه متبادلة قضايا بعضها التي أصبحت قضايا الأخرى . ولا شك في أن كل بلد ، في البدء ، إذا أخذ منفرداً كان يريد أن يفيد من الكرم الاميركي ويقدم خطة قومية في التنمية . ولكن الولايات المتحدة اهتمت بتثمير دولاراتها فأعادت هذه المشاريع إلى مرسليها مطالبة بتماسك أوربي أعظم . وعندئذ ، دخل التعاون الدولي في الاخلاق والقت فيه حركات الاتحاد الاوربي نقطة تطبيق .

إن « اقتصاد الهبة » الذي طبقته الولايات المتحدة ، أخذ ابعاداً لا سابق لها . فلماذا ولت امريكا ظهرها بعزم لكل انعزالية واقلعت في مبادهة فلكية البعد ؟

ما من شك لدواعي تضامن مثالي ، لأن الرأي الاميركي في هذه القضايا أكثر حساً من الجمهور الاوربي ، الذي يظهر دوماً أكثر قحة وأقل « سذاجة » . ومن ثم ، لأنه لم يكن من المصلحة الاميركية ان ترى أوربة ، الرفيق التجاري الهام ، تهوي في البؤس . حقاً ان الصادرات لا تشمل الا جزءاً ضعيفاً من الانتاج الاميركي ، ولا تمتص منه أوربة إلا جزءاً — ومع ذلك فان الحجة تبقى محافظة على قيمتها . أما الحجة المعاكسة ، وهي أنه إذا جعلت أوربة تقف على قدميها فان الولايات المتحدة تخلق لنفسها منافساً مستقبلاً ، فلم تلعب الا قليلا . ولكن ، فيما وراء الاقتصاد ، بخاصة ، كانت تقصد العمل السياسي ، لأن الولايات المتحدة شعرت بالتهديد الشيوعي .

ويدخل هنا عنصر جديد . ففي الحرب ، كان الاتحاد السوفياتي

والولايات المتحدة حليفين ، ونشرت الدعاية الاميركية بسخاء الأمل في أن النظام الشيوعي يتطور نحو أشكال أكثر « ليبرالية » . وبعد وفاة الرئيس روزفلت ووصول خلفه هاري س. ترومان ، أصبح واضحاً بأن هذا الأمل كان وهماً . لأن الستالينية لم تصبح مرنة ، بل تصلبت ، وبعد حين ، في ١٩٤٩ ، اعلن ترومان « النقطة الرابعة » واعداً المساعدة و ون لكل بلد يرغب في الدفاع عن حرياتة ضد عدوان أو تسلل شيوعيين . وبدأت الحرب الباردة .

وظهرت هذه الحرب مباشرة بمناسبة خطة مارشل نفسها . فبالرغم من من أن دول الشرق قد دعيت فيها ، فقد رفضت كل تعاون : بولونيا بعد بعض التردد ورغماً عنها . وتشيكوسلوفاكيا ، التي كانت تحافظ بعد على شيء من حرية الحركة ، قبلت بالرغم من حضـــور الشيوعيين في حكومتها ، ولكنها تلقت بالحال تعليمات مخالفة : وتخلت بدورها . وهكذا ، فان الخطة التي كان من الممكن أن تكون عامل اتحاد لأوربه بكاملها ، لم تتمكن أن تكنه إلا لأوربة الغربية ، التي أصبحت منذ الآن مرتبطة بأمريكا .

وكان لتصلب المواقف الدولية أيضاً انعكاساته في المانيا ، فقد ظهر فيها عدم استعداد الحلفاء الغربيين بشكل أكثر ضرباً للحس ، بقولهم ما العمل ببلد مغلوب ؟

ويبدو هنا من جديد أن الحلول الأوروبية أتت بالجواب وهو : يجب مساعدة المانيا على النهوض « بدمجها » في مجموعة اتحادية فدرالية . ولكن يجب الاسراع ، لأن التطور السياسي يسرع في المنطقة السوفياتية ، ومنذ الأيام الاولى للاحتلال ، باشرت أجهزة الاداريين الشيوعين والمحبين

للشيوعيين بالعمل . وأمام طرق الشرق الناجعة ، وقف الغربيون بوجه حزين بسبب منافساتهم المسكينة ومناطق احتلالهم الثلاث .

ومع ذلك ، أخفق الروس ، وبخاصة في ١٩٤٨ ، أثناء الحصار الرومي لبرلين والجسر الجوي الحليف ، لأن هـذا التحالف غير المنتظر بين الرايـخ الثالث البائد والحلفاء ، أخذ يقوى ويشتد ساعده .

والنشر ، أخيراً ، إلى أن سنة ١٩٤٧ قرعت جرس نعي القوة الامبريالية البريطانية . ووجـــد حادثان رمزاً لذلك : فقد بدا أنهما يطرحان المملكة المتحدة نحو البحث عن هذه الحلول الاوروبية التي أطرى بها تشرشل ، ولكن لم يكن لها صدى في حزب العمال القائم على السلطة .

ومن جهة ، في شباط ، أعلم سفير صاحب الجلالة في واشنطن ، اللورد انفورتشابل ، رئيس الولايات المتحدة بأن حكومته لا تستطيـع تأمين النظام الصالح في الشرق الأدنى . كان على حزب العمال أن يختار بـين متطلبات « حالة الرفاه » ومهنة « الشرطـي » العام . ولا شك في أن الاختيار كان سهلًا قليلًا ، لأن الجيوش الانكليزية كانت ، منذ عهد قريب أيضاً ، تساعد الحكومة اليونانية على اخماد ثورة شيوعية . ومع ذلك فقد أذعنت لندن ، وطلب ترومـان إلى الكونغرس ان يخوله ٤٠٠ مليون دولار اضافية . وحل الجندي الامريكي « جي . آي » محل « تومي » الجندي الانـكليزي .

ومن جهـة أخرى ، في ١٩٤٧ ، خول الاستقـــلال إلى أوسـع مستعمرة بريطانية وهي الهند ، وبدأ الخلاص من الاستعمار .

وتابعت بريطانيا ، على القارة ، هذا التطور باهتمام . والآن وقـد لامست الامبراطورية البريطانية الموت ، فستصبح المملكة المتحدة دولة

اوربة ، وتكاد تنفصل عن القارة بخندق صغير ، فمن الواجب على
على بريطانيا العظمى الا تشارك في الحركة الاوربية فحسب ، بل أن
تكون على رأسها ! وكثير من الاوربيين يرون ذلك انطلاقاً من ١٩٤٧.

التحقيقات الاوربية الاولى . — ولا يغرب في هذه الظروف أن
توضع المرحلة الاولى للتحقيقات الاوربية لما بعد الحرب تحت شارة
« محور لندن — باريس » . وكانت بريطانيا العظمى تتمتع بجاه
واسع ، باعتبارها الدولة الأوربية الوحيدة التي خرجت من الحرب دون
أن تسلم أبداً . وأعطت لنفسها حكومة وأملت منها أن تقوم بمبادهات
مجددة ، لا في الشؤون الداخلية فحسب ، بل أيضاً في السياسة الخارجية ،
وكان يفكر بأن يكشف جهاز الميجر آتلي عن موهبة جديدة بطرح
قواعد اوربه المتحدة .

وفيما يتعلق « بمحور لندن — باريس » فقد ذهب بعضهم إلى
ادخال براغ فيه ، لأن تشيكوسلوفاكيا ما زالت تحافظ على بعض
الاستقلال وتحلم بأن تكون « جسراً بين الشرق والغرب » . والدعامة
الغربية لمثل هذا الجسر يمكن أن تكون انكلترا الاشتراكية ، باعتبار
أن فرنسا محطة قارية للغرب .

وهذا الحكم منطقي ، ولكنه وهمي . والواقع ، أن رسل حزب
العمال ما كانوا ليروا الاشياء تحت هذه الزاوية . وفي الشرق ، يعتقدون
بصهر بين الشيوعيين والاجتماعيين — الديموقراطيين ، يكون فيه هؤلاء
الأواخر أقوياء في عددهم ، ويسيطرون على الحزب « الموحد » . ولم
يعطوا للمقاومة الاشتراكية أي دعم ، حتى ان فكرة أوروبة المتحدة
التي تضم الغرب والشرق ، أو على الاقل تشيكوسلوفاكيا التي ما زالت

حرة بعد ، كانت غريبة عليهم . وأخيراً ، كان ارنست بيفن ، وزير الشؤون الخارجية ، مضنىً بكثير من المشاكل المقلقة ، مثل قضيـــة فلسطين ، ولا يفكر إلا قليلاً بمبادهة أوربية ، ودعم برخاوة المبادهات التي اتخذت فيما عداها .

ومع ذلك ، بدا حيناً ، ان وقت المبادهة البريطانية قد حـان . وفي ١٩٤٧ ، أبرمت انكلترا وفرنسا ، ممثلتين بشخص ارنست بيفن و جورج بيدو ، في دنكرك ، معاهدة تربطها ، أمام عدوان الماني محتمل الوقوع . والواقع هو أنه كان يفكر بجبهة دفاع ضد الاتحاد السوفياتي .

إلا أن معاهدة دونكرك ظلت حرفاً ميتاً . ومن المؤكد أنها وسعت في السنة التالية في معاهدة بروكسل التي شكلت ، بانضمام بلاد البينيلوكس الثلاثة ، الاتحاد الغربي ، وهو أول منظمة اوربية بعـــد الحرب . ولكن « أوربة الخمس » هذه لم تكن في الواقع نشيطة إلا في المضمار الثقافي . وفي السياسة ، ستصبح غير ذات نفع بمجلس أوربه ، وفي المادة العسكرية ، بمنظمـة حلف الاطلسي (أوتان) الـتي انشئت في ١٩٤٩ ، بدافع من الولايات المتحدة ، كرد فعل للدفاع الجماعي بعد انقلاب براغ في شباط ١٩٤٨ .

وفي الحقيقة ، ان منظورات أخرى بدأت تظهر عندما أبرمت معاهدة بروكسل . وكما قال بول ـ هنري سباك ، فيما بعد ، حلت « المبادهة الخاصة » محل تردد الحكومات . وفي أيار ١٩٤٨ ، ضم مؤتمر كبير في لاهاي ٨٠٠ مواطن مشهور ، وهذا اللقاء التاريخي ، كما قال تشرشل ، رئيس الشرف ، ساعد جمهوراً كبيراً على وعي حقيقـة جديدة : وهي ارادة اتحاد أوربي . ولم تنتج الصدمة المعطاة ، في الواقـع ، لا خطبا

تلقى ، وتشرشل نفسه لم يستطع اضافة شيء إلى ما قاله من قبل ، ولا قرارات صوت عليها (وفي الغالب مبهمة) ، بل روحاً متأخذ فجأة شكلًا . ونظراً إلى أن كثيراً من الرجال من أصحاب النفوذ صرحوا بأنهم « أوروبيون » فان الفكرة الاتحادية لم تكن طوبائية .

ومن جهة أخرى ، دل المؤتمر على المرحلة الاولى التي يجب بلوغها . وهذه المرحلة تقتضي انشاء « **مجلس أوربه** » ، ويكون فيه للاوربيين فرصة اللقاء للنقاش في قضاياهم المشتركة . والحقيقة ، ان المجلس المقترح سيكون استشارياً ؛ ومع ذلك فان هذه البداية تبدو خصبة .

والتعبير **مجلس أوربة** أتى عن تشرشل . فقد استعمله في زوريخ. وأصبح كلمة أمر ، وفي كل مكان في أوربه الغربية كانت الوفود القومية إلى لاهاي تأتي وتقدم هذه القرارات إلى حكوماتها العائدة لها : إلى الوزير الأول وإلى زميله وزير الشؤون الخارجية .

كان النجاح مفاجئاً . وبعد حين ، دعت الحكومة الفرنسية أوربي الغرب الآخرين — باستثناء اسبانيا والبرتغال دوماً — إلى أن يأتوا ويتناقشوا في باريس ، تحت أي شكل يمكن فيه لمنظمة أوربية أن تعمل . وتحت رئاسة ادوار هريو ، رئيس المجلس الوطني دعي مؤتمر رسمي إلى الانعقاد في النصف الثاني من ١٩٤٨ .

وفي هذا المؤتمر التحضيري ، بدا ان الوفد البريطاني ، الذي يوجهه الدكتور **هوغ دالتون** ، غير محبذ ، وقد سبق لادارة حزب العمال أن « ثبطت » همة أعضائه في الاسهام بمؤتمر لاهاي ، وهذا ما جعل الاتجاه يميل إلى اليمين أكثر مما كان يرتجى . وجهد الانكليز الآن للحفاظ على مجلس أوربه المستقبل في نطاق الارثوذكسية الدولية المتشددة . وكانت فكرتهم شبيهة بما سمي في الآجل : « **أوربه الدول** » واقتصرت على

مشاورات منظمة بين الحكومات . وحاول العماليون أن يقللوا كل نفوذ يمكن أن يكون لـ « ستراسبورغ » على السياسة الداخلية ، وهذه هي السياسة التي تهمهم فوق كل شيء .

نعم « ستراسبورغ » فهل أوحي بمدينة ستراسبورغ ليمنع المجلس من التمتع بجاه عاصمة كبرى مجهزة بصحافة كبرى ؟ لقد قيل ذلك ؟ ولكن هذا الاختيار صادق عليه بحماسة من كانوا يرون فيه نظاماً للتوفيق والمصالحة بين فرنسا وألمانيا . لأن المانيا المغلوبة إذا لم تشارك بعد مباشرة في المحادثات فقد أعلن عن مشاركتها من قبل .

لقد ضم الميثاق الذي أقر مجلس أوربه ، توقيعات عشر دول ديموقراطيه في أوربه الغربية : بلجيكا ، الدانيمارك ، فرنسا ، ايرلندا ، ايطاليا ، اللوكسمبورغ ، النورفيج ، البلاد المنخفضة ، المملكة المتحدة ، السويد ، ووقع في لندن ، بعد سنة على مؤتمر لاهاي . وكان ينبغي الانطلاق بسرعة في العمل . وازدادت السرعة أيضاً بعد أن تقرر أن تكون الدورة الاولى للمجلس الاستشاري في صيف ١٩٤٩ . وبسرعة نظمت جامعة وهلمين القديمة لاستقبال البرلمانيين الاوربيين ، وبعد خطاب الترحيب الذي القاه هريو ، انتخبوا بول ـ هنري سباك رئيساً للمجلس .

وهذه الدورة الاولى ، التي لعبت فيها الحركة الاوربية دوراً هاماً في الكواليس ، بدت مليئة بالوعود . وكان الممثلون المرموقون في الحياة البرلمانية يحرصون على تسميتهم أعضاء في مجلس ستراسبورع . وفي الواقع ، ان تسمية الاعضاء كانت تتم في داخل البرلمانات القومية ، واستعرض الاعضاء عدداً عظيم من القضايا الحارة ، ببلاغة و كفاءة . وانعقد اجتماع كبير في الهواء الطلق في ساحة كليبير وضم جمهوراً متحمساً ومفعماً بالأمل .

ومع ذلك فقد حلت الخيبة بعد حين . ففي الخريف ، وجد أن المجلس « الاستشاري » لم يستشر . ولا شيء يضمن بأن الحكومات ستأخذ توجيهاته بعين الاعتبار . وقد لوحظ في خريف ١٩٤٩ حادثان هامان في هذا المعنى .

من جهة ، قررت بريطانيا – العظمى تخفيض قيمة الجنيه الاسترليني وفعلت ذلك في واشنطون ، وهذه صفة مميزة للتحديدات التي أتي بها لحريتها القومية . ولكنها لم تخبر حتى ولم تشاور أحداً ، بالرغم من أن هذا الاجراء الانكليزي قد اتبع بتخفيض عام للنقد في القارة الاوربية باستثناء الفرنك السويسري . وهكذا لاقى التضامن النقـــدي الاوربي تكريساً مدوياً ، بيد أنه ظهر في الوقت نفسه كم كانت المناقشات الاقتصادية لمجلس أوربة نظرية .

ومن جهة أخرى ، ان لجنة الوزراء ، وهي القسم الثاني للمجلس ، اجتمعت تحت رئاسة الوزير الدانيماركي لدراسة اتجاهات الجمعية العامة (المجلس) . وكانت معركة . ومن الوجهة العملية ، لم يؤخذ بشيء ، واستحوذت خيبة كبرى على مندوبي ستراسبورغ وعلى قسم من الرأي العام الذي تابع مناقشاتهم .

وختاماً ، ان دورة المجلس ، الذي انعقد في صيف ١٩٥٠ ، لم تظهر تفاؤل السنة السابقة . وأخطر من ذلك ، ان اختلافاً عميقاً ظهر في الرأي : من جهة ، الاتحاديون ، وكانوا يحاولون اقحام قرار لصالح المنظمات الفوقمية ؛ ومن جهة أخرى ، الانكليز والاسكاندينافيون في أكثريتهم العظمى جداً ، وقد تعلقوا بتصريحات كثيرة الغموض .

وفي الحقيقة ، ان مثل هذه المناقشة لا يمكن أن تكون إلا عقيمة .

لأن الاتحاديين ، الذين يمثلون بخاصة البلاد الستة التي ستدخل في دمج الأسرة الأوربية ، كانوا يخدعون أنفسهم إذا كانوا يفكرون بأنهم يستطيعون اقناع زملائهم « القائمين في محيطهم » . وانقاد هؤلاء الأواخر لمعجزة وهي أن رأيهم لا يتبعهم . وبالمقابل ، ان من كانوا يحبون أن يسموا أنفسهم « عاملين » أظهروا عدم كفاءتهم في وضع طرق أخرى ، غير اتحادية ولكن ناجعة .

وبهذا الواقع ، حكم على مجلس أوربه بأنه مخيب ومن ثم وبالتدريج ختم دور المبارزات الخطابية . ووجدت ستراسبورغ طريقتها الحاسمة : وهي طريقة الاتفاقات المختصة .

وهذه الطريقة الناجعة تدريجياً منذ سنوات الـ ٦٠ تقتضي تناول قضية ، فنية أكثر منها سياسية ، في نقاش عام في المجلس (الجمعية) ، ومن ثم يعهد بها إلى خبراء الحكومات لينتج عنها أخيراً اتفاق يقنن وحدة اتجاه وجهات النظر التي تلاحظ أو التي تثار .

وفي هذا المضمار كان الاتفاق الاوربي الهام ، ولا شك ، اتفاق « حقوق الانسان » . الواقع ، ان مجلس أودبه لم يكتف بوضع قائمة مثالية ، كما هي الحال في الاعلان العام للامم المتحدة : بل أنشأ جهازاً قضائياً قادراً على اصطفاء ، ثم فحص الشكاوى ، وعند مقتضى الحال ، اثارة تقويم الاخطاء . وما لم تستطع محكمة البداية ، اللجنة ، معالجته ، يمكن أن يعرض لحكم محكمة أوربية سبق وأعطت ، في الواقع ، بعض أحكام مدوية ، ولكن الحكومات المتداعية في معظم الاحيان تفضل الا تصل الامور حتى الدعوى : وفي حالات عديدة كانت

تصحح سلوكها أو تبدل التشريع في المضمار الذي يقـــع عليه اللوم . وهكذا حذفت النورفيـج من دستورها المادة التي تمنع اليسوعيين من الدخول إلى المملكة .

وصادقت بعض البلاد ببساطة على الاتفاق ، وأضافت اليه أخرى بنداً يساعد المواطن الفرد على رفع شكواه على دولته ، وصادق عليه جميع أعضاء مجلس أوربه على الاقل وببساطة ، باستثناء فرنسا التي احتجت بعض الوقت بحرب الجزائر ، لتبرير رفضها . ومع ذلك فان غيابها ظل مستمراً منذ **اتفاقات ايفيان** .

وبينما كانت ستراسبورغ تحتل الاسطر الكبرى في الصحافة ، كانت المنظمه الاوربية للتعاون الاقتصادي ، المنظمة الأخرى الدائمة لـ « **اوربه الكبرى** » الغربية ، تعمل بشكل اقل مسرحية ، ومع ذلك فقد قامت بعمل عظيم بمساعدتها على توزيع اموال مارشل بتليين السياسات الجمركية للبلاد الاعضاء ، وبتوطيد عادات التعاون بينها . وقد نجم عن جهود المنظمة الاوربية للتعاون الاقتصادي ، في تموز ١٩٥٠ ، **الاتحاد الاوربي للمدفوعات** فقد وضع نظامـاً نقدياً ماهراً يساعد الجميع على المشاركة في شبكة مبادلات متعددة الجوانب . وأصبح بامكان المبادلات التجارية منذ الآن ان تتم خـلال « تقاص » اوربي دون انـ يوازن كل بلد في كل مرة ميزانه مع البلد المصدر . وهذه الفكرة ، ككل الافـكار تقريباً ، التي تحققت في تلك الآونة ، كانت قد اقترحت من قبل **الحركة الاوربية** ، وقد عرفت هذه الحركة عصر نفوذها الكبير ، وتواجد أفولها مع افول **مجلس اوربه** .

ميلاد « أوربا الصغرى » . وكـسنة ١٩٤٧ ، جابهت سنة ١٩٥٠ قضايا مباشرة لايمكن ان تكون حلولها الا اوربية . وكانت القضية المركزية فيها قضية المانيا .

فقد قطعت مرحلة اولى . وبعد صهر المناطق الغربية الذي لم تقبل به فرنسا الا مكرهة ، ونهضة الاحزاب السياسية والادارة البلدية (القومونية) ولدت الجمهورية الاتحادية . وعندئذ ، دخلت المانيا من جديد المسرح الدولي، وبدا مستشارها الاتحادي، الدكتور كونراد ادیناور ، رئيس الحكومة ، منذ ٢٠ ايلول ١٩٤٩ ، نصيراً مؤمناً بالتحالف الغربي ومدافعاً متحمساً عن حقوق بلاده معاً . ولاشك في ان زعيم المعارضة الاجتماعي الديموقراطي الدكتور **كورت شوماخر** ، كان يتهمه بأنه « **مستشار الحلفاء** » ، ولكن السياسة الخارجية الالمانية في الواقـــع ، لم تخرج ابداً عن خط سلوكها : « المســاواة في الحقوق » والاتحاد الأوربي . وقد اعطت سنوات الـ ٥٠ الدليل على ذلك .

وكان يقصد في المقـام الأول ، نظام الرور . ومباشرة بعد انهيار هتلر ، حاول المحتلون الاميركيون تجزئة التجمعات المالية الكبرى . فلم ينجحوا في ذلك الا قليلاً .

ثم كلفت لجنة حليفة بمراقبة تسيير المشاريـع الصناعية والتجارية . ولم تتلق تعليمــات واضحة ، ولايعلم احد اتباع اي سياسة . وبدأ بالتدريج فراغ وعدم يقين ظاهر . ومن جديد ، فرض الحـــل الاوربي في الفراغ ، في الوقت الذي كان فيه مجلس اوربه في مأزق .

ومن جديد ايضاً ، جاءت المبادرة من باريس . ففي ٩ ايار ١٩٥٠ عقد روبير شومان ، وزير الشؤون الخارجية الفرنسي مؤتمراً صحفياً طرحت فيه فكرة منظمة فوقمية ، فرنسية — المانية في البدء ، في نطاق الصناعة المعدنية والفحم ، على ان يوضع هذا الحاصلان المفتاحان تحت رقابة محكمة اوربيه ، بشكل لايمكن ان يفيدا فيه كأداة لسياسة عدوانية . وهكذا

فان كل فكرة خلاف بين الشعبين المتعاديين منذ زمن طويل ، أصبحت « غير مفكر بهـا » ؛ ودعيت شعوب أوربية أخرى الى الالتفاف حول هذا التجمع الفرنسي — الالماني . وبالفعل فان بلاد البينيلوكس الثلاثة وايطاليا ماعتمت ان لحقت بفريق المفاوضين المكلفين باعداد معاهدة

ولم يكن القصد من هذا مطلقاً مناورة مناوئة لبريطانيا ، كما اعتقد بعضهم فيما وراء المانش ، ولكن شومان أفاد من نتائج الاخفاق النسبي لمجلس أوربة ، لأن قافلة ستراسبورغ تقدمت بوتيرة بطيئة كثيراً ، حتى أن الجريئين أكثر من غيرهم تخلصوا منها بالتقدم بصورة أسرع . ومن جهة أخرى ، ان خطة شومان لا تقدم مطلقاً صورة أولى دستورية نظرية كما زعم في لندن : بل تقبل بأن التعاون بـين الحكومات يجب أن يتم في حدود ضيقة . ولا شك في أن ادخال سلطة فوقيـة كان يعادل ثورة صغيرة في الأفكار ، ولكن التطبيق ظل ذرائعياً . وأخيراً ان الخطة لم تشأ أن تحيي « كارتل الفولاذ » الذي كان قبل الحرب ، لأن قسما من اليسار كان يخشاه . بل ادخلت رقابة عامـة على سير الأسواق الصناعية .

كان المشروع عمـل رجلين يتمم أحدهما الآخر : جان مونيه و روبير شومان .

وتم اعداد المعاهدة وتصديقها بسرعة . ومنذ ١٩٥٢ ، اقيمت سلطة عليا ، وجعل مقرها بعد مناقشات شاقة في لوكسمبورغ وترأسها جان مونيه نفسه . ولأول مرة تقوم تجربة فوقية بدافع من هيئة يتعهد فيها الاعضاء التسعة بالا يتلقوا أي تعليمات من جانب حكومة من الحكومات .

ومع ذلك ، فان المبدأ الفوقي لم يطبق حتى النهاية . وبينما كان

يتساءل ، في البدء ، ما إذا كانت الأسرة الاوروبيـــة للفحم والفولاذ ستحتاج إلى مجلس وزراء قوميين ، فقـد آل الأمر إلى التسليم بهـذا الامتياز . وفي الواقع ، دعي هـذا المجلس لأن يلعب دوراً له نفوذه تدريجياً ، إلا أنه وجد ، فيما بعد ، بأنه من السابق لأوانه أن يعهد بوظيفة ذات سيادة إلى هيئة « أوروبية » . وقد برهنت على ذلك أزمة الفحـم عام ١٩٥٨ : ففي حالة الوفرة لا يكون التعبير الفوقمي من القـوة ما يجعله يمنع الايطاليين من أن يتمونوا من المنتـج الارخص من غيره ، امريكا .

ولكن لا يمكن بعد التنبؤ بمثل هذا التطور في ١٩٥٢ ، « السنة الذهبية في أوربه » ، لأن الأسرة الاوروبيـة للفحم والفولاذ لم تدخل في العمل فحسب ، بل اسرة دفاع يبدو أنها في طريق صالحة . ولم تقتصر على الصعيد العسكري بل ضمت أكثر من ذلك مبدأ اتحاد سياسي .

وبالفعل ، وضعت القضية العسكرية بشكل فج في سياق صيف ١٩٥٠، عندما اجتاح الكوريون الشماليون كوريا الجنوبية : فلارسال فرق إلى كوريا كان يجـب كشف « الجبهة » الاوربية ، وفي هـــذه الظروف طلب الوفد الاميركي في منظمة شمال الاطلسي ما إذا كان بالامكان بعد السماح لألمانيا بالا تشارك بالدفاع الغربي .

إذن فالحالة قد تغيرت ! لأن القصد ليس في معرفة ما إذا كان الألمان يمكن أن يستأنفوا استعمال السلاح : بل كان يجب معرفـة ما إذا كان الدفاع النافذ القوي ممكناً دونهم ! ومن جهـة أخرى ، ان المعجزة الاقتصادية في الجمهورية الاتحادية تعود جزئياً في الواقـع إلى أن ألمانيا لم يكن لها موازنة عسكرية ، وأن كل شبابها يمكن أن يساهموا في النشاطات الصناعية دون أن يدعوا إلى خدمة العلم .

ومع ذلك يجب تقديم الأشياء المزعجة تحت ظواهر ملائمة إلى ارادة الجمهور الحليف . لأن بعث الفيرماخت (الجيش الألماني) بدا غير مقبول ، ولذلك أوحي بالا يعاد تسلح « المانيا » بل « الالمان » في نطاق أسرة الدفاع الأوربية . وأعد الخطة الاولى رونيه بليفين رئيس مجلس الوزراء : و بـ ٣٧٨ صوتاً مقابل ٢٢٤ نال موافقة المجلس الفرنسي (٢٤ تشرين الاول ١٩٥٠) الذي أشار بأن الجيش الالماني يجب ألا يعاد تشكيله بأي حال من الاحوال ؛ وبأن الدمج الاوربي يجب أن يتحقق بأخفض مستوى ممكن . وبدأ اعداد المعاهدة .

وكانت هذه المعاهدة موضع جدل حاد . ونادرة كانت الدول ، مثل بلجيكا واللوكسمبورغ ، التي لم تلق فيها حماسة أو معارضة .

وترددت البلاد المنخفضة في الارتباط بتجمع قاري لا تشترك فيه بريطانيا العظمى . ولذا فان حكومة لاهاي لم ترسل الا مراقبين للمفاوضات . ثم اقنعت نفسها ، وشاركت بملء الحق وتم التصديق على المعاهدة بسرعة .

وظهر قليل من الصعوبات ، أيضاً ، في الجمهورية الاتحادية ، رغم معارضة الاجتماعية ـ الديموقراطية ، التي كانت تجمع الحجج السلمية والقومية ، ومعارضة الجناح المناوىء للعسكرية في الديموقراطية المسيحية ، بالهامها البروتستانتي . ولكن التصويت النهائي في البندستاغ لم يدع مجالاً للشك : لان الديموقراطيين ـ المسيحيين والاحرار كانوا يحتفظون فيه بأكثرية متينة .

في ايطاليا ، بدأ بعض الالتباس يسود . لان القضايا القومية وخاصة قضية « الارض الحرة » في تريستا ، كانت تسحر الرأي العام أكثر من بناء أوربة . وأكثر من ذلك ، ان سنوات الـ ٥٠ الاولى شهدت أفول نجم رجل الدولة الذي ظل حتى ذلك الحين زعيم الديموقراطية

المسيحية ، وزعيم الامة وبطل الفكرة الاوربية : آلسيد دوغاسبيري. ففي ١٩٥٢ اعتلت صحته وجنب عن الحكم.

وفي فرنسا ظهرت الصعوبات الخطيرة . ففي قسم من الرأي ، ظلت اعادة تسليح المانيا (أو الالمان) غير مقبولة ، وبخاصة إذا رفضت بريطانيا العظمى مساندتها العسكرية ، وهذا ما كان رغم الكلام الطيب. وكان من الصعب على كثير من الفرنسيين أن يقبلوا ذوبان الجيش مع جيش الامم الاخرى . وفي الحقيقة ، بعد وفاة ستالين ، في آذار ١٩٥٣ ، هل كان الخطر السوفياتي موجوداً ؟ وثالثاً ، ان الدعم القوي الذي اعطته الولايات المتحدة للمعاهدة لم يكن له نتائج ملائمة بخاصة . فقد كانت المناوءة للاميركانية تسلك طريقها من قبل ، وكان كثير من النواب الفرنسيين يشركون رفضهم للجيش الاوربي بارادتهم في الاستقلال حيال الولايات المتحدة . وأخيراً ، دخلت الجمهورية الرابعة في دور حيرة قلما يناسب القرارات الجريئة .

وفي جلسة ٣٠ آب ١٩٥٤ عرضت المعاهدة ولكن لم تدافع عنها حكومة مانديس فرانس . وشعر « الاوربيون » ان المناخ غير ملائم فاكتفوا بكفاح الشرف . واقترح التأجيل « إلى أجل غير مسمى » وانتهى بضم أكثرية غير متجانسة .

وهذا التصويت النهائي (٣١٩ صوتاً ضد ٢٦٤) بدا أكثر خطراً على الدمج الاوربي لان المعاهدة كانت تضم المادة ٣٨ ، التي ادخلت بناءً على طلب آلسيد دوغاسبيري ، وتنص على ضرورة وحدة سياسية . وكان هذا طبيعياً ، لاننا إذا تصورنا دولة بدون جيش ، فان العكس غير قابل للتصور .

وبالتكيف مع هذا المنطق ، قرر الوزراء الستة ، في ايلول ١٩٥٢، أن يعطوا بداية تنفيذ للمادة المعنية . واستبقوا التصديق وطلبوا الى « الجمعية العامة » للأسرة الاوربية للفحم والفولاذ أن تعد مشروع اتحاد سياسي . وبالتالي تحولت الجمعية إلى جمعية « مختصة » - في الواقع ، إلى جمعية تأسيسية أوربية مسبقة . وتحت رئاسة هينريك فون برنتالو ، اعدت وثيقة قدمت بعد ستة أشهر . وفي آذار ١٩٥٣ كان الاستقبال بارداً نسبياً ، وختم الفصل برفض أسرة الدفاع الاوربية في ١٩٥٤ .

حلول البدل والسوق المشتركة . - إن أكثرية المجلس القومي الفرنسي ، الذي جنب أسرة الدفاع الاوربية كان غير منسجم جداً ليعرف اختياراً . فقد كان القصد ، من جهة ، الجري وراء العاجل بسد الثغرة ، ومن جهة أخرى إعادة التفكير بالقضية الاوربية .

كانت القضية الاولى المباشرة قضية اعادة التسلح الالماني . حقاً ، لقد اطرح التعبير الفوقمي ، ولكن كثيراً لاحظوا ، في غضون ذلك ، ان الاميركيين لم يخطئوا في طلب الاسهام الالماني في الدفاع الغربي . وبالتالي ، دخلت الجمهورية الاتحادية في منظمة شمال الاطلسي كدولة ذات سيادة : وهذه الخاتمة غير القابلة للتصور قبل عامين فرضت الآن . وأثناء مفاوضات أسرة الدفاع الاوربية رفض آديناور أن يدخل مواطنيه بين القوات الاوربية كنوع من « جوقة أجنبية » وكان من الصعب عدم اعطائه حقاً بذلك . أما الآن الا يمكن إدخال بريطانيا العظمى في القضية ، كمعدل إلى ألمانيا ، واعطاؤها هذه الضمانات العسكرية التي رفضتها إلى الجيش الاوربي ؟

هذا هو الحل الذي بحث عنه الرئيس مانديس فرانس : قليل من الفوقمية ، ولكن كثير من المشاركة الانكليزية . وكللت جهوده بالنجاح .

ومنذ خريف ١٩٥٤ ولدت اتفاقات لندن وباريس مؤسسة جديدة وهي : اتحاد اوربة الغربية ، وهو توسيع للاتحاد الغربي القديم ، الذي نشأ نفسه ، في العام ١٩٤٨ ، عن ميثاق بروكسل . واشتركت به المانيا الاتحادية وايطاليا ، على حين أن البريطانيين تعهدوا بأن يحتفظوا على القارة بأربع فرق والقوة الجوية الثانية التعبوية .

ولم يلعب اتحاد اوربة الغربية دوراً هاماً . حقاً ، إن مجلسه كان الوحيد الذي يستطيع النقاش في القضايا العسكرية . لأن هذه القضايا وجدت خارجاً عن اختصاصات مجلس أوربة (وفي الواقع ، لقد لامسها هذا المجلس في ١٩٥٠ تحت صدمة المأساة الكورية) . ولكن كل مناقشاته ظلت افلاطونية ، لأن العنصر القومي ما دام غير موجود ، فمن غير الممكن اتخاذ أي قرار . وقد لوحظ ذلك ، في عام ١٩٥٧ ، عندما بدلت الحكومة البريطانية سياستها العسكرية ؛ فقد أرادت أن تتصرف بأولوية إلى تشكيل قوة قومية ضاربة ، فأنقصت جنودها « التقليديين » وسحبت قسماً من قواتها المرابطة على القارة ، واحتج مجلس اوربة الغربية ، ولكن فصاحته ظلت دون مفعول . ومن جهة ثانية ، إن قضية السار ، التي ظن أنها حلت في النطاق الاوربي ، وضعت من جديد .

وبعد الحرب ، قام الفرنسيون بضم اقتصادي لهذه البلاد التي لا يمكن أن تنفصل دون خسارة كبرى لحوض اللورين . وفي البدء ، لم يجد أحد شيئاً يقوله ، حتى ولا الساريون ، الذين وجدوا فوائد بربطهم بفرنسا أكثر من الفوضى الالمانية في « سنوات الصفر » . ولكن كلما كسبت الجمهورية الاتحادية وجاهة وازدهاراً ، تبدلت الحال . وبعثت الوطنية الألمانية وظهر أن السياسة الفرنسية في وضع اليد ستبرر بصعوبة أمام المانيا الوليدة من جديد . لذا ينبغي البحث عن حل أصيل . وعرضت أوربة

هذا الحل . ولماذا لا تحول السار إلى « منطقة اتحادية » للاتحاد المزمع انشاؤه والشبيه بما كانت عليه « واشنطن .D. C » في الولايات المتحدة ؟ وفي ١٩٥٢ ، اتفق جميع المعنيين على قبول هذا الاتجاه .

وبعد ٣٠ آب ١٩٥٤ أعيد الاتهام تحت شكل « البداية السارية » . ففي تشرين الأول ، درس القضية المستشار آدينـاور والرئيس مانديس فرانس وقرروا عرض الاختيار على الشعب الساري : « النظام الاوربي » ، أو الارتباط بالجمهورية الاتحادية .

والواقع ، ان القضية وضعت بشكل سيء . وماذا يمكن أن يعني « النظام الاوربي » في الوقت الذي اطرحت فيه فرنسا معاهدة الوحدة الاوربية ؟ وفي استفتاء تشرين الاول ١٩٥٥ صوت ثلثا الساريين للعودة إلى الوطن الأم .

وهكذا ، حلت قضيتان مباشرتان بشكل صالح أو سيء . وبقيت القضية المركزية : اوروبة ، فمن الذي يقوم بمبادرة جديدة ؟ حتى الآن كانت فرنسا تقوم بذلك ، ولكنها في هـذه المرة لم تقم بأي حركة . وجاء الاقتراح من البينيلوكس ، وقـــد ألف وزراء الخارجية الثلاثة فيه فريقاً منسجماً بصورة خاصة : فقد كان جوزيف بيش اللوكسمبورغي ، يمارس وظيفة شبه رسمية وظيفة عميد السلك الدبلوماسي الاوربي ؛ وزميله البلجيكي ، بول ـ هنري سباك وكان أوربياً محنكاً ؛ والهولاندي جان ـ ويلّم بيين وقد أتى بتجربته في الاقتصاد الدولي . وهذا الامر لا مندوحة عنه ، لأن « النهوض الاوربي » يجب أن يحدث في المضمار الاقتصادي .

وكان وراءهم « قوة خلفية » تعمل : جان مونيه . فقد كافح

هذا بشدة في سبيل وحدة الدفاع الاوربية . ثم خسر المعركة ، فتصور أن « النهوض الاوربي » يمكن أن يحدث انطلاقاً من الوحدة الاوربية للفحم والفولاذ : ويكفي لهذا أن تخوله الحكومات الست صعيداً لنشاط أوسع ، وبخاصة في ميادين الطاقة الصناعية الأخرى . ولم تؤخذ هذه الاقتراحات بعين الاعتبار ، واستخلص رئيس السلطة العليا نتائج هذا الرفض ، واستقال في ١٩٥٥ .

ولم يكن هذا منه ليأخذ تقاعده ، بل انه على العكس انصرف بالحال إلى العمل لينشىء فريقاً جديداً ، بلجنة العمل للولايات المتحدة الاوربية . وهذه المنظمة لا تضم إلا زعماء الأحزاب السياسية ، ومراكز نقابية وجموع أرباب عمل ، في الحد الذي يستطيعون فيه الزام الرابطات (المنظمات) التي يقومون بأعبائها . وبتعبير آخر ، ان الذروة المسؤولة للطبقة الموجهة ، في السياسة ، أخذت شكلاً اوربياً .

وقد لعبت « لجنة مونيه » دوراً حاسماً وربما يكون قاطعاً في اعداد الوحدة الاقتصادية الأوربية والتصديق على معاهدة روما . وبفضلها ، وبقسط كبير ، كفت الاجتماعية — الديموقراطية الألمانية عن معارضتها للدمج الاوربي كما طبقته حتى الآن بدافع من كورت شوماخر . حقاً ، إن هذا التوجيه الجديد قد سهل بظروف موضوعية . ان سيادة الجمهورية الاتحادية لم تكن موضع نقاش أكثر ، على الاقل ، من سيادة البلاد الأخرى . فلقد انتهى نظام الاحتلال ، وسويت قضية السار . وأخيراً ، هذه المرة ، لم يكن القصد اعادة التسلح ، بل الدمج الاقتصادي .

وفي الأيام الاولى من حزيران ١٩٥٥ ضم مؤتمر الوزراء الستة في مسينا ، في الدائرة الانتخابية لزميلهم الايطالي غيتانو مارتينو . وفي

ختام المناقشات أذيع بلاغ يعلم بأن المشاريع الثلاثة قد احتفظ بها وهي : الوحدة الاقتصادية الأوروبيـــة أو السوق المشتركة المعممة ، والوحدة الاوربية للطاقة الذرية ، والجامعة الاوربية التي سيكون مقرها في فلورنسا . وان لجنـة ستشكل لاعداد المشروع الأول ويرأسها بول — هنري سباك .

وشرع الخبراء بالعمل مباشرة . كانت القضية معقدة لأن المعاهدة ، على كل حال ، يجب أن تكون مقبولة من فرنسا: وتمّ اخفاق اوربي جديد في قصر بوربون (مجلس النواب في باريس) يمكن أن يعادل اخفاقاً قطعياً . ومع ذلك فان هذا الاحتراز لم يظهر فقط ببنود تهربيـة . بل أغنى المعاهدة أيضاً ، وخاصة في نقطتين :

أولاً ، إن الصناعة الفرنسية وضعت شرطاً أولياً : وهو أن يقبل الزملاء الخمسة المبدأ الذي يسود في فرنسا : وهو الأجرة المتساوية للرجل والمرأة . حقاً ، إن النص النهائي لم يحتو هذا المبدأ ، ولكن تعهداً أخـذ بالاتجاه الى تطبيقه .

وأهم من ذلك أيضاً أن الوفد الفرنسي لفت انتباه زملائه الى ما وراء البحار . فقد حصلت بعض المستعمرات القديمة على استقلالها ، وأخرى كانت على وشك الحصول عليه . ولذا فمن اللامعقول بأن تعطي الوحدة لنفسها تعرفة خارجية مشتركة تقطع الروابط الاقتصادية بين فرنسا وهذه البلاد. ومن هنا أتت فكرة الرابطة العضوية بين الدول الست وافريقية الناطقة بالفرنسية . وفي الواقع ، لقد خصص فصل كامل في المعاهدة يعطي عدة فوائد إلى هذه البلاد المتطورة : مساعدة مالية اوربيـة للتنمية ، افتتاح السوق الافريقية للتجارة غير الفرنسية ، وامكانيـــة الشركاء بأن يحموا صناعاتهم الناشئة — وبالمقابل ، فتح السوق الأوروبية لمنتجات افريقية .

لقد وضعت البنيات التنظيمية للوحدة الاقتصادية الاوروبية لتكون أقل « فوقية » من البنيات التنظيمية للوحدة الاوروبية للفحم والفولاذ . والواقع ، مع ذلك ، ان اللجنة الاوربية (لم تكن السلطة العليا موضع بحث) كان لها الحق باتخاذ جميع المبادهات : حتى ان هذا الامر كان وظيفتها الأساسية . وكان على مجلس الوزراء أن يفصل في الأمر ، ولكنه لا يستطيع تبديل اقتراحات اللجنة إلا بالاجماع . وبينا فهم نظام الوحدة الأوروبية للفحم والفولاذ وتصور حول مبدأ فوقمي ، انطلق نظام السوق المشتركة من التعاون الضروري بين المصالح القومية ومصالح أوروبة . ولا يبدو منذ الآن مجلس الوزراء كبقية باقية من الماضي ، بل كهيئة عادية من شأنها أن تسهم في مرحلة اتخاذ القرارات . وميزة هذا التعبير أنه كان واقعياً .

وإلى جانب السوق المشتركة وجدت لجنة الطاقة الذرية الاوروبية (الاوراتوم) . وقد انطلق المحركون لهذه الأسرة الأخيرة من الفرضية القائلة بأن التوسع الصناعي الاوربي سيكبح بعد قليل بنقص الطاقة . ولذا فعلى الاوربيين أن يضموا بسرعة جميع الجهود ليحركوا الاستعمال الصناعي للطاقة الذرية . وقد أصبح أحد « العقلاء » الثلاثة ، لوي آرمان ، أول رئيس للاوراتوم ، وقدم تقريراً بهذا الأمر . ولم تعرض النتائج على الرأي . وكما في الوحدة الاقتصادية الاوربية حصلت الموافقـــات على الاوراتوم دون صعوبات كبرى (في فرنسا ، في ٤ ايلول ١٩٥٧ ، من أجل معاهدتي روما) .

وفي سياق هذا الدور ، تناقص دور الحركات المناضلة من أجل أوروبة . وكان لهذه الحركات ميزة في أنها لم تطلق الفكرة الاوربية بعامة فحسب بل أطلقت عدة مشروعات ، مثل محكمة حقوق الانسان ،

والاتحاد الاوربي المدفوعات ، والحل الاوربي للقضية السارية ، ولحد ما ، الأسرة الاوروبية للفحم والفولاذ . وكانت على حق في الالحاح على حدود طريقة المفاوضات بين الحكومات . ومارست في مجلس أوربة نفوذاً ملموساً . وأخيراً ، أثناء معركة وحدة الدفاع الاوربية واعداد الاسرة السياسية ، دافعت بشدة عن مبدأ ميثاق اتحادي . ولكنها ، في الحاضر ، لم تعد في نضال مباشر على الحوادث . لقد أصبحت القضايا فنية جداً ، حتى ان سقوط وحدة الدفاع الاوربية أثار انفصالاً في المنظمات الاتحادية .

وبالمقابل ، عاد الدور الهام شيئاً فشيئاً إلى النظم (المؤسسات) والمنظمات المسلكية أو الاختصاصية الناشئة على هامش الحركة الاوربية ، مثل المركز الاوربي الثقافي في جونيف ، ومعاهد الدراسات الاوربية مثل كلية اوربة ، في بروج ، والرابطة الاوربية لرجال التعليم واليوم الاوربي للمدارس . ولكن كل واحد منها كان يمد نشاطه في نطاق اوربي أوسع من نطاق الست . وفي الواقع ، حسب كلمة شهيرة ، أليست أوربة الثقافية « دون شواطىء » ؟

أوربة : الغولية والدمج . — تتميز السنة ١٩٥٨ بحادثين ينبغي التساؤل ما إذا كانا متكاملين أو متناقضين من جهة وضع نظام للوحدات : فقد شكل أعضاء اللجنتين مكاتبهم في بروكسل ، مقر الوحدة الاوربية الاقتصادية والاوراتوم ، وقسموا أعمالهم فيما بينهم وجابهوا القضايا المباشرة الموضوعة ، وبخاصة فيما يتعلق بالعلاقات مع بريطانيا العظمى . ومن جهة ثانية ، تداعي الجمهورية الرابعة الفرنسية ، التي فاوضت في معاهدة روما ، والاستعاضة عنها بنظام رئاسي بوجهه الجنرال دوغول .

وعندما نوقشت السوق المشتركة في المجلس الوطني الفرنسي ، عارض

الغـوليون وتفوهوا بكلام مر عن « أوربه مونيه » . وبالتـالي ، كان القلق عظيماً بين الاوربيين ، عندما خلفت الجمهورية الخامسة النظام الذي سقط . ومع ذلك ، فان هذا التشاؤم قد كذب بسرعة ، لأن الحكومة الجديدة أعلنت بأنها تشرف التوقيـع الفرنسي في أسفل معاهدات روما . وقضت بأن الاقتصـاد الفرنسي كفؤ بالتماسك أمـام المنافسة الخارجيـة ، واعتبرت نظام الحماية الجمركية ، حل الكسل ، لا يليق بفرنسا . وبهذه الروح وجد أن التنقيص الاول ١٠ ٪ للتعرفات الجمركيـة ، الذي وضع ليطبق في الاول من كانون الثاني ١٩٥٩ ، أصبح ممكناً بفضل الحكومة الفرنسية . ولم تستخدم الحكومة الفرنسية البنود التهربية التي حصل عليها الوفد الفرنسي أثناء المفاوضات ، بل قامت بثورة صغيرة مالية في كانون الأول ١٩٥٨ : فقـد خفض الفرنك وجعل قابلاً للمبـادلة مع الجنيه الاسترليني . وفتحت الابواب والنوافذ . ولا شك في أن نفـوذ الرئيس انطوان بينيه ، وزير الشؤون الاقتصادية وجاك رويف كان قاطعاً .

وقد اثارت هذه التدابير الشدة والذعر تقريباً فيما وراء المانش . وهكذا ستسير الوحدة الاوربية الاقتصادية وتعمل بحق . وحتى الآن كان الانكليز لايصدقون ، ولكنهم تحققوا بأن الدمج القاري سيتم هذه المرة بشكل رصين . وفي المرحلة الأخيرة ، اثناء صيف عام ١٩٥٨ ، عملوا كل شيء لئلا يتحقق هذا « الحصار القاري » كما كان يسمي بعضهم ايضاً الوحدة الاقتصادية الاوربية . وخلال أشهر طويلة فاوضوا بمنطقة واسعة للمبادلة الحرة تزول فيها الحواجز الجمركية دون ان توضع تعرفة خارجية مشتركة لاتتفق مـــع مبدأ التفضيل الامبراطوري . ومن المحتمل ان مثل هذا الاقتراح يمكن ان يظهر جريئاً في مجلس اوربه في عام ١٩٤٩ ، ولكن

التطور الوحدوي تجاوزه بعد تسع سنوات ، وبالتالي ، ان هذه المفاوضات التي كان يقوم بهـــا ريجينالد ماودلينغ من اجل بريطانيا العظمى (وتحمل اسمه) اخفقت أمام مقاومة أرباب العمل والحكومه الفرنسية .

وبعد ان تحملت انكلترا هذا الاخفاق تصورت حلاً « بديلاً » . ففي ١٩٥٩ ، ارتجلت منطقتها « الصغيرة » للمبادلة الحرة والرابطة الاوربية للمبادلة الحرة التي وقـــع ميثاقها في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٥٩ في ستوكهولم . ولكن هذه الرابطة الاوربية للمبادلة الحرة لم يكن لها تماسك الوحدة الاقتصادية الاوربية ، ولاتؤلف كتلة متجانسة سياسياً وموحدة جغرافياً : فقد اشتركت فيهـــا ثلاثة بلاد اسكاندينافية ديموقراطية : الدانيمارك ، النرويج ، السويد ، الى جانب البرتغال المناصرة للفاشية . ومن جهة أخرى كانت البلاد الاعضاء في حلف الاطلسي الى جانب دول غير أعضاء فيه : السويد الآنفة الذكر ، سويسرا والنمسا . وعدا ذلك ، اذا أثارت نزع السلاح الجمركي على وتيرة مساوية لوتيرة الوحدة الاقتصادية الاوربية والرابطه الاوربية للمبادلة الحرة فهي لاتتطلع لا الى سياسة مشتركة ولا الى تعرفة خارجية مشتركة . وهل كان ممكناً فتح الحدود دون تشكيل وحدة . ولا اقل من ان الرابطة الأوربيه للمبادلة الحرة بدأت بخفة واعطت اندفاعاً حقيقياً الى تجارتها الداخلية .

وبالتالي ، وفي بضع سنوات كان النقاش الاقتصادي الاوربي يتعلق خاصة بالعلاقات بين هاتين « الكتلتين » الست والسبع حتى اللحظة التي اعلم فيها الوزير البريطاني الأول ، في صيف ١٩٦١ ، عن قرار حكومته في الدخول بمفاوضات مع السوق المشتركة ، بغية الاشتراك فيها . اما الرابطة الاوربية للمبادلة الحرة فقد عاشت الى هذه المرحلة ، ولـكن ظهر أن عضوها الرئيسي لايعتبرها كحل دائم .

ومع ذلك ، فان تشكيل الوحدة الاقتصادية الأوربية لم يضع قضايا البلاد الأوربية التي لم تكن اعضاء فيها فحسب ، بل ان انعكاسات حدثت ايضاً خارج اوربة . وفي الحقيقة فكر الاوربيون انهم ، بتنظيم اقتصادهم بشكل افضل ، انما يضعون النظام في دارهم الخاصة . غير أن احتجاجات ارتفعت من كل الجهات ضد « الجرم » الذي ارتكبته الدول الست . فقد جاء انسطاس ميكويان الى طوكيو واقترح حلفاً اقتصادياً روسياً - يابانياً ليجابه الخطر الاوربي . وفي امريكا الجنوبية ، في المؤتمرات القارية في بونتادل ايست ، كانت الاتهامات شديدة : فقد خشيت البرازيل بخاصة على صادراتها من القهوة المهددة بالافضلية التي يفيد منها الشركاء الافريقيون . وبالمقابل ، ان مثال الدمج الاوربي نشط ووجه جهوداً مشابهة بين الدول الايبرية - الاميركية . وآخيراً ، حتى في امريكا الشمالية ، حيث ما فتئت الحكومة تدعم جهود الاتحاد الاوربي ، أخذ القلق يساور النفوس . وفي ١٩٦٣ ، عندما بدأت اوربه تحمي نفسها ، ضد الغزو الكثيف للطيور المجمدة الآتية من الولايات المتحدة ، نشب خلاف تجاري ودخل التاريخ تحت اسم « حرب الدجاج » .

وفهم كل ذلك ابتداءً من اللحظة التي وضعت فيها التعرفة الخارجية المشتركة . ومع ذلك فقد حسبت هذه التعرفة بانخفض قليلاً من « الوسطي الحسابي » للتعرفات القومية الست (أو الخمس ، لأن الاتحاد الاقتصادي البلجيكي - اللوكسمبورغي كان يوجد من قبل) . وبالتالي ، ان البلاد ذات الحماية الجمركية بالتقليد ، مثل فرنسا وايطاليا ، خفضت رسوم الدخول ، ولكن البينيلوكس الذي يتعاطى المبادلة الحرة ، منذ زمن طويل ، وحتى المانيا ، وجدتا انفسها ملزمتين بزيادة العقبات امام وارداتها . وحدثت

اذن « توترات » في المبادلات . وتظلم المصدرون والمستوردون علناً . وعلى العكس ، ان من رأوا الآن منافذ جديدة احترسوا في الغالب من اعلان رضاهم .

وعلى العموم ، تدل الأرقام مع ذلك على أن التجارة الداخلية للوحـــدة إذا تقدمت تقدماً عظيماً منذ ١٩٥٨ فقد ازدادت ايضاً بين الست والعالم الخارجي بنسب أكثر تواضعاً ، ولكن واقعية . وإذا افادت الوحدة الاوروبية الاقتصادية ، في المقام الأول ، اعضاءها ، فان البلاد الأخرى لم تتضرر عموماً . ولاقت بعض المشاريـع الفردية صعوبات جوهرية ، واتفقت على الاعلام باتهام الوحدة بانها كانت مناصرة للحماية الجمركية .

وهناك حادث مماثل في داخل الوحدة ، حيث عبرت المصالح المتضررة بفصاحة . ومع ذلك ، كانت الصناعة الأوروبية ، بالاجمال ، مستعدة الى ازالة تدريجية للحواجز الجمركية . وفي كل مكان ، لم يكن المسؤولون مستعدين الى انقاص قريب للتعرفات ، حسب تقويم موضوع في المعاهدة ، بل في المرحلة النهائية عندما تصبح اوروبه مجالاً تجارياً وحيداً . وبسرعة بدىء بالتكيف ، وبالتجديد ، وبالبحث عن اتصال بالمشروعات الصناعيـة أو التجاريه الأخرى ، بغية الوصول الى تركيزات .

ومع ذلك ، بقيت هذه التركيزات دوماً شبه قومية . ولمجابهة المنافس الاوروبي التقليدي ، فضل كثير من الصناعيين البحث عن دعم برأسمال اضافي من الولايات المتحدة . وهكذا ، نظراً لفقدان سياسة صناعية اوروبيـة مشتركة (وبخاصة نظام اوربي للمشروع المتعدد القوميات) كان التسلل الاميركي تشجعه السوق المشتركة بشكل مناقض .

وهنا نلامس قضية اعم . فبينا كان نزع السلاح الجمركي سهلاً نسبياً ، في الوحدة الاوربية الاقتصادية كما في الرابطة الاوربية للمبادلة الحرة ، فقد كان على غاية من التعقيد تعريف وتطبيق سياسة مشتركة تُصَعِّدُ ، بالتعريف ، كفاءة الحكومات القومية . وهكذا انتهى التجاري الى السياسي . وفي هذا الموضوع وجد الرئيس دوغول على اتفاق أساسي مع الأستاذ **والتر هالشتاين** ، الرئيس الأول للجنة الاوربية . فقد لاحظ كلا الاثنين ان انشاء اوربة المتحدة في الأمور الاقتصادية والاجتماعية لايؤلف قضية فنية بل سياسية . وكما قال هالشتاين في الولايات المتحدة : « نحن في السياسة لا في العمل » لانقوم بأعمال اقتصادية (انتاج ، بيع ، الخ . .) بل توحد تسييرات قومية . ونتج عن ذلك نقل مسؤوليات من المستوى القومي الى مستوى اوربه . وهذه نتيجة استخلصها رئيس اللجنة دون تردد ، على حين ان الجنرال دوغول كان يوضح بأن الحكومات القومية وحدها تستطيع ان تفصل في القضايا ولاينبغي للجنة ان تدعي بامتيازات سلطة تنفيذية اوربية .

ومع ذلك ، في الواقع ، كان النقل غير قابل للاجتناب في اكثر من مضمار . فعندما دافعت فرنسا عن مبدأ مكافأة متساوية بين العمل المذكر والمؤنث كانت تنزع سلفاً الى ربط رفقائها الذين ، بالتالي ، يجب الا يبقوا احراراً في سلوك سياسة اجتماعية تتناقض مع هذا المبدأ . وكذلك ، كل قرار في المادة الصناعية او الزراعية يوشك أن تكون له نتائج في ميادين اخرى ، وبخاصة ، ضريبية ونقدية ، حتى ان الحكومات والبرلمانات القومية تفقد تدريجياً حرية عملها في هذه القضايا . ولا يوجد غير ذلك من اجل السياسة التجارية والمساعدة للبلاد الافريقية الشريكة .

ومنذ الآن فصاعداً ينبغي على الحكومات أن تأخذ « بروكسل » بعين الاعتبار .

وكان هذا حقيقياً بخاصة بالنسبة للزراعة التي أصبحت ، على نقيض الصناعة ، مشروعاً عاماً ، لأنها ، بسبب ارباحها ، تتعلق بسياسة الحكومة في مادة المساعدات او ضمانات الأسعار . وهنا لايمكن الاكتفاء بفتح الحدود : بل يجب تثبيت سلطة (سلطة اوربية) خط سلوك يقبله الجميع ، ويصبح اجبارياً عند تقريره .

وكانت فرنسا ، بخاصة ، تهتم بهذه السياسة الزراعية المشتركة ، على حين ان جمهورية المانيا الاتحادية كانت تخشى المنافسة الاجنبية ، وبالتالي ، تطالب بأسعار بيع اعلى مما ترغب به رفيقاتها . وكذلك قام جدل رصين بمناسبة تمويل المال الاوربي للتوجيه والضمان الزراعي . ويتغذى هذا الرأسمال باقتطاعات تفرض على البلاد المستوردة للمنتجات الزراعية الخارجة عن الوحدة وتفيد في تمويل عمليات تحسين الانتاج . وبفضل اتفاقية واقع بين الحكومة الفرنسية واللجنة (وعلى وجه التخصيص مع العضو المكلف بالسياسة الزراعية ، الهولاندي سيكو مانشولت) استطاعت السوق الأوربية المشتركة أن تتألف في هذا المضمار ، حتى ان الدمج الاوربي هنا على الاقل قرب من المرحلة الاتحادية .

ولم يكن الامر بشكل مغاير جداً للسياسة التجارية الخارجية ، حيث جوبهت الوحدة الاقتصادية الاوربية بقضية تحتاج إلى حل على المستوى الاوربي . وفي الواقع ، في ٤ تموز ١٩٦٢ ، أعلم الرئيس كينيدي في فيلادلفيا ، حسب قناعته ، بأن دور الاستقلال ترك المكان إلى دور الترابط المتبادل ، وان الولايات المتحدة مستعدة إلى تخفيض تعرفاتها

الجمركية جذرياً ، بل إلى حذفها كلياً ، من أجل منتجات تشرف عليها امريكا والسوق المشتركة معاً وتعادل ٨٠٪ من التجارة العالمية : وفي الحقيقة ، لقد جرى هذا الاقتراح في وقت بدا فيه اشتراك بريطانيا العظمى بالوحدة الاوربية الاقتصادية ، محتملاً ؛ ومع ذلك ، وحتى بعد اخفاق مفاوضات بروكسل ، حافظ العرض على أهميته ولزم التفاوض . وفي ١٩٦٧ ابرم جان دي ، عضو اللجنة الاوربية ، اتفاقية في نطاق الاتفاقية العامة للتعرفات والمبادلة واستطاع أن يوقع باسم الوحدة بمجموعها . وهكذا ، وعلى الاقل على الصعيد التجاري ، استطاعت أوربه الست أن تلتقي بالولايات المتحدة مساواة الند للند ، وذلك بفضل دمجها . وفي الميادين الاخرى ، كما في النقليات والطاقة ، حصلت على نتائج أقل ارضاء ، ولكن السوق المشتركة ، على كل حال ، في سياق السنوات الأولى العشر من حياتها ، نجحت في فرض نفسها كياناً متجانساً زراعياً وتجارياً ، بعد حذف العديد من العقبات الداخلية .

وبقيت مع ذلك قضية سياسية رئيسية وهي : هل تتطور الوحدة الأوربية نحو تقنوقراطية غير مسؤولة تتخذ قراراتها بصورة سرية وضمن دائرة مغلقة ؟ وهكذا وضع مبدأ دمقرطة السوق المشتركة موضع تساؤل .

من جهة ، وجدت المجالس القومية موضوعة بالتدريج أمام الأمر الواقع في القضايا الأوربية . وكانت مدعوة دون انقطاع إلى التصديق على تدابير مقبولة ، وأحياناً بشقة ، في مناقشات في بروكسل . ومن جهة أخرى ، ان البرلمان الاوربي ، المؤلف من برلمانيين قوميين معينين في بلادهم لهذا العمل ، على نمط زملائهم في مجلس أوربه ، بدا

شيئاً فشيئاً كأنه « فورم » روما عوضاً عن أن يصبح فرعاً تشريعياً للوحدة . وما دام الحال كذلك فقد بدأ الغياب يسود في ستراسبورغ ، وأهملت ايطاليا زمناً طويلاً تجديد وفدها القومي الذي لا يتفق والحالة الواقعية للأحزاب السياسية .

وفي الواقع ، هنا عقدة القضية ، وليس بالامكان معالجة ضعف البرلمان الأوروبي بزيادة اختصاصاته ، مثلاً في مادة الموازنة ، وتبقى القضية الحقيقية في واقع ان الحكم القطعي في السوق المشتركة يبقى مجلس الوزراء ، وهذا المجلس يمكن أن يقوم بحوار مع اللجنة ، بل وان يبدي لها عدم ثقته ، ولكن الانتقادات الحقيقية توجه في الغالب إلى المجلس الذي يتخذ القرارات النهائية . ولكنه لا يسلك سياسة مشخصة . وهو باعتباره مؤلفاً من أعضاء ليس لهم ما يقدمونه إلا أمام مطالب قومية ، فيمكنه أن يجيء تسوية بين المصالح القومية المتنافسة . ولكن دوره ليس اعداد خط سلوك متلاحم الأجزاء بغية الدمج . وفي مرحلة لاحقة بعيدة جداً أيضاً ، ربما يشكل « مجلس شيوخ » ، « مجلس دول » من النموذج السويسري ، ولكن ليس في وسع البرلمان في الوقت الحاضر أن يسأله عن سياسته الجماعية : فليس له سلطة ولا إرادة في تعريف سياسة ما .

سنوات ١٩٦٠ : أزمات ومجادلات . — وكلما نمت الوحدة الاقتصادية الأوربية ظهر أن الدمج الاقتصادي والاجتماعي يتطلب تمديداً سياسياً . وما من أحد فهم ذلك أفضل من الرئيس دوغول . فهو يرى أن الفوائد المادية للسوق المشتركة ، وان كانت جوهرية بالنسبة لفرنسا ، أقل ثقلا من المسؤليات الجديدة التي تعرض للقيام بسياسة عالمية .

ولم تتواجد الرؤية الغولية لاوربه إلا جزئياً مع رؤيـة الأوربيين الآخـرين . وخـلال سنوات أخـذت هـذه الاختـــلافات بالتدريـج شكلاً حاداً .

ولنشر إلى أن هنالك ثلاث نقاط جدلية يتنازع عليها :

النقطة الاولى : لم تبين بتعابـــير واضحة . إلا أنهـــا لم تكن في أي لحظـة غائبة عن ذهن كل منهـم وهي : وضع فرنسا في السوق المشتركة . وعن خطأ أو عن صواب كان الانطباع في أن باريس تعتبر بصورة طبيعية عاصمة أوربه الجديدة .

وهذه النقطة ، بذاتها ، ليست غير معقولة ، لأن فرنسا توجـد في وسط الغرب الأوربي ، جغرافياً ومعنوياً . وبالتالي ، ان « الزعامة » الفرنسية قد يقبلها الخمسة الآخرون ، شريطـة إلا تذكر أبـداً ، وإلا يشعر بها . وفي الواقع ، استطـاع ووبير شومان أن يفرض نفسه ، بالرغم من الضعف الأقصى الذي كانت عليه الجمهوريـة الرابعة . أمـا شخصية الجنرال دوغول المتسلطة فقد أثارت مقاومات وترددات متزايدة .

النقطة الثانية تتعلق ببنية التعاون السياسي في المستقبل وبوضـــع الوحدات الموجودة في هذا الظرف . ولامرية في أن الرئيس دوغول قد رغب بالاتحاد السياسي ، وفكر في « كونفدراسيون عظيم » . ولكن من الحق أيضاً ، أن نقول انه رفض دومـاً كل طغيـان على السيادة القومية ، وفي هذا ما يتضمن تهديداً برد الوحـدة الاقتصادية الاوربيـه إلى الصواب .

ولقد كان الموقف الفرسي منطقياً من حيث المبدأ : إذ كان ينبغي أن يظل الدمج الاقتصادي ملحقاً بالقرارات السياسية . ولكن فرنسا فهمت بأن

هذه القرارات يجب أن تتخذها مؤسسة عليا ، يجب أن تزول في داخلها آخر بقايا « الفوقية » المزعومة .

وهذا الحكم يمكن الدفاع عنه أيضاً ، فمن الدولة التي تقبل بالحاق خط سلوكها بتصويتات أكثرية يكون « للاجانب » فيها القوة العددية ؟ ولا دولة في الحال .

ومع ذلك ، فقد فتح الجدل هنا ، لأن رفقاء فرنسا ، في نظرهم إلى ما وراء الحاضر ، رأوا في الوحدات شكلاً جديداً يؤثر على حياة الشعوب : وهو بداية اتحادية يحافظ كل شعب فيها على شخصيته القومية ، ولكن يجب أن يلعب فيها تدريجياً مبدأ الدمج . أما وأن هذا المبدأ طبق بكثير من الشدة في الوحدة الأوروبيه للفحم والفولاذ ، فذلك ممكن ؛ وان الاتحاد كان وحدوياً قليلاً ، وعلى الأقل في البدء ، فذلك أكيد . ولكن يجب الا يمس بأي حال ما قبل من طريقة شومان ، والا ترتب الوحدة الاقتصادية الأوروبية بتحالف تقليدي يصبح التصويت فيه قاعدة . ولكن كيف يمكن أن يعمل هذا النظام في التعاون السياسي؟ يمكن التنبؤ بأن الآراء ستنسجم عفوياً ، وحتى دون عمل ضغط من قبل الوحدة .

*واخيراً توضع قضية محتوى السياسة الأوروبيه المشتركة في المستقبل . وهنا أيضاً كان للايليزية أي لرئاسة الجمهورية الفرنسية آراء معروفة ومحددة جيداً : يجب على أوروبه ، على نمط فرنسا الغولية الموسعة أن تتعلم بالا تكون تابعة لأحد . ان الاميركيين يبقون ولاشك « حلفاء وأصدقاء » ، ولكن يجب أن يوضع حد ونهاية إلى تبعية أوروبه الحالية . أما البلاد الشيوعية ، فلم يكن لدى الرئيس دوغول في الحقيقة

أي نقطة ضعف لنظامهم . ولكنه يعتبر أن الايديولوجيات كالتغيرات التاريخية أقل أهمية من المصالح المستديمة لكل أمة . في الشرق ، يجب اذن فتح مفاوضات دون التأثر بمذاهب « مسبقة » أو بضغوط اميركية . وبهذا الاعتبار ، كانت وجهة نظر الرفقاء الخمسة مختلفة . ولا شك في أنهم كانوا يرغبون بوضع حد للحرب الباردة ، وبقطع شوط حيال الولايات المتحدة ، ولكن لهذا السبب بالضبط ، كانوا يرغبون دمجاً ملحوظاً وليس تحالفاً كلاسيكياً فقط . ومن جهة أخرى ، إذا كان عليهم أن يختاروا بين الهيمنة الفرنسية والحماية الاميركية ، وهي أكثر قوة وبعداً فانهم يفضلون هذه الأخيرة .

وفي الواقع ، إن هذه الترتيبات الثلاث في المناقشة قد وضعت في النقاش . فكيف يجري هذا النقاش ؟ في سياق « قمة » بون ، في ١٩ تموز ١٩٦١ ، تقرر أن يشكل اتحاد سياسي بين الستة . وان الاشكال المحسوسة والمشخصة لهذا الاتحاد ستدرسها لجنة وسيصل بها إلى شاطىء السلامة سفير فرنسا كريستيان فوشيه .

إن المشروعات الاولى ، التي أدخلها هذا الأخير وانتقدت بشدة من قبل البرلمان الاوربي ، أدت إلى أزمة حادة في كانون الثاني ١٩٦٢ ، وانتهت باخفاق في نيسان ، بعد أن حرر الرفقاء الخمسة مشروعاً مناقضاً في شروط طيبة ومناسبة وحسب الأصول . وكانت وجهات النظر غير متفقة على الأساسي والجوهر . فهل يجب اخضاع الوحدات الموجودة إلى اشراف سياسي اضافي ؟ وهل يجب الدلالة منذ الآن على مراحل نحو مستقبل أكثر فوقمية ؟ ومن جهة أخرى ، هل يجب أن يدخل في التوطئة (المقدمة) استمرار الحلف الأطلسي ؟ لقد اختلفت الآراء في جميع هذه الموضوعات .

وأمام اخفاق خطط فوشيه ، تصور الرئيس دوغول حلفاً وثيقاً مع الجمهورية الاتحادية كحل بديل . وقامت مفاوضات سرية ، وفي كانون الثاني ١٩٦٣ نشرت معاهدة حلف بين البلدين . فاستقبلت من جهة بأصوات الفرح (وأخيراً ستنتهي العداوة التقليدية !) ، ولكن من جهة أخرى ، أيضاً ، استقبلت بحذر من جانب الاعضاء الآخرين في الوحدة ، لأنهم كانوا يخشون « سيطرة مشتركة » بين الكبيرين .

وفي الواقع ، لم تكن هذه الوثيقة موعودة بمستقبل سياسي مؤثر أخاذ . فقد ظهر بعد ذلك أن الدولتين الموقعتين كانتا أبعد من أن تكون لهما نفس المصالح ونفس التطلعات . فقد رفض الالمان الاختيار بين الصداقة الفرنسية والحلف الاميركي . وكانوا ينظرون شذراً إلى التقارب بين باريس وموسكو ، ويخشون من أن تكون له نتائج سلبية على آمالهم في العودة إلى الوحدة القومية . وظلوا حيارى أمام الاعتراف بالصين القارية والقطيعة مع فورموزا اللذين قامت بهما فرنسا . وان ما كان يقلقهم في الواقع بخاصة هو أنهم لم يشاوروا في هذه النقاط ، ولم يخبروا ، وفي ذلك ما يذهب على نقيض المعاهدة روحاً ونصاً . وكذلك ، في داخل الوحدة الاقتصادية الأوربية ، كانت فرنسا والمانيا تحتلان في الغالب مواقع متعارضة ، مثلاً في الزراعة . وكان الجنرال دوغول ، من جانبه ، يستنكر توقيع بون على المعاهدة الاميركية — السوفياتية التي تحرم التجارب الذرية العسكرية . وعدا ذلك ، إن استبدال آديناور بارهارد كمستشار اتحادي أزال أساس الثقة الشخصية التي كانت موجودة في السابق . وباختصار ، ان النقطة السياسية الوحيدة التي تواجدت عليها وجهات النظر الفرنسية والألمانية كانت تتعلق باشراك اسبانيا في السوق المشتركة ، ولكن ، في هذا الموضوع ، ساد الموقف السلبي للأربعة الآخرين .

وبالمقابل ، إن الصعيد الثقافي ، وبخاصة تبادل الشباب ، فسح مجالاً لتحقيقات ممتازة وضعت عفوياً في منظور اوربي .

ونشرت معاهدة التحالف والصداقة الفرنسية — الألمانية ، في كانون الثاني ١٩٦٣ ، بعد بضعة أيام على المؤتمر الصحفي الذي عقده الجنرال دوغول وأنهى فيه المفاوضات بين بريطانيا العظمى والوحدة . وكانت هذه المفاوضات صعبة ، وفي الغالب فنية جداً ، ولكنها ألقت بظلالها أيضاً على مجرى الجدل السياسي وعلى خطة فوشيه .

وفي الواقع ، ألح الهولانديون كثيراً على أن يشارك في الحال وفد انكليزي في المناقشة على الاتحاد السياسي . ولم يكن ذلك من جانبهم حركة مزاج عابرة . لأن التبعية لوحدة يحب الجنرال دوغول أن يشير إلى طابعها القاري قد ناقضت دوماً الاتجاه التقليدي للبلاد المنخفضة التي ارتاحت جداً في الحاضر للقرار الانكليزي وكانت قلقة للترحيب بسرعة بهذه الأمة البحرية ذات التقاليد الديموقراطية المديدة . وكانت ، من جهة أخرى ، تقول : هل من المنطق أن تعزل انكلترا إلى اللحظة التي تلح فيها فرنسا على رفضها للفوقية ؟ وأخيراً ، قرر الستة أن يظلوا فيما بينهم في في لجنة فوشيه ، واقتصرت المفاوضات مع لندن على الصعيد الاقتصادي .

وطالت هذه المفاوضات كثيراً . فمن جهة ، حال تعقيد المادة دون تقدم سريع : وخاصة ان السياسة الزراعية والعلاقات مع الكومنولث كانت تضع قضايا مربكة ؛ وكانت القضيتان مرتبطتين جزئياً ، لأن بريطانيا العظمى كانت تتغذى بخاصة من الأغذية التي تصلها من دومنيوناتها . وفوق ذلك كان نظام مساعدة الفلاحين في المملكة المتحدة يختلف

عن النظام الذي تبناه القاربون ، ومن الممكن أن يتساءل ما اذا كان بالامكان تسوية . وكانت حكومة ماكميلان ، من جانبها ، تعلم أن التغيير الذي اقترحته يؤلف تنظيماً جديداً كاملاً لكل التاريخ الانكليزي .

وبهذا الاعتبار ، شهد خريف ١٩٦٢ مؤتمرين هامين : مؤتمر الكومنولث في وستمنستر في ايلول ، ومؤتمر حزب التوري في لاندودنو في تشرين الأول . وكشف الأول عن عداء يكاد يكون اجماعياً حيال اشتراك المتروبول مع أوربة ، ولكن ماكميلان دل دون ابهام على أن حكومته كانت تريد مع ذلك الاستمرار في نفس الطريق . ثم ان الخلاص من الاستعمار ألا يعني أيضاً أن الوطن الأم حر في ايقاف سياسته الخاصة ؟ أما مؤتمر المحافظين فقد بدا شبه مجمع على دعم حكومته التي ، كما يبدو ، كانت تراهن بمستقبلها على القضية الأوربية ، على حين أن العماليين كانوا يتطورون نحو وضع أكثر عداءً . وعندئذ بدا أن الوفد البريطاني في بروكسل ، الذي يوجهه بدراية وكفاءة أدوارد هيث ، كانت مؤخرته مؤمنة .

وكان هذا القول، معذلك ، أقل صحة مما كان يظن. ان النصر « الاوربي » في لاندودنو صلّب الموقف الانكليزي في بروكسل ، وبذلك عقد المفاوضات . لأن مندوبي ما وراء المانش ، بوضعهم من جديد قضايا فنية وعملية أثارت في الوحدة مناقشات عنيفة بين الستة ، كانوا يهددون تلاحم الوحدة الاقتصادية الاوربية . وفي الغالب كانوا يفتحون جروحاً كادت تندمل ، وهكذا وجدت اللجنة الاوربية ، التي كانت تسهر على المقبول ، مصطفة بين من كانوا أقل رغبة لرؤية اشتراك انكلترا . أما من جهة فرنسا ، التي كانت مقاومة ومترددة دوماً ، فقد أفادت من هذا الحالة .

وكلما أصبح التقدم بطيئاً كان الزمن يعمل لها ولجنة هالشتاين أيضاً .
وأخيراً عجل واقع جديد بمجرى الحوادث : وهو مؤتمر ناسُو ، بين هارولد ماكميلان والرئيس كينيدي .

ولا شك في أن موضوع هذه المحادثات كان عسكرياً وبصورة خاصة نووياً . وفي الظاهر ، لا يوجد شيء مشترك مع الوحدة الاقتصادية الاوربية ، ومع ذلك ، كان العنصران في ذهن الرئيس دوغول مرتبطين .
وكانت القضية أحد أمرين : اما أن تريد بريطانيا العظمى أن تكون جزءاً متمماً لاوربة ، وعندئذ يجب عليها أن تسير في تعاون وثيق بين « قوتها الضاربة » و « قوة الضرب » الفرنسية ؛ واما أنها لا ترى في السوق المشتركة إلا مشروعاً تجارياً ، وعندئذ لا يكون لاشتراكها مصلحة سياسية. وبدت القضية حادة ، لا سيما وأن مؤتمر باهاما تابع لقاءً دون جدوى بين دوغول وماكميلان . وعن خطأ أو عن صواب اعتقدت فرنسا أن المملكة المتحدة برهنت في ناسو على أنها ، بالرغم من كل شيء ، لم تتخل عن الفكرة القديمة ، فكرة « علاقات خاصة » بين أعضاء « العالم الناطق باللغة الانكليزية » : أي انها ستكون « حصان طروادة » الاميركي في المعسكر الاوربي .

وبعد أن كون الرئيس دوغول هذه النتيجة عمل بسرعة . فلم تمض بضعة أسابيع على مؤتمر باهاما إلا وأعلم ، في ١٤ كانون الثاني ١٩٦٣ ، في مؤتمر صحفي ، بأن بريطانيا العظمى برهنت في الحاضر على أنها لا تستطيع أن تكون تابعة للوحدة . وبعد أيام قلائل ، قطعت المفاوضة . ودخلت السوق المشتركة في أزمة خطيرة .

ولم يكن هذا أولاً بسبب اخفاق المفاوضات . لأن الاوربيين ،

الذين تساءلوا ما إذا كانت انكلترا « ناضجة » ، من أجل أوربا ، كانوا كثراً . ولكن بالنظر إلى أن القرار الفرنسي أعلن دون اتصال مبدئي مع أحد فقد ظهر نفياً لروح الوحدة . وكان من الصعب ، خلال دور مديد ، معاودة الامساك بخيط الدمج . وكانت المناقشات أقل وداً ، وضربت الثقة المتبادلة .

وما كادت هذه الأزمة تهدأ إلا وتفجرت أزمة جديدة بعد عامين ونصف . وفي هذه المرة كان القصد القضايا الزراعية التي تكلمنا عنها في أعلاه .

لقد فهم محررو معاهدة روما تعقيد هذه القضية . فقد وجدت هنا مصالح كبرى موضع مناقشة ، وفي عالم الزراعيين ، كانت هنالك علامات قليلة تدل على ارادة الدمج ، كما كانت الحالة في الصناعة . ان الهولاندي سيكو ل . مانشولت ، عضو الجنة الاوربية الذي تخصص بهذه المشاكل ، بعد ان كان وزيراً للزراعة في بلده خلال اثني عشر عاماً ، وجد امام قضية من قدرته . وفي الأصل ، لايمكنه الا ان يحبذ موقف الرئيس دوغول ، عندما طالب من جديد وبوقع انذار ادخال الانتاج الزراعي في السوق المشتركة . ولكن هذا الديموقراطي الشمالي كان يتجشم بصعوبة مخاطبته بهذه اللهجة الأمرية . ومع ذلك ، فان الموقف الحازم الذي اتخذته فرنسا في هذا المضمار قضى على الترددات التي ظهرت بخاصة عند الالمان .

وفي سياق هذه المناقشات الزراعية كسب التعبير « ماراتون » حق المدينة : في الواقع ، في كل مرة يدفع فيها تقويم معاهدة روما البلاد الاعضاء الى قرارات تتضمن تضحيات ، كانت تعقد جلسة طويلة بخاصة .

ولكن ، حتى حزيران ١٩٦٥ ، كانت النتائج دوماً ايجابية: ومن تضحية الى تضحية ومن تنازل الى تنازل ، ومن تسوية الى تسوية ، تقدم الدمج ، حتى في المضمار الزراعي .

ثم جاءت ليلة ٣٠ حزيران - ١ تموز ١٩٦٥ . ووضعت على بساط البحث قضايا التطبيق ، وهي قضايا صعبة . ولكنها لم تكن اكثر تمزيقاً من الأخرى التي فصل بها في مناسبات سابقة . وكما هي العادة ، كان الوفد الفرنسي، الذي يرأسه موريس كوف دومورفيل وزير الشؤون الخارجية ، يلح على التنفيذ الضروري للتعهدات المتخذة . وكالعـــادة ، وجد مانشولت الى جانبه ، وكالعادة طال النقاش ، عندما اقترب الموعد المحدد، وهو بالضبط ١ تموز ، ولكن « الم توقف الساعة » رمزياً في مناسبات مماثلة ؟ وفي هذه المرة روعيت الالتزامات بحرفها كما تنص المعاهدة . فقد وجه الممثل الفرنسي ضبطاً بعدم الحضور وذهب . وطبقت سياسة « الكرسي الشاغر » وشلت الوحدة الاقتصادية الأوربية حتى كانون الثاني ١٩٦٦ .

كيف يمكن تفسير هـذه الأزمة ؟ لايمكن ان تفسر بالخلاف الزراعي وحـده . وبهذا الاعتبار ، وضعت اللجنة الاوربية اقتراحات تسوية في اقل من شهر بعد القطيعة ، ولم تفاجىء احداً ، ولم تقبل ولم ترفض ، بل تجوهلت ، لأن أسباب القطيعة كانت اكثر عمقاً .

وفي الحقيقة ، اقترحت اللجنة ان تدير بنفسها جميع واردات رسوم الاستيراد والواردات الناجمة عن الاقتطاعات الزراعية . وهكذا تكسب استقلالها المالي بنفس الصفة التي كسبتها السلطة العليا في الوحدة الاوربية للفحم والفولاذ ، التي يتمول سيرهـــا بـ « ضريبة » على المشروعات المعدنية والفحمية . وهكذا يزداد الثقل السياسي للسلطة التنفيذية الاوربية .

وتضاف الى ذلك تدابير أخرى تميل الى دمقراطة الوحدة . وفي ٩ ايلول ، اعرب الرئيس دوغول عن رأيه في هذه الامور . فهو يرى ان اللجنة ادعت بكثير من الوجاهة السياسية ويجب الرجوع الى الاشكال البين - حكومة الكلاسيكية . وفي هـــذه المرة تجسدت المنازعة حول التصويت الاكثري فيمجلس الوزراء ، الذي دخل، حسب نصوص معاهدة روما ، في حيز التنفيذ لبعض الموضوعات ، في بداية المرحلة الثالثة ، أي في الأول من كانون الثاني ١٩٦٦ .

وبالفعل ، ان الاصول التقليدي للسوق المشتركة ، وهو اتخاذ القرارات بالاجماع ، دل على انه اذا كان للأقليات حق بالاعتبار ، فان الاكثريات لايمكن ان تقبل من جانبها بامكان تجميد قرار ما بصورة غير محدودة . وفي اعين معظم المراقبين، ان مبدأ الاكثرية لايحل محل التسوية : بل يجعل هذه الأخيرة ممكنة ، لأنه قدتساء رؤية نمو الوحدة اذا كان الرفقاء يتمسكون بحق مناورة غير محدود ، حرية قومية دون قيود .

وفي هذه الظروف لايوجد حل . ولم ترفض فرنسا فقط أن تدفع الى بعيد نمو الدمج - فقدكان من الممكن بهذا الاعتبار ان يكون الخمسة رفقاء معهـا ، لأن الحماسة الاوربية قـد انخفضت عنـدهم ايضاً - بل كانت تطالب بصهر جـــديد للمبادىء التي ألهمت الوحدة الاقتصادية الاوربية .

وأخيراً ، في كانون الثاني ١٩٦٦ ، وقعت تسوية تسمح للوفد الفرنسي باستعـادة مـكانه بين الوفود الأخرى . وحصل على الا تستفيد اللجنة الاوربية من الموارد الخاصة ، كما اقترح هالشتاين وزملاؤه في آذار ١٩٦٥ ، كما حصل ايضاً على ابعاد دمقرطة الوحدة (التصويت بالاكثرية في مجلس

الوزراء) ، التي جعلها البرلمان الهولاندي شرطاً ضرورياً . واعلن ، من جهته ، بانه يريد الحفاظ على كامل الحريـة في القرار ، مها كان أصول التصويت . ولكنه لم يحصل على القليل الذي كان يرجوه من اللجنة : فقد حافظت هذه على كامل حقها في المبادهة .

وفي هذا المناخ المتوتر عاودت العجلة السير . وبعد ذلك حصلت تقدمات فنية جديدة . ولكن لم يكن هذا بروح « بحث مشترك » كالذي ألهم في السابق شومان .

وأخيراً ، وبعد بضعة أسابيع ، في آذار ١٩٦٦ ، انخفض البارومتر الاوربي ايضاً ، عندما اعلنت فرنسا قطيعتها مع المنظمة الاطلسية . وفي الحقيقة ، ان قضايا منظمة شمال حلف الاطلسي (الاوتان) توضـع خارجاً عن اطار الدمج الاوربي . ولكن صدعاً جديداً فتح في إخاء الست وتأكدوا من اختلافاتهم العميقة في قضية الدفاع والسياسة العالمية .

منظورات المستقبل . ـ وبالرغم من التوترات العـابرة فقد اتفق الدمج كثيراً جداً مع ضرورات العصر لئلا يزول عن المسرح . ويبدو ان عدة منظورات قد ارتسمت ، حتى فيا وراء الاشكال الفنية للتعاون ، والهيئة الدولية للطرق الحديدية « اوربه » مثل على ذلك .

في البدء نشهد نهضة واضحة لمجلس اوربه ، ولم يكن يطمع في تحريك اتحاد اوربـة السياسي مباشرة ، ولكنه اكتفى بتقريب الأوربيين في نشاطـاتهم المحسوسة : الفنية ، الاجتاعيـة ، الاقتصادية ، العلمية . لقد وجدت الآن الطريقة . وتحت ادارة الأمين العام بيتر سميثرز بدأ جهاز قوي بالعمل . وفي بعض الميادين الخارجة عن السياسة دوماً شاركت حكومـات اوربية الشرقية . وصعد منذ الآن عدد الاتفاقـات المبرمـة

الى مايقارب المائة . وتحضر أخرى ، وبخاصة في ميدان حماية المواقع الطبيعية والتاريخية والكفاح ضد تلوث الهواء والماء وغير ذلك . ومجلس التعاون الثقافي يعمل بنجاح متزايد . وباختصار ، لقد اصبحت ستراسبورغ مركز تعاون بين الحكومات ، وأداة مثالية لعمل عملي محدود ، ولكنه محسوس .

أما الوحدة الاقتصادية الاوربية ، بالرغم من ازماتها الداخلية ، فقد استمرت في توسيع ميدانها ، حتى في الأماكن التي لم تنص عليها معاهدة روما صراحة . ومن الممكن أن ينتج اندفاع جديد من صهر التنفيذيات الثلاث الذي تم في ١ تموز ١٩٦٧ . ان اللجنة الجديدة الوحيدة المسؤولة منذ الآن عن الفحم والفولاذ والطاقة الذرية والسوق المشتركة العامة والمؤلفة من ١٤ عضواً ويرأسها لعامين جان دي ، استطاعت ان تعيد النظر في مجموع التقدمات التي تمت ، وتضع موازنة لعشرة اعوام ، وتدرس الامكانيات المعروضة لانطلاقات جديدة . وتفكر بخاصة في الاجتماعي ، وفي النقليات ، وفي تنسيق السياسات الطاقية ، بل وفي التوسع الاقليمي الذي يكون فيه الاهتمام بالسيادة القومية شديداً بخاصة .

وهناك موضوع آخر رئيسي وجد في مركز اهتمامات الجهاز الوحدوي الجديد ، وهو : « النزيف الفكري » الذي تشكو منه اوربة بشدة يوماً فيوم ، أو بالأحرى : لماذا توضع هذه المشكلة بشكل سلبي ودفاعي ؟ وحتى إذا لم توفر الولايات المتحدة للعلماء الاوربيين شروطاً أفضل للعمل فان اوربا ستقارن مع مهمة تنظيم سياستها العلمية بشكل عقلاني . وقد أضاف طابع العجز الخطير ، في ميزان شهادات الاختراع ، عاملاً اضافياً إلى قضية كانت معروضة للبحث على كل حال . فاذا كان القصد حلاً يتصور

في نطاق أوربة العريضة أو الضيقة جغرافياً ، فيجب تحريك هيئة دولية من مقدرتها وذكائها ، وتقسيم العمل بلداً بلداً بين المشاريع الخاصة والجامعات ، فلقد تم تجاوز مفهوم « الحرية الاكاديمية » وأصبح التخطيط أمراً لا غنى عنه . وهنا أيضاً يجد تنفيذ معاهدات روما تمديداً طبيعياً .

ثالثاً ، إن التوسيع الجغرافي للوحدة ما زال معروضاً . وقد اشتركت اليونان وتركيا في الوحدة الاقتصادية الاوربية على التوالي في الأول من تشرين الثاني ، والأول من كانون الأول ١٩٦٢ . وهذا ما فتح الطريق على الأقل نظرياً ، إلى اشتراك كامل في سياق سنوات الـ ٧٠ . وهل نتوقع رابطات أخرى ؟ يبدو أن الحالة الممكنة الوحيدة هي حالة النمسا التي يجب أن تتبع الست في تجارتها الخارجية ، ولكنها ممنوعة بـ « معاهدة الدولة » التي أبرمت مع الاتحاد السوفياتي في ١٥ أيار ١٩٥٥ ، هذه المعاهدة التي تحرم عليها الاشتراك في « كتلة دول » . وهل الوحدة الاوربية هي هذه الكتلة ؟ إن القضية تتعلق بقرار سياسي يجب أن يتخذ في موسكو . وبالمقابل ، إذا أبدى الستة تفاهماً خاصاً لحالة النمسا الخاصة فليست هذه حال البلاد الاخرى ، مثل سويسرا ، التي لا يتعلق حيادها إلا بها نفسها . ومن جهة أخرى ، إن التطبيق الوحدوي قلما يبدو ملائماً لتجمع البلاد الاوربية الصناعية التي لا تستطيع أن تكون مرشحة ، حسب رأي الوحدة الاقتصادية الاوربية ، إلا إلى الاشتراك التام .

أما بريطانيا العظمى ، فبعد أربعة أعوام على اخفاق المفاوضات الاولى ، قدمت ترشيحها من جديد . واتبع هذا الترشيح بترشيح ايرلانده ، والدانيمارك ، والنورفيج ، وبشكل متنوع الالوان ، السويد أيضاً . وكانت حكومة لندن في هذه المرة في أيدي حزب العمال . وكان

يوجهها هارولد ولسون الذي أبدى ، حتى ذلك الحين ، مقاومات عظيمة حيال أوربة . إلا أنه في هذه المرة ، برهن على أنه لا يقوم بمناورة انتخابية من شأنها الحط من قيمة حجة المحافظين « الأوربية » : ويراد بذلك محاولة جدية يدعمها بشدة الرأي المسؤول (ونعني بذلك المصلحة) . ومن جديد ، ظهرت فرنسا غير محبذة ، رغم أنها لا تستطيع أن تبقى غير شاعرة بالحجة التي تقدمت بها المملكة المتحدة ، وهي أن الصناعة الالكترونية الانكليزية تقدم أساساً لا غنى عنه لكل سياسة اوربية تريد نفسها أن تكون أكثر استقلالاً حيال الولايات المتحدة . وكذلك تتطلب الملاحة الجوية تركيزاً للقوى فوق بحر المانش وسياسة اوربية للبحث تصل أيضاً الى شمول القوة البريطانية . وبالمقابل ، أشارت الحكومة الفرنسية إلى الضعف الحالي للجنيه الاسترليني الذي يزعم بأنه بقي عملة ذات موهبة عالمية ، ولم تحصل دوماً على الاقتناع بأن لندن تريد قطعاً أن تختار اوربه بالابتعاد عن واشنطون .

وهكذا فان الحجج لصالح الاشتراك قد ثقلت موازينها منذ ١٩٦٣ ، ولكن المقاومات الفرنسية التقليدية كانت أبعد من أن تلقي السلاح . وأخيراً ظفرت هذه المقاومات من جديد . فقد أعلن المؤتمر الصحفي ، الذي عقده الجنرال دوغول ، في ٢٧ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، بوضوح عن « الفيتو الثاني » . وتزعزعت الوحدة الاقتصادية الأوربية من جديد ، ولكن القضية ، في هذه المرة ، بقيت معروضة . ومن الصعب أن يفهم بأن أكثر الانصار اقتناعاً بـ « اوربة الاوربية » من مصلحتهم طرح بريطانيا العظمى نحو الولايات المتحدة ، باغلاق باب السوق الاوربية في وجهها إلى الأبد .

ورابعاً ، نشهد الاندفاع نحو « أوربة الاوربية » الاكثر استقلالاً

حيال حماتها التقليديين من الشرق ومن الغرب . وفي هذا الموضوع لنلق نظرة على الوضع الحالي لمعاهدة وارسو التي ابرمت ، في ١٤ أيار ١٩٥٥ ، وتطابق نوعاً ما منظمة حلف شمال الاطلسي، ولمجلس العون المتبادل والتعاون الاقتصادي (الكوميكون ، الذي أسس في ٢٥ كانون الثاني ١٩٤٩ كرد على مشروع مارشل) .

لقد حصلت تحويلات عميقة على جانبي « الستار الحديدي » . فقد قل التوتر بين المعسكرين منذ وفاة ستالين ، ورغم التغييرات من كل نوع . واذا كان صحيحاً أن بلاد اوربه الشرقية تصوت تقريباً دوماً في الأمم المتحدة وفقاً للموقف الرومي ، فقد تطورت مع ذلك نحو نظام داخلي اكثر حرية ونحو هامش أوسع للمناورة الدولية . وكما أن سنوات الـ ١٩٦٠ زادت ثقة الاوربيين الغربيين بأنفسهم ، فان بعض المجادلات على السياسة الاميركية ، وخاصة في فيت ـ نام ، قد شجعت على الرغبة في اسماع العالم صوتاً اوربياً اكثر استقلالاً .

وهنا أيضاً ، وجدت اللجنة الوحدوية الجديدة عملاً عظيماًعلى منضدتها . وبعد أن سوت علاقات أوربة التجارية مع الولايات المتحدة ، كان عليها أن تتجه صوب الشرق ، وإلى هذا الحين تبدو الاشارة إلى مفاوضات ثنائية ، وقد أصبحت ممكنة الآن ، لأن الاتحاد السوفياتي فقد سيطرته المهيمنة على هذه المنطقة . ومع الزمن ، قلما يرضي أن فريقاً من الستة بلاد يفاوض على انفراد كلاً من الدول الاشتراكية . وعندما تظهر هذه النتيجة، فمن الممكن أن يأتي وقت تشعر فيه هذه الدول الأخيرة بالحاجة إلى التباحث فيما بينها ، واستخلاص خط مشترك ، وربما تشكيل سوق مشتركة في الشرق . وليس بالممنوع أن يفكر بأن موسكو يمكنها ، ذات يوم ،

أن تبارك مثل هذا المشروع ، بنفس الصفة التي خولت فيها واشنطون مباركتها للوحدة الاقتصادية الاوربية .

وفيما وراء سيطرة الهيمنة من جهة ، والانعزالية القومية ، من جهة أخرى ، من الممكن أن تنمو أشكال « الزمالة » و « التبعية المتبادلة » ، وتظهر أوربة الأرض المثالية للقاء سلمي وصريح حر بين المذاهب والانظمة المتباينة . ولامكان القيام بهذا الدور لا بد لها من التخلي بادىء بدء عن تجزئتها القومية .

هذه هي بعض منظورات المستقبل . وعلى كل حال ، يبدو أنه لا يوجد اختيار لسياسة الدمج القاري بأي شكل من الأشكال . ان اوربة بتجاوزها منازعاتها الهرمة ، ومنافساتها القديمة ، وبتوحيدها في تنوعاتها القومية والاقليمية ، يمكن أن تعطي نموذجاً لمجتمع لا تعني فيه كثرة الاشكال « الانفصالية » ، ولا يؤدي فيه الاتحاد الى « التماثل والتشابه » .



الفصل الثامن

أوربه الاشتراكية

مؤتمر يالطا

في يالطا ، في الاسبوع الذي مضى بين ٤ و ١١ شباط ١٩٤٥ ، حدد مصير العالم بعد الحرب العالمية الثانية ، وبصورة منفردة ، مصير أوربه المحررة .

وكان الرئيس روزفلت يتابع حلمه في الاخاء العالمي ، ويخول الاولوية الى منظمة الأمم المتحدة .

وبالنسبة لستالين ، كان المهم ، قبل كل شيء ، التأمين ضد يقظة محتملة للروح العسكرية البروسية ومنح الاتحاد السوفياتي منطقة نفوذ في أوربه بشكل لا تكون فيه سلامة أرضه مهددة أبداً . ولم يغب عنه بعض الحذر حيال شركائه الغربيين ، ولداع آخر ، بسبب هذا الاهتمام .

وكان الرئيس روزفلت مفتوناً بشخصية ستالين القوية وعجلا بالحصول على مساندته ضد اليابان ، ولذلك كان مستعداً لكل التنازلات ، وأزال بيده اعتراضات تشرشل الفزع من متطلبات الزعيم الشيوعي . وقد قبلت كل وجهات نظر هذا الأخير فيما يتعلق بتجزئة الريخ الثالث واحتلاله ،

وتثبيت الحدود البولونية بين خط كورزون ومجرى نهري الاودر — النايس وارجاع الحكومات الديموقراطيـة في البلاد الأوربية التي شايعت طوعـاً أو كرهاً النظام النازي .

وهكذا فان شرعية السيطرة السوفياتية على النصف الشرقي والجنوبي للقارة العجوز قد اعترف بها صراحة" في وثيقة رسمية . وعكف ستالين على فرض هذه السيطرة في الوقائع .

الانحاد السوفياتي

جاء الجنرال جودل إلى رنس ، في ٧ أيار ١٩٤٥ لينقل إلى الحلفاء استسلام الجيش الألماني العام وغير المشروط . وفي ١٥ آب التالي رضخت القوات اليابانية بدورها .

وانتهت الحرب على سطح الكرة الأرضية ، وحان الوقت لكل دولة من الدول الداخلة في العراك العالمي أن تضع ميزانها . وكان ميزان الاتحاد السوفياتي بائساً حزيناً : فقد احصي ما يقارب ١٨ مليون ميت بين عسكريين ومدنيين ، وأكثر من ٣ ملايين أسير[١] . أما الخسائر المادية فمن المستحيل حسابها بدقة وضبط في هـذا البلد الذي دمرته القنـابل والحرائق والتخريبات الطوعية ، حيث وجد أن ٣٢٠٠٠ مشروع صناعي قبل الحرب كانت تستعمل ٤ ملايين عامل قد قوضت جميعاً ؛ وأن ٧١ مليون هكتار من الاراضي المزروعة قد أتلفت ؛ وأن ٩٨٠٠٠ كولخوز قد نهبت وأشعلت فيها النيران ؛ وحيث كان السكان يهربون أمام المجتاح

---

(١) على الرقم الكلي للسكان ١٧٠ ٤٦٧ ٦٠٠ نسمة (احصاء عام ١٩٣٩) . وأظهر « الاحصاء الخمسيني » في الأول من تموز ١٩٦٧ أن سكان الاتحاد السوفيـاتي ٢٣٥ ٠٠٠ ٠٠٠ نسمة .

كانوا يطبقون سياسة الأرض المحروقة . ونظراً لفقدان ما هو أفضل نأخذ بالتقدير الرسمي وهو ١٢٨ مليار دولار .

لقد كانت المهمة التي فرضت غداة الحرب على الاتحاد السوفياتي جسيمة ، وكان تحقيقها أصعب ، لا سيا وان الرئيس ترومان ، خلف روزفلت ، قد تجاهل طلبات الاعتماد الطويل الأجل من حليفه السابق ، وان ستالين ، من جانبه ، رفض بازدراء مساعدة مشروع مارشل . ولذا فعلى روسيا الماركسية أن تنهض من عثارها معتمدة على وسائلها الخاصة وحدها .

ولكسب الحرب ، اعتمد ستالين بصورة أساسية على قفزة إلى الأمام الصناعة الثقيلة . فقد شدهته الطاقة الصناعية الاميركية ، ولازمته الفكرة التي ينسبها إلى موجهي واشنطون ، وهي القيام بكفاح ضد عاصمة الشيوعية الدولية ، فأراد أن يساوي بأقصر مدة ، ويتجاوز إذا أمكن ، مستوى الانتاج في الولايات المتحدة . ولم يوفر شيئاً لبلوغ هذا الهدف . فقد أخليت الارياف لصالح المدن والمراكز الصناعية ، حيث ما زال الناس يلبسون بدلاتهم العسكرية ، أو جرحى بل ومقعدين ، وحشدوا في المعامل ، وأرسلوا الى الرحاب (الورشات) المفتوحة حتى تخوم البلاد .

الستار الحديدي

وفي الوقت الذي كان فيه ستالين البنّاء يفتح لبلده آفاقاً ومنظورات عظيمة ، كان ستالين الدبلوماسي يؤكد نفسه رفيقاً متعباً لحلفائه ، وطوراً وطوراً حفياً وفظاً ، كيّساً ووقحاً ، كان يعمل بصورة أساسية على أن يحول ، لصالح السوفياتيين ، الاتفاقات التي أبرمت في ختام مؤتمرات موسكو (تشرين الأول ١٩٤٣) وطهران (كانون الأول ١٩٤٣)

وبالطـــا (شباط ١٩٤٥) ، وبوتسدام (تموز — آب ١٩٤٥) والمحادثات الخاصة .

ولم يأل جهداً ، من جهة أخرى ، في الافادة من الاختلافات التي اكتشفها عنـد محدثيه . فبينا كان هـؤلاء يتصورون اقامة حكومات ديموقراطيـة ، مستقلة ، وذات سيادة في أوربة ، كان يفكر بأن يقيم في شرق القارة وجنوبها ، مجناً من دول تابعـــة للاتحاد السوفياتي ومدعوة لأن تقيه ضد خطر عدوان جديد .

وقد أثقلت وفاة روزفلت ، في ١٢ نيسان ١٩٤٥ ، بشكل حاسم على سلوك الغربيين ، لأن هـاري ترومان ، خلفه في البيت الأبيض ، لم يبد مستعداً لتبني سياسته الملاينة حيال ستالين الجيورجي (من جيورجيا) .

وبينما كان ستالين ، المصاب بسوء الظن « الباطني » يرتاب في أن حلفاءه يغذون مقاصد سوداء مظلمة ترمي الى اضعاف الاتحاد السوفياتي قبل مهاجمته ، كان رئيس الولايات المتحدة الجديد يخشى طغيان الجيش الأحمر حتى نهر الراين وربما حتى شاطىء الاطلسي ، ويفرض على المعسكر الغربي مذهبه في « الاحتواء » أي في وضع سد من الأمم الحرة مناهض للتوسع الشيوعي .

وما فتىء المنـاخ الدولي يفسد ، وفسحت جميع المنـاقشات مجـالاً لمساومات حادة ، بمناسبة تركيب الحكومة البولونية ، ونظام المانيـا ، ومشاركة فرنسا والصين في القضـايا الدولية ، وفي منـاطق النفوذ على الكوكب . وفي الحقيقة ان المؤتمرات الدولية ، في كل هذه الموضوعات وفي كثير غيرها أيضاً ، تركت الباب مفتوحاً لتأويلات وتفسيرات عديدة .

وفي ٥ آذار ١٩٤٦ ، وجد ونستون تشرشل صورة تعرف جيداً

حالة العصر الدبلوماسية وقال : « من شتيتين إلى تريستا أسدل ستار حديدي على أوربة » .

ولما شاخ الأسد اطلق الحرب البـاردة . وأصبح الحلفاء السابقون مختلفين ، وأخذوا ، من جانبي الستار الشهير ، يراقبون بعضهم ويعززون مواقعهم بغية مجابهة محتملة الوقوع . واتسعت الازمة محددة بحوادث تهدد في الغالب الأعم سلام العالم ولمـــا يؤمن بعد بشكل مرض ، وبلغت نقطة الذروة ، في حزيران ١٩٤٨ ، عندما حاصر السوفياتيون جميع الطرق والخطوط الحديدية والطرق المائية التي تصل برلين بألمانيا الغربية . فأجاب الحلفاء على هذا الحصار بتنظيم « جسر جوي » لتموين المدينة المحاصرة حتى أيار ١٩٤٩ . واستوفى عزمهم حقهم أخيراً من المناورة الستالينية ، ولكنهم كانوا قاب قوسين أو أدنى من النكبة والطامة الكبرى .

وفي غضون أربعة أعوام خول حصر السلاح النووي الاميركيين تفوقاً وساعد ترومان على مقاومة ضغوط موسكو بشكل حاسم . وتبـدلت نسبة القوى ، بشـكل عميق ، عندما اعلن ، في ٢٣ ايلول ١٩٤٩ ، عن انفجار أول قنبلة ذرية روسية . وهـذا الحادث العظيم هيهات ان يدمغ نهاية الحرب الباردة ، ولكنه يقيم ، على الأقل ، « توازن الارهاب » ، لأنه يمنع تصور قيام خلاف عالمي ثالث .

نهاية ستالين

كان ستالين يتابع أعمال البناء في داخل بلاده كما يلاحق مناوراته على المـائدة الدبلوماسية ، سيداً مطلقـاً لامبراطورية ، أوسع امبراطورية في العالم ، تمتد على ٢٢٤٠٠٠٠٠ كم٢ ، أي ما يعادل مرتين ونصف سطح

الولايات المتحدة ، و ٤٥ مرة سطح فرنسا . وكان يجمع في يديه ، في الواقع ، كل وسائل السلطة : فقد كان الأمين الأول للحزب — أي أهم وظيفة في دولة شيوعية ، ورئيساً لمجلس الوزراء ، وقائداً أعلى للقوات المسلحة ، ومارشالاً للاتحاد السوفياتي . وكسف مجده مجد كارل ماركس ولينين اللذين بهتت صورهما العملاقة المنتشرة بمناسبة المظاهرات الشعبية الى جانب صورته .

ومهما تكن التضحيات التي قبلها الشعب والتفاني وأحياناً الذل من قبل أعوان ستالين، فلم يتوصل إلى التخلص مما أسماه خروتشوف فيما بعد من « ريبه المرضي » . وبينما تأخذ العبادة التي تبذل له في سنواته الأخيرة نسباً تبلغ درجة الجنون ، كانت البلاد تعيش من جديد في مناخ الارهاب . فقد انقطعت البلاد عن باقي العالم وتحملت طيش « القيصر الأحمر » دون حركة ثورة . وكان التطهير « تشيستكا » يحصد في الجيش وفي الحزب .

ومن ٥ إلى ١٤ تشرين الأول ١٩٥٢ ، عقد ستالين في موسكو المؤتمر التاسع عشر للحزب الشيوعي السوفياتي ، وقرر ، فيما قرر ، أن يستعيض عن البوليتبورو « المكتب السياسي » بيريزيديوم « رئاسة مجلس السوفيات الأعلى » اللجنة المركزية . وفي أعين رجال النظام ينبىء هذا الاصلاح البنيوي ولا شك عن عمليات تطهير جديدة . وسبق للمطلعين على خفايا الأمور أنهم كانوا يتناقلون بصوت منخفض أسماء الضحايا الآتية : ميكويان ، مولوتوف ، فوروشيلوف .

وعظم القلق أيضاً عندما نشرت صحيفة « البرافدا » ، في ١٣ كانون الثاني ١٩٥٣ ، بلاغاً يوحي باكتشاف مؤامرة دبرها فريق من الاساتذة

والاطباء من أصل يهودي ، الزمتهم مصالح التجسس الانكليزي والاميركي بقتل « المناضلين النشيطين في الاتحاد السوفياتي » ، في معظمهم جنرالات وماريشالات . ولكن النص لا يتهم « وحوش الجنس البشري الذين داسوا بأقدامهم علم العلم المقدس » فحسب ، بل يهاجم أيضاً « انتهازيي اليمين » و « المحبطين » الذين أعوزتهم اليقظة . وعرف في موسكو ما تعني هذه العبارات ، وساور القلق موجهي الكرملن .

وفاجأت وفاة ستالين حتى انها طمنتهم . ففي الليل من ١ إلى ٢ آذار ١٩٥٣ أصيب ستالين بنزيف دماغي . وفي ٥ آذار ، في الساعة ٢١ والدقيقة ٥٠ فارق الحياة محاطاً بأشهر اختصاصيي العاصمة الذين دعوا لفراشه، وكان آ. ف. تريتياكوف وزير الصحة العامة يشرف عليهم. ونشر بلاغ طويل،في ٦ آذار ، يمجد صفات الزعيم الراحل ويطمن بأن « اسمه سيعيش دوماً في قلب الشعب الرومي وكل البشرية التقدمية » . وفي جنازه الذي احتفل به في ٩ آذار خطب مالينكوف وبيريا ومولوتوف الخطب التي تقال في مثل هذه المناسبات .

القيادة الجماعية

لقد زال ستالين وبدا جورجي مالينكوف في بضعة أيام كخلف حقيقي له . وفي ٦ آذار ، بالفعل ، رفع الى رئاسة الحكومة السوفياتية يساعده أربعة نواب رؤساء مجلس : بيريا ، مولوتوف ، بولغانين ، كاغانوفيتش . وسمي في الوقت نفسه أميناً للجنة المركزية . ولكن هذه الحالة لم تدم اكثر من اسبوع . ففي ١٤ آذار « حرر » مالينكوف ، بناءً على طلبه، من الوظائف التي تؤمن له الاشراف على جهاز الحزب .

وحل محله فريق من خمسة أمناء ، يضم بخاصة ، نيكيتـا . س . خروتشوف . امـا ادارة الشؤون العامة فقـد تأمنت منذ الآن فصاعـداً بثالوث «ترويكا» يضم مالينكوف و بيريا و مولوتوف، وتقاسم هؤلاء الثلاثة المسؤوليـات .

وبعـد أن تخلص الاتحاد السوفياتي من طاغيته ، تنفس الصعـداء . واتخذت فيما بعـد تدابير تدل على تطور النظام نحو اشكال اكثر حـرية (ليبرالية)

وفي ٢٧ آذار ١٩٥٣ ، تقرر عفـو عام واسع اخلى السجون ومعسكرات العمل من ربات العائلة ، والنساء الحوامـل ، والمـرضى ، والذكور الذين يقل عمرهم عن ثمانية عشر عاماً أو يزيد على خمسين عاماً . وفي ٣١ آذار زيدت كتلة اجور الشغيلة بلغ ٧٣ مليار روبل . وفي ٤ نيسان اعطي دوي عظيم لتحرير واعادة اعتبـار الأطباء المتهمين بالمؤامرة على الدولة . واعترف بلاغ رسمي بأن اعترافاتهم انتزعت « بوسائل يحرمها القـانون السوفياتي بشدة ، وبتعبير آخر بالتعذيب . ولم تقم « دعوى القمصان البيضاء » . وبالمقابل ، « ان الأشخاص المسؤولين عـن اعطاء التعليمات بشكل غير منتظم سيوقفون ويلاحقون بموجب قانون العقوبات » .

وكان اشهر ضحية للنزعة الجديدة لافرنتي بافلوفيتش بيريا الذي كان نائباً لرئيس مجلس الوزراء في عهد ستالين ، وزعيماً للضابطة السياسية ، ومفتشاً يخشى خطره . فقد قام بعشرات ألوف «التصفيات» لحساب سيده . وفي ١٠ تموز ، اتهم بدوره « بأعمال اجرامية » ترمي الى تقويض الدولة السوفياتية لمصلحة الرأسمال الأجنبي » . وارتاب رفقاؤه بأنه يهيء بخاصـة انقلاباً يخوله السلطة . وهكذا جرد المطهر السابق من وظائفه ومثل امام

المحكمة العليا للاتحاد السوفياتي . وفي آخر السنة اعلم بلاغ مقتضب الحكم على « الخائن » وتنفيذ الحكم به معاً .

وفي ٧ أيلول ١٩٥٣ سمي خروتشوف الامين الأول للجنة المركزية .

وبينما كانت الشؤون الداخلية تأخذ مجرى جديداً في الاتحاد السوفياتي ، لوحظ أيضاً تطور يمس علاقات موسكو بالعواصم الأجنبية . فقد عدد خلفاء ستالين فعال الارادة الطيبة . وفي ١٠ أيار ١٩٥٣ اعلموا الحكومة التركية بتخليهم عن كل مطالبة أرضية في أرمينيا . وفي ٦ حزيران وطدت المصالحة مع تيتو الذي حرمه (طرده من الجماعة) ستالين في ١٩٤٨ . واتفق على أن ترفع البعثات الدبلوماسية لكلا البلدين الى مستوى السفارات . وفي ٢٠ تموز اعيد توطيد العلاقات مع اسرائيل بعد أن قطعت في ١٢ شباط السابق اثر اعتداء على المفوضية السوفياتية في تل ـ أبيب

ووضع « التعايش السلمي » بين الدول الرأسمالية والاشتراكية في جدول الأعمال . وحيا الرئيس ايزنهاور قيام عهد جديد ، وقبل مخترع الستار الحديدي ، تشرشل نفسه ، ان من الممكن التفاهم منذ الآن مع موجهي الكرملن ، واطلق فكرة مؤتمر دولي يدعى لحل القضية الالمانية. وبعد تبادل المذكرات حدد هذا الاجتماع، في ٢٥ كانون الثاني ١٩٥٤ ، على ان ينعقد في برلين باشتراك وزراء الشؤون الخارجية في الدول الأربع المحتلة ، أي فوستر دالس عن الولايات المتحدة ، مولوتوف عن الاتحاد السوفياتي ، ايدن عن بريطانيا العظمى ، بيدو عن فرنسا . ومع ذلك لم تتوصل سبع وعشرون جلسة عمل الى تقريب وجهات نظر الروس والغربيين . وافترق المجتمعون ، في ١٨ شباط ، دون حل شيء. بيد انهم اتفقوا فقط على موعد آخر في جونيف في ٢٦ نيسان ، لتبحث

في هذه المرة القضايا الآسيوية . وامتدت المفاوضة حتى ٢١ تموز دون ان تأتي بحل لقضية كوريا . ولكنها ، على الأقل ، أدت الى ايقاف الحرب في الهنـد الصينية .

وبعد اخفاق مؤتمر برلين ، برد المناخ في اوربة بعض الشيء . ورفض البرلمان الفرنسي مشروع وحـدة الدفاع الاوربية في ٣٠ آب ١٩٥٤ ، ولكن اتفـاقات لنـدن (٣ تشرين الأول) وباريس (٢٣ تشرين الأول) سمحت بأعادة تسلح المانيـــا ودخولها في معاهدة حلف شمال الأطلسي. وعندئذ وجهت موسكو الى حلفائها مذكرات احتجاج شديدة اللهجة . ثم فسخت فيما بعد المعاهدة الفرنسية - السوفياتية لعام ١٩٤٤ ، ووقعت مع الجمهـوريات الشعبية ميثاق وارسو (فارسوفيا) الذي أقر قيـادة موحدة لقوات الكتلة الشرقية .

ولم يسد الانسجام في الكرملن في بداية العـــام ١٩٥٥ . وفي ٨ شباط ، وبعد أن أبعـد جورجي مالينكوف عن امانـة الحزب طالب ايضاً بتحريره من وظائف رئيس المجلس . وحـل محله مباشرة الماريشـال نيكولا بولغانين . ومع خروتشوف وميكويان تألف ثالوث جديـــد وامسك بيده مقدرات الاتحاد السوفياتي ، وحاول ان يعطي العالم الخارجي صورة عن روسيا المسالمة والباسمة .

وفي ١١ نيسان لاقى المستشار النمساوي يوليوس راب في الكرملن استقبالاً حاراً . وفي ١٥ أيار التالي ، وقعت معاهدة الدولة في فينا من قبل وزراء الشؤون الخارجية في الدول الأربـع المحتلة ، وانهت حالة الحرب مع النمسا . وفي ٢٦ أيار ذهب بولغانين وميكويان وخروتشوف لزيارة الماريشال تيتو وظلوا في ضيافته حتى ٢ حزيران .

وفي ١٧ تموز ، وجد بولغانين وخروتشوف في جونيف للاشتراك في مؤتمر « القمة » مع رؤساء الحكومة الثلاثة الآخرين : ايزنهاور ، (عن الولايات المتحدة) ، ايدن (عن بريطانيا العظمى) . ادغارفور (عن فرنسا) . ووضعت ثلاث قضايا على جدول الاعمال : الأمن الاوربي واعادة توحيد المانيا ؛ نزع السلاح ؛ تنمية الاتصالات بين الشرق والغرب .

وافترقوا بعد اسبوع دون ان تجد لهم جواباً . ومازالت هذه القضايا موضوعة الى اليوم أمام التطلبات والضغوط الدولية .

ولم يثبط اخفاق جونيف الموجهين الجدد في الاتحاد السوفياتي ، فقد ضاعفوا الأنفتاحات نحو الغرب . وبعد أن استقبلوا المستشار اديناور ، في ايلول ، قرروا اقامة علاقات دبلوماسية طبيعية مع المانية الاتحادية ، وفي ٢١ كانون الأول ، دشن فاليريان زورين السفارة السوفياتية الاولى في بون . واحياناً كانت الدراجة الثنائية بولغانين ـ خروتشوف تصطحب ميكويان ، وستذهب الآن لتجوب العالم من لندن الى بيكين ، ومن نيودلهي الى عواصم الجمهوريات الشعبية ، وتحمل الى كل مكان طيب الكلام معربة عن صفاء نياتها .

المؤتمر العشرون

في ١٤ شباط ١٩٥٦ افتتح في موسكو المؤتمر العشرون للحزب الشيوعي في الاتحاد السوفياتي حيث اشتهر خروتشوف بعد تلاوة تقريره العظيم الحجم ، فقد كان نصه ١٠٤ صحائف وعرف دوياً دولياً وافاده كواسطة لكسب السلطة . وفي هذه المرة وضع ستالين على مشرحة التاريخ دون مراعاة أو مداراة . واعترف علناً بأنه كان مصاباً بمرض العظمة . وان

السلطة الوحشية التي مارسها طوال الثلاثين سنة التي أخضع فيها البلاد إلى نظام الارهاب ، وان المذابح التي نظمها والجرائم التي ارتكبها ، قد كشف عنها دون رحمة أو اشفاق . وكان الخطيب شديد اللهجة حتى بدا وكأنه يسوي . حساباً قديماً مع الآله الميت (وسحب جثمان ستالين من مدفن الساحة الحمراء حيث كان الى جانب لينين) ويخفف في الوقت ذاته عن وجدانه . وهذا التقرير ، الذي يشجب عبادة الشخصية ، يعبر من جهة أخرى ، عن اقتناع مؤلفه بنصر نهائي للاشتراكيـــة العالمية دون اللجوء الى العنف . ويقوم ضد كل تدخل في شؤون البلاد الأخرى ، ويدل على اتجاه جديد للسياسة الخارجية في الاتحـــاد السوفياتي ينزع الى التعايش السلمي .

وهذه الوثيقة ، التي فسرت بتحبيذ في الغرب واعتبرت وعـداً بتفاهم أفضل بين الكتلتين ، أثارت صدمـة نفسية حقيقية عند شعوب البـلاد التابعة ، التي اسيء اعدادهـــا لتطبيق تعليمات المؤتمر العشرين . وقامت اضطرابات ، في بولونيا بخاصة ، وفي هونغاريا حيث اضطربت الحكومة ولم تـدر ماتفعل فدعت الجيش الأحمر لنجدتها .

ثم أن محاولات التحرير في شرق اوربه وضعت موضع الشك مبـدأ الحزب ككتلة واحدة تؤلف موسكو فيها مركز الثقل . وبدت صدوع في الحصن الذي شاده ستالين . وتساءل بعضهم ، حول الكرملن ، عن فرصة الخلاص من الستالينيه وبالتالي عـن مناسبة بقاء خروتشوف على رأس الحزب . ورفعت القضيـة أمام البريزيديوم ، فانعقد بسر عظيم في بداية حزيران ١٩٥٧ . وبسبعة أصوات ، مقابل اربعة ، حاز الأمين الأول الاقلية . ولكن نيكيتا لم يرض بان يكـون مغلوباً . وأدعى بعـدم

انتظام الأصول الذي اتبع في التصويت ، ودعا بدوره اللجنة المركزية المؤلفة من ١٧٥ عضواً ، وكان بينهم كثير من اصدقاء خروتشوف ، وبفضل دعم ايكاترينا فورتسيفا والماريشال جوكوف فاز باحكام على خصومه . واتهم هؤلاء بتدبير « مؤامرة ضد الحزب » واخرجوا من اللجنة المركزية واستقالوا من وظائفهم وعينوا في وظائف غامضة بعيدة جهد المستطاع عن العاصمة .

وفي ٤ تشرين الأول ١٩٥٧ حدثت ضربة مسرحية : وهي اطلاق الأتحاد السوفياتي أول تابع اصطناعي للأرض . ثم لفظ أسمه فيا بعد في كل لغات العالم ، لأن كل واحد يشعر بأن هذا « السبوتنيك » سيثقل بصورة حاسمة توازن القوى بين الكتلتين .

ووجه الرئيس آيزنهاور الى خروتشوف دعوة فقبلها بحرارة . وتم التفاهم على أن يقوم زعيم البيت الأبيض بدوره برحلة الى روسيا . ووضع الدبلوماسيون ، ولايخلو الأمر من صعوبة ، برنامج هذين اللقاءين ، ولكن اللقاء الثاني لم يقع .

ازمة كوبا

وحان الوقت ليثبت خروتشوف وضعه في داخل البلاد . ففى ٢٧ آذار ١٩٥٨ ، ودون شكل آخر للدعوى ، صادق المجلس السوفياتي الأعلى على ابعاد بولغانين وعلى تسمية خروتشوف في مركز رئيس مجلس الوزراء . وفعل كما فعل ستالين ، وأصبح الآن مخولاً السلطة الشاملة ، ورئيساً للحكومة والحزب معاً .

وتبنى المؤتمر الحادي والعشرون للحزب الشيوعي السوفياتي (٢٧ كانون

الثاني ـ ٥ شباط ١٩٥٩) البرنامج الذي أعده نيكيتا خروتشوف . ففي السياسة الخارجية : التعايش السلمي ، صيانة الأمن ، عدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلاد الأخرى . وفي المضمار الاقتصادي : « اللحاق والتجاوز ، في اقصر مهلة تاريخية ، البلاد الرأسمالية فيما يتعلق بانتاج الرأس الواحد من السكان » . وهذا التطور لايقتصر على انتاج الأشياء المادية فحسب ، بل يمتد الى العلم والتقنيات والثقافة .

وفي ايلول ، استجاب الزعيم السوفياتي لدعوة الرئيس ايزنهاور . وقد اعتبر لقاء كامب ديفيد والمصافحة الحارة بين الرجلين العظيمين ، وجولة السيد « ك » عبر الأرض الاميركية الواسعة بمثابة افتتاح عهد سلام وتفاهم متبادل ، حتى نسي القمع القامي لثورة بودابست . ورأى الغرب ان الشيوعية أخذت الآن ملامح خروتشوف الباش ، الطفل الطيب ، الذي جعلته دعاباته شعبياً .

ويبدو أن كل شيء نجح أمام هذا الفلاح الصغير من كالينوفكا ، الذي توصل الى قمة السلطة بفضل الصبر والمكر . وبعد جولته الانتصارية العظيمة في الولايات المتحدة ، ذهب للقيام باستمالة ماو ـ تسيه ـ تونغ . ولكن رحلته الى بيكين ، في شهر تشرين الأول ، منيت باخفاق مدو . فقد ساءت العلاقات بين الرجلين حتى الموت . وكسر اتفاق العون العسكري الذري الذي ابرم في ١٩٥٧ . وعاد الجدل على اشده بين عاصمتي الشيوعية العالمية .

الا أن الظرف كان يبدو مواتياً لتسوية عامة للخلاف الشرقي ـ الغربي . ففي جونيف ، اتفق مندوبو الدول الثلاث النووية : الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفياتي ، بريطانيا العظمى على البنود الأساسية لمعاهدة تنهي

التجارب الذرية . وبمبادهة رئيس الدولة الفرنسية عقد مؤتمر « ذروة » في باريس ، في ١٦ آيار ١٩٦٠ ، اشترك فيه الرؤساء ايزنهاور ، دوغول ، ماكميلان ، وخروتشوف . ولسوء الحظ أسقطت طائرة استكشافية من نوع U — 2 في أول أيار فوق الأراضي السوفياتية . وهيأ هذا الحادث، خلال الأسبوعين التاليين، فرصة لتبادل وافر من المذكرات بين موسكو وواشنطون . ولم يذلل الحادث، مع ذلك، عندما اجتمع الأربعة « الكبار » في قصر الايليزيه . ودون أن يسمع خروتشوف ايضاحات رئيس البيت الأبيض، القى خطاباً عنيفاً في قصر شايو، أمام مراسلي الصحافة الدولية المشدوهين، ثم غادر المؤتمر ضارباً الباب وراءه .

وفي آخر هذه السنة ولد انتخاب جون كينيدي ، لرئاسة الولايات المتحدة ، الأمل بتقارب . وبعد لقاء الزعيم الديموقراطي الشاب بالرئيس دوغول في باريس شخص بالفعل الى الموعد الذي حدده له خروتشوف في فينا ، في ٣ حزيران ١٩٦١ . ويدل البلاغ الذي نشر في ختام هــذا اللقاء التاريخي على الارادة الطيبة المتبادلة، ولكنه لا يأتي بأي عنصر ايجابي لقضية السلام .

وستوضع هذه القضية على محك تجربة قاس . وبينما أجل مؤتمر نزع السلاح في جونيف « الى أجـل غير مسمى » ، في كانون الثاني ١٩٦٢ ، بعد أن عقد ٣٥٠ جلسة عمل ، تحرك فريق من المهاجرين الكوبيين في الولايات المتحدة، تدعمه مصلحة الاستخبارات المركزية، وأخذ يقوم بمناورات تحرش ضـد جزيرة كوبا ، أكبر جزيرة في البحـر الكريبي . وجرت محاولة انزال في جون الخنازير، في نيسان ١٩٦١ ، فاخفقت اخفاقاً ذريعاً ، ولكن كل شيء كان يدل على أن العملية ستتجدد بقوات اكثر مما في

السابق . واستجابت الحكومـــة السوفياتية لنداء الزعيم فيدل كاسترو وأنشأت في كوبا مراكز لاطـلاق الصواريخ وجهزتها برؤوس نووية . وفي ١٥ تشرين الأول ١٩٦٢ نقلت طائرات الى البيت الأبيض صور الاجهزة المنصوبة . ولم تستطع الولايات المتحدة أن تتساهل بهذا التدخل من قبل الاتحاد السوفياتي في نصف الكرة الغربي وبما يرافقه من تهديـد ذري على شاطئه . والقى كينيدي بنـداء الى رفقائه في الحلف الأطلسي فاصطفوا بالاجماع الى جانبه . وفي الوقت نفسه ، تبودلت وسائل الضغط بين العملاقين النوويين . وامسك العالم بأنفاسه الى الحد الأقصى خشية من نشوب خلاف جديد . غير أن رباطة جأش الرئيس الأميركي وحكمـة خروتشوف انهتا أخيراً اخطر ازمة هزت الكوكب منذ الحرب العالميـة الثانية . فقـد قبـــل السوفياتيون بتقويض مراكزهم واسترجاع قذائفهم مقابل تعهد الاميركيين بالتخلي عن كل عمل هجومي على كوبا . وجنبت تجربة القوة . وأصبح توازن صرف النظر عن القصد واقعـــاً يسيطر على دبلوماسية الكتلتين المتضادتين .

وفي مناخ هذا الانفراج العائد قامت محادثات ثلاثية أدت ، في ٥ آب ١٩٦٣ ، بالولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي وبريطانيا العظمى الى توقيـع معاهدة في موسكو ، وتعهدت هذه الدول بموجبها بالكف عـن تجاربها النووية في المكان وفي الفضاء وتحت الماء . واشتركت في هـذا الاتفاق مائة بلد آخر . ووقفت فرنسا والصين جانباً .

الفريق الجديد : كوسيغين ـ بريجنيف

ويبدو أن النجاحات الدبلوماسية جعلت السيد « ك » يركب رأسه . فمظاهراته الصاخبة في الأمم المتحدة وأنتشار شعبيته في البلاد الرأسماليـة ،

وعدم فطنة صهره ، الكسيس آجوباي،الذي كان سفيره المتجول، انتهت باثارة رفقائه في الكرملن ، وكان لدى هؤلاء حجج رصينة ضده . فقد جعلوه مسؤولاً عن التوتر الآخذ بالتفاقم بين بيكين وموسكو ، وعن قضية كوبا التي مني فيها الاتحاد السوفياتي بهزيمة نكراء ، وعن الطرق السيئة أو بالأحرى عن فقدان كل طريقة في مضمار الاقتصاد .

وفي ١٥ تشرين الأول ، وبينا كان خروتشوف يستجم في فيلاه، في سوتشي،على شاطيء البحر الأسود ، قامت ثورة قصر جديدة فاطاحت به بشدة الى أسفل ، وفي بضع دقائق ، وبناء على تقرير شديد وضعه سوسلوف ، جرده البريزيديوم في موسكو من جميع وظائفه ، دون أن يترك له ، في هذه المرة ، وقتاً لدعوة اللجنة المركزية . وبينا كان نيكيتا سيرغيفيتش بالأمس رئيساً للمجلس والأمين الأول للحزب لم يعد سوى مناضل بسيط رخص له بالمطالبة بحقوقه التقاعدية . ولم تكن الصخرة التاربية[1] اقرب الى الكابيتول في أي مكان كما كانت في الاتحاد السوفياتي .

وبعد تجارب ستالين وخروتشوف المخيبة تبني مبدأ فصل السلطات . وفي الوقت الذي سمي فيه الكسي كوسيغين رئيساً لمجلس الوزراء كلف ليونيد بريجنيف بتوجيه جهاز الحزب .

ولد رئيس الحكومة الجديدة في لينينغراد في ١٩٠٤ . وهو اقتصادي راجح، قاسي المنظر ،موزون الكلام. وكان مديراً لمشروع اقتصادي ويعرف قيمة الأرقام ولايؤخذ بالحجج من النوع العاطفي . ويقتضي عمله الأسامي

(١) الصخرة التاربية هي صخرة كان يلقى منها بالمجرمين في روما القديمة .

في داخل البلاد اعادة تنظيم الانتاج واصلاح أخطاء سلفه الشرس ، وايقاف الاسراف في الموارد والجهود . والاختلاف ضارب بين هذا الشمالي الرصين ورفيقه ، الاكراني اللسن ، الوشيق ، الذي يبدو بوضوح أصغر منه سناً رغم أنه ولد في عام ١٩٠٦ . وهذا الشريك الروحاني ، بريجنيف ، لا يزدري لذائذ المائدة . وهو ، عدا ذلك ، يقدر الرفاه والزينة الجميلة والاستقبالات الوضاءة والمشاهد العذبة .

وخارجاً عن تغيير الجهاز السياسي في موسكو ، كان الربع الأخير لعام ١٩٦٤ مطبوعاً بثلاث حوادث عظيمة : في ١٦ تشرين الأول ، فجرت الصين الشعبية أول قنبلة ذرية ، وفي اليوم نفسه ، في بريطانيا العظمى ، ترأس هارولد ولسون الحكومة العمالية الجديدة . وفي ٣ تشرين الثاني انتخب ليندون ب . جونسون رئيساً للولايات المتحدة .

كانت الرحلة الاولى لكوسيغين إلى الخارج إلى بيكين ، حيث أقام يومي ٥ و ٦ شباط ١٩٦٥ . وحاول ، عند عودته أن يزيل الخلاف الصيني — السوفياتي ، فلم ينجح في ذلك أكثر من خروتشوف .

ووجد موجهو الكرملن في الغرب محدثين اكثر استعداداً . فقد تحسنت العلاقات بخاصة مع فرنسا بشكل محسوس ، كما ازداد في الوقت نفسه حجم المبادلات التجارية والثقافية . وفي ٢٧ نيسان ١٩٦٥ استقبل اندريه غروميكو وزير الشؤون الخارجية في الاتحاد السوفياتي ، في قصر الايليزيه ، حيث اجرى محادثات هامة مع الجنرال دوغول . وفي ٢٨ تشرين الأول التالي زار وفد فرنسي ، برئاسة موريس كوف دومورفيل ، موسكو ، حيث شخص رئيس الجمهورية بدوره في ٢٠ حزيران ١٩٦٦ . وفي الأول من كانون الأول ، أخيراً ، كان رئيس الحكومة السوفياتية ضيف باريس التي هيأت له استقبالاً ودياً جداً .

وبدا الفاتيكان نفسه حساساً بالاسلوب الجديد للدبلوماسية السلافية . وخلال مرتين خول البابا بول السادس جلسة الى كبار الشخصيات في التسلسل الشيوعي ، الى اندريه غروميكو في ٢٧ نيسان ١٩٦٦ ، وفي ٣٠ كانون الثاني ١٩٦٧ الى نيقولاي بودغورني الذي حل محل ميكويان في رئاسة بريزيد يوم السوفيات الاعلى .

ونظراً الى ان كوسيغين يناصر الحلول السلمية فقد احرز نجاحات شخصية لامعة عندما حصل ، في ١٠ كانون الثاني ١٩٦٦ ، في طشقند ، على ايقاف الحرب بين الهند وباكستان .

واذا قام السوفياتيون طوعاً بالحوار مع الديموقراطيات الغربية فقد ظهرت الولايات المتحدة في اعينهم الحدث الوحيد الذي يمكن التباحث معه عن حلول للمشاكل التي تقسم العالم . ولكن حرب فيت‌نام منعت موقتاً تصور يالطا جديدة . فقد استنكرت روسيا الشيوعية التدخل الاميركي في جنوب شرقي آسيا ، ولم تحرم نفسها من ذلك . ورغم انها عرضت ، من جهة اخرى ، عونها الجوهري على هانوي ، فقد ظلت بيكين تتهمها بالتواطؤ مع « المعتدين الامبرياليين » وبالخيانة حيال العالم الثالث ، وهذا ما اضطرها الى الحذر والامساك بسيفها وثيقاً الى يسارها .

وظلت العلاقات بين موسكو وواشنطون حذرة ، عندما قام فجأة النزاع من جديد في الشرق الأوسط فأفسد التوازن الضعيف لسلام العالم ، في ٥ حزيران ١٩٦٧ . ففي ستة أيام وقعت الحرب بين الجمهورية العربية المتحدة والاردن وسورية من جهة ، واسرائيل من جهة أخرى ، وانتهت بكارثة . ومنذ الساعات الاولى لهذه الحرب الخاطفة اجتمع مجلس الأمن في الأمم المتحدة ، ولكنه بدا عاجزاً عن الفصل بين المتحاربين والاتفاق على

المسؤوليات العائدة على كل منهم . رأى المندوب السوفياتي ان تشجب اسرائيل باعتبارها معتدية ، وان تتخلى جيوشها بالحال عن الاراضي التي احتلتها وتعود الى قواعد انطلاقها . ودعم ممثل الولايات المتحدة نظرية معارضة وقال : ان اسرائيل في حالة دفاع مشروع . وبين هذين الموقفين المتطرفين لم يتوصل الى الخروج بنص تسوية ، حل وسط . وتخلى المجلس عن القضية واحالها الى الجمعية العامة للأمم المتحدة التي دعيت الى دورة استثنائية عاجلة .

ثم حدثت ازمة جديدة شبيهة بأزمة كوبا فأغطشت الأفق . وبلغ التوتر درجة فرض معها منظور مجابهة نووية على الأفكار المهتاجة . ولأول مرة في التاريخ يسجل الكرمن على صعيد السياسة الدولية انفراطاً في المعسكر الاشتراكي . فقد قطعت بولونيا وتشيكوسلوفاكيا وهونغاريا، الى جانب الاتحاد السوفياتي، علاقتها الدبلوماسية مع اسرائيل . ورفضت رومانيا ان تشجبها . وظهرت ايضاً تصدعات في الكتلة الغربية ، حيث لزمت فرنسا بخاصة موقفاً محايداً دقيقاً، وأخذت على الاسرائيليين اشعالهم النار ، وقررت الحظر على العتاد العسكري الى الشرق الاوسط على وجه التخصيص .

ومهما يكن فقد وصلت الوفود الى نيويورك لعقد الجمعية العامة في ١٩ حزيران كما هو محدد . وكان يرأس معظمها وزراء الشؤون الخارجية بل ورؤساء الحكومات ، كما هي حال الوفد السوفياتي بخاصة ، فقد كان يضم ما لايقل عن ٦٦ عضواً ، وكان كوسيغين على رأسه . وبالحال سرت اشاعة لقاء بين رئيس مجلس الوزراء في الاتحاد السوفياتي والرئيس جونسون . وسمع صدى لدوي كبير اتى من نهاية اعماق آسيا : فقبيل

اجتماع منظمة الأمم المتحدة فجرت الصين الشيوعية في سن- كيانغ أول قنبلة حرارية - نووية لها .

ولم يحل هذا الانذار من ماوتسه-تونغ دون لقاء الكبيرين . وخلال مرتين ، الجمعة ٢٣ والأحد ٢٥ حزيران ، اجتمع جونسون وكوسيغين في غلاسبورو ، وهي مدينة جامعية صغيرة في نيوجرسي على مسافة متساوية من نيويورك وواشنطون . ودام مجموع المحادثات عشر ساعات . ودرست فيها قضايا الساعة كلها : نزاع الشرق الأوسط الذي كان في اصل اللقاء ، وحرب فيت-نام ايضاً ، والقنبلة الهيدروجينية الصينية ، والعلاقات بين الشرق والغرب ، ومساعدة البلاد المتخلفة ، ومعاهدة عدم انتشار الاسلحة النووية . ونادرة كانت القضايا التي اتفق عليها رجلا الدولة . ولايبدو انهما نهجا الى تقسيم جديد لمناطق النفوذ في العالم ، ولكن المناخ الذي ران على غلاسبورو ونسق تصريحاتها العامة يدعوان الى التفكير ، مع ذلك، بأن بطل العالم الحر وزعيم العالم الشيوعي قد قررا ايضاً ضم جهودهما لابعاد شبح الرؤيا النووية الى الأبد .

النهوض العجيب

عرفت روسيا السوفياتية ، منذ ١٩٤٥ ، نظامين سياسيين مختلفين : فقد خلف الدكتاتورية الستالينية نظام اكثر انسانية ، وحسب تطور يحمل فيه كل شيء على الاعتقاد بأنه غير قابل للرجوع الى الوراء . والملاحظون الدبلوماسيون أقرب الى الاعتقاد بأن الجهاز الموجه الجديد : بريجنيف ، كوسيغين ، بودغورني اعقل جهاز عرفه الاتحاد السوفياتي منذ تأسيسه . غير ان العدوان الغاشم على تشيكوسلوفاكيا ، في آب

١٩٦٨ ، خفف من هذا الحكم . ولاشك في انه لم يثر في الكرملن موافقة اجماعية ، ولكن النزعه القاسية غلبت عند من يعتبر الجمهوريات الشعبية تابعة دوماً لموسكو،ويحاول الحفاظ على امبراطورية ستالين الموروثة سليمة لاتمس .

وعلى الصعيد الاقتصادي، لم تخضع البنيات لتغييرات عميقة ، ولكن الاتحاد السوفياتي عاش تجربتين متميزتين :

في الفـــترة الاولى ، سيطرت على ستالين فكرة قوة الولايات المتحدة الصناعية ، وحاول ان يسد التأخر الذي يضع بلده بعيداً خلف الديموقراطية الاميركية الكبرى . وللبدء كان عليه أن يعيد توطيد طرق الانتاج التي كانت موضع التنفيذ في ١٩٤٠ ، وينهض بالمعامل التي دمرتها الحرب كلياً أو جزئياً ويجهزها بالعتاد الحديث . ولم يهمل كذلك المراكز الصناعية الضخمة التي انشئت بعيداً عن الجبهة ، في الاورال ، في كازاقستان ، في ارمينيا ، وفي سيبريا او حتى تخوم الاتحاد الآسيوية ، حيث أسست مدن عمالية مأهولة بافراط . ثم ان تنقلات العمال ، الأحرار أو المجبرين ، جعلت من بعض المدن الصغيرة منامل حقيقية . وهكذا انتقلت سفرد لوفسك من ٨٦٠٠٠ نسمة الى ٧٥٠٠٠٠ نسمة ، ونوفوسيبيرسك من ٧٠٠٠٠ نسمة الى ٨٠٠٠٠٠ نسمة .

وتؤلف التوظيفات المالية المخصصة للصناعة الثقيلة ، غداة الحرب ، ٨٣ ٪ في موازنة الاتحاد السوفياتي ، والباقي، وهو ١٧ ٪، موزع بين الزراعة والصناعة الخفيفة وسلع الاستهلاك . واستسلم الوف العمال الى الضنى والحرمان ، ولكن ارادة ستالين ، التي لاتهدأ ، سهرت على الا يتباطأ في أي وقت ايقاع العمل في الرحاب والورشات .

ولم تذهب التضحيات الكثيرة دون جدوى . فما كادت تمضي على الحرب خمسة أعوام الا وتجاوز الاتحاد السوفياتي مستوى انتاجه في ١٩٤٠. واذا كان هذا المستوى ممثلاً بالقرينة ١٠٠ فقد بلغ القرينة ١٧٠ في ١٩٥٠ ان المعامل السوفياتية ، التي كانت تستعمل آنذاك ماكينات صانعة تبلغ قيمتها ٨٤ مليار روبل ، قد جهزت بآلات تزيد قيمتها على ٢٠٠ مليار . وقدمت المناجم في السنة ٢٦٠ مليون طون من الفحم متجاوزة بذلك ٥٠ ٪ من محصولها في العام ١٩٤٠ . والمراكز الكهربائية، ومنها مركز الدنيبر الذي اعيد الى حاله ، وزعت مايقرب من ١٠٠ مليار كيلو وات ساعي من التيار الكهربائي .

ولنذكر ايضاً لهذه السنة ١٩٥٠ انتاج : ٦٢ مليون طون من البترول ، ٢٥٫٨ مليون طون من الصلب ، ٣١٫٧ مليون طون من الفولاذ .

وازداد انتاج المنسوجات والمواد الجلدية بمقدار الثلاثة امثال بالنسبة الى انتاج ما قبل الحرب . ثم ان معامل الفولاذ العملاقة في مانيتوغورسك ، وغوركي وكوزنتسك التي تدور ٢٤ ساعة على ٢٤ ، والمعامل الكهربائية ، والمحاصيل التي تخرج يومياً من الأرض تدل على طموح الاتحاد السوفياتي في اقتطاع مكان له بسرعة بين الدول الصناعية الكبرى في العالم .

ولكن اذا كان الخلاص من الستالينية في البدء عملية سياسية ، فقد تناول فيما بعد صعيد الاقتصاد . لقد نشأ وراء سجف الكرملن الثقيلة ، واستقبل في الساحة العامة وعداً بعهد جديد يكفي حاجات الفرد الأولية على الايضحى الفرد فيها للآلة ، وأبدت الشبيبة السوفياتية سخطاً حقيقياً على الحياة ، ولم تتصور . على وجه التأكيد قلباً للنظام ،

وكانت تفخر بانجازات الاتحاد السوفياتي ومهندسيه اللذين يسميان توبوليف واليوشين ، وبعلمـــائها الذين اطلقوا اول جرم تابع (سبوتنيك) ، وبملاحيها في الفضاء ، ومدنها ، ومعـاملها العملاقة ، وسدودهـــا ، وقذائفهـا عبر القـارات ، ولكنهـا جزعة الى ان ترى فتح نوافذ على العالم الخارجي .

وفي ١٩٦٧ ، السنة الخمسين لثورة تشرين الأول ، بلغ الانتاج اليومي للصحف والمنشورات المختلفة ، في الاتحاد السوفياتي ، رقماً قياسياً بـ ٢٧٥ مليون نسخة . والتهم الجمهور النهم الى المعرفـة كتلة الورق المطبوع بكامله، واتى الزوار الاجانب المتكاثرين بالتدريج الى هذا الجمهور بأصداء حياة يجهلهـا ويزينها طوعـاً بجمال خيالي ، في الوقت الذي اخذت فيه الموضـات الغربية والمنسوجـات الثمينة والكتب والأفـلام والاسطوانات تخاطب خياله وتبعث فيه تذوق موضة الحياة الناعمة .

وطوعاً او كرهاً ، أخذ الموجهون السوفياتيون هذه الاتجاهات بعين الاعتبار، وتركوا في تنبؤاتهم مكاناً هاماً للسلع الاستهلاكية الشائعة . ومن الممكن الحكم على التقدم المتحقق في هذا المضمار ،كما في مضمار الانتاج الصناعي، بمقارنة ارقام ١٩٦٥ بأرقام ١٩٥٠ .

بولونيا

لقد أثار نظـام بولونيا مع نظام المانيا جدلاً شديداً بين الحلفاء بعد الحرب العالمية الثانية .

وعبثاً حـاول تشرشل في يالطا ، وفي بوتسدام، الحصول على معاملة عادلة لبولونيا تؤمن استقلالها وسيادتها ، أي بانتظار انتخابات حرة ،

وتشكيل حكومة يقبل بها البولونيون جميعاً . ولم يكن ستالين لينظر الا الى أمن الاتحاد السوفياتي ، ولذا كان يظهر عداءه دون فرق حيال حكومة بولونيا في لندن والجيوش التي حشدتها، وبخاصة جيش الجنرال آندرس ، الذي يعتبره بحق انبثاقاً للروح القديمة الرجعية ، روح بيك وبيلسودسكي و ريدز - سميغلي .

ويرى الزعيم السوفياتي ان السلطة الوحيدة القمينة بتمثيل كافة الشعب البولوني هي : لجنة لوبلن الموقتة التي تسود فيها العناصر الشيوعية ويرأسها بوليسلاو بيروت، وقد استقرت في فارسوفيا منذ الاول من كانون الثاني ١٩٤٥ الا ان الغربيين حصلوا ، في شهر حزيران ، على توسيع لهذه اللجنة ، وقبل ان يكون فيها اربعة اعضاء من حكومة لندن ، وكان احدهم ستانيسلاس ميكولايتشيك ، الزعيم السابق لحزب الفلاح . وقد حصل في التشكيل الجديد على صلاحيات نائب رئيس مجلس الوزراء ، مع حقيبة وزارة الزراعة . ولم يكن هذا الاتنازلاً مؤقتاً من الشيوعيين . وفي بوتسدام حصل ستالين ، في ٢١ تموز ، على الاعتراف بحدود بولونيا الغربية حسب مجرى نهري الاودر والنايس الغربي . وأصبحت منذ الآن كل مداراة دون فائدة . وكان على رجاله ان يناوروا ميدانياً بشكل يستولون فيه بسرعة على السلطة كلها . وبعد ان كان ميكولايتشيك، في الائتلاف الحكومي الثاني، ثاني شخص في الحكومة ، سحق في انتخابات كانون الثاني ١٩٤٧ في ختام الاقتراع المزيف بفظاظة ، واضطر ان يعاود طريقة الى المنفى دون ان تحاول الدول الغربية ، المجندة بالحرب الباردة ، شيئاً لصالحه .

وبعد ان حذف الرفقاء الاشتراكيون والديموقراطيون امسك حزب

العمال البولوني ، منذ الآن ، بكل وسائل القيادة وانحاز بسياسته لسياسة الكرملن ، بالرغم من معارضة بعض زعمائه ، مثل ولاديسلاوغومولكا أمينه العام . وفي آب ١٩٤٨ رفض غومولكا الاشتراك بالحملة التي نظمها ستالين ضد زعيم الدولة اليوغوسلافية ، فاتهم بـ « التيتية » وجرد من وظائفه في المكتب السياسي ، وحل محله بيروت ا كثر الموجهين البولونيين ستالينية . وبعد قليل عزل غومولكا من وظيفته كوزير للداخلية قبل ان يطرد من الحزب في تشرين الثاني ١٩٤٩ ويطرح في السجن في السنة التالية .

وكان للعمل ، الذي قام للخلاص من الستالينية في الاتحاد السوفياتي ، بعد وفاة الجيورجي ، انعكاسات في قلب حزب العمال البولوني الموحد. فقد افتتح مؤتمره الثاني في فارسوفيا ، في ١٠ آذار ١٩٥٤ ، وثبت بيروت في وظائفه أميناً أول للجنة المركزية ، ولكنه ترك مكاناً لبعض الأحرار مثل جوزيف سيرانكيويتش ، ادوار اوشاب ، موراوسكي ، وآدم راباكي ، وحذفت وزارة الأمن العام ، واوقف كثير من أقران بيريا في شرطة الدولة ، وطردوا من الحزب او نفوا الى معسكرات العمل .

وفي ٢١ كانون الثاني ١٩٥٥ استسلم بيروت الى نقد ذاتي شديد أمام اللجنة المركزية . ولكن هذا العمل منه لم يكف النخبة الفكرية البولونية التي تجرأت وطالبت بالاصلاحات العميقة في بنيات الدولة والحزب ، وفوق كل شيء بحرية أكبر . ومرض بيروت فذهب للاستشفاء في موسكو حيث توفي في ١٢ آذار ١٩٥٦ . وحل محله في رئاسة الحزب اوشاب، وبادر هذا باطلاق سراح غومولكا . وكان ذلك اخفاقاً شديداً وانذاراً لـ « فريق ناتولن » الذي يضم الستالينيين الأشداء في الشيوعية البولونية .

الربيع في تشرين الاول

تدل ثورة بوزنان ، في ٢٨ حزيران ، على استياء الطبقة العاملة التي لم تعد تثق بمنظماتها النقابية السياسية . وكان شقاؤها عظيماً ايضاً ، لأن الـ ١٥٠٠٠ عامل معدني، الذين انتشروا في شوارع المدينة، كانوا يطالبون بالخبز والانظمة الحرة ، وذهاب الروس . وكان الثائرون يقاتلون بعنف قوات النظام ، ويحاولون الاطاحة بفوضية الشرطة ، وعمارة الراديو ، وعمـــارة الحزب . وفي الليل ، كانت الميزانية على الشكل التالي : ٥٣ قتيلاً ، اكثر من ٣٠٠ جريح ، و ٣٢٣ موقوفاً .

وبعد عدة تأجيلات افتتحت دعوى متمردي بوزنان، في ٢٧ ايلول . ولم يبق الا ٢٠ شاباً للمثول أمام المحكمة التي حكمت على ١٢ منهم بعقوبات خفيفة ، واطلقت سراح المتهمين الآخرين .

وفي الاجتماع العام السابع للجنة المركزية ، الذي افتتح في ١٩ تشرين الأول ، القى غومولكا خطاباً طويلاً منددا بالمناورة التي جعلت من الثائرين « العملاء المحرضين لدول اجنبية ومنظمات مناوئة للثورة » ، ودعم بقوة ان« من المستحيل تحمل أكثر من ذلك » وان« أسباب مأساة بوزنان وقلق الطبقة العاملة توجد عندنا ، في توجيه الحزب والحكومة » .

وقامت المعركة ضد السيطرة السوفياتية . وفهم ذلك في موسكو، وفي فجر ١٩ تشرين الأول نزل خروتشوف ومولوتوف وميكويان وكا- غانوفيتش محاطين بالماريشال كونيف و١٢ جنرالاً في فارسوفيا لدعم قضية انصارهم . ورغم هذا الحضور ، وربما بسببه ، ورغم الاوامر المعطاة الى قطعات الجيش الاحمر بالزحف على المدن البولونية الهامة ، تغلبت النزعة

الليبرالية عندمابوشر، في ٢١ تشرين الأول ، بانتخاب أعضاء المكتب السياسي التسعة . فقد انتخب سيرانكيويتش بـ ٧٣ صوتاً ورابا كي بـ ٧٢ وغومولكا بـ ٧٤ صوتاً وانتخب بالتزكية اول امين للحزب . ولم يغادر هذا المنصب .

وبهذه الثورة دون متاريس ، « هذا الربيع في تشرين الأول » قلبت بولونيا صحيفة جديدة في تاريخها .

هذا وان ثورة بودابست في آخر تشرين الأول نفسه ومقاومة بعض الجمهوريات الشعبيه ، جمهورية رومانيا بخاصة ، للتخطيط الاقتصادي الذي اثاره الكوميكون (مجلس المساعدة الاقتصادية المتبادلة) ، النسخة الشرقية للسوق المشتركة ، لتدل آنذاك على نزعة مكدرة للدول « التابعة » لاسترجاع استقلالها السياسي . ولحماية تماسك الكتلة الشيوعية أمام المنظمة الاطلسية، اهتم الكرملن باقامة آلة عسكرية وقدمها رداً على منظمة الاطلسي التي قبلت فيها المانيا الاتحادية بموجب اتفاقات باريس في ٢٣ تشرين الاول ١٩٥٤ . واتي بتعديل لميثاق فارسوفيا المؤرخ في ١٤ آيار ١٩٥٥ الذي يؤمن للأركان السوفياتية القيادة العليا للقوات الاشتراكية في حالة الخطر .

ولكن التهديد باعادة تسلح المانيا والمكان الذي تحتله في الحلف الاطلسي اقلقا الحكومات الاشتراكية . وقد عرض آدم راباكي وزير الشؤون الخارجية على الأمم المتحدة ، في ٢ تشرين الأول ١٩٥٧ ، الخطة التي تحمل منذ الأن اسمه وتتصور تحييداً نووياً لأوربه الوسطى .

ومع جوزيف سيرانكيويتش في رئاسة مجلس الوزراء و والديسلاو غومولكا على رأس حزب العمل الموحد ، امكن الاعتقاد بأن بولونيا سارت في طريق الشيوعية القومية، وانها حليفة وليست تابعة للاتحاد السوفياتي.

ولكن تدخل جيوشها الفظ في تشيكوسلوفاكيا ، في ٢٠ آب ١٩٦٨ ، الى جانب الجيش الأحمر ، وموجة الاضطهادات ، التي طغت في نفس الدور ، تدلان على ان المراد فقط هو المظهر ، وان بولونيا لم تطرد بعد شياطينها القديمة .

ميلاد جديد

واليوم تبدو بولونيا بشكل رباعي ، مساحته ٣١١٧٣٠ ك م٢، مفتوح على البالطيك بشاطىء طوله ٤٩٧ك م. وعدد سكانه ٣١ مليون نسمة،يعيش نصفهم في المدن والمراكز الصناعية . واذا كسبت بولونيا في ١٩٤٥ ما يبلغ ١٠٠٠٠٠ ك م٢ من الاراضي من المانيا (سيليزيا ، بوميرانيا الشرقية وقسم من براند بورغ وجنوب بروسيا الشرقية) فقد تنازلت عن ١٧٠٠٠٠ كم٢ الى الاتحاد السوفياتي تضم بخاصة غاليسيا الشرقية وفولهينيا، ومناطق بنسك و غرودنو و بريست - ليتوفسك .

وترك الاحتلال النازي ، في هذا البلد المجزأ الممزق ، افظع الجروح ، وقضى على ٢٢ ٪ من سكانه .

وبعد الحرب قام جهد واسع في الاعمار في جميع البلاد. وقد اعاد زكاء وذوق مهندسيه المعماريين والمدنيين وشجاعة فنييه الى بولونيا مدنها مع قصورها و كنائسها ذات الاسلوب الباروك التي رممت في أقل تفاصيلها ،وبيوتها البورجوازية بسحرها القديم البالي . كما صرف أيضاً قسط من الاهتمام للعمارات الحديثة والطرق الواسعة ، والساحات الخضراء . وبينما كانت الحياة تعود الى فارسوفيا و كراكوفيا و وروكلاو (بريسلو) وغدانسك (دانتزيغ) كان النهوض الاقتصادي يواصل سيره في جميع قطاعات النشاط بنتائج باهرة .

ووضع الاصلاح الزراعي ٦ ملايين هكتار من الاراضي ، تحت تصرف مليون عائلة، فأسهم بشكل فريد في رفع مستوى حياة طبقة الفلاحين . ونمت الزراعات التقليدية كالحبوب والبطاطا والشمندر والزيتيات . ونهضت الصناعة الغذائية (معامل تكرير السكر ، والكونسروه والبيرة الخ ...) نهضة جديدة . ولعبت تربية الحيوانات ايضاً دوراً هاماً في الاقتصاد البولوني . فالقطيع يضم اليوم مايقارب ٧ ملايين بقرة، ٦ ملايين خنزير ، ٣ ملايين حصان و ٢،٥ مليون خروف .

وعرفت مواني غدانسك وغدينيا على مصب نهر الفيستول ، وسيزسين في مصب نهر الاودر، مع مواني كولوبروزغ، دارلوفو ، اوستكا ، تجارة كثيفة : نحو ٤٠ مليار طون في العام . وتختص رحاب المنشآت البحرية بانتاج سفن الشحن من وزن ١٠٠٠٠ طن ، وتحتل المكان الخامس في هذه الصناعة في العالم .

وقديماً كانت بولونيا بلداً زراعياً بصورة أساسية، ولكنها احتلت، بعد الحرب ، مكاناً بين المناطق الصناعية العالية في اوربة . وبفضل حوضها المنجمي الواسع ، في سيليزيا - بوزنانيا - مازوريا ، تعتبر من اهم البلاد المجهزة للفحم في القارة ، دون حساب احتياطياتها الهامة : ١٨ مليار طن من الليغنيت . وحوض توروسزوف وحده مدعو الى انتاج ٧ مليارات كيلووات ساعي من التيار الكهربائي في العام . كما تعتبر مناجم الملح في فيليتشكا بمستوياتها الثمانية التي تنزل حتى ٣١٥ م عمقاً و ١٢٠ كم طولاً ، اهم مناجم العالم . ويكثر النحاس والاورانيوم في سيليزيا - الدنيا ، والتوتياء في سيليزيا العليا ، والحديد في منطقة تشيستوشوفا ، والبترول في مناطق ياسلو كروسنا . ومثل ذلك من الموارد التي تساعد على تفتح صناعة قوية . وهكذا انشئت مراكز معدنية في فارسوفيا ، بوزنان ،

فروكلاو ، لودز ، زيلونا ـ غورا ، شتاراشوفيس ، الخ . ومعامل منتجات كيماوية في كراكوفيا ، شورزوف ، موسيس ، بيد غوزتش ، ومصانع منسوجات في لودز ، بياليستوك ، بيسكو ، تشيستوشوفا ؛ والورق في لودز و بونان . والاسمنت في اوبول ، ومعامل المنشآت الكهربائية في فروكلاو ، كاتوفيس ، لودز ، وفارسوفيا .

وطبقاً لبنود الكوميكون تلتزم بولونيا بمبادلات منظمة مــع بلاد الكتلة الشيوعية . وقد ابرمت ، مع ذلك ، معاهدات تجارية مع عدة دول غربية ، وبخاصة بريطـانيا العظمى وفرنسا والمانيا الاتحادية والدول الاسكاندينافية . واكتشف ، كسائر بلاد الشرق ، منذ بضع سنوات ، فوائد السياحة ، واخذت تهتم بجذب الزوار الاجانب .

تشيكوسلوفاكيا

لقد استقال ادوار بينيش ، رئيس الجمهورية التشيكوسلوفاكية ، غداة مونيخ ، وقبل كرسي الفلسفة في جامعة شيكاغو . وعندما بدأت الحرب ، ذهب الى لندن ، ملجأ رجال الدولة الذين طردهم غزو القارة من بلادهم ، واستلم فيها رئاسة حكومة تشيكوسلوفاكية مؤقتة . وفيها وجه ، في العام ١٩٤٢ ، اغتيال هيدريك . وفي كانون الأول ١٩٤٣ ، ذهب الى موسكو ، حيث ابرم مع ستالين معاهدة مساعدة متبادلة وتعاون لما بعد الحرب . وفي آذار ١٩٤٤ اعطى الأمر بالثورة الى أنصار بوهيميا وسلوفاكيا الذين أتوا ، منذ ذلك الحين ، بمساعدات ثمينة للجيوش الروسية التي كانت تتقدم نحو وسط اوربة . وفي نيسان ١٩٤٥ اجتاز الجيش الثالث الامريكي حدود تشيكوسلوفاكيا ، ولكنه وقف على الخط كارلسباد ـ بيلسن ـ بوديجوفيس ، تاركاً للسوفياتيين شرف تحرير براغ ، في ٩ أيار ، في حين

ان المقاومة الداخلية ، التي كانت تناضل منذ اسبوع ، أصبحت عملياً سيدة المدينة .

عندئذ دخل بينيش العـــاصمة مصطحباً حكومة اتحاد وطني يرأسها الاشتراكي فيرلنغر ، وفيها امسك الشيوعيون بثماني حقائب على خمس وعشرين. وتباهى رئيس الدولة باقامة النظام الديموقراطي البرلماني الذي يتعلق بـه دوماً ، وبصيانة استقلال بلده الذي اراد ان يكون له همزة وصـل بين روسيا السوفياتية والغرب الحر . ولم يساعده الكرملن على الحفاظ على اوهامه طويلاً .

وفي شهر حزيران ١٩٤٥ ،عندما عينت حدود تشيكوسلوفاكيا الجديدة وبدىء بطرد الاقليات الالمانية والهونغارية ، تم التنازل للاتحاد السوفياتي عن روثينيا الكارباتية . وفي انتخابات أيار ١٩٤٦ ، نظمت الدعاية منذ ان اعربت موسكو عن نفسها بنجاح الشيوعيين ، الذين الفوا بـ ٣٨٪ من الأصوات اقوى حزب في البرلمان . وكلف كليمانت غوتفالد ، وهو ستاليني مؤمن ، بتشكيل الحكومة الجديدة . وفي ١٠ تموز ١٩٤٧ ، خضع لأمر موسكو عندما اجبرته على رفض مساعدة خطة مارشل ، ولم تكن تشيكوسلوفاكيا ، كسائر الجمهوريات الشعبية ، الا تابعـــاً للدولة السلافية الكبرى .

انتشر فيها الشيوعيون خلال عامين ، حتى انتخابات عـام ١٩٤٨ ، التي سلمتهم جميع الوسائل القيادية . ومنذ بداية هذه السنة الحاسمة ، قامت حملة صحافية عنيفة ضد مؤامرة رجعية مزعومة . وبينما كان وزير الداخلية ، الشيوعي نوسيك ينظم على هواه مصالح الشرطة ، أوفد الكرملن الى براغ نائب وزير الشؤون الخارجية ، فاليريان زورين ، موصل اليها في ١٩ شباط . وعندئذ استقال ١٢ وزيراً اشتراكياً شعبياً تشيكياً وديموقراطياً

سلوفاكياً بشكل احتجاج على التدخـــل الماركسي في الادارة والشرطة والنقابات . وقدم غوتفالد الى بينيش قائمة حكومة جديدة مطهرة من هذه العناصر المعتدلة ، وفيها امسك الشيوعيون بجميع الحقائب الهامة ، باستثناء حقيبة الشؤون الخارجية ، التي ظلت بين يدي **جان مازاريك**، نجل مؤسس الدولة التشيكوسلوفاكية . ولما تردد رئيس الجمهورية نظمت مظـاهرات عظيمة في العاصمة وسار ٢٠٠٠٠٠ عامل مسلح في الشوارع في منـاخ ثورة . وكان بينيش مريضاً منهوك القوى ، فاستسلم ، في ٢٥ شباط ، وصـــادق على التعديل الوزاري ، وفي ١٠ آذار التالي ، كشفت جثة مازاريك في اسفل قصر تشرنين: وخلص التحقيق الرسمي الى ان موته هذا كان مجرد انتحار .

وفي ٣٠ أيار جرى الاقتراع حسب نظام القائمة الوحيدة فأمن انتصار الشيوعيين بـ ٨٣٫٩ من الأصوات . ونجحت « ضربة براغ » تماماً .

وفي ٧ حزيران تخلى بينيش عن وظائفه واعتزل في **سيزيموفو ـ اوستي**، حيث اضناه المرض والحزن . ومات في ٣ ايلول وعمره ٦٤ عاماً . وخلفه غوتفالد على رئاسة الجمهورية، وتسلم الزعيم النقابي **انطونين زابوتوكي** رئاسة الحكومة .

ومنذ ٩ آيار تبني دستور جديد ، واعلن رسمياً في ٩ حزيران ، وهو ينظم الدولة الديموقراطية الشعبية، ويضمن الحق في العمل والفراغ . ويؤمم التعليم العام ، والمناجم ، والصناعة ، والمصرف ، وتجارة الجملة ويوزع الأرض بين الفلاحين .

وقام نزاع شديد حاد بين فريقين كبيرين متنافسين لتوجيه الحزب الشيوعي ،وفي بادىء الأمر سجل سلانسكي ، الأمين العام للجنة المركزية ، بعض النقاط . وقـام بحملة تطهير واسعة . وكان اهم ضحية فيها

فلا دبير كليانتيس ، وزير الشؤون الخارجية الجديد . فقد اجبر على الاستقالة ، في آذار ١٩٥٠ ، ثم اوقف مع انصاره السلوفاكيين وحوكم في شباط ١٩٥١ ، وحكم عليه بالاعدام ونفذ الحكم . ولكن غوتفالد مالبث أن اخذ بثأره . وبمناسبة تجديد اللجنة المركزية ، في ٧ ايلول ، رفع سلانسكي من منصبه كأمين عام ، وبصورة تعويض ، سمي نائباً لرئيس مجلس الوزراء ، ولكنه اوقف في ٢٧ تشرين الثاني . واتهم بمتابعة نشاطات ضارة بأمن الدولة ، وحكم عليه بدوره بالاعدام . كما علق ٦ أعضاء آخرين من اللجنة المركزية ، والقي في السجن ٢١ ، واختفى ٣٥ من الحياة العامة .

وتخلص غوتفالد ، كسيده السوفياتي ، من خصومه . ولكن صحته اقلقت حاشيته . وبعد ان عاد من رحلة الى موسكو ، حيث حضر ، في ٩ آذار ١٩٥٣ ، جنازستالين ، توفي في ١٤ آذار . وعادت رئاسة الدولة عندئذ الى انطونين زابوتوكي ، فكلف وليم سيروكي بتشكيل الحكومة الجديدة . وأخذ انطونين نوفوتني كرسي الأمين الأول للحزب الشيوعي .

ومضت عدة سنوات قبل ان تدخل تشيكوسلوفاكيا عهد الخلاص من الستالينية . لأن الصبأ ليس سهلاً بالنسبة الى نوفوتني « الآباراتشيك » الكامل . فهو مدين الى غوتفالد بقبوله في المكتب السياسي في ١٩٥١ ، وعرف ، في السنه التالية ، بأنه كان افظع انسان يحط من قيمة وقدر سلانسكي . وكان يجيب على كل تحذيرات خروتشوف مشيراً الى الضرورة التي يوجد فيها « لرفع المستوى الايديولوجي لاعضاء الحزب اولاً » و « الحفاظ على سلامة الحزب الشيوعي بتطهيرات دورية » ، حتى ان المؤتمر العشرين في موسكو في ١٩٥٦ لم يبدل موقفه .

وفي السنة التالية ، بعد وفاة زابوتوكي ، انتخب نوفوتني رئيساً للجمهورية من قبل الجمعية الوطنية ، لمدة سبع سنوات . واحتفظ بوظائفه أميناً اول للحزب . وظل يقوم بهتين الاداوتين بعد ان انتخب للمرة الثانية رئيساً للدولة، في ١٢ تشرين الثاني ١٩٦٤ ، لمدة خمسة اعوام هذه المرة، بموجب احكام دستور العام ١٩٦٠ .

وفي ١٩٦٢ انحاز نوفوتني أخيراً حسب أوامر الكرملن الجديدة . واعلن بطلان عبادة الشخصية التي كان غوتفالد هدفاً لها ، وعلى غرار السوفياتيين افرغ مقبرة العظماء من رفاة الرئيس الأسبق . وجرد اليكسي شيبيكا، صهر غوتفالد ،من وظائفه كوزير للدفاع وابعد عن المكتب السياسي، واعيد اعتبار سلانسكي وكليمانتيس ، واطلق سراح آخر أحياء الدعاوى السياسية . كما حرر ايضاً ، في تشرين الأول ١٩٦٣ ، خمسة أحبار كاثوليك ، وكان احدهم المونسنيور بيران رئيس اساقفة براغ الذي سجن في ١٩٥١ في دير في مورافيا .

وشرع نوفوتني ايضاً بتعديل وزاري هام . ففي ٢٢ ايلول ١٩٦٣ ، كان على الستاليني سيروكي ان يتنازل عن رئاسة مجلس الوزراء الى جوزيف ليناوت ، وهو شيوعي ليبرالي عمره ٤٠ عاماً ، وكان رئيساً سابقاً للمجلس الوطني السلوفاكي ، وبدلت الحقائب الايدي ، وآلت حقيبة الشؤون الخارجية الى فاكلاف دافيد

ولكن قسماً هاماً من الرأي التشيكوسلوفاكي رأى أن هذه الاجراءات غير كافية، وأخذ على زعماء الجهاز الشيوعي ، الستالينيين الذين اساءوا الندم، عجزهم عن التكيف مع ظروف الدولة الحديثة . ورانت ازمة عتيدة على الحياة السياسية في البلاد ، واخذت تتفاقم من سنة لأخرى كلما خسر نوفوتني

من سلطته . فقد أشهر شباب تقنوقراطيون اخفاق الاصلاحات الاقتصادية التي جرت في١٩٦٢ . وانتقد الطلاب والكتاب والسينمائيون علناً الطبقة البوروقراطية الجديدة الناشئة عن النظام . وفيحزيران ١٩٦٧ ، اعلنوا عدم تضامنهم مع الحكومة التي اصطفت ، على غرار حكومة موسكو ، الى جانب البلاد العربية ، عند نشوب الحرب في الشرق الاوسط . وفي كانون الأول حكم المكتب السياسي للحزب الشيوعي التشيكوسلوفاكي بـ ٦ أصوات مقابل ٤ بفصل السلطات ، وعدم التواؤم بين اعباء زعيم الحزب ورئيس الدولة . وانعقدت اللجنة المركزية في براغ من ٣ الى ٥ كانون الثاني ١٩٦٨ ، بصفة محكمة عليا مؤلفة من ١٢٤ عضواً ، وصادقت على هذا القرار . ولاجتناب التصويت بالطرد ، قدم نوفوتني استقالته كأمين اول للحزب ، وانتخب مكانه **الكسندر دوبشك** ، وعمره ست واربعون عاماً، وأصله من براتيسلافا . ثم افلتت منه وظائفه ، كرئيس للجمهورية ، ونقلت الى الجنرال **لودفيك سفوبودا** بطل المقاومة الشعبي . وكان هذا آخر حكم نوفوتني .

ضربة براغ الثانية

ومع الرئيسين الجديدين في الحزب والدولة ، مع **اولديك شيرنيك** الذي حل محل جوزيف لينارت على رأس الحكومة ، ومع **جوزيف سموركوفسكي** لرئاسة المجلس الوطني استقر مناخ جديد في تشيكوسلوكيا، حيث هبت نسمة كبيرة من الحرية بعد عشرين عاماً من الصمت . ورأى موجهو براغ ان البلاد يمكن ان توجه بطرق مغايرة للطرق البوروقراطية والبوليسية . فحذفت الرقابة . واخذت دمقرطة النظـــام والانفتاح نحو الغرب الذي اوصى به الاقتصاديون البراغيون ، تقلقان الكرملن ، وكان

عليه في الوقت نفسه ان يجابه مطاليب نقابات العمال في اكرانيا . وخافت حكومتا بولونيا والمانيا الشرقية من ان تمتد العدوى الليبرالية الى بلديهما . وبعد عدة تحذيرات من موسكو ، دعيت « قمة » شيوعية الى فارسوفيا ، في ١٥ تموز ، فشخص اليها زعماء الأحزاب : السوفياتي والبولوني والألماني - الشرقي والهونغاري والبلغاري . ورفض دوبشك ان يمثل فيها بموقف المتهم ، ورفض الموجهون الرومانيون الدعوة . وفي ختام الاجتماع ، وجه « الخمسة » رسالة الى المسؤولين عن السياسة التشيكوسلوفاكية ، وكانت اتهاماً حقيقياً وانذاراً يهددهم بالعودة الى الخط الارثوذكسي .

وبينما كانت الصحافة الموسكوفية تبالغ في حملتها ضد « انصار اعادة النظر اليمينيين » و « اضداد ثورة » براغ ، عقد نقاش ، في ١٨ تموز ، امام اللجنة المركزية للحزب الشيوعي السوفياتي . وتبني تقرير بريجنيف ، أي مبدأ التدخل المسلح .

وفي ٢٩ تموز ، قبل الروس بمجابهة مع وفد تشيكوسلوفاكيا في شيرنا ، وهي قرية سلوفاكية على الحدود . وفي ٣ آب ، انعقد مؤتمر جديد في براتيسلافا ، واشترك في هذه المرة « الخمسة » الذين اشتركوا في مؤتمر فارسوفيا . وبدا ان كل سوء تفاهم قد زال ، كما علقت التهديدات بالتدخل العسكري .

وفي ٩ آب زار تيتو براغ فاستقبله الشعب استقبالاً مفعماً بالحماسة ، ثم جاء بعده ، في ١٢ ، فالتر اولبرخت ، رئيس الجمهورية الديموقراطية الالمانية ، وقام بمحادثات مع دوبشك في كارلوفي - فاري ، وعلى اثرها

نشر بلاغ يتكلم عن « افضل تفاهم متبادل » . وفي ٥ آب أخيراً ، شخص نيقولا سيآوسيسكو ، الزعيم الروماني ، بدوره الى براغ حيث وقع في ١٧ منه معاهدة « صداقة وتعاون ومساعدة متبادلة » جديدة مع الموجهين التشيكوسلوفاكيين .

ولكن « قساة » موسكو لم يتخلوا عن مشروعاتهم ، وفي الليل ، من ٢٠ الى ٢١ آب ، دخلت الجيوش السوفياتية تشيكوسلوفاكيا مع قطعات مسلحة من البلاد الاربعة الأخرى التي اشتركت في حلقة فارسوفيا ، أي بمجموع اكثر من ٣٠٠٠٠٠ رجل . وفي بضع ساعات حوصرت البلاد كلها . واوقف محركو السياسة التشيكوسلوفاكية الجديدة ، وبخاصة دوبشك ، شيرنيك ، وسمركوفسكي ، واقتيدوا بالقوة الى موسكو ، ثم التحق بهم الرئيس سفوبودا . فهل كان الروس يؤملون باكتشاف فريق في براغ يحل محلهم ؟ على أي حال لم يتقدم أحد .

لأن الشعب التشيكوسلوفاكي وقف موقفاً يعتبر مثلاً لغيره ، وبرهن عن كرامة وشجاعة وعزم قلما يضاهى . وكان اول اثر لتدخل « الخمسة » في التحام الشعب برمته في كتلة متجانسة وراء دوبشك ورفاقه ، فقد طالب بتحريرهم ونظم مقاومة سلبية تدعمها صحف واذاعات راديوات سرية .

وفي موسكو لم تجد السلطات السوفياتية ، في ذلك الحين ، محدثين مرنين ، فاضطرت ، في ٢٣ آب ، الى فتح المفاوضة مع من وضعتهم تحت تصرفها ووضع الرأي التشيكوسلوفاكي المجمع ثقته بهم . وفي ٢٧ منه عاد الوفد التشيكوسلوفاكي الى براغ وقدم تقريراً بمحادثات موسكو : ولم يخف الرئيس سفوبودا أن « الآثار الاليمة للحوادث الأخيرة ستدوم زمناً طويلاً جداً » . واكد دوبشك بعده ، وكان منهكاً ، « ان من اللازم ،

مهما كلف الأمر ، تجنب آلام أخرى وخسائر أخرى ، لأن هذا لا يغير شيئاً في واقع الحال » . وأعلن زعيم الحزب « ان التدابير الموقتة التي تحدد الدمقرطة وحرية التعبير ، انما هي تدابير لم نتخذها أبداً في حالة طبيعية »

وضحي رجال ، منهم: **قيصر**، ابغض الناس الى السوفياتيين ، وقد تخلى عن أمانة الحزب التشيكي ؛ و **اوتاسيك** ، أبو الاصلاح الاقتصادي ، الذي نحي عن نيابة رئاسة مجلس الوزراء ، و **جوزيف بافل** الذي حل محله **جان بيلنار** في وزارة الداخلية . ثم اعيدت الرقابة على كل ما يتعلق بالاتحاد السوفياتي والجمهوريات الشعبية . واستحوذت على السكان مرارة عميقة .

ومهما يكن، فقد ارخي الوثاق بعد الشد . ففي ٦ ايلول وصل إلى براغ دبلوماسي سوفياتي ماهر ، **فاسيلي كوزنتسوف** ، أول نائب وزير للشؤون الخارجية ، للاشراف على التنفيذ الأصلح لتسوية موسكو . وفي ١٠ ، طار شيرنيك الى الاتحاد السوفياتي . وفي ١٦ تشرين الأول وقع « اتفاق » على مرابطة الجيوش السوفياتية في تشيكوسلوفاكيا .

وفي الليل من ١١ إلى ١٢ أجلت أخيراً دبابات « الخمسة » وعجلاتهم المصفحة وسط المدن للتجمع في الأرياف المجاورة . وفي بحر الاسبوع التالي نقل القسم الأعظم من الجنود الى حدود المانيـا الغربية والنمسا . وقد أثارت هـذه الحركة هياجاً شديداً في عواصم الغرب . وتفاوض الحلفاء الغربيون . وفي ١٨ ايلول حذروا الكرملن ، وأعلنت دائرة الدولة الاميركية بخاصة « بأن الاتحاد السوفياتي أو أياً من البلاد الاعضاء في ميثاق فارسوفيا إذا تدخل جانبياً بالقوة في جمهورية المانيا الاتحادية ، فان

هـذا العمل يؤدي الى رد حليف مباشر في نطـاق تدابير الدفاع الذاتي المتوقعة في معاهدة شمالي الاطلسي » .

وبينما كان دوبشك وشعبه يحاولان تحويل بنود « املاء » موسكو ، ورومانيا ويوغوسلافيا تراقبان بقلق منـــاورات الجيش الأحمر ، انتقل مركز ثقل الازمة . وأسدل الستار الحديدي من جديد على وسط اوربه ، معلناً بفظاظة نهاية سياسة الانفراج . وهكذا لم يحرز الاتحـاد السوفياتي في ضربة براغ الثانية ، لا مجداً ولا ربحاً . ولم يعط الكرملن انطلاقاً لدور جديد في الحرب الباردة فحسب ، بل وجه أيضـاً ضربة مميتة لتماسك المعسكر الشيوعي وأيقظ حذر العالم الثالث .

المنظورات الاقتصادية الجديدة

لقد أعيد توحيد تشيكوسلوفاكيا بعد الحرب العالمية الثانية . وهي تتألف من ثلاثة اقاليم كبرى : **بوهيميا ومورافيا** ، والاصليون فيها ينتسبون لعائلة تشيكية واحدة ، **وسلوفاكيا** . وتغطي بالاجمال مساحة ١٢٧٨٦٩ كم٢ وسكانها ١٤،٧٤٥،٠٠٠ نسمة .

وكان من بين القضايا العاجلة ، التي وضعت لحكومة براغ الجديدة، قضية اعادة استيطان منطقة السوديت حيث طردت، في العام ١٩٤٥ - ٤٦، الأقلية الألمانية ، أي ٢٦٧٤٠٠٠ شخص . وقد تم ذلك عملياً في ١٩٤٧ بفضل توطين ٢،٢٥٠،٠٠٠ معمر تشيكي وسلوفاكي واعطائهم ١،٣٣٠،٠٠٠ هكتار من أراضي المحتلـــين السابقـــين . وفي الوقت نفسه حـدد الاصلاح الزراعي كل ملكية ريفية بـ ٥٠ هكتاراً . وشجع على انشاء تعاونيات زراعية وضعت تحت تصرفها مراكز آلات زراعية وجرارات واحتياطيات من السماد .

وتعتبر دائماً الصناعة التشيكوسلوفاكية ، التي تشغل ٣٣ ٪ من الشعب العامل في البلاد ، بين الصناعات الاكثر ازدهاراً في القارة ، وتفيد حقاً من تربة – تحتية غنية بشكل استثنائي بفحم الانتراسيت والليغنيت ومناجم الحديد والنحاس والتوتيا والاورانيوم والاثمد (انتموان) وأشباه المعادن ، وأشهرها العقيق والاوبال في بوهيميا ، التي تصدر إلى العالم كله .

وقد انتقل مجموع الانتاج الصناعي من قرينة ١٠٠ في ١٩٤٨ إلى ٦٥٠ في عام ١٩٦٦ . وبينما استخرج ١٢ مليون طن من الفحم الحجري في ١٩٤٥ ، انتقل عائد المناجم إلى ٢٥ مليون في ١٩٦٥ . وكان عائد المراكز الكهربائية عظيماً أيضاً : من ٥ مليار كيلووات ساعي في ١٩٤٥ إلى ٦٥ مليار في ١٩٦٥ .

وبشكل مواز للتطور السياسي ، شهدت تشيكوسلوفاكيا انطباع مجرى جديد لاقتصادها . لأن الخبراء أخذوا يقلبون من جديد التخطيط الموروث عن الثورة الشيوعية لعام ١٩٤٨ . ولا يراد من ذلك بالبداهة العودة إلى النظام الرأسمالي ، بل ، على الأقل ، اعادة اعتبار فكرة الربح في مستوى المشاريع التي هي ملك الدولة . وابتداءً من ١٩٦٠ شوهد أن التوسع السريع في السنوات الاولى للنظام قد توقف فجأة ولوحظ تراجع أخذ يتفاقم بأزمة ١٩٦٢ ، وأدى إلى نقص ٤٪ من الدخل القومي . وقد درس باحثو المعهد الاقتصادي في براغ أسباب هذه الحركة النازلة وقبلوا باصلاح ثوري بشكل خاص يرمي إلى لامركزية القطاعات الكبرى في الصناعة ، وإلى اقلال محسوس في البوروقراطية ، وإلى الاستقلال الذاتي في المشاريع . وهذه الخطة الجديدة التي انطلقت في الأول من كانون الثاني ١٩٦٦ وضعت موضع اتهام بعد حوادث ١٩٦٨ .

يضاف إلى ذلك الربح الذي تجنيه البلاد من السياحة ، وهو آخذ بالأهمية شيئاً فشيئاً ، وتستقبل البلاد ٤ ملايين زائر أجنبي كل سنة .

الجمهورية الديموقراطية الالمانية

ان اتفاقات يالطا وبوتسدام ، والنزاع الرومي — الاميركي على مناطق النفوذ في أوربة ، كانت في أصل الحالة المتناقضة التي تتخبط فيها المانيا ، منذ ١٩٤٥ ، والوضع اللامعقول لبرلين التي كادت ، خلال عدة مرات ، أن تثير خلافاً عالمياً ثالثاً .

وبينما كان الحلفاء الغربيون ينظمون قطاعات الاحتلال العائدة لكل منهم وأصبحت الدولة المغلوبة المستفيد الأسامي من خطة مارشل ، كانت السلطات السوفياتية تشجع ، من جانبها ، تشكل كيان سيامي خاضع لوجهات نظرها . ففي مؤتمر برلين ، من ٢١ — ٢٢ نيسان ١٩٤٦ ، تم ذوبان الحزبين الاشتراكي والشيوعي في قلب الحزب الاشتراكي الموحد تحت رئاسة مزدوجة من ولهلم بيك ، الشيوعي ، واتو غوتفول ، النائب الاجتماعي — الديموقراطي الأسبق في مجلس الريخشتاغ . وجلس في اللجنة المركزية ٤٠ عضواً من كل من التشكيلين . وبعد أن أحرز الحزب الاشتراكي الموحد نجاحاً واضحاً ، في انتخابات ١٩٤٧ ، عقد « مؤتمر الشعب » وطلب استفتاءً على الوحدة الألمانية وانتخابات في كافة البلاد . وإذا اعترف الغرب بضرورة اعادة توحيد المانيا السيامي والاقتصادي فقد بدا كل اتفاق مستحيلاً فيما يتعلق بشكل الاقتراع .

ورغم أن برلين توجد في قلب المنطقة السوفياتية فقد كانت مقسمة بشكل تعسفي إلى قطاعين ، أحدهما في الشرق وقد عهد به الى الادارة

الروسية ، بينما قسم القطاع الآخر بين ثلاث دول محتلة غربية . ومالبثت الاختلافات بين الحلفاء أن انعكست في العاصمة القديمة ، وكثرت فيها الحوادث وتفاقمت ، وبلغت الأزمة ذروتها ، في ٢٠ حزيران ١٩٤٨ ، عندما قررت السلطات السوفياتية حصار المدينة لترد على الاصلاح النقدي الذي أدخل إلى ألمانيا الغربية دون موافقتها . وخلال عام قام « جسر جوي » بتكاليف باهظة لسد حاجات قطاع برلين الغربي . وهكذا جنب الشر ، ولكن تجربة القوة كرست واقع المانيا الشرقية والغربية بمفاهيمها المتعارضة .

وبانتظار توحيد يشك به ، صادق المحتلون الغربيون على القانون الأساسي الذي صوت عليه في ٨ أيار ١٩٤٩ ، ويضع القواعد الدستورية لجمهورية المانيا الاتحادية ، احتجت موسكو ، ووافقت على انشاء « جمهورية ديموقراطية المانية » ، وأعلن عنها في ٧ تشرين الاول التالي ، وأجلت إدارتها العسكرية وعوضتها بلجنة اشراف بسيطة . وعقد مجلس الأقاليم في برلين ، وانتخب ويلهلم بيك رئيساً للجمهورية لمدة أربع سنوات . وكلف غروتفول بتشكيل الحكومة .

وفي ٦ حزيران ١٩٥٠ ، ابرمت الجمهورية الجديدة مع بولونيا أول معاهدة لها ، وبموجبها اعترفت بخط نهري اودر – نايس باعتباره حداً بين الدولتين . وفي ٢٣ حزيران ، وقعت في براغ اتفاقاً ينكر كل قيمة حقوقية لاتفـــاقات مونيخ ، ويقبل بأن « جلاء الألمان عن تشيكوسلوفاكيا مبرر وقطعي » . وفي الداخل قامت بتنفيذ اصلاح زراعي يقضي بانتزاع الملكية من مالكي المستغلات الزراعية الاكثر من ١٠٠ هكتار ، وهم النازيون السابقون ومساعدوهم ، دون تعويض ، ووزعت أراضيهم البالغة ٣١٤٧٠٠٠ هكتار على ٥١٤٧٣٠ من أرباب العائلات

الريفية التي انطوت في معظمها من منـــاطق السوديت والاقاليم التي تم التخلي عنها الى بولونيا .

وشيئاً فشيئاً قضم الشيوعيون رفقاءهم . وبعد المؤتمر الثالث لعـــام ١٩٥٠ كان عددهم ٣٤ في اللجنة المركزية للحزب الاشتراكي الموحـد ، مقابل ١٠ اشتراكيين . وكان الأمين العام فالتر اولبرخت يشهر دومـا ملل بخصوم النظام ، من ديموقراطيين ، بل وشيوعيين ، وهم من قدامى المحاربين في الجيوش الدولية التي اشتركت في حرب اسبانيا . وعند عودته من رحلة إلى موسكو طوال صيف ١٩٥٢ أشـار الى ضرورة الاسراع بوتيرة التجميع الزراعي ، فأثار هجرة كثيفة من السكان الريفيين نحو الغرب . ومن جهة أخرى ، إن الخطة الخمسية التي وضعت موضع التنفيذ في السنة الفائتة أحدثت استياءً عميقاً بين عمال الصناعة الذين شهدوا زيادة حصيلات الانتاج دون أن تتحسن أجورهم .

ولم تتبع وفاة ستالين بأي تدبير ليبرالي في المانيا الشرقية ، حيث ردت جميع المطاليب بفظاظة . ودوت الثورة ، ولكن الموجهين لم يشعروا بها إلا في صباح ١٦ حزيران ١٩٥٣ ، بعد فوات الأوان ، فقد بدأ عمال البنـاء في برلين بحركة اضراب ما لبثت أن عمت أصناف العمال في العاصمة ، ومن ثم المراكز الصناعية الأخرى في البلاد ، حيث ردد صوت انضمام الحركات الشعبية : نريد خبزاً ! الحرية أو الموت !، وعجزت الشرطة ، فجن جنون سادة البلاد ، ودعوا الروس لنجدتهم . وفي فجر ١٧ حزيران ، تقدمت الدبابات و ٢٥٠٠٠ رجل من الجيش السوفياتي ، وأخذوا مواقعهم في النقاط الستراتيجية من العاصمة ، وأعلنت حالة الطوارىء . وبنتيجة هـذا التدخل ثار غضب الجمهور ، فانقض على المباني العامـــة ،

وخرب مراكز الشرطة ، وأحرق العلم الأحمر . وأطلقت المدافع والرشاشات عياراتها ، وسقطت الضحايا . ولا نعلم بالضبط موازنة هذه المجابهة : ٢٥ قتيلاً ، ٣٨٨ جريحاً ، كما أعلنت المصالح الرسمية . وكانت عمليات الانتقام فظيعة على كل حال : فقد أعدم ٤٢ عاملاً بالرصاص . ولكن ، إذا اتهم غروتفول « عملاء رأسمالية الاحتكار الألماني والأجنبي » باثارة الاضطرابات ، فقد اعترف ، على الأقل ، بأسبابهـــا الاقتصادية والاجتماعية . ولذا اتخذ عدداً من التدابير بغية تحسين القوة الشرائية عند الطبقة العـاملة ، مثل رفع الحصار عن السلع الغـذائية ، تحديد سعر المفرق ، زيادة معاشات التقاعد .

ان الخط الجديد للحزب ، كما عرف في المؤتمر العشرين في موسكو عام ١٩٥٦ ، قد طبع في برلين بحركة ليبراليـة خجلى . ولـكن ثورة بوزنان وبودابست ، التي تذكر بشكل محزن ثورة برلين ، أملت الحذر . ولذا لم يذهب الخلاص من الستالينية إلى الأمام أكثر مما ذهب .

هذا ويعتبر فالتر اولبرخت ، الأمين العام للحزب الاشتراكي الموحد ، في الواقع ، أول شخصية في الجمهورية الديموقراطية الألمانية . وقد أصبح كذلك عن حق بعد وفاة الرئيس ويلهلم بيك المفاجئة في ٧ ايلول ١٩٦٠ . وبعد خمسة أيام ، تألف **مجلس الدولة** وهو يضم ٢٤ عضواً ينتخبهم مجلس الشعب لأربعـة أعوام ، ويخول رئيسه سلطات رئيس الدولة . وترجع هذه الصلاحيات إلى فالتر اولبرخت لأنه سينتخب بعد ذلك بصورة آلية .

ان الصعوبات الاقتصادية والنقدية التي كان على الجمهورية الديموقراطية الألمانية أن تجابهها ، وشدة النظام ، وانتشار الحرب الباردة ، والدعاية الشديدة للمصالح الاميركية ، جذبت بالتدريج مواطنيها نحو الغرب .

ولايقاف هذا النزيف الذي يهدد باخلاء البلاد من أفضل جوهرها ، تصور اولبرخت اقامة حاجز يعزلها فعلاً عن العالم الحر . وهكذا رفع ، في ١٣ آب ١٩٦١ ، جدار من الاسمنت والاسلاك الشائكة مكان الخط الفاصل بين قطاعي برلين . وهذا الجدار الذي يسميه الغربيون « جدار العار » يحبس المانيا الشرقية في غيتو واسع ، ويمنعها على الأقل من الاستسلام لمغريات برلين الغربية ، الواجهة البراقة للانتاج الغربي ، وحتى الآن ، محطة ترانزيت للألمان الشرقيين الذين اختاروا الحرية .

البلاد المنعزلة

تمتد الجمهورية الديموقراطية الألمانية على ١٠٨٢٩٨ كم٢ ، ويناهز سكانها ١٧ مليون نسمة ، أي ١٥٩ شخص في الكيلومتر المربع الواحد . وقد أعطيت ، عند التقسيم ، الجزء المحروم من كل شيء في عهد الرايخ الثالث مع أراضي هزيلة وقليل من المواد الاولية ومصادر الطاقة . كما حرمت أيضاً من دعم الغرب لها . وهي محبوبة كثيراً أو قليلاً من رفيقاتها في الكتلة السوفياتية ، التي ترى « أن الألماني دوماً ألماني » ولذا كان على الجمهورية الديموقراطية الألمانية أن تستغل إلى الحد الأعظم وسائلها الخاصة .

ونظراً إلى أن سيليزيا الصناعية عادت إلى بولونيا ، فقد شادت مدناً جديدة حول مناجم النحاس والاورانيوم ومعاملها المعدنية ، والكيميائية ، ومعامل الغزل . وانتزع منها ميناء شتيتين برمم خط الاودر — النايس ، فانشأت ، بين ١٩٥٨ و ١٩٦٠ ، ميناء روستوك ، على البالطيك ، وجهزت رحابه (ورشاته) البحرية بأحدث الأجهزة . ونظراً لفقدان الفحم ، فقد نما انتاج الليغنيت بكثرة في مركز المضخة السوداء حتى انه انتج

وحده اكثر من ٤٠ مليار كيلووات ساعي من التيار الكهربائي في العام . أما مراكز لوينا للمنتجات الكيميائية ، وايينا للبصريات، وليبزيغ ودرسدن للآلات الطابعة وصناعة الكرتون ، وكارل - ماركس - شتات ، وارفورت وبوتسدام وكوتبوس للورق والمنسوجات فقد تجاوزت مستوى انتاجها قبل الحرب .

وعلى صعيد العلاقات الخارجية ، تحتل الجمهورية الديموقراطية الالمانية في أوربه مكاناً أصيلاً قلما تحسد عليه . فقد خولت حكومة منظمة تدار بمؤسسات تعمل بشكل عادي ، وهي ممثلة رسمياً في ٣٤ بلداً اعترفت بها دولة ذات سيادة ، ولكنها غير موجودة في نظر الدول الغربية التي ترفض أن تتبادل معها البعثات الدبلوماسية ، ولكنها تتعامل على الأقل مع مندوبيات غرفة التجارة الخارجية لألمانيا الشرقية المؤسسة في عواصمها . وتعقد مع برلين معاهدات اقتصادية هامة ، وتقيم مرتين في العام الاجنحة في معرض لايبزيغ حيث تعرض منتجاتها ، ولكنها تتجاهل بعزم سلطات الجمهورية الشرقية .

وتنزع جهود فالتر اولبرخت ومعاونيه إلى طلب الاعتراف بالجمهورية الديموقراطية الألمانية عضواً له نصيبه الكامل في منظمة الأمم المتحدة . ويعزون الجزء الاكبر من اخفاقهم إلى « المساومة المستديمة » التي تمارسها بون على حلفائها الغربيين . هذا وان جهود فيللي براندت ، نائب المستشار ، وزير الشؤون الخارجية وزعيم الحزب الاشتراكي في المانيا الغربية ، بغية تسوية العلاقات بين المانيا الغربية والشرقية، قد أخفقت اخفاقاً ذريعاً ، في آب ١٩٦٨ ، عندما أسهم جيش الجمهورية الديموقراطية الألمانية في احتلال تشيكوسلوفاكيا وجعل على هذا النحو كل اتفاق مستحيلاً .

هونغاريا

وبالرغم من أن هونغاريا الوصي هورتي تبنت عشوائياً المذهب النازي، واشتركت تباعاً في الميثاق المناوىء للشيوعية وفي الميثاق الثلاثي ، فقد احتلتها الجيوش الهتلرية ، في ٩ آذار ١٩٤٤ ، وعوملت كبلد مفتوح . ولما حررها الجيش السوفياتي تماماً ، في ٤ نيسان ١٩٤٥ ، قامت حكومتها الموقتة ، التي يرأسها الجنرال **ميكلوس** ، باصلاح زراعي يجزىء الملكيات الواسعة على الحدود ، ووزعت ١٫٨ مليون هكتار من الاراضي بين أكثر من ٦٤٠٠٠٠ عائلة ريفية .

وفي آخر السنة نفسها أعطت انتخابات ٤ تشرين الثاني اكثرية جوهرية إلى حزب صغار الملاكين ، الذي خول نفسه ٢٤٥ مقعداً في المجلس الوطني مقابل ٧٠ إلى الشيوعيين ، و٤٩ إلى الاجتماعيين ــ الديموقراطيين، و ٢٣ إلى الوطنيين ــ الفلاحين . وأخذ زعيم هذا الحزب ، الراعي **زولتان تيلدي** على عاتقة مهمة تشكيل الحكومة الجديدة . ولكن حقيبة الداخلية عادت إلى الشيوعي **لازلو راجك**/. وعندما أعلنت الجمهورية ، في الأول من شباط ١٩٤٦ ، انتخب تيلدي رئيساً وسمى **فرنك ناجي** ، عضو حزب صغار الملاكين ، الوزير الأول .

وفي هذا البلد الزراعي بصورة أساسية والمتعلق بشكل عميق بتقاليده ، احترس ستالين من تجديد محاولة دكتاتورية الطبقة الكادحة التي أساء **بيلاكون** نجاحها غداة الحرب العالمية الاولى . وإذا تراجع موقتاً أمام تجربة القوة ، فلم يتخل عن أن يستلم الحزب الشيوعي السلطة ممثلاً براجك

في داخل الحكومة، وبأمينه العام ماتياس راكوزي المتفاني المخلص . وقد قامت أول مناورة في صيف ١٩٤٦ ، عندما اتهم وزير الداخلية بيلا كوفاكس ، الأمين العام لصغار الملاكين، بتدبير مؤامرة مناوئة للثورة ، وطالب برفع الحصانة البرلمانية عنه . فقام المجلس برد فعل شديد ولم يقبل بهذه الكوميديا . وقلما يهم ذلك . لأن العملاء السوفياتيين أوقفوا كوفاكس، في شباط ١٩٤٧ ، ونقل إلى موسكو ، وانتزعت منه اعترافات تامة . وكان ناجي يقضي عطلته في سويسرا ، فقدم استقالته إلى رئيس الدولة . أما الأب فاورغا ، رئيس الحزب ، فقد فرّ من بودابست قبل أن يقع بدوره في الفخ .

وبعد أن أخليت الساحة على هذا النحو ، جرت انتخابات جديدة ، في تموز ١٩٤٧، هيأها راجك جيداً، وخولت الشيوعيين الاكثرية ، وشكل هؤلاء بـ ٢٢٪ من الأصوات ، أهم حزب في البرلمان ، واستولوا على جميع المراكز الأساسية . وأخذوا يهاجمون قلعة اشتهرت بمنعتها ، الكنيسة الكاثوليكية، وكان رئيسها ، الكاردينال ميندسزانتي ، أمير - جثليق هونغاريا ، أحد الاوجه النبيلة في تسلسل الفاتيكان ، الذي حرره السوفياتيون أنفسهم من السجن الذي طرحه فيه النازيون . وفي الأول من تموز ١٩٤٨ احتج الجثليق على تأميم التعليم العام الذي صوت عليه البرلمان . وفي آخر السنة لوحق متهماً بالخيانة العظمى ، الجاسوسية وتهريب النقد ، وحكم عليه بالسجن المؤبد . وقامت عدة « تطهيرات » بانقسامات قائمة في الحزب ، واتهم راجك بالتيتية فشنق وطرح كادار في السجن . وابعد ايمر ناجي عن المكتب السياسي، لأنه اتخذموقفاً ضد التجميع الاجباري في الزراعة .

وفي ١٤ نيسان ١٩٥٢ ، انتخب البرلمان رئيساً جديداً لمجلس الرئاسة – رئيس الجمهورية – اسطفان دوبي،فكاف، في ١٤ آب التالي، راكوزي بتشكيل الحكومة . وحذف راكوزي جميع منافسيه وانتصر دون تواضع ، وكسيده السوفياتي ، كان رئيساً لمجلس الوزراء وأميناً أول للحزب معاً . وبمساعدة ارنو غيرو في هذا المنصب الأخير سلك مسلك دكتاتور حقيقي .

واجتازت هونغاريا أزمة اقتصادية خطيرة . وبينما كان التجميع الزراعي يعبر عنه بانخفاض في غلة الاراضي ، أخذ التصنيع يثير موجة استياء في الأحياء العمالية . وبعد وفاة ستالين ، كان موجهو الكرملن يخشون عودة ثورة برلين في بودابست ، ففرضوا في تموز ١٩٥٣ ، على راكوزي التخلي عن رئاسة الحكومة إلى ايمر ناجي الذي يعرفون شعبيته في العالم الريفي . وانحنى راكوزي ، ولكن نزاعاً أصم ، نزاعاً حتى الموت ، قام منذ الآن بين الرجلين . وبدا في أول الأمر أن ناجي قد تغلب على خصمه . ولكن دسائس منافسه في الكرملن ، حيث أشهر فيما أشهر تحرير كادار، في تشرين الثاني ١٩٥٣ ، كان لها أثرها . وفي ١٨ نيسان ١٩٥٥ جرد ناجي المقتنع « بالانحراف اليميني والمناوىء للماركسية » من جميع وظائفه في المكتب السياسي وفي اللجنة المركزية وطرد من رئاسة المجلس ، وخلفه فيها آندادس هيجيدوس . وفي شهر تشرين الثاني أخرج من الحزب .

وفي العامين اللذين استلم ناجي فيهما السلطة ، طرح عدداً من الأفكار أخذت تتخمر مع الزمن . فقد امتدح برنامجه في الاصلاح الزراعي الملكية الريفية الحرة ونهاية الجماعية الزراعية ، والكف عن اضطهاد الكولاك

(الفلاحين الأغنياء) ، وتحسين مستوى حياة الشعب الريفي . وكشف أمام العمال أن الأولوية المطلقة المعطاة للصناعة الثقيلة انما هي خطأ فادح، ودعا إلى زيادة انتاج السلع الاستهلاكية . ونصح المفكرين بالاختيار الحر للمؤلفات الأجنبية واحترام الشخص الانساني .

أما الستاليني راكوزي ، فقد زعم ، بعد عودته من المؤتمر العشرين في موسكو ، تخليص هونغاريا من الستالينية ، وبخاصة مكافحة عبادة الشخصية التي أفاد منها طويلاً وفي ٢٩ آذار ١٩٥٦ ، أعلن اعادة اعتبار لاسزلو راجك ، ولكنه احترز من أن يأمر باعادة نظر عامة في دعواه ، لأنها قد تثير فوراناً عظيماً في الأفكار .

والواقع ان هذا الفوران لم ينقطع في الاوساط الفكرية بخاصة ، منذ سقوط ناجي . فقد عدد كتاب حلقة بيتوفي والطلاب الاجتماعات العامة ووضعوا فيها راكوزي وجماعته موضع اتهام . وخصصت المجلات الأدبية دراسات طويلة للنظام وعيوبه . وبعد حوادث بوزنان ، تحرك الكرملن وأوفد إلى بودابست سوسلوف وميكويان ، بمهمة اتخاذ جميع القرارات التي يريانها مفيدة لازالة التوتر ، وفي ١٨ تموز ، تلقت اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الهونغاري رسالة من راكوزي تطالب بتجريده من وظائفه كأمين أول وعضو في المكتب السياسي ، لأسباب صحية . ورحب الرأي بهذه الاستقالة منتظراً عودة ناجي . وعوضاً عن هذا سمي ارنو جيرو ، التجسيد الكامل للشدة الستالينية ، ليخلف راكوزي على رأس اللجنة المركزية ، حيث عاد ، مع ذلك ، كادار وبعض « الأحرار » الآخرين .

وأمام ضغط الشارع اقيمت الاحتفالات الوطنية بجناز راجك في ٦

تشرين الأول ، وسار خلفه جمهور من ٣٠٠٠٠٠ شخص ، وهذا القدر من الانصار كان كافياً للقيام بتجربة قوة محتملة . وفي ١٤ تراجع المكتب السياسي من جديد وقبل باعادة امير ناجي الى الحزب . ومنذ الآن أخذت الحوادث تتسارع . وفي ٢٣ تشرين الأول ، قامت مظاهرات طلاب على شرف الثوار البولونيين : وألقيت خطب في الساحة العامة تطالب بانهاء الدكتاتورية ، وذهاب زعماء الحزب والحكومة ومحاكمتهم ، وعودة ناجي ، واعادة النظر في المعاهدات الاقتصادية مع الاتحاد السوفياتي ، واصلاح نظام الأجور . وعندما رجع جيرو من زيارة إلى بلغراد حيث تصالح مع تيتو ، لم يفهم معنى هذا التظاهر . وفي الساعة ١٩ ، القى خطاباً ، على الراديو ، أشهر فيه « أعداء الشعب » ، ولكنه لم يعط أي تنازل . وعندئذ انتشر العمال والطلاب والجنود في ساحة ستالين وقوضوا التمثال العظيم للطاغية ستالين ، وخربوا مكاتب « سزاباد نيب » ، جريدة الحزب ، وهاجموا عمارة راديو — بودابست . ولما عجزت الشرطة أطلقت النار على الجمهور . وسقطت الضحايا الاولى . وانطلق الشعب في غضبه وجاشت الحرب طوال الليل . وجندت وحدات من الجيش إلى جانب قوى الأمن (النظام) ، وتتألف احداها من خمس دبابات ويقودها الجنرال بال ماليتير ، وهو محارب قديم في الحرب الاسبانية ، انتقل الى معسكر المتمردين .

وفي فجر ٢٤ ، أعلن جيرو أن ناجي أخذ مكان هيجيدوس في رئاسة مجلس الوزراء ، وجاء هذا التدبير بعد فوات الأوان . وفي الوقت نفسه دعا الجيوش السوفياتية المرابطة في البلاد . وفي الـ ٢٥ ، في الساعة ١١ ، أعلم المكتب السياسي أن جيرو جرد من وظائفه كأمين

أول ، وعهد بها إلى كادار . وفي ٣٠ منه حرر الكاردينال ميند سزانتي . وفي ٣١ ، انسحبت الجيوش السوفياتية من العاصمة .

ومع ذلك ، لم يتخل الكرملن عن سيطرته على البلاد المجرية . وظلت قطعات جيوشه معسكرة حول بودابست ، وتحتل جميع المطارات منتظرة الأوامر .

وفي ٣ تشرين الثاني ، شكل ناجي حكومة من ١٢ عضواً يمثلون جميع أحزاب ائتلاف ١٩٤٥ ، أي : ٣ شيوعيين ، ٣ من « صغار الملاكين » ديموقراطيين — مسيحيين ، ٣ اجتماعيين — ديموقراطيين ، ٢ من حزب الوطنيين — الفلاحين و ١ مستقل ، الجنرال ماليتير الذي استلم حقيبة الدفاع . وفي الساعة ١٠ مساءً دعا زعماء الجيش الأحمر ، إلى أركانهم في جزيرة سيبيل المندوبين فوق العادة الهونغاريين للتفاوض معهم على الجلاء . وما ان وصل هذان المندوبان ، الجنرال ماليتير وكوفاكس ، إلا وأوقفا .

وجه ناجي مباشرة احتجاجاً الى موسكو ونيويورك طالب فيه بدعوة عاجلة لمجلس الأمن . وفي الليل ، القى بنداء ملؤه القلق إلى الشعب الهونغاري ، واعلم بالراديو عن ضربة القوة التي تهيأ . وكان هذا آخر بلاغ عام له .

وفي ٤ تشرين الثاني ، في الساعة الرابعة والدقيقة ٢٠ صباحاً ، حاصر الجيش السوفياتي بودابست : ٢٠٠،٠٠٠ رجل ، ٢٥٠٠ دبابة وسيارة مصفحة لاخضاع شعب أعزل أخذ يدافع مستشرياً لصيانة حريته

أو ، إن لم تكن ، لانقاذ شرفه . وفي ٩ ، قام الاضراب العـــام ، ولكن وقفت عمليات كل مقاومة مسلحة . وهل ستوضع بموازنة صحيحة للثورة الهونغارية .

وبعد أن تحرر الـكاردينـال ميندسزانتي طلب اللجوء الى سفارة الولايات المتحدة ، وظل ضيفها دوماً . أما ناجي فقـد لجأ وفريقاً من أوقيائه إلى سفارة يوغوسلافيا ، في ٤ تشرين الثاني ، وخرج منها في ٢٢ ، بعد أن تلقى تطمينات رسميـة تتعلق بأمنه . واعترضت سبيـل السيارة التي أقلته مع رفقائه دبابتان سوفياتيتان ، وفي المساء نفسه أعلن راديو - بودابست أن الجيش الصغير دخل رومانيـا . ولم ير أحد من أعضـائه أبداً . ولم يحاول الغربيون شيئاً لصالح الشعب الهونغـــاري ، وكانوا عاجزين أيضاً عن اعادة زعيمه له . إلا أن وزارة العدل الهونغارية أوحت ، في ١٧ حزيران ١٩٥٨ ، بأن ناجي وماليتير وجيمنيس وسزيلاجي مثلوا أمام محكمة وحكمت عليهم بالموت ، ونفذ الحكم مباشرة . ولم يعط البلاغ أي تفصيل عن التاريخ ولا المكان .

التحرير

ورغم أن القمع في عام ١٨٥٦ كان فظيعاً ، فان الشعب الهونغاري لم يقم عبثاً بكفاحه في سبيل الحرية . وعندما كانت حكومته ، في فجر ٤ تشرين الثاني ، تبحث عن ملجأ لهـــا في سفارة صديقة ، والدبابات السوفياتية تهـاجم العاصمة ، كانت محطة راديو اقليمية تعلن عن تشكيل حكومة « ثورية عاملة وريفية » يرأسها جانوس كادار . وكان كل شيء يدعو إلى التفكير بأن البلاد ستعرف بهذا التشكيل عودة الستالينية . ومع ذلك فان هذا التشكيل أعاد لها تذوق الحياة .

وبمهارة فائقة تعلق كادار بارضاء التطلعات العميقة عند مواطنيه دون أن يصدم حليفه السوفياتي العظيم . وبعد أن أخــذ على حسابه المبادىء التي أعلن عنها ناجي ، شجع على العودة التدريجية للتسامح السياسي ، وحرية التعبير ، والملكية الفردية ، وسهر على ابقاء الأجارات والتقليات بسعر منخفض ، وكذلك سعر الخدمات العامة ،الغاز ، الكهرباء ، الهاتف ، ليعوض الاعباء المفروضة على الشعب ببرنامج واسع في التصنيع .

وفي حزيران ١٩٦٥م ، تخلى كادار عن وظائفه كرئيس لمجلس الوزراء، التي أمسك بها منذ تسعة أعوام ، ونقلها إلى مساعده غيولا كالاي ، واحتفظ فقط بوظائف الامين الأول لحزب العمال الاشتراكي . وعنـدما استقال اسطفان دوبي من رئاسة الجمهورية، لسبب صحي ، في ١٤ نيسان ١٩٦٧ ، سمى لرئاسة الدولة وزير الزراعة ، بال لوزنتشي البـالغ من العمر ٤٨ عاماً . وبعـــد أن انتخب كالاي رئيساً للمجلس الوطني ، عاد توجيه الحكومة إلى جينو فوك ، وقد هيأ هذا مع جانوس بيتر من الشؤون الخـارجية ، مشروعاً هاماً في الاصلاح الاقتصادي والاجتماعي . وهـذا المشروع الجديد ، الذي وضع موضع التنفيذ ، في الأول من كانون الثاني ١٩٦٨ ، يتوقع اعادة اعتبار الربح واستقلال المشاريع ، وحرية المنافسة بينها ، وشبكة معاهدات تجارية ومبادلات ثقافية مع بلاد افريقية وآسيا والدول الغربية .

هذا وتبلغ مساحة الجمهورية الشعبية الهونغارية ٩٣٠٣٠ ك م^2 ونفوسها ١٠,٠٧٢,٠٠٠ نسمة ، ٦٠٪ منهـم يقيمون في الأرياف . وقد بدأت تضمد شيئاً فشيئاً جراح عام ١٩٥٦ . وبفضل تعقل موجهيها ، وبفضل طبـع الشعب المجري الفنان ، الخفيف ، « الشاطر » تخلى النظام في القسم

الاعظم منه عن صلابته . وفي ١٩٦٦ أعيد توطيد العلاقات مع الولايات المتحدة وحرر جميع المعتقلين السياسيين . واستطاع « اللاحزبيون » منذ الآن الوصول إلى جميع الوظائف الرسمية .

رومانيا

هنالك سببان أساسيان يجعلان رومانيـــا تحتل مكاناً خاصاً في حفل الديموقراطيـات الشعبية : فهي تشكل جماعة عرقية وحيدة يفوق فيهـا العنصر اللاتيني الأمم التي هي من أصل سلافي ، جرماني أو مجري . ومن جهـة أخرى ، يوجد حذر قديم جـداً ، إن لم يكن عداوة تقليدية ، يجعلها تناوىء الاتحاد السوفياتي . وهذا كاف لفهم كيف أن موجهيها ، بعد مضي السنوات الاولى على النظـام الجديد ، جهدوا في تحـرير بلدهم من الوصاية السوفياتية .

لقد حرر الجيش الأحمر مولدافيـا (البغدان) الشمالية ، في نيسان ١٩٤٤ ، بمساعدة محاربين دون لباس عسكري من الجبهة الوطنية المناوئة لهتلر . وفي أول ايلول التالي، احتل بخارست ، وبعـد شهر ، انهى فتح رومانيا . وفي ٦ آذار ١٩٤٥ ، فرض الكرملن على الملك الشاب ميشيل عزل **راديسكو** ، وزيره الأول ، ليسمي مكانه الدكتور **بترو غروزا** وقام هذا مع رفاقه في المنفى في الاتحاد السوفياتي ، وبخاصة **أنـا بوكـو** « النمرة » ، التي أصبحت مواطنة سوفياتية ، وكولونيل في الجيش الأحمر ، ونائبة رئيس مجلس الوزراء ، ووزيرة الشؤون الخارجيـة ، بحملة تطهير واسعة في الأوساط الفكرية والبورجوازية . وافتتح عهـد ارهاب مع ما يواكبه من اعدامات عاجلة وأحكام بالنفي . وكان الزعماء السياسيون

والتجار والصناعيون وملاكو العقارات ينفون جماعات أو يزجون في السجن . وفي ٢٣ آذار طبق الاصلاح الزراعي ، وجزأت الاملاك الكبرى ووزعت قطع الأراضي على الفلاحين .

نظم الحزب الشيوعي الروماني نفسه ، وانتخب **جورج جورغيو - دي** أميناً عاماً واحتفظ بهذا المركز حتى وفاته . وتحت ضغط الحلفاء الغربيين ، وسع الدكتور **غروزا** وزارته ، في كانون الثاني ١٩٤٦ ، بتسمية بعض وزراء اجتماعيين — ديموقراطيين ، أحرار وفلاحين . وهكذا تشكلت الجبهة الوطنية وحصلت في انتخابات تشرين الثاني على ٧١٫٨٠٪ من الأصوات . ولم يكن هذا إلا انطواءً استراتيجياً . فما كادت توقع معاهدة السلام ، في شباط ١٩٤٧ ، إلا وقام الحزب الشيوعي الروماني بالاستيلاء دون تقسيم السلطة . وبدأ بحرمان **الحزب الوطني الريفي** من موجهيه . وأوقف زعيمه مانيو . ثم امتص الحزب الاجتماعي - الديموقراطي ، والف معه **حزب العمال الروماني** . وفي آخر السنة ، جرد الملك ميشيل تدريجياً من كل امتيازاته وأجبره على التنازل عن العرش فأخذ بدوره طريق المنفى ، وأعلنت **الجمهورية الشعبية الرومانية** . وفي نيسان ١٩٤٨ تبنى المجلس الوطني الاكبر الدستور الجديد وأعلن تأميم الاراضي والمناجم والمشاريع الأساسية الصناعية والنقليات والتأمينات . أما بنك الدولة فقد تأمم في شهر كانون الأول ١٩٤٦ .

ولكن المزاج الروماني الفردي والمحب للنقد والمعاكسة طوعاً لا يتلاءم مع الماركسية الصلبة على الطريقة الروسية . ولما لم يفهمها الستالينيون في بخارست فقد توجب حذفهم قبل زوال ستالين . وفي حزيران ١٩٥٢ ، خلف جورجيو — دي غروزا في رئاسة مجلس الوزراء ، وغادر الجهاز

الموجه القديم كله المسرح السياسي دون عودة ، باستثناء غروزا نفسه، الذي قام برئاسة البرلمان حتى وفاته ، في ١٩٥٨ . وبفضل هذا الانتقال ، الذي جرى بلطف، لم يسبب الخلاص من الستالينية وشجب عبادة الشخصية في رومانيا أي نوع من هذا الصخب الذي اثار الاضطراب في المانيا الشرقية وبولونيا وهونغاريا .

وشيئاً فشيئاً ، ابتعدت السياسة الرومانية عن الخط الذي رسمه الكرملن وأكدت أصالتها . واشتركت الحكومة الرومانية بالكوميكون ، لجنة المساعدة المتبادلة ، نسخة شرقية للسوق المشتركة التي أسسها الاتحـــاد السوفياتي ، في ٢٥ كانون الثاني ١٩٤٩ . ووقعت، في أيار ١٩٥٥ ، معاهدة فارسوفيا ، التي تبدو كرد على منظمة معاهدة شمال الاطلسي . ولكن رومانيا في آخر هذه السنة ١٩٥٥ نفسها ، أصبحت عضواً في الأمم المتحدة وأخذت تعمل منذ الآن على صيانة استقلالها .

وفي ٢ تشرين الأول ١٩٥٥٪ انتخب جورجيو ـ دي بالاجماع أميناً اول للجنة المركزية لحزب العمال الروماني . وعندئذ استقال من رئاسة مجلس الوزراء لصالح شيفو ستواكا ، رفيقـــه القديم في النضـال والأسر في زنزانات الجنرال انطونيسكو الفاشية . وحافظ ، مع ذلك ، على وظائفه في رئاسة الحزب عندمـا رفع لمدة اربع سنوات الى رئاسة الجمهورية ، في آذار ١٩٦١ . ودعي ستواكا في هـذه الفترة الى رئاسة المجلس الوطـني . وعـــادت الى لون جوردج ماورير صلاحيات رئيس الحكومة .

ومافتىء نزاع المصالح بين موسكو وبخارست يتفاقم في وسط الكوميكون . ورفضت رومانيـا ان تضحي بجهازهـا الصناعي لتكرس

نفسها الى الدور الوحيد المجهز بالحاصلات الزراعية الذي فرضته عليها الضغوط الفوقية للتنظيم الاقتصادي الماركسي . وجاء عدد من التدابير يدل، في الوقت نفسه ، على تطلعاتها الى الاستقلال حيال عاصمة الشيوعية . وهكذا لم يعد تعليم الروسية اجبارياً في مدارسها ، وغيرت المدارس ، التي تحمل اسماء روسية ، اسماءها . وتبنت رومانيا موقف الحياد الدقيق في الخلاف الايديولوجي الصيني — السوفياتي ، حتى انها ذهبت الى ابرام اتفاقيات تجارية مع الصين والبانيا . ورثت مع ذلك لحال الجدل الذي قام بين الدولتين الشيوعيتين . وفي شباط عام ١٩٦٤ شخص وفد روماني هام الى بكين لمحاولة ازالة الخلافات ، فلم يفلح . وفي ٢٢ نيسان ، كان على اللجنة المركزية لحزب العمال الروماني ان تجابه هجوماً جديداً من زميلاتها الاوربيات . وعندئذ خالفت بشكل مطلق سياسة الكومكيون وتبنت قراراً بموجبه « يكون التوجيه المخطط للاقتصاد القومي صفة من الصفات الاساسية والجوهرية وغير القابلة للتصرف والخاصة بسيادة الدولة الاشتراكية » .

وفي ١٩ آذار ١٩٦٥ ، توفي جورجيو - دي إثر أزمة قلبية ، عقب اعادة انتخابه لرئاسة الجمهورية . ورفع اقتراع ٢٢ آذار شيفو ستواكا الى المقام الاعلى ، وخلف نيقولا شيا وشيسكو جيورجيو - دي في وظائف الأمين العام لحزب العمال الروماني ، في ٢١ آب ، وقدم للبرلمان عدة تعديلات لدستور ١٩٤٨ تلح على استقلال الأمة الرومانية وسيادتها وتنص فيما تنص على :

١ — ان تصبح الجمهورية الشعبية جمهورية رومانيا الاشتراكية .

٢ - التعاون الأخوي مع البلاد الاشتراكية الأخرى على أساس المساواة في الحقوق والاحترام المتبادل وعدم التدخل في الشؤون الداخلية .

٣ - ضمان الملكية الشخصية للفلاحين .

٤ - المساواة التامة في الحقوق لجميع المواطنين دون تمييز قومية او عرق .

٥ - رغبة رومانيا ، بموجب مبدأ التعايش السلمي ، في تكثيف « علاقاتها المتعددة الجوانب ، الاقتصادية والعلمية والثقافية مع جميع الدول ، مهما كان نظامها الاجتماعي .

« وبمناسبة تبادل الزيارات في تشرين الثاني ١٩٦٣ وحزيران ١٩٦٤ . سبق ان ابرم جورجيو - دي مع تيتو اتفاقاً تنشىء بموجبه الدولتان مركزاً مائياً كربائياً - ضخما في فج ابواب الحديد على الدانوب . ولم يهتم خلفاؤه برأي موسكو ، ووقعوا معاهدات هامة في التعاون الاقتصادي . خارجاً عن الكوميكون ، مع الدول الرأسمالية ، مثل الولايات المتحدة ، بريطانيا العظمى ، المانيا الاتحادية ، ايطاليا ، فرنسا ، التي قدمت وحدها تجهيزات للمجموعات الصناعية الكبرى في رومانيا : معملي سكر كاملين ، معامل الومنيوم ، عجين الورق ، مصانع راديو وتلفزيون ، وأنوال نسيج .

وعلى الصعيد الدبلوماسي ، انفصلت رومانيا بوضوح في اربعة ظروف هامة عن رفيقاتها في المعسكر الاشتراكي . ففي كانون الثاني ١٩٦٧ ، وقع وزير الشؤون الخارجية الروماني ، كورنيليو مانيسكو ، مع فيللي براندت ، معاهدة توطدت بموجبها علاقات دبلوماسية طبيعية بين بون وبخارست .

وفي حزيران وتموز ١٩٦٧ ، بعد « حرب الستة أيام ، في الشرق

الاوسط ، كانت رومانيا الجمهورية الشعبية الوحيدة التي رفضت أن تصوت في الأمم المتحدة على الاقتراح السوفياتي الذي يشجب اسرائيل باعتبارها معتدية وأن تستدعي سفيرها من تل ـ أبيب .

وفي المؤتمر الاستشاري للأحزاب الشيوعية المنعقد في بودابست ، في ٢٩ شباط ١٩٦٨ ، اغتنم الوفد الروماني فرصة حادث اختلف فيه مع الممثل السوري فخرج من قاعة الجلسات ورفض كل تسوية وعاد إلى بخارست . وأراد بذلك ، أن يكون في حل من تضامنه مع الأكثرية، التي أخذ عليها قبولها دون نقاش التحديد الاستبدادي لمقاعد المؤتمر العالمي المزمع عقده في موسكو في تشرين الثاني ـ كانون الأول ١٩٦٨ ، واندفاعها في تهجماتها المنظمة على الحزب الصيني وابعاد يوغوسلافيا عن المناقشات .

وأخيراً ، في عز الأزمة التشيكوسلوفاكية ، وبينما كانت البلاد تحتلها خمس من جيوش ميثاق وارسو (فارسوفيا) ، كان شياوشيسكو يدعم علناً سياسة دوبشك وشيرنيك . ولم يتردد في الذهاب إلى براغ ، حيث وقع ، في ١٧ آب ١٩٦٨ ، معاهدة صداقة جديدة تربط لعشرين عاماً رومانيا بتشيكوسلوفاكيا .

وفي ٩ كانون الأول السابق ، انتخب المجلس الوطني الروماني نيقولا شياوشيسكو لرئاسة مجلس الدولة . وقد أصبح الأمين العام للحزب الشيوعي الروماني ، وهو في التاسعة والاربعين من عمره ، يجمع وظائف رئيس الدولة والحزب . وقويت سلطته وساعدته على القيام باصلاحات بنيوية في داخل الادارة ، والاشراف على السياسة الخارجية لحكومته . وزاد في تثبيت نزعة رومانيا إلى التخلص من كل نفوذ أجنبي والقيام بأعباء قدرها الخاص .

اقتصاد في عز توسعه

لقد ثبتت معاهدة السلام الموقعة في باريس ، في شباط ١٩٤٧ ، حدود رومانيا الجديدة التي تبلغ ٢٣٧٥٠٠ كم٢ ، ويتجاوز اليوم عدد نفوسها ١٩ مليون نسمة . ويمثل الشعب الروماني الأصلي فيها بنسبة ٨٥،٧٪ إلى جانب عدد من الأقليات العرقية : الهونغارية (٩،١٪) ، والألمانية (٢،٢٪) ، والقوميات المختلفة (٣٪) .

وتغطي الأراضي القابلة للزراعة ، والمراعي ، وكروم العنب ، والبساتين ٦١٪ من سطحها . وإذا كانت رومانيا تنتج سنوياً ١٠ ملايين طن من الحبوب ـ وهذا ما دفع اقتصاديي الكوميكون إلى فرض دور زراعي عليها بخاصة ، ليجعلوا منها انباراً للبلاد الشرقية ـ ، فان تربتها التحتية تكشف أيضاً عن ثروات عظيمة . فهي تنتج ١٤ مليون طن من البترول في العام وبذا تحتجز المكان الثاني ، بعد الاتحاد السوفياتي ، في الانتاج الاوربي للفحوم الهيدروجينية . وتملك أيضاً مناجم هامة من الفحم والخامات المختلفة : الحديد ، الألومنيوم والمانغانيز بخاصة ، واحتياطيات هائلة من الملح الطبيعي . وساعدت هذه الموارد الكثيرة على نهضتها العظيمة في الصناعة . وتعطي بعض الأرقام فكرة عن هذا التطور : لقد سيرت ٢٥٠ معملاً بين ١٩٥٦ و ١٩٦٣ . وفي نطاق الخطة الخمسية الأخيرة ، التي انتهت ١٩٧٠ ، توقع انشاء ٧٥٠ معملاً جديداً يشغل كل واحد منها من ٥٠٠ إلى ٥٠٠٠ عامل . وانشئت عدة مراكز صناعية في غالاتز ، في دلتا الدانوب ، في برايلا ، في سيبيو ، في تيميسوآرا . وانبثقت المدن من الأرض أو نمت بشكل عظيم حول المشاريع مثل : اونيستي (٥٠٠٠٠

نسمة مقابل ١٦٠ في عام ١٩٣٨) ، فيكتوريا ، اوديسكاني ، فولكان ، نافودادي .

وكان الانتاج السنوي للفولاذ ٢٨٠٠٠٠ طن في ١٩٣٩ ، وانتقل إلى ٣ ملايين طن في ١٩٧٠ ، وبينما كانت رومانيا تستورد ٩٥ ٪ من جهازها الصناعي ، أخذت اليوم تصنع ما يكفي من الآلات الصانعة الخاصة بالصناعات المنجمية ، والحديدية ، والكيميائية ، والغذائية ، وما يكفي من سيارات الشحن ، والجرارات والآلات الزراعية ، والمحولات الكهربائية ، لسد حاجاتها ، ولحد ما ، للتصدير إلى البلاد الآخذة بالنمو .

وبينما كان الكوميكون يريد أن يوجه البترول الخام للآبار الرومانية ، نحو المصافي السوفياتية والألمانية - الشرقية ، حسنت رومانيا مراكز التكرير في بلادها وأسست مراكز جديدة مجهزة بأحدث الأجهزة الفنية ، مثل مركز برازي الذي يعتبر نموذجاً في نوعه ، لما يعطيه من زيت « معدني » صاف تماماً . ومن جهة أخرى ، يمكنها أن تفخر بالانجازات الهامة جداً التي حققتها في مضمار البتروكيمياء .

ولا تؤمن احتياطيات البلاد في البترول والفحم والليغنيت ، ومجاريها المائية المحروقات الضرورية لمختلف القطاعات الضرورية لاقتصادها فحسب ، بل أيضاً مدخراً طاقياً يقدر بـ ٣٦ مليار كيلووات ساعي في العام . وشيدت مراكز هامة حرارية ومائية - كهربائية في دواسيستي ، باروزيني ، بورزيستي ، فاليوغ ، بيكاز ، بانتظار المركز الروماني - اليوغوسلافي العظيم على الدانوب .

وهكذا تستطيع رومانيا أن تسجل زيادة في انتاجها الصناعي بمعدل ١٥ ٪ في العام وزيادة ٩ ٪ من دخلها القومي ، وهذه وتيرة مجهولة في بلاد

الشرق الأخرى وأعلى من وتيرة معظم الدول الغربية . وتتجه مبادلاتها التجارية شيئاً فشيئاً نحو الغرب ، على حساب رفيقاتها في الكوميكون . وتجدر الاشارة ، في هذا الموضوع ، إلى الجهد الذي قامت به الحكومة الرومانية منذ بضع سنوات لصالح السياحة ، وهي مصدر للدخل من النقد الاجنبي لا سبيل إلى إهماله .

بلغاريا

ومع آخر العروش البلقانية ، أطيح بالعرش البلغاري في هزيمة الجيوش المتارية على الجبهة الشرقية ، بعد أن ربط الملك بوريس الثالث ، دون حذر ، مصيره بمصير المانيا النازية . وقد توفي فجأة في ١٩٤٣ ، ولم يمارس ابنه الفتى ، سيميون الثاني وعمره ست سنوات ، السلطة فعلاً : وكان آخر ممثل لسلالته ، وقد أخذ مع حاشيته الصغيرة طريقه إلى المنفى في ايلول ١٩٤٦ ، بعد أن انفذ الاستفتاء الشعبي سقوط الملكية بـ ٩٢،٧٪ من الأصوات .

كان الحزب الشيوعي البلغاري قوي التنظيم في سره ، وكان يتلقى من موسكو أوامر زعيمه جورجي ديميتروف . وشكل منذ ١٩٤٠ عدة مراكز مقاومة في المناطق الجبلية والغابات من البلاد . وضمت دعايته النشيطة قسماً عظيماً من السكان العاملين وعناصر من الجيش لقضيته . وقد أطلق الأمر بالثورة في الليل ، من ٨ إلى ٩ ايلول ١٩٤٤ ، وروعي هذا الأمر بدقة ، وتكلل بنجاح عظيم . وسقطت مدن الأقاليم بسرعة في أيدي الأنصار ، واحتل مغاوير الصدام النقاط الستراتيجية في العاصمة، والتحقت بهم القطعات السوفياتية بعد قليل . وبعد بضع ساعات تشكلت حكومة ائتلافية برئاسة كيمون غورغيف وتمثلت فيها كل تشكيلات

« جبهة الوطن » : حزب العمال الشيوعي ، الاتحاد الزراعي ، تجمع « زفينو » والحزبان الاجتماعي — الديموقراطي والمستقل .

ووقع اتفاق المدنة في موسكو ، في ٢٨ تشرين الأول ١٩٤٤ ، وبموجبه أعادت بلغاريا الأقاليم التي انتزعتها من اليونان ويوغوسلافيا، وردت أرضها إلى ١١١٠٠٠ كم٢ ، وشاركت في نضال الحلفاء ضد المانيا . ووقعت معاهدة السلام في باريس ، في ١٠ شباط ١٩٤٧ . وفي غضون ذلك عززت الانتخابات العامة في عام ١٩٤٥ « جبهة الوطن » التي حصلت على ٨٨،١٨٪ من الأصوات . وهيأ المجلس الوطني ، المنبثق عن هذه الاستشارة ، القوانين التي جهزت البلاد بالبنيات الجديدة السياسية والاقتصادية والثقافية . وكلف أيضاً بتنظيم استفتاء ايلول ١٩٤٦ ، وبنتيجته أعلنت جمهورية بلغاريا الشعبية ، وكان رئيسها الأول المنتخب فاسيل كولاروف، وشكل غورغيف حكومته الائتلافية الثانية .

وقد عهد إلى المجلس الوطني الأكبر «نارودنو سوبرانيه» المنتخب ، في ٢٧ تشرين الأول ١٩٤٦ ، بمهمة تحرير دستور جديد . وفيه حصل حزب العمال على الأكثرية المطلقة . ولذا يلاحظ في بلغاريا نفس مراحل النمو الذي تم في الديموقراطيات الشعبية الأخرى وهي وجود شيوعية مسيطرة تسعى إلى حذف رفيقاتها ، الواحدة بعد الأخرى. وبعد أن عاد ديميتروف ، الأمين العام السابق للكومينترن ، من الاتحاد السوفياتي بقليل ، ترأس الحكومة البلغارية الثالثة ، في ٢٢ تشرين الثاني ، وخص حزب العمال بعشر حقائب ، وخمس إلى الاتحاد الزراعي ، واثنتين إلى الاجتماعيين — الديموقراطيين ، واثنتين إلى تجمع « زفينو »، وواحدة إلى المستقلين. وكان بيتكوف ، زعيم الحزب الزراعي منافساً خطراً بسبب

شعبيته في عالم الريف ، ولذا كان أول ضحية للستراتيجية الشيوعية . فقد أوقف في شهر تموز ١٩٤٧ بحجة قيامه بحركات مناوئة للثورة ، وحكم عليه بالموت وشنق في ٢٣ ايلول . ولم تقف بعد ذلك أي عقبة أمام الستالينيين لاستلام السلطة . وقد عين ديميتروف أيضاً ليرأس اللجنة البرلمانية المكلفة بتحرير مشروع الدستور . ولا عجب ، بالتالي ، إذا ما أخذت هذه اللجنة دستور الاتحاد السوفياتي أساساً لأعمالها . وفي السنتين ١٩٤٧ — ١٩٤٨ ، أسرعت الحكومة الجديدة إلى إبرام معاهدات صداقة وتعاون ومساعدة متبادلة مع الاتحاد السوفياتي وتوابعه الأخرى .

وفي بداية عام ١٩٤٩ ، كانت صحة ديميتروف معتلة ، فاضطر إلى التخلي عن وظائفه والذهاب إلى موسكو للاستشفاء . وهناك توفي ، في ٢ تموز ، تاركاً مسؤولية الحكم إلى فاسيل كولاروف ، أقرب معاونيه . ولكن هذا توفي بدوره ، في كانون الثاني ١٩٥٠ ، وعهد بادارة الشؤون العامة إلى فالكو تشرفنكوف . وحينئذ عرفت بلغاريا أظلم دور في تاريخها الحديث . فقد طبق تشرفنكوف دون هوادة أوامر الكرملن وظهر أكثر ستالينية من رؤساء الجمهوريات الشعبية . ولكن رد الفعل ، الذي أعقب زوال ستالين في الاتحاد السوفياتي ظهر في بلغاريا ، مع بعض التأخير . ففي العام ١٩٥٦ عقد اجتماع كامل للجنة المركزية لحزب العمال وشهر بعبادة الشخصية كما ندد بسلوك تشرفنكوف ، وعزل من منصبه رئيساً لمجلس الوزراء وحل محله ، بعد ذلك بقليل ، انطون جوغوف ، ثم ، في ١٩٦٢ ، تودور جيفكوف ، أمين سر اللجنة الأول .

وقد برهن جيفكوف في بلغاريا على نفس المهارة ونفس الاعتدال الذي برهن عليه غومولكا في بولونيا و كادار في هونغاريا . وفي ٥

تشرين الثاني ١٩٦٢ ، توج عمله في السياسة الداخلية بتخليص الفئة الموجهة من آخر عناصرها الستالينية والمناصرة للصين ، ووقف ، منذ ذلك الحين ، أفضل نشاطه لتنمية البلاد الاقتصادية .

وهذه الصداقة التقليدية ، التي تربط بلغاريا السلافية بروسيا لم تمنعها من البحث عن منافذ في الغرب ، ومن زحزحة نير الكرملن مراراً وتكراراً . وكان جيفكوف يناصر الشيوعية القومية ، وقد أوشك أن يتبع زملاءه الرومانيين على طريق التقارب الدبلوماسي مع الجمهورية الاتحادية الألمانية في ربيع ١٩٦٧ غير أن بريجينيف شخص الى صوفيا ليصرفه عن ذلك ، ووقع معه ، في ١٣ أيار ، معاهدة صداقة وعون متبادل جديدة لمدة عشرين عاماً . وفي آب ١٩٦٨ ، أسهمت الجيوش البلغارية في غزو تشيكوسلوفاكيا .

هذا ويتصف الشعب البلغاري بصفات قوية صلبة ، فهو نشيط ، يحب العمل ، كريم ، متسامح ، عدد نفوسه ٨٫٦ مليون نسمة ، ولايدع نفسه ينجذب في السياسة نحو المواقف المتطرفة ، ويفلح ارضاً خصبة ، ويتعلق بها بعمق ، وتجهزه بغذاء كاف . ويصدر عطر الورد والتبغ الى العالم أجمع . وقد استطاع الاصلاح الزراعي بتشجيعه على انشاء التعاونيات الزراعية ، ومضاعفة السطح المروي بعشرة اضعافه ، وتعميمه استعمال الجرارات والآلات الزراعية والأسمدة ، ان يرفع إلى ٥٠٪ انتاج الحبوب بالنسبة إلى ١٩٣٩ ، ويحسن بنسبة عظيمة مستوى الحياة في الارياف .

وقد قام النظام الجديد ، مع ذلك ، بتصنيع منظم للبلاد بالافادة من الموارد الطاقية . وهكذا انشيء سد « ايسكار » ، بالقرب من صوفيا ،

وسد « شتودن كلادينيتز » ، والمعمل المائي ـ الكهربائي في باتاك ، والمركز المعـــدني في بيرنيك ، ومعامل صهر الرصاص والتوتيا في كيرجالي ، والاسمنت في بيلي ـ ايزفور ، والزجاج في راز غراد ، ومصنع المراكات الكهربائيـة في بازار جيـــك ، ومعمـل السماد الآزوتي في ستارا ـ زاغورا ، خـلال الخطط الخمسية الثلاث الاولى التي انتهت في ١٩٦٢ . وفي هذه السنة نفسها ، قدم تودور جيفكوف ، من ٥ الى ١٤ تشرين الثاني ، الى المؤتمر الثامن للحزب مشروعـاً جريئاً في التنمية الاقتصادية يتناول العشرين السنة القادمة . وحسب هذه التوجيهات يجب ان يكون الانتاج الزراعي ، في العام ١٩٨٠ ، اعلى بمقدار ضعفي ونصف ماهو عليه اليوم ، وأن يكون حجم الانتاج الصناعي سبعة أضعاف الحجم الحالي .

البانيا

لقد كانت البانيا اقليماً قديماً من اقاليم الامبراطورية العثمانية ، ثم ملكية من النوع الخفيف في عهد الملك زغو الأول ، وقد اصبحت في العام ١٩٤٥ أصغر جمهورية شعبية في القارة الاوروبية . وهي أكثر البلاد الاوربية انغلاقاً على الحضارة الغربية . الا أن فرنسا وايطاليا وحدهمـا مازالتا تقيمان فيها بعثات دبلوماسية هزيلة . والبانيا بلد مسلم ، إلى جانب يوغوسلافيا ، يمتـــد على ٢٩٠٠٠ كم٢ ونفوسها أقل من مليون نسمة . وعاصمتهـا الحالية تيرانا ، وشكودر (سكوتاري) ، عاصمتها القديمة ، وهما مديناتان صغيرتان يعيش فيها الصناع والتجار والموظفون ، ويراقبهم بشكل وثيق موجهو الحزب الشيوعي وشرطة دولة زائدة عن اللازم تهتم بادق التفاصيل . ويعيش باقي السكان في القرى ومحطات الجبل من حاصلات أرض قاحلة ومن تربية قطعان الخراف والماعز .

وبعد الحرب العالمية الثانية ، سيطر على تاريخ البانيا نزاع اوقعها في خلاف مع الاتحاد السوفياتي ، وليس بالقريب ايجاد حل له .

وكان انور خوجا ، زعيم الانصار الالبانيين المناوئين لهتلر ، قد تثقف في مدرسة موسكو ، ولم يغادر مركز المقاومة الا ليجابه الحلفاء الغربيين ، وبخاصة بريطانيا العظمى ، فقد ابى عليهم كل حق للنظر في قضايا بلده وبعد ان تمت الهزيمة الالمانية استولى على السلطة المطلقة ، وفرض نفسه رئيساً للحكومة وأميناً عاماً للحزب الشيوعي باقامة نظام الارهاب . ولم يكن ستالين نفسه ليقيم وزناً لهذه الشخصية التي تستلهم بشدة مفرطة من طرقه . ولذا كانت البانيا الديموقراطية الشعبية الدولة الوحيدة التي رفض الاتحاد السوفياتي ان يبرم معها معاهدة صداقة . وعندما اسس الكومنفورم ، في ١٩٤٧ ، كان الحزب الشيوعي الألباني الكتلة الماركسية الوحيدة التي لم تدع للاشتراك به وهذا لم يمنع انور خوجا ، في السنة الثانية ، من أن يظهر بين غلاة متهمي تيتو ، رفيقه السابق في الكفاح ، في الحملة التي ادت الى حرمانه ، (اخراجه من الجماعة الشيوعية) . ولم ينس المارشال اليوغوسلافي ذلك .

وبعد وفاة ستالين اظهر خلفاؤه بعض الاهتمام بالبانيا ، واستقبلوا مندوبيها في مؤتمر « الاحزاب الأخوة » في موسكو ، في تشرين الثاني ١٩٥٤ ، وقبلوا بأن يسهموا ، في أيار ١٩٥٥ ، في ميثاق وارسو (فارسوفيا) . وفي الحقيقة ، تظاهر انور خوجا بأنه يخضع إلى المبدأ الجديد في القيادة الجماعية التي نادى بها الكرملن : وفي ٢٠ تموز ١٩٥٤ ، تخلى عن وظائفه ، كرئيس لمجلس الوزراء ، لصالح محمد شيخو ، وزير الداخلية ، أقرب معاونيه ، ليكرس نفسه للحزب فقط .

ولكن ، هذا هو كل مـا قبله الدكتاتور الالباني من الخط الجديد الذي رسمته موسكو . وثار على الموجهين السوفيـاتيين عندمـا تقرب هؤلاء من بلغراد . وقام جدل عنيف ، في ١٩٥٧ ، بين خوجا وتيتو أدى إلى طرد السفير اليوغوسلافي من تيرانا . وتوترت العلاقات بسرعة بين الجمهوريات الشعبية الاوربية المناصرة للنظريات الروسية والحكومة الالبانية التي انحازت لبكين منذ السـاعات الاولى التي نشب فيها الخـلاف الايديولوجي الصيني - السوفياتي . وفي مؤتمر موسكو ، في آخر تشرين الثاني ١٩٦٠ ، ، الذي ضم ممثلي الـ ٨١ حزباً شيوعياً في العالم كله ، اصطف أنور خوجا بعزم إلى جانب ليو - شاو - شي ، موجه الوفد الصيني . وهاجم بعنف غريب نيكيتـا خروتشوف ، وكان كريهاً اليه ، واتهمه بحق ، بممارسة ضغوط اقتصادية على البانيا ، وبادخاله عملاء هدامين إلى تيرانا بغية إعداد انقلاب فيها بمشاركة تيتو .

ولم يعد بالامكان تجنب القطيعة . وقد حدثت فعلا بمناسبة المؤتمر الثـاني والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي ، في تشرين الأول ١٩٦١ . وفي ١٠ كانون الأول التالي ، قطعت العـلاقات الدبلوماسية رسميا بين موسكو وتيرانا ، وأخرجت البانيا من منظمة حلف وارسو . وانطوت على نفسها دون أي اتصال مع الغرب ومع البلاد الشيوعية الأخرى في القارة . وتعلقت بجميع منازعات ماو - تسيه - تونغ ، وجميع مواقفه التي اتخذها منتظرة أن زوال انور خوجا وفئته ربما يرفعها إلى صف الأمة الحرة .

يوغوسلافيا

يختلط تاريخ يوغوسلافيا الحديثة بتاريخ زعيمها ، الماريشال تيتو ،

الذي كشفت الحرب العالمية الثانية عن شخصيته القوية ، القائد العسكري الوحيد في ذلك العصر الذي توصل إلى السلطة ورسخ فيها دون انقطاع .

وإذا جعل تيتو من يوغوسلافيا جمهورية اشتراكية ، فقد صاغ لها أيضاً وجهاً يمنع اختلاطها بالديموقراطيات الشعبية الاخرى ، دولة رائدة لاتتنازل عن شيء إلى المذهب الرأسمالي . ولكنها تحرص على أن تكون حرة من كل تبعية للكتلة السوفياتية وقد فتحت القومية — الشيوعية اليوغوسلافية ، « التيتية » ، في العام ١٩٤٨ ، الثغرة الأولى في الستار الحديدي ، والتي حاولت رفيقاتها في ميثاق وارسو أن تدخل منها مع قليل أو كثير من الحظ . ومع ذلك فان كسب استقلالها لم يتم دون إثارة تشنجات اليمة .

إن الأمين العام للحزب الشيوعي اليوغوسلافي ، جوزيف بروز ، الذي لم يعد يعرف إلا باسمه في الحرب « تيتو » ، نظم ، في عام ١٩٤٠ ، مقاومة بلاده ضد الريخ الثالث المغير . وكان عليه أن يحارب من بعد على ثلاث جبهات : ضد الجيش الالماني ، ضد « اوستاشي » آنت بافيليتش ، وضد حركة « شيتنيك » التي قام بها درازا ميها يلوفيتش ، الوطني اليوغوسلافي المتحمس ، الملكي والمناويء للشيوعية . وقد تم لقاءان بين تيتو وميها يلوفيتش ، في تشرين الأول ١٩٤١ ، لمحاولة تنسيق عملها . وكانت وجهات نظرهما متباعدة جداً جداً ولايمكن عقد اتفاق بينها وهذه المعارضة بين حركتي المقاومة أدت إلى أقبح التطرفات . وتأثرت الحكومة البريطانية بنجاح تيتو ، فعقدت معه اتصالات مباشرة ، وخففت في الوقت نفسه دعمها لميها يلوفيتش . وتلا ذلك صدام بين تشرشل من جهة ، والملك بطرس الثاني والحكومة اليوغوسلافية في المنفى في لندن ، من

جهة أخرى . وكان الملك والحكومة يجهلان أن الحلفاء ، في موسكو ، ثم في طهران ، اعترفوا بتيتو ممثـلا لكافة الشعب اليوغوسلافي ، وصودق على هذا القرار فيما بعد في يالطا ، بينما رفعه المجلس المناوىء للفاشية إلى منصب ماريشال يوغوسلافيا .

وفي ٢٤ أيار ١٩٤٤ ، عاد تشرشل وأكد علناً في مجلس العموم مساندته دون حيطة لتيتو ، ودفع الملك بطرس ووزيره الأول **بوزيدار بوريك** إلى سحب حقيبة الدفاع من الجنرال ميهايلوفيتش . وفي الأول من حزيران ، فرض الدكتور **ايفان سوبازيك** ليحل محل **بوريك** . وبعد خمسة عشر يوما ، زار رئيس الحكومة اليوغوسلافية الجديد تيتو في أركانه العامة في جزيرة فيس وأبرم معه معاهدة ، وبموجبها اتحدت جميع قوات الأمة ضد العدو المشترك ، وأرجئت قضية النظام السياسي إلى أجل غير مسمى . وقد أعطى تيتو لها الحل قبل آخر السنة .

وفي ١٢ آب ، التقى الزعيم الشيوعي بتشرشل في نابولي . وفي ٢٦ منه ، أعلنت الحكومة اليوغوسلافية في لندن حل أركان ميهايلوفيتش ، وفي ١٢ ايلول ، أعطى الملك الامر من الاذاعة البريطانية إلى « الشيتنيك » بان يضعوا أنفسهم تحت قيادة تيتو . وهكذا تم اخفاق ميهايلوفيتش دون أن ينقذ المليك الشاب تاجه .

ولم يكتف تيتو بالنصر على منافسه . وفي ١٥ تشرين الاول دخل بلغراد على رأس أنصاره . وفي ٢٩ تشرين الثاني دعا إلى يايسو مجلساً مناوئاً للفاشية ، فقرر هذا بالاجماع سحب الامتيازات الحكومية من حكومة لندن ، وحرم على الملك بطرس الثاني وعلى أي عضو آخر من سلالة قره جوورج العودة إلى يوغوسلافيا .

وفي ٧ آذار ١٩٤٥ ، تألفت حكومة في العاصمة اليوغوسلافية يرأسها تيتو ، وسوبازيك للشؤون الخارجية . وفي ٨ أيار تحررت البلاد كلها . وكان ميزان هذه السنوات الأربع ثقيلا جداً : ١٧٠٠٠٠٠ ضحية عسكرية ومدنية على شعب عدد نفوسه ١٤ مليون نسمة . وكانت التخريبات عظيمة ، والبلاد يمزقها الانفصال ، والادارة فوضوية ، وفقد النقد تسعة أعشار قوته الشرائية . وفي هذا المناخ نظمت انتخابات ١١ تشرين الثاني إلى المجلس التأسيسي . وقدمت الجبهة الوطنية وحدها مرشحيها وحصلت على ٩٠٪ من الاصوات المقترعة . وقد تركت الحرية لممثلي المعارضة فامتنعوا عن التصويت عن فطنة . واستقال بعد الاقتراع مندوبا لندن في الوزارة الائتلافية ، ميلان غوول ، نائب رئيس مجلس الوزراء ، وايفان سوبازيك ، وزير الشؤون الخارجية ، ولم يبق منذ الان شيء يعيق زحف الشيوعيين المنتصر نحو السلطة .

وفي ٢٩ تشرين الثاني ، أعلنت الجمعية التأسيسية سقوط الملكية ، وقيام جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية الشعبية . وانتخب الماريشال تيتو رئيساً للجمهورية . وجددت ولايته بانتظام دون أن يجرأ منافس على منازعته ادارة الدولة . وتبني الدستور الجديد ، في ٣١ كانون الثاني ١٩٤٦ ، وبدل مرتين ، في ١٩٥٣ و ١٩٦٣ ، وأصبحت يوغوسلافيا عندئذ جمهورية اشتراكية اتحادية وتخلت عن الوصف « شعبية » .

وفي غضون ذلك شكل الخلاف بين ستالين وتيتو أفظع مرحلة في كفاح يوغوسلافيا في سبيل تحريرها وكاد يكلفها حياتها .

ومهما يكن تفاوت النسبة بين الامبراطوريتين العائدتين لكل من

الزعيمين ، فان المجابهة بين زعيمي الدولة لايمكن اجتنابها . فقد كان ستالين يرى ، في الواقع ، أن يوغوسلافيا ليست إلا عنصراً في مجن حماية الاتحاد السوفياتي الذي سلمه حلفاؤه له في يالطا ، وأن على موجهيها أن يلعبوا دور حكام بسطاء يطبقون توجيهات الكرملن دون مناقشة وضجة ، وبذلك يدفعون الدعم الذي لم يساومهم عليه طوال الحرب ضد الحكومة اليوغوسلافية في لندن . وكانت وجهات النظر هذه بعيدة كل البعد عن وجهات نظر تيتو الذي لم يحرر بلاده من الاحتلال الالماني ليتركها تعود إلى حالة مستعمرة سوفياتية .

وانفجر النزاع بمناسبة مشروع الاتحاد البلقاني الذي وضعه تيتو . وبموجبه تؤلف يوغوسلافيا وبلغاريا والبانيا ، في البدء ، كياناً سياسياً — اقتصادياً . وقد عبر ستالين عن استيائه في اجتماع وارسو (فارسوفيا) ، في ايلول ١٩٤٧ ، عندما صادق الزعماء الشيوعيون على انشاء الكومنفورم ، وامتنع تيتو عن المشاركة ومثل نفسه فيه بنائبين : جيلاس و كارديلي . وانفجر غضبه عندما علم ، بعد ذلك بقليل ، بزيارة ديميتروف ، رئيس الحكومة البلغارية ، لقصر بليد حيث عرض عليه الرئيس اليوغوسلافي الخطوط الكبرى لمشروعه . ولما ذكر ديميتروف بواجبه ، اعترف بخطئه . ولكن تيتو رفض رفضاً باتاً عرض اتحاد موسع باشتراك الاتحاد السوفياتي واشراف الكرملن .

وهذا هو النص الذي وسّعه ستالين في المؤتمر السوفياتي - البلغاري - اليوغوسلافي المنعقد في موسكو ، في ١٠ شباط ١٩٤٨ . وقد رفض تيتو حضوره وارسل في هذه المرة ، كاردبلي مكانه . وهذا العمل الفظيع المخالف للنظام ، حسب اخلاق ستالين ، يدعو الى عقوبة تكون عبرة لغيرها . وبعد

بضعة أيام الغى المفاوضة التي كان يجب أن تفتتح في نيسان لتجديد الاتفاق الاقتصادي السوفياتي - اليوغوسلافي . وفي ١٨ آذار ، استدعى مشاوريه العسكريين ، وضاعفت مصالح استعلاماته نشاطها في يوغوسلافيا . وقام النزاع بين اناء الحديد واناء الخزف . وعلى عكس المنتظر كان النصر لهذا الأخير .

في ٢٠ حزيران ، دعا ستالين الى عقد الكومنفورم في بخارست ، ولمع تيتو بغيابه اكثر من أي وقت مضى ، ولم يكترث بأن يأخذ فيه موقف المتهم . وفي ٢٨ حزيران ، وافقت جميع الوفود الحاضرة منقادة على القرار الذي يشهر بالهرطقة التيتية ، وشجبت الحزب الشيوعي اليوغوسلافي الذي خان النظرية الماركسية في نزاع الطبقات ، وقومية موجهيه واتهامهم المذهب،والطابع الاستبدادي والارهابي لنظام بلغراد الذي اخرج من الأسرة الاشتراكية الكبرى . وقد اشفع هذا الحرمان الكبير بنصيحة مخاتلة الى عنوان الحزب الشيوعي اليوغوسلافي تدعوه الى اتخاذ سادة جدد له . وهكذا تمت القطيعة بين يوغوسلافيا والديموقراطيات الشعبية . اما من جهة ستالين فلم يقتصر على التهديدات الافلاطونية ، ونظم عملاؤه في بلغراد حركة عسكرية ضلع فيها ثلاثة جنرالات ، وكان احدهم جوفانوفيك رئيس الاركان السابق ، فقد قتل في مشادة ، واوقف رفيقاه واعدما رمياً بالرصاص . لأن الشعب والجيش اليوغوسلافيين ظلا متحدين اتحاداً وثيقاً وراء تيتو ، بالرغم من نصائح الكومنفورم .

واخفق الانقلاب وساد جو الحرب الباردة في هذا القطاع الاوربي حيث كانت الضغوط الاقتصادية تتزايد بشكل يعاكس يوغوسلافيا، وتعددت حوادث الحدود حيث انطلقت الدعاية بعنف تظهر تيتو عميلاً هتلرياً -

تروتسكياً . وعندئذ ودون ان ينكر تيتو شيئاً من مبادئه تقرب من الغرب ، وبخاصة من الولايات المتحدة ، التي سجلت امم يوغوسلافيا على برنامج المساعـــدة الأجنبية وانقذتها من الاختناق والعوز وسلمتها أول تجهيزاتها الصناعية . وقد عجز كل ثقل الاتحاد السوفياتي وتابعيه عن سحق تيتو وقهر ارادته في الاستقلال .

وبعـد وفاة ستالين ، ذهب خلفاؤه ، في أيار ١٩٥٥ ، الى بلغراد لتقديم الاحترام ، الذي يهز القلوب والمشاعر ، الى الزعيم اليوغوسلافي ، ثم تبعهم موجهو الجمهوريات الشعبية كلها وبادروا بعقد العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع الهرطقي ، ولم يتورع بعضهم من المناداة بـ « تيتية » متكيفة مع بلدهم الخاص .

الارث الثقيل

وبعد ان لمع تيتو في العام ١٩٤٨ ، وجه شؤون بلاده بقوة أثبت مما في الماضي . ففي الداخل ، وبينما كان بعضهم يتساءلون ايضاً عن مناسبة تحرير النظام ، لم يتردد ، في الأول من تموز ١٩٦٦ ، في تضحية **الكسندر رانكوفيتش** ، نائب رئيس الجمهورية ، المعتبر على العموم ولياً لعهده ، الذي وضع نفسه علناً زعيماً لصف الخط « القاسي » في الحزب . وتابع تجربتـه حتى انتخابات نيسان ١٩٦٧ ، حيث قبل للمرة الاولى مرشحون غير شيوعيين للمثول أمام اعضاء بل رجال المناصب في الحزب .

وعلى صعيـد السياسة الخارجية ، وقف الزعيم اليوغوسلافي الى جانب نهرو وجمال عبد الناصر ، زعيماً للحياد الايجابي . وبهذه الصفة ، رفض الانحياز في الخلاف الصيني ـ السوفياتي . وإذا شجب التدخل الامريكي في فيت ـ نام ، فقد حافظ على علاقات طيبة مع واشنطن . وابرم

اتفاقات ثقافية وتجارية مع الفاتيكان ، في ٢٥ حزيران ١٩٦٦ ، ومن ثم مع فرنسا ومعظم البلاد الرأسمالية . واهتم قبل كل شيء بالحفاظ على حرية عمله ، ولذا رفض الاشتراك في مؤتمـــر الأحزاب الشيوعية الأوربية المنعقد في كارلوفي - فاري (كارلسباد) ، في تشيكوسلوفاكيا، في ٢٤ نيسان ١٩٦٧ ، حيث حددت سياسة مشتركة حيال المانيا، وفيت - نام والصين التي أصبحت اعدى عدو الاتحاد السوفياتي . وأخيراً ، في ختام المفاوضات المتابعة في باريس،من ٢٣ الى ٣١ كانون الثاني ١٩٦٨، اتفق على ان تتوطد علاقات دبلوماسية طبيعة بين يوغوسلافيا والمانيا الاتحادية. ولكن ربما حقق تيتو في مضمار الاقتصاد أعظم الاصلاحات في عهده الطويل .

ذلك لأن ملامح يوغوسلافيا تبدلت بشكل عميق منذ الحرب ، وليس بواقع تطورها السياسي فحسب. وتتألف اليوم جمهورية يوغوسلافيا الاتحادية من ست دول وهي : صربيا ، كرواتيـــا ، والبوسنة والهرسك ، سلوفينيا ، ماكيدونيا ، والجبل الأسود ، وتغطي جميعاً ٢٥٥٨٠٤ كم² وعـدد نفوسها الكلي ١٩٫٥ مليون نسمة . وفي ظل النظام القديم كان ٧٠ ٪ من رعايا الملك يتعلقون بتراب الأرض التي يفلحونها في الغالب لحساب كبار ملاكي الأطيان . وتعطي بلغراد العاصمة منظر مـــدينة شرقية ضخمة . وتشغل الصناعـــة والتجارة والادارة العامة والخاصة في الوقت الحاضر اكثر من ٦٥ ٪ من الشعب العامل ، وتؤوي بلغراد مع احيائها المتطرفة ما يقارب المليون نسمة .

في الفترة الأولى ، شجع الاصلاح الزراعي على الاستغلال الجماعي التعاوني للاراضي . وقد شغل هذا الشكل الزراعي ١٦٠٠٠٠٠ نسمة في العام ١٩٥٣ .

ولم يكن ليمتد لأكثر من ٢٨٠٠٠ هكتار في العام ١٩٦٤ ، لأنه

رد ٨٥٪ من الأراضي القابلة للزراعة إلى القطاع الخاص . ولكن كل ملكية لا تستطيع أن تتجاوز ١٠ هكتار . وفي ١٩٦٥ كانت المحاصيل الزراعية الأساسية حسب أوزانها كما يلي : الحنطة ، الذرة ، الشمندر ، البطاطا ، التبغ .

وتشير النسبة العامة لزيادة المحصول الصناعي إلى الجهد في تجديد يوغوسلافيا . فقد كانت ١٦ ٪ في العام ١٩٦٤ بالنسبة إلى ١٩٦٣ ، و ١٠ ٪ في ١٩٦٥ بالنسبة للسنة السالفة . وأهم محاصيلها الأساسية هي : الفحم ، البترول ، الكهرباء ، الغاز ، الفولاذ ، النحاس ، الرصاص ، التوتياء ، الالومنيوم . وتحتل يوغوسلافيا المكان الثالث في أوربة في احتياطي البوكسيت (خام الالومنيوم) .

ويحسن أن نشير أيضاً إلى ثلاثة معاهد يوغوسلافية خاصة بالبحث النووي في بلغراد وزغرب وليوبليانا ، وإلى انشاء أول مركز نووي قبل ١٩٧٠ .

أما مبادلات يوغوسلافيا التجارية مع بلاد الكتلة الشيوعية فقد سقطت عملياً إلى الصفر عقب مؤتمر بخارست ، في ١٩٤٨ ، ثم عادت ، منذ ذلك الحين ، دون الرغبة في الاقتصار عليها . وهكذا كان رقم الأعمال الكلي ٢٣٧٨،٩ مليون دولار في ١٩٦٥ ، ونصيب الاتحاد السوفياتي فيه ٢٩٥،٥ مليون فقط ، أي ١٢،٤٪ ، ونصيب الولايات المتحدة ٢٥٢ مليون (١٠،٥٪) ، ونصيب السوق المشتركة ٦٠٩ مليون (٢٥،٦٪) ، ونصيب منطقة المبادلة الحرة ٢٩٧،٦ مليون (١٢،٥٪) وهو يتجاوز الاتحاد السوفياتي بقليل .

والنتيجة الواضحة لأزمة ١٩٤٨ كانت في دفع تيتو ، قبل الموجهين الشيوعيين الآخرين ، إلى فتح الحوار مع الغرب . ولم يحصل الماريشال

اليوغوسلافي من ذلك على فوائد مادية فحسب . ففي ١٩٥١ . كان مقتنعاً بأن تحرير بلاده لا يكون فعلياً إلا في الحد الذي يحصل فيه على استقلاله الاقتصادي . ومنذ ذلك الحين ، وضع مشروع الاستغلال العقلاني لجميع مواردها بغية إنشاء صناعة وطنية هامة . وعلى الصعيد التقني والمالي ، جهزته الولايات المتحدة أولاً بوسائل هذا التغيير الجديد . ثم قام الاتحاد السوفياتي بديلًا في ١٩٥٦ ، عندما دفع غالياً ثمن مصالحته مع يوغوسلافيا . ووقعت عندئذ ثلاث وثائق في الكرملن : في ٦ كانون الثاني ، اتفاق تجاري يتعهد بموجبه الاتحاد السوفياتي بتسليم الجمهورية اليوغوسلافية أجهزة معامل ومهندسين مكلفين بنصبها . وفي ٢٨ كانون الثاني ، معاهدة تعاون في حقل الطاقة الذرية ؛ وفي ٣ شباط ، أخيراً ، اتفاق مالي تقبل بموجبه موسكو أن تعطي الصديقة العائدة بعد ضياعها قرضاً طويل الأجل ذهباً وعملة صعبة مقدارها ٣٠ مليون دولار ، واعتماداً ببضائع قيمتها ٥٤ مليون دولار .

ومضت عدة سنوات كانت ضرورية لحكومة بلغراد لتكييف نظامها مع متطلبات الاقتصاد الحديث . وإذا كانت يوغوسلافيا تريد أن تأخذ مكاناً بين الأمم المتطورة ، فيجب عليها ألا تؤمن حياتها فحسب ، بل أن تصدر قسماً من انتاجها . غير أن التطبيق الضيق للمذهب الماركسي الذي فات أوانه ، والتخطيط الدقيق ، والبوروقراطية الثقيلة أعطت نتائج مخيبة ، ومحاصيل ضعيفة غير قابلة للبيع في السوق الدولية ، ومزارع ومشاريع صناعية وتجارية خاسرة . وعندئذ أعاد تيتو الاعتبار إلى فكرة الربح . وفي ١٩٦٢ كانت الدولة تراقب بعد نشاط البلاد الاقتصادي ، وكان عليها أن تغطي العجز الدائم للمشاريع . وبعد أن أعادت حرية تملك الاراضي إلى الفلاحين ، لم تعد تقبض في العام ١٩٦٧ إلا على ٣٠٪

من الدخل القومي . حتى ان هذه النسبة آخذة بالتناقص بسرعة . ولذا يجب على مجالس الشغيلة التي تسير المؤسسات الصناعية ودور التجارة أن تحقق منذ الآن أرباحاً جوهرية ، وإلا فانها تفلس دون أن تستطيع الاعتماد على الدولة لانقاذها . ومن جهة أخرى ، زادت الحكومة بنسب عظيمة حجم وارداتها بغية تنشيط المنافسة على صعيد مزدوج من الكيفية والاسعار بين المنتجات القومية والاسعار في الخارج . وأخيراً ، طرحت على بساط البحث قضية السماح لتوظيف الأموال الأجنبية في يوغوسلافيا ، وهذا ما لم ير في بلد شيوعي . ومثل ذلك القول بأن يوغوسلافيا ، أولت ظهرها النظام الاشتراكي ، وسارت على طريق الاقتصاد الحر الذي اكتشفت من جديد فوائده . وهـذا يعني ، في الواقع ، ثورة تقلب بنيات البلاد كلها .

وكان تيتو وحده قادراً على فرض ذلك على مواطنيه ، كما كان وحده قادراً على إبقاء سلطة السلطة المركزية أمام كل محاولة استقلال تقوم بها بعض جمهوريات الاتحاد ، وبخاصة كرواتيا .

الفصل التاسع

الولايات المتحدة

الشروط العامة

كانت الولايات المتحدة ، في العام ١٩٤٥ ، أول دولة في العالم بقوتها الاقتصادية والعسكرية ، ومـا زالت كذلك ، وهي اليوم أكثر من أي وقت مضى .

واذا بدا أن البلاد المهيأة للامساك بمثل هذا الدور قليلة ، فذلك لأن عدم الخبرة هذا يوضح تردد وحيرة سياستها على الصعيد الدولي من ١٩٤٥ إلى أيامنا .

وإذا وجد تقليد دائم في تاريخها منذ أصولها الاستعمارية حتى بداية عصرنا ، فذلك هو بقاؤها بعيدة جانباً عن شؤون القارات الأخرى . وقد هيأها انعزالها الجغرافي من قبل لذلك . وهذه هي النصيحة التي تركها الرئيس واشنطون قبل مغادرته الحياة إلى الأمة التي أسسها . وبعد قليل، أصبحت النصيحة مذهب مونرو الشهير .

الإجماع الاميركي

وتشكلت هذه العقلية وكبرت في كل جيل بدفقات جديدة من المهاجرين واللاجئين ، وقويت بانعكاسات حروب جديدة وثورات جديدة ، ومن الممكن أن نراها واعية كثيراً أو قليلاً ، وراء رأس معظم الاميركيين اليوم .

والولايات المتحدة ، كما يدل عليها اسمها ، اتحاد ولايات « دول » ، وكل ولاية بذاتها هي اتحاد عدد من الوحدات المدنية أو الريفية ، وكل واحدة من هذه الوحدات هي اتحاد أسر ، وكل أسرة هي اتحاد افراد ، على الأقل نظرياً . وفي كل درجة من تسلسل هذه الفئات يحق لكل عضو أن يستعيد حريته واستقلاله . والسلطة التي لا غنى عنها عملياً للحفاظ على الحياة الاجتماعية وعلى حماية الجميع يجب أن تخفض إلى الحد الأدنى الدقيق ، وأن تبقى تحت الاشراف المستديم لكل واحد . وهكذا ، على الأقل ، كان الرئيس جفرسون يأمل في السنوات الاولى للجمهورية . وقد دفعت الظروف الحكومة الاتحادية إلى توسيع اختصاصاتها ، ومافتئت هذه النزعة تعظم ، بتسارع متزايد حتى أيامنا . وما بقي على الأقل من ذلك هو أن الحياة السياسية ما زالت تعتبر اليوم من معظم الاميركيين نشاطاً اضافيـــاً ثانوياً ، لا يمكن اجتنابه حقاً ، ولكنه مشبوه ويحسن احتواؤه في حدود ضيقة .

إن « عمل اميركا هو عمل » وهذا يعني « أن عمل امريكا هو عمل أعمال » . وهذه الحكمة التي نطق بهـــا كالفن كوليدج ، رئيس الولايات المتحدة من ١٩٢٣ إلى ١٩٢٨ ، توجز جيداً موقف كافة الشعب الاميركي ، مع هذا التضمين الطهراني الأصل ، وهو أن عمل الانسان لذاته ما زال أفضل واسطة للعمل صالحاً للآخرين ولله . وعلى العموم ، وحتى هذه السنوات الأخيرة ، يوجد عند المواطنين في الولايات المتحدة انطباع في أن بلادهم كانت تنتقل في تاريخها القصير من نجاح إلى نجاح . فلقد نجح معمرو القرن السابع عشر في التأصل على أرض قليلة الترحيب . ودفع أنسالهم المحتلين الأوائل ، وفتحو الغرب للحضارة ، وأمنوا استقلالهم عن أوربة وحافظوا على وحدتهم ، ونمو مواردهم دون توقف ، ورفعوا

مستواهم المتوسط في الانتاج والاستهلاك إلى مستويات عالية مجهولة في غير مكان ، أي انهم بالاجمال أقاموا فردوساً أرضياً جديداً ، أو ما يشبهه ، وكل هذا مع الحفاظ في الحد الأدنى على اتصالاتهم مع القارات الأخرى .

وياللأسف ، تعقدت الحالة في بداية القرن العشرين . وعن خرق أو خطأ أو قدر محتوم وجدت الولايات المتحدة نفسها شيئاً فشيئاً في أزمات وخلافات أوربة وآسيا . وكانت بعد كل تدخل ، تحلف بألا تعيد ، فتقع بعد قليل في محنة أعظم ، وفي غضون ذلك ، صغرت التقنيات الحديثة في التنقليات والمواصلات العـالم ، وأمكن التساؤل ما إذا كانت الحكمة الالـهية أو القدر قد هيا لهـذه البلاد مهمة اسعاد البشرية كما أسعدت نفسها .

والاميركيون كلهم ، عملياً ، ذرائعيون ومتفائلون . وكلهم يثقون بأنفسهم ، وأكثر من ذلك أيضاً ، بوطنهم . ولا يوجد عندهم منشقون ، ولا أنصار العودة إلى الماضي أو القفزة نحو المستقبل . انهم يعيشون في حاضر سرمدي . وكلهم متفقون على أن يقبلوا بأن أفضل شكل للحكم إنما هو دستورهم الجليل لعام ١٧٨٧ : الذي سن لأمة ناشئة نفوسها ٤ ملايين نسمة متناثرين على طول المحيط الاطلسي ، ويصلح دوماً ، على ما يظهر ، لشعب يصبح بعد قليل ٢٠٠ مليون نسمة منتشرين عبر القارة الاميركية وتحت تصرفهم وحدهم ثلث موارد الكوكب . ويعترفون جميعاً باحترام كبير للملكية الخاصة وعبادة الافراد الحرة ، ولايقبلون لكليهما حدوداً أخرى غير الحدود التي تفرضها المصلحة العامة . وهم ، دون ان يكونوا جميعاً ممارسين للعبادة ، يتركون حرية التصرف الكاملة لنشاط مختلف الكنائس ، ولكنهم يأبون على كل منها أقل نجدة من الدولة . وباختصار، ان القضايا التي تفصل إلى اليوم الفرنسيين إلى معسكرات

غير قابلة للمسالة ، نجد الاميركيين فيها على اتفاق في الحفاظ على النظم (المؤسسات) والمبادىء التي تبدو لهـــم أنها أمنت سلامهم وسعادتهم وتقدمهم منذ بدايات حياتهم القومية .

حزبا الجمهوريين والديموقراطيين

ومع ذلك ، فمن هـذه الأصول نفسها يبدو المواطنون في الولايات المتحدة منقسمين إلى حزبين بدلا اسمها ، وتبادلا اسميها في سياق القرن التاسع عشر ، ولكن العـالم كله يعرف منذ مائة سنة ان الحزب الجمهوري كالحزب الديموقراطي . فيها يتنازعان بضراوة على جميع الوظائف العامة ، من رئاسة الجمهورية حتى الوظـائف البلدية والقضائية والمدرسية الغامضة . ويبدو من المستحيل أيضاً على المراقب الأجنبي ان ينكر اهمية هذا الانقسام المديد وان يفهم على وجه الصحة سبب وجوده .

وفي الواقع ، ان كلا من هذين التشكيلين السياسيين ينقسم على معظم القضايا الكبرى ، وان كثيراً من قرارات الكونغرس يحصل عليهـا بائتلاف بعض الجمهوريين وبعض الديموقراطيين على ائتلاف معـارض من جمهوريين آخرين وديموقراطيين آخرين .

ومن الممكن أن يشبه جملة الحزب الجمهوري والحزب الديموقراطي بما كان عليه حزب المقاومة وحزب الحركة في فرنسا لوي - فليب . فقد مثل الجمهوريون كثيراً أو قليلًا كبار الأثرياء ، أغنياء الناس ، أو على الأقل الراضين عن مصيرهم ، والمتحدرين من العـائلات القديمـة الانغلو- ساكسونية والطهرانية وكل من يريدون التعلق بذلك ، وكلهم يرغبون ان يبقوا القادمين الجـدد والفارين من الأكواخ والغيتو من اوربه الوسطى والمتوسطية والشرقية بعيدين عن الثروة والسلطة اطول ما يمكن من الوقت . وكان

هؤلاء يتكدوسون في الأحياء الصناعية في المدن الكبرى ، حيث يخرطهم الايرلنديون ، المستهدفون قبل وصولهم لنفس الأغراض، في تشكيلات الحزب الديموقراطي ، حزب فقراء الناس الطامعين في العمل والتسليف والمرتابين بقوة بأصحاب المصارف والرأسماليين الآخرين في استغلال بؤسهم .

وعلى نقيض هؤلاء المغسولين بشكل سيء، وهم في معظمهم من الكاثوليك ، او فضلاً عن ذلك من اليهود ، شكل رواد سهول الغرب ، أعداء رجال الأعمال جمهوريي الشاطيء الاطلسي ، جناحاً تقدمياً وفي الغالب منشقاً ، في الحزب الجمهوري، بينما كان بيض الجنوب ، غير القادرين على هضم الاخفاق والسيطرة الذين فرضهما حزب لنكولن عليهم ، عقب حرب الانفصال ، يؤلفون الحرس القديم المحافظ ان لم يكن الرجعي في حزب الديموقراطيين . وهذه التناقضات مازالت إلى اليوم في داخل كل من التشكيلين ، وكل منهما يعاني عنتاً كبيراً ، في أيام الانتخابات ، في بناء واجهة تخفي كثيراً أو قليلاً اختلافاته الداخلية . ولايكاد الانتخاب يربح أو يخسر الا والاشياع المتعارضة تعود إلى المنازعة على أرباح النصر أو طرح مسؤوليات الاخفاق على عاتقها من جديد .

وربما حان الوقت الذي تنمحي فيه شيئاً فشيئاً البقايا التاريخية ، ويتخلى محافظو الجنوب عن العنوان الديموقراطي ليتبنوا العنوان الجمهوري الذي يوافقهم بشكل أفضل ، بينما الجمهوريون الأحرار والتقدميون ، وهم نوع نادر جداً ـ يشايعون الديموقراطيين . وهكذا يتوطد أخيراً حزبان متجانسان تقريباً ، ويستجيب كل منهما لمواقف متناقضة ، ولكنها مفيدة أيضاً ، في الطبيعة البشرية : الميل إلى التجديد والميل الى المحافظة .

ولما نصل إلى هذا الحد ، وربما لزم الكثير ، وربما لانصل اليه ابداً ، لأن ، الفروق الاجتماعية وتباين المصالح بين الاميركيين مافتئت تتناقص . وسنرى ان الزنوج يمكنهم أيضاً أن يشكو من معاملة البيض لهم كوضيعين . وقد أخذ الحزب الديموقراطي على نفسه قضيتهم والسهر على التطبيق التدريجي للقوانين المسنونة لصالحهم ، ليؤمن لنفسه أصواتهم ، ولكنه يجازف بضياع أصوات عدد عظيم من « فقراء البيض » القلقين من تقدم الجنس الذي ظل طويلاً تحت النير . وعلى هؤلاء الأخيرين أن يلقوا المسؤولية على أنفسهم إذا كان مصيرهم لايتجاوب مع رغباتهم . ومن له عمل في الولايات المتحدة يقضي حياةً تكاد تبدو مقبولة عند ثلاثة أرباع البشرية . ومن الواضح أن مصيره يتعلق بثبات استخدامه وبقاء قوته الشرائية ، ولكن الاميركي المتوسط ، على وجه الدقة ، يشبه في ذلك ، كثيراً من المأجورين في البلاد الأخرى ، ويرى شيئاً فشيئاً أن أمنه الاقتصادي والمالي لايعتمد على الوعود ، حتى ولا على انجازات هذا الحزب السياسي أو ذاك . وهو يشعر ، عن حق أو باطل ، بتضامن فعلي بين المستخدمين والمستخدمين ، وبأنهم كلهم معلقون على سفينة واحدة معرضة كثيراً أو قليلاً لنفس الأخطار . وعلى خبراء الرأسمالية أن يناقشوا أفضل الحلول الفنية الممكنة مع خبراء النقابات وخبراء الحكومة الذين يمكن عند المناسبة أن يكونوا حكاماً .

القضايا الحديثة العهد

وكل هذا صحيح عن رتابة سياسة الولايات المتحدة الداخلية . ومن حين لآخر تقوم مشكلة أو تهدد بالقيام ، وتوشك أن تعكر حبل الاحزاب . وهكذا ، عند انتخاب جون كينيدي ، وهو أول كاثوليكي

رفع إلى رئاسة الولايات المتحدة ، قامت اكثرية من أبنـاء دينه يدفعها رجـال الكنيسة ، وبدت مستعدة للمطالبة بمساعدات من الدولة لصـالح المدارس الحرة غير أن موقف المنتخب الجديد المعادي بصراحة لكل تدبير من هذا النوع قطع دابر هذه المحاولة التي منيت بفشل محقق ، لأنها خالفت عاطفة الاكثرية البروتستانتية في البلاد والتقاليد القومية في الفصل الكامل بين الكنائس والدولة ولاشيء يناويء الاميركيين اكثر من اثارة نقاش لايؤدي بالتأكيد إلا إلى تعكير الوحدة المعنوية للأمة . وبالمقابل ، هناك قضيتان في السياسة الداخلية استهوتا الرأي العام الاميركي من ١٩٤٥ الى ١٩٦٥ :

١ - الاولى ، هل يمكن للانسان أن يكون شيوعياً ، أو في تعاطف مع الأفكار الشيوعية ، ويعامل كمواطن اميركي كامل الحق ؟

٢ - الثانية ، ألم يحن الوقت في الواقع لتأمين المساواة المدرسية والاقتصادية والاجتماعية والانتخابية إلى الاقلية السوداء التي يخولها إياها الدستور الاتحادي من حيث المبدأ ، وبعد أليس من حق الحكومة الاتحادية وواجبها أن أن تفرض هذه المساوة على دول الجنوب التي ترفضها ؟

وفي هاتين القضيتين ، كما في كثير غيرهما ، انقسم كل من الحزبين الكبيرين . وتشكلت أكثرية تركيبية هجينة معادية للمساواة في المعاملة بين الشيوعيين وغير الشيوعيين وملائمة للمساواة في المعاملة بين السود والبيض . وقد اهتم المواطنون في الولايات المتحدة بهاتين القضيتين اكثر بكثير من اهتمامهم بمناقب ومثالب الحزبين الجمهوري والديموقراطي .

ولم يكن في هذا اكبر تجديد عظيم في السياسة الاميركية انطلاقاً

من ١٩٤٥ ، بل في وضع الولايات المتحدة اول دولة في العالم ، عندما خرجت من الحرب العالميه الثانية . ولقد كانت ايضاً اول دولة اقتصادية ، دون منازع ، منذ آخر الحرب العالمية الاولى ، ان لم تكن من قبل. وبالرغم من جميع جهودها ، لم تستطع منذ ذالك الحين ان تبقى خارجة عن القضايا السياسية في الكوكب وفي اوربه بخاصة . وان رجال الأعمال فيها يعلمون بالتجربة ، كيف أن الاقتصاد والسياسة كانا مرتبطين ، على هذه القارة الصغيرة المضطربة دوماً . وقـــد أبت الأمة بمجموعها أن تستيقظ على الاخطار المهددة ، ولزمت القنابل اليابانية على بيرل هـاربر لانتزاعها من خبالها المراد .

وكانت الرجفة مريعة ، وبعد مجهود حرب بقوة لايمكن تصورهـا اضطرت الولايات المتحدة أن تكشف عن نفسها ، في ١٩٤٥ ، أول دولة في العالم ، أو بالاحرى الوحيدة أمام اكوام الدمار التي تغطي اوربه وآسيا . ولم تكن مهيأة مطلقاً لهذه الحالة الجديدة التي أخذت تسيطر شيئاً فشيئاً على حياتها في كل الأيام . غير أن تقلبات السياسة الدولية، أكثر من ردود فعل الحكومة أو الرأي الاميركي ، عينت المراحل الكبرى لسياسة الولايات المتحدة من ١٩٤٥ إلى أيامنا . ومن هنـا خرجت عدة اكتشافات ، وخيبات وجهود . ومن الممكن دون كثير اصطناع أن يجعل إطار هذه السياسة الرئاسات الأربع التي توالت على الولايات المتحدة من وفاة فرنكلن روزفلت حتى أيامنا .

ترومان او الحرب الباردة (١٩٤٥ - ١٩٥٢)

النصر

إن المانيا النازية ، التي سحقتها القنابل ، واجتاحتها جيوش الحلفاء بشكل واسع ، كانت تقاوم عند وفـــاة الرئيس روزفلت ، في ١٢ نيسان ١٩٤٥ . وفجأة وجد على رأس أكبر أمة منتصرة سيامي اقليمي ، كان بالامس مجهولاً تقريباً ، وهو نائب الرئيس هادي ترومان. وقد اعترف ببساطة ، عند حلف اليمين عن اضطرابه والتباس الأمر عليه ، بأنه وجد نفسه فجأة مثقلاً بمسؤوليات ساحقة . فالحرب التي يجب انهاؤها ، والسلام الذي يجب توطيده والعودة إلى الحياة الطبيعية التي يجب تأمينها : انما هي أعمال ضخمة تكاد تكفيها سلطة روزفلت ونفوذه . وكان العالم كله يتوقع ، وغوبلز بآخر أمل ، والولايات المتحدة وحلفاؤها بخوف ، خرق وتردد القادم الجديد .

اقتصر هذا الرئيس في بادىء الأمر على اتباع التوجيهات التي اتخذها سلفه . وقبل أن تنتهي الحرب ، هيأ روزفلت توطيد السلام بدفع حلفاء الولايات المتحدة إلى إنشاء مؤسسات (نظم) دولية مدعوة لأن تنفتح ، على وجه الاحتمال ، على كل أمم الكوكب ، لتسوية المشاكل السياسية والاقتصادية والمالية في العالم الجديد المراد تشكيله ، في تفاهم وتعاون عالميين . وستكون الولايات المتحدة ، بالطبع ، أهم عضو في هذه التجمعات المختلفة ، ويمكنها أن تجعل نفوذها من طرف خفي ملحوظاً . وهكذا انعقد ، في تموز ١٩٤٤ ، في بريتون وودز ، في هامبشاير الجديدة ، مؤتمر

دولي ضم ٤٤ دولة كلها عدوة للمحور : وقرر أن تقام في واشنطون مؤسستان (نظامان) ، مال نقدي دولي ليحفظ بعض التوازن ، بين نقود الدول الأعضاء ، وبنك دولي لاعمار وتنمية اقتصاداتها . وبعد قليل ، وضع ممثلو الأربعة الكبار في فندق دمبارتون — اوكس ، بالقرب من واشنطون ، مشروع منظمة الأمم المتحدة ليدرسه مؤتمر دولي مدعو للاجتماع ، في ٢٥ نيسان ١٩٤٥ ، في سان فرنسيسكو . وكان أول أعمال ترومان أن قرر بأن يفتتح المؤتمر في التاريخ المضروب ، تحت رئاسة أمين الدولة الاميركية ستيتينيس . ومنه خرج ميثاق الأمم المتحدة ودخل حيز التنفيذ ، في ٢٤ تشرين الأول ١٩٤٥ .

وفي غضون ذلك ، كان الاهتمام بانهاء الحرب العالمية ، بأقصى ما يمكن من السرعة ، يدفع ترومان إلى اتخاذ قرارات رئيسية . وكان تشرشل يريد لو أن آيزنهاور يدفع جيوشه نحو الشرق بكل سرعة ويصل إلى برلين قبل الروس . غير أن ترومان اتبع في ذلك رأي مشاوريه العسكريين ولم يشأ أن يكدر ستالين في شيء لأن مساندته قد تكون مفيدة لانهاء هزيمة اليابان . وأبطأت القوات الاميركية زحفها وتركت للسوفياتيين شرف وفوائد دخولهم أوائل إلى برلين . وبعد أن تم استسلام الألمان ، بقي اخضاع اليابانيين ، وكانوا يقاومون بضراوة في جزيرة اوكيناوا . وبهذا الشكل سيكلف فتح القطع الصغيرة ، التي لا تعد في أرخبيل اليابان ، شهوراً إن لم يكن سنوات من القتال ، ومئات الالوف من الأرواح الاميركية . وعندئذ علم ترومان أن لدى الولايات المتحدة سلاحاً ذا قوة مرعبة وحاسماً دون شك ، القنبلة الذرية .

هل يقدر الرئيس الجديد الخطورة الفائقة للمسؤولية التي تقع على عاتقه ؟

لقد ضغط عليه مستشاروه العسكريون لاستخدام السلاح الجديد بسرعة لتوفير الدم الاميركي ، وأيضاً بعد البحث الدقيق ، الدم الياباني . ومن الممكن دون كثير تصور أن يسمع الاستنكار الذي يقوم ضده ، أمام تضحيته مئات الألوف من الأرواح البريئة ، والمثل الذي يضربه في اللجوء إلى الارهاب ، أمام افتتاح عهد جديد للانسانية يقع تحت ضغط الدمار الكوني . وفي جميع الأحوال ، صَنَعَ مركزه بسرعة . وعليه ، كرئيس للولايات المتحدة ، أن يؤمن النصر أولاً وأن ينقذ حياة أبناء وطنه . لقد استعملت القنبلة . ويعتقد فوق ذلك أنه أوحى بأن يعطى إلى اليابان تظاهرة أولية بتخريباتها على سطح غير مأهول ، لحضها على استسلام مباشر . واعتبرت التجربة غير قابلة للتطبيق . وسقطت القنبلة على هيروشيما ، في ٦ آب ١٩٤٥ ، وعلى ناغازاكي في ٩ . وفي ١٠ منه طلب اليابانيون الصلح . وما كادت روسيا تعلن عليهم الحرب إلا واستسلموا في ١٥ آب . وسحقت آخر سلسلة للمحور .

ومن بين جميع الأمم الكبرى التي دخلت الحرب، خرجت الولايات المتحدة وحدها وقوتها سليمة لم تمس ، أو بالأحرى متزايدة بشكل عظيم ، دون أي دمار على أرضها ، وقوية بانتاج وطني يساوي على الأقل ثلث الانتاج الكلي للكوكب ، وباحتكار سلاح لا يقاوم . ولا شك في ان أي دولة ، في التاريخ ، في أي عهد مضى ، لم تمسك ، كالولايات المتحدة ، العالم كله تحت تصرفها .

وزالت الانعزالية القديمة تقريباً . إلا أن بعض الجمهوريين من الحرس القديم ، مثل الرئيس الأسبق هوفر ، والشيخ تافت، كانوا يتكلمون وحدهم بالانعزال في الحصن الاميركي وترك باقي الكوكب يخلص نفسه من الورطة

قدر طاقته ، ولكن هذا الحصن الاميركي يضم ، في نظرهم ، مواقع أمامية ، اليابان ، فورموزا والفيليبين من جهة ، وبريطانيا العظمى من جهة أخرى . وعوضاً عن القيام هكذا بضم مقنع ، من الخير أن تدخل جميع أمم العالم شيئاً فشيئاً في المنظمة العالمية التي ولدت من جديد في سان فرانسيسكو .

وهذا ماعمل عليه ترومان، وساعده في الكونغرس التفاهم ، في هذا الموضوع، بين الديموقراطيين ومعظم الجمهوريين، وكان هؤلاء تحت قيادة الشيخ آرثر ه . فاندنبرغ ، من ميتشيغان . ولا شك في أن ميثاق الأمم المتحدة ، بغية تأمين نفاذ المنظمة الجديدة ، لم يعهد بادارتها الحقيقية إلى الجمعية، اجتماع ممثلي جميع الدول الأعضاء ، بل إلى مجلس الأمن الذي لا يجلس فيه إلا مندوبو الدول الكبرى : الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفياتي ، بريطانيا العظمى ، الصين الوطنية ، وأخيراً فرنسا ، التي خولت كل منها بحق الرفض (الفيتو) . وهذا الحكم الأخير يجعل من الضروري التعاون الواثق بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . وقد حاول ترومان أن يوطد هذا التعاون . ولكن أمله خاب في مؤتمر بوتسدام (تموز ١٩٤٥) بعناد ستالين في معارضته لانتخابات حرة ليترك لمختلف دول أوروبة الوسطى والشرقية ، التي تحتلها الجيوش الروسية ، أمر تسوية مصيرها . ولم يسعد رئيس الدولة السوفياتية ، كما يبدو ، أن يحتكر الاميركيون القنبلة الذرية . ولكن هذا غير مهم . لأن الولايات المتحدة الأمينة على السياسة التدويلية شجعت ، في كانون الثاني ١٩٤٦ ، في الأمم المتحدة ، على تشكيل لجنة الطاقة الذرية ، وفي حزيران التالي اقترح ممثلها في هذه الهيئة ، برنارد باروخ ، على زملائه انشاء هيئة دولية تتلقى كل المعارف والمعلومات التي تتعلق بمصادر المواد الأولية الضرورية ومعامل الانتاج ، على أن يكون

كل ذلك ، ولا شك ، تحت الاشراف الدولي . و « لكل دولة الاشراف على الأجهزة الواقعة على أرضها » . وبادر الروس بالاجابة بعد بضعة أيام (في ١٩ حزيران ١٩٤٦) . ولم يتأخر الجواب الاميركي كثيراً : لأن قانون ماكماهون ، الذي وافق عليه الكونغرس في شهر تموز ، يمنع الحكومة الاميركية تبليغ أسرار ذرية إلى كل دولة أجنبية . وفي ٥ آذار الفائت ، أعلم تشرشل ، كفرد عادي آنذاك ، ولكنه متوج بجاه النصر ، في خطاب ألقاه في كلية فولتون (في ميسوري) في ولاية الرئيس ترومان وفي حضرته ، وأنذر العالم الحر ، والولايات المتحدة بخاصة ، « بأن ستاراً حديدياً أسدل على أوربة من شتيتين على البالطيك إلى تريستا على الأدرياتيك » .

العودة الى السلام

وقدر الرأي الاميركي قليلاً ، في بادىء الأمر ، كلمات رجل الدولة العجوز المتشائمة ، الساخط ولا شك بسبب اخفاقه في الانتخابات ، وكانت عنده مشاغل أخرى في رأسه : إن ٩ ملايين من الرجال والنساء لا يطلبون إلا أن يسرحوا دون ابطاء ، جزعين إلى العودة إلى عائلاتهم وإلى مشاغلهم في زمن السلام . ومن المستحيل الاحتفاظ بهم يوماً أكثر تحت الاعلام ، ولكن هل سيجدون حالاً عمل أحلامهم ، بل وحتى شغلهم ، في بلد يتغير اقتصاده من اقتصاد الحرب إلى اقتصاد السلام ؟ ويرى الخبراء أن من غير الممكن اجتناب دور طويل من الأزمات والخلافات . ولكن الأشياء مرت بأفضل مما كان منتظراً لها ، وذلك ، جزئياً ، بفضل تدبير حكيم وكريم يخول كل جندي مسرح مبلغاً من المال يستعمله للقيام بعمل

أو ، في الغالب ، لتحسين ثقافته . وهكذا أفادت الحرب ، في آخر الأمر ، في رفع الاميركيين ذوي الموارد المتواضعة إلى مستوى الطبقة المتوسطة الفكري والاقتصادي ، والأصح من ذلك أنه جعل هذه الطبقة قاعدة اجتماعية ، ومن الفقر ، أو حتى من الضيق ، استثناءً . وحطمت الشيوعية أسنانها على صخرة الرخاء الاميركي .

ومع ذلك ، وفي هذه السرعة في العودة إلى القيام بالأعمال ، كانت أخطار تخشى . لأن الحرب ضيعت الاقتصاد الاميركي في متاهة الاشراف على الاجور وعلى الاسعار التي يريد الجميع من أرباب العمل والعمال والمستهلكين الخروج منها بأقصى سرعة ، بعضهم عجلون إلى زيادة أرباحهم وآخرون إلى زيادة مكاسبهم ، والأواخر للخلاص من السوق السوداء للمنتجات والسلع الغذائية المقننة ، اللحم بخاصة ، والبطاقة ، ولحم الآحاد المقدس جداً ، وغير الموجود منذ ١٩٤١ ، اللهم إلا بتعرفات اسطورية لا تصدق ! وكانت الحكومة تخشى على حق تضخماً نقدياً عدّاءً إذا رفعت جميع الحواجز معاً . وترى على الأقل الابقاء على مراقبة أسعار اللحم ، والسيارات ، والبيوت ، الضرورات الثلاث لكل حياة أميركية . وعيل صبر العمال . وفي شتاء ١٩٤٥ — ١٩٤٦ قامت الاضرابات الكثيفة في أوساط عمال السكك الحديدية وفي مناجم الفحم بخاصة ، وفاقمت الحالة . وندرت البضائع ، وزادت الأسعار بالمقابل .

وما العمل أمام الصعوبات الداخلية وعداء روسيا السوفياتية ؟ لقد تردد ترومان وبدا أنه عاجز . ورفع تافت والجمهوريون الانعزاليون رؤوسهم . فبادر الرئيس إلى العاجل أكثر من غيره وأمن تركيا بدعم الولايات المتحدة لها إذا ألح الروس بالاشراف على المضايق بين البحر الأسود

والمتوسط . وصرح ستالين رسمياً ببراءة أهدافه ولم يلح . وكانت الحالة في آسيا تقلق الاميركيين . وفي رأي روزفلت ومعظم أبناء وطنه يجب أن تؤدي الحرب إلى تصفية الامبراطوريات الاستعمارية التي كانت للدول الأوربية. وفي العام ١٩٤٦ ، لم يقرر الانكليز بعد تحويل الهند استقلالها ، بينما كان الهولانديون في اندونيسيا ، والفرنسيون في الهند الصينية ، تارة يتفاوضون مع سوكارنو وهو - شي - منه ، وتارة يحاربونهما ، ولم يكونوا مستعدين مطلقاً لأن يتركوا لهما المكان .

وكانت اليابان تحت حكم الجنرال ماك آرثر ، وآخذة بدمقرطة نفسها ، على الاقل ظاهراً ، وتعاود شيئاً فشيئاً توطيد حياتها الاقتصادية بفضل ملايين ، وبعدها مليارات الدولارات التي خولها اياها فاتحوها . وحصلت الفيليبين على استقلالها بحماسة مساوية ، في تموز ١٩٤٦ ، وعلى مساعدة مالية واسعة . وثبت الحصن الاميركي على هذا النحو مواقعه الامامية على شواطىء الهادىء الآسيوية .

وبقيت الصين ، هذه السوق الواسعة المدخرة للعديد من مئات الملايين البشرية ، التي بحث عنها منذ قرابة قرن الوف المبشرين المعمدانيين والاصوليين ، وترصدها الكثير من رجال الاعمال والوسطاء من كل جنس ، والتي خلصتها الهزيمة اليابانية من منافس خطر . وقد وجدت فيها قوتان مسلحتان تتجابهان :

١ — قوة تشانغ - كاي - تشيك ، الرئيس الرسمي للبلاد المحررة والمعترف به ، كما هو ، من قبل روسيا والولايات المتحدة ، والقوي بمساندة أصحاب المصارف والمرابين والتجار .

٣ — قوة ماوتسيه - تونغ ، غير القادر على أن يضع في خط القتال جيوشاً مجهزة جيداً ، ولكنه يعد الفلاحين بالارض وبالهدف من استغلالهم لها ، ويدفع عصاباته في كل مكان بمشاركتهم . وكان الاميركيون المتعصبون ضد الشيوعيـــة يريـدون أن يفرضوا بكل الوسائل انتصار تشانغ ؛ أمـا الذين يعرفون الحـالة في الميدان فيحددون اطماعهم على إبقاء شيء من التوزان بين المعسكرين . وهذا ما سعى اليـه الجنرال مارشال جهده طوال السنة ١٩٤٦ .

وفي جميع الاحوال ، لم يحل شيء في أي مكان ، لا في العودة إلى الحياة العادية في الولايات المتحـدة ، ولا إلا توازن أوربا وآسيا بين الخير و الشر ، الحرية والظلم ، امريكا وروسيا .

ودنا موعد انتخابات تشرين الثاني التشريعية . وخاب ظن الرأي العام ولم يعد يثق برئيسه . وقد أثنى وزير التجـارة ، هنري والس ، وهو نائب رئيس سابق في عهد روزفلت ، على سياسة التعاون الواثقة مع السوفياتيين . فانكر عليه ترومان رأيه واضطر إلى الاستقالة ، في ايلول ١٩٤٦ ، وفصل عن الديموقراطيين الرسميين عددا من الناخبين الاحرار والتقدميين ، فساعد بذلك على انتصار الجمهوريين الذين حصلوا في تشرين الثاني ١٩٤٦ ، على ٥٣٫٥٪ من الاصوات وعلى ٢٤٥ مقعداً في مجلس الممثلين مقابل ١٨٨ للديموقراطيين .

ووجد ترومان في صعوبة أمام مؤتمر للجمهوريين . وأكد مع ذلك وفاءه لحزبه بتطبيق قانون الاستخدام أو ميثاق الاستخدام الـكامل ، الذي أعلن مسؤولية الحكومة في الحفاظ على النشاط الاقتصـادي . وظهرت هيئتان جديدتان ، لجنة المستشارين الاقتصاديين التي وضعت

لدى الرئيس ، ولجنة القضايا الاقتصادية المكلفة باثارة الكونغرس . وكلاهما متفقتان على الالجاء بالغاء مراقبة الاسعار ، وصمم ترومان على أن يفعل شيئاً ، خشية من إثارة ارتفاع في الاسعار لايقف ويجعله الرأي مسؤولا عنه . وهددت الاضرابات من جديد . وأخطرها ، اضراب الفحم ، وقد جنب بدقة ، ولكن الجمهوريين المحافظين أفادوا من عداء الطبقة الوسطى لهذا الموضوع ليمرروا بواسطة الكونغرس ، رغم رفض الرئيس ومعارضة المراكز النقابية ، ميثاق ـ تافت ـ هادتلي (حزيران١٩٤٧) ، وهو ينتزع حق الاضراب من الموظفين ويسمح للرئيس والكونغرس بتعليق تطبيقه على العمال الآخرين . وبصورة أكثر بناء ، خول أكبر مشروع صناعي في البلاد ، الجنرال موتورز ، إلى عماله ، بناء على طلب الزعيم النقابي والتر رويثر ،عقود أجورتنص على إعادة نظر وزيادات آلية تبعا لارتفاع سعر الحياة . وتبع هذا المثل تقريبا كثير من الشركات الاميركية التي اعتادت أن تتفاوض على هذا النحو مع النقابات المعنية بمعاهدات حقيقية نداً لند . حتىان الاضرابات، التي كانت تنظر اليها القوتان نظرة سوء ، أصبحت هذه نادرة تدريجيا . وردت حكومة ترومان إلى دور المراقب ، ففقدت، على ما يبدو ، اهتمام الجميع ، ارباب العمل والعمال والجمهوريين والديموقراطيين. وحاولت مع ذلك الحفاظ على شعبيتها لدى الاقليات المحرومة ، الزنوج ، فقراء البيض ، العاطلين عن العمل ، والاشخاص المسنين باعلامها بعد « البرنامج الجديد » الذي أعلنه روزفلت ، البرنامج العادل ،الذي ينص على أن توزيع البطاقات لايكفي وانه ينبغي السهر على توزيعها العادل بين الجميع . ما من شك ، ولكن كيف الوصول إلى ذلك مع كونغرس معاد ؟

مساعدة البلاد الحرة

لقد أظهرت الحكومة في السياسة الخارجية الكثير من الوضوح في قراراتها . ومن العبث تغذية الاوهام بطيب ارادة السوفياتين بعد اخفاق مؤتمر موسكو في مصير المانيا (آذار ١٩٤٧) . لقد كانت الولايات المتحدة في معارضة مع الاتحادالسوفياتي على سطح الكرة كله ، في المانيا، في اليونان ، في ايران مثلاً ، اكثر مما في الصين، حيث لم يبد ستالين الحكيم عجلاً في ان يرى ماو يتغلب على تشانغ . وفي نيسان ١٩٤٧ ، فقط اطلق برنارد باروخ تعبيراً اشتهر بسرعة وهو « الحرب الباردة » ليصف هذه المجابهة ، ولكن هذه الحرب بدأت قبل بضعة أشهر ، عندما فهمت الحكومة الاميركية أخيراً ان الاتحاد السوفياتي لايرى مطلقاً ان يرخي زمام سيطرته على اوربه الشرقية ، والمانيا الشرقية بخاصة .

وفي ١٢ آذار ١٩٤٧ ، اعلن ترومان امام الكونغرس « ان مايجب أن يكون عليه سياسة الولايات المتحدة هو مساعدة الشعوب الحرة التي تقاوم اما محاولات اقليات مسلحة ، واما خصوماً أجانب لاخضاعهم » ولم تتأخر تطبيقات « مذهب ترومان » . ففي اليونان ، كانت الحكومة الملكية تناضل بمشقة ضد العصابات الشيوعية التي تدعمها البلاد المجاورة . ولم تكن بريطانيا ـ العظمى قادرة على مساعدتها . فأخذت الولايات المتحدة بعزم مكانها ، وصفت بجد الثورة الشيوعية ، في تشرين الأول ١٩٤٩ . وكذلك أخلى السوفياتيون شمال ايران ، حيث كانوا يريدون الاقامة .

ومع ذلك فقد كانت الوقاية من الطاعون الاحمر افضل من اشفاء بعض الحالات هنا وهناك .وفي حزيران ١٩٤٧ ، القى أمين دولة ترومان ،

الجنرال مارشل ، من فوق رؤوس الخريجين الجدد من جامعة هارفرد، إلى العالم أجمع، خطاباً عرض فيه على جميع شعوب اوربة مشروع مساعدة اقتصادية تمولها الولايات المتحدة ، وبين بأنها ستأخذ الاعتمادات الضرورية لتموينها بالمواد الأولية ، ومصادر الطاقة ، والآلات ، وباختصار بكل ماهي بحاجة اليه لاعادة بناء وتجديد اجهزتها ، بشرط واحد ، وذلك بأن تعهد بطلباتها المفصلة إلى مشاريع اميركية . انه كرم محسوب ، ولاشك ، ولكنه كرم لاسابق له ، ولاغنى عنه لنهوض اوربه الغربية . ولذا لم تتردد هذه الدول بقبول اليد الممدودة . ووجه العرض ايضاً إلى روسيا وتوابعها . وكانت تشيكوسلوفاكيا تأمـــل في الحصول على ترخيص بالافادة منه . وبدا أن مولوتوف تردد ثلاثة أسابيع في الموقف الذي يجب اتخاذه . وأخيراً ، رفض ، في ٢ تموز ١٩٤٧ ، مشروع مارشل، واضطرت الدول التابعة أن تحذو حذوه طوعاً أو كرهاً .

وانشئت هيئة تضم امريكا والدول الأوربية التي قبلت المشروع ، المنظمة الأوربية للتعاون الاقتصادي ، لتتابع وتراقب تقدم نهوض اوربة .

وتصلبت مباشرة الكتل المعادية . ففي غربي اوربة ، طردت الأحزاب الشيوعية ، في ١٩٤٧ ، من حكومات : بلجيكا ، فرنسا ، والنمسا . وفي الشرق ، اتحدت الكتل وشكلت ، في ايلول ١٩٤٧ ، مكتب الاستعلام الشيوعي أو الكومنفورم . وأخفقت آخر محاولة للأربعة الكبار للتفاهم في مؤتمر لندن العابث ، في كانون الأول ١٩٤٧ . واراد السوفياتيون بعد قليل أن يقطعوا برلين عن المانيا الغربية ، في ٢٤ حزيران ١٩٤٨ : فردت الولايات المتحدة بتنظيم جسر جوي يؤمن تموين المدينة بالاغذية والمحروقات . ومذ الطاقة التي برهنت عليها الولايات المتحدة

في اوربة هل ستحول انتباهها عن الصين حيث ظل تشانغ خلال السنتين ١٩٤٧ و ١٩٤٨ يستنفد قواه بهجومات دون جدوى ؟ فقد توصل غالباً إلى أخذ أو إلى استعادة المدن الكبرى ، ولكن ماو بقي سيد الأرياف واستولى على قسم عظيم من العتاد العسكري لخصمه ، اما في ساحات القتال ، واما بالتفاوض مع الجنرالات الخونة . واستولى الشيوعيون على كل مانشوريا وهددوا بكين عن كثب .

ولم يكن الرأي الامريكي ليفكر حينذاك الا بانتخابات الرئاسة في تشرين الثاني ، وفقد ترومان كل سلطة حتى لدى أصدقائه . اما الجمهوريون المحافظون الذين يقودهم تافت فقد عارضوا عبثاً تصديق الكونغرس على مشروع مارشل الذى حصل عليه بمساعدة الشيخ فاند نبرغ . ووضع القانون العسكري الاصطفائي ، الذي صوت عليه في حزيران ١٩٤٨ ، لأول مرة في زمن السلام ، الخدمة الاجبارية ، كمبدأ عام ، ولكن تطبيقه ترك إلى السلطات المحلية ، وقد تضمن عدة استثناءات محددة قليلاً أو كثيراً ، وخرجت عنه تفاوتات في المعاملة من مكتب لآخر ، عند سَوْق الجنود .

ويبدو ان هـــذه الجهود لم تجنب اخطاراً خطيرة لحرب في اوربه وفتح شيوعي في آسيا . وفضلاً عن ذلك بدأت تظهر آثار التأخر الاقتصادي الذي أدى في ١٩٤٩ الى انخفاض ٩ ٪ من الانتاج الصناعي. وكان الجمهوريون مطمئنين من الفوز بالرئاسة ، وانتخبوا عوضاً عن تافت ، الملحوظ كثيراً جداً ، مرشحاً ، حاكم دولة نيويورك ، **توماس ادموند** ديوي ، وكان له اعتباره في وول ستريت ، حتى انه كاد يظهر على روزفلت في ١٩٤٤ . وارد الديموقراطيون ان يبرزوا بطلاً اكثر شعبية من ترومان ،

ولكن كان من الصعب ابعاد الرئيس الخارج . ولا أحد غيره كان يرجو الذهاب الى فشل محقق . وقد اكد سبر الرأي العام الشائع آنذاك الذي وضعه الصحافي والاحصائي جورج غالوب تنبؤات كل واحد وتنبؤات الجميع .

اعادة انتخاب ترومان (تشرين الثاني ١٩٤٨)

وجد رجل واحد لم يوافق على هذا الموضوع ، وهو ترومان نفسه . فقد رمى بنفسه في حملة بائسة على الطريقة القديمة ، واخذ يوقف قطاره في اصغر المحطات ، متوجهاً بلغة بسيطة الى الناس السذج فيسمعونه ، بينما كان ديوي يكتفي بخطب في الراديو ، ويهنىء نفسه بانتصاره . ويبدو أن حظه كان عظيماً ، حتى ان مرشحين ، الشيخ ثورمون، بطل بيض الجنوب ضد سلطة الحكومة الاتحاديه ، ونائب الرئيس السابق، هنري والاس ، حامل لواء التقدميين المتعاطفين كثيراً أو قليلاً مع السوفياتيين ، كادا ينتزعان بالتأكيد من ترومان عدداً عظيماً من الأصوات . وهذا مافعلاه، ولكن الرئيس الخارج اعيد انتخابه باكثر من ٢٤ مليون صوت شعبي و ٣٠٣ أصوات انتخابية ، مقابل ٢٢ مليون صوت و١٨٩ صوت انتخابي الى ديوي . وتفوق عليه ثورموند في اربع ولايات جنوبية قديمة (الاباما ، لويزيانا ، مسيسبي ، كارولينا الجنوبية) ، ودون ان ينتزع والاس أي ولاية جمع مثله اكثر من مليون صوت . ومع ذلك ، فإن كتلة صغار الناس غير المحظوظة كثيراً أو قليلاً ، من فلاحين على شفا الافلاس غالباً ، وعمال غير مختصين ، وزنوج، وكاثوليك ، ويهود قليلي الموارد وقليلي الاعتماد ايضاً ، أفادوا من البرنامج الجديد وكانوا يعتمدون على البرنامج العادل لتحسين وضعهم ، ظلت وفية لترومان وأمنت انتصاره على اناس محترمين وراضين عن أنفسهم على طريقة ديوي .

وقد قوي الرئيس بهذه السلطة المكتسبة على هذا النحو ، وتمكن، على مايبدو، أن يعتمد ، فوق ذلك ، على تعاون الكونغرس ، حيث استعاد الديموقراطيون الاكثرية . ولم يتوصل ، مع ذلك ، الى الغاء ، حتى ولا الى تغيير قانون تافت ـ هارتلي ، حيوان النقابات الأسود (أبغض إنسان إلى النقابات) ، وعندما طلب في الكونغرس الاعتراف بحقوق الملونين المدنية ، اصطدم بمعارضة ديموقراطيي الجنوب الذين وحدوا مصالحهم مع مصالح الاقلية الجمهورية . وبالمقابل ، يبدو ان سياسته الخارجية في البدء شايعت الحزبين. فقد وسع ترومان في خطابه التدشيني (كانون الثـــاني ١٩٤٩) ، أمام تصفيق الجميع ، برنامجاً بأربع نقاط ، نأخذ منه ، بخاصة ، عزمه على مساعدة الأمم المتحدة على نجدة البلاد المتخلفة ، غير النامية ، والعمل للسلام والازدهار العـام . وعرضت الولايات المتحـدة ان تضع تحت تصرف الأمم غير المحظوظة الاعتمادات والأشخاص الضروريين لتقدمها التقني والاقتصادي (برنامج النقطة الرابعة) . وكبرنامج مارشل ، من قبل ، كان البرنامج مفتوحاً لجميع الأمم . وقـد رفضه الاتحاد السوفياتي وتوابعه كما رفضوا الذي قبله .

وقرر ترومان أيضاً أن يتمم تنفيذ الدفاع عن العالم الحر بابرام حلف شمال الأطلسي ، في ٤ نيسان ١٩٤٩ ، في واشنطون : وفيه تعهدت الولايات المتحدة بالسهر على أمن مختلف دول أوروبة الغربية وكل أنواع الهيئات السياسية والاقتصادية ، وبخاصـة العسكرية التي انشئت لهـذه الغاية . وفي آذار ١٩٤٧ ، أبرمت فرنسا وبريطانيا العظمى ، بمعـاهدة دنكرك ، حلفاً عسكرياً انضمت اليه بعد عام ، بمعـاهدة بروكسل ، بلاد البينيلوكس الثلاثة : بلجيكا ، هولانده ولوكسمبورغ . ولابقاء روسيا

السوفياتية في حالة احتوام ، لزم ما هو أكثر من ذلك : وهو اشتراك الولايات المتحدة الذي جر بالحال اشتراك ايطاليا ، البرتغال ، الدانيارك ، النورفيج ، ايسلنده ، كندا ، واشتراك اليونان وتركيا في ١٩٥٢ ، وألمانيا الغربية أخيراً في ١٩٥٥ . وتوضح المادة (٥) في المعاهدة بأن كل هجوم مسلح ضد عضو من أعضاء الحلف يعتبر هجوماً على كل واحدة من هذه الدول . وللوقاية من كل خطر من هذا النوع نُصَّ على انشاء منظمة عسكرية مشتركة للدفاع . وتشكلت هذه في شهر كانون الأول ١٩٥٠ ، تحت ادارة الجنرال آيزنهاور العليا ، الذي أقام أركانه العامة في روكنكور ، بالقرب من باريس . وكان على جميع المشتركين ، في حدود مواردهم ، أن يسهموا بالجنود وبنفقات الدفاع المشترك . ومن غير المفيد أن نقول ان المآتي الاميركية فاقت ببعيد مآتي زميلاتها .

ومع ذلك ، فان كثيراً من الامريكيين كانوا يهتمون أيضاً بمصير آسيا أكثر من مصير أوربة ، وهنا سارت الأمور بشكل سيء . ولاشك في أن الجنرال ماك آرثر استطاع أن ينجح في دمقرطة اليابان ، ولو ظاهراً على الأقل ، دون حرمان الامبراطور من دوره الرمزي ، ودون أن يفتح المجال حراً للشيوعيين ، ولكن ـ ماوتسيه ـ تونغ المنتقل من نصر إلى نصر ، أعلن في بكين ، في الأول من تشرين الأول ١٩٤٩ ، تشكيل الجمهورية الشعبية الصينية ، بينا التجأ تشانغ كاي ـ تشيك في فورموزا مع فلول قواته . وكان ستالين أوّل من اعترف بالنظام الجديد وأبرم معه معاهدة تحالف في ١٤ شباط ١٩٥٠ . وانحنت بريطانيا العظمى أمام الأمر الواقع وعقـــدت علاقات دبلوماسية مع بكين . ورأى الامريكيون فجأة ، بأنهم إذا حموا أوربة الغربية من العدوى الشيوعية ، فقدوا كل اشراف على بلد يبلغ سكانه الثلاثة أضعاف على الأقل ويبشر

بمستقبل اقتصادي عظيم ، وعندئذ يخفق العلم الأحمر ، من نهر الالب إلى حدود اليابان والفيليبين ، على سطح أكثر من ربع سطح الكرة ، مأهول بأكثر من ثلث سكانها وينشط بـ ٣٠٪ من انتاجها الصناعي .

وفي الوقت نفسه تقريباً ، فجر الروس بنجاح أول قنبلة ذرية لهم وقد أعلن ذلك الرئيس ترومان على العالم في ٢٣ ايلول ١٩٤٩ . وقام السباق إلى الارهاب . وللحفاظ على تقدم الامريكيين على منافسيهم شرعوا بتحضير القنبلة الهيدروجينية ، القنبلة ه . ولكن كيف سمح الامريكيون ، وهم سادة العالم واحتكار الأسلحة الجديدة في ١٩٤٥ ، بتشكيل قوة معادية مساوية تقريباً لقوتهم في خمسة أعوام ؟ لقد بدأ قسم من الرأي بالصراخ بالخيانة . ولا شك في أن الشيوعيين المعترف بهم لا يشكلون في الولايات المتحدة كلها إلا أقلية ضعيفة ، ٧٥٠٠٠ مشترك في الحزب في الحد الأعظم ، ولكن ألا يحتلون الوظـــائف الأساسية في الادارة ، والاستعلامات ، والبحث العلمي، والنقابات ، وبخاصة ، ألا يجب أن يحسب حساب عدد عظيم من المتعاطفين المستعدين لقطع جزء من الطريق مع الاقحاح ؟ ومن هنا أتت تسميتهم بـ « رفقاء السفر » .

المكارثية (١٩٥٠ ـ ١٩٥٤)

بدأت مطـــاردة المشبوهين . وقام الكونغرس بعدة تحقيقات عن التسللات السوفياتية في الأوساط المختلفة . وأقامت الحكومة دعوى بحق زعماء الحزب الشيوعي لتبرهن على لا شرعيتهم : من ذلك أن الجوهيس، أحد خبراء ادارة الدولة على صعيد العلاقات مع السوفياتيين ، وهو مشاور ذو نفوذ ، كما يؤكدون ، لأمين الدولة دين آتشيسون ، وكان من

قبل مشاوراً للرئيس روزفلت ، قد فشى مره أحد أصدقائه السابقين وهو شيوعي نادم ، **هوايتيكو تشامبوز** ، وقال عنه بأنه ، بلّغ موسكو وثائق صرية . فأنكر ذلك . ودعم متهمه قوله بأن لديه ما يثبت ذلك . وقام نقاش قضائي طويل ، خرج منه ، أخيراً ، الجرهيس ، اثر دعويين ،- وقد أثبتت عليه شهادتا زور ، إن لم تكن الخيانة ، وحكم عليه بالسجن بضع سنوات (١٩٥٠) . ولكنه حافظ على الأقل على براءته . حتى ان كثيراً من أصدقائه ، وعلى رأسهم دين آتشيسون ، حفظوا له اعتباره علناً . وقد حركت هـذه القضية الصغيرة ، « قضية دريفوس »[1] ، الأوساط الفكرية ، ولكن الجمهور العظيم لم يهتم باحتجاجاتها .

ولكن الجمهور ، بالمقابل ، كان يصغي إلى الاتهامات المتجرئة تدريجياً، التي كان يفوه بها شيخ ولاية **ويسكونسين** ، الشاب **جوزيف ماك كارثي** . وقد أصبح هذا في بضع سنوات شهيراً وذا نفوذ يشنع به قوم ويتبعه آخرون معجبون به . وما زال يـدل إلى اليوم بـ « الماكارثية » على نظام التشهير والارهاب الذي نجح في توطيده من ١٩٥٠ إلى ١٩٥٤ ، في واشنطون وفي كل البلاد . كان ايرلندي الاصل ، ولهذا الواقع كان يصغي اليه عدد عظيم من الكاثوليك ، من اكليركيين وعلمانيين . وكان جمهوريا في انتسابه السياسي ، وهذا ما امن له انتباه رجال الاعمال المحترمين وقد عرف هـــذا المرائي ، المعروف بخاصة بضعف وسائطه الفكرية وغيرها ، كيف يلعب بعض الوقت بشكل فائق عجيب بشبهات وأباطيل

---

(١) تلميحا إلى قضية دريفوس عام (١٨٩٤ - ١٨٩٩) في فرلسا .

الجمهور الامريكي الكبير . فقد هاجم اولا ادارة الدولة ورئيسها ، دين آتشيسون نفسه ، وصرح علنا في خطابه الشهير في ويلينغ ، في ١٩٥٠، بان وزارة الشؤون الخارجية في الولايات المتحدة تلجىء على الاقل ٢٠٥ شيوعيين معترف بهم كثيراً أو قليلا ، وان أسماءهم لديه ، دون الكلام عن عدد غير معين من الشاذين جنسيا الذين هم غنيمة مؤمنة لجميع مساومات ومناورات أعداء الوطن . ولذا يجب باسرع ما يمكن تطهير البيت كله والانتقال منه إلى الادارات الاخرى التي أوشكت ان تفسد بانتظار دور النقابات والشركات الكبرى الدولية ، والهيئة التعليمية ، والكتاب والفنانين ، والمتجنسين الحديثي العهد وكل من يشك بامريكانيتهم غير المشروطة والكاملة . وخوله الكونغرس رئاسة لجنة التحقيق المكلفة بالكشف عن جميع النشاطات « المناوئة لأمريكا » فافاد من ذلك ليدعوويسأل تقريباً كل من يحلو له أن يستجوبهم طويلا ويفقدهم اعتبارهم . ويبدو ان بعض الفضائح الصغيرة ، وبعض الاختلاسات ، وبعض الانتحارات بررت في البدء هذه الطرق والاصول . وخشي معظم الرجال السياسيين ألا يعاد انتخابهم فوافقوا على رأيه ، أو ، على الأقل ، تركوه يعمل .

وظن أن كل شيء مباح له ، حتى انه لام الجنرال مارشال نفسه ، واتهمه بأنه سلم الصين للشيوعية ، ثم الجيش الاميركي ، وجرمه بأنه شجع في صفوفه الدعاية الهدامة . وفي غضون ذلك ، انتخب الجنرال ايزنهاور رئيساً للجمهورية ، في تشرين الثاني ١٩٥٢ ، وكانت تنقصه التجربة السياسية ، ولذا حاول أولاً أن يوفق بين مختلف أشياع الحزب الجمهوري الذي رفعه إلى السلطة ، ولكنه تجنب جهده أن يفسد علاقاته مع ماك كارثي ،

وعندما وجه هذا صواعقه ضد الجيش الاقدس ، حرم الرئيس على العسكريين المدعوين إفشاء أي سر عن الدفاع الوطني ، واستطاع أن يضم وراءه كل الناس من ذوي الحس السليم ، دون تمييز حزب . ووجدت أخيراً أكثرية في مجلس الشيوخ ـ حادث نادر جداً ـ ان لم تكن لمراقبة ارادة ، فعلى الاقل طرق المتهم المتهور (كانون الاول ١٩٥٤) . وقد انهارت سلطة ماك كارثي بنفس السرعة التي فرضت بها نفسها على الرأي العام وعلى العالم السياسي . وأعيد انتخاب شيخ وبسكوسين عام ١٩٥٦ ومات منسيا في السنة التالية .

ومع ذلك ، فلم يعش التعبير « الماكارثية » دون سبب بعد هذا السياسي العابر . وإن امريكا لتذكر أيضاً الضلالات والاساءات الى احترام الحرية الفردية والكرامة الشخصية والحس المشترك البسيط التي جرتها اليها مناوءة للشيوعيه عمياء حادة . وأشهر ضحية لهذه الدرجة من الهستريا الجماعية كان الأستاذ روبرت اوبنهايمر في ١٩٥٣ . وهذا العالم ، الذي ساعدت بحوثه واعماله اكثر من أي عالم آخر في اعداد اول قنبلة اورانيوم ، اتهم بانه ظل وفياً في صداقة الشباب لشيوعي يدعى هاكون شوفاليه ، وفصل ، كما قرر ايزنهاور ، « بجدار كثيف » عن الأسرار الذرية التي يعرفها ، ولاشك ، أفضل من أي شخص آخر ، وأخرج من لجنة الطاقة الذرية التي عهد اليه برئاستها .

غير ان الرئيس كينيدي ، بعد ثمانية أعوام ، نظراً لفقدان اعادة الاعتبار حسب الأصول ، برهن له عن ثقته وصداقته . ولكن عمله تحطم . ومع ذلك هدأ التعصب ضد الشيوعية .

وان ما يمكن ان يوضح شدة وافراط هذا التعصب من ١٩٥٠ الى ١٩٥٤ ، يظهر في ضياع الصين المفاجيء، وفي الهجوم الذي شنته كوريا الشمالية الشيوعية على كوريا الجنوبية ، في ٢٥ حزيران ١٩٥٠ .

حرب كوريا (١٩٥٠ - ١٩٥٣)

كان رد ترومان سريعا وماهراً . فقد أفاد من غياب السوفياتيين في ذلك الحين عن مجلس الامن في الامم المتحدة أو من عدم قدرتهم على ممارسة حق الفيتو ، وحمل هذه الهيئة على شجب العدوان الشيوعي وتنظيم مقاومة دولية مسلحة في الأمم المتحدة . ودون انتظار تشكيل هذا الجيش . نزلت الجيوش الامريكية المرابطة في اليابان ، في كوريا تحت قيادة الجنرال ماك آرثر ، وقامت باحتواء ومن ثم بدحر المجتاحين. وقد حبذ هذه المبادهات الجريئة ، التي قام بها الرئيس ترومان ، جميع الرجال السياسيين في الولايات المتحدة ، ومن ضمنهم الشيخ تافت ، زعيم الجمهوريين الانعزاليين في الكونغرس ، ولكن كان من الواضح أن امريكا زجت نفسها في حرب طويلة وغير مأمونة العواقب وستتحمل كثيراً أكبر عبء فيها .

وبدا أولا أن كوريا الشمالية أوشكت أن تحرز النصر . ولكن ماك آرثر قام بالهجوم ، وأنزل جيوشا وراء خطوط الجيوش المهاجمة ، واجبر العداة على التراجع ، والتخلي عن المنطقة الجنوبية ، وعوضا عن البقاء هناك ، تابع تقدمه باتجاه الحدود الصينية ، على مرأى من رضى الرأي العام الامريكي بمجموعه . وأراد أن يجعل كل لجوء جديد إلى القوة مستحيلا . وخشي ترومان من أن يفصل هذا الحماس الولايات

المتحدة عن شركائها وحلفائها ، ويقيم ضدها الصين والاتحـاد السوفياتي ، وباختصار ، يوشك أن يجر إلى حرب عالمية ثالثة ، وحاول عبثا تعديل وجهات نظر الجنرال المنتصر عندما اجتمع به في وسط المحيط الهادىء في جزيرة ويك ، في تشرين الاول ١٩٥٠ . اما الجنرال ماك آرثر فقد اعتاد منذ عشر سنوات على العمل حاكما قـديراً في الشرق الاقصى ، وواثقاً من مساندة نصف أعضاء الكونغرس على الاقـل ، ولـذا استمر في هجومه باتجاه الحدود الصينية ، نهر يالو . وكان يتكلم علناً باجتيازه ليـلاحق الكوريين الشماليين في معابدهم الصينية التي كانوا يجدون فيها العون والحماية . ووعد جنوده بالوقت نفسه أن يعيدهم إلى بلادهم منتصرين في عيد الميـلاد .

ومع ذلك ، فقد حشد الصينيون جيوشهـم وراء الحدود ، وهددوا باجتيازها إذا لم يوقف الجيش الامريكي تقدمه . وأهمل ماك آرثر هـذه التحذيرات وتابـع هجومه . وعندئذ دخلت عدة قطعات صينية كوريا وعوضت بعددها ونظامها وروح التضحية عند رجالهـا ضعف عتادهـا ، ودفعت بشراسة ، في بضعة أسابيـع ، قوى الامم المتحدة ، من امريكية وغيرها ، إلى خط العرض ٣٨° . وهذا التراجع غير المنتظر ، من أكبر دولة عسكرية في العالم أمام التجمهر الآسيوي ، اغضب الرأي العام الاميركي ، ولا سيما الجنرال القائد الأعلى . وكان المناوئون للشيوعية المتحمسون يدمدمون بل ويعلنون بصوت عال ، بأن الخيانة وحدها ، المقنعة كثيراً أو قليلاً ، في المكان الأعلى ، يمكن أن توضح هذا الاخفاق . وكان المراد على كل حال أن تترك أوربه وحدها ، وأن تحشد في آسيا ، ضد شيوعيي الصين والبلاد الأخرى ، كل قوى وموارد امريكا . وشايع هذا الصراخ :

« آسيا أولاً » أنصار ماك آرثر والمعجبون به . وكان هذا يتدح ، بالفعل ، عملاً كثيفاً ضد حكومة بكين . وفي هذه المرة وإلا فلا يجب أن تطلق ضدها جيوش تشانغ - كاي - تشيك ، وان يحاصر الشاطىء الصيني ، وأن تشجع بجميع الوسائط الحرب الأهلية وانهيار النظام الشيوعي في الصين .

وقلق ترومان من تدخل رومي ممكن ، وأراد أن يكتفي بضغط اقتصادي . فرفض ماك آرثر هذا الحل بازدراء وأعلن عن عزمه بالمضي إلى أمام . وتشجع ترومان بمعارضة الجنرال برادليه للخطط الحربية التي وضعها القائد الأعلى ، وقرر ، في ١١ نيسان ١٩٥١ ، أن ينتزع منه القيادة وأن يستدعيه إلى واشنطون . وسادت الولايات المتحدة الدهشة والغيظ بالاجماع تقريباً . ومع ذلك فان الجنرال ماك آرثر لم يفكر لحظة ، على ما يبدو ، بمقاومة أوامر الحكومة . وتخلى عن سلطاته إلى خلفه ، ريد جوي ، وعاد إلى واشنطون ، حيث استقبل استقبال المنتصرين . ورحب به في الكونغرس زعماء الحزبين ، وخطب فيه خطاباً جميلاً على النسق الكلاسيكي ، وأعلن فيه لآخر مرة عن ضرورة النصر ، مع قبوله شخصياً بالامحاء ، حسب المصير المقرر للجنرالات المسنين . وبعد واشنطون ، حيته نيويورك بحماسة .

وعزل ترومان في البيت الأبيض ، ولكنه تماسك . وكان يؤيده التقليد الأمريكي القديم وهو ان الزعماء العسكريين وجدوا ليطيعوا الحكومة المدنية ، وايضاً رغبة الأمة السرية في تجنب كل مخاطرة بحرب عالمية ثالثة ، وفي انهاء حملة كوريا باسرع وقت ممكن ، هذه الحرب التي كلفت حياة الكثير من الشبان الامريكيين . وبعد ألم يتوطد توازن ماقبل

العدوان الشيوعي في شبه الجزيرة؟ لقد كان المراد قبول حالة الواقع هذه دون ان يخسر أحد المعسكرين المتعارضين الظاهر. ومن هنا قامت مفاوضات طويلة وشاقة ، انقطعت باستئناف الحرب ، وعقدت بوقف نار جديد ، وانتهت عندما انتخب الجنرال آيزنهاور رئيساً على هذا الوعد وقبل تسوية في ١٩٥٣ .

نتائج حرب كوريا

واكثر من ايقاف الدفع الشيوعي في منتصف شبه الجزيرة كانت الولايات المتحدة مدينة لحرب كوريا بقوة جديدة زادت كثيراً في سلطات الحكومة على حياة الأمة الاقتصادية والحفاظ على توازنها ، فقد كان يجب تجنيد موارد البلاد بسرعة . وقد ساعد قانون انتاج الدفاع الرئيس على ممارسة الرقابة على الاجور والاسعار بواسطة نظام (مؤسسة) رسمي جديد ، **وكالة الاستقرار الاقتصادي**. واعطيت الاولوية المطلقة إلى عقود الدفاع الوطني بفضل حق المصادرة الذي اعترف به للمصالح المختصة ، على ان يمول توسع الانتاج من قبل هيئة انشئت لهذا الغرض ، **الهيئة المالية للاعمار** . وقد عاشت هذه المؤسسات المختلفة بعد الأزمة . وعدا ذلك ، اعلنت حالة الاستعجال، في ٦ كانون الأول ١٩٥٠ ، وأدت إلى انشاء **مكتب تجنيد الدفاع** ، وكلف هـذا المكتب بتوجيه كل النشاطات الاقتصاديه المرتبطة بالمجهود الحربي . وفي الوقت نفسه سعت حكومة ترومان ان تمنع كل زيادة مفاجئة في الانتاج والنفقات العسكرية يمكن ان تنمي تضخماً نقدياً خطراً ، بتجميد الاجور والاسعار وفرض الضرائب واصلاحها ، والاشراف المباشر وغير المباشر على الاعتماد واموال البنوك بواسطة **هيئة الاحتياطي الاتحادي** والبحث عن جميع الاقتصاد الممكن

في الموازنات المدنيـــة . وقامت الادارة الديموقراطية بشجاعة ، ودون ان تتأثر بقرب انتخابات الرئاسة ، في عام ١٩٥٢ ، باتخاذ جميع هـذه التدابير الحكيمة وغير الشعبية .

ولقد برهن ترومان والحزب الديموقراطي، في الظروف الصعبة ، على الحزم والحذر معاً . واعتبرا مسؤولين عن التضحيات المقبولة وعدم كفاية النتائج التي حصل عليها . ومضت عشرون سنة والحزب الديموقراطي في السلطة . ويدعم خصومه أنه بلي وفسد . ولاشك في أن الأعمال كانت نشيطة بنفقات الحرب . ولذا كانت تسير على مايرام . ولكن هـــذا الازدهار المالي كان يرافقه ، بالرغم من التحفظات الرسمية ، التضخم النقدي وارتفاع الاسعار وكثرة الوسطاء ، بين عالم الحكومة وعالم الصناعيين ، المستعدين دوماً للحصول إلى هؤلاء الأخيرين على عقود هامة مقابل عمولة قليلة ، ٥٪ فقط ، ومن هنا أتى اسم « الخمسائويين » الذي أطلق على هذا النبات الطفيلي القوي بخاصة في واشنطون . وقد كشفت اللجنة التي ألفها مجلس الشيوخ ويرأسها الديموقراطي الفاضل والطموح معاً ، كيفاوفو ، عدداً من الفضائح من هذا النوع دون أن تخفض كثيراً من نموها . ورثى أخلاقيون أكثر خطورة تأثير هذه الأمثلة على شباب يحب التطلع بجميع الوسائط إلى الثروة بسرعة دون عمل .

وباختصار ، إن الحاجة إلى التغيير والعودة إلى التقاليد القديمة الصالحة المحترمة بدت تفرض نفسها . وكان ترومان يعي ذلك تمامـــاً ، ويريد الجنرال ايزنهاور ، غالب الحرب الكبرى ، وارثاً وخلفاً له . وكان هـذا منصرفاً لعمـــله العسكري ولم يجـــد وقتاً ليعرف مـا إذا كان جمهورياً أو ديموقراطياً . وكان ، باعتباره بروتستانتياً مخلصاً ،

يجهل بأي اعتراف (إيمان) خاص يحسن أن يعلق نفسه . وكان الجمهوريون يرجون أكثر من ذلك أيضاً ، وهو أن يكون على رأسهم مرشح ذو جاه ونفوذ . وقد نجحوا في ذلك .

وقد سمي بسهولة ليكون مرشحاً للحزب « العظيم والقديم » مفضلاً على بطل المحافظين المتشددين الخالد والبائس ، الشيخ تافت . وكان لأيزنهاور خصم ديموقراطي ، آديلاي ستيفنسون . وكان هذا مفكراً من أسرة طيبة ، وفكر مفتوح ، خبيث طوعاً . وشهرته بادارته الحسنة في ايللينوا ، التي كان بعض الوقت حاكماً لها ، أقل من شهرته بهيئته النَوَرية غير المتكيفة . وعلاوة على ذلك ، كان مطلقاً ، وباختصار ، كان المرشح الأقل قدرة للحصول على كامل الأصوات الشعبية والكاثوليكية ليقف أمام غالب الحرب العالمية الثانية . وانتخب آيزنهاور دون عناء بـ ٣٤ مليون صوت مقابل ٢٧. ، و ٤٤٢ صوت انتخابي مقابل ٨٩ . وبعد أربع سنوات انتصر على نفس الخصم بتقدم متزايد ، أكثر من ٩،٥ ملايين أكثرية شعبية ، و ٤٥٧ صوتاً انتخابياً مقابل ٧٣ . وبلغ نفوذه في العام ١٩٥٢ درجة حصل فيها الجمهوريون ، لآخر مرة حتى اشعار جديد ، على الاكثرية في مجلس الممثلين ، وهذه الاكثرية ضعيفة ولا شك ، ٢٢١ مقعداً مقابل ٢١١ مقعداً للديموقراطيين ، ولكنها كافية ، كما يعتقد ، لينطلق الرئيس الجديد براحة في سياسة جديدة .

آيزنهاور أو من الدهر الى التعايش (١٩٥٣ - ١٩٦٠)

لقد كان الرئيس آيزنهاور محاطاً ، دون تمييز حزب ، باعجاب محب من كافة الأمة الامريكية ، ومحبوباً لابتسامته السهلة واوضاعه البسيطة

والودية . وعلى مايبدو أن آيزنهاور ، أو بالأحرى « آيك » ، كما يلقبه مواطنوه ، توصل إلى السلطة العليا في أفضل الظروف . إن الموجة المناوئة للشيوعية ، التي أثارت البلاد على روسيا السوفياتيـة والصين الشعبية وجميع البلاد المشبوهة بعدم معارضتها ، بلغت نقطة الذروة . وقد صوت الكونغرس على الاجراءات الحاسمة لصيانة امريكا وأصبحت نافذة بالرغم من رفض ترومان ، ولم يبق إلا السهر على تطبيقها .

منذ ١٩٥٠ ، حرم قانون الأمن الداخلي دخول الولايات المتحدة ، ولو لاقامة قصيرة ، على الشيوعيين ، والفوضويين ، وأعضاء جميع الأحزاب الجمعية ، وأنصار قلب الحكم بالعنف . وتلقى القناصل الامريكيون تعليمات مشددة لرفض تأشيرات الدخول على كل شخص أجنبي مشبوه باستقلاله الفكري . وأهم من ذلك بكثير أيضاً ، ان قانون ماك كران ولتر في الهجرة ، ووفق عليه في ١٩٥٢ ، شدد التشريع السابق على الهجرة . ولم يقبل في كل سنة إلا واحداً من الف من العدد الذي أحصي في العـام ١٩٢٠ للسكان الذين ترجع أصولهم المختلفة إلى أمم أجنبية . ولا شك في أن الآسيويين ، الذين كانوا من قبـل مبعدين ، يستطيعون منذ الآن الدخول بموجب نفس القـاعدة المطبقة على الشعوب الأخرى ، ولكن نصيبهم المحسوب على هـذا النحو لا يتجاوز رقماً تافهـاً صغيراً : ١٨٥ ، مثلاً ، لليابانيين .

ولم يكن ترومان الوحيد الذي عارض ، عبثاً ، هذه الأحكام المحددة ، فقد طلب كثير من الجمهوريين إلى الرئيس آيزنهاور أن يتوقع استثناءات لصالح الناجين من الشيوعية بحثاً عن ملجأ في أمريكا . أما الكونغرس ، الذي يدعمه الجزء الأعظم من الرأي العام ، فقد عارض طويلاً كل تدبير

من هذا النوع . وكان الوطنيون الخلص يقولون : إن القصد قبل كل شيء وقاية أسلوب الحياة الاميركية من كل عدوى . إن فتح أبواب الحظيرة ، بشكل عريض ، يعني التعرض لدخول الشياه الجرباء لخدمة العدو . ولزمت مناقشات طويلة ومساومات شبه رسمية كثيراً أو قليلاً حتى سمح الكونغرس أخيراً للرئيس أن يقبل ، بصفة استثنائية ، ٢٠٧٠٠٠ لاجيء ، مقابل التــأمين على ألا يعاد النظر بأي حال في قانون ماك كرّان قبل ١٩٥٦ .

ومن جهة أخرى ، سعى آيزنهاور دون إبطاء في إرضاء أفضل دعامات الحزب الجمهوري : كبار رجال الأعمال . وشكل وزارته من ثمانية مليونيريين ومرصص ، عامل مركب أدوات صحية ، وكان هذا الأخير ، فوق ذلك ، كاثوليكياً ، ويمثل فيها صغار الناس المحترمين في التسلسل الاجتماعي التقليدي . وكان الوزراء الآخرون رأسماليين من الطبقة العليا ، مثل تشارلز ولسون ، رئيس أكبر شركة لسيارات جنرال موتورز ، وقد سمي وزيراً للدفاع . ولم يشعر بأقل حرج عندما خص شركته بعقود هامة . وصرح دون مواربة « إن ما هو حسن لجنرال موتورز حسن للبلاد » . وكان الجنرال آيزنهاور غراً في السياسة ، فتقرب من الشيخ تافت ، معبود الجمهوريين المحافظين . فأقنعه هذا بسهولة أن الأسامي في القضايا الداخلية هو ارضاء رجال الأعمال وتركهم أحراراً ما أمكن في السهر على مصالحهم . وكانت كلمة أمر الادارة الجديدة : « الاقتصادي أولاً » . وحان الوقت لتخفيض النفقات ، وبالتالي ، الضرائب التي تثقل كاهل الرأسماليين ، وتحديد الرقابة على الاسعار ، والعودة إلى الحرية المقدسة في الانتاج والمبادلات التي كانت في القديم سبباً في ازدهار أمريكا

وقوتهـــا . والويل هو أن الامريكيين المتوسطين لم يكونوا قانعين بأن سعادتهم منوطة بزيادة غير محدودة في الثروات الكبرى . فقـد لاحظوا أن الحياة أصبحت أغلى مما كانت دون أن تزداد مواردهم المتواضعة بهذا القدر . وفي الانتخابات التشريعية لعام ١٩٥٤ ، كانوا قلقين من التراجع الاقتصادي الخفيف لعام ١٩٥٣ — ١٩٥٤ بعد أن انخفض الانتاج الصناعي بمقدار ٢٫٥٪ خلال تسعة أشهر ، وأعطوا الاكثرية للديموقراطيين .

دالس والدهر

وفي غضون ذلك ، توفي تافت ، في تموز ١٩٥٣ ، وهاج آيزنهـاور من وقاحـه الشيخ ماك كارثي التي تجرأ بها على الجيش ، واستطـاع ان يتخلص من الحرس الجمهوري القديم ويستنكر الافراط في مناوئة الشيوعية المناضلة في داخل البلاد . وعهد بتوجيه السياسة الخارجية الى محام دولي كبير ، جون فوستر دالس الذي قام بعد اتفاق مع كوريا ، في ٢٧ تموز ١٩٥٣ ، باحتواء وارجاع المد الشيوعي الذي يهدد ايضاً بامتداده في آسيا وفي غيرها .

والحق يقال لم يكن دالس ليأمل كثيراً ، ولاشك ، ولكنه ، كلاعب بوكر جيد، كان يحاول تخويف الخصم بتصريحات جارحة ومفاجئة ، تخففها من بعد محاولات تقارب غير منتظرة ايضاً . ولم يقدر الاتحاد السوفياتي كثيراً سياسة هذه المنضخة (الدوش) الحارة والباردة على التعاقب . وبعد موت ستالين ، في آذار ١٩٥٣ ، اجتاز السوفياتيون دور أزمة، ولم يجدوا في خلاله افضل من الانشغال في قضاياهم الداخلية وحدها . فأجاب دالس ببرودة شديدة على مفاتحاتهم السلمية ، حتى انه تباهى في دفع المناقشات بقوة، عند الحاجة، « حتى شفا الهاوية »، مع العلم دون السقوط فيها .

ولكن باقي العالم لم يكن مطمئناً بخاصة لهذا التعاقب من الابتسام والاثارة بين عملاقي الكوكب ، ولم يكن في وسعـــه الا ان يتحمل ويخضع . فقـد كانت فرنسا ، مثلاً ، منخرطة آنذاك في الهند الصينية في نزاع عسكري صعب مع فيت ـ نام تدعمها الصين الشيوعية ، وتأمل في بعض الوقت ، تلقي مساعدة جوهرية من الولايات المتحدة ، حتى ان دالس، على مايبدو، اوشك ان يلزم حتى الاعماق الطيران الاميركي بنجدة القوات الفرنسية عندما تراجع آيزنهاور أمام المخاطرة بحرب عالمية .

ويبدو ، مع ذلك ، ان أمريكا أخذت مسؤولية تنظيم حماية الكوكب ضد روسيا والصين الشيوعيتين ، واعـدت عدة سياسات تحالف : فالى المنظمات التي انشأها ترومـان : **منظمة دول أمريكا** ، في ١٩٤٨ ، ومنظمة معاهــــدة حلف شمال الاطلسي ١٩٤٩ ، ومنظمة اوستراليا ـ زيلاندة الجديدة ـ الولايات المتحدة في تشكيل دول من العرق الأبيض مهتمة في الحفاظ على « الحالة الراهنة » في المحيط الهادىء ، اضيفت ، في ايلول ١٩٥٤ ، منظمة معاهدة جنوب شرقي آسيا . ثم ان وضع الشرق الأوسط الغني بالبترول الموضوع في حالة دفاع قد تعقد بظهور دولة اسرائيل والدعم الكثيف والدبلوماسي والعسكري والمالي الذي تقدمه لها الولايات المتحدة رغم استنكار الدول العربية ، التي قبلت عروض موسكو . وشكلت امريكا بعناء **حلف بغداد** بين تركيا والعراق ، في ٢٤ شباط ١٩٥٥ ، وانضمت اليها بريطانيـــا العظمى ، في نيسان ، والباكستان ، في تموز ، وايران ، في تشرين الاول . وفي مكان آخر اكتفت الولايات المتحدة بمواثيق ثنائية : مع فورموزا ، مثلاً ، في ٢ كانون الأول

١٩٥٤ . وكان من السهل عليها ضمان الامن العسكري لشركائها اكثر من ازدهارهم الاقتصادي . واستقر الاسطول السادس الامريكي بشكل مستديم في البحر المتوسط ، والسابع في بحر الصين الشيوعية . واكثرت من القواعد البحرية والجوية في جميع القارات في خارج الارض الامريكية . ومافتئت الطائرات المسلحة بالقنابل الذرية تراقب الكرة ليل نهار بموجب اوامر قيادة الجو الستراتجية ، وهي على استعداد للتدخل عند اقل خطر .

وكلفت هذه الاحتياطات كلها غالياً واقلقت في الغالب المحميين اكثر مما أرضتهم . وكان هؤلاء يفضلون الاعتمادات العريضة التي تساعدهم على تجديد حياتهم الاقتصادية ، وانشاء سدود ، ومعامل للفولاذ ، وتجهيزات موانيء ... الخ . وترأست اندونيسيا البلاد الملونة المحايدة ودعتها ، في نيسان ١٩٥٥ ، الى مؤتمر باندونغ . وضم هذا المؤتمر الاول من نوعه ممثلي ثلاثين بلداً افريقياً وآسيوياً باستثناء كل دولة بيضاء . وهكذا اراد العالم الثالث ان يؤكد استقلاله ونضجه السياسي . وقد اظهرهما غالبا في لوم الولايات المتحدة على تسليح شركائها عوضا عن مساعدة الشعوب المتخلفة . وما كان من آيزنهاور الا ان استجاب واعلم ، بعد بضعة أيام ، عن انشاء أموال مساعدة لآسيا لتشجيع استغلال مواردها باستثناء كل تفضيل دبلوماسي .

وتدفقت على الولايات المتحدة بسرعة طلبات الاعتماد . أما الشكر والاعتراف بالجميل فأمرهما طويل في المستقبل . وكان من الواضح ان كثيراً من الأمم المتخلفة أفادت من خلاف كبيري هذا العالم وطلبت ، إن لم يكن طالبت بالحاح ، مساعدات كل منها ، دون اعطائها حتى ولو وعداً بشيء ، بالمقابل ؛ بل بالعكس وضعت كرامتها ووجدانها في الدفاع عن استقلالها .

ومن جهة أخرى ، أليس صحيحاً ، كما يدعم عدد من الأفكار الحرة، مثل اديلاي ستيفنسون ، ان جميع ظاهرات عدم ثقة وعداء الولايات المتحدة حيال السوفياتيين لا يمكن أن يكون منها عند هؤلاء إلا تغذية عدم ثقة وعداء مساويين على الأقل ؟ لقد مضى الوقت الذي كانت فيه الولايات المتحده الدولة الوحيدة التي تحتكر القنبلة الذرية ، وتستطيع أن تبيد الاتحاد السوفياتي دون أن تجابه بذاتها اخطاراً كبرى . إن حرباً نووية بين الدولتين الكبريين أصبحت منذ الآن ، اذا أعدنا كلمة تالليران ، اكثر من جريمة ، وخطأ ، وخطأ مميت . وفي هذه الشروط، أليست الحكمة الابتدائية أن تسوى الأمور على هذا الكوكب الآخذ بالضيق للعيش مع العالم الشيوعي في أقل الحدود الممكنة سوءاً ؟ وكان آيزنهاور ، في صفاء قلبه ، يشاطر الاميركي المتوسط هذه التطلعات السلمية، كما كان غالب الحرب العالمية الثانية يحلم بمجد اعظم وهو : أن يؤمن للبشرية ، بدءاً من بلاده الخاصة ، حسنات السلام والنشاط الجاد .

نحو التعايش

ومن هنا تأتي سلسلة الجهود الدبلوماسية التي بذلها آيزنهاور ودالس . وبصورة عامة ، كان الأول يجر الثاني المقاوم المتردد لمحاولة الوصول، على الأقل ، الى تسوية مع الاتحاد السوفياتي . وكان من اللازم ، في البدء، التباحث مع فرنسا وبريطانيا العظمى لتعريف سياسة مشتركة . وهذا ما حاوله ، في كانون الأول ١٩٥٣ ، مؤتمر برمودا ، بين آيزنهاور ولانيل وتشرشل ، ولكن الحكومة الاميركية اظهرت أقل من حلفائها بكثير ثقتها بحسن نوايا الاتحاد السوفياتي ، ومع ذلك ، لم ترفض الدخول في طريق التعايش . وفي بداية ١٩٥٤ ، استأنف وزراء

الشؤون الخارجية للأربعة الكبار ، في برلين ، مؤتمراتهم بعد انقطاع دام عدة سنوات . وأهم من ذلك بكثير أن اجتماعاً دولياً عقد في جونيف ، في نيسان - تموز ١٩٥٤ ، وفيه بحثت تسع عشرة أمة ، من بينها الصين الشيوعية لأول مرة ، الحالة في الشرق الأقصى . واذا لم تتوصل الى توطيد الوحدة من جديد في كوريا ، فقد انهت ، لزمن ، الحرب في الهند الصينية بتسجيل انسحاب فرنسا وبتقسيم - الفيت نام الى نصفين . وفي الوقت نفسه ، في حزيران ١٩٥٤ ، صرح ونستون تشرشل علناً ، بعد أن اعطى خطاب في فولتون في ١٩٤٦ إشارة « الحرب الباردة » بأن الوقت قد حان للعمل والعمل بجد لتوطيد التعايش السلمي بين العالم الغربي والاتحاد السوفياتي . وبعد يومين وافق الرئيس آيزنهاور رسمياً على وجهات النظر هذه ، وصرح : « يجب أن يجد الشرق والغرب الوسيلة للعيش معاً » .

ودامت هذه السياسة بعض الوقت . وعبثاً نبه الحرس الجمهوري القديم آيزنهاور الى مخادعة الصين الشعبية وضرورة ارجاعها الى جادة الصواب : وعلى العكس ، حاول هذا أن يشجع الانفراج في الشرق الأقصى . وفي بحر عام ١٩٥٤ سحب من كوريا الجنوبية فرقتين امريكيتين ولم يطبق بالصرامة القصوى الحصار الاقتصادي الذي يمنع مبدئياً كل العلاقات التجارية بين الصين الشعبية والولايات المتحدة . ولا شك في أن الولايات المتحدة وقعت ، في كانون الأول ١٩٥٤ ، معاهدة مع تشانغ - كاي - تشيك تضمن له امتلاك فورموزا وجزر بسكادور ، ولكن كان معلوماً أن الصين الوطنية لا تنطلق ابداً في مهاجمة القارة الصينية ، كما كانت تعلن بين حين وآخر عن عزمها على القيام بذلك ، دون سماح صريح من الحكومة الاميركية .

وفي هذه المنطقة من العالم وجدت النقطة الحساسة ، النقطة المتمردة على التعايش . وذلك أن الصينين لا يمكنها الاستغناء عن إثارة احداهما الأخرى لئلا تخسرا المظهر ووجدتا محرضتين، الواحدة في واشنطون والأخرى في موسكو ، لدعم مزاعمهما . وظلت قوات تشانغ معلقة على غبار من الجزر والجزيرات الواقعة على مقربة مباشرة من شواطىء الصين القاوية ، وهذا ما ساعدها على المراقبة ، وعند الحاجة ، على التحرش باطلاق مدافعها على ملاحة مراكب الصيد المسالمة . وأفادت الصين الشيوعية من لحظة اهمال فاستولت على بعض هذه المواقع وارادت أن تقيم في ارخبيلين هامين تقريباً ، ارخبيل كيموي في مياه ميناء آموي ، وارخبيل ماتسو ، في عرض فو - تشيئو ، وكلاهما معرض لضرب يومي بالقنابل من بطاريات الشاطىء ، ورأساً دوت أصوات الحرب في واشنطون : «لا تمسوا كيموي وماتسو وإلا فاستعدوا لتلقي القنابل الذرية على رأسكم» . هكذا كان يهدد « الحزب الصيني » النشيط دوماً . وبخاصة بين الجمهوريين المحافظين . وبدا ، خلال بضعة اسابيع ، أن السلام العالمي منوط بمصير هذه الجزر المظلمة التي عرضت فجأة على الرأي العام الامريكي ، كآخر حصن لاستقلاله . وعرف الرئيس آيزنهاور كيف يحتفظ برباطة جأشه ، ولم يندفع حتى الأعماق ، مع التأكيد بأن الولايات المتحدة ستساعد تشانغ - كاي - تشيك على الدفاع عن ممتلكاته . وأخيراً ، في آخر نيسان ١٩٥٥ ، وهذا ما نعلمه الآن ، أصبحت علاقات الصين الشيوعية صعبة مع روسيا . فبدت فجأة اكثر مصالحة وقبلت بصفة موقتة ، بألا تغير بالقوة الحالة القائمة في مضيق فورموزا .

وحصل انفراج في آسيا ، وكذلك في اوربة . وفي آيار ١٩٥٥ ، اتفق الروس فجأة مع الغربيين على توقيع معاهدة سلام مع النمسا

تعترف باستقلالها وتتوقع الجلاء عن أرضها في تشرين الأول ١٩٥٥ . وبدا أن الوقت مناسب لمؤتمر ذروة بين رؤساء حكومات الدول الاربع الكبرى. وانعقد هذا المؤتمر في جونيف ، في تموز ١٩٥٥ ، وضم آيزنهاور ، ايدن، بولغانين ، ادغار فور . وكان الجو ودياً . وفيه ألح آيزنهاور على ضرورة الاشراف الدولي دون حيطة كمقدمة خطة لنزع السلاح الذي يؤمن أمن اوربة وبالتالي يجعل اعادة توحيد المانيا ممكنة . وبذلك تحل القضايا الأساسية. وأراد الروس البدء بتحريم جميع الاسلحة النووية وجلاء الجيوش الأجنبية عن اوربة . ونظراً لفقدان اتفاق واضح دقيق اقتصر الشرق والغرب على التمني بتحسين علاقاتها الاقتصادية والثقافية .

والواقع أن هذه العلاقات أصبحت في صيف ١٩٥٥ اكثر ثقة . وفي شهر آب عقد في جونيف مؤتمر دولي في الاستعمال السلمي للطاقة النووية ، وضم علماء من جانبي الستار الحديدي ، ولكن هل يمكن الكلام بعد عن الستار الحديدي عندما يعتاد فريقان من خبراء المعسكرين على زيارة زملائهم ويغامر السياح الغربيون بأعداد متزايدة في اكتشاف جمال موسكو ولينينغراد ؟

ومع ذلك ، ظلت الحكومة الروسية تعامل بحذر المانيا الاتحادية ، المانيا المستشار آديناور ، وتؤكد شرعية جمهورية المانيا الشعبية الشرقية ، ولم يستطع الحصانان القديمان في الحرب الباردة ، دالس ومولوتوف، أن يمنعا نفسيهما من تبادل الإثارات اللفظية ، في الجمعية العامة للأمم المتحدة، في شهر ايلول . وانعقد اجتماع وزراء الشؤون الخارجية الأربعة كما كان متوقعاً ، في جونيف في تشرين الأول - تشرين الثاني ١٩٥٥ . واصطدم المشاركون فيه بنفس الصعوبات التي اصطدم بها زعماء حكوماتهم قبل ثلاثة

اشهر . وافترقوا دون الحصول على أقل نتيجة ، اللهم إلا الاثارة المتبادلة طوال الوقت الضائع في لغو عديم الفائدة .

وفي الظاهر ، كانت الحرب الباردة مستمرة ولكنها خفت . وقد اقترح بولغانين ، في كانون الثاني ١٩٥٦ ، في رسالة شخصية وجهها الى آيزنهاور ، أن يبرم بلداهما معاهدة صداقة وتعاون لعشرين عاماً .ولكن آيزنهاور ، وقد أزالت الخيبات السابقة اوهامه ، أجاب أن هذا الاتفاق لن يكون له معنى اذا لم يكن مسبقاً بتغيير فكري لا يرى له بعد اشارة في روسيا . وبعد قليل ، بدا أن خروتشوف عند السوفياتيين يدل على الهام جديد : فقد كشف في المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي، عن اخطاء ، بل جرائم ستالين ، وقرر تخفيضاً عظيماً في القوى المسلحة الروسية ، ثم وقع بعد قليل مع تيتو تصريحاً يقبل فيه بأن لكل بلد الحق في انتخاب طريقه الخاص للوصول الى الاشتراكية .

المشكلة السوداء

وحاول آيزنهاور من جهته ، عند قرب الانتخاب الرئاسي في١٩٥٦، ان يقدم أفضل صورة عن ادارته وعن بلده . واستؤنفت الأعمال بعد التأخر الاقتصادي القصير في ١٩٥٣ — ١٩٥٤ ، ولكن هل أفاد جميع المواطنين الامريكيين سواسية من الازدهار العام ؟ لم ير ديموقراطيو الشرق والوسط عناء في الدلالة على ان الناس الملونين ما زالوا يعاملون مواطنين منحطين ، ويأملون كسب الأصوات في المدن الصناعية الكبرى في مناطقهم . وكانت حرباً صالحة للجمهوريين لئلا يتركوا لهم المجال حراً. وبصورة مستقلة عن كل اهتمام حزبي ، هل يستطيع الاميركيون أن يستمروا في وضع نفسهم في أعين العالم ابطالاً للعدالة والمساواة بين جميع

الشعوب برفض هذه العدالة وهذه المساواة لمواطنيهم الملونين ؟ منذ عدة سنوات كان الزعماء الزنوج يطالبون بإنهاء هذا التطبيق الذي يخالف روح الدستور ونصه ويجعل الناس الملونين في معزل عن البيض في جميع ظروف الحياة ، في الدار ، في المدرسة ، في الكنيسة ، في المسرح ، في السينما ، في المطعم ، في القطـــار كما في الباص ، في الجيش كما في المشغل ، ويمنعهم عملياً من التصويت بسبب عدم كتابة أسمائهم على القوائم الانتخابية . والحق يقال ، ان هـذا العـزل قـد لوحظ متناقصاً في القسم الاعظم من البلاد ، ولكنه ظل قاعـــدة مطلقة في دول الجنوب ، باعتبارها ترى أن المشكلة ليست من اختصاص السلطات الاتحادية .

ومع ذلك ، صرحت المحكمة العليا ، في أيار ١٩٥٤ ، أن العزل غير قانوني في المدارس العامة للاتحاد وأمرت بوضوح كل دولة أن تزيله « في مهلة معقولة » . وكان النص مصالحاً كما يرجى ، ولكنه أثار على الأقل معارضة بيض الجنوب ، فقد صرحوا عن عزمهم على استخدام جميع وسائل الحق الممكنة للدفاع عن امتيازاتهم والحفاظ على الشكل التقليدي لحياتهم . ثم ان عدداً من الاعضـاء الديموقراطيين في الكونغرس ، مع من انضم اليهم من بعض الجمهوريين ، تقدموا باقتراح قانون يضمن فعلاً لكل مواطن المساواة في ممارسة حقوقه المدنية ، وحق التصويت بخاصة .

ولم توضع منذ الآن القضية السوداء ، في مجموعها كما في حالاتها العديدة الخاصة ، أمـــام الرأي العام فحسب ، بل أمام المحاكم والمجالس التشريعية للأمة . وكان آيزنهـاور يناصر بصفة خاصة الدمج التدريجي ، وامتنع عن أن يقرر علناً بين المعسكرين المتعارضين واقتصر على التصريح بأن حكومته ستسهر على تطبيق القرارات القضائية . وبالرغم من تردد سياسته ، فقد احتفظ بشعبيته لدى القسم الاعظم من الأمة . حتى ان

سخرية المفكرين، الذين يأخذون عليه أنه يفضل الغولف والبريدج على المطالعة ، لم يستطيعوا الا زيادة هذه الشعبية . وقد أمكن تقدير هذه الحماسة بالهياج الذي تملك الرأي العام لدى سماعه الخبر بأن الرئيس أصيب بنوبة قلبية (١٩٥٥) ، ثم في السنة التالية ، عندما اضطر لاجراء عملية معوية . وبدا أنه استعاد صحته بعد مذين الانذارين . ولذا اعيد انتخابه بسهولة ، في تشرين الثاني ١٩٥٦ ، على برنامج متفائل كما هو غامض وهو : « سلام ، ازدهار ، تقدم . » وحصل على ٥٧٫٤ ٪ من الأصوات الشعبية مقابل ٤٢٪ الى ادلاي ستيفنسون ، وهذا النصر يرجع إلى جاهه الشخصي ، لأن الحزب الديموقراطي في اليوم نفسه جمع ٥١٫١٪ من الأصوات في انتخابات مجلس الممثلين ، مقابل ٤٨٫٧ ٪ للجمهوريين ، وهكذا حافظ في هذا المجلس على اكثرية ٢٣٣ مقعداً مقابل ٢٠٠ .

رئاسة آيزنهاور الثانية (١٩٥٦ — ١٩٦٠)

وفي الوقت نفسه ، كانت ازمة دولية مزدوجة تهز العالم وتضع الولايات المتحدة في خلاف عنيف مع حليفتيها الأساسيتين . ففي هونغاريا ، تشجع الشعب بالامتيازات التي خولها السوفياتيون إلى البولونيين ، وثار بأجمعه على الدكتاتورية الشيوعية ، وتدخلت الدبابات الروسية ، في ٤ و٥ تشرين الثاني ، في شوارع بودابست ، لسحق هذه الحركة القومية وفرض حكومة موالية للكرملين . واكتفت الدول الغربية باحتجاجات شفوية ولم تقم بشيء فعلي لنجدة الوطنيين الهونغاريين . وفي الواقع ، كانت الولايات المتحدة ، آنذاك في خلاف مع فرنسا وبريطانيا العظمى اللتين انطلقتا مع اسرائيل ، في حملة على مصر ، لاستعادة ادارة قناة

السويس التي أممها الرئيس جمال عبد الناصر في ٢٦ تموز ١٩٥٦ . وسارت العملية سيراً حسناً لصالح المعتدين لولا أن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي تدخلا واجبرا الدولتين الغربيتين على التخلي . وهذا الحزم من امريكا حيال حلفائها كان يخالف بشكل يلفت النظر قبولها واقع التدخل السوفياتي المسلح في هونغاريا . وهذا يعني أيضاً التحزب بوضوح للعالم الثالث ضد الدولتين الاستعماريتين القديمتين وباقي امبراطوريتيهما المزعزعتين . وكسرت وحدة العالم الغربي دون امكان تقارب حقيقي مع السوفياتيين على جثمان هونغاريا . وبدأت رئاسة آيزنهاور الثانية بطابع مشؤوم .

ونظراً لفقدان سياسة خارجية موحدة ومصممة ، حاول آيزنهاور أن يرضي الرأي العام بسياسة داخلية تهتم بالامريكي المتوسط . وهذاما اسماه مستشاروه « الجمهورية الحديثة » وعرفوها على هذا النحو « ليبرالية فيما يتعلق بحاجات الشعب ، ومحافظة فيما يتعلق بماله » . وجرت محاولة بعض الاصلاحات . ولم يعارض الرئيس سياسة تقتصر بعناية على الأمن الاجتماعي . وصرح بأن على الحكومة الاتحادية ، في حالة الضرورة ، أن تساعد السلطات المحلية على تحسين التربية الابتدائية والثانوية . وصمم بشكل أوضح من قبل على دمج الزنوج وضمان حقوقهم المدنية . ولكنه سهر ايضاً على تجنب كل نفقة مفرطة يمكن ان تؤدي الى زيادة الضرائب او اللجوء إلى التضخم النقدي . وفوق ذلك ، كانت حالته الصحية بحاجة إلى عناية . ولم يكن من مزاجه اتخاذ مبادرات جريئة . وشيئاً فشيئاً اشرك في اشغاله وفي مسؤوليات وظيفته نائبه ، ريتشارد نيكسون ، الذي جعله ، حسب التقليد الاميركي ، في معزل عن القضايا الرصينة في رئاسته الاولى . وافاد نيكسون من بعض

المهارة في المناورات ، وبدأ عمله السياسي بسرعة : فقد انتخب ممثلاً عن كاليفورنيا في ١٩٤٦ . وأصبح لها شيخاً في ١٩٥٠ على برنامج مناوءة شديدة للشيوعية ونجح في تضامنه مع آيزنهاور في ١٩٥٢ كبطل للغرب المحافظ وصاحب الأعمال . وبعد ان أفاد من الافراط المكارثي دون ان يضلع فيه كثيراً ، توجه الى الانسان المعتدل بشكل فائق راغباً في كسب فضل العاطفة الجمهورية بالوانها المختلفة ، ليكون في موقف صالح يؤهله إلى التطلع إلى خلافة آيزنهاور في ١٩٦٠ . وأبدى حيال هذا الأخير احتراماً بنوياً تقريباً ، وكان على استعداد دوماً ليحل محله في المهام وفي الرحلات والأسفار الصعبة في داخل البلاد وفي خارجها .

الفضائح

افادت الرئاسة الثانية من استمرار الازدهار الذي انقطع، مع ذلك، بالتأخر الاقتصادي عام ١٩٥٨ ، القصير جداً ، ستة أشهر تقريباً، ولكنه كان قاسياً بشكل كاف بعد أن تدنى الانتاج بنسبة ٤٫٥ ٪ . ولاشك في أن كل شيء لم يسر بشكل فائق : فقد انتجت الزراعة محاصيل لم تستطع الولايات المتحدة استهلاكها أو بيعها ، ومن هنا نشأت افراطات سنوية اثقلت على الاسعار ، وكان يجب تكديسها بنفقات كبيرة . وانشأت الادارة « بنك الأرض » وكلفته بدفع تعويضات إلى المزارعين الذين يقبلون بتصغير سطح حقولهم . ولم يكف هذا الحل المكلف لتعويم صغار المزارعين غير القادرين على تجديد مستغلاتهم . وكان الأفضل لهم ، وبخاصة لأولادهم ، الذهاب والبحث عن الثروة في اماكن أخرى ، في الصناعة او التجارة . ولكن الا يضخمون على هذا النحو عدد العاطلين ، الذي

بلغ ، في السنة السمينة والسنة العجيفة ، نحو ٥٪ من القوة العـاملة ، هذه النسبة التي تدعو إلى القلق في عز دور التوسع العمراني ؟ .

ومن جهة ثانية ، أصبحت النقابات قوى حقيقية اقتصادية ، سياسية ، مالية ، مكرسة لارضـاء مصالح اعضائها ، واحياناً لأرضاء زعمائها وحدهم. فقد كشفت لجنة خاصة في مجلس الشيوخ ، في ١٩٥٧ ، أن كثيراً من أمنائها كانوا يفيدون من وظائفهم للحصول على فوائد شخصية للمستخدمين الذين كانوا على صلة بهم. ومن ذلك، بخاصة ، الأعمال التي كان يقوم بها هوفا زعيم نقابة سائقي سيارات الشحن ، والتي كانت تتجاوز في هذه النقطة حد الغش والتواطؤ المسموح به ، حتى ان منظمته اجبرت على التبرؤ منه، وامام رفضها ، حذفت من المركز العمالي الكبير ، وظلت تزدهر تحت ادارة هوفا الذي دافع عنه افضل المحامين ، واستطاع خلال عشرة أعوام أن ينجو من الملاحقات القضائية الموجهة ضده . وكانت معظم النقابات الأخرى تسير بشرف اكثر ، ولكنها تبدي حزماً مساوياً على الاقل حيال منظمات ارباب العمل والسلطات العامة . فمن ذلـك أن نقابة الفولاذ ، مثلاً، لم تحصل على اجور أعلى وعلى الفوائد المختلفة الأخرى التي صرحت الشركات المنتجة بأنهـا غير قادرة على منحها ، فقررت اضراباً عاماً في تموز ١٩٥٩ . وحاولت الحكومة عبثاً ايجاد حل وسط ، واستمر الاضراب خلال ستة أشهر واجبر كثيراً من الصناعات الأخرى على ابطاء، بل ايقـــاف نشاطهـا . وقاومت النقـابة جيداً ، قوية بخزانة الحرب التي تؤمن تقريباً لاعضائها مايعيشون به . وفي نهاية الستة أشهر ، في كانون الثاني ١٩٦٠ ، اضطر المستخدمون إلى التنازل وقبول الشروط المطلوبة .

كان تعاطف الجمهور طويلاً مع النقابات ، مع هذه الألوف والملايين من العمال المتواضعين الذين انتصر اتحادهم على أنانية قبضة من الرأسماليين . وقد إدرك الامريكي المتوسط ، وهو غير رب عمل ولا عامل نقابي ، أنه هو الذي يدفع نفقات هذه المعارك بشكل اسعار مرتفعة وبطء في الاعمال .

ونظراً لكثرة استعمال واساءة استعمال سلطة القسر ، أصبحت النقابات غير شعبية . ولاحظ الرجال السياسيون هذه الحالة الفكرية الجديدة ، وتعددت مشروعات القوانين لمكافحة شطط وفضائح بعض التعاملات النقابية .

وتبنى الكونغرس في ١٩٥٩ قانوناً جديداً للعمل يلزم النقابات باعطاء تقارير منظمة عن حالتها المالية ، وجعل طرقها الادارية علنية و- تفصيل له معناه — وهو عدم قبول محكومين قدامى بالحق العام بين موجهيها . وكان من اللازم للعمال ان يكونوا محميين ضد فساد زعمائهم « باعلان حقوق » معترف لهم بها . وكانت كل الاحكام حميدة ، ولكن تطبيقها صعب غالباً . وأصبح اتجاه النقابات الجديدة ، منذ الآن ، تجنب خلافات العمل والاستياءات التي تسببها ، والتفاوض مع أرباب العمل نداً لند ، وبذلك لايدعون للحكومة فرصة التدخل لصالح ضحيتهم المشتركة ، جمهور المستهلكين .

والحق يقال ، لم يكن الزعماء النقابيون وحدهم يتاجرون بنفوذهم . فقد اعتمد آيزنهاور شيئاً فشيئاً في تسوية القضايا الصغيرة على أحد أصدقائه الشخصيين ، شيرمان آدامز الذي كان يمر على يده القسم الأعظم من مراسلات الرئيس آيزنهاور وعلاقاته الرسمية . وقد أثار دور هذا القيم

حسد جميع الرجال السياسين ، ومنهم الوزراء . وثبت أن آدامز كان يقبل طوعاً هدايا ، سيارات ، فرو ، برادات ، الخ .. لنفسه أو لعائلته ، لقاء رسائل توصية أو ضربة هاتف لصالح أصدقاء في صعوبة مع هـذه الادارة أو تلك . ولكن الرئيس آيزنهاور مع أسفه الكبير ، اضطر إلى التخلي عنه . وعلى اثر ذلك ، شرعت لجنة تحتية من مجلس الممثلين في التحقيق عن نزاهة أعضاء مختلف المنظمات الرسمية المكلفة بمراقبة النقليات ، والطاقة الكهربائية ، والطيران المدني ، والتجارة الداخلية والخارجية . واكتشفت حالات عديدة في التواطؤ بين عمال الخدمات العامة ورجال الأعمال . وعرف الجمهور أن بعض صانعي الاسطوانات كانوا يدفعون جعلاً لمنظمي برامج الراديو والتلفزيون ليختار هؤلاء مفضلين انتاجهم ، وان مسابقات وضعت على نفس البرامج ودفع ثمنها سلفاً ، وكان أصدقاء الادارة على علم بسر الأسئلة والأجوبة . وصدم الامريكي المتوسط الشريف من هذه الايحاءات المؤسفة . وبعد أليس من الضروري إجراء عملية تنظيف كبرى في الادارة ، والحكومة ، والأعمال ، والنقابات ، والمسرح والسينما ، وفي كل مكان ، ليعاد إلى أمريكا بياضها الناصع ؟ وبانتظار ذلك كان من الأفضل ، ولا شك ، التصويت للمعارضـــة الديموقراطية التي حصلت ، في الانتخابات التشريعية لعام ١٩٥٨ ، على ٥٦٫٢٪ من الأصوات و ٢٨٣ مقعداً في مجلس الممثلين ، وهذا هو الحد الأعظم منذ روزفلت ، مقابل ١٥٣ فقط للجمهوريين .

الصعوبات

ولم تكن سياسة آيزنهاور الخارجية أسعد حظاً . فقد وجدت الولايات المتحدة في علاقات صعبة مع معظم بلاد العالم ، ومن بينها كندا التي

كان يقلقها ، كما يسعدها ، اجتياح رؤوس أموال ومشاريع جارها القوي جداً لها . ولما وصل المحافظون فيها إلى السلطة ، عام ١٩٥٧ ، أثاروا القومية الشعبية ، وأرادوا أن يكون لبلادهم استقلال اقتصادي وسياسي أعظم ، ولم يكن الفتح المتأخر ، في عام ١٩٥٩ ، لقناة سان - لوران ، الذي كانت تطالب به المصالح الكندية منذ ربع قرن ، هو الذي لطف كثيراً مزاج اوتاوا السيء .

وبالرغم من كل شيء ، يعتبر هذا الاستياء غنجاً بسيطاً ، إلى جانب امتعاض قسم من امريكا الجنوبية ، من السياسة الامريكية ، كما لاحظ ذلك نائب الرئيس نيكسون ، في ١٩٥٨ ، خلال جولة أثارت هنا وهناك ، وفي كاراكاس ، عاصمة فينيزويلا ، بخاصة ، تظاهرات عنيفة . ولقد كان من مزاياه أنه حافظ على رباطة جأشه ، إن لم يكن على ابتسامته ، تحت البصاق وجموع الأيدي المرتفعة . لقد أظهرت امريكا الجنوبية على هذا النحو غضبها من أن اختها الشمالية الكبرى أهملتها نسبياً لتذهب وتساعد الأمم الناشئة الجديدة في آسيا وافريقية . وماذا تهم بضعة اعتمادات كريمة كثيراً أو قليلاً ، عندما تغلق التعرفة الجمركية الامريكية عملياً ، في وجه المواد الأولية لأمريكا اللاتينية ، ثرواتها الوحيدة ، دخول أغنى سوق في العالم ، بينما تسقط مضاربات وول ستريت إلى مستويات البؤس سعر المواد الأولية الآنفة الذكر . وأضاف المفكرون والطلاب الأحرار على ذلك بأن الولايات المتحدة أذا طالبت دون انقطاع من بلادهم ، وبحق ، اصلاحات بنية عميقة ، فلن يفوتهم أبداً أن يعترفوا بأكثر الانظمة دكتاتورية وأكثرها فساداً ويدعموها .

وقد اعتبرت الحكومة الامريكية هذا اللوم دون تريث . وفي ١٩٥٩ ،

قررت أن تقدم ٤٥٪ من رأسمال مليار دولار ضروري لانشاء مصرف جديد ، بنك التنمية الامريكية ، (البلاد الامريكية) ويدل اسمه على سبب وجوده . وفي السنة التالية ، حرر الكونغرس ٥٠٠ مليون دولار اضافية لتساعد على استغلال امريكا الجنوبية . وقبل ذلك ببضعة أسابيع ، جاءها آيزنهاور للقيام « بمهمة التفاهم المتبادل » ، واستقبل فيها بنفس الحرارة التي أثار فيها نيكسون الغضب قبل عامين .

ومع ذلك ، ففي جوار فلوريدا المباشر ، قامت في جزيرة كوبا حكومة ووضعت نفسها أمام أمريكا اللاتينية والعالم كله خصماً مصمماً للرأسمالية اليانكية (اليانكي كبار أغنياء الانغلو - ساكسون في الولايات المتحدة) . ولقد نظرت الولايات المتحدة بعطف إلى وصول فيديل كاسترو إلى السلطة ، في أول كانون الثاني ١٩٥٩ ، بعد حرب عصابات قاسية دامت سنتين ، وتغلب فيها على الدكتاتور المتعب والفاسد باتيستا . فقد أعلن أنه يريد أن يعطي لبلده حكومة نشيطة وشريفة وعدوة مصممة لنزعة الأعمال الرأسمالية التي تريد أن تربط كل شيء بأعمال المال والكسل والبؤس والجهل . وفي نيسان ١٩٥٩ ، ذهب ليحضر اجتماع الأمم المتحدة في نيويورك ، وفسح له ذلك فرصة المرور من واشنطون ، حيث استقبل برود ، بصفة خاصة . وكان قد بدأ بتأميم معظم المشاريع الزراعية والصناعية في بلده دون أقل تعويض للمالكين القدامى .

وبعد ذلك كانت المصالح الامريكية ، بدورها مهددة ، عندما كان فيديل كاسترو يتقرب شيئاً فشيئاً من الاتحاد السوفياتي ، ولا يترك فرصة تفوته دون أن يشهر بالامبريالية الامريكية ومآربها الخبيثة ضد استقلال

كوبا . وفي شباط ١٩٦٠ ، وقع اتفاقاً تجارياً مع السوفياتيين ، وبموجبه تعهد هؤلاء بشراء القسم الأعظم من السكر الكوبي مقابل تجهيزات بالبترول والآلات . ورأت الولايات المتحدة الا تداري هذا التابع للعالم الشيوعي . وسمح الكونغرس للرئيس أن ينهي واردات السكر الكوبي إلى الولايات المتحدة ، فاضطر كاسترو أن يكتفي ، منذ الآن ، بالسعر الأدنى بصورة محسوسة الذي قبله الاتحاد السوفياتي في تموز ١٩٦٠ . وفي الشهر التالي ، وبناء على طلب الحكومة الامريكية ، شجبت منظمة دول أمريكا ، المنعقدة في عاصمة كوستا - ريكا ، تدخل دولة أجنبية على القارة في قضايا الجمهوريات الامريكية ، وكذلك قبول مثل هذا التدخل من دولة امريكية . « وما على الذي يفهم إلا أن يعمل ما فيه خيره » أي « ما على الرسول إلا البلاغ » . وهنأت الولايات المتحدة نفسها على هذا العمل . ومع ذلك ، فان الموقعين الآخرين لهذا التصريح دعموا ، بأن هذا التصريح لا يريد شجب كوبا ، وما كان من كاسترو ، الذي كان مثيراً أكثر منه في أي وقت مضى ، إلا أن صادر آخر الممتلكات الامريكية في جزيرته وقبل حماية الصواريخ الروسية ضد كل هجوم امبريالي . وهكذا تجمعت من جديد عناصر أزمة عالمية ، على مرأى من العين الحزينة لأكثر الجنرالات مسالمة وأقل الرؤساء تأثيراً .

وفي الحقيقة ، إن التوطد السوفياتي في كوبا شهر بفظاعة الاخفاق الكلي لارادة آيزنهاور الطيبة حيال الاتحاد السوفياتي ؛ ولكن هذه الارادة الطيبة ألم تكن مترددة كثيراً جداً ، مثل ارادة رفيقه خروتشوف ؟ ربما يقول التاريخ ذات يوم إن زعيمي الدولة كانا يرغبان باخلاص في الوصول إلى انفراج بين بلديهما ، إن لم يكن إلى تفاهم ، ولكن على

كل منها ان يحسب حساباً كثيراً للرأي العام في وطنه، الذي كان في الحقيقة مرناً بشكل كاف ، وبالأحرى محبذاً لمقاصده ؛ ولمختلف الأحزاب والشيع الجشعة التي ترى في أن تحل محله في السلطة ؛ وبخاصة للمصالح الواسعة المحبذة لبقاء العداوة بين الدولتين . ولايسع التقويم التاريخي إلا أن يسجل هـذا النوع من التردد الدوار ، المقطوع بوقفات مفاجئة ، الذي استسلمت اليه الدبلوماسية الروسية - الامريكية من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٠.

وتضايق آيزنهاور قليلاً عند ازمة السويس ، العدوان الثلاثي على مصر ، ووجد نفسه في سواعد مضرجة بدم هونغاريا ولما يجف بعد ، فتراجع بعض الوقت ، وأعلن،في كانون الثاني ١٩٥٧ ، مذهبه : « يمكن لجميع دول الشرق الأوسط ، التي قد يهددها عداون شيوعي ، أن تعتمد على مساعدة الولايات المتحدة. المسلحة » . وفوجيء خروشوف قليلاً بهذه الخطوة غير المنتظرة فلم يفقد توازنه : وصرح « ان زواج المجاملة يمكن أن يكون أحياناً أقوى زواج ، وثم الا يحسن باكبر دولتين في العالم أن تدفنا مرة واحدة شكوكها القديمة ومنازعاتها ، لئلا تنزعج كل واحدة منها بالاثارات العلنية للعديد من البلاد التي تفيد من خلافاتها بشكل وقح ؟ » زد على ذلك أن السوفياتيين كانوا كباراً بكفاية ولايحتاجون لأحـد ، كما اثبت ذلك ، في ٤ تشرين الأول ١٩٥٧ ، اطلاق أول « سبوتنيك » في الفضاء . وبعد قليل أثبت « السبوتنيك » رقم ٢ ، وهو بثقل نصف طون وينقل كلباً ، التقدم الذي حققه الروس في مضار يعتقد الاميركيون انهم فيه اعلى من غيرهم الى الأبد . ولم يهز الأمة منذ ١٩٤٥ حادث كهذا الحادث . فقد بلغ الرعب عند بعضهم درجة اخذوا يعتقدون فيها انهم اصبحوا منذ الآن

تحت تهديد الصواريخ السوفياتية حاملة القنابل النووية ، وتلك الجبل الجميع بعد أن تركوا غيرهم يبعد عنهم بمسافات ولم يتمسك بجميع القرارات الجميلة التي اتخذت في الهياج الذي أثارته «السبوتنيكات» الاولى ، ولكن امريكا الاكثر يقظة ونفاذاً ووعياً لمسؤولياتها في عالم أكثر تعقيداً ، خرجت من ذلك . ودخلت مع الاتحاد السوفياتي في منافسة عامة عسكرية ، تقنية ، علمية ، اقتصادية ، انسانية ، أرضية وفضائية ، فأيها تصل إلى القمر ، إلى رفاه الكوكب ، إلى الاعجاب ، وإذا أمكن إلى اعتراف الانسانية بكاملها .

التردوات الامريكية — السوفييتية

ومع ذلك ، ظلت اللعبة الدبلوماسية تحتل مقدم المسرح ، يقودها الروس الذين انطلقوا ، بادىء بدء ، في هجوم واسع للسلام . وبواسطة حلفائهم ، وبخاصة بولونيا ، أو مباشرة ، قدموا عدة خطط لنزع السلاح أو «عدم الالتزام» تقترح جعل أوربه الوسطى منطقة مُحيّدة . ورأت الولايات المتحدة في ذلك مناورات لاضعاف منظمة الغرب العسكرية ، منظمة معاهدة شمال الاطلسي . وعندئذ كتب بولغانين الى آيزنهاور عدة رسائل أظهر فيها رغبة السوفياتيين في السلام وضرورة لقاء ذروة قريب ، ولكنه لم يجب على جميع طلبات مراسله ومافيها من دقة الا بابتذال . وضاع هجوم السلام في الرمال .

وعلى نقيض ذلك ، كانت سنة ١٩٥٨ سنة أزمات دولية . فقد كان جمال عبد الناصر غالباً في السويس بمساعدة روسيا وامريكا متحدتين وأراد ان يضع الشرق الأوسط تحت اشرافه بنسف الحكومات المعادية لأهدافه ، ونجحت العملية في العراق ، حيث قامت دكتاتورية عسكرية مقام الملكية في تموز ١٩٥٨ ، واخفقت في الأردن وفي لبنان . ولكن

سرعة الغرب في العمل لم تعارض اطماع مصر فحسب ، بل أيضاً آمال السوفياتيين في الافادة من الحالة المضطربة .

وبعد قليل ، استأنفت الصين الشيوعية فجأة هجوماتها على أرخبيل كيموي وماتسو ، وأرادت أن تمنع عنها كل اتصال بفورموزا . واقتصرت واشنطون على التصريح بأن على الاسطول الامريكي السابع أن يحمي قوافل التموين الموضوعة على بساط البحث والمناقشة . وصلت هذه القوافل دون عائق إلى مرابطها ، وبعد قليل اكتفت بكين باحتجاجات شفوية . ولم تشتعل النار في الشرق الاقصى كما في الشرق الأوسط .

وفي تشرين الثاني ١٩٥٨ أصبح خروتشوف وحده سيد السلطة ، بعد أن فقد بولغانين حظوته قبل بضعة أشهر ، وبدا أنه يعرض سلام العالم للخطر بعد أن أعلن أن السوفياتيين لايقبلون مطلقاً بحقوق احتلال الدول الغربية في برلين – الغربية ، وأنهم يعطونهم ستة أشهر للاعتراف بجمهورية المانيا الديموقراطية . واطرحت الولايات المتحدة ، كحلفائها الاوربيين ، هذه المزاعم بهدوء . وأراد خروتشوف بخاصة أن يضع بصحب قضية توحيد المانيا الغربية والشرقية .

ولما أخفقت الطرق العنيفة كالاحتجاجات السامية ، حاول السوفياتيون واسطة ثالثة ، وهي تجريد حذر الغرب من سلاحه ، وبخاصة حذر الولايات المتحدة بتبادل زيارات الارادة الطيبة التي تهيء لقاء جديداً للذروة . جاء نائب رئيس مجلس الوزراء ، ميكويان ، وقام بجولة في الولايات المتحدة ، في كانون الثاني ١٩٥٩ . ورد نائب الرئيس نيكسون الزيارة في تموز وقبل خرتشوف نفسه دعوة آيزنهاور للمجيء وتمضية عشرة أيام في أمريكا ، في شهر ايلول ، ١٩٥٩ ، وناقش معه جميع القضايا المعلقة بين بلديهما في لقاء رأس لرأس في عطلة آخر الاسبوع ، في الريف ، في

معسكر دايفيد . ولم يحل رجلا الدولة شيئاً حلاً عميقاً ، ولكن كلاً منهما تعاطف مع الآخر ووعدا بأن يعملا جهدهما للوصول بالقضية الألمانية وبقضية نزع السلاح إلى حلول إيجابية مقبولة من بلديهما .

الم يحن الوقت للقـــاء ذروة جـديد ؟ لقد دفع الوزير الأول في حكومة بريطانيا العظمى ، ماكميلان ، كثيراً في هذا السبيل . والح الجنرال دوغـول أن يحضر هـذا الاجـتماع بعنـاية ، وأرجىء تاريـخ انعقاده إلى ربيـع ١٩٦٠ . وبانتظار ذلـــك ، اجتمع رؤساء الدولة الغربيون في باريس ليتفقوا على برنامج المؤتمر ، في كانون الأول ١٩٥٩ . وذهب آيزنهاور في رحلة كبرى عبر العالم وبخاصة العالم الثالث ، واستقبل بحرارة من احد عشر بلداً ، ولاسيما الهند ، وجعل ينادي في كل مكان برسالته في « السلام والصداقة في استقلال كل بلد » . وفعل مثل ذلك خرتشوف في شباط ١٩٦٠ ، ولكن تهجماته ضد استعمار الغرب كان مربكاً للأمم التي كانت بحاجة للمساعدة الامريكية لتعيش . وقد فهم ذلك ، وأحرز الكثير من النجاح في وعدها « بكل المساعدة الروسية الممكنة » وبخاصة ، على الاقل في حالة اندونيسيا ، في تحويلها في الواقع . ولكن كان من الواضح ، في هذا السباق على الأقل ، أن الولايات المتحدة كانت في الرأس بشكل واسع .

ألم يخش خرتشوف من أن المؤتمر المزمع عقده في باريس في منتصف أيار ١٩٦٠ قد يدور لصالح امريكا ؟ لقد رأى قبل أسبوعين على انعقاد المؤتمر أن يكشف للعالم أن السوفياتيين اسقطوا فوق أرضهم طـــائرة أمريكية U-2 وهي في مهمة تجسس كاملة . ولم تسو الولايات المتحدة الأمور بانكار حقيقة الوقائع ، ووجدت نفسها مضطرة لقبولها بعـــد بضعة أيام .

أما وقد حضر مؤتمر باريس على هذا النحو ، فلم يكن بامكانه الا الا أن يكون اخفاقاً . ولم يذهب ، في الواقع ، إلى أبعد من جلسة الافتتاح ، في ١٦ أيار ١٩٦٠ . وطلب خرتشوف عبثاً اعتذارات من آيزنهاور وغادر باريس . واستؤنفت الحرب الباردة بأقوى مما كانت فيما تبقى من سنة ١٩٦٠ ورئاسة آيزنهاور . ووالى خروتشوف ، مع ذلك ، الإثارات والتصريحات الداعية للسلام ، وبخاصة في دورة الأمم المتحدة المنعقدة في نيويورك ، في خريف ١٩٦٠ ، دون أن يحصل على نتائج أخرى غير تجميع عدد من بلاد العالم الثالث وراءه . وكانت كوبا على رأسها . لقد احيا تقريباً في كل مكان عداء الشيوعيين ضد الولايات المتحدة ، حتى ان حكومة اليابان اعتقدت من واجبها أن تنصح آيزنهاور بأن يتم في طوكيو جولته في الشرق الأقصى ، في صيف ١٩٦٠ . وبعد ثمانية أعوام من الجهود القلقة عادت العلاقات الامريكية — السوفياتية إلى نقطة الموت .

وكان التنافس ،الذي نما على جميع المستويات بين الدولتين الكبريين العالميتين ، يدعو إلى الشك أيضاً .ان تقدم الروس، في ميدان اكتشاف الفضاء والسباق إلى القمر، مازال قائماً ولاشك ، ولكن كان يجب ، منذ كانون الثاني ١٩٥٨، أن يحسب حساباً للتوابع الامريكية، وهي أقل كثافة ، ولكنها ربما كانت افضل اختراعاً . لقد حقق الامريكيون في ١٩٦٠ بغواصتهم الذرية المجهزة بصواريخ « بولاريس » البعيدة المدى سلاحاً دفاعياً بقوة عظيمة قادراً على الايحاء بالتفكير الصحي لكل خصم متوقع . وقد ادرك خروتشوف هذه الاخطار وصرح بأن الاتحاد السوفياتي ليس بحاجة للقيام بحرب ليجعل الولايات المتحدة تحت الرحمة ، وأعلن : ان قوتنا الاقتصادية تزداد بشكل اسرع من قوتكم ؛ وستعمل بسرعة للحاق

بها وتجاوزها ، وختم قوله بضحك البعبع : « سندفنكم من هنـا الى جيلين ، الا اذا اصبحتم اشتراكيين وشيوعيين مثلنا . » وأثار هـذا التحدي غضب الرأي الامريكي ، لاسيما وأن اقتصاد الولايات المتحدة كان ، على مايبدو ، منذ زمن، يتزايد بخطوة ابطأ من خطوة السوفياتيين . ومع ذلك فان مشاوري آيزنهاور رفضوا اتخاذ تدابير جريئة لاطلاق الاعمال من جديد .

ركود القضية السوداء

ويلاحظ نفس الركود في العلاقات بين البيض والزنوج . وجزع هؤلاء ،أي فقدوا صبرهم ، من بطء الدمج المدرسي في ولايات الجنوب . ففي **ليتل روك** ، عـاصمة **الاركانساس** ، حصل بعض التلاميذ الزنوج أخيراً على الحق في تسجيل أسمـائهم في مدرسة ظلت حتى ذلك الحين محجوزة للبيض . وحـاولوا الذهـاب اليها ، فمنعهم جمهور البيض . ولم يتردد آيزنهاور بارسال الجيوش الاتحادية لتحل محل فقدان السلطات المحلية واجبارها على احترام القرارات القضائية . ولايمكن في كثير من هـذه الحالات انتظار الشجاعة من جانب الزنوج ، ولامثل هـذا التدخل من واشنطون . وفي ١٩٦٠ ، ضم مايقارب ربع مدارس الجنوب البيض والزنوج ، وفي الغالب ، كانت نسبة أولاد أحد العرقين بالنسبة للآخر تافهة ، ولذا كان الدمج ، كما قيل هناك ، رمزياً .

و رويداً رويداً لم يعد الزنوج يكتفون ، ورويداً رويداً ، لم يعد البيض في شمال البلاد وجنوبها يريدون الذهاب إلى ماوراء ذلك . وإلى المعركة من أجل المدرسة المندمجة بحق أضيفت معارك أخرى من أجـل حذف الاماكن المحتجزة لاستعمال البيض الخاص في القطارات والناقلات

والباصـات ، والمطاعم ، والمقـاهي ، والحدائق والمنتزهات وشواطىء السباحة والمسابح ، وغيرها . ورفض زنوج مونتغومري ، عاصمة الاباما ، استخدام الباصات حيث لا يستطيعون الجلوس على هواهم وربحوا الدعوى أخيراً في ١٩٥٨ . وشغل الزنوج بحضورهم الموائد المخصصة للبيض ، واستطاعوا بذلك أن يخدموا هنا وهناك ، ولكن هذه النجاحات الضئيلة والضعيفة دوماً لم تكن لتكفيهم . وكان زعماؤهم يطالبون منذ زمن طويل بمساواة في الحقوق شاملة وفعلية مع البيض . وفي ١٩٥٧ اعلن الكونغرس أكثر من مرة حقهم في التصويت . وفي ١٩٦٠ حاول تشريـع أكثر دقة وضبطاً أن يجنب مختلف العقبات التي وضعتها ولايات الجنوب في سبيل ممارسة هـذا الحق بحرية . وكانت القضية ، في السنة نفسها ، ان يضمن للزنوج الوصول الى جميـع الوظـائف على قدم المساواة وبنفس الشروط الموضوعة للبيض . ولكن المعارضة الشديدة من قبـــل الشيوخ الديموقراطيين في الجنوب أوقفت تبني الاحكام الضرورية .

ولاشك في أن « تفوق البيض » الشهير أصبح منذ الآن مهدداً ، ولكنه ، عن وعي أو غير وعي ، ظـل منقوشاً في ذهن قسم عظيم ، وربما أكثرية شعب الولايات المتحدة .

وكان من اللازم ، للقضاء على هذه العقدة ، قيام حركة كبرى في الرأي تشجعها ، ان لم تحرضها ، السلطات الاتحادية . ولم يفكر آيزنهاور باتخاذ هذه المبادهة . وهو لم يتخذ أي مبادرة حاسمة على أي صعيد ، سواء في السياسة الخارجية ، العرقية ، الاقتصادية أو المالية ، وتحمل الحوادث بإرادة طيبة متعاطفة ، ولكنها بالاجمال عقيمة ومخيبة ، وهـذا ما كانت تأخذه المعارضة على الرئيس عند اقتراب انتخاب ١٩٦٠ ، وكثير من الجمهوريين يشاركون كثيراً أو قليلاً ضمناً هذا الشكل من الرؤية . وكان

من اللازم لامريكا المهددة في تفوقها العالمي بروسيا ، وفي وحدتها القومية بصعوباتها العرقية ، وفي ازدهارها ايضاً بروتين اقتصادييها الرسميين ، ادارة شابة اكثر حركة وأكثر حزماً .

انتخابات ١٩٦٠

لقد حاول كل حزب أن يدل على مرشح أهل للاجابة بشكل أفضل على هذا الانتظار . وفي الحقيقة لم يشعر الجمهوريون بارتباك في الاختيار . لقد كان نائب الرئيس ، نيكسون ، مقبولاً ، ان لم يكن مقدماً من قبل آيزنهاور ليكون خلفاً طبيعياً له ، وقد ظهرت قيمته بمهامه الحديثة العهد وجولاته في الخارج ، وحصل بسهولة على تسمية حزبه له . وكان المرشحون الديموقراطيون عديدين . فقد كان ستيفنسون مستعداً ليجرب حظه للمرة الثالثة . واستطاع زعيم الاكثرية الديموقراطية في مجلس الشيوخ، جونسون ، شيخ تكساس ، أن يقوي نفسه بعد أن ضم اليه مختلف قطاعات وشيع حزبه . واضطر كلاهما أن ينحني أمام ، جون ف. كينيدي ، الشيخ الشاب الغني بالملايين ، الحاذق الطموح الممتلىء نشاطاً وحيوية ، ولم يكن عنده الكثير من هذه الصفات التي يعوض بها ، في أعين قسم صالح من الرأي،عيباً يوجب البطلان تقريباً : فقد كان كاثوليكياً وحتى الآن ، لم ينتخب تابع للبابا لرئاسة الولايات المتحدة . وقد قدم واحد مرة وهو الفرد أ . سميث ، ضد هربرت هوفر ،في ١٩٢٨ ، ولكنه ضرب تماماً بالرغم من شعبيته الشخصية . ولزيادة الحظ أشرك كينيدي معه ، كمرشح لنيابة الرئاسة ، منافسه البائس ، جونسون .

كانت الحملة الانتخابية حارةومتنازعة حتى ان برنامج الخصمين كان واحداً تقريباً ، وكان كلاهما يعدان بتنافس كثيراً من القوة في ادارة الشؤون الخارجية ، والتنمية الاقتصادية المؤمنة بشكل أفضل ، والتطبيق اليقظان

لقوانين المساواة العرقية . ولكن بقي أن نعلم أيها أقدر على الوصول الى نتائج جدية ، وبخاصة أيها يقاوم السوفياتيين بشكل أفضل وبحزم وضبط نفس . ومن المستحيل تعداد كل ما يمكن أن يؤثر على انتخاب الناخبين والناخبات . فقد كان لكينيدي تأثير أفضل على التلفزيون . ولاشك في أن ديانته اضرت به لدى اميركا القديمة والقوية والبروتستانتية والانغلو-ساكسونية دوماً ، ولكنها ساعدت ، ولاشك ، على كسب مساندة الاقليات المتروكة جانباً ، اليهود ، والزنوج ، والمهاجرين من عهد حديث. وكان الشباب والأحرار الى جانبه ، على مايبدو ، وقد فاز باكثرية شعبية تافهة ٤٢٢٠٠٠٠٠ صوت تقريباً مقابل ٣٤١٠٠٠٠٠ إلى نيكسون ، ولكنه انتزع ، في الغالب قليلاً ، الولايات الاكثر سكاناً ، وانتخب ، في تشرين الثاني ١٩٦٠ ، بـ ٣٠٣ أصوات مقابل ٢١٠ للمرشح الجمهوري .

كينيدي او الانفراج (١٩٦١ - ١٩٦٣)

« الحدود الجديدة » . — كان الرئيس الجديد افتى رئيس انتخب في الولايات المتحدة حتى الآن . استلم السلطة بارادة تعترف بالتجديد في جميع الميادين ، واحاط نفسه بأركان من المفكرين ، نصفهم أساتذة من جامعة هارفرد اومن غيرها ، وقام بحكم مباشرة من البيت الابيض اكثر مما يحكم بواسطة أعضاء حكومته ، باستثناء أخيه ، روبيرت ، فقد سماه وزيراً للعدل ولم يخف عنه سراً . وقد بعث في ذاكرته الحد الشهير في التاريخ الاميركي ، وهو هذا الخط المدفوع دوماً نحو الغرب الذي كان يسجل الحد الفاصل بين الأراضي المستعمرة والأراضي التي يجب وضعها في حالة انتاج ، والذي كان قد استسلم تحت جهد الرواد . واعطى هدفاً لادارته في ارجاع حد جديد إلى الوراء ، حد البؤس

والجهل ، هذا الحد الذي يجب ان يزول، هو ايضاً ، من الحياة الامريكية . ومن هنا خرج برنامج مساعدة كامل للانشاء والتعليم والأمن الاجتماعي المتزايد ، والاستخدام الكامل المضمون . ولاشك في أن الدولة الاتحادية ستجابه نفقات جديدة ، ولكن دواء هذه الحالة لم يكن في زيادة الضرائب ، كما حاول الجمهوريون ، الذين يهتمون قبل كل شيء بتوازن الموازنة الدقيق ، بل بانقاصها ، لتشجيع الأمة على الاستهلاك وتوظيف اموالهم أكثر . وان زيادة الانتاج الحاصلة على هذا النحو من شأنها أن تقيم بسرعة توازن الموازنة ، بفضل دخول ضرائب اضافية .

وهذا ماحصل فعلاً . فقد انتقلت موازنة الحكومة الاتحادية من فائض ٥ر٦ مليار دولار في الثلاثة أشهر الاولى من عام ١٩٦٠ إلى عجز ٨ مليار في الثلاثة الاشهر الاولى لعام ١٩٦١ ، وهذا قلب فظ للوضع ، ومالبثت المعارضة أن شهرته كخطر مميت ، ولكن التوسع الاقتصادي اندفع به إلى نقطة ازالت فيها فضول القيم الضريبية العجز في الثلاثة اشهر الأولى لعام ١٩٦٢ . لأن السياسة الاقتصادية الجديدة ، التي نصح والتر هللر الرئيس بها نجحت ، وسادت فكرة في الاوساط الحكومية أن من حق الدولة وواجبها التدخل بصورة مستديمة في حياة البلاد الاقتصادية لتنظم بشكل أفضل نمو المصلحة العامة . وبخاصة ، كان يراد ، ما أمكن ، تجنب كل تضخم نقدي بالحفاظ على التوازن بين الأجور والاسعار . ومن هنا قام جهد مزدوج باقناع نقابات العمال من جهة ، والشركات الصناعية الكبرى من جهة أخرى ، لئلا تتطلع هذه او تلك إلى أي رفع دون مشاورة الحكومة على الأقل .

ولاريب في ان الرئيس الديموقراطي ترك رفع الاجور يزداد بسهولة أكثر

من ازدياد التعرفات الصناعية . وفي ١٩٦٢ ، عندما ارادت أكبر الشركات المنتجة للفولاذ أن تغير بعض اسعارها بسلطتها الخاصة ، هددها كينيدي بحرمانها من طلبات الدولة اذا لم ترجع في الحال عن عزمها ، وماكان منها الا ان اعتذرت . اما الزعماء النقابيون ، وبخاصة والتر رويثر ، اكبر محرض لعمال السيارة ، فلم يظهروا دوماً طيعين ، ولكنهم تجنبوا الدخول بخطورة في نزاع مع البيت الأبيض . ولكن الحال لم تكن على مثل ذلك مع رئيس نقابة سائقي سيارات الشحن هوفا ، الذي طردته المراكز العمالية ولاحقه روبيرت كينيدي ، ونجح أخيراً في تنفيذ الاحكام التي تحكم عليه بالسجن . وفي الصعيد الاجتماعي والقضائي كما في الصعيد الاقتصادي والمالي ، كان جون كينيدي يعمل بجاهه الشخصي اكثر من سلطته . وكانت أوساط الأعمال لاتحب تدخلاته المعاكسة لحريتها من حيث المبدأ ، واحياناً لمصالحها المباشرة . ولكن كيف تعارضه والازدهار العام آخذ بالازدياد وهي نفسها تفيد منه ؟

ان كل اصلاح إنساني ينتهي بافادة الجميع . ولقد تناولت ادارة كينيدي مادة الايمان هذه بالعقيدة الامريكية لتطبقها في مختلف الميادين . وكان النضال من اجل الحد الجديد ، في الوقت نفسه ، نضالاً في سبيل الزنوج ، وجميع المواطنين الذين كانوا غير محظوظين اكثر من غيرهم بكثير : الم يكن واردهم المتوسط يعادل تقريباً نصف وارد البيض ؟ ويبدو أن الفارق آخذ بالتزايد لابالتناقص . ولاشك في أنه كان يجب تطبيق قانون الحقوق المدنية لعام ١٩٦٠ في كل مكان ، وحتى في الولايات التي صممت على تجاهله زمناً طويلًا ماامكن ، الاباما والمسيسبي ، مثلًا ، وقد عني بذلك روبيرت كينيدي بخاصة ، فمن وزارة العدلية انطلق

عمال اتحاديون يتقصون الوضع هنا وهناك مزودون بالأوامر الضرورية ليعوضوا عند الحاجة اهمال البلديات ، والكونتيات والولايات . وبقوة الصبر والمتانة والمهارة والحذق ايضا ، اذعنت المقاومات ، أو ، على الأقل، ضعفت ، دونما حاجة ، على العموم ، إلى اللجوء إلى القوة . وكانت هذه القوة مستعدة للتدخل . فقد أرسل الرئيس جيوشا اتحادية الى مقر جامعة المسيسبي ، إلى اوكسفورد ، ليتمكن طالب زنجي متابعة دروس الحقوق برافقه جنديان . وقبلت السابقة وسويت الحالات المشابهة بسهولة أكثر . ففي عام ١٩٦٣ ، مامن ولاية في الاتحاد الا وأمكن أن يرى على الاقل في مدرستين أو ثلاث مدارس أولاد بيض وزنوج مجتمعون. وكانت الأكثرية العظمى من التلاميذ تذهب ومازالت تذهب ايضاً ، حتى في الشمال ، إلى مدارس من لون واحد . لأن الاولياء من البيض والزنوج لايسكنون الأحياء نفسها . وأثار الاكتتاب على اللوائح الانتخابية ايضاً صعوبات أكثر من الدمج المدرسي ، وقلما كان الزنوج يهتمون بذلك، وكان عليهم باعتبارهم لامبالين بتهديدات مناضلي التفوق الأبيض ، ان يمثلوا شخصياً أمام مكاتب مؤلفة من وجهاء المكان باعتبارهم تابعين لهـا في الغـالب بسبب عملهم ، وديونهم ، وحياتهم اليومية . ومن المعلوم في كونتيات الجنوب الريفية أن ثلث وفي الغالب ربع الزنوج فقط ، كانوا ملزمين بأن يكتتبوا ولا يكون لهم في الغالب الاحق التصويت لمرشح وحيد ، ابيض وديموقراطي دونما شك .

غير أن ماكان يلزم ايضاً هو تحسين ظروف الزنوج الاجتماعية . ولقد حـاولت الادارة الجديدة ذلك بأشكال مختلفة ، مشجعة انشاء كونتيات لتنمية العلاقات الودية بين العرقين ، ومقنعة النقابات بالانفتاح على جميع العمال دون تمييز لون الجلد وتأمين نفس الاجور لهم ، ومناضلة

ضد الأكواخ الحقيرة ، التي يسكنها الزنوج في الغالب ، ساعية لأن يقبل هؤلاء ويذهبوا ويسكنوا في الضواحي المتناثرة حيث يقيم الشعب الأبيض تدريجياً . وهكذا أدت القضية العرقية إلى قضية العمران ، ولم تترك هذه الأخيرة بكاملها لمبادهة المتعهدين . وبمنح الاعتمادات والتسهيلات الأخرى أصبح للسلطات العامة بالتدريج كلمتها التي تقولها في هذا المضمار . وهنا ايضاً ، حاولت ادارة كينيدي أن تجد وسطاً عادلاً بين حرية الأفراد التقليدية في الولايات المتحدة ، ولكنها مولدة للمفاسد ، ورقابة الدولة الشديدة الموصوفة بالاشتراكية ان لم تكن الشيوعية .

ورفاه أكثر للاقليات التي مازالت غير محظوظة ، ولكن انفتاح فكري أكثر للجميع : ويكاد يكون هذا الاهتمام الثاني لحكومة كينيدي أقل أهمية من الأول . فلم يكن الاقتصاديون الاجتماعيون والعلماء والمربون وحدهم في مرتبة الشرف بل أيضاً الكتاب ، والشعراء ، والفنانون . وهنا لعبت زوجة الرئيس ، جاكلين ، دوراً شخصياً ، بمجددة تزيين البيت — الأبيض ، ومتذكرة سنواتها وهي طالبة في فرنسا وفي المكسيك ، وهي أكثر عالمية في ذوقها من زوجها . ويجب الا تقتصر معرفة الانسان والطبيعة على نخبة ضيقة . فعلى التعليم العالي الامريكي أن يتوجه للجميع . وعلى الحكومة أن تساعد المدارس والطلاب . وقد أصبح الذهاب إلى الكلية مطمح كثير من الشبان والشابات ، ومن المعلوم أن القصد لم يكن انشاء طبقة مثقفين ، بل أن تنطلق شبيبه الولايات المتحدة لاكتشاف العالم الواسع لتعرف مختلف الحضارات وتأتيها بتعاونها .

ومن هنا اتت فكرة تنظيم فرقة شبان السلام ذوي الارادة الطيبة تحت ادارة زوج اخت الرئيس .

التوترات مع الاتحاد السوفياتي

ظلت العلاقات مع الخارج القضية الاولى . فقد تمت القطيعة الدبلوماسية التامة مع كوبا ، في ٤ كانون الثاني ١٩٦١ ، أي قبل أن يقسم الرئيس اليمين بستة أيام ، وتحملت الولايات المتحدة بصعوبة هذا التابع الصريح للسوفياتيين المقيم على ٩٠ كم من شواطئها ، وقد سبق لحكومة آيزنهاور أن سلحت كثيراً أو قليلاً في فلوريدا وفي غواتيمالا اللاجئين الكوبيين ، المستعدين للانطلاق ، بمساعدة البحرية الامريكية لفتح جزيرتهم ، ارض ميلادهم ، ولم يمنعهم كينيدي من تجريب حظهم بنفسهم ، واكتفت السفن الامريكية بمراقبة سير العمليات ، دون أن تشارك بها. وكان كاسترو على علم بهذه المشاريع . فقد نزلت بضعة الوف من الغزاة في جون الخنازير ، واصطدموا بمقاومة قوية جداً ، وبعد يومين من القتال طرحوا في البحر قتلى أو أسرى . وكانت كوبا والسوفياتيون في ظروف ملائمة للتغني بالنصر والصراخ بالتدخل الأجنبي في نيسان ١٩٦١ . وتحمل كينيدي مسؤولية هذا الاخفاق المحزن لأنه ترك جزئياً الأمور تجري في اعنتها .

وكان من المستحيل نزع كوبا من كاسترو بالقوة دون المخاطرة بحرب عامة . ولذلك لزم استئناف القضية من عل ، واعتبار امريكا اللاتينية بمجموعها . وتوشك هذه الأخت المحرومة أن تحذو حذو كوبا وتصبح فريسة الشيوعية اذا لم تعمل فيها تحويلات عميقة عاجلة ، وقد عرف كينيدي وخبراؤه هذه الضرورة . ولذا اقترحت حكومة الولايات المتحدة، منذ ربيع ١٩٦١ ، على البلاد الأخرى في القارة ، « حلف التقدم ». وكانت واشنطون مستعدة لتقديم العون التقني والمالي الضروري ، ولكن

شريطة أن تسير الاصلاحات الاجتماعية في طريقها ، وقبل كل شيء ، الاصلاح العقاري والاصلاح الضريبي . وكان يأمل بأن تسمعه الطبقة الفكرية والليبرالية ، ولكن هذه الطبقة رفضت دون دراسة وفحص برنامجاً « يانكياً » كاملاً وأرادت أيضاً اوليغارشية « اقلية محتكرة» كبار الملاكين ، التي كانت تقبض على السلطة في معظم الولايات أن تسمع قليلاً الكلام عن تقسيم الاراضي والضرائب وتوزيعها بشكل عادل . واعطت قيمة للخطر الشيوعي لتحصل من الولايات المتحدة على الدولارات التي ترغب بها . وبدا أن واشنطون تدعم على هذا النحو حكومات غير شعبية جـــداً . ولم يأل فيديل كاسترو جهداً في التشهير بهذا الموقف . واقترح على محرومي القارة مثال حكومته الاستبدادية ، ولكن الشريفة ، التي تعمل على تحرير الفلاحين الكوبيين من البؤس والجهل . ولما كان قوياً بمساندة السوفياتيين الاقتصادية، وعند الحاجة العسكرية ، فقد ظل يتحدى عملاق الرأسمالية . ولم يحسّن حلف التقدم وضع امريكا الجنوبية الا قليلاً .

وكان كل شيء يتعلق مباشرة بالعلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . وكان كينيدي يحلم بأن يكون رجـــل السلام العالمي والانفراج العام . وقضية جون الخنازير غير المناسبة ، التي أتت في غير حينها ، لم تحدث لتؤمن له كسب ثقة خروتشوف . والتقى الرجلان في فينّا في ٣ و ٤ حزيران ١٩٦١ ، ولكن لم يتوصل كل منهما إلى اقناع الآخر بسلامة نواياه . وعندئذ حاول السوفياتيون التخويف : من ذلك بناء جدار يقطع برلين إلى قسمين في آب ١٩٦١ ، وتفجير قنبلة حرارية- نووية من ٥٠ ميكاتون ، في آخر شهر تشرين الأول التالي ، واتخاذ موقف حاسم بمناسبة كوبا . ولم يفقد الامريكيون رباطة جأشهم : ان جدار

برلين ، بالنسبة للعالم الشيوعي ، يعتبر اعترافاً بالافلاس والعجز أكثر من القوة . اما ما يتعلق بالقنــابل او الصواريخ فان الولايات المتحدة تتصرف بقوة تهديم افظـع بمرتين او ثلاث مرات من قـوة الروس . وظلت كوبا تحت الرقابة المستديمة لطيران قواعد فلوريدا . وفوق ذلك ، ابدى الاقتصاد السوفياتي علامات الضعف ، وأصبحت المشاكل المتزايدة بين موسكو وبكين عامـة تقريباً في المؤتمر الثـاني والعشرين للحزب الشيوعي في موسكو في تشرين الأول ١٩٦١ . واذا ماشدت الأمم الغربية أواصرها فان الوقت يكون مناسباً لعمل جماعي لجر العالم الشيوعي إلى نزع السلاح والسلام .

وحيا الجنرال دوغول بعطف حام قليلاً وصـول « رفيق شاب » إلى رأس الولايات المتحدة . وتبادل الرئيسان الزيارة بود ، ولكن كل واحد منهما كان يرى بأن يوجـــه الآخر ويتمسك بغيرة باستقلاله . ولم يجب كينيدي نعم أو لا على الطلب الذي عرضه رئيس الجمهورية الفرنسية على آيزنهاور وهو أن يكون شريكاً ، وعلى الأقل بنفس الصفة التي تكون للبريطـاني الأول في سياسة واشنطون . وكان يريد ، قبل كل شيء ، ان يجمع أمم اوربة الحرة تحت ادارة الولايات المتحدة ، والأفضل ، للنجاح في ذلك ، كان في الحفاظ على بعض التوازن فيما بينها . ولم تنف علاقاته الطيبة مع دوغول العلاقات الطيبة أيضاً ، وربما الأسهل، مع المستشار آديناور ، وبخاصة مع الوزير الأول مـاكميلان . وكان هـذا يرغب بأن تدخل بريطانيا العظمى في السوق الاقتصادية الأوربيـة . ورأى كينيدي ان يساعده في ذلك باظهار نفسه موافقاً علناً على هذا المشروع في خطابه في فيلادلفيا ، في ٤ تموز ١٩٦٢ . وهذا التدخل الامريكي ،

في قضية تهم اوربة ، اثار شكوك الجنرال دوغول، وأسهم ، ولاشك، في طرحه لترشيح بريطانيا العظمى ، في كانون الثاني ١٩٦٣ . وبدأت فرنسا بالابتعاد دون أن تشهر بعد بمنظمة معاهدة شمال الاطلسي . وعدلت الولايات المتحدة عن الأمل بأوروبة المتحدة تحت ارادتها ، أو باوروبة المتحدة دونما زيادة .

هل تشجع هذه التنابذات خروتشوف على إثارة الولايات المتحدة ؟ من المحتمل جداً أن خروتشوف أراد أن يظهر حزمه بعد أن انتقدته الصين الشيوعية على لينه حيال الدول الرأسمالية . فقد أعلن ، في تشرين الأول ١٩٦٢ ، لحماية كوبا من كل هجوم أو ضغط امريكيين ، ان الاتحاد السوفياتي اتي اليها بصواريخ تحمل رؤوساً نووية ، وأن هناك صواريخ أخرى تعبر الاطلسي . فرد كينيدي بوضوح وعجل عظيمين على هذا الخطر المميت لأمن بلاده . واعلن أن القوات البحرية والجوية في الولايات المتحدة تلقت الأمر بأن تقاوم بجميع الوسائل وضع الاجهزة السوفياتية في مكانها . وفي يومين أو ثلاثة أيام (٢٤ - ٢٧ تشرين الأول ١٩٦٢) امسك العالم بأنفاسه : لأن الحرب العالمية يمكن أن تنفجر من لحظة إلى اخرى . ووقفت فرنسا وبريطانيا العظمى صراحة إلى جانب امريكا . وفي ٢٧ منه أمر خروتشوف سفنه بأن تدور نصف دورة ووعد بأن ينزع بسرعة العتاد الذي انزل من قبل . وتعهدت الولايات المتحدة ، بالمقابل ، بالا تلجأ إلى القوة ضد كاسترو . وهكذا انقذت الدولتان الكبريان السلام والمظهر ، ولكن معظم الناس كانوا يرون بان الاتحاد السوفياتي هو الذي تراجع

وبلغت شعبية كينيدي ، في الولايات المتحدة ، في العالم الحر ، أوجها ، ومثلها الثقة التي ابديت له .

الانفراج

لقد كانت المخاطرة بنكبة لاسابق لها عظيمة جداً ، حتى ان المحركين الكبيرين خشيا منها وقررا الا يجازفا بمثلها ابداً . وقامت مفاوضات بين الاثنين للوصول إلى «تسوية» . وكان الاتحاد السوفياتي اكثر اندفاعاً ، لاسيا وأن علاقاته مع الصين قد تهدمت كثيراً . وأمريكا ، من جانبها ، ان لم تكن قلقت ، فعلى الأقل ، تأثرت من مزاعم الجنرال دوغول في ان يكون وحده فارساً ، ومن ارادته مها كلف الأمر في تخويل فرنسا قنابل ذرية وقوة ضاربة . وفي ٢٠ حزيران ١٩٦٣ ، اقيم خط هاتفي خاص بين البيت الابيض والكرملن ، رمزاً لارادة الدولتين الكبيرين في التفاوض للحفاظ على السلام . وفي ٥ آب التالي ، وعلى وجه الصحة بعد ان فسخت بكين معاهدة التحالف مع السوفياتيين بخمسة ايام ، وقعت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، في موسكو ، اتفاقاً تعهدا بموجبه على التخلي عن جميع التجارب الجديدة النووية على سطح الارض أو في الجو ، واتفقا على دفع الدول الاخرى إلى ان تحذو حذوهما . وقبلت كلها هذه النصيحة ، باستثناء فرنسا والصين . فقد قررت كل منها الدخول طوعاً أو بالقوة في النادي الذري .

ويبدو ان اتفاق موسكو يسجل نهاية الحرب الباردة ، والقبول الصريح للتعايش بين الرأسمالية والشيوعية ، ودون شك ، بداية تقارب بين خصمي الامس . وتشجع كينيدي بهذا النجاح فاراد أن تكون امريكا اهلاً لدورها كداعية عالمية للسلام . وكيف يمكنها أن تتطلع إلى التبشير

بالتفاهم والمساواة بين جميع الشعوب اذا لم تكن قادرة على أن تعيش في بلدها جميع مواطنيها في عدل واخاء ؟ لقد كان يجب اعطاء دفعة جديدة لتطبيق الحقوق المدنية دونما حيطة ، وبنفس المناسبة ، تأمين التصويت الزنجي في الانتخاب الرئاسي القريب . وهذا مادفعه الى الذهاب والدفاع عن قضية المساواة العرقية والعدالة الاجتماعية في الجنوب كله ، وبخاصة في دالس وهي أعدى جميع مدن تكساس لسياسته . ونعلم ماجرى له في تشرين الثاني ١٩٦٣ . هذا وأن ظروف محاولة الاغتيال والقتل بعد الغد ، والقاتل الظنين ، مازالت غير واضحة . انها جريمة منعزل ، هذا مااستخلصته لجنة التحقيق التي يوجهها رئيس المحكمة العليا ، اورل وودين. ربما . وهذا الزوال الفظ لكينيدي لم يكن ليسوء عدداً من الاشخاص والمصالح المجندة لبقاء التوترات الدولية والعرقية والاجتماعية . ولكنه احزن كل هؤلاء الذين اعطاهم هذا الانسان السعيد الشاب المفعم حيوية ، او أعاد اليهم الأمل والرجاء بعالم اكثر انفتاحاً وعقلاً .

جونسون والخطر الاصفر (١٩٦٣ — ١٩٦٨)

ودون أن يضيع ثانية نائب الرئيس ، ليندون جونسون ، الذي كان يرافق كينيدي في دالس ، اقسم اليمين وأصبح رئيساً في نفس الطائرة التي اقلته إلى واشنطون مع جثمان سلفه وارملته . لقد كان حتى ذلك الحين بعيداً عن القضايا الجدية بعائلة وبطبقة تحتقران فيه انسان الغرب ، غير مثقف ، حديث الغنى ، جاهلاً العالم كله ماعدا تكساس ودهاليز الكابيتول . ولقد اعادت درامة دالس اليه فجأة طموح حياته . وما من أحد يفكر جدياً بانه استطاع ان يثيرها ، ولا ان يتنبأ بها ،

كما تشير إلى ذلك مسرحية سيئة تقلد « ماكبث » واسمها « ماكبرد » ومثلت في نيويورك في ١٩٦٦ ، ولكنه كان ولاشك أول مستفيد منها .

« المجتمع العظيم »

كان أمام جونسون أقل من عام قبل الانتخاب الرئاسي القريب ، في تشرين الثاني ١٩٦٤ ، الذي سيربحه أو يخسره حسب براعته الخاصة . وكان يجب العمل بسرعة ، ومع ذلك مداراة الانتقال الذي لابدمنه .

وانصرف أعضاء جهاز كينيدي الواحد بعد الآخر ، ماعدا أمين الدولة رسك ، ووزير الدفاع ، ماك نامارا اللذين كانا يؤمنان استمرار السياسة أمام الخارج . وكان العاجل كسب ثقة الناخبين . وحل اسم المجتمع العظيم الاكثر وعداً وابهاماً محل اسم « الحد الجديد » . وكان المحتوى نفسه تقريباً ، ولكن حيث كان كينيدي لامبالياً بحساسيات الكونغرس ، واصطدم بمعارضته ولم يستطع أن يفي بوعوده، حصل جونسون ، الرجل المحنك في العاصمة وضواحيها ، في وقت ما على كل ماكان يطلبه تقريباً : متابعة السياسة الاقتصادية ، بالبداهة ، وتخفيضات جديدة للضرائب لدفع التوسع ، وستبورها ، كما هو الأمر منذ قليل ، فضول قيمة ضريبية ، بل وأيضاً اعتمادات متزايدة لتشجيع تقدم العمران ، والسكن ، والتعليم، وبخاصة التصويت على القانون « ميديكار » الذي وضعه كينيدي ويؤمن الاسعاف الطبي المجاني لجميع المواطنين الذي يبلغ عمرهم الخامسة والستين عاماً أو أكثر » وهذا الاجراء ثوري ومتعاطف مع الشيوعية في أعين امريكا الليبرالية والرأسمالية ، ولكن المنتفعين به وأولادهم ، اكثرية الأمة ، استقبلوه بطيب خاطر . وفي صيف ١٩٦٤ ، تبني قانون آخر يحاول أن يحدق أو أن يتغلب على العقبات الأخيرة التي وضعتها ولايات الجنوب التي قاومت الاعتراف الفعلي بمساواة الزنوج والبيض .

وفي الخارج ، كان خروتشوف في الظاهر منهمكاً بمشاكله الخاصة مع بكين ، وفي داخل الاتحاد السوفياتي ، بل والكرملن نفسه ، ولم يتابع مع الولايات المتحدة تعايشاً طائشاً تشوبه نوبة مزاج . وكان دوغول ينتظر بجزع متزايد اصلاح منظمة حلف شمال الاطلسي أكثر من زيارة جونسون لباريس ، دون أن يتنازل ويوضح رغباته في هذا الموضوع . وكانت الحالة حرجة في فيت - نام ، حيث أخذ الامريكيون تحت حمايتهم حكومة سايغون منذ ابرام اتفاقيات جونيف ، في ٢١ تموز ١٩٥٤ ، ومغادرة الفرنسيين . وقد خولت ادارة آيزنهاور ثم ادارة كينيدي مساعدتها المعنوية والمادية إلى الرجل القوي في فيت - نام الجنوبية وهو الرئيس نغو دينه ديم ، ومنذ ١٩٥٦ ، جاء معلمون امريكيون بصفة طوعية اولاً لافادة جيوش فيت - نام الجنوبية بمعارفهم التقنية . ولكن عددهم المتزايد سمح للمحرضين القوميين بالتشهير بتدخل جديد ربما يكون في الغد احتلالاً أجنبياً ومن هنا قامت محاولات انقلابات عسكرية ، في ١١ تشرين الثاني ١٩٦٠ وفي ٢٧ شباط ١٩٦٢ ، واخفقت ، ولكنها فتحت أنظار ادارة كينيدى على شعبية ديم الآفلة . ثم ان تظلمات ومظاهرات البوذيين ضد حكومة متهمة بتشجيع الاقلية الكاثوليكية ، حركت ايضاً البيت الأبيض الذي كان يخشى فوق كل شيء أن يتهم « بالبابية » أي التبعية للبابا . وباختصار اخذت واشنطون تتنكر لديم ، وترك لنفسه ، فأفاد أعداؤه من ذلك وقلبوه وقتلوه بالانقلاب العسكري الذي تم في الأول من تشرين الثاني ١٩٦٣ ، وكذلك أخوه وشريكه . وهكذا كانت حالة الارث الدقيق الذي ترك لجونسون بعد ثلاثة أسابيع على مقتل دالس . وقد أرجأ الرئيس الجديد إلى الآجل البعيد دراسة القضية دراسة عميقة ، واقتصر على متابعة سياسة العون المالي والعسكري لحكومة سايغون وتعزيزها .

انتخاب ١٩٦٤

كان الاسامي كسب الانتخاب الرئاسي . غير أن سياسة جونسون الاجتماعية والعرقية اغضبت المعارضة المحافظة ، القوية بخاصة في الحزب الجمهوري . حتى ان مختلف التجمعات المسلكية المناوئة للشيوعية ، ومن بينها شركة جون بورتش التي كان يمولها اغنياء البترول والراديو الجدد ، جذبت التجمعات التي كانت تعتقد بأنها مهددة بسياسة الحكومة التدخلية في الحياة الاقتصادية والمناصرة للدمج ، « الفقراء البيض » ، في احياء عمال الشمال وارياف الجنوب ، صغار أرباب العمل والتجار ، وباختصار الكتلة « البوجادية[1] » . وكان الجمهوريون المحافظون يريدون الحصول على أصواتها دون أن يكونوا مرتبطين بها . وفرضوا تقريباً ، تحت التهديد بالانقسام ، مرشحاً من اختيارهم في مؤتمرهم الحزبي ، شيخ آريزونا ، باري غولدووتر . وانطلق هذا في حملة مسعورة ضد كل من عمل منذ فرانكلن روزفلت على صعيد تـدخلات الدولة الاتحادية ، والأمن الاجتماعي ، والحقوق المدنية ، والنشاط النقابي ، والانفراج الدولي ، مهاجماً بنفس الحرارة الاجراءات التي قبلها الجميع وجرى النقاش عليها . واستطاع على هذا النحو أن ينجح جونسون بـ ١٦ مليون صوت اكثرية عليه ، وبنسبة ٦١٫١٪ من الأصوات ، متجاوزاً بذلك الأرقـام القياسية التي بلغها فرانكلن روزفلت في ١٩٣٦ ! وبدا جونسون في وضع يمكنه من اتمام برنامجه .

وبعد قليل على هذا الانتخاب المنتصر ، لاقى ليندون جونسون كثيراً من الصعوبات ، في جميع الميادين تقريباً ، وأفلت شعبيته بسرعة

(١) بالنسبة الى بوجاد الفرنسي ، وهو من صغار الكسبة .

جدا . ولذا ثبت نظره على الاحصاءات الشبه الرسمية التي تزعم متابعة تقلبات الرأي العام الامريكي في كل القضايا الجارية . وكانت قراراته في قسم عظيم منها تتعين حسب ارتفاع شعبيته وانخفاضها .

لقد اراد ليندون جونسون ان يبقى بطل « المجتمع العظيم » مقدماً لجميع الامريكيين ، وفي يوم آت ، إلى جميع الناس ، الرفاه والسعادة . وقد حوفظ على النفقات الاجتماعية بل وزيدت . وزاد الأمن الاجتماعي بنسبة ٧٪ بالغ معاشاته التقاعدية التي أصبحت تدفع عملياً منذ الآن فصاعداً إلى جميع سكان الولايات المتحدة الذين يزيد عمرهم على ٦٥ عاماً للرجال و٦٢ عاما للنساء . وقد أفاد هؤلاء ، كما رأينا ، من الاسعاف الطبي المجاني ، ومقابل تكليف زهيد دفعت لهم أيضا نفقات العمليات الجراحية . وظلت الدولة تساعد ، بصورة مباشرة وغير مباشرة ، الدراسة العليا للطلاب من ذوي الموارد المتواضعة ، وانشاء المساكن الرخيصة ، وتجديد المدن وتجميلها . وهذه السياسة المتعاطفة مع الاشتراكية ، التي لاتجرأ أن تقول اسمها ، كلفت غالياً ، ولكنها سيرت صناعة البناء . « و عندما يمشي البناء ، يمشي كل شيء » . وساعد أيضاً تخفيض نسبة الضرائب ، الذي طبق حديثا ، بموجب قانون الواردات لعام ١٩٦٤ ، على تنشيط التوسع وبالتالي على تضخيم الدخول الضريبية .

هل من الممكن البقاء على مثل هذه الحال زمنا طويلا ؟ منذ منتصف ١٩٦٥ ، أبـــدت الحالة الاقتصادية والمالية في الولايات المتحدة نقاطا ضعيفة وهي : ارتفاع في الاسعار ، تهديد بالتضخم النقـدي ، بطء في الاعمال ، اختلال توازن متزايد لا في ميزان المدفوعات فحسب ، بـل أيضا في الميزانية البسيطة ، وبالتالي نقص في مال الخزينة الذهبي ، وتساؤل فرنسا عن القيمة الحقيقية للدولار ، دولار مبالغ في قيمته يســاعـــد

الامريكيين في الحصول بسعر رخيص على مشاريع في الخارج . وكانت هـذه القضايا منذ قليل تنفر الذين لا يعلمون بظهرها التقني ، ولكن اهميتها النفسية والسياسية فرضت نفسها منذ الآن على الانتباه العام ، وفي فرنسا بخاصة . واراد العملاق الاميركي ، مثل قصة ميكرو ميغا فوليتر ، أن يصيخ بسمعه إلى هذا الكلام الدقيق ويعترف له احياناً بسبب ظاهر ، ولكن عزّ عليه أن يأخذ مأخذ الجد عجزاً سنوياً بـ ٣ مليارات دولار في مادة المدفوعات ، على حين أن انتاجه القومي الخام كان في حدود ٦٠٠ مليار دولار في العام ، ولم يتوصل إلى أن يفهم كيف أن المطر من الاوراق النقدية الخضراء ، الذي مازال بعد مطلوباً بتواضع على الركب ، يظهر منذ الآن خطراً ، ان لم يكن مجرماً ، هنا وهناك . وان احتجاجات بعضهم واهجاءات الآخرين لاتستطيع شيئاً ضد ثقته الثابتة بأن العالم الامريكي ، مع كل نقائصه ، مازال على الاقل ، لهذا الحين ، أفضل العوالم الممكنة .

الزبدة او المدافع

لقد بلغت قوة الولايات المتحدة درجة أصبحت معها مختلف نواحي الضعف فيها ، على خطورتها المتفاوتة ، لاتخاطر بزعزعتها ، ولكن المعارضة أفادت من ذلك لتنتقد الحكومة . وكانت الادارة تعلن ، في مطلع عام ١٩٦٦ ، أن الولايات المتحدة تستطيع «أن تقدم لنفسها زبدة ومدافع» وأن تجابه الحرب في فيت - نام دون التخلي عن تنمية « المجتمع العظيم » . وهل تستطيع امريكا أن تحمل هذا العب المزدوج دونما حدود ؟ ان آراء الخبراء موزعة . ان بعض الرجال السياسيين ، ومن بينهم الشيخ روبرت كينيدي ، في حملته الانتخابية الصغيرة التي انتهت بقتله في لوس آنجلس ،

في ٥ حزيران ١٩٦٨ ، يصرحون بوضوح أن من الافضل ان تخصص ، لتحسين مصير الزنوج والمحرومين الآخرين في الولايات المتحدة ، المبالـــغ الضخمة — أكثر من مليارين دولار في الشهر — التي تبتلعها فيت ـ نام ، ولكنهم ، مع ذلك ، يصوتون على اعتمادات الحرب .

ان « المجتمع العظيم » لايفترض نفقات كبرى فحسب بل أيضاً الدمج العرقي . ولقد تابع جونسون جهده على تطبيق القوانين العديدة في الحقوق المدنية . واصطدم بمقاومة انصار العزل العنيدة في الجنوب العجوز ، المتجمعين كثيراً أو قليلاً حول حاكم آلاباما ، والس . وإذا لم يستطع هذا أن يكون منتخباً من جديد ، في تشرين الثاني ١٩٦٦ ، فلا أهمية لذلك . فقد انتخبت زوجته مكانه وتركت له ادارة الاعمال . وكان دالس ، في ١٩٦٨ ، مرشحاً للرئاسة من جميع البيض المستائين والقلقين من تقدم وتهديدات الزنوج ، وعلى هذا النحو انتزع في الجنوب بل وايضاً في الاحياء العمالية في المدن الكبرى ، الوف ، بل ملايين الأصوات من الحزبين الكبيرين .

ووجد أن بعض الزنوج ، المتحمسين بنجاحهم والتواقين إلى التغلب على آخر مقاومات البيض ، قد انتقلوا من الحزم إلى الاثارة ، وأن معظم زعمائهم ، والدكتور مارتن لوثر كينغ على رأسهم ، الحائز على جائزة نوبل للسلام عام ١٩٦٤ ، ظلوا يشجبون كل عمل عنيف للحصول على حقوقهم ، ويأملون الوصول إلى مشاركة أخوية مع البيض . وآخرون على العكس ، الشاب ستوكلي كارميكائيل ، مثلاً ، ماركسيون بصورة مفتوحة كثيراً أو قليلاً ، يتكلمون باستخدام جميع الوسائط ، ومن ضمنها الحرب الأهلية ، ليقيموا في كل مكان يكون فيه للزنوج اكثرية ، في

واشنطون للبدء ، « سلطة زنجية » ترد البيض إلى حظيرة العقل : هذا هو برنامج رابطة « المسلمين الزنوج » المتطرفة والقوية بشكل كاف في حي هارلم .

وكانت هذه التطرفات ، في ذلك الحين ، من عمل اقلية ، ولكنها أثارت خوف واستياء الكثيرين من البيض الذين اساءوا الاذعان لوجود عمال زنوج في مدارس اطفالهم ، وسكان زنوج في شوارعهم . وكانت المشادات العرقية تنفجر كل صيف في الاحياء الفقيرة ، الغيتو ، في المدن الكبرى ، في لوس انجلس ، مثلاً ، في ١٩٦٦ ، وفي نيوارك ، وفي ديترويت في ١٩٦٧ . وربما كان البؤس ، أكثر من اختلاف الجلد ، سبباً في الغالب . وكان كارميكائيل واترابه يريدون أن يحولوها إلى « حرب عصابات مدنية » منظمة . ومهما يكن زعماء الزنوج من سن معين واعين لرد الفعل الابيض المثار ، حتى في الاوساط الليبرالية ، عن طريق الحرائق والنهب والاغتيالات ، فيبدو أنهم غير قادرين على تعديل المظاهرات . كما يظهر ان مقتل بطل اللاعنف ، الدكتور مارتن لوثر كينغ ، في ممفيس ، في ٤ نيسان ١٩٦٨ ، أعطى سبباً للمتطرفين ، وأثار ردود فعل زنجية عنيفة جداً في معظم المدن الكبرى . ولزم تدخل الجيش لتوطيد النظام في واشنطون بعد اسبوع من الدمار والحرائق وأعمال النهب .

الحرب في فيت — نام

ولكن السياسة الخارجية للولايات المتحدة احدثت قلقاً خطيراً للرئيس جونسون وللعالم كله . ان التدخل الامريكي القوي والمحكم في سان دومينغ خنق بسرعة دفعاً « كاستريا » جديداً في الآنتيل في ربيع - صيف ١٩٦٥ .

وان المساعدة الفنية ، ثم التدخل العسكري للولايات المتحدة لصالح

فيت ـ نام الجنوبية الواقعة في خصام مع التمرد الفيت ـ كونغ قد تحولتا إلى حرب منظمة ، وان لم تعلن ، بين فيت ـ نام الشمالية وامريكا . وقد اعلنت الولايات المتحدة ، وكان لها في عام ١٩٦٨ في هذه الحرب ٥٠٠٠٠٠ رجل ، أنها تريد حماية فيت ـ نام الجنوبية ، بناء على طلبها ، ضد التهديم الشيوعي بالعنف . وإذا تفوق ذلك ، فان جنوب شرقي آسيا كله ، ومن ضمنه اندونيسيا من جهة وربما الهند من جهة أخرى ، يسقط تحت اشراف صين بكين التي أصبحت منذ الآن مجهزة بالاسلحة الذرية القوية . وتجاه هذا الخطر الأصفر الجديد ، يرى أن الولايات المتحدة عندها انطباع في الدفاع عن العالم الغربي بكامله ، وروسيا من ضمنه ، وهذه الأخيرة في خلاف ملحوظ جداً مع بكين ، سواء في التفسير الصالح للماركسية ـ اللينينية ، وموقف العالم الشيوعي أمام الدول الرأسمالية وحتى في الحدود المشتركة بين الدولتين . وبعد زوال خروتشوف السياسي ، في تشرين الأول ١٩٦٤ ، وقبله ، حاول الاتحاد السوفياتي بالاجمال ابرام « تسوية » مع الولايات المتحدة . ونمت العلاقات العلمية والثقافية والسياسية وحتى التجارية بين العملاقين . وكان من الممكن أن يفسح التنافس في فتح الفضاء مجالاً لتعاون إذا انفرجت الحالة السياسية ، ولكن احتلال تشيكوسلوفاكيا القريب من قبل الجيوش الروسية ، في آب ١٩٦٨ ، أحدث أثراً معاكساً ، وتحت طائلة فقدان الظواهر أمام العالم الشيوعي كان على الاتحاد السوفياتي أن يدعم فيت ـ نام . وهو يفعل ذلك ، على مايظهر ، اكثر من الصين ، التي يبدو أنها تنمي هناك حالة حرجة وخطرة قادرة على اضعاف البلدين القادرين أكثر من غيرهما على احتواء طموحها وابقائها منفصلين .

ان الفيت ـ نام المنقسمة إلى اثنين ، المنهكة بعشرات السنين غير

المنقطعة تقريباً من الحرب الأهلية والخارجية ، والبائسة ، هي ضحية ومركز لسياسة عالمية غامضة على أصحابها أنفسهم . وان أوربة الغربية تشهد هذه الدراما خرساء وعاجزة . إلا أن فرنسا الجنرال دوغول وحدها وقفت بوضوح ضد الامريكيين في فيت – نام . وفي ١٩٦٦ ، خرجت من المنظمة العسكرية لحلف الاطلسي واعطت للولايات المتحدة اثني عشر شهراً للجلاء عن قواعدها في فرنسا ، وهذا ماقامت به في ١٩٦٧ . وحاولت انكلترا ، عبثاً ، تشجيع حل الخلاف الفيتنامي . وقلقت المانيا الغربية اذ رأت حاميتها الكبرى تثبت اكثر فاكثر انتباهها على جنوب شرقي آسيا على حساب أمنها الخاص . ولقد ساء قسماً طيباً من من الرأي العام الاوربي وأقلية أمريكية لايمكن اهمالها ، أن أقوى بلاد العالم يستخدم الوسائط الاكثر فاكثر عنفاً ليمنع شعباً صغيراً من سلوك السياسة التي ترضيه . كما ان المحادثات ، التي افتتحت ، في أيار ١٩٦٨ ، في باريس ، بمبادهة الرئيس جونسون ، بين الامريكيين وفيتنامي الشمال ، للبحث عن شروط وقف النار ووقف ضرب فيت – نام الشمالية بالقنابل في الأول من تشرين ، ربما تكون مقدمة بعيدة للسلام .

وجاءت ازمة الشرق الأوسط الحديثة العهد ، في حزيران ١٩٦٧ ، تعقد الحالة السياسية في الولايات المتحدة . فقـــد وقف الرأي العام الامريكي بمجموعه إلى جانب اسرائيل . واربكه هجومها الصاعق والمنتصر واشنطون المهتمة بتجنب نزاع مباشر مع موسكو والحفاظ على حصتها من البترول في الشرق الأوسط . وجنب السوء لقاء كوسيغين – جونسون ، في غلاسبورو ، باظهاره مرة أخرى أن الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة متفقان على الا تخاطرا بحرب عالمية ، ولكن يبقى ، هنا ايضاً ، ايجاد حل يقبله المعسكران المعنيان .

هذه هي بعض القضايا التي خامرت أيام وليالي الرئيس جونسون ومستشاريه . ان الولايات المتحدة لاتستطيع أن تتخلى عن مشروعها في آسيا دون أن تفقد الكثير من جاهها وسلطتها . ولاتستطيع أن تتابعه دون أن تخضع وجودها اليومي إلى متطلبات حرب مكلفة بالارواح والعتاد . وقد عدل جونسون ، في ٣١ آذار ، عن تمثيل نفسه في تصويت ابناء وطنه في تشرين الثاني . وختم انتخاب ريتشارد نيكسون عندئذ ثمانية سنوات من الحكم الديموقراطي فماذا يعطي قدوم الجمهوريين إلى السلطة وليس لهم اكثرية في مجلس الممثلين أو في مجلس الشيوخ ؟

امريكا الحالية

قوتها . — كانت امريكا المنتصرة عام ١٩٤٥ تأمل بأن تمنح العالم السلام والسعادة ، في نفس الوقت الذي تؤمن فيه امتداد ازدهارها إلى جميع مواطنيها . وكان الجمهوريون والديموقراطيون على اتفاق ، مع بعض الفروق البسيطة ، على هذا البرنامج . وكان هؤلاء أكثر عزماً ، واولئك أكثر حذراً . ولقد نجحوا في ابقاء أمتهم في الصف الأول في العالم في البحوث العلمية والتقنيات الجديدة والانتاج الاقتصادي والقوة العسكرية ، وأكثر من ذلك أيضاً ، في مستوى الحياة الذي بلغته تسعة أعشار الشعب . وان الأزمة ، وهي نسخة عن أزمة ١٩٢٩ — ١٩٣٣ ، التي ينتظرها العالم الشيوعي بفارغ الصبر ، لم تحدث بعد : ففي كل اربعة ، خمسة اعوام ، مع بعض البطء ، يبدو أن تخفيض الضرائب يمكن منذ الآن أن أن يقي أو يحذف دون أن يتم التوازن النهائي للحسابات . وان التقدم السريع بافراط في التقنيات الالكترونية وغيرها ، خلال هذه السنوات الأخيرة ، ساعد الولايات المتحدة على أن تتجاوز بمسافات ، في هذه النقطة ،

منافسيها الرأسماليين أو الشيوعيين ، وانها بحق ، في الوقت الحاضر ، الدولة الكبرى الوحيدة في العالم .

وهذا الازدهار الخارق يمتد إلى الأمة كلها تقريباً . ولاشك في أن المورد الوسطي للزنوج ظل تقريباً نصف مورد البيض . ولكن زيادته على الاقل محسوسة وأكثر من ذلك أن تحولات حالة الملونين المعنوية تحت تأثير التشريع الذي يضمن لهـم من أفضل إلى أفضل المساواة المدرسية والسياسية والمسلكية والتسجيل الرسمي لتطور بطيء الرأي العام بمجموعه . ولم تخل الصعوبات : البطء ، المقاومة ، الاغتيالات من جهة ؛ وفقدان الصبر والاثارات من جهة أخرى . وبالمقابل حدثت توقيفات وصدامات هنا وهناك . وانتهى الناس من ذوي الارادة الطيبة في كل معسكر بالتغلب على اقلية من المتعصبين وبسرعة كلما تراجعت البطالة والبؤس ، أبو الكثير من الخلافات العرقية وأمها .

ضعفها . — ومع ذلك فان امريكا هذه القوية القادرة ، وفي الوقت نفسه الواعية لنواقصها والمهتمة بتلافيها ، لم تنجح ، من ١٩٤٥ إلى أيامنا ، في أن تجعل علاقتها منسجمة مع باقي العالم. ولكنها لم تمنع عنه النصائح والمساعدات . فقد ساعد مشروع مارشل اوربه الغربية على الوقوف على قدميها . وكثير من بلاد آسيا وافريقية وأمريكا اللاتينية اعتمدت للأسف على اعتمادات الولايات المتحدة للتحسين ببساطة أكثر منها لتحويل اقتصادها. وتنظر ايضاً شطر موسكو ، وحتى بكين . ولقد كانت الشيوعية وظلت أيضاً ، بالنسبة للكثير من الامريكيين ، عدوا ، والشر الذي يجب احتوائه ودحره والقضاء عليه اذا امكن . وان المعارضة المناضلة لروسيا في سنوات الخمسين لتبدو مبررة قليلاً اليوم ، لأن الولايات المتحدة زادت تقدمهـا التقني والاقتصادي . وحان الوقت الآن للانفراج بين الولايات المتحدة

والاتحاد السوفياتي ، ولكن الانغماس الامريكي في حرب فيت ـ نام من جهة ، والاحتلال الروسي لتشيكوسلوفياكيا ، من جهة أخرى ، بقيا يتعارضان أيضاً للحظة التي عهد فيها بالسلطة إلى الجمهوري ريتشارد نيكسون . وهذه الحالة الغامضة تشهر بالقوة والضعف الأساسيين في الولايات المتحدة اليوم .

إنها قوة طبيعية ، بالبداهة ، وقوة تقنية لا يمكن ادراكها تقريبا ، وقوة معنوية أيضاً لشعب مازال فتياً شاباً ، واثقاً بمصيره ، ونجح له كل شيء حتى الآن . ومن هذه النجاحات غير المنقطعة ينشأ ضعفه الكبير في فهم الآخرين ، وقبول أن الآخرين يختلفون عنه ويحرصون على اختلافهم كما يحرصون على كرامتهم. إن امريكا تريد باخلاص سعادة الجنس البشري ، ولكن تحت اشرافها وعلى شاكلتها . ولذا فان باقي العالم يتهمها بالامبريالية ويشعر بهداياها تقريباً كما يشعر بضرباتها. وهذا السوء التفاهم المحزن ربما كاد كينيدي أن يوضحه ...فهل لدى النور وقت ليأتي من هذه « الفيض الروحي » الذي طلبه من قبل برغسون ، وبالرغم من الظواهر ، يشع نوراً في كل مكان تقريباً بين سكان كوكبنا القلق؟ ان الشبيبة الاميركية، وهي أقل اطمئناناً عن نفسها ممن هي أكبر منها سناً ، وأكثر اتجاهاً نحو تنوع العالم ووحدته ، لتسمح بالأمل .

الفصل العاشر

امريكا اللاتينية

تغطي امريكا اللاتينية ٩ر١٥٪ من الاراضي البارزة على سطح الكرة الأرضية (٢١١٧٣٠٠٠ كم٢) ، وتنقسم إلى ٢٠ جمهورية مستقلة يسكنها ٢٥٠ مليون نسمة ، حسب احصاءات ١٩٦٨ .

وهذه البلاد ، التي اكتشفها ثم فتحها ، بين ١٤٩٢ و١٥٥٠ ، الملاحون والجنود الايبيريون ، والتي أعلنت طوراً وطوراً استقلالها ، بين ١٨١٠ و ١٨٢٦ ، ظلت مطبوعة جداً بالتأثيرات الاسبانية والبرتغالية . ويتضح عمق هذا التأصل بهسبنة (جعل البلاد اسبانية) الأعراق الهندية بفضل الاختلاط الذي سمح به بل وشجع منذ العصر الاستعماري ، وبالاهمية العددية للهجرة الاسبانية قبل اعلان الاستقلال وبعده . ولقد تغير استيطان البلاد المعتدلة في امريكا الجنوبية (ارجنتين، شيلي ، اورغواي ، برزيل الجنوبية) مع ذلك ، في آخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، بتيار هام من الهجرة البيضاء غير الايبيرية (ايطالية وجرمانية بصورة أساسية) . ويتألف الشعب اللاتيني — الامريكي حالياً من ١٠٩ مليون أبيض ، ٣٠ مليون هندي ، ٦٤ مليون خلامي أيبيري — هندي ٤٦ مليون زنجي وهجين و ١,٠ مليون آسيوي من أصل صيني وياباني .

وفيها ١٨ جمهورية على ٢٠ ، تضم ١٥٧ مليون ونصف المليون شخص ، لغتهم الرسمية الاسبانية ؛ والبرزيل بـ ٥ر٨٦ مليون نسمة تتكلم البرتغالية ؛

والفرنسية هي اللغة الرسمية في هايتي ونفوسها ٤٫٨٠٠٫٠٠٠ نسمة . وقد دام فيها حكم الرئيس ايلي ليسكو من ١٩٤١ - ١٩٤٦ ، وكان خلفه د. استيمه ، ولكن اصلاحاته الاجتماعية حرضت الطبقات المالكة ، وقلبه الجيش في عام ١٩٥٠ . وانتخب الكولونيل ماغلوار ، رئيساً للجمهورية ، واضطر أن ينمحي في كانون الأول ١٩٥٦ . وبعد أن شغر كرسي الرئاسة خلال فترة مضطربة انتخب الدكتور فرانسو دوفاليه في عام ١٩٥٧ ، ثم اعيد انتخابه عام ١٩٦٣ ، بيد أنه فرض على البلاد نظاماً استبدادياً اجتماعياً قامعاً جعلت فيه السلطة لرب العمل فيما يتعلق بانشاء وتسيير الأعمال الاجتماعية للمشروع .

غير أن ١٢ إلى ١٥ مليون هندي مازالوا يتكلمون فقط أو بصورة أساسية لهجات هندية أصلية متنوعة جداً في امريكا اللاتينية حيث يوجد ١٣٣ لغة أصلية هندية و٣٠٠٠ لهجة .

والمراكز الأساسية للثقافة الهندية توجد في المكسيك بلهجات هندية أصلية ؛ وفي غواتيالا لغات جماعة مايا كيشيه وفي جمهورية ايكوادور (ايكواتور) وفي بيرو وبوليفيا لغات ايارا وكيشوا . وفي باراغواي ، اللهجة غواراني .

ويلاحظ في معظم البلاد تصنيع وتجديد سريعان في المراكز المدنية الكبرى ، بينما المناطق الريفية مازالت تحتفظ بملامح الماضي الموروثة . كما أن تشتت الرأي ، وهو رأي ضعيف البنية ، ولامبالاته يشجعان عمل الاقليات الموجهة والعنف والانقلابات العسكرية .

ومع ذلك بدأت بعض التيارات العقائدية بممارسة تأثيرها على على شعوب امريكا اللاتينية . وأهمها التيار القومي الذي تولد بتأثير العوامل الاقتصادية .

وفي هذه البلاد الضعيفة التوفير ، تمت المشاريع الصناعية والمنجمية الكبرى ، في الواقع ، بفضل توظيف رؤوس الاموال الخارجية وبخاصة الامريكية الشمالية . ويتهم الايبيريون ـ الامريكيون الشركات الاجنبية في تدمير بنية اقتصادهم وتحقيق الأرباح الفاحشة على حسابهم . ففي الأرجنتين أخذت القومية شكل حركة استبدادية : البيرونية ، بالنسبة للرئيس بيرون . وفي البلاد الأخرى : فينيزويلا وبيرو ... توجد أحزاب قومية ديموقراطية – متأثرة بالثورة المكسيكية – تفضل الاصلاحات التدريجية . وفي كوبا ارتبطت « حركة ٢٦ تموز » الكاسترية في بداياتها ، بالنزعة السابقة ، ولكنها تطورت نحو الماركسية ـ اللينينية .

امريكا اللاتينية غداة الحرب العالمية الثانية

تؤلف الحرب العالمية الثانية ومابعد الحرب دوري انفراج في العلاقات بين امريكا اللاتينية والولايات المتحدة . وقد فهم الرئيس روزفلت ، منذ ١٩٣٦ ، في مؤتمر بوينوس آيريس ، أن التهديد ، الذي تمثله الدول الجمعية في اوربه وآسيا ، يضطر حكومة واشنطون إلى التقرب من امريكا اللاتينية وتخويلها ترضيات بغية معاكسة البرنامج الجرماني ـ الايطالي . وازداد هذا الاتجاه بعد الهجوم الياباني على بيرل هاربر ودخول الولايات المتحدة الحرب في كانون الأول ١٩٤١ . وقد أغلق احتلال القوات اليابانية لجنوب شرقي آسيا ، في وجه الامريكيين ، باب الوصول إلى مناجم ماليزيا (الملايو) واضطرهم أن يطلبوا من امريكا اللاتينية المواد الأولية الضرورية لاقتصادهم الحربي .

واحتلت الولايات المتحدة مكان أوربه الغربية التي دمرتها الحرب ،

وأصبحت ، بالنسبة لامريكا اللاتينية ، المجهز الأول للمواد الصناعية والمشتري الأول للمنتجات الاولية . ومن جهة أخرى زادت تثميراتها ، وبخاصة في البرازيل (مستغلات الكاوشوك)وفي بوليفيا (مناجم القصدير)

وفي مناخ هذا الازدهار ، تقربت امريكا اللاتينية من واشنطون واعلنت المكسيك والبرازيل الحرب على الدول الجمعية في ١٩٤٢ .

وحذت هـذا المثل كولومبيا وجمهوريات امريكا الوسطى ، ومعظم البلاد الامريكية الجنوبية وأخيراً الأرجنتين ، في أيار ١٩٤٥ .

وعززت عند ئذ السياسة بين الدول الأمريكية . وفي مؤتمر بوينوس آيرس (١٩٣٦) ومؤتمر ليما (١٩٣٨) ، وضعت حكومات نصف الكرة الغربي نظام المشاورة في الحالة التي يتهدد فيها السلام . وفي شباط ١٩٤٥ ، صرح مؤتمر مكسيكو بأن كل هجوم على بلد من بلاد نصف الكرة يعتبر عدواناً موجهاً على جميع البلاد الأخرى كما ورد في ميثاق شابولتيبيك .

وشجع انتصار الدول الديموقراطية الثورات الليبرالية في مختلف البلاد: فينيزويلا ، غواتيمالا ، كوبا .

غير أن تحويل الاقتصاد الشمالي ــ الأمريكي من اقتصاد حرب الى اقتصاد سلام وتعليق الواردات من المواد الأوليـة ذات الأهمية الستراتيجية سببا انخفاضاً في الصادرات اللاتينية ــ الامريكية وفي الأسعار . وعبر عن الصعوبات الاقتصادية ، التي نجمت عن ذلك في البلاد الايبيرية ــ الأمريكية ، باضرابات في الوقت الذي قامت فيـه الحرب الباردة على الصعيد العالمي . وفزعت البورجوازية والطبقة الوسطى اللاتينية ـ الأمريكية من الاضطراب الاجتماعي، بينما كان موجهو واشنطون يتمنون بأن يقوم النضال ضد الأقلية الشيوعة

في كل بلد من بلاد نصف الكرة . وعندئذ قامت عدة انقلابات عسكرية فرضت العودة إلى الأنظمة الدكتاتورية ، وبخاصة في بيرو في ١٩٣٨، وفي فينيزويلا في ١٩٤٨ .

وعلى الصعيد النقابي تمزق اتحاد شغيلة امريكا اللاتينية بتأثير الخلافات بين المتعاطفين مع الشيوعية وخصومها . وتأسس اتحاد جديد يدعى الاتحاد الامويكي الشغيلة في عام ١٩٤٨ بمساعدة الاتحاد الامريكي للعمل . ولكن هذه الرعاية الخطرة حددت أهمية هذه الهيئة الجديدة . ولذا ارتأى موجهو الاتحاد الامويكي للشغيلة حل المنظمة ، في كانون الثاني ١٩٥١ ، ليتركوا المجال حراً لمبادهات الاتحاد الدولي للنقابات الحرة الذي تأسس عام ١٩٤٩ . وعندئذ أنشأ هذا الاتحاد فرعاً مستقلا ذاتيا وهو المنظمة الاقليمية الامويكية للشغيلة التي استطاعت أن تجمع من جديد معظم النقابات غير الشيوعية في امريكا اللاتينية .

البيرونية

ترجع أصول هذا النظام الى ١٩٤٣ . ففي هذا العصر أقلق الاضطراب الاجتماعي البورجوازية الأرجنتينية وشجع نشاطات العصابات المناصرة العسكرية ذات الالهام النازي أو الفاشي ، بينما فقدت الثقة بالنظام الديموقراطي بسبب الفساد والرشوة والفضائح المالية . ولقد رفع الانقلاب العسكري ، في ٤ حزيران ١٩٤٣ ، الجنرال راوسون الى السلطة ، ثم استعيض عنه بعد الغد بالجنرال واميرز ، ثم بالجنرال فاريل ، في كانون الثاني ١٩٤٤ . وقد كسب أمين سر الدولة المساعد في وزارة العمل ، منذ حزيران ١٩٤٣ ، الكولونيل خوان دومينغو بيرون ، المولود في

١٨٩٥ ، شهرة عظيمة باتخاذ عدة تدابير لصالح العمال ، كالعقود الجماعية ، تخفيض مدة العمل ، زيادة الأجور ودفع الاغوينالدو أو الشهر الثالث عشر . وفي سنة ١٩٤٤ ، سمي بيرون وزيراً للحربية ، في ٤ أيار ، ثم نائباً لرئيس الحكومة في ٧ حزيران . وفزع أعضاء الحكومة الآخرون لطموحه ، وحصلوا على عزله وسجنه . ولكن « الديسكاميسادوس » (اللاقميصيين) في الاحياء العمالية في بوينوس آيريس ثاروا لهـذا الخبر وفرضوا اطلاق سراح الكولونيل ، في ١٧ تشرين الأول ١٩٤٥ . وبعد بضعة أيام ، في ٢١ تشرين الأول ، تزوج بيرون الشابة المذيعة في راديو — بلغرانو ايفا دوارته ، المولودة عام ١٩١٩ ، التي لعبت دوراً كبيراً ، في يوم ١٧ تشرين الأول ، بدعوة العمال إلى التظاهر لصالح الوزير السجين .

كان بيرون مدعوماً ، من جهة ، من الجماهير الشعبية والنقابات ، ومن جهة أخرى ، من الجيش والاكليروس . وقد انتخب رئيساً للجمهورية ، في ٢٤ شباط ١٩٤٦ . ونشر سفير الولايات المتحدة برادين « الكتاب الأزرق » وشهر فيه بعلاقات بيرون بالمحور ، وهكذا فان الجنرال ، الذي هاجمه الامريكيون الشماليون ، أخذ منذ الآن ، وجه بطل الاستقلال القومي .

وفي الواقع ، أعلن الاستقلال الاقتصادي للارجنتين رسمياً في توكومان ، في ٩ تموز ١٩٤٧ .

أمم بيرون المصارف ، في ٢٥ آذار ١٩٤٦ ، وخول الحكومة حصر التجارة الخارجية . واشتريت المنتجات الزراعية بسعر منخفض من الفلاحين ، ثم بيعت ثانية في الخارج بسعر مرتفع . وساعدت الأموال الجسيمة ، التي حصل عليها بهذا الشكل ، الدولة على اخراج الشركات الأجنبية صاحبة امتياز المصالح الكبرى العامة والتعويض عليها ، مثل شركة

الخطوط الحديدية وشركة الغاز ، والاتحاد المـــاتفي في ريو دولابلاتا وتحقيق الخطة الخمسية (١٩٤٧ — ١٩٥١) التي الحت على تصنيع البلاد . وانشأت الحكومة اسطولاً تجارياً ، ونمت الأمن الاجتماعي ، وأكثرت المنازل للعمال . ونشر إعـــلان حقوق العمال ، أو ناموس العمل ، في شباط ١٩٤٦ . وكانت مؤسسة العون الاجتماعي التي توجهها ايفا بيرون توزع اموالاً طائلة .

وقد اعقب زيارة ايفا بيرون في مختلف العواصم الاوربية ، في ١٩٤٧ ، توقيـع ميثاق اسباني — ارجنتيني يخول اسبانيا اعتمادات هامة للقيام بشراء الحنطة من الارجنتين ، في ٦ نيسان ١٩٤٨ . ولم تستطـع الحكومة الاسبانية أن تدفع ديونها في المواعيد المحددة ، وقـامت صعوبات بين مدريد وبوينوس آيرس . ولكن الطابـع الاستبدادي للنظام ثبت من سنة لأخرى . وطهرت الحكومة الجامعة والصحافة ، وأممت الاشراف على عدة صحف . وصوت البرلمان الاتحادي ، حيث حصل الحزب البيروني على على أكثرية الثلثين ، في انتخابات كانون الأول ١٩٤٨ ، على دستور جديد يسمح باعادة انتخاب الرئيس الخارج بعد انتهاء ولايته (آذار ١٩٤٩) . وفي تشرين الثاني ١٩٥١ اعيد انتخاب بيرون ثانية بأكثرية عريضة .

وفي ذلك العصر ، عرفت البلاد صعوبات اقتصادية خطيرة . لأن الأسعار المجدية بشكل غير كاف والمعروضة على المزارعين ثبطت عزم الانتاج وأدت إلى انخفاض الصادرات الزراعية . غير أن ارتفاع الأسعار العالمية بسبب حرب كوريا (١٩٥٠) وقرض الـ ١٢٥ مليون دولار ، التي اعطتها الولايات المتحدة في السنة نفسها ، أمنت في العام ١٩٥١ نهوضاً موقتاً تواجد مع مجرى حملة الانتخابات الرئاسية . واستحوذ على الانتباه العام ، في سياق الأشهر التالية ، مرض ايفابيرون وموتها ، في ٢٦ تموز ١٩٥٢ .

ولكن المحاصيل المنكوبة في ١٩٥١ و ١٩٥٢ ، سببت انهياراً جديداً في الميزان التجاري ، بينا أدت نفقات النظام المفرطة وعجز الموازنة إلى التضخم النقدي وارتفاع سعر الحياة . وكان على الحكومة أن تتبنى عندئذ خطة تقشف وتجميد الأجور . والحت الخطة الخمسية الثانية (١٩٥٣ – ١٩٥٧) على الزراعة . وأثارت هذه التدابير استياء العمال ، دون التوصل إلى إيقاف التضخم النقدي . وصلبت البورجوازية الليبرالية والجامعية معارضتها ، وسحب الاكليروس دعمه للنظام ، واتخذ الدكتاتور عندئذ عدة تدابير انتهت بتحويل الرأي الكاثوليكي عنه: كاقرار الطلاق ، والغاء المساعدات للمدارس الحرة ، والترخيص للبغاء .

وللتخفيف من الصعوبات الاقتصادية خول النظام إلى شركة ستاندارد اويل ، في نيوجرمي ، امتيازات هامة في باتا غونيا ، في نيسان ١٩٥٥ . ولكن هذا التصرف أثار استياء القوميين ، وبخاصة الضباط الشبان . وفي ١٦ ايلول ١٩٥٥ ، ازاح الانقلاب العسكري بيرون بدعم من الكاثوليك والبورجوازية الليبرالية وقوى اليسار .

وسمي الجنرال لوناردي ، من اليمين الكاثوليكي ، رئيساً للحكومة المؤقتة ، ولكنه امحي أمام الجنرال آرامبورو ، في تشرين الثاني ١٩٥٥ . ووضع الحزب البيروني خارجاً عن القانون ، في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٥٥ . ومارس الجيش الرقابة على النقابات التي ظلت بالاجمال وفية لبيرون . وطبق النظام الجديد سياسة تقشف أثارت استياء الجماهير الشعبية دون الوصول مع ذلك إلى تقويم الحالة الاقتصادية . ولذا اضطر ضغط الرأي العام الجنرال آرامبورو إلى تنظيم انتخابات حرة ، وكان الغالب فيها الزعيم الراديكالي آ . فروندیزي ، في ١٩٥٨ .

قومية فارغاس الاستبدادية

كانت البرزيل ، منذ ١٩٣٠ ، مسرحاً لتجربة قومية تحت قيادة جيتوليو فارغاس : فقد ولد هذا عام ١٩٨٣ في ريو غرانده دو سول ، ووصل إلى السلطة بثورة ذات الهام ديموقراطي وتقدمي (١٩٣٠) ، ولمقاومة الضغط المزدوج الآتي من الشيوعيين والتكامليين ، تلاميذ النازيين الألمان ، اضطر إلى إعلان الوضع الجديد ، الاستادونوفو ، ذي النزعة الجمعية ، وحل الأحزاب السياسية ، في تشرين الثاني ١٩٣٧ ، وطلب الموافقة باستفتاء على تمديد سلطاته لمدة ستة أعوام .

كان فارغاس في البادىء محبذاً للمحور أثناء الحرب العالمية الثانية ، ثم تقرب من الولايات المتحدة ، في ١٩٤١ ، وأعلن الحرب على المحور ، في آب ١٩٤٢ ، واسهمت تجريدة برازيلية بقسط نشيط في حملة ايطاليا (١٩٤٣ — ١٩٤٤) .

ونشطت خطة التصنيع أثناء الحرب بتوظيف الرساميل الشمال — امريكية وبارتفاع صادرات المواد الأولية . وساعد قرض من بنك الاستيراد والتصدير على تأسيس مركز فولتا ريدونا الحديدي . وحض انتصار الديموقراطيات فارغاس على تحرير نظامه (أي جعله ليبرالياً حراً) في ١٩٤٤ . وانشأ الحزب الاجتماعي — الديموقراطي (الوسط) ، وبعد بضعة أشهر ، حزب العمال . ولكن الرأي كان يرغب في العودة الكاملة إلى الحياة الديموقراطية السوية . وكان الصناعيون ، الذين يعتمدون على مساعدة أمريكا الشمالية للقيام بقلب الوضع من جديد ، يرجون انحناء هذا الموجه المرتبط جداً بالعقيدة الجمعية . وادرك الزعماء العسكريون قوة هذه التيارات واجبروا فارغاس على الانسحاب ، في تشرين الأول ١٩٤٥ .

ولما انتخب المارشال دوترا ، القائد السابق لجيش الحملة على ايطاليا ، رئيساً للجمهورية ، طلب التصويت على دستور ديموقراطي ، في ١٨ ايلول ١٩٤٦ . وفي ١٩٤٧ ، وضع الحزب الشيوعي خارج القانون . وعجلت الاعتمادات والتوظيفات المالية الخاصة الشمال - أمريكية التصنيع . وفي ١٩٤٩ ، كانت الصناعة تمثل ٦٠ ٪ من الانتاج القومي ، مقابل ٣٠ ٪ في ١٩٢٩ . ولكن الجماهير الشعبية ، التي لم تشارك في الازدهار العام ، قامت ، بينما قلق الضباط الشبان من السيطرة الامريكية على اقتصاد البلاد . وتصالح الزعماء العسكريون مع فارغاس ، وقرر هذا أن يقدم نفسه مرشحاً عن حزب العمال إلى رئاسة الجمهورية .

انتخب فارغاس بأكثرية عريضة (١٩٥٠) ، ومالبث أن جابه بعد قليل صعوبات اقتصادية خطيرة . فقد ادى سقوط اسعار القهوة إلى عجز الميزان التجاري . وساعد ارتفــاع الأجور ، التي اعطيت تحت ضغط النقابات ، وعجز الموازنة المتفاقم بالاسراف وسوء الادارة ، على التضخم النقدي . والغى ارتفاع الأسعار الفوائد الممنوحــة للعمال ، فغذى على هذا النحو الاضطراب الاجتماعي . وعهد فارغاس إلى ادارة حصر (ريجي) بتروبراس الجديدة أمر تنمية انتاج البترول البرزيلي ، بغية تحديد واردات المحروقات المخربة للبلاد ، في تشرين الأول ١٩٥٣ . وتقـدم بمشروع قانون يحـدد ارباح الشركات الأجنبية ، ليضع حداً لنزيف عائدات الارباح الذي يخل في توازن الحسابات . ولكن البورجوازية البرزيلية ، وقد أنذرت بالاضطراب الاجتماعي ، خافت من أن يكون لهذه التدابير الجديدة أثر في نضوب توظيف رؤوس الأموال الشمال - امريكية .

وشهرت حملة بفساد النظام قام بها زعيم شاب من أقصى اليمين ،

كادلوس لاسيردا ، في جريدة « منبر الصحافة » . وفي ٥ آب ١٩٥٤ ، نجا لاسيردا من محاولة اغتيال ، ولكن فاز ، قائد جيش الجو ، قتل إلى جانبه . ودل التحقيق على أن الاغتيال ارتكبه حرس فارغاس ، واتهمت الصحافة ابن الرئيس . وطالب جيش الجو باستقالة رئيس الدولة . وعندما تخلى الجيش البري عن جيتو ليو فارغاس انتحر في قصر كاتيت ، في ليل ٢٤ آب ١٩٥٤ ، تاركاً وصية سياسية تؤلف صك اتهـــام ضد الشركات الأجنبية الكبرى المقيمة في البرازيل . وفسحت وفاة الرئيس مجالاً لتظاهرات مؤثرة من الحزن الشعبي .

وأنهى نائب الرئيس كافيه فيلهو مدة ولاية الرئيس الراحل . وشغل تحضير الانتخـــابات الرئاسية سنة ١٩٥٥ . وأثار المرشح الاجتماعي — الديموقراطي جوسيلينو كوبيتشيك ، المولود في ١٩٠٢ ، اضطراباً شديداً في الجيش لاختياره مرشحاً لنيابة الرئاسة ، جوان أو غولارت ، زعيم النقـــابات وحزب العمال ، الوارث الروحي لفارغاس . وبعد انتخاب كوبيتشيك وغولارت ، في تشرين الثاني ١٩٥٥ ، منع الماريشال تيكسيرا لوت ، على رأس الحزب الشرعي للجيش ، التهـــديد بثورة الاسطول البحري والجوي ، وساعد بذلك الرئيس كوبيتشيك على استلام وظائفه في كانون الثاني ١٩٥٦ .

القومية الديموقراطية

نمت القومية بشكلها الديموقراطي في مختلف بلاد امريكا اللاتينية .

في بيرو

كان الحلف الشعبي الثوري الاميركي ، الذي أسسه راؤول هايا دو لا توره ، المولود في ١٨٩٥ ، متأثراً بقوة بالثورة المكسيكية .

وقد نشر هايا دولا توره ، في مكسيكو ، أول بيان الحلف الشعبي الثوري الامريكي ، في ١٩٢٤ ، وأثنى فيه على الوحـــدة اللاتينية — الامريكية ، والنضال ضد الامبرياليات جميعاً ، وبخاصـة ضد الولايات المتحدة ، والاصلاح الزراعي ، ووصول الجماهير المندية إلى الوظائف ، وتأميم الصناعات الكبرى ، و « امركة » قناة باناما .

واضطهدت الحكومات المتعاقبة ، خلال العشرين سنة التالية ، الحلف الشعبي الثوري الامريكي ، فنما في النضال السري ، وكان في العام ١٩٤٦ قوياً ويستطيـع أن يؤمن بأصواته انتخاب ج . ل . بوستامانته . وقد حكم هذا بدعم البرلمانيين « الآبريين »، رجال الحلف الشعبي الثوري الامريكي (٦٥ نائباً على ١٤٥ ، و ٢١ شيخاً على ٥٠) . ولكن التدابير الاصلاحية التي أصدرها الوزراء الثلاثة « الابريون » ، من حيث رقابة الاسعار والقطع ، أثارت احتجاجات شديدة في الأوساط المحافظة .

وشعر الحلف الشعبي الثوري الامريكي بأنه مهدد ، فنظم ثورة بدعم ملاحي اسطول الـ كاللاو ، ولكن هذه الحركة سحقها وزير الحربية ، الجنرال اودريا ، الذي قلب الرئيس بوستامانته ، الضعيف جـداً حسب رأيه ، وشكل حكومة مؤقتة (١٩٤٨) ، ووضع الحلف الشعبي الثوري الامريكي خارج القانون(١٩٥٠) . ولما انتخب رئيساً للجمهورية فرض رقابة شديدة على النقابات . وأمنت المساعدة الامريكية خلال ولايته (١٩٥٠ — ١٩٥٦) للبلاد بعض الازدهار .

وفي اليوم الذي استلم فيه اودريا السلطة ، لجأ هايا دولا توريه إلى سفارة كولومبيا ، في ليما ، وبقي فيها ستة أعوام (١٩٤٨ — ١٩٥٤) . وفي نيسان ١٩٥٤ ، وقعت حكومة اودريا مع كولومبيا ميثاق بوغوتا ، الذي سمح لهايا دولا توريه بمغادرة ملجئه والسفر إلى المنفى . ويبـدو

منذ الآن أن الزعيم « الابوي » أخذ يهتم بخاصة باحتواء الشيوعية والثأر من الجنرال اودريا . وللتغلب على مرشح هـذا الأخير ، في انتخابات ١٩٥٦ ، أعطى الحلف الشعبي الثوري الامريكي أصواته إلى المحافظ برادو اوغارتيشيه ، وكان من قبل رئيساً من ١٩٣٩ الى ١٩٤٥ ، وقد انتخب في هذه المرة ليكون رئيساً من ١٩٥٦ — ١٩٦٢ .

في فينيزويلا

ناضل الديموقراطيون ضد دكتاتورية ج . ف . غوميز ، وكان على رأس السلطة من ١٩٠٨ إلى ١٩٣٥ ، وضد خلفه ، الجنرال لوبيز كولتريراس (١٩٣٥ — ١٩٤١) . وأسس رمولو بيتانكورت (المولود في ١٩٠٨) في العام ١٩٣٧ ، في السر ، حزب العمل الديموقراطي . وقد سمح لهذا الفريق ، بالتشكل بصورة قانونية ، الجنرال مدينـــا آنغاريتاس (١٩٤١—١٩٤٥) ، فقد أدرك هذا أن انتصار الديموقراطيات في الحرب العالمية الثانية يفرض « تحرير » النظـــام . وأطلق العمل الديموقراطي الشعار « نوماس كونسيسيونس (لا امتيازات) » ، وقام بحملة ضـــد كارتيلات البترول الدولية التي أخذت من غوميز وخلفائه امتيازات تبلغ مساحتها ١٦ مليون كم٢ (١٨٪ من المساحة القومية) . وفي ١٨ تشرين الأول ١٩٤٥ ، قلب مناضلو العمل الديموقراطي النظام العسكري ، ودعمهم في ذلك الضباط الشبان القوميون ودعت الخونته الثوريـة ، التي يرأسهـــا رومولو بيتـا نكورت ، إلى انتخاب جمعية تأسيسية ، في تشرين الأول ١٩٤٥ ، وصوتت هـذه الأخيرة على دستور ديموقراطي ، في ٥ تموز ١٩٤٧ ، وانتخب الروائي الشهير رومولو غاليّغوس رئيساً للجمهورية ، في ١٤ كانون الأول ١٩٤٧ . ونشرت الحكومة القانون « خمسين — خمسين » (قانون المنـاصفة) الذي يجبر

الشركات البترولية على أن تدفع للدولة ٥٠٪ من أرباحها . وخولت أحكام أخرى عمال البترول زيادة في الأجور وفوائد اجتماعية .

ولذا ارتاب الرأي بشركات البترول في أنها شجعت على قيام ثورة ٢٤ تشرين الثاني ١٩٤٨ ، التي قلبت النظام وأقامت خونته عسكرية يوجهها الكولونيل دلغادو شالبود ، وقد قتل في ظروف غير موضحة ، ثم الكولونيل بيريز جيمينيز . وانتخب برلمان « مُطَهّر » هذا الأخير رئيساً للجمهورية من ١٩٥٣ إلى ١٩٥٨ .

وقامت عدة احتجاجات في أمريكا اللاتينية ضد شراسة القمع (اقامة معسكر اعتقال في غواسينا ، في جزيرة غير صحية في نهر الاورينوك (اورينو كو) وقتل الأمين العام لحزب العمل الديموقراطي ، ل . رويز بينيدا سراً في ١٩٥١ . ومات خلفه البرتو كاردنافالي في السجن ١٩٥٣ . ولم يجرأ بيريز جيمينيز على الغاء قانون « خمسين — خمسين » ، ولكنه أغمض عينيه عن الغش الضريبي الذي ارتكبته الشركات البترولية التي منحها امتيازات جديدة تبلغ ٨٢٣١٤٣ هكتار ، في ١٩٥٦ — ١٩٥٧ . وقد أمنت زيادة انتاج البترول ، الذي انتقل من ٩٥ مليون طن سنوية في ١٩٥٣ إلى ١٤٦ مليون طن في ١٩٥٧ ، إلى البلاد دور ازدهار وسمحت للدكتاتورية أن تنفذ خطة اشغال عامة كبرى وانشاءات باهظة النفقات .

في غواتيمالا

إن الحركة القومية الديموقراطية ، التي ناضل فيها بخاصة الطلاب والضباط الشبان ، قامت ضد دكتاتورية الجنرال اوبيكو (١٩٣١ — ١٩٤٤) وضد شركة الفاكهة المتحدة ، وهي شركة شمال — امريكية تملك ، عدا مزارع الموز الواسعة ، حصر الخطوط الحديدية وأجهزة ميناء

بويرتو باريوس ، المنفذ الوحيد للبلاد من جهة خليج المكسيك - الاطلسي ، بينما تسيطر شركتان امريكيتان اخريان بالتوالي على التلفونات والكهرباء .

وقد أجبر الاضطراب الجامعي اوبيكو على الانسحاب ، في حزيران ١٩٤٤ . وبعد أن انتخب الزعيم الديموقراطي ج . ج . آريفالو رئيساً للجمهورية من ١٩٤٥ إلى ١٩٥١ ، طلب التصويت على دستور جديد (١١ آذار ١٩٤٥) ، وعلى قانون العمل ، وزاد الأجور ، وأسس الأمن الاجتماعي . وأصدر خلفه ، الكولونيل جاكوبو آربنز غوزمان، القانون الزراعي ، في ١٧ حزيران ١٩٥٢ ، وبموجبه أمم الأراضي التي تركتها شركة الفاكهة المتحدة بوراً . وقدمت ادارة دولة واشنطون ضد هذا الاستملاك احتجاجاً ، في ٢٥ آذار ١٩٥٣ ، واتبعته بمطالبة رسمية ، في ٢٠ نيسان ١٩٥٤ وبشكل غير حذر وغير فطين غذى آربنز الحملة الصحفية ، التي كانت تتهمه بالشيوعية ، باحاطة نفسه بأعضاء حزب العمل الغواتيمالي ، وهو تشكيل شيوعي صغير لا يزيد عدده في البرلمان عن ٤ نواب على ٤٥ .

وفي المؤتمر العاشر الامريكي (بين الدول الاميركية) المنعقد في كاراكاس، طلب وفد الولايات المتحدة التصويت على قرار، موجه بالبداهة ضد غواتيمالا ، ينص على عقد مشاورة لاتخاذ التدابير الضرورية في حالة يسقط فيها أحد بلاد نصف الكرة تحت اشراف الشيوعية الدولية (آذار ١٩٥٤) .

وفي ذلك العصر ، الف المنفيون الغواتيماليون في هوندوراس ، التي يحكمها الرئيس غالفيز المحبذ للولايات المتحدة ، مليشا يقودها مهاجر سياسي غواتيمالي ، الكولونيل كارلوس كاستيلو آرماس . واستقبل هذا الأخير

نجدات واسلحة من دكتاتور نيكاراغوا ، آ.سوموزا . واتهمت الصحافة الغواتيمالية شركة الفاكهة المتحدة بتشجيع المتآمرين . واجتازت جيوش كاستيلو آرماس الحدود ، في ١٧ حزيران ١٩٥٤ ، وتردد آربنز في تسليح المليشات الشعبية ، ولكن زعماء الجيش ، الذين اعلنوا في البدء أنهم لصالحه ، اجبروه على الانسحاب ، في ٢٧ حزيران ، ووضعوا حزب العمل الغواتيمالي الشيوعي خارج القانون ، وتحالفوا مع كاستيلو آرماس بموجب ميثاق سان سالفادور ، وكان سفير الولايات المتحدة جون إ بويريوفي يدعم كاستيلو آرماس ، الذي أخذ على عاتقه رئاسة الحونته الموقتة ، ثم رئاسة الجمهورية ، في تشرين الأول ١٩٥٤ . وحقق الاصلاح الزراعي المعاكس وطهر النقابات . ولكن أحد حرسه قتله في تموز ١٩٥٧ . وانتخب الجنرال يديغوراس فونتيس المحافظ ، النصير الامريكي ، رئيساً للجمهورية من ١٩٥٨ — ١٩٦٣ .

في كوستاريكا

ثارت الشبيبة القومية من امتيازات شركة الفاكهة المتحدة المفرطة ، ودخلت المسرح عام ١٩٤٨ . وقد انتخب قبل ذلك بقليل الحر (الليبرالي) اوتيليو اولاته رئيساً للجمهورية . ولكن الرئيس الخارج ، ت بيكادو المحافظ ، الغى الانتخابات ، وأثار على هذا النحو عصياناً شعبياً . وبعد حرب أهلية دامت من آذار الى نيسان ١٩٤٨ تغلب جيش التحرير القومي على انصار بيكادو . وتشكلت حكومة موقتة برئاسة الزعيم الاجتماعي المسيحي خوسيه فيغويرس فيرير ، المولود في ١٩٠٦ . وقرر فيغويريس حل الجيش ، وأمم البنوك ، ووضع الحزب الشيوعي خارج القانون . وصوتت جمعية تأسيسية على دستور ديموقراطي جديد ، في ٧ تشرين الثاني ١٩٤٧ . وفي اليوم التالي ، سلم فيغويريس السلطة إلى الرئيس المنتخب شرعياً في السنة السالفة : اوتيليو اولاته . وحكم الرئيس الجديد بمساندة حزب التحرير القومي الذي أسسه فيغويريس.

ثم انتخب هـذا الأخير رئيساً من ١٩٥٣ إلى ١٩٥٧ ، ودخل في نزاع مع شركة الفاكهة المتحدة ، وانتهى بفرض اتفاق جديد عليهـــا ينص على أن تدفع للدولة ٤٥٪ من أرباحها .

ولذا يشتبه عدد من المراقبين في أن شركة الفاكهة المتحدة شجعت الدكتاتور النيكاراغوي سوموزا على مهاجمة كوستاريكا ، في ١٢ كانون الثاني ١٩٥٥ . واستطاع متطوعة مدنيون أن يجهزوا أنفسهم بسرعة ويحتووا الغزو ، بينما ارتفعت الاحتجاجات على العدوان في امريكا اللاتينية ، والعالم كله ، وفي أوساط النقابات الشمالية ـ الامريكية . وأرسلت منظمة دول امريكا إلى منطقة الكفاح لجنة تأمر بوقف النار . وشجبت حكومة واشنطون ، بدورها ، العدوان . واضطر سوموزا إلى استدعاء جيوشه . وانقذت الديموقراطية الكوستاريكية . ولكن الدعم التعبوي للشيوعيين ، في انتخابات ١٩٥٦ ، نصر المحافظ ماريو ايشاندي (١٩٥٧ — ١٩٦٢) . ورغم ذلك ، فان حزب التحرير القومي الذي يتمتع بالاكثرية في الكونغرس ، فرض التصويت على القانون الزراعي (١٩٦١) .

الثورة البوليفية

نشأت الحركة الثورية في بوليفيا من عـاطفة الثورة على الفقر المدقـع الذي كانت عليه الجماهير الشعبية . ان القصدير الذي يؤلف المورد الوحيد لهذا البلد « المحروم من نافذة على البحر » يصدر بشكل مركز ومعمول في مصانع صهر أجنبية . وكانت الأرباح ، قبل الثورة ، تحتكرها ثلاثة كارتيلات (شركات احتكارية) دولية تسيطر على الانتاج في : باتينو آرامايو ، هوشيلد .

والنضال ضد النظام المحافظ ، حليف كارتيلات المناجم ، أسس فريق من الشبان المفكرين ، يدفعه فيكتور باز ايستينسورو (المولود في ١٩٠٧) ، في ١٩٤٠ - ٤١ ، في السر ، الحركة الوطنية الثورية ، وكان الميجور غوالبيرتو فيّلا رووبل يتعاطف مع هذه الحركة ويدعمه الشبان الوطنيون . واستلم السلطة بفضل حركة سياسية مسلحة ، في ٢٠ كانون الأول ١٩٤٣ . وكان فيلا رووبل شديد التأثر بالمذاهب النازية . ولكنه قلب ، في آخر الحرب العالمية الثانية ،على يد ائتلاف من أقصى اليمين والاحرار الليبراليين والشيوعيين وقسم من الجيش . وسقط في سلطة الثائرين وعلق مشنوقاً على مصباح أمام قصر الرئاسة ، في ٢١ تموز ١٩٤٦ . ولجأ وزير المالية ، باز ايستينسورو ، في بوينوس آيرس ، وافاد من حماية بيرون له .

ورفعت انتخابات ، كانون الثاني ١٩٤٧ ، إلى السلطة الأستاذ ج . إ . هرتزوغ المحافظ ، فقمع الثورة الاجتماعية بشدة . وتحالفت الحركة الثورية في السر مع فريق تروتسكي كان يمارس نفوذاً كبيراً على نقابة عمال مناجم القصدير . وكان باز ايستينسورو منفياً في بوينوس آيرس . ومع ذلك قدم ترشيحه ، وانتخب رئيساً للجمهورية في أيار ١٩٥١ ، ولكن الجيش استلم السلطة والغى الانتخابات . وثار انصار باز ايستينسورو في لاباز وانتصروا ، بعد ثلاثة أيام من الكفاح ، بفضل وصول عمال المناجم الذين قدموا من بوتوسي واورورو ، في نيسان ١٩٥٢ . واستلم باز ايستينسورو أخيراً وظائفه . وحل الجيش النظامي . واعتمد الرئيس الجديد على مليشات العمال والفلاحين، ونشر عدة اصلاحات جذرية: تأميم المناجم ، في ٣ تشرين الأول ١٩٥٢ ، والقانون الزراعي ، في ٢ آب ١٩٥٣ ، ونماء عدا ذلك ، حملة كبرى في ازالة الأمية وتعليم الشعب القراءة والكتابة . ولكن انتهاء حرب كوريا (١٩٥٣) وتدفق اكداس القصدير ، الآتية

من مناجم جنوب - شرقي آسيا ، على الأسواق ، عجلا بسقوط الصادرات البوليفية والأسعار العالمية ، بينما عبر عن ارتفـــاع الأجور والاسراف والتسيير غير المنظم بزيادة سعر الكلفة . وادى العجز المثلث في تسيير المناجم والموازنة والميزان التجاري إلى تضخم نقدي قافز سريع . ففي ١٩٥٦ كان الدولار يقدر بـ ١٤٠٠٠ بوليفيانو . وحاول باز ايستينسورو مكافحة هذا الاتجاه بدعم الولايات المتحدة المالي . وكان هذا الدعم متردداً، في بادىء الأمر ، ثم تأكد رويداً رويداً وحاول خلفه سيليس سوأزو ، وهو أيضاً من الحركة الوطنية الثورية ، ١٩٥٦ - ١٩٦٠ ، أن يقوم بتنفيذ خطة ثبات مالي .

المكسيك : الثورة النظامية

بعد الاضطرابات الثورية في الدور ١٩١٠ - ١٩٢٤ ، استطـــاع الحزب الثوري النظامي ، الذي أنشأه الرئيس ب . إ . كاليس (١٩٢٤ ١٩٢٦) لتنظيم جماعات العمال المحلية والفلاحين ، أن يؤمن للمكسيك أكثر من أربعين عاماً من الاستقرار السياسي . وزع الجنرال لازادو كاردوناس ، المولود في ١٨٩٥ ، والرئيس من ١٩٣٤ - ١٩٤٠ ، وعضو هذا الحزب كسائر اسلافه المباشرين وخلفائه ، على الفلاحين ١٧ مليون هكتار من الأراضي . وأمم السكك الحديدية والبترول (١٩٣٨) . وفي رئاسة الجنرال آفيلا كاماشو (١٩٤٠ - ١٩٤٦) اعلنت المكسيك الحرب على المحور ، في حزيران١٩٤٢، وقام وزير التربية، توريس بودية،بحملة واسعةفي ازالةالأمية. وبمساعدة الجازين (ليسانسيه) ميغيل اليمان (الرئيس من ١٩٤٦ إلى ١٩٥٢) و رويز كورتينس (١٩٥٢ - ١٩٥٨)، توصل الجناح الأيمن من الحزب الثوري النظامي إلى السلطة . وانتقلت التربية والاصـــلاح الزراعي إلى

الصعيد الثاني . وانتقدت المعارضة فساد الاوساط الحكومية . ولكن الحكومة وضعت موضع التنفيذ برناجاً كبيراً في الاشغال العامة .

اوصلت أعمال الري الواسعة السطح المروي من ٢٠٠٠٠ هـ آ في ١٩٢٧ إلى ٢٢٩٧٨٥٢ هـ آ في ١٩٤٩ . وسجل الانتاج الزراعي زيادة عظيمة ، ولاسيما في مضمار محاصيل التصدير والاستعمال الصناعي (القطن ، القنب وقصب السكر) . ولكن بطء الاصلاح الزراعي والازدياد الديموغرافي ظهرا ببطالة زراعية وهجرة « البراسيوروس » (العمال المياومين الذين يعتمدون على سواعدهم) نحو الولايات المتحدة .

ونمت الصناعة أثناء الحرب العالمية الثانية وفترة مابعد الحرب . فقد انشئت الافران العالية في مكسيكو في عام ١٩٤٣ . واسهمت البنوك الكبرى ، بنك المكسيك ، بنك التجارة الخارجية الوطني ، والتمويل الوطني (هيئة تابعة للدولة) اسهاماً حاسماً في توجيه الاقتصاد . ومن جهة أخرى ، ساعد انتشار التعليم ، منذ الآن ، الشبان من أبناء الطبقات الشعبية ، على الوصول إلى الوظائف العالية . وأوجد التقدم الاقتصادي طبقة وسطى وطبقة كادحة راضية نسبياً تضمنان استقرار النظـــام . وأمنت القوانين الاجتماعية : الحد الأدنى للأجرة ، ويوم الثماني الساعات ، وحق الاضراب ، والتعويضات في حـــال التسريح أو حادث العمل ، والعطلة المدفوعة والتأمينات الاجتماعية ، إلى العمال المدنيين (العمال النقابيين على الأقل) فوائد تتباين مع بؤس العمال المياومين الزراعيين .

وأسس المعهد الهندي ، من جهته ، ابتداءمن ١٩٥٠ ، مركز لتنسيق لتحسين ظروف حياة الهنود الذين ظلو على هامش الحياة القومية .

وبانتخاب المجاز آدولفو لوبيز ماتيوس ، المولود في عام ١٩١٠ ، والرئيس

من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٤ ، عاد الاتجاه التقدمي في الحزب الثوري النظامي إلى السلطة . وشكلت اعتمادات التعليم منذ الآن أهم فصل في الموازنة (٤ مليارات بيزوس ، أي ٣٢٠ مليون دولار في ١٩٦٤ ، وأزمعت خطة الاحد عشر عاماً ، ١٩٦٢ — ١٩٧٣ ، على انشاء ١١٨٢٥ مدرسة مدنية و ٢٧٤٤٠ مدرسة ريفية) ، ووسع الرئيس الأمن الاجتماعي وخول عمال المشاريع الكبرى المشاركة في الارباح . وأمم بعض المصالح الأجنبية الكبرى ، مثل شركة كهرباء مكسيكو ، ولكن الرأسمال الأجنبي مازال يسيطر تماماً على القطاع المنجمي . وعرفت بعض المشاريع التي تراقبها الدولة تقدماً عظيماً ، مثل معامل شيوداد — ساهاغون التي تهتم بالصناعة المعدنية وتركيب السيارات . وأصبحت المنتجات المنتهية والنصف منتهية تمثل ربع الصادرات .

ووزع لوبيز ماتيوس ١٣ مليون هكتار من الاراضي ، وساعد إنشاء التأمين على المحصول صغار المزارعين في الحصول بسهولة على قروض . ومع ذلك ، فان ضيق قطع الاراضي الموزعة ، ٥ هكتارات ، تطبيقاً للقانون الزراعي ، وعدم كفاية الاعتمادات اجبرا عدداً من « الايجيداتاريوس » (المنتفعين بالاصلاح) على البحث عن عمل مأجور مكمل ، أو مقابل تعويض على التخلي عن استغلال حصتهم ، التي لايجوز التصرف بها نظرياً ، إلى مستغل كبير . ويقدر في بعض المناطق أن ٣٠ ٪ من الاراضي الموزعة على الفلاحين غير مستغلة من قبل مالكها الاسمي . ووجد أيضاً ، في نهاية ولاية لوبيز ماتيوس ، مليون ونصف عامل يومي زراعي عاطل عن العمل .

وتعلق الرئيس لوبيز ماتيوس بتنمية المبادلات مع بلاد الرابطة اللاتينية الاميركية للمبادلة الحرة وايضاً مع اوربة الغربية ، بعد سفر لوبيز ماتيوس إلى أوربه [١٩٦٣] ، والاتفاقات الاقتصادية الفرنسية المكسيكية

وزيارة الجنرال دوغول للمكسيك [آذار ١٩٦٤]) . ومع ذلك تمتص الولايات المتحدة ايضاً ٧١٪ من مجموع الصادرات المكسيكية . وترأس لوبيز ماتيوس الحملة لصالح « لانووية » امريكا اللاتينية، أي إخلاء امريكا اللاتينية من القنابل النووية . ولعبت المكسيك أيضاً دوراً هاماً في المؤتمر العالمي للتجارة لحماية أسعار المواد الأولية ، في جونيف ، في ربيع ١٩٦٤ ، ورفض قطع العلاقات مع كوبا باسم حق الشعوب في تقرير مصيرها .

ويلاحظ في بداية ولاية لوبيز ماتيوس ، يقظة نشاطات الحزب الشيوعي وتشكل فئة كاسترية تتمثل في حركة التحرير الوطني التي انتسب اليها بخاصة المفكرون والطلاب . وبعد أن أوقف الاضطراب بطرق القمع ، مثل توقيف الرسام سيكويروس والمنظمين لاضراب « سياسي » لعمال السكك الحديدية ، أبدت السلطة الرحمة .

ووقف المجاز غوستافو دياز اورداز ، من الحزب الثوري النظامي، المنتخب رئيساً للجمهورية ، في ٥ تموز ١٩٦٤ ، بـ ٨٨٪ من الأصوات المعبرة ، ضد التدخل الأجنبي في سان دومينغ (نيسان — أيار ١٩٦٥)، ودافع في المؤتمر الامريكي ، في ريودو جانيرو ، في تشرين الثاني ١٩٦٥ ، عن مبدأ عدم التدخل في الشؤون الداخلية للبلاد الأخرى ، ورفض قطع العلاقات مع كوبا في مؤتمر منظمة دول امريكا في ايلول ١٩٦٧ . وحاول الحزب الثوري النظامي ، بأمر من أمينه العام مادرازو ، من الجناح الأيسر ، أن يتبعد عن الرئاسة . ولكن مادرازو دفع إلى الاستقالة ، في تشرين الثاني ١٩٦٥ . وأثار اضطراب الفلاحين في شمال المكسيك في دول سونورا و شيهواهوا استئناف الاصلاح الزراعي ،

ونجم عنه توزيع مليون هكتار من الاراضي في دولة شيهواهوا ، في خريف ١٩٦٧ .

وقامت حركة طلابية كثيفة ، في تموز ١٩٦٨ ، إثر حادث غير متوقع ، وقمعت بشدة بتبادل اطلاق النار من ساحة الثلاث ثقافات ، في ٢ تشرين الأول ، وهدأت بعد بضعة أيام بعد هذا الظرف المفجع ، وساعدت بذلك الالعاب الاولمبية على أن تمضي بنجاح في (١٢ - ٢٧ تشرين الأول ١٩٦٨) .

الموجة الاصلاحية الثانية

بين ١٩٥٨ و ١٩٦٣ اسقطت موجة ديموقراطية جديدة الدكتاتوريات وأتت بأنظمة اصلاحية . وقد شجع الرئيس كينيدي هذا التيار ، ابتداءً من ١٩٦١ .

وصلت الاصلاحية إلى السلطة في الأرجنتين ، في ١٩٥٨ ، وفي فينيزويلا ، في ١٩٥٩، وفي الجمهورية الدومينيكية في ١٩٦٢، وفي كوبا ، قلب فيديل كاسترو الدكتاتورية . وفي كوستاريكا ، عاد حزب التحرير الوطني ، الذي أسسه فيغويريس ، إلى السلطة في شخص الرئيس اورليش (١٩٦٢ - ١٩٦٦) .

في الارجنتين

انتصر آرتورو فرونديزي المحامي ، المولود في ١٩٠٨ ، زعيم فئة اليسار الراديكالية ، على ريكاردو بالبن ، زعيم الجناح الايمن الراديكالي بفضل دعم البيرونيين التعبوي الذين وعدهم بالعفو العام ، والاشتراكيين ، والشيوعيين وبعض الديموقراطيين - المسحيين . ولكن التهديد بالحركة الانقلابيـة العسكرية أجبر فرونديزي ، الذي استلم وظائفه في ١٠

آذار ١٩٥٨ ، على تنويم الاصــــلاح الزراعي ، والانفصال عن معاونه فريجيريو الذي حاول أن يدخل البيرونيين في الحياة السياسية .

وظهرت الاتفاقات التي تمت بين شركة الريجي البترولية ومختلف الشركات الأجنبية ، الشمال — امريكية ، في معظمها ، بزيادة الانتاج (١٧ مليون طن في ١٩٦١ مقابل ٥ ملايين في ١٩٥٨) . وساعدت خطة التنمية والاستقرار التي دخلت في حيز التنفيذ ، في ٣٠ كانون الأول ١٩٥٨ ، على توطيد توازن الميزان التجاري ، وأثارت تقدماً عظيماً في القطاع الصناعي الأساسي (استخراج الفحم ، صناعة الحديد) . ولكن حذف الاسعار المحددة والمساعدات التي تمنـــح لمختلف المنتجات أدى إلى ارتفاع سعر الحياة ، بينما أثار توقف بعض الاشغال وتحديد الاعتمادات زيادة في البطالة . وهيأ الاستياء العام عودة الاضرابات من جديد . ويلاحظ ، في انتخابات آذار ١٩٦٠ ، زيادة نسبة الاوراق البيضـــاء البيرونية ، ولم يكن مرخصاً لهذا الحزب بتقديم مرشحين .

. ولكسب رضى الشعب ، سمح فرونديزي للحزب البيروني بالمشاركة في الانتخابات التشريعية ، في آذار ١٩٦٢ . وحصل البيرونيون بدعم الشيوعيين على ٣٠،٩٪ من الاصوات المعبرة ، وعلى ٤٤ مقعداً في المجلس (على ٨٦) و ٥ وظائف حكام ، من بينهم حاكم بوينوس آيريس . ونزل الرئيس أمام الضغط العسكري فالغى الانتخابات ، ولكن الجيش لم يغفر له ارجاع امتياز التمتع بالحقوق المدنية للبيرونيين ، وقلبه في آذار ١٩٦٢ .

ولما رأى ج . م . غيدو ، رئيس مجلس الشيوخ ، أن العسكريين المتطرفين (الغوريلات) ، الذين يأملون بتوطيد النظام العسكري ، يهددونه باستمرار ، أنهى الولاية القائمة ، بفضل تدخل العسكريين الشرعيين ،

بحرب شوارع في بوينوس آيريس ، في ايلول ١٩٦٢ ، وتعب الرأي من هذه الاضطرابات التي تشل الحيـاة الاقتصادية ، وتمنى عودة الحياة العامة إلى طبيعتها . ولذا انتخب مرشح اليمين الراديكالي ارتورو ايليا ، رئيساً بأكثرية قوية (تموز ١٩٦٣) . وأمن الرئيس الجديد لنفسه شعبية كبرى بالغاء عقود البترول التي وقعها فرونديزي ، لأن الرأي كان يتهم الشركات الأجنبية بتحقيق أرباح مفرطة . وساعد توطيد النظام على القيام بنهوض اقتصادي عظيم ، ووضع خطة التنمية موضع التنفيذ في فاتح تشرين الثاني ١٩٦٤ .

ولكن العجز المستحكم في الموازنة فرض اصداراً مضطرباً للأوراق النقدية ، واحيا ارتفاع الاسعار ، الذي نجم عن ذلك ، الاضطراب الاجتماعي، ورفع جاه البيرونيين . وكان الجنرال بيرون منفياً في مدريد . وحاول ، دون جدوى ، العودة إلى الأرجنتين ، في كانون الأول ١٩٦٤ ، ولكن حزبه حصل على ٣٣و٨٪ من أصوات انتخابات ١٤ آذار ١٩٦٥ ، لتجديد المجلس التشريعي والمجالس الاقليمية تجديداً جزئياً . وقد أوجد الاضطراب الاقتصادي والقلق الجديد ، الذي أوحى به إلى البورجوازية تقدم البيرونيين ، مناخاً ملائماً إلى حركة مسلحة جديدة قلبت الرئيس ايليا ، في ٢٨ حزيران ١٩٦٦ . وقررت الحكومة التي شكلها الجنرال اونغانيا ، رئيس أركان الجيش سابقاً ، حل جميع الأحزاب السياسية والغـاء استقلال الجامعة . ودفع هذا القرار عدداً من الاساتذة إلى مغادرة البلاد . وحاول النظام، بادىء بدء ، ابرام هدنة واقع مع النقابات البيرونية وغير البيرونية لأنها كانت قوية جداً ولايمكن حلها . ولكن هذه النقابات اضطرت إلى تقوية موقفها اثر تبني خطة تنقية مالية تهدف إلى اقتصاد دراكوني ، في أيار ١٩٦٧. وحقق وزير الاقتصاد آنذاك ، كريجر فاسينا ، جولة طويلة ، في

تشرين الثاني ١٩٦٧ ، بغية الحصول على اعتمادات وعلى منافذ جديدة في بلاد اوربه الغربية ، واتجهت نحو هذه البلاد ، منذ الآن ، ٥٠٪ من صادرات الأرجنتين .

ومع ذلك فقد دخل النظام في ١٩٦٨ ، في طريق جديدة إثر التقارب مع النقابيين انصار « البيرونية دون بيرون » . ولارضاء هـذا الحزب النقابي ، الذي كان يوجهه اوغستو فاندور ، اعلن الجنرال اونغانيا اصلاحات بنيوية وانشاء مجلس نقابي .

البرزيل : من الذرائعية الى الاستيلاء على السلطة (برونتسياميفتو)

انتخب الزعيم الاجتماعي – الديموقراطي ج . كوبيتشيك رئيساً (١٩٥٦ – ١٩٦١) بفضل دعم العمال والشيوعيين ، وسلك سياسة تصنيع وأشغال عامة كبرى (سدود ، مراكز كهربائية ، طرق) . ورغب في نقل مركز ثقل البرزيل نحو الداخل بعد أن ظلت حتى ذلك الحين تتألف ، بخاصة ، من واجهة بحرية ، وأمر بانشاء عاصمة جديدة : برازيليا ، على هضبة غواياز النصف صحراوية . وسبق أن صمم المشروع منذ ١٨٩١ وحقق في أربعة أعوام .

وحاول الرئيس أن ينمي أيضاً المنطقة المدارية في الشمال الشرقي عند ميناء الوصيف ، عاصمة برنامبوك على المحيط الاطلسي حيث أثار جفاف هضاب الظهير (داخل البلاد) واحتكار كبار مزارعي قصب السكر الاراضي الخصبة على الشاطيء ، اضطراباً اجتماعياً كبيراً . فقد تجمع العمال المياومون ، منذ ١٩٤٨ ، في رابطات فلاحية ، تحت قيادة زعيمهم ، المحامي فرانشيسكو جولياؤ . ولمحاولة انهاء هذا التوتر الاجتماعي ، انشأ كوبيتشيك وكالة عليا لتنمية الشمال الشرقي . ولكن

انجازاته الكبرى سببت في توازن الموازنة خللاً مولداً للتضخم النقدي وارتفاع الأسعار .

وشجع الاستياء الذي نشأ عن ذلك على ترشيح جانيو كوادروس ، حاكم سان باولو السابق . وحصل على تقليد حزب U-D. N (حزب محافظ) ، ولكن وعده بمكافحة الاسراف (واستعمل لذلك المكنسة شعاراً) جذب اليه عطف الجماهير . وانتخب بـ ٤٨٪ من من الأصوات ، في تشرين الأول ١٩٦٠ ، واستلم وظائفه ، في ٣١ كانون الثاني ١٩٦١ ، وخفض بمقدار ٣٠٪ النفقات العامة دون الوصول إلى منع التضخم . ودعم سياسة حلف التقدم في مؤتمر بونتا دل ايست ، آب ١٩٦١ ، فوطد بذلك العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع الديموقراطيات الشعبية ودعا الوزير الكوبي ارنيستو « شي » غيفارا ومنحه تمييزاً برزيلياً عالياً . وانتقدت الأوساط العسكرية هذه السياسة بحدة ، وكذلك كارلوس لاسيردا الذي انتخب حاكماً لدولة غوانابارا (ريو دوجانيرو) . وبالرغم من المهدئات التي قدمها زعماء الجيش إلى جانيو كوادروس ، فقد قدم هذا استقالته فجأة ، في ٢٥ آب ١٩٦١ ، ونسب بعض المفسرين هذا القرار إلى أنه كان نتيجة ضعف عصبي .

وآلت السلطة شرعاً إلى نائب الرئيس ، جوانو غولارت ، زعيم حزب العمال والنقابات ، ولكن الجيش عارض استلامه وظائفه . وبفضل تسوية ، صوت الكونغرس على تعديل دستوري يخول واقع السلطة إلى وزير أول مسؤول أمام المجلسين (ايلول ١٩٦١) . ولكن عدم نفاذ النظام الجديد وتأجيل الاصلاحات سببا استياء في الرأي ، حتى ان الرئيس غولارت ، الذي أمن لنفسه بعض الدعم في الجيش ، طلب الموافقة باستفتاء على عودة النظام الرئاسي ، في ٦ كانون الثاني ١٩٦٣ .

وفي الأشهر الخمسة عشر التالية تسبب الاسراف وانخفاض قيمة الكروزيرو (فقد سقط في نيسان ١٩٦٤ إلى ١٩٠٠ بدولار واحد .) وارتفاع سعر الحياة في استياء الطبقات الاجتماعية جميعاً . ولكسب اهتمام العمال ، رسم غولارت سلسلة اصلاحات جذرية : تأميم مصافي البترول التابعة لشركات أجنبية ، انتزاع ملكية الأراضي الواقعة على امتداد ١٠ كم من جانبي طرق المواصلات الكبرى . وأغضبت هذه الاجراءات الطبقات المالكة . وحنق الضباط من ثورة جنود البحرية المتعاطفين مع الشيوعيين الذين اعتمد عليهم الرئيس لاحتواء العسكريين من أقصى اليمين . ولما رفض جانو غولارت عقاب المتمردين زحف جيشاً ميناس جيرايس وسان باولو على ريو دوجانيرو ، في ٣١ آذار ١٩٦٤ . وكانت النقابات ، التي قررت الاضراب العام ، تدعم جانو غولارت ، ولكن حامية ريو دوجانيرو تخلت عنه ، في الأول من نيسان ١٩٦٤ ، ولذا اضطر إلى البحث عن ملجأ له في اورغواي . وقبل أن يغادر الأرض البرزيلية قلد الكونغرس السلطة ، بصفة مؤقتة ، الى دومازيلي ، رئيس المجلس ، وتقبل هذا تهنئات الحكومة الامريكية .

وأعلنت بعض الصحف اليومية اليمينية ، وبخاصة « منبر الصحافة » ، جريدة لاسيردا ، بثورة شيوعية قريبة الوقوع ، وأثارت حملة حذر ساعدت على تبرير اجراءات القمع ، وهيأت الرأي إلى تمني وصول « رجل قوي » إلى السلطة ، غير برلماني . وأصدر القادة الأعلون للأسلحة الثلاثة صكاً نظامياً ، في ٩ نيسان ١٩٦٤ ، طردت بموجبه بعض الشخصيات من البرلمان أو حرموا من حقوقهم المدنية . وكان لاسيردا ، المرشح الظاهر لحزب الـ (U.D.N) المحافظ ، في انتخابات الرئاسة لعام ١٩٦٥ ، يأمل بأن تضرب هذه الاجراءات الرئيس الأسبق كوبيتشيك

فتمنعه من الولاية للمرة الثانية . ولكن كوبيتشيك ومعظم البرلمانيين الاجتماعيين — الديموقراطيين نجوا من التطهير بقبولهم التصويت لصـــالح مرشح الجيش الجنرال ، (والماريشال فيما بعد) همبرتو كاستيلو برانكو. وقد انتخبه الكونغرس لإنهاء الولاية القائمة ، في ١٢ نيسان ١٩٦٤ .

ومع ذلك فقد اضطر ضغط لجـان التحقيق العسكرية الماريشال أن يحرم كوبيتشيك من حقوقه المدنية ، في ٨ حزيران ١٩٦٤ . واعتمد الماريشال على برلماني الوسط الأيسر ، الذي يخشون من انتخاب لاسيردا رئيساً ، وحصل من الكونغرس ، في تموز ١٩٦٤ ، على تمديد ولايته حتى آذار ١٩٦٧ .

وفي الخارج انحاز المـاريشال بسياسته لسياسة واشنطون وأرسل إلى سان - دومينغ جيشاً هاماً ليضخم ،« القوة الامريكية » المنظمة تحت رعاية الولايات المتحدة .

وفي الداخل ، حذف قانون ١٩٦٢ الذي يحدد صـادرات الارباح العائدة للشركات الأجنبية . وبالرغم من تدفق الرساميل الخاصة ومساعدة الولايات المتحدة ، فان وزير التخطيط ، ر. كامبوس ، لم يستطع ايقاف التضخم النقدي(انخفاض قيمة الكروزيرو ، فيتشرين الثاني ١٩٦٥) . وشجع الاستياء ، الذي سببه ارتفاع الاسعار ، المعارضة على التجمع . وفي الانتخابات التي جرت لتجديد حكام الدولة ، أحـرز الاجتماعيون — الديموقراطيون على نجاحات هامة ، في تشرين الأول ١٩٦٥ . وقد انتخب أحدهم ، نيغرانو دوليما ، ليكون حاكماً على غوانابارا (ريو دوجانيرو) . ورفض الماريشال الغـــاء الانتخابات ، ولكنه أصدر ، في ٢٧ تشرين الأول ١٩٦٥ ، صكاً تنظيمياً يحدد سلطات الحكام ويقرر بأن يكون انتخاب رئيس الجمهورية من قبل الكونغرس ، لا بالتصويت العام المباشر .

وكان على الأحزاب السياسية المنحلة أن تتجمع من جديد بصورة اجبارية في تشكيلين : **حزب الحكومة** و **حزب المعارضة** . وصدر دستور استبدادي جديد ، وانتخب الماريشال كوستا إ . سيلفا ، الذي يدعمه الجيش ، رئيساً للجمهورية ، في ٣ تشرين الأول ١٩٦٦ ، للدور (١٩٦٧ — ١٩٧١) . واستلم وظائفه ، في ١٥ آذار ١٩٦٧ ، ودشن دور انفراج في الداخل ، و « عدم التزام » حيال واشنطون . وتقرب لاسيردا من خصميه السابقين ، الرئيسين السابقين ، كوبيتشيك وغولارت ، وأراد أن يشكل « جبهة معارضة واسعة » . ولكن الماريشال حل الكونغرس ، في كانون الأول ١٩٦٨ ، واستلم جميع السلطات بمساندة الجيش

الاصلاحات الفينزويلية الكبرى

كان الجنرال بيريز جيمينيز دكتاتوراً ، منذ ١٩٤٨ ، وغير شعبي ، بسبب فساد الادارة وارتفاع سعر الحياة والتباين بين بذخ أصحاب الامتيازات وبؤس العاطلين الزراعيين الذين أخذوا يتجمعون في الأحياء الفقيرة (رانشيتوس) في كاراكاس . وقلبه ائتلاف العمل الديموقراطي (ر . بيتانكورت) والشيوعيين ، والوسط ، والحزب الديموقراطي المسيحي ، والاسطولين البحري والجوي ، في ٢٣ كانون الثاني ١٩٥٨ . ووضعت الحكومة المؤقتة ، التي يرأسها الأميرال — المساعد و . لارازابال ، موضع التنفيذ ، خطة لمساعدة العاطلين عن العمل تقتضي تعويضات وأشغالاً عامة . ومع ذلك فقد ضرب لارازابال ، في انتخابات الرئاسة ، في كانون الأول ١٩٥٨ ، من قبل ر . بيتانكورت ، الذي أفاد من أصوات الفلاحين . ومنذ استلم بيتانكورت وظائفه ، في ١٣ شباط ١٩٥٩ ، أثار هرب رؤوس الأموال ، بسبب الخوف من الاصلاحات ،

وانخفاض اسعار البترول في السوق العالمية ، أزمة اقتصادية عامة مولدة للبطالة . كما أثار تعليق خطة لارازابال ، في مساعدة العاطلين عن العمل ، الغضب في احياء كاراكاس النائية . واضطرت الحكومة أن تجابه عنف اليمين ، فمن ذلك محاولة اغتيال بيتا نكورت التي لم تتم ، في ٢٤ حزيران ١٩٦٠) ، وعنف اليسار . وكانت العلاقات مع حكومة فيديل كاسترو ، في بادىء الأمر ، ممتازة بعد أن جمع بيتا نكورت أموالاً من أجل ثوار العصابات الكاستروية في كوبا ، ثم بدأت تفسد تدريجياً . وبعد مشاركة فينيزويلا في القرار المناوىء لكاسترو ، الذي صوت عليه في مؤتمر جامعة الدول الامريكية في سان خوسيه في كوستا ريكا ، في آب ١٩٦٠ ، قام الطلاب وتلاميذ الكليات الكاستريون في كاراكاس ، يدعمهم العاطلون ، بمظاهرة عنيفة متطرفة في فاتح تشرين الأول ١٩٦٠ . وبعد عدة أيام على الثورة ، قدم موكب واسع من الفلاحين من جميع المناطق ، وقام بعرض في شوارع كاراكاس لدعم النظام ، في فاتح تشرين الثاني ١٩٦٠ . وفي الأشهر التالية اقتصرت **المنظمة الارهابية الكاستروية** (F.A.L.N.) على تنظيم اغتيالات منعزلة وعلى بعض مراكز للعصابات في الجبال الغربية . وفي مجلس النواب وجدت الحكومة في أقلية بسبب تخلي حزب الوسط وعدد من نواب العمل الديموقراطي وتأليفهم حزبين جديدين مناصرين لكاسترو : L' A. R. S. و M. i. R. .

ولكن تراجع البطالة حرم المنظمة الكاستروية من الدعم الشعبي ، فحاولت عبثاً انعاش الحرب الهدامة ، في ١٩٦٢ . وبعد أن سحقت الحكومة بسهولة الحركات العسكرية التي قام بها أقصى اليسار على يد كاروبانو (أيار ١٩٦٢) وبويرتو كابيلو (آب ١٩٦٢) رسمت

اجراءات قمع شديدة : وضع الحزب الشيوعي وحزب الـ M.I.R. الكاستري خارج القانون ، توقيف البرلمانيين من أنصار هذين الاتجاهين ، التصويت على قانون مناوىء للارهاب (ولكنه مع ذلك لم يضع عقوبة الاعدام ، ١٩٦٣) .

وصرح الشعب بأنه ضد الارهاب باسهامه بشكل كثيف (٩٠ ٪ من المكتتبين) في الانتخابات الرئاسية والتشريعية في فاتح كانون الأول ١٩٦٢ ، بالرغم من أوامر الامتناع التي أطلقتها المنظمة الارهابية الكاسترية. وانقسم ثلثا المصوتين (٦٧٫١٩٪) بين مرشحي المعارضة الستة (اليمين واليسار) ولذا فان الدكتور راؤول ليوني ، من العمل الديموقراطي الذي كان في رأس المرشحين بـ ٢٣٫٨١ ٪ من الاصوات ، انتخب رئيساً للجمهورية . ودشن سياسة انفراج باجراءات رحيمة لصالح الارهابيين والمحبذين للعنف في قانون ١٢ كانون الأول ١٩٦٤ .

وبالرغم من هذه الصعوبات ، وضع النظام موضع التنفيذ برنامجاً واسعاً في الاصلاحات . فقد انتقلت الاتاوات على أرباح الشركات البترولية من ٥٠ إلى ٦٦٫٧٦٪ وأخذت الشركة الفينيزوئيلية للبترول (ادارة حصر الدولة) ، التي انشئت في ١٩ نيسان ١٩٦٠ ومازال محصولها ضعيفاً ، تشرف على شبكة التوزيع الداخلي . هذا وإن رفض كل امتياز جديد ، واستعمال حق سحب الاراضي البور وصلا بالسطح المتنازل عنه إلى ٣٢٤٣٧٠٠ هكتار بانتظار حلول عام ١٩٨٤ الذي يسجل نهاية كل الامتيازات . ولحماية أسعار البترول ، أسهمت فينيزويلا بتأسيس منظمات البلاد المصدرة للبترول (أوبيك) ، في مؤتمر بغداد ، ايلول ١٩٦٠ .

وخفض نمو التعليم ، الذي يمتص منذ الآن ٢١٫٦٪ من الموازنة ،

وتعليم القـراءة والكتابة نسبة الأميين من ٣٨٪ في ١٩٥٨ إلى ١٠ ٪ في ١٩٦٥ . وبتطبيق القـانون الزراعي ، في آذار ١٩٦٠ ، انشأ المعهد الزراعي القومي ٧٠٣ قرى . ووزعت مساحة ٤٠٠٠٠٠٠٠ هكتار من الاراضي ، من ١٩٥٩ إلى آخر ١٩٦٧ ، على ١٤٥٠٠٠ عائلة تضم جميعاً أكثر من ٨٧٠٠٠٠ شخص . وفي نطاق « خطة الأمة » ، حقق النظام سلسلة أعمال كبرى : طرق ، سدود ، مراكز كهربائية ، وبخاصة على نهر قارون ، ريو كاروني ، رافـد نهـر الاورينوك ، وانشاء مركز صناعة حديدية ضخمة في ماتانزاس وقد بدىء به في السنة الأخيرة من دكتاتورية بيريز جيمينيز . وشجعت الاعتمادات التي خولتها وزارة التنمية (فومنتو) ، والتوظيفات الخارجية وسياسة الحماية الجمركية ، من تعرفات جمركية ، وتحديد الاستيراد ، نهوض الصناعات التحويلية مثل مشاغل (ورشات) تركيب السيارات ، المنتجات الصيدلانية ، السجاير ، عصير الفواكه ، الجعـة ... . والزيادة السنوية للانتاج القومي الخام ، الأعلى بوضوح من الزيادة الديموغرافيـة (٥،١٪ مقابل ٣،٣٧٪) لا تسمح مع ذلك ، بسبب الآلية ، إلا بتصنيف قسم من العاطلين عن العمل .

وفي الخـارج ، طلب الدكتور ليوني من منظمة دول أمريكا (O.E.A.) شجب كوبا ، بسبب المساعدة التي أتى بها هـذا البلد للارهابيين الفينيزويليين ، بعد أن صوت على هذه القرارات في ١٩٦٣ ، وفي ايلول ١٩٦٧) . ولكنه قطع العلاقات مع البرزيل اثر حركة نيسان ١٩٦٤ ، ووقف ضد التدخل الامريكي في سان ـ دومينغ ، في أيار ١٩٦٥ . وكانت حكومته الحكومة الوحيدة التي رفضت المشاركة في مؤتمر الدول الامريكية في ريو دو جانيرو الذي كانت تتمناه الولايات المتحدة بشدة ، في تشرين

الثاني ١٩٦٥) . واشتركت فينيزويلا بالرابطة اللاتينية ــ الامريكية للمبادلة الحرة في ١٩٦٦ في عهد ولاية ليوني ، وأسهمت بنشاط في أعمال مؤتمر الذروة في بونتا دل ايست لتحويل تلك الرابطة الآنفة الذكر إلى سوق مشتركة ، في نيسان ١٩٦٧ .

وأضعفت القطيعة بين الحزب الشيوعي (النصير ــ رومي) والقابضين أخيراً على حرب العصابات هذه الحرب أيضاً . كما أن المبادرة ، التي اشتركت بها جميع الأحزاب في حملة الانتخابات الرئاسية والتشريعية ، في كانون الأول ١٩٦٨ ، تبرهن على أن العمل الديموقراطي بلغ هدفه الأصلي وهو تعديل الحياة الديموقراطية وجعلها عادية طبيعية . ولكن الاختلافات المباغتة في وسط حزب العمل الديموقراطي على انتخاب مرشح ، أدت إلى انتخاب المرشح الديموقراطي ــ المسيحي ، رافائيل كالديرا بتقدم ضعيف على المرشح الآخر .

الطاسترية في كوبا

لقد انفصلت كوبا عن اسبانيا بنتيجة الحرب التي وقع فيها هذا البلد مع الولايات المتحدة ، في ١٨٩٨ ، وأصبحت هذه الجزيرة مرتبطة بصورة وثيقة بواشنطون من الوجهة الاقتصادية والسياسية . ولكن عاطفة الخيبة التي سببتها هـذه التبعية أشعلت ، في ١٩٣٣ ، ثورة ضباط الصف التي رفعت الى السلطة النائب العسكري ، السرجان ، (الجنرال فيما بعد) باتيستا .

واضطر الجنرال باتيستا إلى الامحاء في دور التحرير ، ١٩٤٨ ، ولكنه عاد إلى السلطة عام ١٩٥٢ ، بفضل الثورة ، وعمل على انتخابه رئيساً

من ١٩٥٤ — ١٩٥٨ . وفي هذه الولاية الثانية ، كانت الولايات المتحدة تدعم حكومته ، وعرفت حكومته بطرقها الاستبدادية وفسادها المفرط .

وفي ٢٦ تموز ١٩٥٣ ، حاول عبثاً فريق من الشبان المفكرين القوميين ، بقيادة فيديل كاسترو رويز ، المحامي ، المولود في ١٩٢٧ ، أن يستولي على ثكنة مونكادا في سانتياغو كوبا . وأوقف وحوكم وحكم بخمسة عشر عاماً بالسجن ، ثم عفي عنه ونفي إلى المكسيك . وعاد فيديل كاسترو سراً إلى كوبا على متن يخت « غوانغا » مع فرقة مغيرين مؤلفة من ٨٢ رجلاً ، في ٢ كانون الأول ١٩٥٦ . وبنتيجة انزال خاسر رد الفريق إلى ١٥ رجلاً والتجأ في سييرا مايسترا ، في جنوب شرقي الجزيرة . والتحقت به مئات العمال الزراعيين ، بينما انتظمت الشبكات السرية في سائر البلاد . ولايقاف المقاومة لجأت هيئات القمع (S.I.M. ، B.R.A.C.) إلى طرق تعذيب فظيعة ساءت الرأي . وتحت ضغط الاكليروس الأدنى ، عدلت الاسقفية عن تضامنها مع النظام القائم ، في ٢ آذار ١٩٥٨ . ولكن كلمة الأمر بالاضراب العام التي أطلقها الكاستريون ، أخفقت ، وبخاصة لعدم مشاركة الحزب الشيوعي ، في ٩ نيسان ١٩٥٨ .

وفي ٢٠ تموز ١٩٥٨ ، شكلت جميع قوى المعارضة ، باستثناء الشيوعيين ، جبهة عامة مشتركة . وانطلق صفان من الثوار من سييرا مايسترا ، وقاما « بزحف طويل » وارتبطا مع فئات العصابات الصغرى في سييرا الايسكامبريه ، في وسط الجزيرة ، في ايلول — تشرين الأول ١٩٥٨ . وبانتخاب مزيف سعى باتيستا إلى انتخاب خلف له من اختياره ، ولكن قسماً من الرأي ، في الولايات المتحدة ، وقف ضده . وأضنت

الجيش النظامي عقدة العزلة ، كما أضعفه الهرب من الجندية ، فلم يبد إلا مقاومة رمزية أمام تقدم الثوار . وفر باتيستا ، في ٣١ كانون الأول ١٩٥٨ ، واستولى كاسترو على سانتياغو كوبا ، في ٢ كانون الثاني ١٩٥٩ ، ودخل صف الثوار ذوي اللحي ، بأمر ايرنستو « شي » غيفارا ، ظافراً إلى لاهافانا في ٤ كانون الثاني ١٩٥٩ .

اكتفى فيديل كاسترو في البدء بالدور العسكري ورفع المعتدلين إلى السلطة : اوروتيا رئيساً للجمهورية ، وميرو كاردوناس رئيساً للوزراء . وقلق هذا الأخير من دعوى لاهافانا الكبرى واعدام ٣٠٠ شخص ، في كانون الثاني ١٩٥٩ ، واستقال . وأخذ فيديل كاسترو على عاتقه وظائف رئيس مجلس الوزراء ، في ١٥ شباط ١٩٥٩ . وكان في ذلك الحين سائراً في الاتجاه القومي الديموقراطي . وكانت زيارته الاولى للرئيس الفينزويلي ، ر بيتانكورت ، في كانون الثاني ١٩٥٩ . وعندما تكلم في نيويورك عرف نظامه بأنه « ديموقراطية انسانية » وقال : « لا خبز دون حرية ، ولا حرية دون خبز » ، في نيسان ١٩٥٩ ، ورسمت الحكومة اصلاحات وافقت عليها أكثرية الرأي : تنقية الادارة ، والبدء ببناء المدارس والمستشفيات والمساكن بسعر رخيص ، والاصلاح الزراعي ، في ١٧ أيار ١٩٥٩ .

ولكن لوحظت ، في السنوات التالية ، سلسلة أعمال وردود فعل تؤدي بنتيجتها إلى جر النظام نحو أقصى اليسار .

التطور الداخلي

إن انفكاك المعتدلين وبعض الكاستريين منذ الساعة الاولى ، مثل القائد دياز لانز ، آمر الطيران ، الذي فر إلى الولايات المتحدة ، في حزيران ١٩٥٩ ، والمؤامرات والاغتيالات التي نظمها المنفيون والمعارضون في

الداخل اضطرت النظام الى الاستناد شيئاً فشيئاً على الشيوعيين ، الذين شايعوا الحركة قبل النصر بثلاثة أشهر ، والى تبني اجـراءات جذرية تدريجياً . فمن ذلك أن اوسوالدو دورتيكوس حل محل اورّوتيـــا (المعتدل) في رئاسة الجمهورية ، في ١٨ تموز ١٩٥٩ .

وفي الأشهر الأخيرة من عام ١٩٥٩ وفي ١٩٦٠ أدى عمل المناوئين لكاسترو ، كضرب مزارع قصب السكر بالقنابل ، والثورة في سييرا الايسكامبريه ، وشجب الاسقفية للنظام ، في ربيع ١٩٦٠ ، إلى تصلب جديد : المنع التدريجي لجميع صحف المعارضة ، القمع الذي دبرته الـ G.2 (الشرطة السياسية — العسكرية) ، تأميم جميع المشاريع الكبرى (٦٠٠ مشروع تمثل ٨٠ ٪ من الصناعة الكوبية ، في ١٤ تشرين الأول ١٩٦٠) ، الاصلاح المدني الذي انتزع ملكية عمارات الاستئجار ، وتوقيف د . سالفادور ، وهو غير شيوعي ، وزعيم الاتحاد النقـــابي (C.T.C.) . وبينما كانت حملة مكافحة الأمية تنمو على مقياس واسع كانت الحكومة تؤمم المدارس الخاصة والدينية . وذابت حركة ٢٦ تموز الكاسترية في الحزب الشيوعي ، في ٣ تموز ١٩٦١ . وهيأ « تشي » غيفارا ، وزير الصناعة ، منذ شباط ١٩٦١ ، خطة خمسية (١٩٦٢ — ١٩٦٧) تعطي الأولوية للصناعة الثقيلة ، كما عهد بحقيبتي الزراعة والتجارة الخارجية إلى شيوعيين .

العلاقات مع الولايات المتحدة

بعد نزع ملكية المزارع التـــابعة للشركات الامريكية ، بموجب الاصلاح الزراعي ، في صيف ١٩٥٩ ، شجعت سلطـات واشنطون ، بشكل أعمال انتقامية ، نشاطات المنفيين الكوبيين .

عندئذ اتجهت حكومة كاسترو نحو الاتحاد السوفياتي بعدة أعمال : تدشين ميكويان المعرض الرومي في لاهافانا ، في ٥ شباط ١٩٦٠ ، اتفاق تجاري كوبي — سوفياتي ، استئناف العلاقات الدبلوماسية بين البلدين . ورفضت المصافي الامريكية القائمة في كوبا معالجة البترول الرومي المستورد بموجب الاتفاق التجاري الكوبي — السوفياتي ، وتقدمت حكومة واشنطون إلى الكونغرس بمشروع قانون يرخص للسلطة التنفيذية بتخفيض كوتا (حصة) استيراد السكر الكوبي ، وأمر كاسترو بالقبض على مصافي التكساكو ، وستاندارد اويل ، وشيل ، في ٢٩ — ٣٠ حزيران ١٩٦٠ . فرد الرئيس آيزنهاور بانقاص واردات السكر الكوبي بـ ٧٠٠٠٠٠ طن ، في ٦ تموز ١٩٦٠ . وعندئذ قرر الوزير السوفياتي الأول . ن . خروتشوف شراء هذه الكمية وهدد الولايات المتحدة بحرب نووية في الحالة التي تهدد بها كوبا ، في ٩ — ١٠ تموز ١٩٦٠ ، بينما قررت حكومة لاهافانا تأميم جميع المشاريع الامريكية ، وقيمتها ٨٠٠ مليون دولار .

وشخص فيديل كاسترو إلى واشنطون للمشاركة في دورة منظمة الأمم المتحدة ، وخطب ، بهذه المناسبة ، خطاباً عنيفاً لام فيه الولايات المتحدة ، في ايلول ١٩٦٠ . وأقيمت علاقات دبلوماسية بين كوبا والصين الشعبية ، في ٣٠ ايلول ١٩٦٠ . وعندئذ وضعت حكومة واشنطون الحظر على الصادرات الذاهبة إلى كوبا ، ودفع هذا القرار إلى ابرام اتفاقات جديدة مع حكومة لاهافانا ، يشتري بموجبها الاتحاد السوفياتي القسم الأعظم من انتاج سكر الجزيرة ، في كانون الأول ١٩٦٠ . وقطعت العلاقات الدبلوماسية بين واشنطون ولاهافانا ، في ٤ كانون الثاني ١٩٦١ . وقرر الرئيس كينيدي ، الذي استلم السلطة ، في ١٨ كانون

الثاني ١٩٦١ ، تعليق واردات السكر الكوبي كلها . وحاول جيش من المنفيين الكوبيين المدربين في فلوريدا وغواتيمالا ، غزو كوبا . وحرم الغزاة من الغطاء الجوي ، بعد أن رفضه كينيدي ، وسحقتهم الميليشات الكاستروية المجهزة بالسلاح السوفياتي بكثرة (١٦ — ١٧ — ١٨ نيسان ١٩٦١) .

العلاقات مع امريكا اللاتينية

بينما كانت الأنظمة المحافظة تكيف سياستها مع سياسة واشنطون ، كانت الحكومات القومية الديموقراطية تأخذ على كاسترو خيانته لمثلها الأعلى المزدوج بتحالفه مع الشيوعيين ورفضه تنظيم انتخابات . ولذا فان بعض هذه الحكومات ، وبخاصة حكومة فينيزويلا ، اشتركت بالقرار المناوىء لكاسترو الذي صوت عليه مؤتمر الدول الامريكية في سان خوسيه في كوستاريكا ، في آب ١٩٦٠ . فردت كوبا بـ « تصريح لاهافانا » الذي ينكر كل صفة تمثيلية لحكومات امريكا اللاتينية ، في ٢ ايلول ١٩٦١ . وانتهى هذا الموقف والاضطراب العنيف الذي نجم عنه في مختلف البلاد ، من مظاهرات شوارع ومحاولات اغتيالات وحرب عصابات ، باثارة الحكومات ، التي اتهمت النظام الكوبي بامداد الحركات الهدامة على أراضيها بدعايته وتجهيزاته بالاسلحة . وقرر مؤتمر الدول الامريكية المنعقد في بونتا دل ايست ، بـ ١٤ صوتاً و ٦ امتناع ، اخراج كوبا من منظمة دول امريكا . وقطعت جميع حكومات امريكا اللاتينية ، باستثناء حكومة المكسيك ، كل بدورها ، العلاقات الدبلوماسية مع لاهافانا . وبالتالي شجبت منظمة دول امريكا أيضاً وخلال مرتين النظام الكوبي ، في ١٩٦٣ وفي ايلول ١٩٦٧ .

من أزمة تشرين الاول ١٩٦٢ الى التعايش

انعزلت كوبا عن القارة الامريكية وأصبحت تابعة شيئاً فشيئاً ، على جميع المستويات ، لمساعدة الاتحاد السوفياتي . ولذا فان موجهي واشنطون لم يفاجؤوا إلا نصف مفاجأة عندما أرسلت طائرة من نوع U - 2 للاستطلاع فوق الجزيرة ، في ١٤ تشرين الأول ١٩٦٢ ، وأتت بصور فوتوغرافية تبرهن على أن ٤ قواعد اطلاق صواريخ سوفياتية كانت في حيز الانشاء في كوبا . وإذا أمكن انهاء هذه الاشغال ، فان ٤٢ قاعدة لقيادة الجو الستراتيجية ، أي ٥٠٪ من التشكيل الدفاعي للولايات المتحدة يصبح موجوداً تحت نار الصواريخ ، ذات المدى ٢٠٠٠ و ٤٢٠٠ كم ، والمنطلقة من القواعد الكوبية . وقد وضع الرئيس كينيدي قواه في حالة انذار بالخطر شامل ، وحشد تشكيلاً جوياً – بحرياً عظيماً حول كوبا . وبذا تكون مهددة بالابادة والهدم في حال انفجار حرب . ووجه إلى الاتحاد السوفياتي انذاراً يطلب فيه تقويض القواعد التي هي في حالة انشاء ، في ٢١ تشرين الأول ١٩٦٢ . ويبدو أن الحرب العالمية الثالثة أوشكت أن تنفجر . ولكن الاتحاد السوفياتي قبل سحب عتاده على أن تتعهد الولايات المتحدة بعدم مهاجمة كوبا . ووعد كينيدي بالامتناع عن كل عدوان كما يبدو من تبادل الوسائل بين كينيدي وخروتشوف من ٢٢ – ٢٧ تشرين الأول ١٩٦٢ .

وكان هذا الاتفاق ، المبرم خلافاً لرأي لاهافانا ، أول صك بالتعايش السلمي بين موسكو وواشنطون . وبتفاقم الخلاف بين موسكو وبيكين ، وضع كاسترو في موضع حرج . لأن الاجراءات التي اتخذت على عكس مايريد « الحرس القديم » الشيوعي ، وتعلق كوبا بعقيدة الكفاح المسلح بدت

تدل على أن حكومة لاهافانا تميل نحو الصين الشعبية . ولكنها ، من الوجهة الاقتصادية ، كانت تتبع شيئاً فشيئاً وبشكل وثيق الاتحاد السوفياتي ، الذي يمتص القسم الاعظم من انتاج السكر ويجهزها ، بالمقابل ، بالمحروقات ، والسلع الغذائية والأدوات المصنوعة . حتى ان خطة التصنيع الكبرى ، التي وضعها « شي » غيفارا ، وقعت في خطر بسبب صعوبات تكييف قطع التبديل من أصل سوفياتي مع التحتية الصناعية الكوبية الآتية من الولايات المتحدة . ولذا ذهب كاسترو إلى الاتحاد السوفياتي ليطلب عوناً اقتصادياً زائداً ، في آذار ١٩٦٣ .

ويبدو أن القرار بابعاد « شي » غيفارا عن المسرح السيامي الكوبي ، في آذار ١٩٦٥ ، يعكس الاهتمام في ارضاء الاتحاد السوفياتي مع متابعة حرب العصابات في امريكا اللاتينية . وإن مؤتمر العالم الثالث ، في لاهافانا ، في كانون الثاني ١٩٦٦ ، فسح مجالاً لعدة حوادث عنيفة بين كوبا وحكومة بكين التي حنقت من التفضيل المحول إلى موسكو . وحصل كاسترو ، مقابل مشايعته للاتحاد السوفياتي ، على موافقة هذا الأخير على انشاء لجنة ثورية امريكية (O.L.A.S.) مكلفة باعداد الكفاح المسلح في مختلف بلاد امريكا اللاتينية . ولكن تخلي معظم الاحزاب الشيوعية المناصرة لروسيا في الأشهر التالية عن حرب العصابات ، وسياسة تعايش الاتحاد السوفياتي مع بعض حكومات امريكا اللاتينية (المواثيق التجارية) فاقما الخلاف الايديولوجي ، الذي اتضح في مؤتمر اللجنة الثورية الامريكية (O.L.A.S) في لاهافانا ، من ٣١ تموز — ١٠ آب ١٩٦٧ .

لقد أخرج الشيوعيون المناصرون للروس من الحزب الشيوعي الكوبي ،

في خريف ١٩٦٧ ، ولكن النظـــام الكاستري ظل تابعاً للحكومة السوفياتية من وجهة النظر الاقتصادية ومن وجهة نظر الأمن ، ويطرح اختياراتها السياسية . وهذا التناقض الأساسي لم يكن منه إلا مضايقة السياسة الكوبية في الأشهر التالية .

حلف التقدم

منذ أن وصل الرئيس كينيدي إلى السلطة ، في كانون الثاني ١٩٦١ ، أعرب عن عزمه على اعداد برنامج واسع لمساعـدة امريكا اللاتينية . وقد درست هذه الخطة في الأشهر التالية وتبنيت بصورة رسمية في مؤتمر بونتا دل ايست (في اورغواي من ٥ — ١٧ آب ١٩٦١) . فقـد قررت العشرون بلداً الممثلة : الولايات المتحدة وجميع البلاد اللاتينية — الامريكية ، باستثناء كوبا ، تشكيل حلف التقدم بغية تنشيط التنمية الاقتصادية ورفع مستوى حياة شعوب امريكا اللاتينية . ووعدت الولايات المتحـدة بالمعونة الفنية والعون المالي ورصدت ٢٠ مليار دولار من أجل ١٩٦١ — ١٩٧١ . وتعهـدت بلاد امريكا اللاتينية ، من جانبها ، بتبني الاجراءات الضرورية لتأمين تنميتها : التخطيط الاقتصـــادي ، الاصلاح الزراعي ، الاصلاح الضريبي . زيادة الأجور ، انشاء المساكن ، مكافحة التضخم النقـدي والبطـــالة والأمية . وتواعد الموقعون على تحقيق « الدمج اللاتيني — الامريكي » وايجاد حل للقضية الخطيرة وهي شدة التغييرات في أسعار الحاصلات الاولية من مواد أولية وسلع زراعية . ووضع خبراء المجلس الاقتصادي والاجتماعي ، الذي ينعقد مرتين في العام ، منذ مؤتمر مكسيكو ، في تشرين الأول ١٩٦٢ ، موازنة حلف التقدم ، وأبدوا النتائج التالية : تقدم ضعيف على جميع المستويات خلال الدور ١٩٦١ —

١٩٦٢ بسبب انخفاض أسعار الحاصلات الأولية ؛ تقدم صناعي وزيادة الانتاج القومي الخام في معظم البلاد انطلاقاً من ١٩٦٤ ؛ عجز مستحكم في ميزان الحسابات قدرة ٣ مليار دولار في ١٩٦٥ لمجموع امريكا اللاتينية ، وذلك بسبب الديون المتراكمة في العهد السابق ؛ تأخر مستحكم في جميع البلاد تقريباً في تنفيذ البرامج الزراعية والاجتماعية (السكن والصحة) والثقافية (التربية ومكافحة الأمية) .

عصر الاستيلاء على السلطة

يتضح هذا التأخر في البرامج بخاصة بحركات الاستيلاء على السلطة التي كانت تقلب كثيراً من الانظمة الاصلاحية المتهمة ، بصورة مناقضة ، بالشيوعية بواقع ارادتها في تطبيق الاصلاحات التي أزمع عليها حلف التقدم . وكانت هذه الانقلابات سهلة لضعف قوى التقدم الاجتماعي بسبب النزاع بين الكاستريين والاصلاحيين ، والخوف من الكاسترية - الشيوعية الذي دفع البورجوازية والطبقة الوسطى إلى طلب حماية الأنظمة العسكرية . وفي الولايات المتحدة ، إن الخوف من رؤية الانظمة الاصلاحية تتطور - مثل نظام لاهافانا - نحو الشيوعية شل القوى الديموقراطية وساعد الاوساط العسكرية وجموع « كواليس » الكارتيلات الكبرى على فرض سياستها في دعم الدكتاتوريات .

وعدا عن الانقلابات التي قلبت الرؤساء فرونديزي و ايليا (في الأرجنتين ، آذار ١٩٦٢ وحزيران ١٩٦٦) ، بوش (في الجمهورية الدومينيكية ، في ايلول ١٩٦٣) و غولارت (في البرزيل ، في نيسان ١٩٦٤) ، يلاحظ خمس ضربات قوة أخرى . وقد أدى بعضها إلى توطيد أنظمة

عسكرية دائمة ، بينما فرض الضغط الشعبي ، في بلاد أخرى ، العودة إلى الحياة الديموقراطية السوية .

في بيرو

كانت انتخابات ١٠ حزيران ١٩٦٢ في صالح هايا دولاتوره من الحلف الشعبي الثوري الامريكي (A.P.R..A.) ، وطلب الجيش الذهاب المسبق للرئيس الخارج ، برادو ، في ١٨ تموز ١٩٦٢ ، ورفع إلى السلطة خونته عسكرية الغث الاقتراع ، وأدت الانتخابات التي نظمتها الخونته ، في تموز ١٩٦٣ ، إلى انتخاب فرناندو بلاونده تيري من حزب العمل الشعبي ، في الوسط ، من أجل الدور ١٩٦٣ - ١٩٦٩ .

واصطدم الرئيس ، في الكونغرس ، بمعارضة أكثرية مشكلة من تحالف الحلف الشعبي الثوري الامريكي (الوسط الأيسر) ومن الاتحاد القومي (اليمين) وحصلت السلطة التنفيذية ، مع ذلك ، على التصويت على قانون يجبر الشركات البترولية على أن تدفع للخزانة ٦٠٪ من أرباحها . وكان هذا الحكم في أصل نزاع طويل بين الحكومة وشركة البترول الدولية . ومن جهة أخرى ، ان غزو الفلاحين المنود للاملاك الكبرى أوجد جواً من القلق والاضطراب شجع التصويت على القانون الزراعي ، في نيسان ١٩٦٤ . ولذا فان الدعوات إلى العنف ، التي أطلقتها في ربيع ١٩٦٥ جماعة صغيرة من الثائرين الكاستريين ، أيقظت قليلاً من الصدى ، وسحق الجيش العصابات بسهولة ، في آخر ١٩٦٥ — وبداية ١٩٦٦ . وبالتالي ، ان الدقة الحقوقية التي أخرت تطبيق الاصلاح الزراعي أثارت بعض الاستياء في الأرياف ، بينما الأزمة الاقتصادية المنبعثة عن زيادة النفقات العامة ونقص الصادرات ، كالسكر وطحين السمك ، فرضت

انخفاضاً في قيمة الأرض . وفاقم انسحاب النواب الديموقراطيين ـ المسيحيين عـدم الاستقرار الوزاري ، وقلب الجيش الرئيس بيلاونده ، في تشرين الأول ١٩٦٨ .

في غواتيمالا

قلب الجيش ، في ٣١ آذار ١٩٦٣ ، الرئيس فوينتس ، المحافظ ، المنتخب عام ١٩٥٨ ، ليتمكن من تأجيل الانتخابات التي ، إذا أخـذنا بعين الاعتبار حالة الرأي ، يبدو أنها تساعد على انتصار ج . ج آريفالو الرئيس الاصلاحي من١٩٤٥ إلى ١٩٥١) . ورفع الانقلاب إلى السلطة الكولونيل إ . بيرالتا آزوردیا ، وزير الدفاع في الحكومة الخارجة ، وقد حكم بأقصى الشدة . ولكن الهياج الشعبي أجبره على تنظيم انتخابات حرة ، خرج منها الحزب الثوري (الديموقراطي الوسطي) ظافراً .

وانتخب رئيس هذا الحزب ، جوليو سيزار مانديز مونتينيغرو ، رئيساً ، في ٦ آذار ، ١٩٦٧ ، ويبدو أنه لم ينجح في التحرر من الوصاية العسكرية . لأن بعض مراكز العصابات ما زالت موجودة في بعض المناطق ، بينما كان نشيطو اليمين (اليد البيضاء) يكثرون محـاولات الاغتيال . وقتل ارهابيو اليسار سفير الولايات المتحـدة ، غوردون ماين في ٢٨ آب ١٩٦٨ .

في هوندوراس

قلبت حركة ٣ تشرين الأول ١٩٦٣ الرئيس فيلليدا موراليس ، الليـبرالي ، المنتخب في ١٩٥٧ ، الذي نشر القانون الزراعي القاضي بنزع الملكية الجزئية عن مزارع الموز التابعة لشركة الفاكهة المتحدة .

ووقع الانقلاب قبل عشرة أيام على الانتخابات التي بدا أنها قد ترفع إلى السلطة مرشحاً ليبرالياً متمماً لموراليس . وذلك أن الكولونيل لوبيز آريلانو ، زعيم الخونته العسكرية انتخب رئيساً للجمهورية ، في آذار ١٩٦٥ ، من أجل الدور ١٩٦٥ — ١٩٧١ ، من قبل مجلس وطني منتخب قبل بضعة أسابيع في ظروف اعتبرها الناطقون باسم المعارضة قابلة للجدل والنقاش .

في الاويكوانور (جمهورية خط الاستواء)

قلب الرئيس كارلوس جوليو آروزيمنا ، في تموز ١٩٦٣ ، بضربة عسكرية . فقد انتخب ك . اروزيمنا نائباً للرئيس في عام ١٩٦٠ إلى جانب فيلاسكو ايبارا رئيساً للمرة الرابعة . وطرد هذا الأخير في عام ١٩٦١ . غير أن تعاطف رئيس الدولة الجديد مع كوبا جر عليه عداوة الجيش ، الذي أقر بعد حركة الاستيلاء على السلطة ، في تموز ١٩٦٣ ، حكومة ادارة (ديركتوار) مؤلفة من أربعة ضباط عامين متساوين نظرياً . غير أن حركة شعبية كثيفة أجبرت الحكومة العسكرية على الامحاء ، في آذار ١٩٦٦ . وقامت خونته مؤقتة يرأسها اندابورو ، وطالبت بانتخاب مجلس تأسيسي انتخب اوتو آروزيمنا غوميز رئيساً موقتاً في تشرين الثاني ١٩٦٦ . وأظهر هـذا الأخير اتجاهات تقدمية ورفض التوقيع على ميثاق بونتادل ايست واعتبره لاغياً (نيسان ١٩٦٧) .

في بوليفيا

قام انقلاب وطرد من الحكم الحركة الوطنية الثورية (M. N. R.) التي كانت على السلطة من ١٩٥٢ الى ١٩٦٤ . وبعد ولاية سيليس سوآزو

(١٩٥٦ — ١٩٦٠) انتخب باز ايستنسورو ، الرئيس الاسبق من ١٩٥٢ إلى ١٩٥٦ ، للمرة الثانية وللفترة ١٩٦٠ — ١٩٦٤ . غير أن خلل الموازنة والتضخم النقدي أجبراه على تبني برنامج تقشف لم يحظ بعد قليل برضى الشعب . ولاحتواء مليشات العمال ، ألف جيشاً نظامياً صغيراً (١٠٠٠٠ رجل) . وللحصول من الولايات المتحدة ومن البنك الاميركي للتنمية B . I . D وجمهورية المانيا الاتحادية على الاعتمادات الضرورية لتجديد مناجم القصدير ، قبل الرئيس باعادة تنظيم الكومبيول (ادارة حصر المناجم) وتسريح عمال المناجم باعداد عظيمة . وعندئذ قطعت نقابة عمال المناجم علاقتها مع الحركة القومية الثورية وألف خوان ليشان ، زعيم النقابة ونائب رئيس الجمهورية ، حزب المعارضة (P. R. I. N.) ، الذي تعاهد مع الفئة الشيوعية الصغيرة والطلاب الكاستريين . وبالرغم من هذا الانقسام في الاكثرية الحكومية ، فان باز ايستنسورو ، غير الدستور الذي يمنع ولايتين متواليتين ، وانتخب مرة أخرى رئيساً بفضل مساندة الجيش ، مع الجنرال باريانتوس نائباً للرئيس ، في ٣١ أيار ١٩٧٤ . وعندما تحالف اليسار مع الوسط والفرقة السياسية الفاشية (اليمين) قامت مراكز التمرد في عدة مناطق ، واتفق الجيش مع الثائرين ، واضطر الرئيس إلى الهرب الى الخارج رغم مساندة الفلاحين ، في ٤ تشرين الثاني ١٩٦٤ . وبادرت الحونته المؤقتة تحت رئاسة الجنرالين باريانتوس ، نائب الرئيس الأسبق ، و أوفاندو ، القائد الأعلى ، إلى قطع علاقاتها مع اليسار . وقامت محاولات تمرد من قبل عمال المناجم ، وبخاصة في اوروورو ، ولكن الجيش كسرها وأمر بنزع سلاح المليشات العمالية ، في أيار وايلول ١٩٦٥ . وقطع الجنرال باريانتوس علاقاته مع الفرقة البوليفية ، لسان حال اوليغارشية أصحاب الاطيان ، التي قدمت له

محالفها الانتخـــابي ، وحصل بذلك على مشايعة الفلاحين المستفيدين من الاصلاح الزراعي ، وانتخب رئيساً للجمهورية ، في ٣ تموز ١٩٦٦ . أما جماعات الثوار الكاستريين المتمركزين في سبسب منطقة سنتاكروز في سييرا كاميري فقد أبادها الجيش . وإذا أخذنا بالنص الرسمي ، وقد وضع موضع الشك من بعض المراقبين ، ولكن الحكومة الكوبية أيدته ، نجد أن القائد ارنستو « تشي » غيفـارا الذي كان يوجه شخصياً احدى الوحدات ، لاقى الموت في احدى الملاحم ، في تشرين الأول ١٩٦٧ . كما أن الجامعي الفرنسي ريجيس دوبريه ، الذي القي القبض عليه قبل بضعة أسابيع في منطقة الثوار ، حكم عليه بالسجن ٣٠ عاماً بعد دعوى تعسفية أثارت العديد من الاحتجاجات في فرنسا وفي العالم أجمع .

ظروف قناة باناما

إن قناة باناما ، التي أنشأتها الولايات المتحدة ودشنت في ١٩١٤ ، أثارت، في العام ١٩٦٤، حوادث بين حكومة واشنطون وجمهورية باناما التي انفصلت عن كولومبيا في ١٩٠٣ . ان المعاهدة الامريكية ـ البانامية لعام ١٩٠٣ تنازلت الى الابد للولايات المتحدة عن منطقة عرضها ١٦ كم (١٤٠٠ كم٢) واقعة على جانبي القناة ، مقـابل تعويض ثابت رفع في العام ١٩٣٦ ثم نقل في ١٩٥٨ الى ١٫٩٠٠٫٠٠٠ دولار . غير أن وجود الجنود الامريكيين والتباين بين بذخ السكان الامريكيين في « منطقة القناة » وبؤس الطبقات الشعبية البـانامية ، ولدا قومية هائجة بشدة ، بينما كان الدخول بحرية للبضائع الشمال ـ امريكية في منطقة القناة يسمح لتجارة تهريب ضارة بالتجارة المحلية .

شجعت هذه التظلمات على انشاء حزب قومي استبدادي يوجه آدنولفو ارياس ، وقد انتخب رئيساً ، في ١٩٣٩ و ١٩٤٩ ، وفي كل مرة كانت تقلبه حركة موالية للولايات المتحـــدة . واثر نداء هـذا الحزب قامت مظـاهرات عنيفة في باناما في ١٩٥٩ . وعنـدئذ اعترف الرئيس آيزنهاور بمبدأ السيادة البانامية على منطقة القناة . وقرر الرئيس البـانامي روبرتو شيادي (من الحزب الليبرالي القومي ، انتخب عام ١٩٦٠) والرئيس كينيدي أن يحقق العلمان معاً على عمارات « منطقة القناة » ، كما تم في لقاء ١٣ حزيران ١٩٦٢ . غير أن هذه الاحكام انتهكت ، وقامت حوادث دامية قاوم فيها المتظاهرون البانامیون الجنود الامريكية (٩ — ١٠ كانون الثـاني ١٩٦٤) . وقطع الرئيس شياري العلاقات الدبلوماسية مع الولايات المتحـدة وقـدم شكواه إلى مجلس الأمن وفسخ معاهدة ١٩٠٣ .

وبعد استئناف العلاقات الدبلوماسية ، في ٤ نيسان ١٩٦٤ ، عقدت مفاوضات صعبة ، بينما كانت حكومة واشنطون تهدد بانشاء قناة ثانيـة على أرض جمهورية أخرى . واعترف جميع الخبراء بأن ضرورات الملاحة تتطلب انشاء قناة أخرى أفقيـة ، قبل عام ١٩٨٠ . وان مدة العبور تحدد ، في الواقع ، عدد القبول اليومي (٣٠ سفينة حالياً) . ولكن كان يراد معرفة ما اذا كانت القناة الثانية ستنشأ على أرض بانامية ، في جنوب القناة الحالية ، أو في بلد آخر . وعندما أعلمت المكسيك بأنهـا « غير معنية » بحفر برزخ تيهوانتيبيك ، أهملت حكومة واشنطون العـروض

التي قدمتها نيكاراغوا (ريو سان خوان — لاك نيكارافوا) وعقدت مفاوضات مع كولومبيا بغية حفر قناة أفقية تجذب المواصلات البحرية كلها . ولكن الرسم البانامي للقناة الثانية كان أقل بمقدار النصف من رسم قناة كولومبيا (٧٠ ك م عوضاً عن ١٦٤ ك م) ، وهذا يسمح بتخفيض ٥٠٪ من نفقة الأشغال ومدتها . وتغلبت هذه الحجة على فكر الموجهين الامريكيين . ولذا فان الاتفاق الامريكي — البانامي ، في ٢٦ تشرين الثاني ١٩٦٥ ، المبرم في عهد ولاية ماركوس دوبليس ، الليبرالي القومي ، المنتخب في ١٠ أيار ١٩٦٤ ، كرّس المطاليب البانامية الأساسية : الغاء معاهدة ١٩٠٣ ، الاعتراف بسيادة باناما على منطقة القناة ، الدمج التدريجي لهذه المنطقة في الارض البانامية (القواعد والاجهزة تترك للجيش الاميركي) وحفر قناة ثانية في أرض باناما . أما ما يتعلق بالقناة الحالية فقد وضع لها مشروع نظام جديد ووضع بعد مفاوضات طويلة . ولكن هذا المشروع انتقده الزعيم القومي آرنولفو آرياس ، الذي انتخب رئيساً في أيار ١٩٦٨ ، وخلعه الحرس القومي في شهر تشرين الأول التالي .

الديموقراطية المسيحية في تشيلي وفي امريكا اللاتينية

لقد لوحظ في امريكا اللاتينية ، في السنوات الخمس الأخيرة ، تقدم محسوس في مختلف المنظمات الديموقراطية — المسيحية : التجمعات الدينية (العمل الكاثوليكي) ، رابطات الشبيبة (وبخاصة في الجامعات) ، والأحزاب ولا سيما المنظمات النقابية . وإلى جانب (اتحاد العمال والفلاحين المسيحيين) في كوستاريكا ، يرى في امريكا الوسطى وفي جزر بحر الكريبي نمو : اتحاد الشغيلة المسيحيين في برزخ باناما ،

والـ .F.E.C.F.T.R.A.G (في غواتيمالا) ، الحركة النقابية المستقلة (في نيكارغوا) والـ .F.A..S.H (في هوندوراس) ، النقابات المسيحية والرابطات الزراعية في الجمهورية الدومينيكية . وفي البرازيل ، كان اتحاد الفلاحين ، في الشمال الشرقي ، يضم ٤٠٠٠٠٠ عضو (قبل انقلاب الأول من نيسان ١٩٦٤) . وفي بيرو كان الـ .M.O.S.I.C.P يضم ٢٠٠٠٠٠ مشترك في الأرياف . وفي فينيزويلا صنف حزب كوبي في الموقع الثاني ، بعد حزب العمل الديموقراطي ، أثناء انتخابات كانون الأول ١٩٦٣ (بـ ٢١٪ من الأصوات ، و ٤٠ نائباً) .

و تجمعت المنظمات النقابية الديموقراطية - المسيحية في الـ : **الاتحاد اللاتيني — الاموريكي للنقابات المسيحية** (.C.L.A.S.C) الذي ارتبط ، منذ كانون الأول ١٩٥٤ ، بـ **الاتحاد الدولي للنقابات المسيحية** (.C.I.S.C) . والاتحاد اللاتيني — الامريكي للنقابات المسيحية يتألف من ٢٦ اتحاداً وطنياً (ومن ضمنها اتحادات الاراضي الواقعة تحت سيطرة دولة اوربية) ، ويضم ٥ ملايين مشترك . وقد عقدت المنظمة عدة مؤتمرات ، وبخاصة في كاراكاس ، في تشرين الثاني ١٩٦٢ ، ونشر مجلسها التنفيذي ، المنعقد في ريو دو جانيرو ، وثيقة وقف فيها ضد هيئات **جامعة الدول الاموريكية** التي تضم الولايات المتحدة وبلاد امريكا اللاتينية مثل **منظمة دول امريكا** (.O.E.A) **والاتحاد النقابي** (O.R.I-T) ووقف لصالح دمج امريكا اللاتينية على الصعيد السياسي والاقتصادي(السوق المشتركة) وعلى الصعيد النقابي . (« عالمان وجهاً لوجه : العالم اللاتيني — الامريكي والعالم الشمال — امريكي ... وان جامعة الدول الامريكية عدو اللاتينية — الامريكية . » رسالة ريو دو جانيرو ، ٩ — ١١ آذار ١٩٦٤) .

وانتصرت الحركة في شيلي ، حيث كانت الاتجاهات الأخرى عاجزة عن حل القضايا الملحة الاقتصادية والاجتماعية . وحققت حكومات اليسار (١٩٣٨ — ١٩٥٢) اصلاحات هامة اجتماعية ونشطت التصنيع (انشاء رابطة التنمية ، مركز لصناعة الحديد في هواشيباتو) . ولكن تدفق العمال على المدن أوجد قضية السكن الخطيرة . ومن جهة ثانية أدت نفقات التوظيف إلى عجز الموازنة ، واختل ميزان الحسابات بتغيير أسعار النحاس (الصادر الأساسي) والواردات الكثيفة من أدوات التجهيز والواردات الغذائية التي يتطلبها تفريط الانتاج الزراعي . وأدى العجز المزدوج في الموازنة وميزان الحسابات إلى التضخم النقدي . وحاول الجنرال — الرئيس كارلوس ايبانيز دل كامبو (١٩٥٢ — ١٩٥٨) ، وكان من قبل رئيساً في (١٩٢٧ — ١٩٣١) ، عبثاً السيطرة عليه . وقد انتخب بمشاركة أصوات اليسار على برنامج قومي واجتماعي قريب من البيرونية الأرجنتينية، ولم يستطع تحقيق أي اصلاح من الاصلاحات الموعودة .

وحكم خلفه جورج اليساندري المحافظ بمساندة الأحرار الليبراليين والراديكاليين ، وأثار استياء الطبقات الشعبية ببرنامج التقشف وتجميد الأجور ، دون التوصل إلى ايقاف ارتفاع سعر الحياة . وفي انتخابات ٤ ايلول ١٩٦٤ ، انتخب الزعيم الديموقراطي — المسيحي ادوار دو فري رئيساً للجمهورية ضد اللاند ، مرشح الجبهة الشعبية .F.R.A.P ، ولكن تطبيق برنامجه « ثورة في الحرية » شل منذ البدء بالمناورة البرلمانية ، من يمين ويسار ، وأعطى انتصار الحزب الديموقراطي — المسيحي في الانتخابات التشريعية ، في آذار ١٩٦٥ ، الرئيس فري الاكثرية المطلقة في مجلس النواب . واتخذ ادوارد دو فري عدداً من الاجراءات ذات النفع

الاجتماعي (بناء مساكن بسعر رخيص) وطلب الموافقة من الكونغرس على الاتفاقات الموقعة بين حكومته والشركات الأجنبية صاحبة امتياز مناجم النحاس (وهذه الاتفاقات أوجدت شركات مختلطة تملك الدولة في داخلها ٥١٪ من الحصص) . أما المناقشة في الكونغرس على مشروع الاصلاح الزراعي فقد جدتها أحزاب اليمين (الاقلية) واعتبرته غير دستوري باعتباره ينال من حق الملكية الذي يضمنه الدستور ، ولذا طلب الرئيس التصويت على تعـديل دستوري ليستطيع البدء بتنفيذ الاصلاح الزراعي . وأدى ارتفاع سعر الحياة إلى اضطراب اجتماعي كثيف في ١٩٦٧ . ومن جهة أخرى ، أثار فري حركة شديدة معاكسة في قلب الحكومة والحزب الديموقراطي المسيحي بتقديمه مشروع « توفير اجباري » يطبق على جميع العمال ، بغية تغذية مال التوظيف يساعد بهذا الشكل على انشاء صناعات جديدة (خريف ١٩٦٧) .

وفي الخارج ، تقرب فري من الأرجنتين وأوربة الغربية ، وأعاد توطيد العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ، ووقف بقوة ضد الانزال الامريكي في سان دومينغ ، وضد كل شكل للتدخل في الشؤون الداخلية للشعوب الأخرى (ميثـاق بوغوتا ، آب ١٩٦٦) . وجهد في تعجيل الدمج اللاتيني — الامريكي ، ولعب ، في هذا الاتجاه ، دوراً رئيسياً في مؤتمر القمة في بونتا دل ايست ، في نيسان ١٩٦٧ .

أزمة سان دومينغ

إن الحوادث الدامية ، التي كانت الجمهورية الدومينيكية مسرحاً لها في ربيع ١٩٦٥ ، تجد أصلها في دكتاتورية الجنرال رافائيل ليونيداس تروجيللو مولينا (المولود عام ١٨٩١) . كان زعيم المليشا المساعدة التي

تألفت أثناء احتلال الجيوش الامريكية للبلاد (١٩١٦ — ١٩٢٤) لمحاصرة الثوار الوطنيين . وعمل تروجيللو على انتخابه رئيساً للجمهورية في ١٩٣٠ . وقد سيطر على الجيش وعلى جهاز بوليسي معقد ساعده على فرض الارهاب ، وحكم خلال واحد وثلاثين عاماً، اما بصفة رئيس (١٩٣٠ — ١٩٣٨ ، ١٩٤٢ — ١٩٥٢) واما بواسطة رئيس تمثيلي للدولة بصفة محضة (١٩٣٨ — ١٩٤٢ ، ١٩٥٢ — ١٩٦١) وقد شجبت منظمة دول امريكا (O . E . A) النظام ، اثر محاولة اغتيال أعدت في أرض دومينيكية ، ضد الرئيس الفينيزويلي ر . بيتانكورت (١٩٦٠) . واضطر هكتور تروجيللو ، (اخو الجنرال) بصفته رئيساً منذ ١٩٥٢ ، ان ينسحب تاركاً ظواهر السلطة إلى نائب الرئيس بالاغير . أما الجنرال ر . ل . تروجيللو ، الذي ظل يحكم في الواقع ، فقد قتل ، في أيار ١٩٦١ .

وأجبرت المظاهرات الشعبية ، وعلى ما يبدو ، الضغط السري للولايات المتحدة ، الرئيس بالاغير بدوره على الاستقالة ونظمت حكومة مؤقتة ، يرأسها بونيللي (الليبرالي) ، في كانون الأول ١٩٦٢ ، انتخابات أشرفت عليها منظمة دول امريكا ، وكان النصر فيها ، بـ ٦٠٪ من الأصوات المعبرة ، حليف الزعيم الاصلاحي والكاتب خوان بوش المولود عام ١٩٠٩ ، وقد نفي خلال خمس وعشرين عاماً ، وكان مؤسساً للحزب الثوري الدومينيكي . واستلم سلطاته في شباط ١٩٦٣ ، وأقلق الطبقات المالكة باصلاحاته ، وخلعه الجيش ، في ايلول ١٩٦٣ . وتألف ثالوث تحت رئاسة رجل الأعمال وايد كابرال (ايلول ١٩٦٣ — أيار ١٩٦٥) . غير أن الفساد الاداري ، وتأجيل الاصلاحات والبطالة والبؤس أثارت استياء شعبياً شديداً . وحدث أن كثيراً من الضباط الشبان القوميين تآمروا لصالح ج . بوش فعزلوا من وظائفهم ، فاستولى رفقاؤهم

على محطة اذاعة الراديو والقوا بنداء إلى الشعب ، ولدى هذه الاشارة ، نزل إلى الشارع في ٢٤ نيسان ١٩٦٥ .

واستقال الثالوث ، وبدأ النزاع بين « الدستوريين » (العسكريين والمدنيين انصار خوان بوش) وقوى المدرعات التي يقودها الجنرال فسّن اي فسّن . وقد وهنت معنويات هؤلاء الجنود أمام عدد خصومهم ، كما أضعفهم الفرار من الجندية ، فلاقوا « انهياراً ظاهرياً » (حسب التعبير الذي استعمله أمين الدولة الامريكية المساعد ت . مان ، في تصريح إلى صحيفة « نيويورك تايمز » ، في ٩ أيار ١٩٦٥) . وعندئذ قرر الرئيس جونسون نزول فرقة المظليين الـ ٨٢ على سان دومينغ ، في ٢٨ نيسان ١٩٦٥، وبرر هذا القرار الناطقون بلسان حكومة واشنطون ، باديء بدء ، بالاهتمام في تأمين أمن المغتربين الامريكيين ثم بوجود عدد من العملاء الشيوعيين الذين تسللوا في صفوف الدستوريين .

وبدا أن القوات الامريكية ، بالرغم من أهميتها العددية (٤٠٠٠٠ رجل جملةً مع المصالح المساعدة) والموقع المتوسط بشكل دهليز الذي احتلته بين المعسكرين ، كانت عاجزة عن انهاء الكفاح . وفي الأحياء الشعبية ، في سان دومينغ ، التي يحتلها الدستوريون ، انتخب الكونغرس الكولونيل كامانيو رئيساً للجمهورية ، في ٤ أيار ، بينما كانت خونته الجنرال فيسّن ، في المعسكر الآخر ، تهيء مكاناً لحكومة مؤقتة يرأسها الجنرال امبرت باديراس أحد قتلة تروجيللو . وتدخل وقف النار بفضل جهود لجنة السلام من قبل منظمة دول امريكا O. E. A. ، في ٥ أيار ، فلم يحترم . غير أن جيش الجنرال امبرت ، الذي اضطرب نظامه قبل بضعة أيام ، عزز بسرعة بنجدات وبعتاد قوي ثقيل ، وفتح الأحياء

الصناعية في سان دومينغ (١٤ — ٢٠ أيار) . وأثار هذا الكفاح ، الذي ملأ شوارع سان ـ دومينغ بالجثث والانقاض ، مظاهرات استياء في عواصم امريكا اللاتينية وفي العالم كله .

وكثير من الحكومات الايبيرية ـ الامريكية (المكسيك ، شيلي ، فينيزويلا ، اورغواي ...) وقفت بحزم ضد التدخل الشمال ـ امريكي . وأدت جهود المصالحة ، التي بذلها في سان ـ دومينغ مايور الفينيزويلي ، المبعوث الخاص للأمين العام لمنظمة الأمم المتحدة ، إلى توقيع هدنة ٢٢ أيار .

وفي اليوم نفسه ، صوت مجلس الأمن على قرار اقترحته فرنسا لصالح وقف النار .

وحملت الجيوش الامريكية التي دخلت في « قوة السلام » التابعة للدول الامريكية والتي ازدادت بفرق برزيلية ، وهوندراسية ونيكاراغوية ، ابتداءً من ذلك الحين ، على احترام الهدنة . وأدت مفاوضات طويلة ، في تموز ١٩٦٥ ، إلى اتفاق : واستقالت الخونتتان ، وحاولت حكومة مؤقتة برئاسة غواسيا غودوا ، بالرغم من حوادث عديدة أن تهيء الانتخابات العامة .

وجرت هذه الانتخابات في جو هادىء ، في الفاتح من حزيران ١٩٦٦ ، ونصرت الرئيس الأسبق ج . بالاغير بـ ٧٥٩٢٦٥ صوت مقابل ٥٢٥٠٠٠ إلى خوان بوش . ويوضح بعض المراقبين هذه النتيجة بالغش الذي لم يستطع اشراف مندوبي منظمة دول امريكا (O. E. A.) منعه . ويبدو أن انتصار معاون تروجيللو السابق يرجع إلى تصويت الفلاحين الكثيف المتأثرين بالاكليروس وإلى الاقتناع بأن رجل الدولة

هذا كان الوحيد الذي استطاع أن يحصل على جلاء قوات الاحتلال وعلى المساعدة الاقتصادية من الولايات المتحدة . وفي الواقع أن قوة الدول الامريكية (F.I.P.) أجلت البلاد ، في ايلول ١٩٦٥ . ولكن عدم كفاية المعونة الامريكية ، وفقدان كل اصلاح واسع ، وأزمة صادرات السكر والكاكاو ، والنوائب الطبيعية (الجفاف ، والاعصار اينيس) تسببت في تدمير الحالة الاقتصادية بينما كانت الحوادث تتكاثر بين الجيش ومناضلي اليسار . وهذه الوقائع حضت حزب بوش على تصليب موقفه عند انتخاب بينيا غوميز ، وعمره تسع وعشرون عاماً ، زعيم الجناح المتشدد ، أميناً عاماً في تشرين الأول ١٩٦٦ .

من حرب العصابات الى التعايش

إن عودة الولايات المتحدة إلى سياسة التدخل العسكري ، التي كان يعتقد بأنها انتهت ، أحدثت في بعض الأوساط انطباعاً بأن الاصلاحية ليس لها أي حظ في فرض نفسها ، وشجعت على هذا النحو اشتعال العنف (مظاهرات ، اغتيالات ، ثورات) . وبينما كان مؤتمر القارات الثلاث في لاهافانا ينشىء اللجنة الثورية الامريكية لتنسيق مختلف عصابات امريكا اللاتينية (كانون الثاني ١٩٦٦) ، حاولت الولايات المتحدة تأليف قوة امريكية مستديمة مستعدة للتدخل في جميع البلاد التي تهددها الاعمال الهدامة . ويبدو أن امريكا اللاتينية انزلقت نحو حرب عصابات معممة .

ولكن مشروع القوة الامريكية اصطدم بمقاومة معظم الحكومات اللاتينية ـ الامريكية ، ولذا لم يبحث في القضية في مؤتمر الدول الامريكية في ريو دو جانيرو ، تشرين الثاني ١٩٦٥ . فقد وقف رؤساء شيلي وكولومبيا وفينيزويلا ، المجتمعون في بوغوتا ، رسمياً لصالح « المبدأ

المقدس في عدم التدخل » (آب ١٩٦٦) . وحاولت الأرجنتين عبثاً أن تطلق من جديد المشروع بشكل « منظمة الأمن الدائمة » في مؤتمر رؤساء الدول ، في بوينوس آيرس ، في تشرين الثاني ١٩٦٦ . وكانت المقاومات حازمة جداً حتى ان الولايات المتحدة لم تجرأ أن تبحث القضية في مؤتمر القمة في بونتا دل ايست ، في نيسان ١٩٦٧

ومع ذلك ، هدأت الأفكار رويداً رويداً بعد الانفراج السلمي لأزمة سان دومينغ . ولذا فان الثورات التي زحفت إلى غواتيمالا وكولومبيا تراجعت إلى فينيزويلا ولاقت في بيرو اخفاقاً خطيراً (١٩٦٥ — ١٩٦٦) اتبع بهزيمة أخطر أيضاً في بوليفيا ، في تشرين الأول ١٩٦٧ .

ومنذ ١٩٦٥ دفع سحق ثورات الأدغال الأحزاب الشيوعية المناصرة للسوفياتيين إلى العدول عن الكفاح المسلح ، فعجل بذلك على أفول العصابات . ورأى الشيوعيون أن الشدة الثورية ، بطرحها الطبقة المتوسطة نحو اليمين ، شجعت على رسوخ الدكتاتوريات المحافظة المناصرة للامريكيين ، ولذلك قرروا الرجوع إلى طريقة « الجبهات المتحدة » مع الاحزاب التقدمية المعتدلة . وقام جدل طويل في هذا الموضوع وقف فيه فيديل كاسترو معارضاً الحزب الشيوعي الفينيزويلي ، الذي لم يسهم ، في الواقع ، في مؤتمر اللجنة الثورية الامريكية (تموز — آب ١٩٦٧) . وكان الشيوعيون الارجنتينيون ، وهم قريبون من البيرونيين ، والحزب الشيوعي البرازيلي ، الذي قرر دعم « الجبهة الواسعة » لاسيردا — كوبيتشيك ، في مؤتمر سري في كانون الأول ١٩٦٧) غائبين . وأمل الحزب الشيوعي الشيلي ، الذي انضم إلى الاشتراكيين ، بكسب انتخابات الرئاسة في عام ١٩٧٠ ، وعبر أيضاً عن وجهة نظر قانونية بصوت أمينه العــــام ،

كورفالان (في مقال نشرته جريدة « البرافدا » ، قبيل مؤتمر اللجنة الثورية الامريكية ، في تموز ١٩٦٧) .

وحض التعايش السلمي مع واشنطون واخفاق الكفاح المسلح الاتحاد السوفياتي على منح الدعم الاقتصادي لمختلف الحكومات اللاتينية — الامريكية ، ليحاول تخليصها من نفوذ الولايات المتحدة . وأدت العلاقات التجارية التي تمت أو استؤنفت مع سبعة بلاد : المكسيك ، الأرجنتين ، البرازيل ، شيلي ، كولومبيا ، اكوانور ، اوروغواي ، إلى زيادة المبادلات الروسية — اللاتينية — الامريكية وزادت قيمتها بأربعة أضعافها بين ١٩٦٠ و ١٩٦٧ . وكان الاتحاد السوفياتي ، الذي يخول ، عدا ذلك ، إلى شيلي معونة فنية هامة ، بموجب اتفاقات كانون الثاني ١٩٦٧ ، على ما يبدو ، مستعداً لمتابعة هذه السياسة ، بالرغم من احتجاجات لاهافانا .

نظام الدول الامريكية

إن نظام دول امريكا الذي تصعد أصوله إلى ١٨٨٩ ، في مؤتمر واشنطون ، دخل في مرحلة تنظيمية بانشاء منظمة دول امريكا O. E. A. ، في مؤتمر بوغوتا ١٩٤٨ .

وتضم منظمة دول امريكا ، في الأصل ، ٢١ دولة : الولايات المتحدة و ٢٠ جمهورية ايبيرية — امريكية ، ولكن كوبا أخرجت من المنظمة في ١٩٦٢ . وتتبنى القرارات الهامة فيها اما بلجنة وزراء الشؤون الخارجية ، واما بمؤتمر الدول الامريكية . ومقر الهيئتين الدائمتين فيها : الأمانة العامة ومجلس المنظمة ، الولايات المتحدة . ويساعدهما عدد من المجالس الفنية : المجلس الثقافي الامريكي (C. I. C.) ، ومجلس الفقه الامريكي

(C. I. J.) والمجلس الاقتصادي والاجتماعي الاميركي (C.I.E.S.) الذي تتبعه لجنة حلف التقدم الامريكية منذ ١٩٦١ .

وأوضحت أزمة سان — دومينغ عجــز منظمة دول امريكا ، وقرر مؤتمر ريو دو جانيرو اصلاح المنظمة الامريكية ، في تشرين الثاني ١٩٦٥ . ووضح النظام الجديد ، على صعيد الخبراء ، بمؤتمر باناما ، في آذار ١٩٦٦ ، وتبني بمؤتمر وزراء الشؤون الخارجية في بوينوس آيرس ، في شباط ١٩٦٧ ، وقوى سلطات الأمين العـام . ولكن الأزمة التي أثارها انتخاب أمين عام جديد ، في شتاء ١٩٦٧ — ١٩٦٨ ، أوضحت اختلاف وجهات النظر التي ظهرت في داخل المنظمة .

على الصعيد العسكري ، وضع ميثاق ريو دو جانيرو (ايلول ١٩٤٧) ميكانيكية المشاورة العاجلة في حالة مهاجمة أحد البلاد الموقعة من قبل دولة خارجية عن القارة . وعلى الجهاز الاداري لمنظمة دول أمريكا أن يقرر بالاكثرية البسيطة ما اذا كان يحسن الدعوة لاجتماع وزراء الشؤون الخارجية . وفي هذا الاجتماع يتبنى ، بأكثرية الثلثين ، قرارات أمر لجميع المشتركين ، هذا مع العلم بأن التدخل المسلح لا يفرض على أي من الدول . وقد شجبت الواحدة والعشرون الدولة الموقعة اللجوء إلى الحرب في الخلافات الامريكية . وفي حال خلاف بين بلدين أو أكثر من بلاد نصف الكرة ، يتباحث الموقعون بغية التدخل بحل سلمي .

ووقعت معاهدة « تجريد من الطاقة النووية » تضع أمريكا اللاتينية على هـامش خلاف ذري محتمل الوقوع ، في مكسيكو في ١٤ شباط ١٩٦٧ .

وعلى الصعيد الاقتصادي ، كان البنك الامريكي للتنمية (B. I. D.)

الذي انشىء في ١٩٦١ ، بادارة الرأسمال الاعتباري للتقدم الاجتماعي (F.F.P.S.) ، وقدره ٥٢٥ مليون دولار) ، الذي قدمته الولايات المتحدة لتنشيط التنمية الاقتصادية - الاجتماعية في امريكا اللاتينية .

القضية الزراعية

كانت قضية الأرض أشد حدةً من جميع القضايا التي وضعت لأمريكا اللاتينية . ولأسباب جغرافية - مناخية (جفاف أو أمطار طوفانية ، كثرة التضاريس العالية ، والمناطق القاحلة النصف صحراوية والمساحات المحرجة أو المستنقعية) لا يمثل السطح المفيد ، ومن ضمنه المراعي ، إلا ٥٠٪ من السطح العام . وخمس هذا السطح الجاهز مستغل عقلانياً . وقد حسب ، في امريكا اللاتينية ، أن نصف - هكتار من الأراضي المزروعة لكل رأس ساكن عوضاً عن ١٫٥ هكتار في أوربة الغربيـة . وهـذا التفريط في الاستغلال يتضح بتوزيع الملكية المضطرب . والقسم الأعظم من السطح القابل للزراعة يحتكره عدد صغير من كبار الملاكين .

إن لا مبالاة كبار الملاكين ، الذين يتقاضون دخلاً مرتفعاً ليس لهم أي مصلحة في البحث عن طريق جديدة لزيادة عائد الهكتار ، والطرق القديمـة التي يستعملها صغـار الزراع يعبر عنهـا بانتاجية ضعيفة . ويزداد الانتاج الزراعي بشكل أبطأ من عدد الأفواه التي يجب اطعامها ، وهذا يفرض على معظم هذه البلاد ، الزراعية بصورة أساسية ، واردات غذائية تسهم في خلل توازن ميزان التجارة الخارجية .

والأراضي الأكثر خصباً في البلاد المدارية تكون غالباً أراضي الوديان ، ويحتكرها كبار الملاكين . كما أن استغلال العمال الزراعيين المياومين الأراضي

الواقعة على المنحدرات العالية العظيمة الانحناء ، بعد ازالة بوارها بالنار ، يساعد على الحت ويعجل بتخريب التربة . ويقدر في كولومبيا ، مثلاً ، أن ٢١٣٠٠٠ هكتار من الأرض تصبح غير صالحة للاستعمال كل سنة .

إن احتكار الأرض والتفريط في استغلال الأملاك الكبرى يقتضيان ، عدا ذلك ، وفرة اليد العاملة ، والبطالة الفصلية ، وتدني الاجور ، وأخيراً ، الفقر الزراعي ، الذي يعبر عنه ، بخاصة ، بالطابع البدائي للسكن الريفي (أكواخ من الخشب أو اللبن) وبسوء التغذية . ويقدر ، في الوسط الريفي ، أن ٣ إلى ٦٪ من أطفال سنتين إلى سبع سنوات تظهر عليهم أعراض خطيرة عن سوء التغذية و ٤٧٪ أعراض خفيفة .

وتسبب ظروف هذه الحياة رحيل الريف نحو المدن الكبرى . وهذه الحركة الاكثر سرعة من النمو الصناعي كانت في أصل انشاء الأحياء الفقيرة ، حول المدن الكبرى ، حيث يتزاحم السكان ولا يندمجون عملياً في النشاط المدني .

ولتقويم هذا الخلل البنيوي صدرت الاصلاحات الزراعية : في المكسيك (١٩١٥) ، في كوبا (١٩٥٩) ، في فينيزويلا (١٩٦٠) ، في كولومبيا (كانون الأول ١٩٦١) ، في باناما (ايلول ١٩٦٢) ، في هوندوراس (ايلول ١٩٦٢) ، في غواتيمالا (ايلول ١٩٦٢) ، في كوستاريكا (ايلول — تشرين الأول ١٩٦٢) ، في بيرو (تشرين الثاني ١٩٦٢ — كانون الثاني ١٩٦٣) ، في باراغوي (١ آذار ١٩٦٣) ، في نيكاراغوا (نيسان ١٩٦٣) ، في ايكواتور (١٩٦٣) ، في سالفادور (١٩٦٤) ، في البرزيل ، قانون غولارت (آذار ١٩٦٤) الذي الغاه الماريشال كاستيلو برانكو وعرض على الكونغرس مشروعاً زراعياً . وفي شيلي تمت الموافقة

على الاصلاح الأول في ولاية الرئيس البيلاندري ، وعرض فري على الكونغرس مشروعاً أكثر جذرية (كانون الأول ١٩٦٥) . وكان تطبيق هذه النصوص في معظم البلاد ، بطيئاً أو حديثاً جداً ، ولذا لم يتمكن من تغيير بنية الملكية الزراعية بشكل قابل للتقدير .

وأثارت خيبة طبقة الفلاحين تفجرات عنيفة في بعض البلاد ، وبخاصة في البرزيل ، كعصبة الفلاحين في منطقة الشمال الشرقي ، وفي كولومبيا ، حيث قامت عصابات مسلحة من العمال المياومين بمن ليس لهم موارد وسكنت الأدغال منذ ١٩٤٨ في بعض المناطق الجبلية ؛ وحاولت مختلف الأحزاب السياسية ، في القديم المحافظون والليبراليون ، واليوم الكاستريون والشيوعيون ، أن يجعلوا لصالحهم هذه الثورة الدائمة التي كلفت ، حسب بعض التأكيدات ، حياة ٢٠٠,٠٠٠ شخص .

« التفجر » السكاني

إن النقص السريع في وفاة الأطفال الناجم بصورة أساسية عن مكافحة الحشرات حاملة الجراثيم ، في بيئة لم تتطور أخلاقها وعاداتها بنفس الوتيرة ، يعبر عنه بتفجر ديموغرافي . ان نسبة زيادة السكان التي لا تتجاوز ١,٨٪ في آسيا و ١,٩ ٪ في افريقية ، ارتفعت في امريكا اللاتينية في السنوات الأخيرة إلى متوسط ٢,٦٪ . والحد الأعلى الذي وصلت اليه في ١٩٦٤ هو ٢,٩٪ .

وهذا « التفجر » الديموغرافي يتضمن وجود نسبة مئوية استثنائية من السكان الشبان (في فينيزويلا يحسب ٥٣٪ من الأطفال والمراهقين من عمر أقل من ٢٠ عاماً) . وعدا ذلك ، إن الهجرات الكثيفة ، التي

تكسر النطاقات الاجتماعية التقليدية فاقمت الأخطــار الناجمة على المرأة بسبب سلبيتها ، ونقص تربيتهـا . ولذا نلاحظ نسبة مئوية غير عادية للأطفال الطبيعيين (٤٩٪ من الولادات في فينيزويلا) .

إن الدراسة ووتيرة نمو الصناعة والاستخدام ليست على مستوى النمو الديموغرافي ، واميركا اللاتينية تضم عـدداً عظيماً من المراهقين دون قدرات ودون استخدام ، وهم مهيؤون لكل أشكال العنف من جنوح الفتيان ، والاغتيالات ، والعصابات .

التطور الاجتماعي

إن مستويات الحياة ، المنخفضة جداً على العموم ، تختلف بشكل عميق من بلد لآخر .

وهذه المستويات غير الكافية تظهر في التعيينات الغذائية غير الكافية ، والأمل الضعيف بالحياة . ولكن يلاحظ ، في هـذا المضمار أيضاً ، اختلافات محسوسة بين البلاد .

وهذه المتوسطات النظرية ليس لها إلا قيمة دلالة ، إذ يلاحظ ، في داخل كل بلد تفاوتات عظيمة ؟ ولقد أوجد النهوض الصناعي أو أنمى ، إلى جانب الأقلية الممتازة ، قطـاعات سكان مكتفية نسبياً (الطبقة الوسطى ، الطبقة الكادحة المدنية النقابيـة التي تستفيد من التأمينات الاجتماعية) ، بينما تظل طبقات من السكان ، آخذة بالتوسع رويداً رويداً حسب البلاد ، على هامش الحياة الاقتصادية (المياومون الزراعيون الذين يشكون البطالة الفصلية ، وصغار الزراع الذين يعيشون عيش الكفاف ، والعاطلون عن العمل في المدن . والتفاوت بين الأجور المدنية والزراعية

يعبر عنه ، من جهة أخرى ، بتفاوت اقليمي . ففي البرازيل ، مثلاً ، يعادل المستوى المتوسط للحياة في الدول المصنعة في سان باولو وغواناباراً (ريو دو جانيرو) خمسة أضعاف متوسط مستوى الحياة في المنطقة المدارية في الشمال الشرقي .

وفي المراكز المدنية الكبرى التي تستفيد من أعلى مستوى حياة متوسط ، يرى أيضاً تفاوتات محسوسة ، بسبب وجود سكان عائين من أصل ريفي ، غير مندمجين في الحياة المدنية . وبالرغم من أن زيادة الانتاج القومي الخام (٤،٩٪ لمجموع أمريكا اللاتينية) أعلى من زيادة السكان (٢،٩٪) ، فان الصناعات الجديدة ، وتتصف بأعلى درجة من الآلية ، والقطاع الثلاثي (الخدمات وماليها) لم يستطيعا امتصاص هذه البقية من اليد العاملة غير المستخدمة . وفي الواقع ، إن الرقم الكلي للعاطلين عن العمل لا يمكن ضبطه ، لأن معظمهم لا يمارس مطلقاً مهنة نظامية ، ولأن اسمهم غير مسجل في سجلات البطالة . ونشأت مشكلة الاسكان الخطيرة في المدن بسبب وجود هؤلاء السكان الهامشيين الذين يعسكرون على محيط الدول الكبرى (« توغوريوس » في ليما ، و « فافيللاس » في ريو دو جانيرو ، و « رانشيتوس » في كاراكاس ، الخ) ويقدر أن ٦٦٪ من اللاتينيين — الامريكيين (في المنطقة المدنية والمنطقة الريفية) يعيشون في مساكن غير صحية أو بالية متوهنة .

ولحل قضية الاسكان في ثلاثين عاماً ، مع الأخذ بعين الاعتبار العجز المتراكم ، وقدم المنازل ، والهجرة نحو المراكز الكبرى وزيادة السكان ، يجب أن يبنى في كل سنة ٢،٨٠٠،٠٠٠ مسكن : (١٧٠٠٠٠٠ في المنطقة المدنية ، و ١،١٠٠،٠٠٠ في المنطقة الريفية .

البنيات الاقتصادية

يلاحظ ، في معظم البلاد الايبيرية ـ الامريكية ، نهوض في صناعات التحويل ، وأيضاً ، تقدم عظيم في القطاعات الأساسية . وإذا أخذنا مجموع امريكا اللاتينية ، وجدنا أن انتاج الصناعة المعدنية ، الذي لم يتجاوز ٢٢٠٠٠٠ طون قبيل الحرب العالمية الثانية ، قد بلغ ، في العام ١٩٦٥ ، مجموعاً قدره ٧٥٠٠٠٠٠ طن . ومع ذلك ، فان هذا الرقم لا يمثل إلا ٢٪ من المجموع العالمي ؛ وتظهر دراسة الصادرات الأساسية أن بنية الاقتصاد تظل زراعية و منجمية بصورة أساسية .

وبالنسبة لمجموع امريكا اللاتينية ، تمثل تسعة منتجات وحدها ٦٩٫٣٪ من القيمة الكلية للصادرات (البترول ٢٨٫٤٪ ؛ القهوة ١٦٫٧٠٪ ؛ القطن ، ٥٫٢٪ ؛ النحاس ، ٥٫١٪ ؛ اللحوم ، ٤٫١٪ ؛ السكر ، ٣٫٤ ؛ الصوف ، ٢٫٨٪ ؛ الحديد ٢٫٤٪ ؛ الموز ١٫٢٪ ؛ وبسبب هذا الحادث « الوحيد التصدير » نجد أن الاقتصاد اللاتيني ـ الامريكي ، المتعلق لحد واسع بعدد صغير من المنتجات الاولية ، يتأثر بصورة خطيرة بتغيرات أسعار هذه المنتجات في السوق العالمية . ففي الدور ١٩٦١ — ١٩٦٣ ، يسجل انخفاضات قطعية في أسعار القهوة ، والنحاس ، واللحم ، والموز ، والقطن . ثم ارتفعت الأسعار انطلاقاً من ١٩٦٤ ، بينما سعر السكر الذي كان ، على العكس ، قد ارتفع في ١٩٦٢ — ٦٣ ، عاد فانخفض من جديد . ولكن إذا أهملت هذه الذبذبات ذات الوقت القصير وقورنت أسعار الدور الذي سبق الحرب العالمية الثانية بأسعار اليوم ، لسجل انخفاض في قيمة هذه المنتجات الاولية المعدة للتصدير ، وارتفاع موازٍ في أسعار المنتجات الصناعية المعدة للاستيراد . وفي المؤتمر العالمي

للتجارة في جونيف ، آذار - حزيران ١٩٦٤ ، برهن الخبراء اللاتينيون - الامريكيون بأن بلادهم من ١٩٥٦ إلى ١٩٦٤ خسرت ، بهذا الواقع ، ١٠ مليارات دولار ، أي ٥٠٪ من المساعدة المتوقعة لخلف التقدم .

وهذا الانخفاض في الأسعار يسهم في خلل ميزان الحسابات المثقل من قبل ببقايا الدين الخارجي . إن عدم كفاية التوفير وهرب رؤوس الأموال (يقدر بـ ١٠ مليارات دولار بالغ رؤوس الاموال اللاتينية - الامريكية الموضوعة بالفائدة في الخارج) يخفضان ، في الواقع ، إلى ١٥ و٥٪ مثل التوظيف الخام ، ويضطران البلاد الايبيرية - الامريكية إلى دعوة المآتي الأجنبية لتمويل تصنيعها . فمن ١٩٥٦ الى ١٩٦١ ، ارتفعت الاعتمادات الخارجية الى ١٣ مليار دولار ؛ وانتقل مدفوع الفوائد والبقايا ، في نفس هذا الدور ، من ٤٦٤ مليون دولار سنوي الى ١٠٧٣ ٠٠٠ ٠٠٠ . وهذا العبء الآخذ بالتثاقل ، يضطر أمريكا اللاتينية الى تخفيض وارداتها من وسائل التجهيز .

وعلى الصعيد الداخلي ، إن عدم توازن الأموال العامة ، الناجم عن نفقات التصنيع والاسراف وعدم كفاية دخول الموازنة ، يضطر شيئاً فشيئاً إلى اللجوء إلى قروض واصدار أوراق نقدية تسبب نمو تضخم نقدي حاد بخاصة في الارجنتين ، والبرازيل ، وبوليفيا ، وشيلي . كما يؤدي غلاء الأسعار الناجم عنه إلى انخفاض قوة شراء المأجورين وإلى الاضطراب الاجتماعي . ويخلق عدم الأمن مناخاً ملائماً لمظاهرات الطلاب التي أخذت ، في العام ١٩٦٨ ، طابعاً حاداً في عدد من البلاد : المكسيك ، الارجنتين ، البرازيل ، اورغواي ، شيلي ، الخ .

الدمج اللاتيني — الاميركي

لقد ظهرت منظمات اقليمية مختلفة منذ الحرب العالمية الثانيـة . فقد انشأت كولومبيا ، وفينيزويلا ، والاكوانور ، بموجب ميثاق كيتو ١٩٤٨ ، **المنظمة الاقتصادية لكولومبيا الكبرى** . غير أن انسحاب فينيزويلا ضرب هذه المنظمة الضربة القاضية .

وانشئت **منظمة دول امريكا الوسطى** (O. D. E. N. A.) بمؤتمر وزراء الشؤون الخارجية لدول : سالفادور ، وغواتيمالا ، و هوندوراس ، ونيكاراغوا ، و كوستاريكا (ميثاق سان سالفادور ، ١٩٥١) . وأدى الاجتماع الخامس للجنة الاقتصادية لهذه المنظمة في تيغوسيغالبا ، في ١٠ حزيران ١٩٥٨ ، إلى توقيـع معـــاهدة تنص على انشاء سوق مشتركة (تخفيض تدريجي للحواجز الجمركية ، تعرفات خارجيـة مشتركة تطبق على الواردات الآتية من البلاد الأخرى ، بنك مركزي — امريكي) .

كما إن انشاء **الرابطة اللاتينية — الامريكية للمبادلة الحرة** (A. L. A. L. C.) قررته المكسيك ، والأرجنتين ، والبرازيل ، وبيرو ، وشيلي ، والارغواي ، وباراغوي (في معاهدة مونتفيديو ، في ١٨ شباط ١٩٦٠) . وتنص المعاهدة على أن تخفض الحواجز الجمركية تدريجياً بين الدول الأعضاء ، خلال دور انتقـالي مدته اثني عشر عاماً ، ومع ذلك فقد تركت وتيرة هذا التغيير لتقدير الحكومات . وبينما كانت المبادلات بين الرابطة اللاتينية — الامريكية للمبادلة الحرة تنمو بسرعة على صعيد المنتجات الاولية ، كان التقدم بطيئاً كثيراً على الصعيد الصناعي بسبب الابقاء على تعرفات الحماية الجمركية . ولكن ضيق مختلف الاسواق الوطنية كان من نتيجته اعاقة نمو الانتاج الصناعي . ولقد وعى هذا الخطر ، رئيس شيلي ،

إ . فوي ، وقام ، بمساندة خبراء اتحاد دول امريكا اللاتينية والبنك الامريكي للتنمية ، بجمله شديدة لصالح تحويل الرابطة اللاتينية – الامريكية للمبادلة الحرة إلى سوق مشتركة حقيقية . وتبنيت نظرياته جزئياً في مؤتمر وزراء الشؤون الخارجية ، في بوينوس آيرس ، في شباط ١٩٦٧ ، ووضحت خطة دمج لاتينية – امريكية من قبل مؤتمر تمهيدي في مونتيفيديو (آذار ١٩٦٧) ، وتبنيت في مؤتمر القمة في بونتا دل ايست (تصريح الرؤساء ، في ١٤ نيسان ١٩٦٧) ، وتنص على تخفيض تدريجي للحواجز الجمركية – التي يجب أن تزول تماماً في ١٩٨٠ – وعلى انشاء هيئات فوقمية ، مثل لجنة وزراء الشؤون الخارجية .

ويقدر معظم الخبراء أن هذا التعاون وانشاء سوق واسعة من ٢٥٠ مليون مستهلك من طبيعتها تخفيف الصعوبات الاقتصادية والاجتماعية في امريكا اللاتينية .

الفصل الحادي عشر

الشرق الأدنى

منطقة معقدة

الشرق الأدنى عتبة . وعلى هذه الارض الكثيرة التباين ، منذ زمن عريق القدم ، تتراكم التنوعات البشرية ، وتتوطد الاتصالات ، وتعقد الخلافات .

ولذا فان كل تثبيت للحدود في هذه المنطقة ربما يكون تحكمياً أكثر مما في غيرها .

ومن المقبول أن الشرق الأدنى ينتهي ، نحو الغرب ، على طول شواطىء المتوسط الشرقية ، من استانبول إلى الاسكندرية وعلى الحدود المصرية — الليبية ؛ ونحو الجنوب ، على الحدود المصرية — السودانية والشاطىء الجنوبي من شبه جزيرة العرب ؛ ونحو الشرق ، على التخوم الشرقية لايران ؛ ونحو الشمال ، على الحدود والشواطىء الشمالية لايران وتركيا . ولكن هذه الحدود ، هي في كل مكان تقريباً حدود ، وليست أطرافاً : فالبحر المتوسط يمتد بالشرق حتى فرنسا ويجعله « أدنى » . ومثل هذه الفتحات توجد نحو افريقية ، المحيط الهندي ، آسيا الوسطى ، والحاجز ، الذي شادته نحو الشمال المنازعات التقليدية ، يبدو اليوم أقل رهبة .

والبحار المتصلة بالمضائق ، كالدردنيل والبوسفور ، تيران ، باب المندب ، هرمز ، أو بفن الانسان ، كقناة السويس ، والانهار والقنوات الروسية بين البحر الاسود وبحر الخزر ، ترسم تعاريج وفجوات عميقة كالخليج العربي وخليج العقبة . وعبر الاراضي ، نحو الموانئ القديمة : الاسكندرية ، وبيروت التي تم صور ، تلتقي الطرق التقليدية الآتية من آسيا نحو الغرب ومن العالم السلافي نحو البحار الدافئة .

وتلتقي في الشرق الأدنى حضارات معرفة باللغة والثقافة أكثر مما هي معرفة بالارومة العرقية الأصلية ، ومتأثرة ببعضها في الغالب ، وأحياناً متصادمة ، وكلها تتجاوز حدوده بشكل واسع .

في الشمال الغربي ، الفريق التركي ، وأصله من آسيا الوسطى ، حيث يوجد أيضاً نصف أعضائه

في الشمال الشرقي ، الفريق الايراني ، ويمتد نحو آسيا الوسطى ، وقد تأثرت بحضارته الهند . وبفضل فرعه الكردي يتجاوز على الصعيد السياسي الحالي العالم العربي وتركيا . ويحتل عرب شبه الجزيرة العربية ، والمستعربين في « الهلال الخصيب » والنيل وسط المنطقة وجنوبها . وتغطي لغتهم وحضارتهم في الغرب المغرب العربي وتمتدان إلى الجنوب نحو أعالي النيل . أما الشعب الاسرائيلي الصهيوني الدخيل على فلسطين فهو من اليهود المنتشرين في جميع أنحاء العالم .

والشرق الأدنى مهد الديانات الموحدة الثلاث ، حسب تسلسل الأقدمية اليهودية ، والمسيحية والاسلامية ، ويضم الاماكن المقدسة : القدس ومكة والمدينة ، وبعض العناصر الممثلة لحياتها الحديثة .

وقد شغل العبرانيون خلال هجراتهم القديمة أرض فلسطين حيناً من

الزمن ثم لفظتهم البلاد وانتشروا في الآفاق ، واليوم عادوا واغتصبوها بقوة الفتح والغلاب ومساعدة الدول الكبرى ولكن هل ما فعله الصهاينة طبيعي ومقبول ومعقول وعادل ؟

ونمت المسيحية حول العواصم القديمة ، في الامبراطورية الرومانية (انطاكية ، الاسكندرية ، القسطنطينية ، القدس) أو في خارجها (في سلوقيا — بابل ، وابتشميادزين ارمينية) ؛ ومن هنا نشأ تنوع طقوسها الشرقية (السريان ، المارونيون ، الأقباط ، البيزنطيون ، الكلدانيون ، الأرمن) ، وراكمت فوقه الانقسامات البائسة الناجمة عن المنازعات الدينية وسوء التفاهم الحديثة العهد التمييز بين الطوائف المنضمة إلى روما (السريان الكاثوليك ، المارونيون ، الاقباط الكاثوليك ، الملكيين أو الاغريق الكاثوليك ، والكلدانيون — الكاثوليك ، والارمن الكاثوليك) ، أو غير المنضمة (السريان — اليعاقبة ، الاقباط ، الاغريق — الارثوذكس الناطقين هنا باللغة العربية ، والنساطرة والأرمن) . ويؤلف المسيحيون أقليات قليلة العدد في العراق وتركيا ، وهم أكثر انتشاراً في سورية ومصر ، ويؤلفون نصف الشعب اللبناني .

والمسلمون في الشرق الأدنى أكثرية واسعة . ومعظمهم سنيون ، وأحياناً مطبوعون بالطهرانية المتطرفة ، كالوهابيين في المملكة العربية السعودية ، وأحياناً منقسمين ، كما في تركيا ، بين تقليديين في الأرياف ، ومجددين علمانيين (كماليين) في المدن الكبرى ، وفي الغالب متأثرين بالافكار الاصلاحية تحركهم إرادة حازمة في التكيف مع عالم اليوم كما في سورية ، لبنان ، مصر وغيرها . ولكن ، يوجد ، في الشرق أكثر مما في غيره ، اتباع لمختلف الفروع التي نجمت عن الخلافات القديمة الناشئة عن

الخلافة مثل الخوارج في مسقط وعمان الذين أبو أن يكون زعيمهم من نسل الرسول ، وكذلك الشيعة ، الذين انقسموا فرقاً ، ومعظم الشيعة يتجمعون في ايران ، حيث يؤلفون تسعة أعشار السكان ، وفي جنوب العراق ، وفي لبنان ، وهناك فرقة الزيديين ، ويؤلفون نصف سكان اليمن ، والاسماعيليين في سورية وزعيمهم آغا خان . وتبنى بعضهم مذاهب خاصة بهم وضعتهم خارجاً عن الاسلام ، كالدروز في لبنان ، وسورية ، وجبال الجليل في فلسطين . يضاف إلى ذلك العلويون ، على الشاطىء السوري وفي لواء الاسكندرون (هاتاي) الذي أخذه الاتراك على حساب سورية . ونشأت فرق جديدة كالبهائية المنبثقة عن الشيعة الايرانية في القرن التاسع عشر .

وهذه الدلائل السريعة جداً والاجمالية تساعد ، على الأقل ، على معرفة كيف أن التعقيد البشري في الشرق الأدنى لا يقل في شيء عن تنوع صفاته الطبيعية . ولقد سيطرت عناصر الاختلاف هذه أحياناً في القديم على تاريخ الشرق وما زالت تلعب دوراً في تطوره الحاضر .

عشرون سنة من التطور السريع (١٩٤٥ — ١٩٦٨)

كان الشرق الأدنى وما زال موضع نزاع بين الدول الكبرى . فقد عبرته الجيوش من ١٩١٤ إلى ١٩١٨ ، ورأى ، في ١٩٤٢ ، الحرب العالمية الثانية تنتهي على سياج أراضيه في ستالينغراد والعلمين . وهو يؤلف ، بالنسبة للحلفاء ، طريق عبور ، وميدان تجمع للجيوش ، وصخرة انتظار واستياء في الغالب أيضا . فقد ظلت تركيا محايدة حتى الاسابيع الاخيرة من النزاع ، رغم أنها مالت شيئاً فشيئاً نحو الانغلو - ساكسون

وتلقت تجهيزاتهم . واحتل الحلفاء ايران في صيف ١٩٤١ ، ليفيدوا من نقل أسلحة الدول الغربية ومؤنها إلى الاتحاد السوفياتي ضد دول المحور . وحاول العراق ، في ربيع ١٩٤١ ، أن يعارض عبور القوات البريطانية فاستعملت القوة ونصبت حكومة متعاطفة معها . وأمل الشعب المصري بالخلاص من الحكم البريطاني ، ولكن الملك فاروق تحت ضغط الجيش البريطاني استدعى ، في شباط ١٩٤٢ ، حكومة قررت التعاون معها .

وعلى العموم كانت بلاد الشرق الادنى الرازحة تحت الحكم الاجنبي تأمل بأن تنتهي الحرب الثانية وقد حققت استقلالها ، ولذا انتهزت الفرصة وأخذت تقاوم سلطات الاحتلال ما استطاعت لذلك سبيلاً .

عروض ما بعد الحرب (١٩٤٥ — ١٩٥١)

في ١٩٤٥ ، انتصر الحلفاء وسيطر الاتحاد السوفياتي على البلقان . وقامت « الحرب الباردة » ، مقام النزاع المسلح مع المحور ، بين الكتلة الغربية والكتلة السوفياتية . وكان على الشرق أن يعرف بنفسه من جديد ويعمل تبعاً لنزاع يتجاوزه .

وأخذت الدول القائمة على « الطرف الشمالي » ، تركيا وإيران ، تحسب حساباً لجارها الرومي القوي ومن المحتمل أن يكون عادياً معتدياً .

تركيا . — قامت تركيا ، منذ صيف ١٩٤٥ ، أمام الضغوط الروسية الاولى ، وبحثت ، لدى الغرب ، وبخاصة الولايات المتحدة ، عن أكبر دعم ممكن . وفي العاجل الاول الاسلحة والتجهيزات . وفي ١٩٤٧ ، قبلت مساعدة ترومان ؛ وفي ١٩٤٩ توسلت إلى البنك الدولي للاعمار

والتنمية ؛ وفي ١٩٥٠ ، وضعت الديموقراطيين على رأس السلطة ، وعدلت مذهب تدخل الدولة الكمالية في اتجاه الليبرالية الاقتصادية التي فتحتها على الغرب ، وفي ١٩٥٢ دخلت الحلف الاطلسي .

ايران . — تعلقت إيران باستعادة حرية عملها بصيانة توازنها التقليدي بين القوى المتصارعة الشمالية والجنوبية . وفي ١٩٤٥ — ١٩٤٧ ، أجلى المحتلون عن أراضيها وحذفت الآثار المباشرة كثيراً أو قليلا للوجود الرومي ، جمهورية اذربيجان وجمهورية ماهاباد الكردية . وقوى العون الامريكي الدولة ، ولكن القومية الايرانية تأكدت بشدة وتعنت . ولذا حاول الدكتور مصدق ، في ١٩٥١ ، اخضاع شركة الزيت الانكليزية - الايرانية القوية ، صاحبة امتياز بترول الجنوب . ولم ينجح الا نصف نجاح ، وفي عام ١٩٥٣ ، أخذ كونسور سيوم دولي على عاتقه استغلال المناجم المؤممة ، ولكن بعد كل هذه التشنجات ، وجدت إيران طريقها المعتدل .

القومية العربية . — اطماحها كثيرة ، واندفاعها كثيرة تتقاذفها من مراكز مختلفة ، ونزعات متباينة ، وتقتحم الاخطار لتقف وتجعل اختياراتها هادئة وتسلسل مساعيها بتؤدة وتعقل وحكمة . والحنين إلى الوحدة يتملكها ويغلب عليها . ففي عام ١٩٤٢ ، ألقى نوري باشا السعيد من بغداد مشروع « الهلال الخصيب » . وفي ١٩٤٤ وضع النحاس باشا مشروعاً وحدوياً واسعاً . وجمع بروتوكول الاسكندرية ، في ٧ تشرين الاول ، مصر ، العراق ، سورية ، لبنان ، الاردن ، العربية السعودية ، واليمن ، ولكنه اصطدم بالنعرات المحلية التي حولت ، في ٢٢ آذار ١٩٤٥ ، هذا النظام الشبه اتحادي إلى نوع من منتدى دبلوماسي بروابط مرنة ورخوة ، وهو جامعة الدول العربية .

ميلاد اسرائيل في ١٩٤٨ ونتائجه

لقد كان النزاع مستمراً بين العرب والصهاينة في فلسطين بعد الحرب العالمية الاولى والانتداب الانكليزي على فلسطين وتنفيذ وعــد بلفور المشؤوم . وأخيراً بعد الحرب العالمية الثانية رأت انكلترا أن تجلو عن البلاد ، ورفعت أمر القضية الفلسطينية إلى منظمة الامم المتحدة فقررت، في ٢٨ تشرين الثاني ١٩٤٧ خطة التقسيم التي قبلها اليهود ، ورفضتها الدول العربية . وانتهى الانتداب البريطاني في ١٥ أيار ١٩٤٨ . وفي هذا اليوم نفسه أعلن في تل أبيب ميلاد اسرائيل . وقام جيش الانقاذ العربي . ولكن عــدم وحدة القوى العربية وعوامل أخرى كثيرة أفسدت على العرب أمرهم لم تمكنهم من منــع تشكل دولة اسرائيل على قسم كبير من فلسطين وراء الخط الفاصل الذي رسمته الهدنات التي فرضتها الامم المتحدة .

وقضية فلسطين قضية تآمر دولي واغتصاب صهيوني لحق الشعب العربي في أرضه ووطنه ، وهذا أمر تكشف لكل عين . وما كان من الدول الكبرى إلا أن كرست سياسة الامر الواقع وأرادت تجنب صدامات جديدة لان المهم بالنسبة اليها هو بقاء اسرائيل والحفاظ على وجودها . وقد أعلن البيان الثلاثي في ٣ أيار ١٩٥٠ أن خطوط الهدنة لاتمس ، ومنع سباق التسلح بين اسرائيل والدول العربية . وحاولت الدول العربية تطبيق الحصار الاقتصادي على اسرائيل ، والافادة من ندم الغرب وحماسة الشعب العربي ، وقضية اللاجئين الذين يرغبون في العودة إلى أرض آبائهم وأجدادهم . وأفادت اسرائيل من دعم الدبلوماسية اليهودية العالمية والمساعدات الامريكية والتعويضات التي تدفعها جمهورية المانيا الاتحادية لليهود عن الجرائم التي ارتكبها النازيون ضدهم ، أثناء الحرب العالمية الثانية .

وسببت الخسارة التي منيت بها الدول العربية ، من تردي الاوضاع في فلسطين ، الامتعاض والنقمة والحركات الانقلابية ، ورفعت الطبقة الوسطى إلى السلطة . وهكذا كان انقلاب حسني الزعيم ، في ٢٩ آذار ١٩٤٩ ، وبعده انقلاب سامي الحناوي واديب الشيشكلي في سورية ، والضباط الاحرار ، في ٢٣ تموز ١٩٥٢ ، بزعامة محمد نجيب وجمال عبد الناصر ، في مصر . ومن بعد انقلاب عبد الكريم قاسم وعبد السلام عارف في ١٤ تموز ١٩٥٨ في العراق .

الجهد الانغلو ـــ ساكسوني : حلف بغداد ١٩٥٥

تحت تأثير الولايات المتحدة ، فكر الغرب بخاصة بأن ينظم خطاً دفاعياً ، ضد الكتلة السوفياتية ، في المشرق العربي الذي ركزت رغبته في الأخذ بالثأر من اسرائيل المعتدية وفي التحرير الاجتماعي اكثر من أي وقت مضى على قضاياه الخاصة ، ومال من جديد إلى الحياد . ولذا اطرح خطط الدفاع الغربية مثل منظمة الدفاع عن الشرق الاوسط التي رفضتها مصر في تشرين الأول ١٩٥١ .

ويبدو أن الولايات المتحدة لم تفهم بعد أهمية عاطفة الحياد العربية ورأت أن الخلاف المصري ـ الانكليزي يقف عقبة أمام كل تقارب مع الغرب ، وضغطت على لندن لتصفيته ، وبمعاهدة ١٩ تشرين الاول ١٩٥٤ تعهد البريطانيون بالجلاء عن قواعدهم في قناة السويس ؛ ووعدهم المصريون باحتلالها مؤقتاً في حالة حرب أو تهديد بحرب ضد البلاد العربية أو تركيا . وبهذا الشكل ارتبطوا بصورة غير مباشرة بمعاهدة منظمة حلف شمال الاطلسي . وبدا هـــذا الامتياز باهظاً في نظر القوميين المتطرفين ، وبعد سبعة أيام ، كاد الرئيس جمال عبد الناصر أن يقتل على أيدي الاخوان المسلمين .

ومع ذلك ، فقد اهتمت بريطانيا العظمى باستقرار علاقاتها السياسية — العسكرية المفضلة مع العراق أكثر من الدفاع عن الشرق الأدنى ؛ واعتقدت بأنها تبلغ هذين المدفين بفضل حلف بغداد (٢٤ شباط ١٩٥٥) ، المبرم بين تركيا والعراق والذي ضمت اليه ، مع الباكستان وايران ، اتفاقاً عسكرياً ملحقاً مع العراق . أما الولايات المتحدة التي كانت تأمل بتشكيل دفاعي أعمق ، فلم تشترك بالحلف ، ولكنها تعاونت مع مختلف لجانه ؛ وحاول أعضاء الحلف أن يجذبوا الاردن ، فألقوا سورية في قلق التطويق . وسهرت ايران من جهة ثانية ، على تأمين جارها القوي في الشمال ، الاتحاد السوفياتي ، وأشارت إلى المظهر الدفاعي الدقيق للحلف ، وفي صيف ١٩٥٥ زار الشاه موسكو .

الرد السوفياتي : اسوان والسويس (١٩٥٦)

وأحست مصر بما يحاك حولها من مؤامرات . لأن الغرب بتسليمه أسلحة إلى العراق ، الذي قبل الالتزام ضد الاتحاد السوفياتي ، أمن لها أولوية القوة في العالم العربي . والتقى الغيظ المصري والقلق السوفياتي . وفي ٢٧ ايلول ١٩٥٥ ، استطاع الرئيس جمال عبد الناصر أن يعلن بأن الكتلة السوفياتية ستسلم البلاد العربية ، دون تحديد ، الأسلحة التي رفض الغرب أن يسلمها إياها . ولعبت موسكو بالاهواء العربية ، ودخلت دخول الظافرين المسرح السياسي الشرقي ، المحتجز منذ عهد قريب إلى النقاش الوحيد بين العروبة والغرب .

ولتوازن القضية حاول جمال عبد الناصر أن يعهد إلى الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى والبنك الدولي تمويل السد العالي ، مفتاح التنمية المصرية . ولكن الدبلوماسية الامريكية ، بوحي من فوستر دالس ،

كانت تريد أن تلعب بما هو أدق وأنعم ، وأجلت فجأة منح الاعتمادات المنتظرة .

عندئذ ، أظهر الرئيس جمال عبد الناصر لأول مرة فنه في الرد ، وأمم قناة السويس ، في ٢٦ تموز ١٩٥٦ ، وخدع نفسه باعتقاده بأنه وجد على هذا النحو الموارد الضرورية لبناء السد العالي ، ولكنه نجح في تقسيم الحلفاء الغربيين . فقد هيأت بريطانيا العظمى وفرنسا ببطء تدخلاً عسكرياً ، سبقه ببضع ساعات هجوم « وقائي » ، في سيناء ، في ٢٩ تشرين الأول ١٩٥٦ ، من قبل القوات الاسرائيلية بغية سحق الجيش المصري قبل أن يتعلم استخدام الأسلحة السوفياتية الجديدة . ولكن الولايات المتحدة اتفقت مع الاتحاد السوفياتي ومع الأمم المتحدة وفرضوا جميعاً على الفرنسيين والبريطانيين ، في ٦ تشرين الثاني ١٩٥٦ ، وقف العمليات .

ولا شك في أن مصر أوشكت أن تمنى بخسارة عسكرية فادحة ، ولكنها استطاعت أن تحصل على نصر دبلوماسي مؤزر كان له الأثر الدائم في جاه الرئيس جمال عبد الناصر في المشرق العربي . وتمكنت الولايات المتحده من بعد بواسطة « مذهب آيزنهاور » أن تمنح نفسها وسيلة دائمة للتدخل من شأنها الحد من أطماع عبد الناصر باثارة مناوئين ومنافسين . وهكذا ساعدت الولايات المتحدة الملك حسين على استعادة قوته ، ولم تنجح في اعادة الثقة الى سورية وافسدت لبنان .

نهضة الناصرية وطموحها ومشاكلها (١٩٥٨)

لقد كانت فكرة الرئيس جمال عبد الناصر أن تقوم وحدة العرب مقام التوازن الشرقي الضعيف الذي حماه اتفاق الغربيين بصعوبة ،

ولا شك في أن هذه الفكرة كانت تستجيب لما كان يتطلع اليه العرب من آمال في الوحدة والقوة والمنعة ، وتسبغ عليه رواء الاساطير وتجمع من حوله الشعب العربي في حماسة واندفاع .

وكانت سورية مأخوذة بكهاشة المتألبين المناصرين للبريطانيين من رجال حلف بغداد ، ومشغولة بقوى التقدم الاجتماعي ، ولكنها تخشى الشيوعية ، وغير قادرة على أن تسير بقوة النظام البرلماني الذي تأسس في ١٩٥٤ ، ومتحمسة مع ذلك لمنظور وضع الحجر الأول في بناء الوحدة العربية ، وبدا لها الاتحاد مع مصر سبيلاً للسلام : وفي لحظة ، التقت جميع الاتجاهات السورية لتحقيقه . وهكذا ولدت « الجمهورية العربية المتحدة » (١ شباط ١٩٥٨) . وتبعتها اليمن وحدها وتشكل « اتحاد الدول العربية المتحدة » في ٨ آذار ١٩٥٨ . ومقابل هذا الاتحاد شكلت العراق والاردن « الاتحاد العربي » الملكي في ١٤ شباط ١٩٥٨ . وفي القاهرة ، وخاصة فى دمشق ، كان يحلم « بضم » لبنان ، بعد أن أصبح فريسة لأزمة عنيفة ومعقدة تفاقمت فيها المنازعات الداخلية بين الأحزاب حول تجديد الرئاسة برد الفعل العربي ضد سياسة كميل شمعون المناصرة للغرب ، وأثارت ثورة خطيرة .

وفجأة قلب الجنرال عبد الكريم قاسم يساعده الكولونيل عبد السلام عارف الملكية المناصرة لبريطانيا ، في ١٤ تموز ١٩٥٨ ، وقتل الملك الفتى فيصل الثاني ، والوصي على العرش عبد الاله ، والوزير الأول نوري باشا السعيد . ولكن النظام الجديد بقي محتفظاً ببعده عن الناصرية ، واستدعى الملك حسين في عمان ، والرئيس كميل شمعون في بيروت ، القوات البريطانية والامريكية . وبرد فعل حكيم رفع لبنان على رأسه

حكماً محايداً ، الجنرال فؤاد شهاب ، الذي أمن الاستقلال القومي وأعاد الوفاق بعد الشقاق .

الهدوء النسبي (١٩٥٩ - ١٩٦١)

اهتمت الأمم المتحدة بتسوية أزمة ١٩٥٨ : فقد وقف التدخل الغربي، وارجع الموجهون الشهيقيون التوازن الاقليمي بمساعدة الأمين العام ، داغ همرشولد ، وطبعت السنوات التالية بمحاولات نشيطة في الاعمار في أكثر من دولة وبتخفيض نسبي للتوترات الاقليمية المزمنة .

في تركيا ، قلب ائتلاف الضباط والطلاب والاساتذة والصحافيين النظام الديموقراطي ، في ٢٧ أيار ١٩٦٠ . وبعد ظواهر محاولات مقاومة من الكماليين - الجدد ، اقتصر على تطهير سياسي شديد واصلاح دستوري ، وفتح الطريق إلى حكومة ائتلافية .

في ايران ، حاول الشاه عبثاً أن يؤمن لسياسته الاجتماعية قاعدة برلمانية . واضطر أن يأخذ وحده على عاتقه المسؤولية في توزيع الأراضي .

وظلت الدولتان ، تركيا وايران ، مرتبطتين بالحلف المركزي « السنتو » ، الذي حل « في ١٩٥٩ ، محل ميثاق بغداد بعد أن تخلت عنه العراق .

في العراق ، حرر الزعيم عبد الكريم قاسم في البدء جميع الاتجاهات المعادية للنظام الساقط ، ولكنه اضطر فيما بعد إلى حذف الناصريين الذين يقودهم رفيقه عبد السلام عارف ، وإلى حماية نفسه ضد اليسار المتطرف . وظلت ليبراليته الاولى حيال الأكراد دون غد ، ومن ثم اقتصر على وسائل وطرق تارة مرنة وتارة فظة

في فلسطين المحتلة ، سيطرت على البنيات السياسية شخصية قوية ، دافيد بن غوريون ، ولكنها شاخت وضعفت ، وبعد انتخابات آب ١٩٦١ الف حزب الماباي الائتلاف الحكومي بشقة .

في الجمهورية العربية المتحدة ، قام الرئيس جمال عبد الناصر ببناء السد العالي في أسوان ، بفضل أموال ومساعدات فنية سوفياتية ، وضرب على أيدي الشيوعية ، وحصل من جهة أخرى على مساعدة امريكية . ولكنه اصطدم في سورية بصعوبات اقتصادية وسياسية متزايدة . ووقع في خلاف مع العراق ، الذي أخذ ينافسه الزعامة ، ومع ايران ، المتعاونة مع اسرائيل ، ولكنه ظل يقظان حيال هذه الأخيرة . وبالرغم من داغ همرشولد حافظ على الحصار في قناة السويس ، ولكنه قبل بوجود قوى الأمم المتحدة على الأرض المصرية تراقب خط حدود سيناء وسمح لاسرائيل بحرية الملاحة في مضيق تيران نحو العقبة . وحاول أن يداري واشنطون . وعلى وجه الدقة استلم الحزب الديموقراطي السلطة في الولايات المتحدة . وكتب الرئيس كينيدي إلى الرئيس جمال عبد الناصر ، في ١٢ أيار ١٩٦١ ، وأوحى اليه بتبادل المشورة ، وكان ذلك منه مسعى ماهراً أسهم في تجميد النزاع العربي — الاسرائيلي موقتاً .

حركة في العروبة وكثرة فردية ضد الهيمنة (١٩٦١ - ١٩٦٣)

يسجل صيف ١٩٦١ في بلاد « الهلال الخصيب » نهاية الهدوء النسبي . ففي حزيران ، حاول الزعيم عبد الكريم قاسم عبثاً ضم الكويت إلى العراق بعد أن تحررت من الحكم البريطاني . وفي تموز ، جابه العراق ثورة الأكراد دون أن يقمعها .

وفي آب ، حاول الرئيس جمال عبد الناصر جمع الصف وتوحيد الكلمة بعد أن ظهرت علائم المقاومة والملل من فظاظة ممثلي الحكم الناصري في سورية . وفي ٢٨ ايلول قامت حركة عسكرية منتهزة الاستياء العـام وفصلت سورية عن الجمهورية العربيـة المتحـدة ، وتأسست « الجمهورية العربية السورية » بنظامها البرلماني البورجوازي غير المستقر .

رد الرئيس جمال عبد الناصر على التحدي مصرحاً بأن الشعب السوري لم يهزمه ، بل « الرجعية » ، وانه أخطأ في التعامل معها وأعد « الميثاق القومي » الذي يقضي بانشاء الاشتراكية في مصر مسـاعدة الحـركات التقدمية والوحدوية في البلاد العربيـة الأخرى فأثار بذلك الاضطراب في سورية ، ودعم بالسلاح ثورة اليمن و « الضباط الأحرار » الذين أعلنوا ، في ٢٧ ايلول ١٩٦٢ ، الجمهورية وردوا الامام البدر إلى حرب العصابات التي أمدّها بالمقابل السعوديون وبعض السلاطين الذين تحميهم عدن .

وفي ٨ شباط ١٩٦٣ ، قتل الزعيم عبد الكريم قاسم في بغداد بعد أن تألبت عليه قوى النـاصريين ، مع عبد السلام عـارف ، والبعثيين الاشتراكيين . وفي ٨ آذار ، استولت فئة مماثلة ، ولكن دون عنف ، على السلطة في دمشق . وفي ١٧ نيسان ، رسم اتحاد ثلاثي في القاهرة ، دون أن يتحقق : وذلك لأن العراقيين ، وبخـاصة السوريين ، أخـذوا على جمال عبد الناصر وجهات نظره المركزية وتشخيص السلطة ، وأرادوا أن يصونوا ، في الوحدة العربيه ، كثرة الكيانات التابعة وسلطة القيادة الجماعية . وأبعدت سورية النـاصريين واشترك البعثيون على اختلاف مشاربهم وألوانهم في حكومة جماعية . وفي العراق ، سقط الحكم البعثي ، ومارس عبد السلام عـارف ، وقـد أصبح ماريشالاً ، ابتـداءً من ١٧ تشرين الثاني ، سلطة دكتاتورية يدعمها نفوذ ناصري قوي .

وبعد أن أخفق الحل الامريكي في استغلال مختلط لمياه نهر الاردن ، قرر الاسرائيليون اقتطاع حصتهم . واعتبرت سورية هذا العمل « سبباً للحرب » ودعت العروبة إلى السلاح . وكان الرئيس جمال عبد الناصر يحاول اجتناب تجربة القوة في فلسطين وحل أزمة اليمن فتصور من جديد سياسة التجمع .

القمم العربية (١٩٦٤ - ١٩٦٦)

دعا الرئيس جمال عبد الناصر إلى « مؤتمر قمة عربية » ، نظم في القاهرة ، من ١٣ إلى ١٧ كانون الثاني ١٩٦٤ ، زعماء الثلاث عشرة الدولة العربية الأعضاء في الجامعة العربية . وبعقد هذا النوع من « مؤتمر فيينا » ، تخلى حقاً عما كان قرره قبل عامين وهو : دعوة الشعوب مباشرة من فوق رؤوس حاكميهم . وساعدته هذه الوسيلة التعبوية الجديدة على وضع أترابه أمام مسؤولياتهم . وذلك لأن قواهم ، ولو كانت منضمة إلى بعضها ، كانت ضعيفة للفوز بحرب خاطفة على اسرائيل ، قبل أن تساعدها الولايات المتحدة . ولذا ينبغي في هذه المرة العزف عن اللجوء إلى الاسلحة ، على أن يهيأ الجيش الموحد للأخذ بالثأر ، وان يوضع في منظمة التحرير الفلسطينية كيان فلسطيني ، وأخيراً أن تبطل خطط اسرائيل بتحويل الروافد العربية لنهر الاردن . وكانت سورية جزعة ، فاقدة صبرها ، ولم تحرز الاكثرية واضطرت إلى مشايعة هذه الخطط . أما الماريشال عبد الله السلال ، رئيس جمهورية اليمن ، فكان عليه أن يتعاون هنا مع الملكين حسين وسعود . ولم يسبق أن تحققت هذه الدرجة من التفاهم بين الدول العربية منذ إنشاء الجامعة .

غير أن الانجازات الايجابية التي تمت كانت قليلة كما لوحظ ذلك ، في ايلول ، في مؤتمر « القمة العربي » الثاني في الاسكندرية . وعادت المنازعات بين الدول العربية إلى الاشتعال . وأثار النشاط المضطرب ، الذي قام به أحمد الشقيري ، رئيس منظمة تحرير فلسطين ، النقد ، وألفت سورية عصبة وحدها جانباً ؛ وفي ربيع ١٩٦٥ ، أفاد رئيس الجمهورية التونسية ، الحبيب بورقيبة ، من رحلته إلى المشرق ، ليذيع علناً في موضوع القضية الفلسطينية ، نظرات « واقعية » اعتبرها الرئيس جمال عبد الناصر تحدياً له .

ولكن حوادث شبه الجزيرة العربية ، أخذت منذ الآن فصاعداً ، بالنسبة لمختلف الدول العربية ، وبخاصة الجمهورية العربية المتحدة ، كثيراً من الاهمية يفوق أهمية النزاع العتيد مع اسرائيل . وبينما كان الجمهوريون والملكيون يتجابهون في اليمن ، ويمزقون هذا البلد ، ويقسمون العروبة إلى معسكرين ، كان البريطانيون ، في عدن وفي المحميات المتحدة في اتحاد الجنوب العربي المدعو إلى استقلال قريب ، يلاقون العمل الارهابي الذي توحي به القاهرة ويهدف إلى منعهم من صنع حليف عربي جديد لهم . وكان ذلك سبباً آخر للرئيس جمال عبد الناصر للابقاء على جيش الحملة في اليمن،غير أنه اضطر أن يعترف ، في ٣١ أيار ١٩٦٥ ، بأن هذا العبء شل عمله حيال فلسطين .

وتعهدت الجمهورية العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية ، أخيراً ، باتفاق جدة ، في ٢٤ آب ١٩٦٥ ، أن تسحب كل منها مساندتها للمتحاربين في اليمن ، ولكنها لم تنجحا في المصالحة بينهم ، حتى ان المؤتمر المختلط في حرض ، في ٢٠ تشرين الثاني ١٩٦٥ ، توقف فجأة دون

ابرام شيء . وطبع أيضاً مؤتمر الذروة العربية الثالثة في الدار البيضاء ، في أيلول ١٩٦٥ ، بيادرة تهدئة بين الدول العربية . كما سجل تعهداً متبادلاً بالكف عن الجدل وقرر سراً خطة عمل محتملة الوقوع ضد إسرائيل . ولكن منذ أن خلع الأمير فيصل آل سعود اخاه سعود خلعاً نهائياً ، في تشرين الأول ١٩٦٤ ، وبدأ باصلاح الدولة ، ملك المعسكر « المحافظ » زعيماً وجيهاً . وعلى رأس المعسكر « التقدمي » للاشتراكيات العربية ، شعر الرئيس بالتحدي ، وازداد التوتر من جديد بين القاهرة والرياض . وفي تموز ١٩٦٦ ، عارض الرئيس جمال عبد الناصر مؤتمر الذروة العربية المزمع عقده في الجزائر في شهر ايلول .

بوادر الحرب العربية – الاسرائيلية (حزيران ١٩٦٧) ومجراها ونتائجها الاولى .

تكشف النظرة العامة على الشرق ، في ربيع ١٩٦٧ ، عن استقرار داخلي أكيد في الدول ، ونسبي مع ذلك في العالم العربي ، وعن توتر متزايد في نقطتين : الجنوب العربي ، والتخوم العربية – الاسرائيلية في فلسطين .

في تركيا وبعد أن صوت المواطنون في خريف ١٩٦٥ عادت البلاد ، مع ديميريل وحزب العدالة ، إلى الحرية (الليبرالية) الاقتصادية ، والمحافظة الاجتماعية ، بعد أن رفضتها بعض الوقت حركة ١٩٦٠ .

وفي إيران ، قوى الشاه بشكل منظم ، بعمل تصمه المعارضة السرية بـ « سلطة رب العمل » القواعد السياسية والاجتماعية للملكية . وفي كانون الاول ١٩٦٥ ، تلقى زيارة العاهل السعودي وشارك القوى

المحافظة في العالم العربي . وظلت تركيا وايران ، في « السنتو » ، حليفي الغرب الانغلو — ساكسوني ، ولكنها ضخمتا المظهر الاقتصادي للميثاق على حساب محتواه العسكري ، وبانضمامها إلى باكستان ، فضلا له رويداً رويداً الصفة الشرقية المحضة : المجلس الاقليمي للتنمية ؛ وتقرب الثلاثة شيئاً فشيئاً من الاتحاد السوفياتي . وأخيراً كان بوجه اسرائيل دافيد بن غوريون ، ولكنها وضعت ، منذ صيف ، ١٩٦٣ ، تحت إدارة ليفي أشكول المنظمة ، غير أن انتخابات ١٩٦٥ لم تجهزه إلا بقاعدة ضعيفة لائتلاف نشيط .

وفي العالم العربي ، جابهت الدول بسهولة كثيرة أو قليلة صعوباتها المزمنة . ففي العراق ، حل الجنرال عبد الرحمن عارف محل أخيه عبد السلام عارف المتوفى إثر حادث طائرة ، وظل في ركاب الرئيس جمال عبد الناصر ، وأبرم مع الأكراد ، في شباط ١٩٦٦ هدنة ضعيفة . وأصبحت سورية ، منذ ٢٣ شباط ١٩٦٦ ، توجهها فئة البعث المتطرفة وكان تعاطفها ظاهراً مع الجمهورية العربية المتحدة والاتحاد السوفياتي . ومنيت الجمهورية العربية المتحدة بصعوبات اقتصادية خطيرة واستياء داخلي عبرت عنه مؤامرة الاخوان المسلمين في آب ١٩٦٥ . ووضعها انقطاع المساعدة الامريكية عنها . في صيف ١٩٦٦ ، في تبعية أعظم حيال السوفياتيين الذين انهو لها السد العالي في أسوان .

وداور الملك حسين في الاردن الرئيس جمال عبد الناصر وأحمد الشقيري ، وفي الوقت نفسه برهن على تعاطفه مع الوطنيين الفلسطينيين باستقباله في عمان مفتي القدس السابق الحاج أمين الحسيني . ثم توترت من جديد علاقاته مع الرئيس جمال عبد الناصر ومع الملك فيصل .

ووضحت الازمة بشكل مقلق في شبه الجزيرة العربية ، وتتالت

المنازعات الداخلية في اليمن ، واتسع الارهاب في الجنوب العربي ولم تدر الحكومة الاتحادية ماتفعل ، ورفضت البعثة في الأمم المتحدة سلطتها في ٦ نيسان ١٩٦٧ .

ولكن التوتر ازداد بخاصة على الحدود العربية — الاسرائيلية . وأدت الأعمال الجريئة التي كان يقوم بها الفدائيون الفلسطينيون إلى أعمال انتقامية اسرائيلية في الاراضي الاردنية ، في ١٣ تشرين الثاني ١٩٦٦ ، والسورية ، في ٧ نيسان ١٩٦٧ .

واتهمت الاركان الاسرائيلية نظام دمشق والرئيس جمال عبد الناصر الذي ربما اقنعه الروس بأن سورية تواجه خطراً محققاً ، فحرص على نجدتها ، وطلب وحصل على سحب قوى الامم المتحدة المرابطة على الخط الفاصل في سيناء وأمام مضيق تيران ، في ١٨ و ٢١ أيار ١٩٦٧ .

وهذا الاجراء الجديد يحاصر ، على عكس ماتريد اسرائيل ، خليج العقبة . وتأثرت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة ، باسم مبدأ حرية البحار ، وأعطتا البلاد العربية ، المقتنعة طويلا بالاعتماد على الاتحاد السوفياتي ، شعوراً بدعمها لاسرائيل . واقترحت فرنسا ، عبثاً ، أن يتباحث الاربعة الكبار لايجاد حل للازمة .

واستنفرت اسرائيل جيشها ، وأدخل ليفي أشكول الجنرال موشيه دايان ومينا حيم بيغين في حكومة ائتلافية . واستسلمت الجمهورية العربية المتحدة وسورية ، ومنظمة التحرير الفلسطينية ، للدعاية الداخلية العربية . وزادت حدة التوتر بخطورة . وتصالح الرئيس جمال عبد الناصر مع الملك حسين . وحضت الدول والامم المتحدة الطرفين المتنازعين على « ضبط

النفس » . ولكن امرائيل العـادية المعتدية دوماً بادرت بالعمليات العسكرية ، في ٥ حزيران ١٩٦٧ ، ودمرت معظم الطيران المصري ، وولت الجيوش العربية الثلاثة الأدبار ، ووصل الجيش الاسرائيلي حدود قناة السويس وتخطى الاردن ووطد مراكزه في أراضي الجولان السورية ، في منتصف الطريق إلى دمشق . ولجأ نحو ٢٠٠ ٠٠٠ عربي من الضفة الغربية لنهر الاردن إلى الضفة الشرقية منه .

ومضى صيف ١٩٦٧ دون بارقة أمـل أو منظور حل . واصدرت امرائيل ، في ٢٨ حزيران ، قراراً « بضم » القدس بصفة « أرض محررة » . وأملت في أن تستخدم باقي المناطق المحتلة « رهينة » للتفاوض والدخول في مباحثات منفردة بغية ابرام السلام مع كل الدول العربية المعنية . وبعد اتفاق جديد مصري — سعودي بعيد عن المنفعة بشأن اليمن ، وبينما كانت الحكومة الاتحـادية والسلطات البريطانية عاجزة عن رد الوطنيين في الجنوب العربي ، عقدت الدول العربية مؤتمر « القمة » الرابع في الخرطوم ، في ٢٩ آب — ١ ايلول ، وقررت عدم إبرام الصلح مع امرائيل ، وعدم الاعتراف بهذه الدولة ، وعدم المفاوضة معها ، واقترحت أن توحد جهودها « لمحو آثار العدوان » . وأخذ هذا الاتجاه « الوسط » قـوته من التفاهم ، على هـــذه الأسس ، بين الجمهورية العربية العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية والاردن ، ولكنه بدا غير واقعي بالنسبة لدول معتدلة مثل تونس ، بينما ألفت الجزائر وسورية ومنظمة التحرير الفلسطينية ، فيه نوعاً من استسلام . وكانت الامم المتحدة مجمعة تقريباً في ٥ — ١٥ تموز ، وشجبت افلاطونياً السيطرة الاسرائلية على القدس ، ولكنها لم تنجح في الحصول على اكثرية الثلثين الضرورية

لتحديد حل يرضـــاه الجميع . بيد أنها وضعت مراقبين على قناة السويس بغية الرقابة المحلية لوقف اطـلاق النار الذي عكرته في الغالب حوادث عنيفة ، في ٢١ تشرين الأول ، مثل تدمير سفينة الحرب الاسرائيلية « ايلات » على يـد سفينة حربية تحمل صواريخ مصرية من صنـــع سوفياتي .

البنيات والنمو

الانظمة الداخلية

لقد سادت في البلاد العربية ، بعد الحرب العـــالمية الثانية ، على الانظمة البرلمانية الواقعية أو الاعتبارية ، أشكال غريبة : من تدخلات عسكرية « شعبية » وإتجاهات عامة أو جماعية ، « الاشتراكيات العربية » ، وتشخيص السلطة ، واسطورة « الرجل القوي » . وفي الاطراف المحيطية ، تماسك النظام البرلماني بشكل رسمي في الاردن وإيران ، وبشكل فعلي في تركيا ، وبشكل خاص قليلا ، في لبنان .

ان العسكريين من حسني الزعيم في سورية (١٩٤٩) ، إلى جمال عبد النـــاصر في مصر (١٩٥٢) ، وعبد الكريم قاسم في العراق (١٩٥٨) ، الذين حلو محل الحاكمين القدامى من الباشوات أو الاقطاعيين أو البورجوازيين كانوا رجـالا من الطبقة الوسطى . وقد عرفتهم الخدمة بالحاجات الابتدائية للشعب : وهي الغذاء والكساء والسكن والتوجيه . وأوحى اليهم الجيش بعق الخير العام ، ووضع في أيديهم مـع الاركان العامة ، صيغة صـالحة للاستعمال في التنظيم والعمل وفئة من المعاونين

المشذبين . وإذا صرفوا وسمياً رئيساً منتخباً ، وبرلماناً أو ملكاً دستورياً ، فقد ألغوا في الواقع دوماً دكتاتورية ، وسورية الاستثناء الوحيد ، ونظاماً بدا قليل النفاذ ، غير اجتماعي ، غير سليم جاءت نكبة فلسطين ، في ١٩٤٨ ، فازالت اعتباره . وتؤلف هـــذه التدخلات في بلاد العرب ، في سنوات الـ ٥٠ ، الشكل النموذجي في ابدال طبقة الوجهـــاء بطبقة الشعب

وكان روساء الدول هـؤلاء المرتجلون يعملون حسب المناسبة دون أي برنامج موضوع ، ويعرفون كيف يتخذون منذ أول وهلة التدابير الضاربة التي تعجب الجماهير ، كما في دمشق في ١٩٤٩ ، وفي بغداد في ١٩٥٨ ، كالتدابير الصارمة ضد الحبازين . وانشأوا أحياناً نظماً (مؤسسات) تدل على مهارة ساذجة ، كما هي حال عبد الكريم قاسم عندما أقـام في العراق محكمة ثورية صـاخبة « أفادت نظراً لفقدان المجلس التشريعي ، كواسطة للتخلص من العناصر المناوئة ، والآراء العنيفة والاهواء العامة ، ولكن كان من النادر أن توصلت إلى إشادة ابنية سياسية متزنة . وكان الرئيس جمـــال عبد الناصر ، وهو الامهر من غيره في هذه الظروف والوحيد الذي عرف كيف يدوم ، ويشعر بأفضل من غيره بالحاجة إلى قاعدة نظامية شعبية ، ولكنه لم ينجح ، مع الاتحاد الاشتراكي العربي ، في تنظيمها وتحريكها ، وبث الحياة فيها . وكان بين من يعملون بفكرهم ، اديب الشيشكلي، في سورية، من ١٩٤٩ الى بداية ١٩٥٤ ، يحاول طويلا بالا يكون إلا نوعاً من « حام » البنيات السياسية المدنية التي اعيد تأسيسها . ويبدو ضعف هؤلاء الحكام العسكريين عندمـا يرى أن عدداً منهم يخضعون بدورهم بسهولة تافهة لحركات عسكرية لم يعرفوا الاحتراس منها ، مثل حسني الزعيم ، وعبد الكريم قاسم ، أو لم يريدوا أن يكافحوها ، مثل

أديب الشيشكلي ، وإذا استلموا السلطة دون سفك دماء ، فقد قتلوا بفظاعة وضراسة ، مثل حسني الزعيم ، وعبد الكريم قاسم غير المسؤول عن مذابح تموز ١٩٥٨ ، وقد أعدم بعد أن سبق وعفا عن عبد السلام عارف بصفته الشخصية . ومع ذلك فقد نجا جمال عبد الناصر من مؤامرتين دبرهما الاخوان المسلمون ضده ، في ١٩٥٤ وفي ١٩٦٥ ، وظل باقياً على رأس الحكم بعد اخفاقين : في ١٩٥٦ وفي ١٩٦٧ . وبعد هذه السنة الاخيرة ، أيدته انتفاضة شعبية وأبقته على رأس السلطة ، ولكن كان عليه أن يقمع مكايد « الرجعيين » التي اشترك فيها عسكريون ، ومنهم المارشال عبد الحكيم عامر ، رجل ثقته ، وقد انتحر بصورة غامضة .

وإذا منيت الحركات العسكرية العربية ، على هذا النحو ، بالفشل والخيبة في سنوات الـ ٥٠ ، باستثناء حركة الضباط الاحرار في مصر ، فقد ظلت الفكرة مقبولة وهي أن الجيش يؤلف « وجدان الامة » . وعلى الاقل ، جزئياً ، تحت هذا الالهام ، وفي ظروف غير موضحة بشكل كافٍ تدخل الضباط من جديد : في ١٩٦١ ، في سورية ، لفصم الوحدة مع مصر ، وترك المجال بالحال لحكم مدني ؛ وفي ١٩٦٢ ، في اليمن ، لابدال الامامة العتيقة ، التي أخنى عليها الدهر ، بجمهورية ذات الهام ورعاية ناصريين ؛ ومن جديد في ١٩٦٣ في سورية لصرف الحاكمين « الانفصاليين » غير الاقوياء ، وللافادة كدعم للاشتراكيين البعثيين ، وفي ١٩٦٣ أيضاً في العراق لوضع حد لتحكم عبد الكريم قاسم ، وبعد عقبات غامضة ، أدى ذلك بعد ستة أشهر إلى تحكم عبد السلام عارف نفسه .

وحتى في البلاد التي ظلت وفية للنظام البرلماني ، كان هذا اللجوء

إلى « الوجدان القومي » العسكري يظهر في المناسبة . ففي مرتين ، بصورة عارضة في ١٩٥٢ ، وبصوره دائمة في ١٩٥٨ ، استدعى لبنان ، بطرق وأصول نظـامية ، قائد القوى المسلحة ، الجنرال فؤاد شهاب . وجنب هذا بصورة منظمة أن يحشر جنوده ضد المتمردين في ١٩٥٨ ، خشية أن يدمر الشعب اللبناني بكسر قوته الاسلامية ، ولذا ظهر حكما محايداً اقتضته حـــالة الازمة . وعندما أصبح رئيساً « مدنياً » رئيساً للجمهورية ، كان دستورياً بشكل دقيق ، حتى انه رفض كل مناورة لتجديد ولايته بصفة استثنائية ، ومع ذلك أخذ عليه ، فيما بعد ، أنه استخدم جهاز « المكتب الثاني » في حكمه .

وفي تركيا ، لم يؤد استياء « المفكرين » ، في ١٩٦٠ ، إلى حركة نافذة إلا باشراك العسكريين في انتفاضته . ولكن الخونته ذات الاكثرية العسكرية تخلت بعد قليل عـــن سلطانها إلى منتخبي الشعب الجدد ، ولم تفقد منها إلا الحد الاعظم . حتى ان بعض الضباط ، العاملين بشكل سياسي ، ذابوا في الاحزاب السياسية ، (« الأربعة عشر ») أو تاهوا في محاولتين عابثتين القيـام بحركة . ومع ذلك ، ظلت رئاسة الجمهورية ، بالرغم من التقلبات السياسية للجنرال غورسيل ، الصورة الرمزية التي انتخبها رجال أيار ١٩٦٠ . وعندما قبضه المرض ، انتقلت إلى جندي من نفس الطبـع ، الجنرال سوناي .

ان التدخلات العسكرية في البلاد العربية شعبية في أعمـاقها ، وقد أعدت بشكل إرادي أو لاإرادي المكان للاشتراكيات العربية . ففي ١٩٤٩ كان حسني الزعيم ، ومن بعده بقليل أديب الشيشكلي ، يعتبران أكرم الحوراني ، أحد زعماء حزب البعث ، بين رجالهما . أما في مصر

فقد أعطى جمال عبد الناصر نفسه للعروبة شكلها الاشتراكي الخاص . ولكن الفكرة الاشتراكية العربية أتت من بعيد ، وسلكت مسالك شتى ، ولبست أشكالا مختلفة ، بل ومتناقسة . فمنذ أن شعر العالم العربي بأنه سلم إلى نفسه ، أمام الخطر الصهيوني ، وشك في الغرب ، نشأت هذه الفكرة ، في الشبيبة الفكرية ، من فكرتين انضمتا إلى بعضها :

١ — يجب تأمين الخير العام للشعب العربي ، والوجهاء التقليديون تعوزهم الموارد وروح التنفيذ واللانفعية .

٢ — يجب على الدولة أن تنظم وتسير العمل الجماعي بقوة السلطة .

نشأ حزب البعث العربي الاشتراكي ، في سورية ، في عام ١٩٥٣ من اتحاد الفريقين المفكرين اللذين تحركها هذه الافكار : فقد وضع ميشيل عفلق المسيحي الارثوذكسي مذهبه ، وأخذ المسلمان أكرم الحوراني وصلاح البيطار يحركان الجماهير الريفية والعمالية . وكان أكرم الحوراني يدس نفسه بين الحكام العسكريين من قبل في ١٩٤٩ ، وفي ١٩٥٤ ، عندما صوت من جديد ، وأحرز نجاحاً انتخابياً مذهلا بين فلاحي وسط سورية . أما جمال عبد الناصر فقد غاظه اخفاق ١٩٤٨ ونسبه إلى الملكية وإلى طواغيتها العاجزين غير الأكفاء ، وحرك أفكاراً مماثلة غامضة أيضاً ، في كتابه « فلسفة الثورة » (١٩٥٤) ، وأطلق الاصلاح الزراعي فوراً . وضمت الجمهورية العربية المتحدة ، في العام ١٩٥٨ ، هذه العقائديات المتوازية ، وبالرغم من اختلاف الآراء بسرعة بين الرئيس جمال عبد الناصر والزعماء البعثيين ، مدت الاصلاح الزراعي إلى سورية أيضاً .

ولكن المحاولة الجديدة للاتحاد في عام ١٩٦٣ فجرت معاكسات . ففي سورية أراد البعث التعبير عن عاطفة عربية شاملة ، ولكنه كان حساساً بتأثيرات الغرب الفكرية . كان مذهبياً عمداً ، وأراد أن يكون علمانياً وفسح مجالا واسعاً لعناصر الاقليات المنشقة عن الاسلام أو المسيحية . وشاد بحق بنية قيادية ، ولكنه لم يزل توتراته الداخلية التي لاتنقطع إلا بوجود واقع « رجل قوي » .

وفي مصر ، كانت شخصية الرئيس جمال عبد الناصر ، بمساعدة فريق من الرفقاء ، تجسد السلطة . وقـــد عرض الميثاق القومي (١٩٦٢) التبرير التاريخي للحركة التي تعتمد على الاخلاق الاسلامية المفسرة بمرونة وعلى العـــاطفة الشعبية العربية ، وتستمد عزتها من صفتها الذرائعية . والاتحاد الاشتراكي العربي ليس إلا مجموعة انصار معينين والاتصال فيه يتم بصعوبة من القاعدة إلى الذروة .

وأخيراً حاول عبد السلام عـارف في العراق ، ولحد ما السلال في اليمن ، على قدر ماساعدتها قوة الموجهين القليلة ومرونة الرعايا القليلة ، اتباع هذا النموذج .

ويعي الاتحاد الاشتراكي العربي والبعث وعياً حـاداً اختلافاتهما . وهذه الاختلافات تتأتى عن أن كليهما « ذرائعيان » ، وكل منهما يتكيف من جانبه ، مع الظروف والامكنة والناس . ولكنهما يلتقيان على صعيد مشترك : وهو احترام القيم الروحية ، ونفي ، وقد خف هذا النفي عند البعث في ١٩٦٦ ، نزاع الطبقات ، والحماية الجزئية للملكية الخاصة ، والترحيب في قطاع حر « بالرأسماليين الوطنيين » والتثميرات الاجنبية ، ورفض تضحية الجيل الحاضر كلية لسعادة الأزمنة المستقبلة . والاشتراكية

عربية غير ماركسية ، وتتميز عن الشيوعية ، وتعتبر نفسها مدعوة
لقيادة البلاد العربية منها .

ولكن الخصم الاقليمي الحقيقي للاشتراكية العربية ، ولم يخدع الرئيس جمال عبد الناصر في ذلك ، هو « الرجعية » . وتعبر هذه الاخيرة عن عواطف محافظة ظلت منتشرة بصورة عريضة وظهرت باشكال متعددة . ان حاكمي الأمس « الوجهاء » البورجوازيين ، الملاك ، التجار وضعوا خارج القضية بالتدابير الأولى التي اتخذتها الحكومات الاشتراكية العربية وزالوا أو تكيسوا ؛ وهنالك جماعات نشيطة سياسية — دينية ، مثل جمعية الاخوان المسلمين في مصر أو الجبهة الاسلامية في سورية ، حاولت أن تناضل بالتآمر او بالحركة ، ولكن ضرب على يدها . ولم تظهر المقاومة الأساسية إلا عندما قام الملك فيصل آل سعود الذي توصل إلى السلطة في خريف ١٩٦٤ وأصلح مملكته في اتجاه نظام حديث ، وعارض ببنيات اسلامية تقليدية ، ولكنها متجددة ، ماشهر الاشتراكيات العربية كتقدمية اسلامية . وعرض على هذا النحو اختياراً ربما يكون قادراً على تحريض القوى المحافظة التي مازالت عتيدة في كل مكان تقريباً . ولكن أزمة ١٩٦٧ ولدت نوعاً من هدنة عقائدية بين العرب .

وبالمقابل ، يبدو أن النظام البرلماني لم يحافظ إلا على مواقع انطواء أو انتظار تتفق مع حالات خاصة . ففي أعقاب الانتداب كان دورياً في سورية واعتبارياً في العراق ، حيث كانت السلالة الهاشمية تغطي دكتاتورية « رجل قوي » ، نوري باشا السعيد .

وفي ايران ، لم يتحقق النظام البرلماني بعد ، ومعارضة سلطة الامبراطور الابوية المستنيرة يعبر عنها برد فعل الزعماء الدينيين او الاقطاعيين أو مفكري اليسار . وليس له معنى حقاً في الاردن ، حيث تعتبر شخصية الملك

حسين الكل في الكل . ولكنه يشكل في تركيا ، حيث عبر عن الاتجاهات السياسية والاجتماعية بوضوح كثير أو قليل ، بأحزاب . واذا استثنينا أدوار السلطة الشبه شخصية ، كما هي الحال في عهد المرحوم عدنان مندريس ، فان قاعدة القضية ظلت محترمة رسمياً . وكذا الحال في اسرائيل . فقد شجع التمثيل النسبي ، بالرغم من جهد التجمع ، على كثرة الاحزاب ، وتعتمد الحكومة دوماً على ائتلاف محوره حزب الماباي ، الوسط الايسر أو الاشتراكي المعتدل . وفي لبنان ، كان البناء البرلماني نافذ المفعول دون تغيير منذ ١٩٢٦ ، وفي ذلك مايؤلف رقماً قياسياً اقليمياً للاستقرار ، ولكن شكل التمثيل هنا خاص جداً ، لأن المقاعد البرلمانية توزع على الطوائف بالنسبة لعددها . وكل نائب ينتخب مع ذلك من قبل ناخبي جميع الطوائف . وهذا الوضع يجعل من البرلمان آلة وفاق بين الطوائف واتحاداً وطنياً ، ولكنه يشله .

ولايوجد أحزاب حقيقية ، بل عشائر أوكتل متجمعة حول شخصية ، والسلطات التقليدية تحافظ على وزن سياسي عظيم .

التوازنات الجماعية والتوترات الداخلية

تتقاسم الشرق الادنى ثلاث مجموعات سياسية متفاوتة السعة وهي : المنطقة العربية ، الطرف الشمالي » ، اسرائيل الغاصبة .

تتميز المنطقة العربية بلغة واحدة وحضارة واحدة ، وتتطلع إلى تشكيل وحدة سياسية تمتد إلى المغرب العربي ؛ ولكنها تكشف عن نعرات شديدة تتفق مع اختلاف الاقسام الطبيعية : « كالهلال الخصيب » ، وشبه الجزيرة العربية ، ومصر ؛ ومع العواصم التاريخية : دمشق ،

بغداد ، القاهرة ، مكة المكرمة ، الخ . والدول العربية المعاصرة : سورية ، العراق ، مصر ، الخ .

ولذا اقترحت عدة أشكال للوحدة العربية ، وفي الغالب متواجدة معاً ، وأدى ذلك إلى خلافات شديدة بين الدول العربية . أما نموذج « الهلال الخصيب » ، الذي كانت السلالة الهاشمية في العراق بطله ، فقد فضله « الحزب القومي السوري » . واسم هذا الحزب يلفت النظر ، وقد اطلقته النخبة اللبنانية والسورية المتعلمنة ، وهذا الحزب سري اليوم ولكنه قوي نشيط . وبالمقابل سويت الوحدة الشاملة ، باتجاه القاهرة ، بشكل جامعة الدول العربية ، بموجب ميثاق ٢٢ آذار ١٩٤٥ ، وضمت ، إلى الدول العربية المؤسسة السبع ، السودان والكويت واليمن الجنوبية المتحررة فقط عام ١٩٥٦ ، ١٩٦١ ، ١٩٦٧ ، وبلاد افريقية الشمالية الاربعة . وهذا الامتداد الجغرافي لايتسامح به إلا بفضل مرونة التعهد ؛ ولايمكن اتخاذ أي قرار إلا بالاجماع لذا لاتستطيع الجامعة حل الخلافات بين الدول العربية . ومن هنا كان حرد العراق ، وتونس ، والصدام السوري — المصري في قلب الجامعة نفسها . ولكنها أنشأت بجد بعض النظم الوحدوية ، كالمواصلات والتجارة والثقافة ، الخ ، وبخاصة عملت كناد دبلوماسي لتقدم للخارج وجهات النظر العربية ؛ وبهذا الشكل ، فتحت الطريق لأشكال من التضامن الأفروآسي .

وتوجو العاطفة الوحدوية العربية أن تذهب إلى بعيد ، ولكن انتخاب الطريق للوصول الى ذلك يلزم الصفة المستقبلة للمؤسسة .

يرى بعض أن الوحدة لايمكن أن تفهم الا حول دولة ، أو رئيس ، على أن تقبل هيمنتها أو هيمنته ؛ وهذه هي الناصرية ووسائلها السلطة

المتجسدة في شخص الرئيس والمركزية . ويرى آخرون أن الوحدة تكون بتجميع قائم على المساواة بين الدول الحالية التي ستصبح كيانات تابعة . وهذه هي النظرية البعثية التي تعتمد على القيادة الجماعية . وإذا اخفقت الوحدة بين سورية ومصر من ١٩٥٨ — ١٩٦١ ، والاتفاق الثلاثي في عام ١٩٦٣ فذلك لانها لم يجلا أولاً التنابذ بين هاتين النظريتين . وطريقة التقارب الجديدة التي حاولها الرئيس جمال عبد الناصر عام ١٩٦٤ ، بانشاء اتحادات ثنائية : الجمهورية العربية المتحدة — اليمن ؛ الجمهورية العربية المتحدة — العراق ، توجها مجالس رئاسة ، متساوية مبدئياً وتهدف إلى الانسجام المتوازي في النظم الداخلية ، هي أكثر حذراً وتعقلاً ، ولكن التفاوت بين القامات الوطنية والشخصية خطأ التجربة ، التي لم تقم في الواقع إلا على علاقات سيد ومسود أو سيد وزبون .

وهذه الاخفاقات تسمح باستخلاص صعوبة تحقيق الوحدة العربية حالياً ولكن دون انكار استحكام الحنين إلى الوحدة وتحقيقها في مستقبل قريب أو بعيد . وهنا توجد قوة جاهزة دوماً رغم أن استعمالها لايخلو من مشقة وعسر .

أما « الطرف الشمالي » فقد وضع قضايا أقل عسراً . ولذا لاتوجد هنا قضية في الذهاب إلى أبعد من تحالف بسيط يتجاوب مع المصالح المشتركة الواضحة جيداً وهي الدفاع ضد الخطر السوفياتي والتنمية المنسجمة . ان حلف بغداد (١٩٥٥) ، الذي نشط العراق ، أفسد التوازن السياسي الضعيف للمنطقة العربية ، ونجح بالمقابل ، في اعطاء شكل دستوري إلى التضامن الايراني — التركي . وبعد انفصال العراق ، أتمه الحلف المركزي « السنتو » (١٩٥٩) وخرج منه تدريجياً تفاهم قاصر على الاتراب الشرقيين ، والمجلس الاقليمي للتنمية . وبدت بريطانيا العظمى والولايات المتحدة متعاونتين معه من الخارج . وفقد

المظهر العسكري للحلف أهميته تدريجياً : فقد الحت إيران أولا ، وبالتالي تركيا على طـــابعه الدفاعي المحض وأكدتا أو حسنتا علاقاتها مع الاتحاد السوفياتي ؛ وفاق المظهر الاقتصادي باقامة ارتباطات بين الطرق البرية والسكك الحديدية والمواصـــلات السلكية واللاسكية وبعض الانسجام في الخطط والمشاريع . وبدخول باكستان تجاوزت المجموعة المتحققة على هذا النحو حدود الشرق الادنى .

وتظهر اسرائيل عنصراً منعزلاً دخيلا على البلاد العربية غريباً عنها ، ولقد نشأت عن اليهودية العالمية ومازالت مرتبطة بها ، وتهيء لها سبب وجود معنوياً ، ونوعاً من امتداد قومي . وتتلقى منها موارد من المال ، لاتمكن الاستعاضة عنها حالياً ، ومن الرجال . وعلى هذا النحو تبدو عنصراً محلياً لمجموعة عالمية ، ووضعاً شرقياً لتوازن جماعي غريب ، بما يجعل لها وزناً في المنطقة ، ومعنى لاتملكه وحدها . ولكن ألا يخالف وجود اسرائيل في هذه المنطقة العربية طبيعة الاشياء والعقل والمنطق .

ان تكييف هذه المجموعـــات الثلاث : المنطقة العربية « الطرف الشمالي » ، اسرائيل ، يحدث توترات داخلية تذهب من الاحتكاكات البسيطة إلى الخلافات الحـادة ؛ وان حدود امتداد الحضارات والشعوب العربي والتركي والايراني لاتنطبق ، في الواقـــع ، بالضبط على الحدود السياسية . وفي ذلك مايجعل اسرائيل في نظر العرب غريبة عن كونها دخيلة ومعتدية على أرضهم .

وبين تركيا والبلاد العربية خلاف حاد بشأن هاتاي ، وذلك لأن سورية لايمكن أن تذعن أو أن تستسلم لاقتطاع سنجق الاسكندرونة الذي جرى في عهد الانتداب الفرنسي عام ١٩٣٩ والحق قسماً عظيماً من الناطقين باللغة العربية من أبنائها بتركيا .

وبين ايران والعراق تخضع الحدود إلى منازعات تفصيلية على طول شط العرب وتدع تحت السيطرة الايرانية ناطقين باللغة العربية من اقليمي خوزستان وعربستان . وتطالب ايران بالبحرين كما أن تحديد المياه القومية للخليج العربي والاعماق البترولية التي تغطيها هذه المياه ، وبخاصة التفوق السيامي في المنطقة يمكن أن تفسح مكاناً للمنازعة .

وهناك حالة خاصة هامة مازالت تعطي مجالا لصعوبات خطيرة ، وهي قضية اسكان الاكراد ، وهم من ارومة ايرانية : والشعب الكردي ، بالرغم من عواطفه لم يؤلف أمة بعد وهو مقسم سياسياً بين تركيا وإيران والعراق وسورية وارمينية السوفياتية . وكانت القضية حادة في تركيا قبل الحرب العالمية الثانية وبقيت عتيدة ، وفي إيران في ١٩٤٥ — ٤٦، وهي موضوعة اليوم بشكل جدي في العراق ، حيث يناضل الأكراد من جديد منذ ١٩٦١ في سبيل الاستقلال الذاتي الذي يوعدون به ، وقد منحوه في ١٩٧٠ .

وقام بين الشعب العربي في المشرق نزاعان مسلحان يلفتان النظر : اليمن والجنوب العربي . قامت أزمة اليمن نتيجة لحركة انقلابية عسكرية غير تامة وأدخلت عوامل مختلفة جداً . وبالرغم من أن الامام الزيدي مع مايسانده من القبائل التقليدية ، يناضل ضد الجمهوريين ، فلم يستطع ضم كافة الزيديين لأن بعضهم يعادون السلالة ، كالماريشال السلال نفسه . وبالمقابل ، اصطفت القبائل السنية إلى جانب المتمردين ، الذين يستمدون قوتهم من الروح المحافظة ومن عاطفة العداء حيال التدخل الاجنبي الذي يمثله المصريون .أما المعتدلون من الجمهوريين ، الذين يزعمون تأسيس « قوة ثالثة » فيحاولون البحث عن تسوية يختفي وراءها طويلا كل معسكر مع اقتناعه بعدم الخضوع . والكفاح في هذا البلد هو في

آن واحد اجتماعي - ديني ، عقائدي ، وقومي . وقبلت الدولتان اللتان غذتاه من الخـــارج ، الجمهورية العربية المتحدة والمملكة العربية السعودية ، في ١٩٦٥ ، ومن جديد في ١٩٦٧ أن يتحررا من كل التزام بغية تشكيل الاتحاد العربي أمام اسرائيل . وانسحبت الجيوش المصرية ، في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٦٧ ، وزال السلال لصالح الجمهوريين المعتدلين في ٥ تشرين الثاني .

وفي الطرف الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة العربية توجد حالات يجدر تمييزها . فبالرغم من أن عروبة القاهرة تريد شمولها في نضال يجمع ضد الامبريالية البريطانيه ، فقد ادعت بريطانيا بحقوق محمييها في الخليج على واحة البريمي التي يطالب بهـا السعوديون . وقاتلت أمام عمان الذي ثار على سلطان مسقط، زبون لندن ، بدافع عقائدي خارجي (من الخوارج الاباضية) وقومي وبخاصة ، بحث عن حل لقضية عدن . وربما أوشكت أن تنجح في تشكيل اتحاد الجنوب العربي ، الذي سيستقل في عـــام ١٩٦٨ ويوازن الوطنيين والنقابيين في المدينة بشيوخ المحميات المحافظين ، لولا أن الجمهورية العربية المتحدة ، بغية معاكسة الخطط الانكليزية في بقاء التسهيلات الستراتيجية ، أثارت الارهاب . ودعم هذا الارهاب بالعاطفة الوطنية المحلية ، وطوال صيف ١٩٦٧ ، عمل على اخفاق الحكومة الاتحادية ودفع البريطانيين إلى الاذعان لمشيئة الوطنيين باستلام السلطة . واعلنت جمهورية اليمن الشعبية في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٦٧ .

إن خلافـات اليمن والجنوب العربي التي جهزت الرئيس جمال عبد الناصر بوسيلة الدفاع ، ثبتت طويلا قسماً من قوته وأسهمت على هـذا النحو ، على مماطلته في موضوع فلسطين . وان النزاع العربي ـ الاسرائيلي ، الذي عقد منذ ١٩٣٦ ، وعبر عنه بشكل بين ـ دولي منذ ١٩٤٨، وآل، خلال

ثلاث مرات ، إلى تجربة القوة ، يؤلف قضية الشرق الحادة اليوم . واسرائيل التي تعتبر نفسها غالبة بقوة السلاح في ١٩٦٧ مازالت مستمرة في التأكيد بأنها تريد فقط تأمين حياتها وأمنها على أرض تطالب بها باسم التاريخ الذي أخنى عليه الدهر وتريد انعاشه في عصر يقظة الشعوب . والشعب العربي من جهة أخرى ، يطالب بأرضه المغتصبة في فلسطين المحتلة ويعتبر اسرائيل ووجودها في فلسطين عدواناً لايمكن السكوت عليه والتسامح به . وهو رفض التفاوض مـــع اسرائيل مستنكراً عملها . ومازالت الدبلوماسية الدولية حتى الان تبحث عن طرق الحل . ويفكر بعضهم ، في اسرائيل ، ويريدون أن يأملو بإمكان التعايش بين العرب واليهود . وهذه هي حال اشتراكيي اليسار المتطرف في حزب المابام وحركة « البيان السامي » الذي وضعه أووري آفنيري وتتلخص في أن التحسين المعنوي والنفسي لحالة العرب ، الطيبة مادياً ، في اسرائيل ، ومنح شروط مقبولة لحياة السكان في الضفة الغربية المحتلة ، كل ذلك يبرهن على امكان هذا التعايش . وهكذا ينشأ شعب اسرائيلي ويؤلف الاكثرية على أرض فلسطين ولا يشعر بأنه رأس جسر للغرب ، ويرتبط قليلا باليهودية العالمية . غير أن الاحداث الجديدة زادت في التضامن الفعلي بين اليهودية العالمية (دياسبورا) ودولة اسرائيل .

ولكن حل قضية فلسطين لاتتعلق بالصهاينة وحدهم لأن الشعب العربي وقد حنكته التجارب المرة ، سيثور يوماً على الاوضاع القائمة ويعرف كيف يجد الطرق الكفيلة باسترداد الحق السليب وعودة البلاد إلى أهلها العرب وحدهم دون منازع ولاغاصب .

التنمية

أن الدور الطبيعي للشرق الادنى ، كعقدة للمواصلات ومركز للعبور والسمسرة ، يتأكد في نفس الوقت الذي تتأكد فيه مكانته العالمية كمجهز بالمواد الاوليه الاساسية ، البترول والقطن وبعض الحاصلات الثانوية .

ولكن الصناعة ظلت محلية وناشئة ، ومستويات الحياة متفاوتة جداً ؛ ومازالت المنطقة تشارك العالم الثالث في تخلفه .

ان طرق المواصلات تتنوع وتزداد . ففي البر تضاف الطرق في كل مكان إلى السكك الحديدية التي بقيت هامة في تركيا وايران ووادي النيل والدلتا والعراق ، ولكنها لاتعتبر في باقي العالم العربي . وفي البحر تظل قناة السويس طريقاً عالمياً عظيم الاهمية وتحسينها التقني المتابـع باستمرار يجعلها تصل إلى حمولات من ٦٠٠٠٠ إلى ٧٠٠٠٠ طون . ولكن الانعطاف عن طريق الكاب لناقلات البترول العملاقة التي يزداد عددها وحمولتها دون انقطـاع ، أكثر اقتصاداً . ويبدو أن انسداد القنـاة في ١٩٦٧ أقل ازعاجاً لاوربة منه في ١٩٥٦ .

وعندما تفتح القناة تبدو مهددة بفقدان قسم من خط نقل البترول بالاتجاه الجنوبي — الشمالي الذي مازال رئيسياً إلى عهد قريب . ولكنها ستظل تتقبل في الاتجـاه الشمالي — الجنوبي ناقلات البترول التي تعود فارغة إلى الخليج العربي ، وحمولات الحبوب الغربية إلى الهند ، الخ . والموانى نشيطة : وتظل بيروت في الصف الاول ، غير أن اللاذقية وطرطوس في خدمة سورية ، والعقبة في خدمة الاردن والعراق ، دون الكلام عن حيفا وايلات في خدمة اسرائيل الغاصبة تنافسها أو تتوازم مع

الحاجات الخاصة . وترتبط بور سعيد وعدن بطريق السويس . أما في النقل الجوي ، فيبقى الشرق الادنى ، بالرغم من طرق الاستعاضة الجديدة : باريس — طوكيو ، عن طريق القطب الشمالي ؛ ولندن — سيدني ، عن طريق موسكو ونيودلهي ، الخ ، مركز لقـــاء طبيعي نحو أسيا الجنوبية والشرق الاقصى ، واوستراليا وافريقية الشرقية . ولقد دفعت التيارات التجارية الاتباعية سماسرة من الصعب الاستعاضة عنهم : وتعتبر بيروت ، الميناء الحر ، مركزاً لامثيل له في الاعمال التجارية ، وسوقاً للذهب يعيش لبنان بخدماتها .

وازداد انتـــاج البترول في الشرق الادنى بأكثر من عشرة اضعاف خلال عشرين عامـاً ، وانتقل من أجل مجموع المنطقة من ٤٢ مليون طن في ١٩٤٥ إلى ٤٦٨ في ١٩٦٦ ، أي قرابة ٢٩٪ من انتاج الكرة ، من أجل احتياطيات من المؤكد أنها تقارب ثلاثة أرباع المجموع العـالمي . وكانت ايران في الرأس ، وقد انتجت في العام ١٩٦٦ ، مقدار ١٠٣ مليون طن ، ولكن العربية السعودية تجاوزتها بـ (١١٧) مليون ، والكويت بـ (١١٤) مليون ، على حين أن العراق لم يبلغ إلا ٦٧ مليون طن . وبالرغم من منافسة ليبيا الموضوعة من الوجهة الاقتصادية في غرب السويس ، والتي ستتجـاوز الكويت بعد سنوات قليلة ، يبقى الشرق الادنى مجموعة بترولية وحدها وقائمة بذاتها . وان عائدات البترول التي كانت ومازال موضع نقاش حاد ونافذ ، أفادت في قسم منها النفقات الباهظة ، في العربيه السعوديه قبل الملك فيصل ، أو الخدمات : مثل الخدمات الاجتماعية ، والتعليم العـام وغيرها المجانية في الكويت وقطر . الخ . وتستطيع العراق وايران بصعوبة ، وفي الحد الادنى العربية السعودية ، استخدامها في انشاء اقتصاد مستقل عن البترول .

وإلى كنز المال وشراء العقارات في بيروت أو وضـع المـــال المنقول بالفائدة في مدينه لندن لحساب الكويت بخاصة تضاف القروض الماهرة التي تقوم بها الكويت أيضـاً لتنمية الاردن ولبنان وتونس وغيرها . وجرت محـاولة مقاطعة بترولية لشركاء اسرائيل الغربيين ، في صيف ١٩٦٧ . ولكن عدل عنها بعد أن أظهرت للمنتجين الشرقيين بأنهم لايستطيعون الاستغناء عن هذا المورد . والبلاد الشرقية غير المنتجة للبترول ، وبعضها يفيد فقط من مرور خطوط الانابيب التي تصل العراق والعربية السعودية بشاطىء البحر المتوسط ، سورية ولبنان والاردن ، وبخاصة المرور من قناة السويس في جمهورية مصر العربية ، ترجو المشاركة أيضاً في مصدر الثروة البترولي . وقد قرر مؤتمر « الذروة » في الخرطوم ، في آب — ايلول ١٩٦٧ ، أن يذهب اسهام الكويت والعربية السعودية وليبيا على التوالي : ٥٥ ، ٥٠ ، ٣٠ مليون جنيه استوليني إلى جمهورية مصر العربية (٩٠ مليون) والاردن (٤٥ مليون) بغية المساعدة على نهوضها الاقتصادي .

والانتاج الزراعي موزع تقريباً بصورة متفاوتة كالموارد البترولية . إلا أن معظم الدول تفيد على الاقل من بعض المنـاطق الخصبة المسقية جيداً أو المروية (قبل كل شيء مصر بوادي النيل ودلتاه ، ولكن أيضاً تركيا مع شواطىء بحر ايجة وكيليكيا وايران مع اذربيجان وغيلان ، وسورية بأراضي الحنطة في المعمورة وحوران ، الخ .) ، والتقدم سائر وتأتي مصر في الرأس بالسد العالي في أسوان وضخ المياه الجوفية من الصحراء الغربية ؛ وتنظيم واستغلال نهري دجلة والفرات يمكنها من أن يسدا التأخر النسبي في بلاد مابين النهرين السورية والعراقية . كما أن الافادة من مياه خوزستان يؤلف في ايران نموذجاً للنفـــاذ الامريكي . هذا

وتكفي الموارد الغذائية في كل مكان تقريبا ، إلا في لبنان بخاصة ، الحاجات المحلية مقابل بعض المبادلات كالماشية العراقية والتركية والسورية ويضحى بها بشكل منظم ، في مصر ، لاقتصاد السوق المؤسسة على القطن ذي الالياف الطويلة التي يبحث عنها . وقد عرفت السودان وكيليكيا التركية والسهول السورية بخاصة منذ بضع سنوات نهضة قطنية عظيمة . ولكن الدفع الديموغرافي يضع بشكل حاد في مصر وبشكل جدي أيضاً في تركيا ، قضايا الغذاء . ان السد العالي في أسوان ، الذي يساعد على تخزين واستعمال كامل غزارة النيل بما فيها الفيضانات الاستثنائية المتعددة ، لايساعد مع ذلك إلا في بعض السنين على مجابهة الحاجات الناجمة عن هذا الدفع السكاني .

ولذا يبدو التصنيع مفيداً في كل مكان ، ولا غنى عنه من أجل تركيا ، وحيوياً بحق في مصر . وقد قام هذان البلدان به . ففي تركيا درست خطة خمسية بجد ، وأفادت من مساعدة الغرب ، ووجهت الجهد في هذا الاتجاه ، وأمنت تقدماً رصيناً . وفي جمهورية مصر العربية ، يسمح التيار الكهربائي ، الذي يجهزه السد العالي بكميات عظيمة وبسعر رخيص ، بالأمل بنمو صناعي تتصوره السلطات بأنه سيكون عظيماً وضخماً ، ولكنه ، نظراً لضعف القوة الشرائية الوطنية ، يتطلب منافذ خارجية : وهل من السهل وجودها ، كما يؤمل ، في افريقية ؟

وتبقى حالتان خاصتان هامتان ، لبنان واسرائيل . ان اللبنانيين يعيشون بصورة اتباعية من الخدمات . ولقد أكدت المهارة الكبرى والوضع الجغرافي الممتاز والتقاليد المديدة للتجارة ، والنظام الحكومي الحر والمشجع للمشروع الخاص ، كما عززت هذا الوضع الاستثنائي لبيروت كمكان تجاري ومصرفي ، ومنه خرج ازدهار البلاد . وهذه القاعدة

الاقتصادية « الثلاثية » بشكل وحيد تقريباً ، ظهرت في السنوات الأخيرة ضيقة قليلاً ، وبدافع من الجنرال شهاب درست خطة ، كما تصورت في الوقت نفسه اجراءات لانعاش الجبل بغية توازن الأهمية الزائدة للعاصمة . ولكن يبدو أن مثل هذا التغيير صعب التحقيق ولو جزئياً وتدريجياً ، بالرغم من أن انقطاع نشاط بنك انترا ، في ١٩٦٦ ، من خطر بعض المضاربات المالية ، قد دل على الضرورة العاجلة لتوازن اقتصادي أفضل .

أما اسرائيل فقد حاصرتها المقاطعة العربية ، واضطرتها إلى البحث عن منافذ في باقي العالم . غير أن حركية القسم الاعظم من سكانها الأوربي الأصل وقيمته التقنية ووفرة التوظيفات المالية التي تفيد منها ساعدتها على انشاء اقتصاد من نوع غربي مبني على زراعة السوق والصناعات التحويلية التي توسعت توسعاً سريعاً ليس بالسهل ضبطه .

الشرق والعالم

إن الشرق الأدنى ، الذي بدأ خلاصه من الاستعمار مبكراً وكان بالاجمال بطيئاً وما زال ناقصاً بعد ، لم يتجه بصورة أساسية ، على خلاف افريقية ، نحو الدول الغربية المسيطرة من قبل لقبول المساعدة منها . ان موقفه حيال العالم الخارجي كان أكثر تعقيداً . أولاً لأن الانطباع ، في قسمه العربي على الأقل ، كان في أن السيطرة الغربية تحاول الامتداد لا بقواعد وبسيطرة اقتصادية فحسب ، وإنما ، بخاصة ، بالبؤرة الامبريالية ، اسرائيل . وأيضاً ، لأنه كان عليه أن يأخذ بعين الاعتبار جوار الاتحاد السوفياتي ، وذلك مايستطيع عمله بأشكال مختلفة : باشتراكه فيما يتعلق به باحتياطات الغرب الدفاعية ، وهذه حال « الطرف الشمالي » ، أو باستخدام

امكانيات اللعب ، حتى المزايدة ، المقدمة على هذا النحو ، وهذا ما فعلته معظم البلاد العربية .

لقد انطلقت دولتا « الطرف الشمالي » ، تركيا وايران ، منذ ١٩٤٥ ، من اتفاقات دفاعية وأحلاف حماية وصيانة مع الغرب ، ثم تطورت قليلاً قليلاً نحو علاقات ودية مع جار الشمال القوي ، دون الاضرار بالعلاقات التفضيلية مع الغرب .

وبالمقابل ، وضعت البلاد العربية ، مع قليل من الاستثناء ، في الحرب الباردة بين الغرب والشرق ، الموقف المحايد الذي فضلته أثناء الحرب العالمية الثانية . وأفادت في البدء من ذلك لتلعب لصالحها بالمنافسات بين الديموقراطيات الغربية والعالم السوفياتي ، ولكن عندما بدأت الكتلتان تقبلان بالتعايش السلمي ، أصبحت ، بالعكس ، بالنسبة لهما ميدانا من الميادين الأخيرة المغلقة التي تستطيعان فيها الاستمرار بالمعارضة سراً .

فرنسا . — بين الدول الخمس الكبرى ، تعتبر فرنسا الدولة الوحيدة التي ليس لها أهداف سياسية بصورة أصلية في الشرق الأدنى . فهي تقيم ، مع لبنان ، وأيضاً مع تركيا وايران « صداقات متينة وقديمة دون ارتباطات » . ومنذ أن زالت آثار أزمتي الجزائر والسويس ، أقامت علاقات ودية مع سورية والاردن والعربية السعودية ، والكويت ، والجمهورية العربية المتحدة ، مع الحفاظ على علاقاتها التقليدية مع اسرائيل . ولكن تحفظ حكومة باريس أثناء أزمة حزيران ١٩٦٧ خيب رجاء اسرائيل . وتعتبر فرنسا زبوناً مميناً لبترول الشرق ، ويمكنها أن تحاول بيع الكثير في هذه المنطقة . وهي تهتم بخاصة بتعزيز اشعاعها الفكري بالتوسيع والتجديد ، الكثيف بشدة في لبنان ، حيث يوجد ثنائية لغوية

حقيقية عربية — فرنسية ، وعامة أيضاً في سورية ، ايران ، اسرائيل ، وحتى في تركيا ، ومن الممكن أن تنمو وتتقدم في غيرها .

بريطانيا العظمى . — أصيبت هي أيضاً ، كفرنسا ، محلياً بقضية السويس ، وما زالت تمسك بعد في المنطقـــة بمواقع استعمارية ، أو استعمارية — مستعارة (سلطنة مسقط وامارات الخليج العربي) . وتغذي حولها عملاً سياسياً من بقايا العهد السابق يحاول أن يتكيف مع الظروف بمهارة ونجاح . وما زال الوجود البريطـــاني في المشرق يعيش على هـذا النحو ، على قضيته الأســـاسية التي تكمن حتى ١٩٤٧ ، في ضرورة « مواصلات الامبراطورية » مع الهند ؛ ويوجد هـذا التبرير لحد ما في رغبة لندن بالاستمرار في أن تلعب دوراً استراتيجياً في المحيط الهندي ، وغطاء للهند ، عضو الكومنولث ، وربما أكثر من ذلك أيضاً في قناعة الحكومة ، التي يناقشها قسم من الرأي ، بأن أمن البترول — الاسترليني للخليج العربي يتعلق بالقوات البريطانية المرابطة عن كثب في البحرين . وقد أعيد النظر بهذه الأوضاع في بداية ١٩٦٨ . واستقلت البحـرين في ١٩٧١ . وكانت السياسة البريطانية ، في القسم الاعظم منها ، تعتمد على وجود حليف مفضل في الشرق العربي : حتى ١٩٥٨ العراق ، في ١٩٦١ وربمـا الكويت المستقلة ، ثم على مشروع دقيق ، ولكنه أخفق ، وهـو الجنوب العربي المتحد حيث توازن محافظة المشايخ المحميين قومية المتطورين في عدن . والنقطة الضعيفة في السياسة البريطانية في الشرق ، عدا الطابع البالي لبعض وسائلها « كالسياسة العربية » و « دبلوماسية ثغرة المدفع » ، تكمن في عداء مصر لها ، ولم تنجح لندن في تخفيفه إلا خلال فترة قصيرة من صيف ١٩٥٤ إلى صيف ١٩٥٦ ومن جديد في آخر ١٩٦٧ .

الولايات المتحدة . — عندها من الوسائل ما لا تتصرف به انكلترا ، ولكنها لم تفهم إلا ببطء وصعوبة « معنى » هذه المنطقة الدقيقة . ومع ذلك فقد تطورت سياستها ، وبخاصة ابتداءً من ١٩٦١ ، تبعاً للوقائع المحلية المقدرة بشكل أفضل ، وبعد أن اقترحت ، وحتى حاولت أن تفرض ، أحلافاً ومواثيق ، عرضت اتفاقات . إن الدخول في اجراءات الدفاع الغربية ، قبل في « الطرف الشمالي » منذ ١٩٤٥ ، إلا أنه رفض ، في ١٩٥١ ، بتفجير ، ثم قبلته مصر في ١٩٥٤ ، فترة ، بصورة غير مباشرة ، ثم من جديد غطي بالعار ، من دمشق إلى القاهرة ، ابتداءً من اللحظة التي جذب فيها العراق ، في العام ١٩٥٥ . إن رعايتها الأولية لاسرائيل واضحة . فقد اعترفت بها في الواقع ، في ١٩٤٨ ، بعد ست عشرة دقيقة على اعلانها كدولة . وعزمها المؤكد في ١٩٥٠ بالاشتراك مع بريطانيا العظمى وفرنسا ، في الحفاظ على « الوضع الراهن » الشرقي ، أي ضمان وجود اسرائيل . وإرادة فوستر دالس الناعمة بسذاجة في صيد مصر والاتحاد السوفياتي بالفخ ، في ١٩٥٦ ، بالوعد الآفل في تمويل السد العالي في اسوان ؛ ومحـاولة ايريك جونستون السلمي الذي اعتبره العـرب مثيراً لأنه يؤمن تقسيم ميـاه الاردن بين العرب والاسرائيليين وتوطيد اللاجئين العرب ؛ والصيغة غير المناسبة « لمذهب آيزنهاور » الذي يزعم ، في بداية ١٩٥٧ ، سد « الفـراغ السياسي » في المشرق العربي ويهدف ، دون نجاح ، إلى معاكسة عمل جمال عبد الناصر ؛ وعمليات الانزال ، في تموز ١٩٥٨ ، في لبنان ، بناء على طلب الرئيس شمعون . وقد حمل العرب كل هذا للولايات المتحدة لأنه كان أثقل كثيراً من تدخلهـا ، الموازي لتدخل الاتحـاد السوفياتي ، على ما يخـالف الفرنسيين والبريطانيين ، في قضية السويس ، وحديثها الودي إلى اللاجئين العرب الذين

تدبر أمورهم وكالة الغوث (L . U . N . R . W . A) ، وثباتها زمناً طويلاً في تقديم عون وافر لا يمل . وبعد ١٩٥٨ ، وبخاصة بعد المبادرة السعيدة التي اتخذها ، في ١٩٦١ ، الرئيس كينيدي عن طريق الاتصال الشخصي بالمراسلة مع الرئيس جمال عبد الناصر ، تغيرت هذه السياسة بشكل عظيم ؛ وقبلت المنافسة ، وبالتالي تجمع العون الامريكي والعون السوفياتي لمصر ، وإذا استمرت بضمان اسرائيل ، فذلك سراً بوجود الاسطول السادس في البحر المتوسط .

ولكن حكومة واشنطون تعرضت منذ عهد قريب لكراهية عميقة من قبل أكثر الأحزاب التزاماً بالعروبة وذلك أولاً : بسبب انقطاع تسليم الفائض من المواد الغذائية إلى الجمهورية العربية المتحدة في ١٩٦٦ ، وثانياً موقفهـــا المكشوف شريكاً نشيطاً في العدوان الاسرائيلي في ربيع ١٩٦٧ .

الاتحاد السوفياتي . — لم يظهر في البدء ، في المشرق العربي ، إلا ببعثات دورية ومحاولات تسلل في الأوساط الفكرية ولدى بعض الاقليات . وفجأة ، في عام ١٩٥٥ ، وبسبب تسليم غير مشروط للأسلحة جعل الشعب العربي يشعر ببارقة أمل بثأر ممكن ضد اسرائيل ، ودغدغ اهواءه ، كسب الاتحاد السوفياتي في البلاد العربية مركزاً عظيماً معنوياً وسياسياً . واقتصر ، كما كان يفعل ملوك فرنسا في البلاد الألمانية ، على أن يبقي في الشرق « القضايا في صعوبة عظيمة ما أمكن » ، واكتفى بمنع الغرب من تنظيم المنطقة وامتنع عن أعمارهـــا بنفسه . وفي شتاء ١٩٥٨ — ١٩٥٩ لم يتنازل بتشكيل ديموقراطية شعبية في العراق وتحمل طويلاً الشدة التي استعملتها حكومة القاهرة حيال الشيوعيين المحليين بعد أن بدا له أن نفاذهم قليل الأهمية . وركز بمهارة مساعدته المالية والتقنية

على انشاء السد العالي في اسوان ، وأخذ على عاتقه تبعته ، وحقق أثراً ضخماً للدعاية ، وربما يكون على هذا النحو قد هيأ ، مع التصنيع ، طبقة كادحة مصرية تساعده إلى أجل في القيام بثورة تبدو له بأنها لم تستكمل شروطها اليوم .

وبدا موقفه في أزمة ١٩٦٧ مهماً وملتبساً ، وازدرت البلاد العربية نفسها على المساعدة التي كان من الممكن أن تنتظرها منه ، ولكنها تلقت منه تعويضاً جزئياً لخسارتها في الاسلحة والعتاد العسكري، ويبدو أنها تستمر قبل كل شيء في الاعتماد على مساندته السياسية والدبلوماسية .

أما « الطرف الشمالي » فلم يظهر بالنسبة إلى الاتحاد السوفياتي ساحة دفاع يكره الحفر من الداخل ، بل كسياج تمتزج الرقابة السرية عليه بمساعدة ودية آخذة بالأهمية تدريجياً .

الصين . — تأثيرها عظيم وجذاب ولكنه يقلق . وحركتها المميزة ، عدا عن المساعدة الفنية الدورية المحولة لليمن ، تقوم على تشجيع مفرط يبذل إلى التطرف اللفظي لمنظمة تحـــرير فلسطين . وما زالت أهميتها مستمرة لأنها تتأتى بخاصة عن سلاحها النووي . ويرى الكثيرون أن من الممكن على وجه الاحتمال أن تفيد به حركة ثورية ما في العالم الثالث .

ولكن المشرق العربي ، الذي لعب على الحرب الباردة بين الشرق والغرب ويلاحظ أيضاً باهتمام امتداداتها السرية كثيراً أو قليلاً على أرضه ، لايملك ، على مايبدو ، الوسائط أو الذوق في حشر نفسه في النزاع الداخلي للعالم الشيوعي .

وربما يؤلف هذا الحذر ، في الوقت الحاضر ، الصفة المطمئنة ، بل المطمئنة الوحيدة لسياسته الشاملة التي تسيطر عليها قضية فلسطين المعقدة .

الفصل الثاني عشر

الشرق الاقصى

تقديم

إذا كانت آسيا أوسع القارات مساحة ب ٤٤ مليون كيلو متر مربع فالشرق الاقصى يؤلف فيها القسم الأكثر كثافة بالسكان ب : ٠٠٠ ، ٤٣٦ ، ٦٨٧ ، ١ في شطر من الكرة يقع بين ٦٠° و ١٦٠° طول شرقاً ، ويمتد من خط الاستواء إلى ٥٠° عرض شمالاً ، مع العلم أن سكان العالم في العام ١٩٦٦ بلغ ٣٫٣٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ نسمة . وتتساكن فيه اليوم ثلاث وعشرون دوله مستقلة تؤلف خمسه قطاعات كبرى :

١ ـ الهند ، وتتجمع حولها الباكستان ، الافغانستان ، النيبال ، بوتان ، سيلان ، وجزر مالديف .

٢ ـ الصين ، مع مونغوليا ، فورموزا ، جمهورية كوريا الشمالية وكوريا الجنوبية .

٣ ـ الكتلة الهندية ـ الصنية ، وتضم برمانيا (بورما) ، التايلاند ، كامبوديا ، لاوس ، فيت ـ نام الشمالية ، فيت ـ نام الجنوبية ، ماليزيا (ملايو) وسنغافورة ؛

٤ ـ الأرخبيل الياباني .

٥ - ارخبيلات جنوب - شرقي آسيا : اندونيسيا ، الفيليبين

وفي كل زمان ، أفاد الشرق الاقصى ميداناً مغلقاً على الفاتحين المهتمين بتوكيد سلطتهم أو ، بشكل أبسط ، الجشعين إلى السلع الثمينة . وهكذا أصبح « طريق الحرير » خلال العصور ، طريق الغزو . ومن هنا كان الاحتكاك غير منقطع بين الاعراق ، التي توجد نماذجها الاصلية الثلاثة ، النقية كثيراً أو قليلا ، في مختلف أجزاء القارة :

١ - الزنوج ذوو القامة الصغيرة ، واللون الاسود الداكن ، والشعر القصير الاجعد ، بين منحدرات هيالايا ، كمبوديا وماليزيا ؛

٢ - الآريون ذوو الجلد الابيض نسبياً والقسمات المنتظمة ، في الهند ؛

٣ - الصفر ذوو الشعر الاسود الأملس ، والوجه العريض ، والخدود الناتئة ، والعيون المشدودة جانبياً ، ويظهرون بكثرة في البلاد الآسيوية الاخرى .

وقــد لعب التدخل المتعاقب للوغول الاغريق والفرس والعرب ومسيحيي أوربة الغربية دوراً قاطعاً في مزج هؤلاء السكان .

وكان الشرق الاقصى ومازال ملتقى أعراق ومكان لقـاء للتيارات الروحية الكبرى التي ولدت ، أحياناً ، فروعاً متنافسة ، كالهندية والبوذية والكونفوشية والطــاوية والشنتوية ، أو التي اصطدمت فيه بعنف في أحيان أخرى .

وعندما نشبت الحرب العـالمية الاولى ، كان الشرق الاقصى بكامله تقريباً مقسماً بين الدول الامبريالية ، التي تحولت عنه زمناً ثم عادت اليه بقوة عندما سوت حساباتها في أوروبه . ووجدت فيه حالة جديدة مطبوعة بالدور المتفوق ، الذي يلعبه الاتحاد السوفياتي ، وبيقظة القوميات أيضاً .

في الهند ، طالب الماهاتما غاندي بـ السفاديشي أي الاستقلال التام ، وبشر بالثورة السلبية . وفي الصين ، وجه الزعيم سن يات ـ سين الحزب الوطني (كيو ـ من ـ تانغ) لمهاجمة السلطة الامبراطورية . وعند وفاته ، في ١٩٢٥ ، خلفه تشانغ كاي ـ تشيك في هذا النضال . وسيكون مصيره غريباً لأنه كان طوراً وطوراً عدواً ، وحليفاً ، ومغلوباً للحزب الشيوعي الصيني ، الذي يوجهه ماوتسه ـ تونغ ، ليوشاو ـ شي ، شوإن ـ لاي ، شو ـ ته ، شين ـ يي ، لن بياؤ وتسجل « المسيرة الطويلة » في ١٩٣٥ نقطة الذروة لأول مجابهة بين تشانغ و ماو . ثم تصالح الرجلان ، في ١٩٣٧ ، بعد عدوان اليابان الغاشم ، ثم عادا وتجابها من جديد في ١٩٤٥ ، بعد عودة السلام ، وكان ماو ، في هذه المرة ، غالباً .

ودفع القومية نفسه ، الذي تشجعه انعكاسات أزمة ١٩٢٩ ، يوجد في جنوب ـ شرقي آسيا كله : فقد الف الدكتور سوكارنو ، في اندونيسا ، في عام ١٩٢٧ ، الحزب الوطني الاندونيسي ؛ ووجه هوشي منه الحزب الشيوعي في الهند الصينية منذ ١٩٣٠ ، وسيصبح رفاقه في الكفاح منظمات سياسية ـ دينية : كاؤداي و هوآ ـ هاؤ .

ومنذ ١٩١٦ ، خولت الولايات المتحدة نصف ـ استقلال ذاتي إلى الفيليبين ، حيث شكل مانيويل كويزون ، في ١٩٣٥ ، حكومة مسؤولة رغم أن واشنطون مازالت تختص بالسياسة الخارجية والعدلية .

وفي برمانيا (بورما) ، المنفصلة عن الهند ، حاولت بريطانيا العظمى القيام باصلاحات مماثلة .

ومهما تكن ردود فعل الدول الاستعمارية ، من تسويات أو مقاومات فظيعة ، فيجب أن تعترف بأن الحركة عامة ، لاتقاوم . وعليها طوعاً أو كرهاً أن تتخلى عن فتوحاتها .

ولقد عجلت الحرب العالمية الثانية أيضاً بهذا السير والنمو ، وسجلت نهاية الاستعمار ، وفتحت عهداً جديداً في تاريخ البشرية : عهد اللااستعمار الآخذ بالتحسن بوتيرة سريعة .

اليابان

حلم اليابان الجنوني

لم تنتظر اليابان انضمامها إلى الميثاق الثلاثي ، مع المانيا النازية وايطاليا الفاشية ، في ١٩٤٠ ، لتبسط « مجالها الحيوي » بواسطة سياسة القوة . ولكن قنبلة هيروشيما ، في ٦ آب ١٩٤٥ ، انهت حلمها الجنوني في الهيمنة ؛ وكان على طوكيو أن تستسلم وتجلي عن جميع الاراضي التي احتلتها بغير حق ، مثل منشوريا والصين .

وخسرت ، عدا ذلك ، البلاد التي كانت فتحتها واستعمرتها لتجعل منها مجهزاً أساسياً لها بالمواد الاولية : شبه جزيرة كوريا ، جزيرة فورموزا ، جزر ماريان ، وجنوب جزيرة ساخالين ، بمجموع ٢٩٣٩٧٠ كم٢ ، أي ٤٥٪ من أرضها ، التي وصلت إلى ٣٦٩٦٢٢ كم٢

ووفوى مسلحة المعرقاً

لقد اتبع الاستسلام الياباني بوباء الانتحار . إن عدداً من زعماء الجيش بخاصة ، وأيضاً الرجال السياسيين ، والمفكرين ، والتجار وعدوا بأن يغسلوا عار الهزيمة بالانتحار « هارا كيري » .

أما المسؤول الاول عن النكبة ، حسب المفهوم الغربي ، الميكادو القـــادر والمعصوم ، فلا شيء يمكن أن ينال من الاجلال اللازم له .

ولاجتناب الفوضى ، قبل الغالبون بأن الامبراطور هيرو – هيتو ، نصير السلام بأي ثمن ، قد جر رغماً عنه في النزاع العالمي إلى جانب دول المحور ، وأنه كان يجهل حتى اللحظة الاخيرة عملية بيرل هاربر الشائنة ، التي صممتها ونفذتها الفئة العسكرية التي كانت سيدة البلاد آنذاك .

واكتفت السلطات الحليفة ، التي احتلت اليابان ، بعد التسليم ، بالغاء الصفة الإلـٰهية للامبراطور . ووطدت وعززت النظام الملكي الدستوري الذي أقامه في العام ١٨٨٩ الامبراطور ميجي ، كالسلطة التشريعية مثلا ، بل أيضاً الصلاحية في حقل التنفيذ والقضاء .

ووضحت دمقرطة اليابان بسلسة اصلاحات تهم الزراعة والعدل والتعليم العام والشرطة ونقابات العمال ، وكلها محتواة في دستور ١٩٤٦ ، الذي أعده الجنرال ماك آرثر زعيم الجيش والادارة الامريكية في اليابان . وتعلن هذه الوثيقة ، عدا ذلك ، عن عزم اليابان الرسمي الصريح «بألا تقيم مطلقاً قوى مسلحة ولا أي قوى حربية عتيدة أخرى » .

وإذا كانت معاهدة السلام ، الموقعة في سان فرنسيسكو في ٨ ايلول ١٩٥١ ، تعطي صفة قطعية ورسمية للخسائر الارضية التي تحملها امبراطور الشمس – المشرقة ، فهي لاتأتي بأي تلميح إلى اي تحريم أو تحديد لاعادة تسليح اليابان . وكل مافي الامر أنها ارفقت فيما بعد بمعاهدة أمن تبقى بموجبها القوات الامريكية في اليابان ، بناء على طلب حكومة هذا البلد الذي لايملك من القدرة مايؤمن دفاعه الخاص .

ومع ذلك فقد ضغط الجنرال ماك آرثر ، منذ شهر تموز ١٩٥٠ ، على حكومة يوشيدا لانشاء « احتياطي شرطة وطني » قوي من ٧٥٠٠٠ رجل ، أصبح ، بعد سنتين ، « قوة أمن وطنية »، مؤلفة من ست فرق

تضم الواحدة ١٨٠٠٠ رجل . ولم تكن حرب كوريا ، التي نشبت ، في تلك الفترة ، غريبة حقاً عن هذا التطور في وجهات النظر الامريكية ،

وازداد الجيش الدفاعي منذ ذلـــك الحين بصورة فريدة ، وأصبح يتألف في العام ١٩٦٦ مما يلي :

ــ ١٣ فرقة قوات برية ، أي ٣٤٠٠٠٠ رجل ، ولها اسطول جوي مستقل يتألف من ٣٠٠ طائرة .

ــ اسطول بوزن ١٤٠٠٠٠ طن يخدمه ٣٥٠٠٠ ملاح .

ــ طيران مجهز بـ ١٥٠٠ مطاردة امريكية من أحدث النماذج يضم ٤٠٠٠٠ طيار وفني .

وعدا ذلك ، يحسن أن نشير إلى أنه يوجد ، إلى جانب الرجـــال العسكريين ، نسبة هامة من المدنيين ، ١٥٪ تقريباً ، تخدم في وحدات الدفاع الوطني .

النظام البرلماني

وعلى الصعيد السياسي ، نجد أن الخيبة العميقة التي تلت الهزيمة ، والاحتلال الامريكي الذي ظـــل حتى نيسان ١٩٥٢ ، والانتقال المفاجىء من النظـــام الجمعي إلى النظم الديموقراطية لم تسهل عمل الموجهين اليابانيين ولا تسيير النظام الجديد . وظهرت عقب الحرب أحزاب سياسية لا عد لها ، ونشأت في الغالب من هذه الجمعيات السرية التي تنتشر بكثرة في جميع البلاد الآسيوية التي تنقسم فيها الفرق السياسية ــ الدينية إلى مالا نهاية . وقد عاش منها خمسة تشكيلات كبيرة ممثلة في مجلسي البرلمان ، مجلس الممثلين (الدياط الذي يضم ٤٨٦ عضواً) ومجلس المشاورين (٢٥٠ عضواً) . ومنذ ١٩٤٨ ، احتفظ الحزب الليبرالي ــ الديموقراطي

نفسه بالسلطة . ولأول مرة ، في انتخابات ١٩٦٧ ، خسر الاكثرية المطلقة في النسبة المئوية للأصوات ، فقد حصل على ٤٪ عوضاً عن ٥٤٪ في اقتراع عام ١٩٦٣ ، ولكنه حافظ عليها في الدياط الذي قدم المروحة السياسية التالية :

ـ الحزب الليبرالي ـ الديموقراطي ، المحـافظ ، والمرتبط جداً بأوساط الاعمال التي تساعده ، وهو يناصر التعاون الوثيق مع الولايات المتحدة ويتمثل بـ ٢٧٧ نائباً ؟

ـ الحزب الاشتراكي ، وكان على رأس السلطة خلال ثمانية أشهر في ١٩٤٧ — ٤٨ ، ويقيم علاقات طيبة مع موسكو ويرجو تقارباً مـع بكين ، ويشغل ١٤٠ مقعداً .

ـ الحزب الاجتماعي — الديموقراطي ، نشأ في ١٩٦٠ اثر شقاق في داخل الحزب الاشتراكي ، وهو يناصر الحياد بين الكتلتين الكبيرتين السياسيتين والعقائديتين في العالم وله ٣٠ مقعداً .

ـ حزب كوميتو ، السياسي ـ الديني ، نشأ في ١٩٦٤ ، وهو حزب قومي ، محب للسلام ، يشهر ، بخاصة ، الفساد السياسي : ويشغل ٢٥ مقعداً .

ـ الحزب الشيوعي ، وهو محايد بعد أن كان مناصراً صينياً بفظاعة ، وله ٥ مقاعد .

وهذه الاحزاب الاربعة الاخيرة معادية للميثاق الياباني ـ الامريكي .

وما أن أبرمت معاهدة السلام في سان فرنسيسكو ، إلا واهتمت الحكومة اليابانية بإعادة عقد العلاقات الدبلوماسية والتجارية مع جميع عواصم العالم وتوصلت إلى ذلك دون كثير صعوبة في معظم الاحوال .

وفي كانون الاول ١٩٥٦ ، قبلت في منظمة الامم المتحدة ، وطبقت منذ ذلك الحين ، على قدر استطاعتها ، سياسة وجود في جميع الظروف الدولية .

الفلاحة والرعاية : مطاق محدود

سلك النهوض الاقتصادي في اليابان ، بعد الحرب ، منحنى صاعداً يضع هذا البلد اليوم بين الدول الصناعية الاولى في العالم . وله هنا بعض الفضل ، لانه وان أفاد من العون الامريكي الواسع ولم يتحمل ، كألمانيا ، تبعة تسلح جديد ثقيل ، فقد جابه ، على الاقل ، عندما عاد السلام ، صعوبات خطيرة جداً .

لقد بتر ٤٥٪ من أرض اليابان فردت إلى سطح يمثل نحو ثلاثة أرباع مساحة فرنسا ، وتحتل الجبال أكبر جزء فيه ، وتكاد تترك ١٦٫٤٪ من الارض الصالحة للزراعة . ومازال يحسب فيه بعد ٥٨ بركاناً ، في حالة نشاط ، تضيف ضرامه الدوري إلى النكبات التي تسببها الزلازل ، والامواج الهائلة المنتقلة والتيفونات (العواصف العنيفة) الكثيرة في الأرخبيل الياباني .

وينمو الشعب الياباني بانتظام في هذا المجال الضيق المخصص له . وآخر تعداد للسكان ، في آذار ١٩٦٦ ، يظهر ١٠٠٫٥٠٠٫٠٠٠ نسمة ، بنمو ٧٢ ٠٠٠ ١٠ على تعداد السنة السالفة ، وحشداً هاماً في المدن. وتؤوي العاصمة وحدها أكثر من ١١ مليون مواطن ، أي ان يابانياً واحداً على تسعة يقيم في طوكيو . وتضم أوزاكا مايقارب ٤ مليون . وخمسة مدن أخرى تضم الواحدة أكثر من مليون نسمة . وهذا يعني أن ٤٠ ٪ من السكان يتجمعون على ١٫٠٠ من الارض القومية .

ولم يكن جرد موارد الأرخبيل الياباني مشجعـــاً في ١٩٤٦ . فقد تهدمت المعامل بنسبة ٩٥٪ ، وردت الزراعة إلى مايسد بلغة العيش ، والتربة التحتية بائسة . ويبقى صيد السمك ، فهو يؤمن في كل زمان للبلاد المتمم الغذائي الذي لاتستطيع مراعيهـــا العجيفة أن تجهزها به . وهنا أيضاً جاءت التقتيرات في النفقات فأعاقت نشاط الاسطول الياباني في عرض البحر ، وكانت تفرضها تارة سيؤول وتارة بكين أو موسكو .

ووضعت سياسة اقتصادية أخذت بعين الاعتبار هذه المعطيات كلها .

ولما كان السكان محسوباً على الفلاحين بشح ، فان مساحة كل مزرعة من مزارعهم الـ ٥٫٨٢٨٫٠٠٠ تبلغ أقل من هكتار واحد . ولذا تطبق فيها الزراعة الكثيفة . والرز غذاء أساسي . ويبلغ الاستهلاك السنوي ، المتوسط ١٢٨ كغ لكل رأس من السكان ، وهو موضع عناية خاصة . ومقابل ذلك ، ان وارد هذه السلعة ، الذي كان أيضاً ١٫٢٥٥٫٠٠٠ طن في سنة ١٩٥٥ ، هبط بعد عشرة أعوام الى ٣١٨٠٠٠ طن .وسجل تقدم من نفس النوع لانتاج الحنطة ، والشعير ، والصويا ، والبطاطا .

والارقام المتعلقة بصيد الاسماك بالغة التأثير أيضاً . ان العمائر من جميع الفئات تمثل معاً ، في ١٩٣٩ ، انتقالا قدره ٩٤٠٩٥٤ طن . وقد انتقل هـذا المقدار إلى ٢٠٧٨٨٤٦ طن في ١٩٦٣ . وبينما أتى الصيد بـ ٢٫٥٠٠٫٠٠٠ طن من السمك في السنة ١٩٤٨ ، فقد بلـغ مايقارب ٧٠ ٠٠ ٠٠٠ طن في ١٩٦٣ ، ولايدخل في ذلك الحيتان والثديات البحرية الاخرى ، وهذا مادفع اليابان إلى الصف الثاني بين البلاد المنتجة ، قريباً جداً من بيرو ، الـتي تأتي في الرأس ، وبعيداً أمام الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة والنورفيج وكندا .

اقتصاد في عز توسعه

ولكن في الصناعة أمكن الكلام بدقة وضبط عن، « المعجزة الاقتصادية » اليابانية . انه نجـــاح يستحق الثناء لاسيا وأن اليابان تابعة تقريباً وبصورة خاصة للخارج في كل مايتعلق بالمواد الاولية والمحروقات . وفي الحقيقة ، تغطي الواردات ١٠٠٪ من حاجاتهـــا من القطن والصوف والكاوتشوك الخام والبوكسيت (الألومنيوم الخام) ، ٩٦٪ من الفحم ، ٩٨٫٥٪ من البترول الخام ، ٩٥٫٣٪ من فلزات الحديد ، ٨٤٫٩٪ من فلز النحاس ، ٤٨٫٩٪ من فحم الكوك . والباقي مثل ذلك .

ان نظام الامطـــار الذي تخضع له اليابان وفقر مناجمها دفعاها إلى البحث في تضاريسها الجبلية عن مصدر الطاقة الذي يمثل بالنسبة لها ضرورة حياتية . فقد وضعت موضع التنفيذ خطة واسعة لانشاء السدود والمراكز الكهربائية . وفي شهر آذار ١٩٦٤ تجهز التيار الكهـــربائي من ٢٢٠٠ مركز ، منها ١٦٠٠ مائي - كهربائي ، تعطي بمجموعها ١٨٠٫٠٠٠٫٠٠٠٫٠٠٠ كيلو واط ساعي .

وبدخل قومي خام من ١٠٠ مليار دولار في السنة ، تعتبر اليابان اليوم ثالث دولة صناعية عـالمية . وارتفعت زيادة حجم انتاجها إلى ٩٪ بين ١٩٥٦ و ١٩٦٥ . وكانت ١٠٫٦٪ في سنة ١٩٦٦ وحدها ، أي ضعف زيادة فرنسا ، وثلاثة أضعاف بريطانيا العظمى .

واليابان ، منذ ١٩٥٦ ، أول منشيء للسفن في العالم . ففي ١٩٦٤ ، أطلقت رحابها ١٩٠ ٨٥ ٤٠ طن من السفن ، أي ٤٠٪ من الانتاج العالمي .

وفي أربعة عشر عامـــاً ، من ١٩٥٠ إلى ١٩٦٤ ازدادت الصناعة

الكيميائية ، بانتاجها الصيدلاني بخاصة ، بمقدار العشرة أضعاف . وعرفت صناعات النسيج والميكانيك والساعات النمو نفسه .

العلاقات الخارجية

تبدي اليابان ، من وجهة النظر هذه ، عدة تناقضات عجيبة . فقد ظلت هذه الدولة الكبرى المصنعة جداً آسيوية بشكل عميق وشعرت بأنها متضامنة مع وحدة المحيط الهادىء ومنجذبة ، بخاصة ، نحو اوستراليا وزيلانده ـ الجديدة والولايات المتحدة ، مع الوقوف أيضـاً ماأمكن بالقرب من الصين واندونيسيا . وفي صيف ١٩٦٧ ، زار الوزير الاول ساتو سايغون ، سيؤول ، تايبه والعـواصم الأخرى في جنوب شرقي آسيا ، المشايعة لسياسة واشنطون ، في الوقت الذي شخص فيه وزير الشؤون الخارجية إلى موسكو ، فارسوفيا (وارسو) ، براغ وبودابست ، وكل منهما عرف علناً بسياسة خارجية يابانية مؤسسة على مبادىء متناقضة اطلاقاً .

وفي السنوات التي تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة ، اتجهت تجارة اليابان الخارجية ، بخاصة تقريباً ، شطر الولايات المتحدة ، التي تمثل ٦٥٪ من كامل صادراتها و ٨٥٪ من وارداتها . وقد سقطت هذه الأرقـام تباعاً إلى ٢٨ و ٢٩٪ في ١٩٦٤ . ومنذ أن حصل المنتجون اليابانيون على الوسائل بحثوا عن منافذ جديدة في أجزاء العالم كلها ، ومن ضمنها البلاد التي لم تسو بعد علاقاتها الدبلوماسية مع طوكيو ، مثل الاتحـاد السوفياتي ، كوريا ، الصين القارية . وتعتبر هذه الاخيرة بسكانها الـ ٧٠٠ مليون نسمة سوقاً تهم الاقتصاديين اليابانيين بشكل خاص تماماً .

وبسياسة الباب المفتوح هذه حصلت اليابان على فوائد جوهرية .

وهكذا عرفت دورة الالعاب الاولمبية الثامن عشرة ، المنظمة في طوكيو في ١٩٦٤ بمشاركة ٩٤ بلداً ، نجاحاً عظيماً جداً .

وفيما يتعلق بفرنسا بخاصة فان علاقاتها مع اليابان مافتئت في تحسن منذ خمسة عشر عاماً ، سواء على الصعيد الدبلوماسي أم على الصعيد التجاري . وقد باعت فرنسا في عـــام ١٩٥٠ بضائع اليابان بمبلغ ١٣٩٧ مليون ين واشترت منها بلغ ٣٧٥٨ مليون . وانتقلت هذه الأرقام على التوالي إلى ٢٥٣٥٥ مليون و ١٤٩٤٨ مليون في ١٩٦٤ .

وتمت مشاورات منتظمة بين الحكومتين أثناء زيارة موريس كوف دو مورفيل إلى طوكيو في نيسان ١٩٦٣ .

وبدا أن اليابان تميل إلى التخلص تدريجياً من الوصاية الامريكية وترفض أن تبدو كموزع اعاشات للولايات المتحدة في الشرق الأقصى . ولكنها باعتبارها ممنوعة من تشكيل قوة عسكرية هامة فليس في وسعها الاستغناء عن السياج الامريكي . ولم يذهب عن بالها ،من جهة أخرى ، أن التحالف مع واشنطون ساعد على نهوضها ، وان ثلث مبادلاتها يتم أيضاً مع الديموقراطية الغربية الكبرى .

ولم تعط بعد القوة الاقتصادية العظيمة لليابان المكانة التي تتطلع اليها بصورة شرعية على المائدة الدبلوماسية الدولية .

ولا يبعد ، مع ذلك ، أن ترى نفسها مجرورة بعجلة المسؤوليات السياسية ، وحتى العسكرية ، في منطقة المحيط الهادىء .

الصــــين

نهاية الاتحاد المقدس في الصين : ماو ضد تشانغ

حقق اليابانيون بعدوانهم الذي لا مبرر له ، في عام ١٩٣٧ ، هذه المعجزة في التحام وحدة الصين واثارة الحقد ضدهم لدى طبقات الشعب الصيني كلها . فقد تحالف زعماء الحزب الوطني (كيو - من - تانغ) والحزب الشيوعي . وأسهم الحلفاء بجهود الصين الحربي . وفتح الاتحاد السوفياتي لبكين اعتماد ١٠ مليارات روبل . وشاركت فرنسا وبريطانيا العظمى .ثم الولايات المتحدة بهذا العمل بارساليات كثيفة من الاعاشات والأسلحة والمؤن .

ولكن ما كادت اليابان تلقي السلاح حتى انفرطت اسطورة الوحدةالسياسية الصينية .وفي الواقع،ان رجال الحزب الوطنيورجال الحزب الشيوعي الصيني الذين كافحوا طويلاً جنباً إلى جنب لم ينصهروا معاً في بوتقة واحدة حقاً وصدقاً .

وفي ربيع ١٩٤٥ ، كانت نسبة القوى بين التشكيلين الكبيرين تميل بوضوح لصالح الماركسيين . وبينما كان هؤلاء يناضلون بفظاعة ضد المحتل ، لم يذهب عن بالهم هدفهم الغـــالي ، وهو استلام السلطة . ولذا كانت الدعاية وتمذهب الجماهير ينطلقــــان سوية ، بالنسبة لهم ، مع العمليات العسكرية . وقد أثمرت هذه الطريقة التعبوية . وفي آخر الحرب ، شايع شمال الصين ووسطها ماو . وكان الحزب الشيوعي يضم ١،٢١٠،٠٠٠ مشترك ، بينما كان يضم ٤٠،٠٠٠ في عام ١٩٣٧ ، ولم يشكل الـ ٣٠،٠٠٠ الباقون ، بعد « المسيرة الطويلة » في عام ١٩٣٥، أكثر من نواة جيش من ٩٠٠ ٠٠٠ رجل ، قوي ومنظم .

أما الحزب الوطني نفسه ، فقد أساء تحمل شدة الحرب . وسقطت حماسة محركيه الأوائل . واهتزأ تشانغ — كاي — تشيك . وانتهى السياسيون والعسكريون الفاسدون في الحكومة المركزية بنزع كل ثقة به في الخارج .

فقدت الصين دماءها ودمرتها الحرب الخارجية وستكون عرضة لحرب أهلية جديدة .

وفي الحقيقة ، ان جميع محاولات الاتفاق بغية تشكيل حكومة ائتلافية قد أخفقت بحالة يرثى لها ، ومن ضمنها وساطة الجنرال الامريكي مارشل في ١٩٤٦ . وكان على الجيش أن يحل عقدة الأزمة . وسحق الحزب الوطني اثر كفاح رهيب . وخسر في خريف ١٩٤٩ أكثر من مليون محارب .

وانتهى حكم الحزب الوطني . ومنذ ٢١ كانون الثاني ١٩٤٩ ، استقال تشانغ — كاي — تشيك من رئاسة الجمهورية . وفي الخريف التالي ، احتمى مع قبضة من أوفيائه في « حصن » فورموزا .

الجمهورية الشعبية

في الأول من تشرين الأول ١٩٤٩ ، أعلن ماوتسه — تونغ ، في بكين ، ميلاد جمهورية الصين الشعبية .

وتم تغيير النظام والشعب في لا مبالاة تامة بعد أن أضنته جروح أربعين سنة حروباً وثورات . وتكفل الزعيم الشيوعي بايقاظه وبربطه به أولاً باستغلال غرضي الدعاية الأساسيين : **القومية** ، التي اتخذت الولايات المتحدة هدفاً لها منذ الآن ، **والاصلاح الزراعي** ، وكانت جماهير الفلاحين

الصينية العظيمة توجوه كثيراً . وتؤلف هذه الجماهير اليوم ٧٠٪ من رجال الحزب الشيوعي ، على حين أن عمال المدن لا يؤلفون إلا ١٤٫٥ .

وقام مباشرة « مجلس الحكومة » و « مجلس الدولة » ، اللذان يرأس كلًا منهما ضمن اختصاصه ، ماوتسيه — تونغ و شوإن — لاي ، بوضع البنيات المخصصة لتهيئة الانتقال إلى النظام الاشتراكي .

في ١٤ شباط ١٩٥٠ ، أبرمت معاهدة تحالف مع الاتحاد السوفياتي ، وفي شهر آذار تقرر ثبات الأسعار والنقد ، وثبت اليوان ، وحدة النقد الوطنية ، بسعر ٢٫٤ للدولار الامريكي الواحد . وفي ١٣ نيسان ، كرس قانون الزواج تحرير المرأة . وفي ٢٩ حزيران ، نشر نص جديد ينظم النقابات . وفي ٣٠ حزيران ، أخيراً ، حذف الاصلاح الزراعي كبار الملاكين العقاريين من الحياة الاجتماعية وخص أراضيهم بمن يفلحونها .

وعندما بدأت حرب كوريا حولت ، لزمن ، انتباه الموجهين الصينيين عن برنامجهم السياسي — الاجتماعي . ودخلوا في تشرين الثاني ١٩٥٠ في تجربة قوة جديدة ، وقاوموا خلال ثلاثة أعوام جيوش منظمة الأمم المتحدة التي كان يقودها تباعاً القادة الامريكيون ماك آرثر ، ريد جوي وكلارك . وردت هدنة **بان مون جوم** ، في ٢٧ تموز ١٩٥٣ ، ثم اتفاقات جونيف المتحاربين إلى لا غالب ولا مغلوب ، وأتت بخاتمة « مشرفة » للخلاف .

ولم يدع ماو نفسه يلهو طويلًا بقضاياه . فقد ترك إلى الضباط العسكريين الشبان أمر صيانة حدود الصين الشمالية واختص بقطع دابر كل بادرة معارضة في داخل البلاد . وفي ٢١ شباط ١٩٥١ ، نشر قانون يشجب « النشاطات المناوئة للثورة » ، ويقصد بذلك ، في الواقع ،

تأمين الحذف الغاشم لأكبر عدد ممكن من المشبوهين ، الاعضاء القدامى في الحزب الوطني ، التجار الأثرياء وأصحاب المهن الحرة المشبوهين بالتحالف مع الرجعية ، ممثلي المشاريع الصناعية والتجارية الأجنبية ، وضرب خيال الجماهير . وشجعت الوشاية بهم . وكانت الضابطة في كل ليلة تقوم بالوف التوقيفات ، وتعقد المحاكم جلساتهـــا دون انقطاع وتلفظ الحكم بالموت أو العقوبات الثقيلة بالسجن . وعاشت المدن والأرياف ، خلال ثمانية أشهر تحت حكم الارهاب . واستخدمت الحكومة الصينية طويلاً خـداع الجماهير لتحقيق مقاصدها .

وفي الحقل الاقتصـادي ، شهدت السنتان ١٩٥١ و ١٩٥٢ القيـــام بالاشغال الكبرى الاولى : السكك الحديدية ، السدود ، والمعامل المائية - الكهربائية ، ووضوح نظام التعاونيات الزراعية . وأعدت فيها أيضاً أول خطة خمسية (١٩٥٣ - ١٩٥٧) بمساعدة الاتحاد السوفياتي الذي تكفل بـ ١٥٠ وحبة (ورشة) من المراكز الصناعية .

وفي ختام المهلة المحددة أممت الدولة تقريباً كامل المشاريع الصناعية ، التي تؤمن ٩٩،٩٢٪ من الانتـاج ، وتشرف على ٩٨،٧٣٪ من العمال المستخدمين ، وضمت في تعاونيات جماعية ٩٠٪ من المستغلات الريفية .

وكان ذلك العهد عهد رفاه ورضى بالنسبة إلى بكين بعد أن سجلت في الدور نفسه نجاحات قيمة في حقل السياسة الداخلية والدبلوماسية .

وفي ٢٩ نيسان ١٩٥٤ وقعت الحكومة الصينية معـاهدة صداقة مع الهنـد . وشاركت في تموز في مفاوضات جونيف فانهت بذلك الحرب، التي قامت بها فرنسا في فيت - نام ، كما سوت مصير كوريا . وفي ٢٠

ايلول ، احتفلت برونق وبهاء بالذكرى السنوية الخامسة للنظام . ومن ١٨ إلى ٢٤ نيسان ١٩٥٥، أخيراً ، مثلت بشكل لائق في مؤتمر باندونغ الأفروامي ، حيث أكد مندوبوها عالياً تعلقهم بالسلام واهتمامهم بالعالم الثالث .

وانتقل عدد المنتسبين إلى الحزب الشيوعي الصيني في عشر سنوات من ١٢٠٠٠٠٠ إلى ما يقارب ١١ مليون عضو .

القفزة الواسعة الى الامام والنزاع الصيني - السوفياتي

وما كادت الخطة الاولى تبلغ أهدافها إلا وألقى ماو بأمر نفير جديد . وكان يريد ، في هذه المرة ، مضاعفة الانتاج الصناعي ، في عامين بدلاً عن ثلاثة أعوام ، وأعدت خطة لاثني عشر عاماً (١٩٥٦ — ١٩٦٧) لتنمية الزراعة . وهذه هي « القفزة الواسعة إلى الأمام » التي أسهمت فيها « القومونات الشعبية الريفية » و ٤ ملايين مفكر ، من طلاب وموظفين دعتهم « حركة المائة زهرة » للعمل فعلاً على تشييد الدولة الاشتراكية .

ولكن المظاهرات الشعبية الكبرى المنظمة في كل مناسبة في ساحة تيان — أن — مين الكبرى في بكين لم يكن لها أي تأثير على قوى الطبيعة . ومنيت تجربة القومونات الشعبية بالاخفاق . ان ثلاث سنوات متتالية عجيفة الغلات (١٩٥٩ — ١٩٦٢) أفسدت بخطورة توازن البلاد الاقتصادي وهددت وجود النظام نفسه . ورأى الشعب الصيني ، كما كان يرى في أظلم أزمنة تاريخه ، طيف المجاعة يعود من جديد . وفرضت اجراءات عاجلة ، بعد أن نفذت الاحتياطيات الضئيلة بسرعة . وهلك الوف الأطفال جوعاً بسبب حرمانهم من الغذاء . ومهما يكن من أمر ، فان حكومة بكين اضطرت إلى أن تلقي بنداءات البؤس والضيق إلى الدول الرأسمالية .

وساعدتهم السفن المحملة بالحبوب من كندا والارجنتين واوستراليا وزيلاندة الجديدة على البقاء على قيد الحياة .

وكانت هذه الظروف البائسة أبعد من أن تحض الموجهين الشيوعيين على موقف معتدل ، وأفادت حجة لحملة جديدة وعنيفة ضد العناصر المعتدلة في الجهاز وضد الجامعيين الذين يشهرون أخطاءهم .

وفي السنتين ١٩٥٨ — ١٩٥٩ ظل هؤلاء « المناوئون للحزب » هؤلاء « الرجعيون » ، هؤلاء « المفكرون من اليمين البورجوازي » يشهر بهم أمام الاستياء العام كخونة ودعي كتاب مشهورون وأساتذة أجلاء للقيام بنقد ذاتي علناً . وأقيل ثلاثة وزراء ، من بينهم وزير الدفاع ، ورئيس الاركان العامة من وظائفهم ، وطرد ٤٠ نائباً من المجلس الوطني (مجلس الأمة) .

وأراد الحزب الشيوعي الصيني أن يمارس دكتاتوريته على جميع نطاقات الأمة ، كما صلب مواقفه حيال الخارج ، وحيال الاتحاد السوفياتي بادىء ذي بدء .

ولم يقبل موجهو بكين مطلقاً بمبادىء مؤتمر موسكو العشرين في الخلاص من الستالينية وعبادة الشخصية . لقد كانوا أنصار الثورة الدائمة ، ومعادين لكل تسوية مع النظام الرأسمالي ، وعارضوا بشدة التعايش السلمي الذي دشنه نيكيتا س . خروتشوف وتبناه خلفاؤه في الكرملن . وكان قصدهم التشكيك و « اعادة النظر » التجريبية التي تجعل الحزب الشقيق نفسه شريك « العداة الامبرياليين » الامريكيين . وهذا الخلاف العقائدي ، الذي نشأ في ١٩٥٦ ، سيأخذ في السنوات التالية نسباً وجدت فيها العاصمتان ، مرات عديدة ، على وشك القطيعة الدبلوماسية .

وهذا الدور مطبوع أيضاً بضرب عنيف بالقنابل الجزر التابعة لفورموزا ، في صيف ١٩٥٨ ؛ وبقيام الثورة في التيبت ، حتى اضطر

العاهل ، الدالاي – لاما ، في آذار ١٩٥٩ ، إلى البحث عن ملجأ في الهند ؛ وبحوادث الحدود الصينية – الهندية ، في شهر آب من السنة نفسها ، التي انقلبت ، بعد ثلاثة أعوام ، إلى نزاع حقيقي مسلح .

ولذا انعقد المجلس الوطني الثاني من ١٧ إلى ٢٨ نيسان ١٩٥٩ ، ورفع ليو شاؤ – تشي إلى رئاسة الجمهورية . وانتخب إلى جانبه نائبان للرئيس : السيدة سن يات – سين ، أرملة مؤسس الحزب الوطني ، وتونغ بي – يو . وعزف ماوتسه – تونغ عن رئاسة الدولة . وحافظ ، مع ذلك ، على رئاسة الحزب وهي من بعيد أهم وظيفة .

القنبلة

وحان الوقت لحبو الصداقة السوفياتية . وكان على الصين الشعبية أن تجتاز مرحلة أخيرة قبل الوصول إلى صف الدولة النووية . ففي ١٥ تشرين الأول ١٩٥٧ وعد خروتشوف أن يساعدها في ذلك بتسليمها نموذجاً من القنبلة الذرية ، ومفاعلاً ذرياً ضخماً يسير على الماء الثقيل والاورانيوم الغني المخصص لصنع البلوتونيوم ، ومضى الزمن ، ولم تر بكين شيئاً يأتيها . وعندما أحرج رئيس حكومة الاتحاد السوفياتي تهرب . وفي ٢٠ حزيران ١٩٥٩ فسخ الاتفاق المتعلق بهذه القضية والمبرم قبل عامين .

وإذا كانت الاختلافات المذهبية في أصل القطيعة الصينية – السوفياتية ، فلهذه « الخيانة » نصيبها أيضاً .

حقاً ، لقد أسهم الاتحاد السوفياتي عن سعة بالتنمية العلمية للجمهورية الصينية . ولكن كلما طلب اتفاق سري يسهم بموجبه الاتحاد السوفياتي في صنع قنابل نووية وحرارية نووية صينية كانت موسكو تقابل دوماً برفض مهذب ، ولكنه حازم .

وبعد رفض « خ » (خروتشوف) واستدعاء الخبراء السوفياتيين ، أعطى ماوتسه – تونغ الأولوية المطلقة للبرنامج النووي ، الذي يساعد ، كما يرى ، على اشعال قنبلة ذرية في عام ١٩٦٥ . وكان تحت تصرفه فريق هام من العلماء والباحثين ، الذين قطعوا الصلة بالأنظمة الغربية ، وأشخاص علميون تكاملوا في موسكو وفي العواصم الأجنبية الأخرى ، ونخص بالذكر منهم تشيان سان – شيانغ « أبو » القنبلة الصينية وقد عمل ، من ١٩٣٤ إلى ١٩٤٩ ، في باريس تحت ادارة فويديريك جوليو ـ كوري .

وعاد كل هؤلاء وكثير غيرهم أيضاً إلى وطنهم لدى أول دعوة . وبعد سفر العلماء السوفياتيين ، تبينوا نتائج ثرواتهم فوجدوا : معامل غير تامة ، مخابر مدمرة ، خططاً اختفت ، وآلات ثمينة في طريق التركيب عُرضت للعوامل الجوية وفقدت بشكل لا علاج له . وبعد قليل ، أشارت المصالح السرية الامريكية إلى نشاط كثيف حول معمل فصل النظائر في لان – تشيئو ، وانشاء مفاعلات جديدة في باؤتو ، وفي منطقة جونغاري ، في السن – كيانغ حيث جند ٤٠٠٠٠٠ عامل تحت « حماية » ١٠٠٠٠٠ جندي مسلحين بقوة .

وفي ١٦ تشرين الأول ١٩٦٤ ، في الساعة ١٥ (الساعة المحلية) ارتفعت غيمة بشكل خطر فوق منخفض لور – فان ، في صحراء سين – كيانغ : انها أول قنبلة ذرية صينية تفجرت ، قبل عدة أشهر على تنبؤات أكثر المتفائلين . وفي ١٤ أيار ١٩٦٥ ، فجرت الصين قنبلة أقوى القيت من طائرة . وانفجرت قنبلة ثالثة « في الجو » ، في ٩ أيار ١٩٦٦ ، أقوى من الاولى بعشر مرات ، و « مشحونة » بالمواد الحرارية – النووية .

فالى الذين يشككون أيضاً باستعداد الصين اللحاق بـ « كبار » الذرة ، وإلى الذين يشيرون ، بخاصة ، إلى فقرها بالصواريخ الموجهة ، أجابت الصين ، في ٢٧ تشرين الأول التالي ، بالقيام بتجربة الصاروخ الموجه برأس نووي . وأحرق علماؤها مرحلة الطائرات الحاملة للقنابل ، وهذا ما لم يستطع الباحثون الفرنسيون انجازه .

وفي ٢٨ كانون الأول ١٩٦٦ ، تحقق التفجير الخامس من ميدان تجارب المتفجرات عند بحيرة لوب نور في اقليم سين ـ كيانغ ، فهز الجو ؛ انه « قنبلة جديدة مشحونة » بقوة ٣٠٠ ك ط ، هذه المرة ، حيث آخر سنة متموجة . وفي ١٧ حزيران ١٩٦٧ ، وعلى سطح سين ـ كيانغ نفسه ، كان تفجير أول قنبلة حرارية ـ نووية صينية ولم يبق أي شك عند جميع خبراء العالم بقدرة بكين على التصرف بقوة ضرب حرارية ـ نووية في الثلاث السنوات القادمة . وهكذا اقتحمت الصين الشيوعية باب النادي الذري وأخذت مكانة عالمية بين الدول الكبرى ، الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفياتي ، بريطانيا العظمى ، كندا ، فقلبت فجأة علاقة القوى في الشرق الأقصى .

وكانت « قوة الدفاع » الصيني ممثلة من قبل بجيش من النوع التقليدي متين التركيب منذ اقرار الخدمة العسكرية الاجبارية في السنة ١٩٥٥ . ويضم ٣ ملايين رجل ، وهذا العدد يبدو متواضعاً بالنسبة إلى شعب يقدر اليوم بـ ٧٣٠ مليون نسمة ، ولكنه يعتمد على المليشا أي على ٢٠ مليون متطوع من الجنسين ، وسيلقى تعزيزاً عاجلاً ، في حالة نزاع ، من فئات الاحتياطي التي لا تنضب عملياً .

الثورة الثقافية الطارحة

في ربيع ١٩٦٦ استعدت الصين الشعبية لتنفيذ خطتها الخمسية الجديدة . وكانت الظروف مواتية أكثر من أي وقت مضى .

في الداخل ، حقق الموجهون الشيوعيون « القفزة إلى الأمام » الحقيقية ، وأنقذوا البلاد من الأوبئة التي كانت تضنيهم منذ آلاف السنين : **الجهل والبؤس والجوع** .

وفرضوا ، عدا ذلك ، تدابير دراكونية للحيلولة دون نمو ديموغرافي مخيف . حتى ان المساعدات العائلية التي كانت تدفع للولدين الأولين حذفت بتمامها عند ولادة الثالث . وإذا كرر الزوجان نفس الخطأ ، كانا هدفاً لعقوبة يضرب بها المثل : فهما يجبران على الانفصال ، ويدعوان إلى الاقامة في مساكن يبعد الواحد عن الآخر ، أحياناً ، عدة الوف الكيلومترات .

وبينما كانت الصين تضم في العام ١٩٤٩ نسبة ٩٠٪ من الأميين الذين لا يعرفون القراءة والكتابة ، أصبح ١٠٠ مليون من أبنائها يختلفون اليوم إلى الصفوف الابتدائية والثانوية ؛ و ١٥ مليون شاب مسجلون في الكليات والمدارس الكبرى . وعاد مهندسوها من من الغرب وشكلوا ٤٢٠٠٠٠ مهندس ، ١٠٠٠٠٠ مهندس زراعي ، ١٢٥٠٠٠ اختصاصي في العلوم الاجتماعية ، ١٥٠٠٠ فيزيائي وملايين الفنيين المهرة عالياً .

وتغطي الصناعة المحلية ما يقارب كامل حاجات البلاد من الفولاذ ومن ضمنها أنواع الفولاذ الخاصة ، والمنتجات المصنوعة .

وعلى الرغم من أن العامل الصيني لم يبلغ ، ويلزمه الكثير ، مستوى حياة المأجورين الغربيين فقد وجد الضمان بالاستخدام الكامل . ولم يكن في أي وقت مضى أسعد مادياً مما هو عليه الآن . وهو يعي ذلك تماماً ، ويعترف بشكل طبيعي بفضل زعماء النظام ، الذين لا يحتاجون إلى استعمال القسر لفرض احترام أوامرهم .

وعلى صعيد العلاقات الخارجية ، سجلت الصين الشعبية أيضاً بعض النجاحات خلال هذه السنوات الأخيرة .

وعمل الزمن للصين في منظمة الأمم المتحدة ، حيث أمن ضغط البلاد النامية ، قبل ١٩٧٠ ، قبولها عضواً على حدة . وبالفعل قبلت عضواً في الأمم المتحدة في دورة ايلول ١٩٧١ . وفي آسيا تعامل الصين اليابان معاملة الند للند وتعرض مساعدتها الناجعة لجاراتها المباشرة ، كوريا الشمالية ، فيت — نام الشمالية ، لاؤس ، كامبوديا ، نيبال ، برمانيا (بورما) ، باكستان ، بعد أن أبرمت معها اتفاقات ثبتت الحدود المشتركة .

وفي ٢٣ تموز ١٩٦٢ ، وقعت ، في مؤتمر جونيف الثاني ، المعاهدة الدولية التي تكفل حياد لاؤس . وكانت بريطانيا العظمى أولى الدول الغربية الكبرى التي اعترفت بالنظام الصيني الجديد ، منذ ١٩٥٠ ، كما اعترفت به فرنسا أيضاً في ١٩٦٤ .

ولا تعرف الدبلوماسية الصينية إلا النجاحات . غير أن محاولاتها في التغلغل في افريقية غير موفقة وخرقاء . وصرفت عنها دعايتها العلنية وطرقها كثيراً من المتعاطفين . وفي ١٩٦٥ ، قام شو إن — لاي رئيس حكومة بكين ، والماريشال شين — يي ، نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الشؤون الخارجية ، بجولة طويلة عبر الدول « التقدمية » في القارة السوداء . وبالرغم من جهودهما الجذابة ، اضطرت البعثات الصينية ، مع ذلك ، إلى الاقلال بصورة محسوسة من نشاطها ، حتى انها أغلقت أبوابها .

ولم تتحسن العلاقات مع الاتحاد السوفياتي ، بل ، على العكس ، قام بين الطرفين جدل ، في ١٩٦٥ و ١٩٦٦ ، وكان أعنف من أي وقت

مضى . وفي بكين وموسكو حل قائمان بالاعمال بسيطان محل السفيرين ، وردت المبادلات التجارية إلى أبسط تعبير لهـــا ، وكرس طرد أواخر الطلاب الصينيين من الجامعات السوفياتية ، في ٩ تشرين الأول ١٩٦٦ ، القطيعة لاتفاقية التعاون الثقافي التي تمت في ١٩٥٦ بين الدولتين الاشتراكيتين .

وتحت اسم « الثورة الثقافية » أطلقت على وجه الدقة الحركة الثالثة لجماهير الصين الشعبية ، وكانت باتساعها ونتائجها أهم من « تطهيرات » ١٩٥٣ و ١٩٥٦ . لأن القصد ، في هذه المرة ، اخضاع « المعـارضين الذين كانوا أكثر مكراً وخداعاً من أسلافهم ، فئـة أرادت أن تؤمن لنفسها وسائط القيادة في قلب الحزب ، والجيش ، والحكومة ، لتسهل عودة البورجوازية المناوئة للثورة على رأس البلاد » .

بدأت التظاهرة ، في ٣ حزيران ١٩٦٦ ، في بكين ، حيث شهر بانغ ـ شين ، عمدة المدينة ، مشككاً بالنظام ورجعياً ، واضطر إلى الاستقالة من مناصبه مع المجلس البلدي بكامله .

وأخذ جماعة « الحرس الأحمر » ، من طلاب ومتطوعين ، وكشافة ، ورواد ومراهقـين من الجنسين يطيعون أوامر وتعليمات سرية ، وتجمعوا في العـاصمة قبل أن ينتشروا في البلاد كلهـا بمواكب لا تنتهي ، رافعين الأعلام الحمراء ، وأشرطة حمراء مزينة بأفـكار ماوتسه ـ تونغ ، ومؤلفات ماو المجلدة بالاحمر ، مرددين الشعارات ، ومنشدين أناشيد على مجد ماو . وقلب هؤلاء المناضلون الشبان في الثورة الجديدة البنيات الاجتماعية كلهـا في الصين ، وأطلقوا لنفسهم العنان في جميع أنواع الشدة والشطط بحجة تخليص البلاد من آخر بقايا ماض مدموغ بالنفوذ الرأسمالي . ودمروا بشكل منظم روائع البناء القديم ، وسترت أطلالهـا بجدران بشعة من الآجر .

ولم يغب الحقد عن هذه المظـــاهرات الموجهة ، أولاً ، ضد الكنائس والبعثات التبشيرية الاجنبية . ولكن الجميع مروا بهـا بعد قليل ، من أكابر النظام ، مثل السيدة سن يات — سين التي دعيت ، وهي في السادسة والسبعين من عمرها ، إلى التخلي عن منزلها الفخم المليء بالذكريات ، حتى رئيس الدولة ، الرئيس ليو شاو ـ شي الذي عزل من منصبه في ١٩٦٨ ؛ وتانغ هسياو ـ بنغ ، الامين العـام للحزب الشيوعي ؛ والأمنـــاء الاقليميون في الحزب ؛ ومحاربون قدامى من عهـد « المسيرة الطويلة » وزعماء أجلاء من الجيش . وغطيت جدران العمارات وأبوابهـا وأشجـار الشوارع بالاعلانات المخطوطة على ورق أحمر بالطبـع حورتها الشمس والمطر إلى مزق ، ثم استعيض عنها مباشرة بأوراق حمراء جديدة تحمل نفس الشواهد المقتطفة من آثار ماو أو خطبه . ووقعت صدامات دامية بين رجال الحرس الاحمر » و « الشبيبة الشيوعية » ونقابيي المدن الصناعية . ولكن الأوائل لاقوا موافقة اللجنـة المركزية للحزب وأفادوا من حماية الجيش .

ولن يعلم أبداً ، ولا شك ، حتى ولو بصورة تقريبية ، عدد ضحايا هـذا التفجير الاخير . أما أسبابه العميقة فترجع إلى مشاغل واهتمامات داخلية وإلى إرادة التأثير على خصوم النظام في الخارج ، الولايات المتحدة بخاصة ، التي يمكنها أن تقوض بعد قليل من الزمن بناءه الاقتصادي ، ثمرة العمل المستشري والتضحيات العظيمة .

وبتواجد عظيم لم يكن صدفة حقاً تفجرت « الثورة الثقافية الصينية الكبرى » في اللحظة التي عين فيهـا ماو الماريشال لين — بياو ، وزير الدفاع ، ليكون خلفاً له ، عند مقتضى الحال ، على رأس جهاز الحزب . وقد كان الرئيس ليو شـاو — شي يعتـبر ، حتى ذلك الحين ، ولي

عهد « القائد الصيني العظيم » . ووجد آخرون يمكن أن يتطلعوا إلى هذا اللقب ، مثل شو إن – لاي ، الجنرال شو – تيه ، كانغ – شينغ ، الذين كانوا رفقاء ماو في النضال في الازمنة البطولية وأمسك بهم جانباً .

إن تلميحات الصحافة الشبه رسمية إلى « مؤامرة ضد الزعيم الجليل » دبرها بعض الرفقاء من ذوي المناصب العالية ، وتهجمات رجال الحرس الأحمر ضد شخصيات سياسية مرموقة دعت إلى التفكير بأن كفاحاً خفياً ، لا يهدأ ، قلب قادة الحزب بعضهم على بعض وجعلهم يتطلعون إلى خلافة « القائد العظيم إلى الحد الاقصى والمحتوم بشكل لا متناه » . وقد عهد رئيس الجيش لين بياو إلى شبيبة متعصبة أن يقيموا أمامه العقبات بارهاب منافسيه المتوقعين باسكات أنصارهم .

ولكن هل تجاوزت الاحداث الصانع الساحر ؟ في هذه الاشهر الطويلة من الاضطراب كانت مدن هامة مثل نانكن ، شانغهاي ، كانتون ، تين – تسن مسرحاً لصدامات دامية بين العمال ورجال الحرس الاحمر . وشوشت الاضرابات الهامة ، التي قام بها عمال السكك الحديدية بخاصة ، اقتصاد البلاد . ولا شيء يدل على أن أنصار السياسة المرنة حيال الغرب ، والتفاهم مع الاتحاد السوفياتي سيحاولون يوماً أن يفرضوا أنفسهم .

وفي غضون ذلك ، أراد ماوتسه – تونغ أن يتجاهل منازعات العصر ، فظهر في وقت واحد إلهاً ونبيـاً لدين جديد ، الشيوعية الآسيوية ، التي كتب تعاليمها ، وظل يلي قواعدها ، بعيداً أكثر مما يعتقد عموماً عن الاحزاب الشقيقة الغربية .

كوريا وخط العرض الثامن والثلاثون

لقد ضمت كوريا إلى اليابان في ١٩١٠ وانتظرت استقلالها خمساً

وثلاثين عاماً . وفي القاهرة ، في آب ١٩٤٣ ، اعترف روزفلت وتشرشل وتشانغ كاي – تشيك بحق هذا البلد في الاستقلال الذاتي ، وفي يالطا ، في شباط ١٩٤٥ ، شايع ستالين وجهة النظر هذه . ولكن الاتفاقات التي أعادت له الحرية كانت نتيجتها تقسيم كوريا إلى قسمين متفاوتي الأهمية واعطاءهما نظامين سياسيين متضادين .

في كانون الأول ١٩٤٥ ، في مناخ الحرب الباردة ، عقد مؤتمر دولي في موسكو بغية تعيين شكل الحكم الذي يلائم كوريا المتحررة حديثاً من السيطرة اليابانية . وأمام استحالة التوصل إلى صعيد مشترك آل الأمر إلى الحفاظ ، لمدة خمس سنوات ، على الخط الفاصل القديم الذي كان يفصل مسرحي عمليات القوات الامريكية والسوفياتية . وهذا الخط ، الذي يتبع رسم خط العرض الثامن والثلاثين شمالاً ، يقسم البلاد إلى منطقتين تخضع كل منها إلى نفوذ المحتل .

في القطاع الجنوبي ، أدت حملة مطاليب طويلة ، في ١٠ آذار ١٩٤٨ ، إلى انتخابات عامة . وأعلنت الجمهورية ، وعهد رئيسها الدكتور سينغمان ري ، البالغ من العمر ٧٥ عاماً ، زعيم الحزب المحافظ ، إلى كيم سنغ سو ، رفيقه القديم في الكفاح ، أمر تشكيل أول حكومة للنظام الجديد .

ولم ينتظر رد الشمال . ففي ٢٥ آب ، انتخب مجلس وأقر ، في ايلول ، جمهورية كوريا الشعبية الديموقراطية ، ودعا الزعيم الشيوعي الماريشال كيم ايل سنغ لرئاسة الحكومة .

وهكذا شكل خط العرض ٣٨ منذ الآن حداً حقيقياً بين دولتين متنافستين . وانفجرت فيه الحوادث ، وأخذت تتكاثر حتى أصبحت

خطيرة ، وخرقت خمس فرق شمالية الخط ، في ٢٥ حزيران ١٩٥٠ ، وغطت في ثلاثة أيام الـ ٦٠ كيلو متراً التي تفصلها عن سيؤول وحاصرت العاصمة .

التدخل الامريكي

بدأت حرب كوريا . ودامت ثلاثة أعوام ، وكلفت ٨ ملايين نفس بشرية وخسائر مادية عظيمة لترد ، في آخر الأمر ، الجزأين إلى قواعد انطلاقها وتكرس انقسام البلاد . وهيأت أيضاً للولايات المتحدة فرصة التدخل مباشرة في قضايا القارة الآسيوية وتوكيد عزمها أمام العالم على احتواء التوسع الشيوعي .

أجاب مجلس الأمن مباشرة نداء سيؤول ، وخرطت ١٦ أمة بالتالي ، وحدات تحت راية منظمة الأمم المتحدة . وفي ٢٧ حزيران ، أرسل الرئيس ترومان إلى الجنرال ماك آرثر أن يطلق في الكفاح جميع القوات الامريكية ، البرية ، الجوية ، البحرية ، المرابطة في اليابان . وبينما كانت الجيوش الحليفة تدحر الخصم وتجتاح أرضه وتبلغ حدود منشوريا ، وبدت القضية خاسرة بالنسبة للكوريين الشماليين ، هجمت ٣٠ فرقة صينية ، في ٢٤ تشرين الثاني ، على عرض الجبهة كله . وقفز النزاع . وركم الاحزان والدمار على « بلاد الصباح الهادىء » . وعندما اقترح ماك آرثر ، في نيسان ١٩٥١ ، اقحام العزم باستعمال السلاح الذري ضد الصينيين ، اصطدم بمعارضة ترومان ،حمية ، الذي نزعه من قيادته .

وامتدت المعركة ، وقطعت بمفاوضات طويلة وعسيرة ، وأخيراً ، في ٢٧ تموز ١٩٥٣ ، وصمت المدنة في بان مون جوم . وبعد سبعة وثلاثين شهراً ويومين على حرب يقتل فيها الاخ أخاه ، لم تعترف المدنة

بغالب ولا مغلوب . أما توحيد كوريا من جديد فلم يكن مؤتمر برلين ، في شباط ١٩٥٤ ، ولا مؤتمر جونيف في نيسان بقادرين على فرضه .

كوريا الشمالية

لم يبدل شيء خارطة كوريا منذ ذلك التاريخ . وظل خط العرض ٣٨° خط التقسيم بين الجمهورية الشعبية والدولة الجنوبية ، وضمن الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة السلامة الارضية لكل منها .

وعاد السلام ، ولم توضع أي قضية سياسية لكوريا الشمالية ، حيث ظلت البنيات الناشئة عن دستور ١٩٤٨ في مكانها ، وحيث جمع رجل النظام القوي كيم ال سونغ وظائف رئيس الحكومة ورئيس حزب العمل . ولكن الحالة كانت مشؤومة على الصعيد الاقتصادي ، واهتم موجهو البيونغيانغ في المقام الاول بتلافي اعاشة ١٣ مليون مواطن لدولة اجتيحت بكاملها . هذا ولما كان فلز الحديد وفحم الانتراسيت ومساقط الماء متوفرة بغزارة في شمال خط العرض ٣٨° ، فقد أعطت حكومة الجمهورية الشعبية الاولوية المطلقة لبرنامج التنمية الصناعية .

وتعطي جداول الاحصاء فكرة عن التقدم الذي تم في ختام الخطة السبعية الأخيرة لعدد من المنتجات الأساسية كالكهرباء والفحم والصلب والفولاذ والجرارات وسيارات الشحن والاسمدة الكيماوية .

ولا تؤلف الزراعة في هذه المنطقة قطاعاً هاماً للاقتصاد ، بالرغم من أن الريفيين فيها يمثلون ٤٠٪ من السكان . وعلى مثال الصين ، مولت السلطات الشمال — كورية ، مع ذلك ، برنامجاً واسعـاً في الري والمكننة . وشجعت استعمال الأسمدة الكيماوية والبذور المنتقاة ، في الوقت الذي كانت تكافح فيه ضد الأمراض وطفيليات النباتات .

كوريا الجنوبية

وعلى عكس ما مر في القطاع الشمالي ، لم تساعد اتفاقية بان مون جوم جمهورية كوريا على ايجاد توازنها السياسي . ان الدكتور سينغمان ري ، الذي تفانى في قضية الاستقلال ، في زمن الاحتلال الياباني ، بدا ، وهو على رأس الدولة ، سياسيـــاً ضعيفاً وطموحاً ، يستعمل أسوأ الوسائل للبقاء في السلطة . وقد انفجر الاستياء الشعبي عقب انتخابات الرئاسة ، في ١٥ أذار ١٩٦٠ ، التي زيفت بفظاعة . واعطى الطلاب عندئذ الاشارة لمظاهرة عظيمة انضمت فيها بالتدريج جميع طبقـــات المجتمع الكوري الجنوبي واضطرت ، في ٢٦ نيسان ١٩٦٠ ، سينغمان ري الى الاستقالة .

وقامت جمهورية ثانية ، يرأسها يون بوزوم ، وكان عاجزاً عن توطيد النظام ، وعندئذ خرج الجيش عن طوره شاهداً صامتاً ، وتدخل بدوره . وفي ١٦ أيار ١٩٦١ ، في الساعة الثانية صباحاً ، قام الجنرال بادك شونغ هي ، القائد الاعلى للقوى الكورية الجنوبية ، وجمـــع تشكيلا حربياً أمن له الاشراف على جميع المؤسسات . ومن هذه الحركة العسكرية ولدت جمهورية كوريا الثالثة . وفي بداية ١٩٦٣ ، قدر المجلس الاعلى لخونته بأن الوقت قد حان تسليم اجهزة القيادة للسلطة المدنية . وحدد موعد انتخابات الرئاسة في ١٥ تشرين الأول . وانتخب الجنرال بارك رئيساً ، وكان قد استقال من الجيش في تلك الفترة . وعين وزيراً اولاً إل كون شونغ وكان سفيراً لكوريا في واشنطون وفي باريس .

ان مشايعة جمهورية كوريا الجنوبية دون حيطة لسياسة الولايات المتحدة ، فسحت مجالاً لظاهرتين لهما مدلولها :

١ — المؤتمر الوزاري لبلاد آسيا والمحيط الهادىء المنعقد في سيؤول من ١٤ إلى ١٦ حزيران ١٩٦٦ .

٢ — الاتفاق العسكري المبرم في سيؤول ، في ٩ تموز ١٩٦٦ ، وتبعاً له سجلت كوريا الجنوبية اسهامها في مجهود الولايات المتحدة الحربي بارسال ٤٥٠٠٠ محارب إلى فيت — نام .

وبعد أن عاد الاستقرار السياسي اتجه موجهو كوريا الجنوبية الجدد شطر الاعمار . واعدت الخطة الخمسية الثانية في ١٩٦٥ . واستهدفت الاستقلال الاقتصادي للجمهورية قبل ١٩٧٠ .

ويقدر سكان هـذا البلد ٢٩٫٠٨٦٫٠٠٠ نسمة ، وينتمون إلى طبقة الفلاحين بنسبة ٦٧٫٢٠٪ ولذا شجع الانتاج الزراعي في بادىء الامر . ووضع ٤٠ مليون دولار في هذا القطاع .

ولم تهمل الصناعة ، بالرغم من فقر المنطقة بالموارد الطبيعية . فقد انتقل انتاج الفحم من ٥٫٣ مليون طن في ١٩٦٠ إلى ١١٫٧ طن في ١٩٦٦ . وساعدت ٨ مراكز حرارية ومائية على مضاعفة انتـاج التيار الكهربائي في خمسة أعوام وتجهيز ٧٦٠ ٠٠٠ كيلو واط ساعي في ١٩٦٥ . وانتجت المصفاة الاولى للبترول المنشأة في اولسان نحو ١٢ مليون برميلاً من البنزين في العـام وفي الوقت نفسه الكيروزين ، والبروبان ومختلف المواد الرئيسية .

الفيت ـــ نام

حرب الهند الصينية

أدى استسلام اليابان ، في ١٥ آب ١٩٤٥ ، إلى شغور السلطة في الهند الصينية ، المستعمرة الفرنسية ، التي احتلتها قوات الميكادو غداة هدنة ١٩٤٠ بين المانيا وفرنسا .

وبين الحركات ، التشكيلات السياسية ، العصبات ، الفرق الدينية ـ المستعارة ، التي تتطلع إلى توجيه البلاد ، تملك « **الفيت ـ نام دوك لاب دونغ مينه** » وباختصار « فيت ـ منه » أي **جبهة الاستقلال** ، أكثر البنيات قوة ، وأكثر القيادات وثوقاً ، وأكثر الجيوش عدداً وافضلها تدريباً . وكان زعيمها **نغوين أي كوك** ، المعروف تحت اسم **هوشي منه** ، مؤسس الحزب الشيوعي الهندي الصيني ، يعد نفسه منذ زمن طويل لاستلام السلطة .

وفي ١٩ آب ، أي بعد أربعة أيام على هزيمة اليابان ، رفع على هانوي العلم الاحمر ذو النجم الذهبي . وفي ٢٥ منه ، طلب إلى باؤداي ، امبراطور أنام ، تنازله عن العرش .

وفي اليوم نفسه ، استسلمت سايغون بدورها . وفي ٢٩ آب أعلنت جمهورية فيت ـ نام وضمت « الثلاث كي » أي الثلاثة بلاد : تونكن ، أنام ، كوشنشين » . وأعطت انتخابات عامة ، في كانون الثاني ١٩٤٦ ، أكثرية ساحقة إلى الفيت ـ منه ، ورفعت هو شي منه إلى رئاسة الدولة الجديدة ، في ٢ آذار .

ولم تكن عودة فرنسا إلى مستعمراتها القديمة ، على كل حال ، بالشيء الذي يرجوه حلفاؤها . ففي مؤتمر بوتسدام ، من ١٧ تموز — ٢ آب ١٩٤٥ ، الذي لم تدع اليه فرنسا ، تقرر في الواقع أن يعهد بنزع سلاح الوحدات اليابانية والادارة المؤقتة للبلاد إلى القوات الصينية والبريطانية المرابطة على جانبي خط العرض ١٦° ، ووقع اتفاق لم تحسب الحكومة الفرنسية له أي حساب .

وفي باريس ، في ٤ تشرين الاول ١٩٤٥ ، سمي وكيل الوفد العام للتحقيق والبحث ، القائد آندريه دوجه ، البالغ من العمر ثمانية وثلاثين عاماً ، صهر آلبير سارو رئيس الوزراء السابق ، مفوضاً للجمهورية في تونكن وآنام الشمالية ، وأرسل ، تحت اسمه الحربي جان سانتوني ، إلى الحدود الصينية — التونكنية . وتقتضي مهمته الاتصال بالصين ، التي تحتل هذه المنطقة ، وبالزعماء السياسيين الهنديين - الصينيين . كما أرسل ، في الوقت نفسه ، إلى سايغون الاميرال تييري دار جانليو ، مفوضاً سامياً ، والجنرال لوكليرك على رأس جيش يبلغ ٥٠٠٠٠ رجل في آخر السنة ، وكلفا « بتوطيد السيادة الفرنسية من جديد في أرض الاتحاد الصيني » . وبينما كان تييري دار جانليو يناصر سياسة الحزم ويأمر بالعودة دون قيد ولا شرط إلى النظـام الاستعماري ، كان لوكليرك ، بالاتفاق مع سانتوني ، يضغط على الحكومة الفرنسية لاستقبال زعماء الفيت — نام . وأخيراً خولت اتفاقات ٦ آذار بين جان سانتوني وهو شي منه دخول الجيوش الفرنسية إلى هانوي مقابل بعض الاعتراف بفيت — نام .

كان اللبس شاملا . فبينا قام في الهند الصينية مناخ عدم تفاهم كامل واحتقار متقابل بين فرنسيي المستعمرة وممثلي فرنسا الجديدة ؛

وبينما كانت العلاقات تفسد بسرعة بين الاميرال دار جانليو والجنرال لوكليرك ، لم تبد باريس أي اهتمام بالقضية الهندية ـ الصينية : لان قضايا السياسة الداخلية وحدها كانت تستأثر باهتمامها .

وبصورة ضعيفة استلم الاشتراكي ماريوس موتيه ، الذي حل محل سوستيل في وزارة فرنسا ماوراء البحار ، لضغوط سانتوني ، وأعلمه ، في شهر أيار ١٩٤٦ ، بأنه على استعداد لاستقبال الرئيس هوشي منه . واقلع هذا في ٣١ منه على متن طائرة خاصة ، يرافقه الجنرال سالان واقرب معاونيه ، وفي اليوم التالي ، وبينما كان يحلق في أجواء سورية ، أعلمه الراديو أن « جمهورية كوشنشين المستقلة » أعلنت في سايغون بايحاء من تييري دار جانليو .

واستقبل هوشي منه ، مع ذلك ، في باريس ، بكل الحفاوة الخاصة برؤساء الدول . ان معطفه العسكري المهيب ، وعمرته الاستعمارية ولحيته جعلته شعبياً لدى جمهور الناظرين . وافتتح المؤتمر الفرنسي – الفيتنامي في ٦ تموز ، في جناح من قصر فونتينبلو . وجلس إلى خوان المناقشة الوفد الفيتنامي برئاسة فام فان دونغ والوفد الفرنسي بقيادة الجنرال سالان والاميرال بارجو . وهددت المفاوضة بالقطيعة مرات عديدة ، ولكنها امتدت حتى ١٣ ايلول دون أن تنتهي إلى شيء ، لأن الجانب الفرنسي رفض بعناد الادلاء بكلمة استقلال ، وتجنب معالجة حالة الكوشنشين .

فقد قام فان دونغ صبره ، وضرب الطاولة بجمع يده ، وأغلق اضبارته ، وانطلق ضارباً الباب وأخذ أول قطار إلى مرسيليا . والتحق به في اليوم التالي هوشي منه مع باقي الوفد . وخشي فوق كل شيء أن يعود إلى هانوي خالي اليدين ويعدم ، فوقع في ليل ١٤ بلاغاً غامضاً ،

حرره موتيه ، يدعو الحكومتين لمتابعة سياسة التعاون « بروح الثقة المتبادلة » ، وما الفائدة بعد أن زالت الثقة من كلا الجانبين .

في كوشنشين ، بلغ الفساد بسرعة اجهزة الادارة الجديدة كلها ، حتى ان الدكتور تينه العف النزيه ، رئيس أول حكومة في « الجمهورية المستقلة » وجد مشنوقاً في غرفته في فجر ١٠ تشرين الثاني .

في تونكن ، تعددت الحوادث حتى ٢٣ تشرين الثاني ١٩٤٦ ، عندما انهالت ، تحت حجة واهية ، سفينة الحرب الاستطلاعية « سوفرن » ، ومدفعية الارض والطيران على هايفونغ ، واجتاحت النيران أحياء بكاملها ، وعد القتلى بالالوف ، وكانوا أول الضحايا لحرب دمرت البلاد خلال ثماني سنوات .

وخلال هذا الدور الطويل توالت الازمات السياسية في فرنسا بايقاع مدو دون أن تجد أي حكومة الواسطة لاتخاذ قرار أو لانهاء النزاع . وبينما كانت النقابات واوساط اليسار المتطرف تتظاهر ضد « الحرب القذرة » في الهند الصينية ، انفجرت الفضائح ، كقضية الهرب وقضية القروش ، ولم تسهم في رفع شأن فرنسا .

في الهند الصينية ، حيث أبيدت الوحدات الفتية في جيش الحملة ، قامت الخلافات المذهبية والمنافسات الحادة بين الاشخاص فوضعت الزعماء العسكريين ضد المفوضين السياسيين ، وقد أصبحو طوراً وطوراً مسؤولين عن حالة تتردى بسرعة . لان عمل القوات المسلحة ، المعتبر في بادىء الامر عملية ضابطة بسيطة ، أخذ مظهر حملة استعمارية حسب التقاليد القديمة : فمن جهة ، الجيش فيت ، الذي يكافح لتحرير بلاده تحت قيادة ضابط شاب ذكي ومتحرك ، استاذ تاريخ سابق ، فونغوين جياب ؛ ومن جهة أخرى ، جنرالات ذوو ماض مجيد ، حقاً ، ولكن

تشكيلهم اساء اعدادهم لحرب العصابات : روفير ، بلان ، فالوي ، كاربانتيه ، دولاتر دوتاسيني ، سالان ، كوني ، نافار استنفدوا في هذه المحنة . وعبثاً طالبوا تارة بتعزيزات وتارة بافتتاح مفاوضات السلام . وفي الوقت نفسه ، سجلوا على أرض المعركة سلسلة اخفاقات مريعة ظلت أسماؤها مشهورة بحزن : كاؤبانغ ، لانغ سون ، دونغ كيه ، هوا بينه ، سهل الجرار ...

وزاد انتصار ماوتسه — تونغ على تشانغ كاي – تشيك في ١٩٤٩ ، وافتتاح حرب كوريا ١٩٥٠ أيضاً ، ثقة الفيت مينه في العالم الشيوعي وحققا لها عوناً متزايداً من الصين والاتحاد السوفياتي .

وفي ٧ أيار ١٩٥٤ ، سجلت نكبة ديان بيان فو نهاية الكارثة . ففي منخفض طوله ١٦ كم وعرضه ٨ تركت ست كتائب فرنسية ، حشد ضدها الجنرال جياب أربع فرق مسلحة بقوة . وبدأ الهجوم الفيت في ١٣ آذار فقابله دفاع قام به الكولونيل دوكاستري ، وأدى إلى خسارة فرنسا ١٦٠٠٠ رجل : ١٥٠٠ قتيل ، ٤٠٠٠ جريح ، وأكثر من ١٠٠٠٠ أسير .

كانت الموازنة العامة لثمان سنوات حرباً على النحو التالي :

خسرت القوات الفرنسية ٩٤٥٨١ قتيل أو مختف ، و ٧٨١٢٧جريح؛ وفي صفوف الفيت — منه ، ٢٢٢٠٠٠ قتيل ، ٢٣٠٠٠٠ أسير . وشردت التخريبات أكثر من مليوني شخص لا مأوى لهم .

اتفاقات جونيف

في شباط ١٩٥٤، اثناء انعقاد مؤتمر برلين بشأن كوريا، المؤتمر الذي لم

يؤد إلى أي اتفاق ، اوحى مولوتوف بانعقاد حلقة دولية جديدة تسوي معاً قضية كوريا وقضايا الهند الصينية . وقدم هذا الاقتراح بخاصة إلى جورج بيدو ، وزير الشؤون الخارجية في حكومة لانيل .

وعفوياً ، قال الوزير الفرنسي نعم . وأعلم بذلك فوستر دالس ، أمين الدولة الامريكية ، فقبل بدوره ، وأبدى تحفظه في أن يكون الاربعة « الكبار » : الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفياتي ، فرنسا ، بريطانيا العظمى الدول الداعية ، وبشكل لاتكون فيه على قدم مساواة بسيطة مع البلاد الشيوعية في آسيا .

وفي ٢٦ نيسان ١٩٥٤ ، وقبل أن تقع نكبة ديان بيان فو ، افتتح مؤتمر جونيف .

ولم تتقدم المفاوضة بشأن الهند الصينية . وكان الشيوعيون مطمئنين للنجاح العسكري فلم يبدو مستعجلين للنتائج . وكانوا على حق ، لان سقوط ديان بيان فو ، في ٧ أيار ، كرس هزيمة الجيش الفرنسي . وفي باريس ، أثارت هذه الكارثة ، بعد كثير غيرها ، رد فعل شديداً في الرأي والبرلمان . وهوجمت الحكومة ، واضطرت إلى الاستقالة . وامتدت الازمة حتى آخر شهر حزيران . والف الحكومة الجديدة بيير مانديس فرانس ، وجمع بين وظائف رئيس مجلس الوزراء ووزير الشؤون الخارجية ، وبهذه الصفة ، ذهب وأخذ مكانه في جونيف ، وأعلن جهاراً بأن يعطي خلال شهر حلاً سلمياً للهند الصينية . وكسب الرهن . وفي الواقع ، وقعت هدنة في ٢١ تموز ١٩٥٤ ، وضمت من جديد القوات المتخاصمة على جانبي خط العرض ١٧° بانتظار عودة اتحاد البلاد الذي يجب أن يتم عند أبعد حد ، في ٢٠ تموز ١٩٥٦ ، اثر انتخابات عامة تشرف عليها لجنة دولية .

ونقصت بعض التوقيعات بالاحرف الاولى في اسفل هذه الوثيقة : توقيع الوزير الامريكي ، الذي رفض التوقيع إلى جانب شو إن ـ لاي ، ممثل بلاد تريد واشنطون تجـــاهل وجودها ؛ وتوقيع نغو دينه ديم ، وهو سيامي كاثوليكي يدعمه « المستشارون » الامريكيون في سايغون ؛ وقد رفعه باؤ داي إلى منصب الوزير الاول في فيت ـ نام . ومع ذلك فقد كان المشاركون في مؤتمر جونيف يشعرون بأنهم أنهوا حرب الهند الصينية .

فيت — نام : تجربة قوة ثانية للولايات المتحدة .

وبانتظار المشاورة الشعبية ، في تموز ١٩٥٦ ، كان على فيت ـ نام الشمالية أن تحل قضايا خطيرة . كانت تضـم نحو ١٦ مليون نسمة على أرض تبلغ مساحتها ١٦٤٠٠٠ كم[٢] . وكان العمل العاجل بالنسبة للرئيس هو شي منه و فام فان دونغ ، رئيس الحكومة ، يقتضي النهوض بالاقتصاد الذي دمرته الحرب بغية تأمين اعاشة السكان في الحد الادنى . واتخذت اجراءات جذرية لاستغلال واستثمار أقـــل قطعة أرض ممكنة وتشغيل المعامل و المناجم بغاية السرعة ، بعد أن هجرها في الغالب مالكوهـا القدامى . وساعد الاصلاح الزراعي وخطة التنمية الصنـاعية في التغلب سريعاً على الازمة ، بل وعلى تصدير المواد الأولية والاشياء المصنوعة في ظروف مرضية . ومنذ السنة الأولى وجد أن مستوى انتاج السلع كالرز ، اللحم ، السكر ، الملح ، الفحم ، والكهرباء ، قد بلغ ، بل تجاوز ، مستوى ١٩٣٩ .

لقد نصت اتفاقات جونيف على أن تكون هذه السنة ١٩٥٥ ، على وجه الدقة ، السنة التي تتحادث فيها حكومتا الشمال والجنوب بغية تنظيم

الانتخابات في السنة التالية . ولكن سايغون أجابت جميع دعوات هانوي بالرفض . وعزز « المستشارون » الامريكيون ديم في رفضه لبروتوكول جونيف ، الذي لم يوقعه .

كانت الحالة السياسية في جنوب خط العرض ١٧° قريبة من الفوضى . فقد الامبراطور كل سلطة . والشعب المحلي ، الذي لا يتجاوز عادةً ٠٠٠ ٠٠٠ ١٢ نسمة ، ازداد فجأة ب ٠٠٠ ٨٠٠ لاجىء من الشمال ، ولم تكن اعاشتهم وتصنيفهم بالأمر السهل ، فضلاً عن أن وجودهم يزيد بشكل محسوس الفوضى وهي عظيمة من قبل . وكانت العصابات المسلحة للفرق الكاؤدائية ، هوآهاؤ ، بن كسوون يمزق بعضها بعضاً بشراسة في معارك حقيقية منظمة وجهاً لوجه . وكانت العناصر السليمة في البلاد تشهد بحزن مبرح هذه الحالة أو تذهب فتضخم الخلايا الشيوعية .

وكانت الفرصة طيبة أمام ديم للاستيلاء على السلطة . وفي ٢٣ تشرين الأول ١٩٥٥ دعا استفتاء الشعب للاختيار بين ديم و باؤداي . وقررت الأكثرية الساحقة لصالح الوزير الأول ، حتى ان عدد أوراق التصويت تجاوز بصورة واسعة عدد الناخبين . قلما يهم ذلك . ووقع باؤداي للمرة الثانية تنازله عن العرش . وأعلنت الجمهورية ، ورئيسها ديم ، في ١٦ تشرين الأول .

ونظم استفتاء ثان ، بشروط الأول نفسه ، خول الحكومة رفض كل اتصال بسلطات هانوي .

ومع ديم في سايغون انتصرت المحسوبية ، وأصبحت الفئة الحاكمة تابعة تماماً لواشنطون . وفي ١٩٥٦ ، أنذرت الحكومة الفرنسية باجلاء آخر قطعاتها المرابطة في فيت — نام الجنوبية . وحلت الولايات المتحدة

محلها . وجاء « المستشارون العسكريون » لتدريب الجيش الفيتنامي وتعليمه ، وأخذ هذا الجيش يتلقى من المصدر نفسه عتاداً وتجهيزات مناسبة .

كان ديم منذ البدء غير شعبي ثم أصبح كريهاً لما مارسه من قمع ضد كل من يعارض ، ولو بتواضع ، سياسته ، وضد من يتهم بالشيوعية . واكتسبت ضابطته السياسية ومحاكمه الاستثنائية شهرة مشؤومة . ولكنها كانت عاجزة ، مع ذلك ، عن ايقاف تقدم هذه المعارضة التي كانت تضم في وسط جبهة التحرير الوطنية ماركسيين اقحاحاً ، وممثلين عن الفيت – منه ، كما تضم أحراراً وأنصار تفاهم مع الشمال والضحايا التي لا تحصى للنظام المؤسس على الارهاب والحظية والفساد .

وفي شهر أيار ١٩٦٣ أخذت الازمة الداخلية نسباً مقلقة بقيام البوذيين . وقد اتبعت المظاهرات المنظمة الاولى في هويه برد فعل دام ، ونهب المعابد البوذية ، وأثارت الانتحارات اليومية لكهنة البوذيين ، الذين يحرقون أنفسهم احياءً في الساحة العامة ، الرأي الدولي ضد حكومة سايغون . وشجب النظام الديمي . وقام الجيش ليضربه الضربة القاضية . وفي ليل الأول من تشرين الثاني ١٩٦٣ هاجم قصر الرئاسة . وقتل قسم من الحرس ، وزحف فريق من الضباط على الأجنحة الخاصة ، حيث قتل ديم وأخوه نهو في ظروف ما زالت مريبة .

باليه الجنرالات

وفي تلك الفترة تقدمت قضية الحرب تقدماً مريعاً . كثرت العصابات الثائرة . ونفذ تأثير الفيت – كونغ في جميع البلاد . وألف الفيت –

كونغ[1] قوة سياسية وجيشاً في آن واحد . وطلب ، من جهة ، احترام اتفاقات جونيف ؛ ومن جهة أخرى ، الاستقلال الحقيقي للبلاد التي تخلصت من وجود الجيوش الأجنبية .

وفي السياسة الداخلية ، تركت تصفية ديم فراغاً حاول السياسيون والعسكريون الطموحون سدّه ، وتعاقبت الأزمات : ظلت باليه القادة تلعب خلال ثمانية عشر شهراً بشكل تسوية الحسابات . ففي ١٩ حزيران ١٩٦٥ تغلب قائد الطيران نغوين كاؤكي على منافسيه ، وعلى اثر حركة ، استولى على السلطة ، وأصبح تاسع رئيس دولة في فيت ـ نام الجنوبية منذ زوال ديم . وحافظ الحكم العسكري (الخونته) الذي أقامه على الاستقرار السياسي النسبي . ولكن الرأي طالب بالعودة إلى النظام الديموقراطي .

وبعد أن راوغ كي طويلاً ، تحت ضغط الموجهين الامريكيين ، قرر أن ينظم انتخابات رئاسية في ٣ ايلول ١٩٦٧ . ولم يكن من هذه الانتخابات إلا أن أقرت شرعية وظائف المستفيدين من الانقلاب ، مع هذا التصحيح ، وهو أن الجنرال نغوين فان تيو ، انتخب ، لمدة أربعة أعوام ، رئيساً لجمهورية فيت ـ نام الجنوبية ، وورد الجنرال كي ، لنيابة الرئاسة . واحتفظ الاقتراع بمفاجأة وهي : ان قائمة ترونغ دينه دزو ، المسالم والمعارض للخونته العسكرية ، وضع في المقام الثاني ، بـ ٨٠٠٠٠٠ صوت ، وإن قائمة تيو ـ كي ، الاولى ، حصلت على أكثر من الضعف بقليل . وبذل الفيت ـ كونغ نشاطاً ارهابياً كثيفاً أثناء الحملة الانتخابية

---

(١) الفيت ـ كونغ باللغة الفيتنامية مأخوذ من فيت ـ نام وكونغ ـ سان (الشيوعيين) . وفي فيت ـ نام الجنوبية ، اسم أطلق على أعضاء جبهة التحرير الوطنية .

التي ارتفعت موازنتها إلى ٦٥ قتيلاً ، و ٣٠٨ جرحى ، و ٢٧٧ شخصاً مخطوفاً ، جروا إلى الأدغال .

وفي ذلك الحين لم تكن قضية التوحيد موضع بحث . لقد اتهمت جمهورية الشمال العدوة ، وفيما وراءها ، الصين الشعبية ، بتعليم محاربي الفيت – كونغ السريين ، وبتقديم الجنود والقواعد والأسلحة والعتاد لهم .

وزاد الامريكيون ، من جانبهم ، ضغطهم . قام الاسطول السابع بالحراسة على طول الشاطىء الفيتنامي ، حيث تتوالى سلسلة قواعد محصنة مؤثرة . وتلقى الجيش تعزيزات جديدة دون انقطاع . وكانت الطائرات الامريكية المقاتلة تهاجم أهدافاً في شمال خط العرض ١٧° حتى محاذاة الحدود الصينية . وأصبحت البلاد كلها ميدان قتال واسع ، وحلقت القرى ، وعاث الفساد في مزارع الرز والكاوتشوك ، ودفع المدنيون ضريبة حرب ثقيلة . وبالرغم من كل شيء ، جرت محاولات للوصول إلى السلام : فقد حدد الرئيس جونسون الضرب بالقنابل على فيت – نام الشمالية ، في ٣١ آذار ١٩٦٨ ، ثم أوقفه في الأول من تشرين الثاني ، وبدأ بمحادثات مع هانوي في باريس في شهر أيار . ولكن طريق السلام طويل .

التايلاند (سيام القديمة)

لقد أمن خصب الاراضي المروية بغزارة لتايلاند ، التي يبلغ عدد نفوسها ٣١ مليون نسمة ومساحتها ٥١٤٠٠٠ كـ م² ، ازدهاراً نسبياً . وجعلها التحالف الامريكي من أغنى بلاد آسيا الشرقية ، بالرغم من أن فلاحيها ، التابعين لسعر الرز العالمي ، يعرفون دوماً فصولاً عميقة البؤس .

إن دستورها الموقت ، المنشور في ١٩٤٩ ، جعلها ، من حيث

المبدأ ، دولة ديموقراطية ، وعلى رأسها وجد الملك الشاب بهو ميدول آدوليا ديجي يساعده مجلس خاص يعين الملك أعضاءه والسلطة التنفيذية بيد مجلس الوزراء الذي يرأسه اليوم الماريشال تانوم كيتيكاشورن ، وقد أصبح ، في ١٩٦٣ ، خلفاً للماريشال ساريت تانادات ، الذي خلع في ١٩٥٧ بيبول سونغرام ، سيد البلاد منذ ١٩٣٨ . وإلى جانبه ، الجنرال برافاس شادوزاتيّن ، رجل النظام القوي ، الذي كان معاً وزير الداخلية وقائداً أعلى للجيش ، وتانات خومان ، وزير الشؤون الخارجية ، نصير التشيع دون حيطة لسياسة الولايات المتحدة في جنوب شرقي آسيا .

ومنذ ابرام معاهدة حلف جنوب شرقي آسيا (O.T.A.S.E) أخذت التايلاند مظهر حصن حقيقي امريكي يقيم فيه على الدوام ٣٠٠٠٠ جندي ، كما رصدت واشنطون ٨٠ مليون دولار لانشاء قواعد من كل نوع ، وأراضي طيران ، ومحطات ملاحة جوية – بحرية . ومنها كانت طائرات B-52 ، F-105 ، و F-4C تقلع وتقنبل فيت – نام الشمالية حتى تشرين الثاني ١٩٦٨ .

وحط فيها الرئيس جونسون ، في ٢٨ تشرين الأول ١٩٦٦ ، في ختام مؤتمر مانيلا . واستقبلته فيها السلطات استقبالاً حاراً ، مصطبغاً ، مع ذلك ، بامتعاض من جانب النخبة الفكرية وبعض الحلقات السياسية .

اللاوس

لقد أعطى مؤتمر جونيف استقلالاً رمزياً لفيت – نام ، وأعاد السيادة للعضوين الآخرين في الاتحاد الهندي – الصيني السابق : اللاوس وكمبوديا .

واللاؤس مستقلة ذاتياً منذ ١٩٤٩ ، ومستقلة استقلالاً تاماً منذ ١٩٥٤ ، ومع ذلك تحملت طويلًا نتيجة النزاع الذي امتد منذ ١٩٤٥ على حدودها الشرقية . وذلك أن تكوينها الجغرافي يعرض منظورات طيبة ، في فيت — نام الجنوبية والشمالية ، على الستراتيجيين الذين يريدون مهاجمة العدو فجأة دون التعرض لسدود النار في خط العرض ١٧° . وقد فهمت الفيت — منه ذلك جيداً عندما أقامت ، في عام ١٩٥٣ ، عصاباتها الاولى بقصد الهجوم من خلف على الوحدات الفرنسية المتجمعة في خليج تونكن . وفهم الجنرال نافار المناورة جيداً ، وجعل ديان بيان فو في مركز تشكيله المخصص لمنع التسللات الشيوعية باتجاه اللاؤس . ونعرف ما نجم عن ذلك . واليوم أيضاً ، تحلق الطائرات المقاتلة الامريكية فوق اللاؤس ، بالرغم من نظام الحياد الذي اعترف به لهذا البلد في اتفاقات جونيف ١٩٦٢ .

واللاؤس ممتدة نسبياً . مساحتها ٢٣٦٠٠٠ كم٢ ، ونفوسها ٠٠٠ ٣٠٠ ٢ نسمة فقط . وقد سوى منها دستور ١٩٥٦ ملكية دستورية . وتعكرت الحياة السياسية فيها بتنافس « ثلاثة أمراء » يتنازعون السلطة ، سوفانا فوما المحايد ؛ بون أوم ، نصير التحالف الوثيق مع الولايات المتحدة ؛ سوفانو فونغ ، زعيم الباتيت — لاو (لاؤس الحرة) التقدمي . وبينا كان الملك يقيم في لوانغ برابانغ ، عاصمة الشمال ، كانت فيانتيان ، العاصمة الادارية ، تطالب بها طوراً وطوراً الأحزاب المتنافسة . وبعد عدة انقلابات ، تحقق أخيراً اتفاق ، في ١٩٦٢ ، وبموجبه تشكلت حكومة اتحاد وطني يرأسها الأمير سوفانا فوما . غير أن ضغوط بانكوك ، بعض الأطماع الشخصية ، أثارت الخلاف ، مع ذلك ، دورياً . وفي ٢٢ تشرين الأول ، أيضاً ، حاول الجنرال ثوما ، زعيم الطيران ، حركة

عسكرية جديدة . ولكنه أخفق بسرعة وفرّ بطريق الجو وحط في التايلاند ، الملجأ الطبيعي للثائرين اللاوسيين المهزومين .

كمبوديا

كمبوديا أقل سعة من اللاوس . سطحها ١٧٥٠٠٠ كم[٢] ، ولكنها أكثر سكاناً ، ويبلغ عدد نفوسها ٥٧٥٠٠٠٠ نسمة . تحملت كجارتها البائسة ضغوطاً كثيرة من فيت — نام الجنوبية والتايلاند اللتين حاولتا جرها إلى المعسكر الامريكي . ولكن الأمير نورودوم سيهانوك ، الذي يتزعم مقدرات بلاده ، قرر اختيار سياسة حياد دقيق بين الكتلتين ، وهذا ما ساعده على تلقي مساعدة جوهرية من الولايات المتحدة وفرنسا وكذا من الصين والاتحاد السوفياتي . وقد مهر الفنيون الاجانب ، بخاصة ، كمبوديا بشبكة طرق ، ومستشفيات ، ومطار حديث بالقرب من فنوم بن العاصمة ، وميناء كومبونغ سوم في جوف خليج سيام . فحررت بذلك تجارتها من وصاية سايغون التي كانت منفذها الوحيد على البحر .

والأمير سيهانوك شاب ذكي ، مستنير ، مجرب ، عارف بالانظمة الغربية ، وقد اهتم باقامة الأنظمة الديموقراطية في كمبوديا . وفي ١٩٤٧ أصدر دستوراً جديداً ، منسوخاً عن دستور فرنسا . ولكنه اهتم بالحكم أكثر من تولي العرش ، ولم يحسن تحمل المرامم المعقدة في البلاط . وتنازل عن العرش ، في ٢ آذار ١٩٥٥ ، لصالح أبيه نورودوم سوراماديت ، وأصبح له الوزير الأول ، وأسس عندئذ السانغكوم ، حزب الجبهة الوطنية باتجاه اشتراكي ، وشايعته النخبة الحيوية السياسية والفكرية .

وبموت أبيه ، في ١٩٦٠ ، عهد إلى الملكة أمر تأمين استمرار

السلالة ، واهتم من جانبه بابقاء البلاد بعيداً عن الخلافات التي تجتاح الدول المجاورة .

وكانت علاقات كمبوديا مع فرنسا ودية دوماً . وقد استقبل الامير نورودوم سيهانوك استقبالا رسمياً في باريس ، في ٢١ حزيران ١٩٦٤ . وفي فنوم بن ، القى الجنرال دوغول ، في ٣١ آب ١٩٦٦ ، خطاباً مدوياً رد فيه على رسالة الحكومة الامريكية ، وطلب منها أن تسحب جيوشها من فيت — نام ، وأن تعقد مفاوضات سلام ، وأن تحترم « حياد الشعوب الهندية ـ الصينية » .

وشعب الخمير شعب وديع ، مضياف ، يتعلق من أعماقه بالتقاليد البوذية . وتأتي موارده الاساسية من صيد الاسماك وزراعة الرز ، والقطن ، والفلفل ، والتبغ .

ماليزيا الكبرى (الملايو)

في ختام تغييرات طويلة دامية ، ولد اتحاد ماليزيا الكبرى (الملايو) ، في ١٦ ايلول ١٩٦٣ ، وضم ١٤ دولة مساحتها الكلية ٣٣٢٨٩٩ كم٢ ، ونفوسها ١٠ ملايين نسمة ، أي الاحدى عشرة دولة في الاتحاد الماليزي القديم ، في طرف شبه الجزيرة التايلاندية ، التي انضمت اليها دولة سنغافورة ، وساراواك وصباح المستعمرتان الانكليزيتان السابقتان الواقعتان في شمال بورنيو ، والمنفصلتان عن بحر الصين الجنوبية بـ ٦٤٠كم. والعاصمة الاتحادية هي كوالا — لمبور ، في دولة سيلانغور . ثم انفصلت دولة سنغافورة في عام ١٩٦٥ وأصبحت دولة مستقلة في الكومنولث البريطاني .

وهدف هذا الانشاء أن يضم دومنيونات جنوب شرقي آسيا ، الخاضعة لنظام « تسويات المضايق » المعقد (من أجل سنغافورة ، بينانغ ، ومالاقا) ، ودولاً متحدة ودولاً أخرى غير متحدة . ولم يتحقق هذا الانشاء دون ألم في هذه المنطقة التي تبدو ملتقى عجيباً للاعراق . ولا يشغل الملاويون الأصليون فيه إلا المكان الثاني بـ ٤٠ ٪ من السكان ، بعد الصينيين الذين يؤلفون ٤٣٪ . ثم يأتي بعد ذلك الهنود (٩٪) ومن أصلهم من بورنيو (داياك ، ميلانو ، دوسون ، موروت ، الخ .) (٧٪) ، والأوربيون ، والاوراسيون . والاسلام ، الدين الوطني ، يمارسه الملاويون جميعاً وبعض الهنود . وهؤلاء الأواخر موزعون أيضاً بين المؤمنين بالهندوكية وديانة السيخ ، والصينيون اتباع الكونفوشيه ، والطاوية أو البوذية ؛ والسنغاليون بوذيون . وتحاول المسيحية أن يكون لها أتباع من جميع الطوائف .

ولا يقل تنوع اللهجات عن تنوع الديانات ، ومع أن اللغة الملاوية هي الرسمية فان اللغة الانكليزية تبقى أفضل واسطة للاتصال ، وتستعمل بشكل واسع في التعليم والمبادلات التجارية .

اثنتا عشرة سنة حرباً أهلية

ولم تكن العلاقات دوماً مطبوعة بالرقة والعذوبة بين مختلف الجماعات العرقية . وكانت سيئة صراحة ، في عام ١٩٤٥ ، عندما عادت الادارة البريطانية إلى البلاد بعد أربع سنوات من الاحتلال الياباني .

في كانون الثاني ١٩٤٦ ، نشرت لندن قراراً وزارياً ينص على تشكيل اتحاد ماليزي تفيد فيه جميع الطوائف من حقوق واحدة . ورأى الملاويون أنهم مهددون بفقد امتيازاتهم القديمة فاتحدوا ضد هذا المشروع .

وقامت حملة تحض على الثورة دبرهـــا الشيوعيون الملاويون ، في الجيش المناوىء لليابان ، الذين كانوا يكافحون المحتل الياباني مراً ولم يلقوا السلاح .

ثم صرف النظر عن المشروع . وفي الأول من شباط ١٩٤٨ ، استبدل بخطة اتحاد ملاوي تضع شروطاً شديدة للمواطنة . فاحتج غير الملاويين هذه المرة ، وبخاصة الصينيون والشيوعيون ، الذين كانوا يتلقون اوامرهم من ماوتسه ـ تونغ .

واضيفت الفوضى السياسية والاجتماعية الى الحالة الاقتصادية الأليمة ، ومالبث النزاع أن أخذ شكل ثورة حقيقية .

وفي شهر حزيران ، قامت حركة اضراب واسعة في المناجم والمزارع فشلت البلاد جميعاً . وسلكت الجيوش الشيوعية طريق العصابات في الادغال وساد جو الارهاب على الارياف . واضطرت السلطات الاتحادية أن تستنجد بقوى الكومنولث المسلحة ، البريطانية ، الاوسترالية ، الزيلاندية ـ الجديدة ، والافريقية ، وتتدارك انتقـــال واسكان نصف مليون فلاح كانت قراهم تتحمل الضغط الشيوعي .

وامتدت الفوضى اثنتي عشرة سنة ، وفي ١٩٦٠ فقط رفعت حـــالة الاستثناء التي قررت في ١٩٤٨ .

ومهما يكن فان الحقوقيين والبرلمانيين تابعوا أعمالهم التي ترمي إلى تشكيل أمة ملاوية . وفي ١٩٥٥ ، اقترح دستور اتحادي جديد في ماليزيا ، واعطت انتخابات ٢٧ تموز الاكثرية الساحقة الى الأمير تنكو عبد الرحمن ، زعيم الحلف ، الذي حصل على ٥١ مقعداً على ٥٢ في البرلمان المحلي . وبصورة موازية ، بدلت انظمة سنغافوره وممتلكات شمال بورنيو في اتجاه

الاستقلال الذاتي . وفي ربيع ١٩٦١ ، اقترح عبد الرحمن الوزير الملاوي الأول انشاء الملايو (ماليزيا) ، الرابطة السياسية لممتلكات التاج السابقة في هذا القطـــاع من العـالم . ونصر استفتاء في سنغافوره ، وانتخابات في صباح وساراواك انصار هذا التشكيل الذي أصبح حقيقة واقعة ، في ١٦ ايلول ١٩٦٣ .

وتعتبر ماليزيا ، عضو الكومنولث والممثلة في الأمم المتحدة ، دولة ذات سيادة ، ملكية دستورية ، ينتخب مليكها لمدة خمس سنوات السلاطين الملاويون الوراثيون في مجلس السادة . وتتأمن السلطة التنفيذية بواسطة **الحلف** وهو ائتلاف سيامي تمثل فيه : **منظمة الملاويين الوطنية المتحدة ورابطة صينيي ماليزيا** (M . C . A .) **وموكزهنود ماليزيا** (M . I . C) والسلطة التشريعية خاصة بالبرلمان وهو يتألف من مجلسين **ديوان نيغارا** (مجلس الشيوخ) وعدد أعضائه ٥٠ عضواً ، وولايتهم ستة أعوام ولا يمكن أن تحل ؛ **وديناك رعايات** (المجلس الأدنى) وعدد أعضائه ١٥٩ نائباً وينتخبون لمدة خمسة أعوام .

والاقتصاد الملاوي مؤسس ، من جهة ، على الزراعة ، والعناية بالغابة للحصول على الأخشاب ، وصيد الأسماك ، وتستخدم جميعاً ٥٣٫٩ ٪ من الشعب العامل ، أي ١٧٩٧٤٠٠ شخص ؛ ومن جهة أخرى ، على انتاج المواد الأولية ، ومن وجهة النظر هذه ، تتصرف البلاد بموارد طبيعية هامة . وهي من أهم البلاد المجهزة بالكاشوك والقصدير في الاسواق العالمية .

وساعدت التوظيفات المالية التي قبلها الاتحـــاد على تجهيز موانيه الثلاثة بالأجهزة الحديثة : **سنغافوره** ، وتبلغ حركته ١٤ مليون طن بضائع كل سنة ؛ **بينانغ** (٣ مليون طن) ؛ **سويتنهام** (٢ مليون طن) .

وعدا ذلك توجد تجارات أقل أهميـة تنعش موانئ مـالاقا ، كوالا دنغون ، تيلوك ، آنسون ، ميري ، سانداكان ، لابوان ، الخ .

وتصل الخطوط الجوية الدولية والطيران الملاوي أهم مدن الاتحاد .

وأخيراً ، قامت المشاريع الكبرى على أرض الملايو كلهـــا في هذه السنوات الأخيرة ، بغية تحسين الزراعات وتشجيع التصنيع ، وتمولهـــا الحكومة البريطانية في القسم الأعظم منها ، كما تمولها منظمة تنمية الكومنولث .

اندونيسيا سوكارنو واندونيسيا الجيش

غداة الحرب العالمية الثانية ، وجـــدت البلاد المنخفضة ، كفرنسا في آسيا ، أمام الأمر الواقع . ودهيت الدولتان الاستعماريتان لمجابهة القضايا الخطيرة في بلديهما ، ولم تفهما ، بالتالي ، سعة الحركة الثورية التي بدأت في الطرف الآخر من العالم .

في ١٧ آب ١٩٤٥ ، انقطعت الهنـد الهولاندية عن الوجود . وفي باتافيا ، التي استعادت اسمها القديم جاكارتا ، أعلن الدكتور سوكارنو في ذلك اليـــوم ، استقلال جمهورية اندونيسيا . وفي ٦ ايلول تألفت حكومة جديدة وسمي سوكارنو رئيساً للجمهورية .

وعندما كانت حكومة الملكة ولهلمين ، في منفاهـــا في لندن ، أعلنت ، في ١٩٤٢ ، خطة اصلاح لمستعمرتها الشرقية ، لتخولها ، نوعاً ما ، بعض الاستقلال الذاتي ، ولم تكن موضع بحث قضية قطع الروابط التي تجعل من اندونيسيا الغنية ممتلكاً للتاج .

ولكن تم تجاوز وجهات النظر هذه بشكل فريد عندما عاد البلاط والحكومة الهولاندية إلى لاهاي التي تحررت أخيراً من الاحتلال النازي .

وانقضت أزمنة « سياسة المدفع » وعندما نزل النائب – الحاكم فان موك في جاكارتا ، في تشرين الأول ١٩٤٥ ، بهمة استرجاع المستعمرة بيده ، وجد نفسه أمام سوكارنو غير مستعد للانحناء .

وفي هذه الحالة كان النزاع غير مجتنب الوقوع ، ووجد الهولانديون بعض حلفائهم متعصبين ضدهم ، لأن الولايات المتحدة واوستراليا، بخاصة ، كانتا تكرهان عودتهم إلى المحيط الهادىء . وقد شعرت كل من فرنسا وبريطانيا العظمى نفسها بالصعوبات الخطيرة في هذا القطاع من العالم ، فترددتا . وبسرعة فائقة توصلت الحكومة الهولاندية إلى التفاوض ، ولم تأت بحسن نية أكثر من حكومة باريس ، في نفس الوقت ، في البحث عن تسوية . وأدت وساطة بريطانية إلى ابرام هدنة ، في ١٤ تشرين الأول ١٩٤٦ ، وبعد شهر على اتفاق لنغاجاتي قبلت حكومة لاهاي ووقعت الاتفاق في ٢٥ آذار ١٩٤٧ .

ويتضمن هذا الاتفاق ، بصورة أساسية ، انشاء « اتحاد هولاندي – أندونيسي » تدخل فيه « الولايات المتحدة الاندونيسية » التي تضم جمهورية اندونيسيا (جاوا ، سومطرا ، مادورا) ، « الشرق الأكبر » وبورينو ، تحت سلطة الملكة . ولم يطبق مطلقاً .

وبينا كان الطرفان يركزان على مظاهر الاتفاق الاقتصادية ، انفجرت في الجزر حركات انفصالية أوحى بها المعمرون كثيراً أو قليلاً وشجعوها ، واتخذت الحكومة الهولاندية من ذلك حجة وقامت ، في ٢٠ تموز ١٩٤٧ بـ « عملية ضابطة » في ميدان وشيريبون . وتدخلت الأمم المتحدة ، هذه المرة ، وفرضت هدنة وقعت ، في ١٧ كانون الثاني ١٩٤٨ ، على متن السفينة الامريكية « رنفيل » ، وردت أرض الجمهورية إلى منطقة جاوا الوسطى وأراضي سومطره العالية .

اضطر الرئيس سوكارنو إلى الانحناء ، تحت ضغط قضايا خطيرة داخلية واقتصادية وسياسية . ولم يفد إلا من بضعة أشهر من السلام النسبي . وفي ١٨ ايلول قامت ثورة شيوعية في سوراكارتا وفي ماديوم ، وقمعت بسرعة وشدة ، ولكنها جهزت أنصار اساوب الشدة بحجة . وقامت « عملية ضابطة » ثانية موجهة ضد جوكجاكارتا ، العاصمة الجمهورية الموقتة التي ضربت بالقنابل جواً . وأخذ سوكارنو ومحمد هاتا ، رئيس الحكومة ، وعدة وزراء أسرى ، وراقب المظليون الهولانديون جميع ملتقيات الطرق واحتلوا جميع العمائر العامة .

ومن الممكن أن يظن أن الجمهورية الاندونيسية انهت في هذه المرة . ولكن الرأي العالمي استنكر ضربة القوة وغادت الحرب تدريجياً في داخل الجزر ، وتدخلت الأمم المتحدة من جديد وأمرت وقف النار . وأنذرت القوات الهولاندية باخلاء جوكجاكارتا ، ودخلها سوكارنو في ٦ تموز ١٩٤٩ ظافراً . وفي ٢٧ كانون الأول التالي ، في ختام مؤتمر المائدة المستديرة ، الذي انعقد في لاهاي ، اعترف رسمياً باستقلال اندونيسيا .

وقامت الملكة جوليانا عن البلاد المنخفضة ومحمد هاتًا عن اندونيسيا بنقل السيادة . واستعادت جاكارتا مكانتها عاصمة .

وفي ١٧ آب ١٩٥٠ صدر دستور مستوحى من مبادىء سوكارنو الخمسة (بانتجاشيلا) : القومية ، الانسانية ، الديموقراطية ، العدالة الاجتماعية ، الايمان بالله ، وفي ١٠ آب ١٩٥٤ فسخ الاتحاد الهولاندي — الاندونيسي . وهكذا انقطعت آخر حبال الوصل ، الرخوة حقاً ، التي كانت تربط الجمهورية الوحدوية الفتية بالادارة الهولاندية .

وهيهات أن يتم التغلب على جميع الصعوبات من أجل ذلك . فمنذ ١٩٥٠

كان على الحكومة الاندونيسية أن ترد ، طوراً وطوراً ، محاولة استرداد جنونية لمغامر هولاندي ، النقيب وسترلينغ ، وعدة ثورات ذات طابع استقلال ذاتي في جزر الملوك ومكسر . واضطرت ، في ١٧ تشرين الأول ١٩٥٢ ، إلى قمع « حركة » عسكرية في العاصمة . وفي ايلول ١٩٥٣ ، حاولت حركة دار الاسلام ، التي تتصرف بجيش مؤلف من ٥٠٠٠ رجل ، أن تثير سكان جاوا وسومطره ، وأن تفرض حكومة مشيئية إلـهية .

وكشفت انتخابات ١٩٥٥ عن وجود أربعة أحزاب سياسية كبرى :

١ — المسجومي ، وهو من اتجاه ديني ، محافظ ، مناوىء للشيوعية بعنف .

٢ — نهضة العلماء ، وهو فرع منشق عن التشكيل الأول وأكثر منه اعتدالاً .

٣ — الحزب الوطني الاندونيسي الذي أسسه سوكارنو ، وبرنامجه يرمي إلى وحدة الارخبيل واستقلاله .

٤ — الحزب الشيوعي ، أخيراً ، ويمارس بعض النفوذ على النقابات الاندونيسية ، كنقابة عمال السكك الحديدية التي تأسست في ١٩٠٥ ، وهي أقدم النقابات وأفضلها تنظيماً في جنوب شرقي آسيا .

ومن البديهي أن الدكتور سوكارنو، رئيس الجمهورية الاندونيسية مدى الحياة ، لا يمكنه أن يلعب إلا دور الحكم بين زعماء هذه الأحزاب المختلفة .

انفجرت الأزمة الاولى ، في كانون الثاني ١٩٥٧ ، عندما قام حزب

المسجومي ، تدعمه بعض عناصر الجيش الوطني ، وأنذره بحل البرلمان وفسخ الاتفاقات التي أبرمها في السنة السالفة في موسكو وبكين . وقاوم رئيس رئيس الدولة العاصفة .

رفض أن يشجب الـ ٦ مليون مواطن الذين أرسلوا ٣٩ نائباً شيوعياً إلى البرلمان وأن ينثني عن سياسته الخارجية . وعزل الضباط المتمردين ، وتخلى رفيقه السابق في النضال ، هاتا ، عن نيابة الرئاسة . وبالتـــالي استقال جميع الوزراء التابعين لحزب اليمين .

وما فتئ الاضطراب في ازدياد ، تشجعه ، كما يقال ، منظمات أجنبية . وتعددت الاغتيالات . وفي ٣٠ تشرين الثاني ، بخاصة ، نجا سوكارنو من قنبلة انفجرت حوله وسقط على اثرهـا ١٥ قتيلاً وبعض الجرحى . وتقرر الاضراب العام .

ورأى سوكارنو أن يغيب عن الأنظار أملاً بأن يساعد غيابه على تهدئة الأفكار ، وعهد بوكالة الرئاسة إلى ساتوهو ، رئيس المجلس الوطني ، وذهب في بداية ١٩٥٨ في رحلة طويلة إلى الخارج . واستقبل تباعاً في اليابان ، التـــايلاند ، الهند ، باكستان ، بورما ، سورية ، مصر ، ويوغوسلافيا . وأكد في كل مكان بأنه نصير مؤمن مقتنع بالحياد الايجابي والتعايش السلمي . ثم عاد إلى جاكارتا ، في شباط ١٩٥٨ ، وعلم أن محاولة انقلاب عسكري أجهضت في سومطره حيث قهرت القوات الموالية دون عناء زعماء الجيش الثائرين .

وفي أيار ١٩٦٣ ، وبعـد نزاع طويل حكمت فيه الأمم المتحدة انتقلت جزيرة غينية الجديدة الغربية (ايريانه) إلى الادارة الاندونيسية .

وبينما كانت الحكومات تتعاقب من « الاتحاد الوطني »، تعززت الأحزاب

وأدت الى أزمة ، أخطر أزمة وأدماها في تاريخ الجمهورية الاندونيسية القصير .

وبعد أن حرم الحزب الشيوعي من زعمائه ، في العام ١٩٤٨ ، بسبب القمع ، عاد فتألف من جديد واسترجع اعتباره كله بدفع من د . ن آيديت أمينه العام الشاب والحركي . وفي ايلول ١٩٦٥ ، كان يضم ٣ ملايين عضو ، واعتقد بأنه قوي بصورة كافية ، وباستطاعته استلام السلطة . وجرت محاولة عملية في الليل من ٣٠ ايلول — الى الأول من تشرين الأول ، وانشيء « مجلس ثوري » تحت ادارة النائب الكولونيل اونتونغ قائد الحرس الرئاسي ، ووضع رئيس الدولة تحت « حمايته » وقام ، بين الحزب الشيوعي الاندونيسي والجيش ، نزاع حتى الموت . وعبثاً ، في هذه المرة ، عرض سوكارنو وساطته . ولم يصغ اليه العسكريون الذين أخذوا عليه غزله الطويل مع « المتمردين » الماركسيين . وخول الجنرال عبد الحارس ناسوتيون ، وزير الدفاع والقائد الأعلى للقوى المسلحة ، نفسه سلطات واسعة . وكلف الجنرال سوهارتو بالحفاظ على النظام في العاصمة ، وتحت حماية المدرعات ، نظمت المجزرة بشكل أصولي . وقتل الكولونيل اونتونغ و « شركاؤه » في الجرم . واشعلت النار في مقر الحزب الشيوعي ، وأوقف الاشخاص المشبوهون بتعاطفهم مع الحزب الشيوعي الاندونيسي ، وفي الغالب أعدموا دون محاكمة . وفي شهر أيار ١٩٦٦ ، قدر أن ضحايا حمام الدم كانت أكثر من ٧٠٠٠٠٠ ضحية ، في اندونيسيا كلها .

ولكن الزعماء العسكريين لم يكتفوا بعد . بل طالبوا برؤوس شهيرة . فقد اوقف ثمانية عشر وزيراً من وزراء سوكارنو ومثلوا أمام محكمة خاصة . وفتحت سلسلة هذه الدعاوى بدعوى حاكم البنك الوطني ،

يوسف مضيء الظلام . وفي ٥ ايلول حكم عليه بالموت . وبعده مثل الدكتور سوباندريو ، وزير الشؤون الخارجية السابق والصديق الشخصي لرئيس الدولة ، الذي جعل منه « ولي عهده » . وفي ٢٦ تشرين الأول ، سمع سوباندريو قرار الحكم عليه بالموت .

وتلت ذلك أحكام أخرى عديدة ، حتى ٢٨ آذار ١٩٦٨ . عندما انتهى الجنرال سوهارتو بخلع سوكارنو وعمل على انتخاب نفسه رئيساً للجمهورية الاندونيسية لخمسة أعوام .

وبعد كثير من التقلبات الأليمة ، بلغت الجمهورية الاندونيسية رشدها . فهل تجد أخيراً توازنها ؟ ان الارخبيل الاندونيسي أهم ارخبيل في العالم ، فهو يتألف من نحو ٢٠٠٠ جزيرة ، من كل الابعاد ، ممتدة على ٤٠٠٠ كم ، ونفوسه ١٠٥ مليون نسمة وتوجهه الآن حكومة عسكرية (خونته) . وبدأ رؤساء هذه الحكومة يطالبون منظمة الأمم المتحدة بالمكان الذي غادره النظام السابق بضجة ، في كانون الثاني ١٩٦٥ . واعربوا أيضاً عن عزمهم على العيش بعلاقات طيبة مع جارتيهم التايلاند ، والملايو ، بعد أن اوقعهم معها طويلاً خلاف عنيف بسبب بورنيو ، والفيليبين واستراليا .

ويريد الجهاز الجديد ان يعطي الاولوية إلى القضايا الاقتصادية التي جعلتها عشرون سنة من المنازعات الداخلية في حالة اهمال . وكان النهوض سهلا، لاسيا وان البلاد ممهورة بثروات طبيعية تجعل منهـــا ثاني منتج عالمي للكاوتشوك (٦٠٠٠٠٠ طن في العام) ، ورابـع مجهز بالرز (٤٧٠٠ ٠٠٠ طن في العام) والقصدير (٤٤٠٠٠) . فضلاً عن أن أرضهـــا من اخصب الاراضي . وتكشف أرضها التحتية أيضاً عن مناجم عظيمة من البترول والفحم والبوكسيت والكوبلت والنيكل والماس .

ولكن الشرط الاول لهذا النهوض هو بضع سنوات من الاستقرار السياسي .

الفيليبين

كانت الفيليبين مستعمرة اسبانية قديمة ثم تخلت عنها للولايات المتحدة بموجب معاهدة باريس ، في ١٠ كانون الاول ١٨٩٨ ، ومافتئت ، منذ ذلك الحين ، تناضل في سبيل استقلالها . وقد خول لها هذا الاستقلال ، في ٤ تموز ١٩٤٦ ، في شروط تحدد بصورة غريبة أهميته .

تمتد جمهورية الفيليبين على أرخبيل يتألف من ٧٠٠٠ جزيرة وجزيرة ، منها ٥٠٠ جزيرة فقط مأهولة بالسكان ، وتغطي جميعاً مساحة ٢٩٧٠٠٠ كم٢ . ونفوسها ٣٣٥٠٠٠٠٠ نسمة ، وهم ، في القسم الأعظم منهم ، من أصل ملاوي . ومع ذلك ، يؤلف الهنود والصينيون والعرب فيها طوائف هامة . ويبلغ نفوس العاصمة مانيلا ١٧٠٠٠٠٠ نسمة .

ولم يغير الاستقلال بنية البلاد السياسية والاقتصادية . ويقيم الامريكيون فيها ثلاثين قاعدة عسكرية قوية . وتستغل المشاريع الامريكية فيها اعظم جزء من ثروات الارخبيل الطبيعية : الرز ، القهوة ، التبغ ، قصب السكر ، مناجم الفحم ، الفضة ، الحديد ، النحاس وآبار البترول . وبالاضافة إلى هذه الشركات البعيدة ، تشرف الاوليغارشية الاقلية ، مالكة الأطيان ، على أملاك واسعة رد فيها الشغيلة إلى حالة الاقنان . والطبقة الكادحة الصناعية غير موزعة بشكل أفضل في هذا الاقتصاد العاجز الذي تبلغ فيه البطالة مايقارب ربع السكان .

ان الشعب الفيليبيني ، الذي كان بشكل ، بين ١٩٤١ و ١٩٤٥ ،

عصابات عديدة في الارخبيل كله ويمد حرباً ضروساً ضد المحتل الياباني ، رأى برارة أن عودة الامريكيين لم تأت بأي تحسين لمصيره . وغادرت حكومة الرئيس كويزون ، التي كانت في المنفى ، المكان لحزب مانويل روكساس الحر ، وهو مالك أطيـان غني يفضل أقرباءه ويشجع على الرشوة والفساد .

عندئذ شكل الثوار المناوئون لليابان « جيش التحرير الشعبي » وكان قوياً بـ ٣٠٠٠٠ رجل . وكان يفيد من العطف الذي كان يتمتع بـه في الأرياف . وبعد روكساس ، وبعد كويرينو ، دعي الزعيم العسكري ، رامون ماغسيسي ليقيم قليلا من النظام في شؤون البلاد . وقبلت بعض الاصلاحات الزراعية ، ولكن مستوى حياة العمل والفلاحين ظل في الدرك الأسفل .

وعاد الأمل ، في بداية سنة ١٩٦٦ ، بعد انتخاب فرناندو ماركوس لرئاسة الجمهورية . وهو محام ، عمره أربعون سنة ، ومحارب قديم في الحرب السرية ضد اليابان ، وقـــد خصص المحتلون جائزة لمن يأتي برأسه بعد أن نفذ الحكم بأبيه ، رئيس مجلس الشيوخ السابق . وقرر هذا الانسان العف النزيه ، أن ينهي البؤس الذي يفتك ببلده .

وربح القوميون الفيليبيون الجزء الاول من معركتهم . وظلوا يقظين ، مـــع ذلك ، واعلنوا عن عزمهم على طرد الامريكيين ليقيموا ، بعد كثير من التقلبات ، ديموقراطية حقيقية .

الهند بين عالمين

اذا كانت بريطانيا العظمى طويلاً أول دولة استعمارية في العالم ، فقد كانت أيضاً أول الدول التي جوبهت بقضية اللا استعمار ، وحلتها بروح واقعية في الشرق الأقصى ، واعترفت رسمياً ، منذ ١٩٤٧ ، بسيادة الهند دون التوصل ، مع ذلك ، إلى صيانة وحدتها .

ان العداء المزمن ، الذي أقام في شبه الجزيرة الهندية المسلمين ضد الهندوكيين ، عمل على اخفاق مؤتمري سيملا ونيو دلهي في ١٩٤٥ و ١٩٤٦ ومنع تشكيل دولة اتحادية كبرى .

في ٢٠ شباط ١٩٤٧ ، أعلن كليمانت أتلي وزير المملكة المتحدة الاول ، في وستمنستر ، الاستعاضة عن اللورد وافيل باللورد مونتباتن في وظيفة نائب ـ ملك الهند وعزم حكومته على نقل جميع السلطات السياسية إلى حكومة محلية ، في الآجل البعيد في حزيران ١٩٤٨ . وفي ٢ حزيران ١٩٤٧ ، تمكن مونتباتن من أن يقدم للندن خطة نالت رضى الطائفتين . وحصل الرئيس المسلم محمد علي جناح لابناء دينه على انشاء دولة مستقلة سميت « الباكستان » أي « بلد الأطهار » وستصبح كاراتشي عاصمة لها . وفي ١٥ آب سحبت القوات الانكليزية كلها من الدومنيون السابق ، وشكل حزب المؤتمر مباشرة حكومة مؤقتة .

وفي بداية السنة الثانية ، في ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٨ ، زال بشكل مفجع أهم صانع للاستقلال ، الزعيم السياسي والديني في الهند ، المفاوض الذي لايكل ، حواري اللاعنف ، الماهاتما « النفس العظيمة » غاندي ، الذي سقط ، تحت طعنات براهماني متعصب ، في سن التاسعة والسبعين

عندما انتصرت أفكاره في ختام كفاح طويل . وانتخب أعز تلميذ له ، البانديت (« العالم ») جواهر لال نهرو وله من العمر آنذاك تسع وخمسون عاماً ، وزيراً أول للجمهورية الهندية ، الحرة والمستقلة ، التي أبقاها في الكومنولث . واحتفظ ، عدا ذلك ، بحقيبة الشؤون الخارجية وتولى مهامها حتى وفاته .

وكان عليه أن يسوي قضية المؤسسات الفرنسية في الهند ، وعقد بشأنها اتفاق على النقل بحكم الواقع في ١٩٥٤ ، وغوا التي استردت من البرتغال في ١٩٦١ .

الصين جار خطير

لقد ساعد موقف نهرو المحايد على عرض وساطته على الطرفين المتخاصمين في حرب كوريا . وبعد غزو التيبت ، في ١٩ آذار ١٩٥٩ ، لم تعد الهند سوى حاجز رقيق للجيوش الصينية التي لاحقت الدالاي — لاما إلى ماوراء الحدود الهندية . وكثرت الحوادث التي تثيرها الدوريات الشيوعية حتى شهر تشرين الأول ، وكانت بكين تطالب بأراضي على حدود الدولتين . وانتهى موقف نهرو القوي برد المزاعم الصينية إلى جادة الصواب ، ولكن التوتر استحكم بين الدولتين ونشب الخلاف من جديد بعد ثلاثة أعوام .

وبينما كانت أزمة كوبا تثقل العالم بتهديد حرب نووية ، في ٢٠ تشرين الاول ١٩٦٢ ، في الساعة الخامسة صباحاً ، اندفع جيش صيني قوي على المنحدرات المتجلدة في هيالايا واحتل دون صعوبة عدة قرى هندية . وكان الضغط شديداً بخاصة في منطقة ضولا ، في الشرق ،

وفي منطقة لاداخ ، في الشمال ، وكلاهما تقعان على ارتفاع ٤٠٠٠ م . وعجز الدفاع الهندي بسرعة . وفي ٢٥ منه ، حاصر الغزاة تاوانغ ، الواقعة على ٣٠ كم في جنوب خط ماك - ماهون . وتقدمت باتجاه العاصمة .

أوعز نهرو إلى شعبه «أن يقاوم مهما كلف الامر ، ودون تحديد زمن » ، ووجه نداءات قلقة إلى العواصم الغربية . ووصلت الاسلحة من بريطانيا العظمى والولايات المتحدة بالطائرة ، ولكن الحالة كانت تتفاقم من ساعة لساعة ، وتدل بشكل مفجع على ضعف الجيش الهندي . حتى ان كريشنا مينون ، وزير الدفاع ، المدين بجده السيامي لصداقته لنهرو ، والناطق باسمه في منظمة الامم المتحدة ، اضطر إلى الاستقالة لأنه لم يعرف كيف يعد الجيش للمهام التي كانت تنتظره . واستلم نهرو حقيبة الدفاع زيادة على وظائفه الخاصة . .

واستمرت الحرب ، وكانت نكبة للهند بالرغم من الجسر الجوي الذي كان يصب عليها الاسلحة ليل نهار ، وبالرغم من طائرات الميغ ٢١ التي سلمها الاتحاد السوفياتي لها . وطوراً وطوراً عرضت المساعي الحميدة التي قام بها الرئيس جمال عبد الناصر وخروتشوف . وفي ١٨ تشرين الثاني احتل الصينيون والونغ التي فتحت لهم طريق أسام إلى مزارع الرز الخصبة ، والحقول الغنية بالبترول ، واندفعوا نحو الجنوب . وبدأ الغزو الحقيقي الآن ، وقاتل الجيش الهندي أمامه متراجعاً .

وفي ٢٠ تشرين الثاني تمت الضربة المسرحية . فبينا بدا أن نهرو خسر القضية نهائياً ، ولاشيء يقاوم تقدم الجيوش الصينية الظافر ، أمرت بكين بوقف النار على الجبهة عامة . وفي الليل من ٣٠ تشرين الثاني إلى

الاول من كانون الاول ، تحركت كتائب ماو وانطوت بنظام الى قواعد انطلاقها ، إلى ٢٠ كم فيما وراء الحدود المعينة في ٧ تشرين الثاني ١٩٥٩ .

وهكذا انتهت الحرب التي فتحتها بكين لتفرض على الهند تصحيحاً للحدود . وإذا لم يكن اعلان للحرب حسب القوانين والقواعد ، فكذلك لم يوقع الطرفان معاهدة سلام وظل جوار الصين يثير القلق بالنسبة للجمهورية الهندية .

شاستري « الصغير » يخلف نهرو الكبير

كانت حياة البانديت نهرو كفاحاً طويلاً تقطعه إقـــامات في الزنزانات الانكليزية . واثقلت السنون الآن كاهليه فأخذا ينحنيان من يوم لآخر وبعد الغارة الصينية ، ظل يرأس مجلس الوزراء ، ولكنه تخلى عن قسم كبير من امتيازاته إلى معاونيه ، واحتفظ لنفسه بالاضبارات الهامة . وكانت قضية كشمير تشغله بخاصة ، ويأمل أن يجد خاتمة عادلة ويتوج ، على هذا النحو ، مهنته الدبلوماسية . ولكن هذا الرضى السامي لم يخول له . ونحو آخر ١٩٦٣ ، سببت صحة الزعيم الهندي قلقاً خطيراً لحاشيته . وفي ٧ كانون الثاني ١٩٦٤ ، أصابته نوبة قلبية ، وتغلب عليها بصعوبة ، ولكنها اضطرت نهرو إلى نظام شديد . وفي ٢٧ أيار ، في الساعة ١٤ ، فأجاته أزمه جديدة لم يستطع الأطباء فعل شيء حيالها .

وانطفأ نهرو في سن الرابعة والسبعين . وشدهت وفاته الشعب الهندي الذي يجله اجلالاً عظيماً حقاً . ولذا خرجت عشرات الألوف من الاشخاص ، رئيس الدولة والحكومة مختلطين بجمهور عديد من الفقراء والمساكين

وسارت في موكب ، في ٢٩ أيار ، ترافق جثمان رجل الدولة الكبير إلى مثواه الأخير في ليغام – بوض – غات ، على ضفة نهر جاموناحيث نصبت النار التي حورت الجثمان إلى رماد على بعض خطوات من الضريح الذي اقيم على شرف ذكرى غاندي .

وفي ٢ حزيران ، انعقد المؤتمر ليعين خلفاً لنهرو، وتم الاجماع بسرعة على اسم لال باهادور شاستري ، الوزير دون حقيبة ، وزارة ، ممثل الوسط في البرلمان ، الاشتراكي المناوىء للشيوعية ، الذي جعله الرئيس الراحل « ولي عهده » وسلمه بالتدريج زمام المبادهة .

كان عمر شاستري ستين عاماً ، وكان طباقاً حياً لنهرو . فبينا تحدر هذا الأخير من أسرة ارستقراطية ، واستطاع ، وهو فتى ، أن يجوب العالم ويتابع دراساته في كمبردج ، كان الزعيم الجديد من أصل متواضع جداً ولم يخرج من بلاده أبداً . وكان يسميه الزعيم الراحل « شاستري الصغير » وطوله ١،٥٢ م ووزنه ٤٧ كغ، وكان يمتاز بقوة عمل فائقة .

قضية كشمير

ومنذ أن توصلت الباكستان إلى الاستقلال مافتئت تطالب بكشمير. وهي دولة واقعة في الشمال الغربي من الهند ، نفوسها ٥ ملايين نسمة ، ثلاثة أرباعهم مسلمون ، ولكنها في العام ١٩٤٧ اشتركت رسمياً بالاتحاد الهندي . وعندئذ قامت جماعات باكستانية مسلحة واجتاحت البلاد واحتلت فيها أغنى الاقاليم وتدخل الجيش الهندي ، وحدثت بعض الاشتباكات وانهتها منظمة الأمم المتحدة، في الأول من كانون الثاني ١٩٤٩ بأمر وقف النار . وأوصت المنظمة الدولية مراراً باستفتاء ولم تتم هذه المشاورة ، لأن كلا من الطرفين رفض الجلاء عن الاراضي التي أقام عليها ادارته .

وظلت العلاقات متوترة بين نيو دلهي وكاراتشي ، دون أن تتردى مع ذلك ، إلى نزاع مسلح ، مادام نهرو يقبض بيد حازمة على مصير الهند ، غير أن وفـاة البانديت والضعف الظاهر لخلفه شجعا التطلعات التوسعية للحكومة الباكستانية ، وظلت هذه الأخيرة تتابع قضية كشمير ، حتى ثارت من جديد الاقليات المسلمة في دول الهند . وقرر المؤتمر انهـاء القضية ، وفي ٦ ايلول ١٩٦٥ ، انطلق من صحراء السند بهجوم منظم ضد الباكستان .

وفي هذه المرة ، قامت حرب حقيقية بين البلدين ، اقلقت نتائجها العالم لأنها ، من جهة ، تهدد بدمار الهند والباكستان الذين يقاتلان في أوضـاع اقتصادية صعبة ؛ ومن جهة أخرى ، دعمت الصين مطاليب كاراتشي بنية اضعاف الهند وربما لتهزمها ، بشكل أفضل في عملية قادمة .

ولفتت هذه النقطة الاخيرة انتباه الحكومة السوفياتية ، وعرض رئيسها الكسي كوسيغين وساطته على الطرفين المتشاحنين . وفي ١٤ كانون الثاني ١٩٦٦ ، دعا المارشال أيوب خان ولال بهادور شاستري إلى اللقاء في طشقند . وامتدت المفاوضة حتى ١٠ كانون الثاني ، وانتهت ، فيما انتهت ، إلى وقف الحرب وسحب الجيوش عن المواقع التي كانت تحتلها في كل من البلدين ، في ٥ آب ١٩٦٥ .

وغداة توقيع هذا الاتفاق سقط الوزير الهندي الاول اثر نوبة قلبية .

واعتبر مؤتمر طشقند نجاحاً دبلوماسياً هاماً للاتحاد السوفياتي ، ولكنه لم يات بحل لقضية كشمير ، ومازالت موضع نزاع بين الهند والباكستان .

انديرا غاندي

بعد جناز شاستري ، رفع المؤتمر الهندي أمرأة ، السيدة انديرا غاندي ، في ٩ كانون الثاني ١٩٦٦ ، على رأس الحكومة الهندية . والسيدة غاندي ابنة نهرو الوحيدة ، ونجيته وبيت سره ، ومعاونته وصفيته . وتشتهر من طرف لأخر ، في بلادها الواسعة ، بأنها كانت ، منذ حداثة سنها ، تناضل بشغف وهوى في صفوف رواد الاستقلال . وعرفت أيضاً في مانهاتن وفي كبريات عواصم العالم ، حيث شاركت ، الى جانب أبيها ، في جميع اللقاءات الدولية . وباعتبارها الوزير الاول للاتحاد الهندي قامت برحلتها الاولى إلى باريس ، وتباحثت ، في ٢٥ و٢٦ آذار ، مع الجنرال دوغول .

ولم يكن لدى السيدة غاندي الكثير من شجاعتها للتغلب على الصعوبات التي جابهتها من جميع الجهات . إن خمس عشرة سنة من الممارسة غير المنقطعة للسلطة استنزفت بعض الشيء حزب المؤتمر ، الذي تمثل فيه جميع الاتجاهات ، حيث كان عليها دون انقطاع أن تحكم في المنازعات بين أقصى اليسار المناصر للشيوعية ، واليمين الرأسمالي ، حيث يعارض « الجنوبيون » تفوق هنود الشمال ، وحيث تحاك الدسائس للاستيلاء على مفاتيح المراكز الرئيسية .

وبينما كان التهديد الصيني يثقل الهند والنزاع مع الباكستان يمكن أن يشتعل من جديد ، أثار محرضون بعض الدول ضد السلطة المركزية . وكانت جميع الحجج صالحة : ففي مدراس ، فرض الهندي لغة وطنية ؛ وفي بنجاب ، طالب السيخ بالاستقلال الذاتي الشامل .

وفي بداية ١٩٦٧ خول هذا الاستقلال الذاتي لأسام المنطقة الجبلية في الشمال الشرقي من الهند ، في ملتقى الصين وبرمانيا (بورما)

والباكستان الشرقية ، حيث توجد قبائل من العرق المغولي تدين أكثريتها بالدين المسيحي . وقد تألف فيها اتحاد في داخل الاتحاد الهندي .

ولكن القضية الأخطر التي وضعت للحكومة الهندية هي قضية الجدب أي القحط الذي يعيث في حالة مستوطنة .

مطاحن الجوع

تغطي الهند الأصلية مساحة ٣٢٦٨٠٠٠ كم٢ ، أي ٢٫٢٪ من السطح الكلي للكرة الأرضية . ونفوسها اليوم ٥٠٠ مليون نسمة تمثل أكثر من ١٣ ٪ من سكان الكوكب . ولكن البؤس لم يغلب في هذا البلد الذي يتضور فيه جوعاً وباستمرار ٥٠ مليون شخص ، على الأقل .

وهذه الحالة المؤلمة تعود ، في جزء منها ، إلى حركة السكان المتفجرة في الهند التي تضم ٢٣٥ مليون نسمة في كل الامبراطورية الهندية في ١٩٠١ ، و٣٦٠ مليون في ١٩٥١ . وقد أجريت عدة محاولات لمعالجة هذه الولادة المضطربة . ولا ينتظر ، مع ذلك ، من البرلمان أن يذهب إلى ما وراء رفع السن القانونية لزواج النساء .

ومع هذا الجمود العام في الشعب الهندي ، تؤلف العبادات الدينية عاملاً آخر في الضعف الفيزيولوجي . إن حملات الساضو ، الرجال المقدسين ، تنطلق دورياً وتحرم ذبح البقر تحريماً عاماً وباتاً . ويرى الاقتصاديون أن القضية هي معرفة « ما إذا كانت الهند ستأكل بقرها أو أن بقرها سيأكلها » ولكن ما من حكومة تجرأ بعد على القيام بصورة مفتوحة ضـــد التعصب الهندوكي .

وبالمقابل قامت الحكومات التي تعاقبت في نيودلهي ، منذ ١٩٤٩ ، بكفاح قوي ضد الجهل والمرض ، شاركت فيه منظمة الصحة العالمية ، وأعطى نتائج مشجعة .

الاقتصاد المخطط

إن الشروط المؤسفة التي يتطور فيها شعب الهند توضح أن دخلها القومي من أخفض الدخول في العالم : لأن الفرد يصيب فيها ١١٠ دولارات سنوية .

ووضع موضع التنفيذ برنامج للتنمية الاقتصادية مؤسس على خطط خمسية انطلقت رابعتها في نيسان ١٩٦٦ . وأسهم البنك العالمي والبلاد المصنعة من الشرق والغرب بعون مالي جوهري بلغ ٧٢٩٧ مليون دولار منها ٢٠٠٧ مليون من الولايات المتحدة ، ١٠١٧ مليون من الاتحاد السوفياتي ، ٨٧٤ مليون من المانيا الاتحادية .

ولكن التحويل الأساسي يجب أن يكون في الطباع والاخلاق لانقاذ البلاد . إن ثلاثة أرباع الشعب ما زالوا متعلقين بالارض ، يفلحونها بوسائل بدائية ، وفي أسوأ الشروط ، لأن الجفاف يعيث فيها من ٩ إلى ١٠ أشهر في العام . وقامت أعمال ري هامة ، ووزعت الأسمدة ، وساعدت على محاصيل مشرفة في ١٩٦٤ — ١٩٦٥ ، أي ٣٩ مليون طن رزاً ، و ٣٠ مليون طن حبوباً ، و ٣٦٠٠٠ طن كاوشوكاً خاماً ، و ٤٠٠٠٠٠ طن شاياً . ولم يتناول هذا التقدم ، مع ذلك ، إلا نصف الأراضي الممكن زراعتها . أما تربية الحيوانات فقد رأينا أن التقاليد الدينية تحرم كل أمل بنموها .

ولذا فان التصنيع يفرض على موجهي الهند عاملاً من العوامل الهامة لازدهارها . وساعدت الخطط الثلاث الأخيرة ، في هـذا الاعتبار ، على تسجيل انجازات هـامة . ففي الخمس عشرة السنة الأخيرة انشئت ، في الواقع ، ثلاثة معامل للفولاذ وبعض معامل للاسمنت ومعامل للنسيج ، ومعامل لتكرير السكر ، ومعامل للورق والمنتجات الكيميائية . ولذا ازداد بصورة محسوسة انتـاج الفحم وفلزات الحـديد وسبائك الفولاذ ، وأدوات الدراجات والسيارات والراديوات وماكنات الخياطة ، والمراوح الكهربائية .

وبعد أن أنهت السيدة انديرا غاندي تحريرها السيامي ، أخذت على عاتقها مهمة تحرير الشعب الهندي من البؤس الذي يثقله كالقدر ورفعه إلى مصاف الشعوب الحرة . هذا وان السلام في داخل البلاد وخارجهـا أمر لا مندوحة عنه لتحقيق هذا المشروع العظيم .

الباكستان

لقد ازداد الفصل بين الحزب الهندي في المؤتمر والعصبة الاسلامية بعد الحرب العالمية الثانية ، حتى انه نزع من بريطانيا العظمى كل أمل بصيانة وحدة شبه الجزيرة الهندية المستقلة .

وهكذا ولدت الباكستان ، كياناً اثنوغرافيا أكثر منه جغرافياً ، لأنها أخذت بعين الاعتبار بصورة خاصة التبعيات الدينية والعرقية .

وتشكلت أرضان منفصلتان بـ ٢٠٠٠ كـم من الكتلة الهندية :

١ ـ الباكستان الغربية وتتألف من بلوجستان ، والاقليم الشمالي ـ الغربي ، وبنجاب الغربية وصحراء السند .

٢ — **الباكستان الشرقية** ، وتضم قسماً من البنغال ومنطقة سيلبيت في أسّام .

وتغطي الباكستان مساحة ٩٤٧ ٦٦٣ كم² وتضم شعباً مؤلفاً من ١٠٥ ملايين نسمة ، والمسلمون فيه بنسبة ٧٣٪ .

ولم تحصل التسوية ، التي تدخلت في ١٩٤٧ ، على مشايعة اجماعية . فقد انفجرت الاضطرابات بعد قليل في الدول الجديدة ، ووضعت المسلمين والهندوكيين والسيخ في نزاع . وأنتج تعصب كل من الطرفين ، أحياناً ، إبادة حقيقية ، ومذابح اتبعت بحركات شعبية . وفي فترة سنة واحدة غادر الهند إلى باكستان ستة ملايين ونصف من المسلمين ودخلوا الباكستان ، بينما هجر البلاد خمسة ملايين ونصف من المؤمنين الهندوكيين بعد أن شعروا أن أمنهم أصبح مهدداً . وأبرم اتفاق في نيودلهي في ١٩٤٨ أمن حماية الأقليات ووضع حداً للهجرة . واليوم يوجد ٣٥ مليون من المسلمين المستقرين في الهند ، بينما يعيش ٢٠ مليون من الهندوكيين في الباكستان ، وبخاصة في الاقليم الشرقي من البنغال .

وما فتئت العلاقات تزداد سوءاً بين البلدين ، حتى الشكل الحاد لنزاع مسلح ، وبدأت الحرب فعلاً بين الهند وباكستان ، في ٧ كانون الأول ١٩٧١ ، وتقدمت جيوش الهند نحو الباكستان الشرقية واحتلت العاصمة داكا ، واعترفت الهند بتشكيل « **بنغلادش** » أي بنغال الحرة التي أعلنها الزعيم مجيب الرحمن وأصبح لها رئيساً ، وأخذت الدول تعترف بدولة بنغلادش هذه ، في كانون الثاني ١٩٧٢ .

دولة ذات رأسين

لقد أنتج التشكل المضطرب للباكستان هذه الحالة المتناقضة لدولة

مقسمة إلى قسمين متباعدين جداً ولكل منها عاصمة : **كاراتشي** في الغرب ، و**داكا** للقطاع الشرقي ومصالحه الادارية . وبالتالي أصبحت **راوالبيندي** العاصمة الاتحادية .

وتنتمي الشعوب الراسخة على هاتين الأرضين إلى أمر روحانية متميزة : عربية من جهة ، وهندية – ملاوية ، من جهة أخرى ، ولا يوجد بينها شيء مشترك إلا الدين . وتخضع إلى تقاليد مختلفة وتتكلم لغات مختلفة ، وتبنى الجانبان اللغة الانكليزية لتكون لغة البلاد الرسمية .

وقد تابع الماريشال أيوب خان « رجل الباكستان القوي » زمناً طويلاً حلم « اسلامستان » الذي يضم في اتحاد واحد جميع الدول الاسلامية في الهند ، ولكن نداءه لم يوقظ ، حتى الآن ، إلا صدى ضعيفاً جداً .

وعلى الصعيد الاقتصادي ، كانت النتيجة الاولى لتقسيم ١٩٤٧ ارجاع الباكستان إلى الحياة الزراعية . وأرضها مهيأة لذلك ، وتنتج بوفرة الحبوب والقطن والشاي والفواكه والجوت ، وهي ثالث مجهز بهذه المادة الأخيرة على السوق العالمية . وتربية الحيوانات فيها مزدهرة . ولكن معامل النسيج التي تنسج الجوت والقطن والصوف (أكثر من نصف الانتاج الهندي) والمدابغ وكل صناعة الجلود توجد في الجهة الأخرى من الحدود . وكان من الممكن أن يفيد الاقتصاد المتكامل كلا البلدين لو أنها أقاما علاقات حسن جوار . إلا أن خلافاتها السياسية حالت دون كل تعاون جدي .

ولتحمي الباكستان استقلالها قامت بتنمية تصنيعها . وساعدت الخطط المعدة بدأً من ١٩٥٥ والعون الخارجي على تقدم مدهش في مضمار الانتاج والمبادلات ومستوى الحياة . ولكن الحالة تدهورت بعض الشيء ، في بداية عام ١٩٦٧ تحت تأثير عدة عوامل ظرفية .

وتقوم الباكستان بصورة موازية ببرنامجي تنمية : برنامج حوض نهر الاندوس ، الذي يزمع انشاء سدين عظيمين وشبكة أقنية ري هامة ؛ وبرنامج الكفاح ضد ملوحة الاراضي لأن أهميتها حيوية لمستقبل الباكستان الغربية ، حيث ثلاثة أرباع الأراضي الممكن زرعها مهددة بالعقم . ويمول نصف خطط التنمية من قبل الدول الأجنبية .

ووضع تقدم الاقتصاد بمجموعه بالزيادة السريعة في الدخل القومي . فقد انتقل من ٢٤٥ مليار روبية في ١٩٥٨ إلى ٨٢٠ مليار في ١٩٦٦ . وزاد الانتاج الصناعي بنسبة ٩٪ في السنة من ١٩٦٠ إلى ١٩٦٦ ، والانتاج الزراعي بنسبة ٣٪ . وتضاعفت الصادرات من ١٩٥٨ إلى ١٩٦٦ وانتقلت من ٣٠٠ الى ٦٠٠ مليون دولار .

ويميل عجز الميزان التجاري إلى التناقص : فقد كان ٥٠٠ مليون في ١٩٦٤ ، وأصبح ٣٠٠ مليون في ١٩٦٦ .

برمانيا (بورما)

تقع برمانيا في ملتقى الهند والصين والتايلاند (سيام) ولاؤس ، وعاشت بعد الحرب العالمية الثانية دوراً طويلاً من الفوضى ولم تشف منها تماماً . لقد احتلها اليابانيون عام ١٩٤٢ وجعلوا من عاصمتها رانغون مركزاً لعملياتهم في المحيط الهندي ، ثم حررها اللورد مونتباتن في ١٩٤٥ ، واسترجعت استقلالها في ١٩٤٧ . وبعد ستة أشهر غادرت الامبراطورية البريطانية برمانيا ، وما لبثت أن مزقتها بالحال الأحزاب والشيع المتنازعة على السلطة .

وأعيت القبائل المتمردة الحكومة الشرعية : الشيوعيون الستالينيون

والتروتسكيون الذين يتجابهون في معارك حقيقية منظمة . وفي آخر ١٩٤٩ جاء نحو ١٠٠٠٠ رجل من جيش تشانغ كاي — تشيك ، أثناء هزيمتهم ، وبحثوا عن ملجأ لهم في جبال برمانيا وزادوا الفوضى أيضاً . وعدا ذلك ، يؤلف هؤلاء الهاربون خطراً عظيماً في الحد الذي يمكن أن يقدم وجودهم في برمانيا حجة لتدخل بكين . وفي ١٩٥٤ حشد رئيس الحكومة أو تاكين نو جيشاً قومياً مؤلفاً من ١٠٠٠٠٠ رجل ، وأعلن مشايعته لمذهب نهرو المحايد ، وسهر على اقامة علاقات حسن جوار مع الصين الشيوعية والحفاظ على استقلال البلاد .

ويبلغ امتداد برمانيا ٦٧٨٠٠٠ كم٢ ، تحفرها وديان عميقة قائمة العدوات بين هضاب التيبت و يون — نان . واقليمها المداري وأمطارها الغزيرة تهيء لها أرضاً خصبة جداً . فهي أول مصدر للرز في المنطقة ، بانتاج سنوي يبلغ ٦ ملايين طن . وتربتها التحتية غنية بالتنغستين الذي الذي يستخرج منه ٥٥٠٠ طن في العام ، أي ١٠٪ من الانتاج العالمي . وشعبها يقدر بـ ٢٤٫٧٠٠٫٠٠٠ نسمة وأكثريته بوذية .

سيلان

حصلت سيلان منذ ١٩٤٦ من بريطانيا العظمى على دستور مضى بها نحو الاستقلال . وخول هذا الاستقلال في العام ١٩٤٨ قبل أن يواتيها الزمن بالمطالبة به . وهي تمتد على ٦٥٠٠٠ كم٢ ، ويرتفع شعبها إلى ١١٢٠٠٠٠٠ نسمة ، ويتألف في اكثريته العظمى من السنغاليين ، وأيضاً من الملاويين ، والهنود التاموليين ، والفارسيين ، والموريس . وعرفت القليل من الاضطرابات السياسية ، إذا استثنينا مقتل رئيس حكومتها

س . و . باندانا وايكه ، في ٢٥ ايلول ١٩٥٩ ، الذي خلفته زوجته على رأس الشؤون العامة .

ومنذ ٢٥ آذار ١٩٦٥ ، وجه سيلان دودليه سينانا ياك ، زعيم حزب الوحدة الوطنية الذي استلم السلطة منذ ١٩٥٣ . وفيما يتعلق بالعلاقات الخارجية فقد تبنى سوجهو الجزيرة حياد الهند ، وإن كان موقفهم مناصراً للغرب بوضوح ، وهذا ما جر عليهم سخرية اليسار المتطرف . ومع ذلك نفذوا اقتصاداً من نموذج اشتراكي بتأميم الشركات الأجنبية ، والمصارف ، وشركات التأمين وانشاء صناعات دولة .

والشاي هو المورد الأساسي الزراعي لسيلان وتجهز وحدها ربع الانتاج العالمي .

القضايا الاقتصادية والسياسية في الشرق الأقصى

خطة كولومبو

لم يعرف الشرق الأقصى السلام منذ آخر الحرب العالمية الثانية . إن عدداً عظيماً من البلاد التي تؤلفه ما زالت تتخبط أيضاً في اضطرابات أليمة . وإذا اطرحت جميعاً مفهوم الاستعمار وانتهت بكسب الاستقلال السياسي ، فهذا الاستقلال ، بالنسبة للكثير منها ، يظل ضعيفاً ، ما دام التهديد يمارس ضدها من الخارج ، والشروط الاقتصادية غير الملائمة تجعلها تابعة للمشاريع الأجنبية القوية .

ولتنمية انتاج هذه البلاد ورفع مستوى شعوبها وضعت ، في العام ١٩٥٠ ، خطة كولومبو ، لفائدة هذه الدومنيونات البريطانية السابقة ومن ثم شايعتها دول لم تكن تابعة للكومنولث .

وعقدت ثلاثة مؤتمرات تمهيدية : في صيدني ، في أيار ١٩٥٠ ، وفي لندن ، في ايلول ١٩٥٠ ، وفي كولومبو ، في شباط ١٩٥١ ، ساعدت على رسم الخطوط الكبرى لمشروع ضخم يتضمن ، بخاصة ، استغلال الأراضي البور ، وأعمال ري ، وزيادة انتاج الحبوب ، وتنمية انتاج الطاقة الكهربائية ، وانشاء الطرق ، والسكك الحديدية ، والأقنية ، والمواني ، والمعامل ، والمدارس ، والمستشفيات ، الخ .

وشارك اثنان وعشرون بلداً في خطة كولومبو ، منها ستة عشر من جنوب وجنوب — شرقي آسيا : الهند ، الباكستان ، مالايو ، افغانستان ، بوتان ، نيبال ، مالديف ، كوريا الجنوبية ، التايلاند ، كمبوديا ، لاوس ، فيت - نام الجنوبية — وست دول تقع خارج هذه المنطقة : بريطانيا العظمى ، الولايات المتحدة ، كندا ، اوستراليا ، زيلاندة الجديدة ، واليابان .

وهذه الدول الاثنتان والعشرون ممثلة في داخل لجنة استشارية تجتمع في جميع الاعوام في احدى عواصمها لدراسة التقدم المنجز خلال السنة المنصرمة وتوزيع تبعات الممارسة الجديدة . وتشترك أيضاً في أعمال اللجنة وفود منظمات دولية مثل مكتب المساعدة الفنية للأمم المتحدة من أجل آسيا والشرق الأقصى ، والبنك الدولي للتعمير والتنمية ، ويدعى لتمويل القسم الأعظم من البرامج التي أعدها المجلس .

وعدا ذلك وظفت مؤسسات خاصة رؤوس أموال هامة في المناطق المعنية ، حتى ان حكومات البلاد المصنعة قبلت أن تحولها اعتمادات طويلة الأجل ومساعدة فنية عظيمة . وهكذا فان المساعدة ، التي أتت تحت أشكال مختلفة في نطاق الخطة ، ارتفعت إلى ٣٥٠٠ مليون جنيه استرليني

من أجل السنوات العشر الاولى من وضعها موضع التنفيذ ، وقد قدم البنك الدولي منها ٤٢٠ مليون .

ووضعت خطة كولومبو ، في شكلها البدائي ، لتعمل حتى ٣٠ حزيران ١٩٦١ . ولكن الأعمال التي تكفلت بها كانت بعيدة عن نهايتها ، ولذا مددت اللجنة الاستشارية مرتين حياة المنظمة التي يجب أن تبقى في مكانها حتى ١٩٧١ ، اللهم إلا إذا أعطيت لها مهلة جديدة .

منظمة معاهدة جنوب شرقي آسيا

ولكن القضايا الاقتصادية لم توضع وحدها في الشرق الأقصى . ففي قلب هذه القارة الدائمة التطور ، ما فتئت جمهورية الصين الشعبية ، منذ ١٩٤٩ ، تقوي مواقعها ، وتفرض اشرافها على التيبت ، وتزيد ضغوطها على كوريا ومونغوليا ، وتحرض أو توحي بالثورات الشيوعية في الكثير من بلاد جنوب شرقي آسيا ، في لاوس ، في كمبوديا ، في فيت ـ نام ، وفي اندونيسيا بخاصة .

ولقد أدرك موجهو واشنطون الخطر الممثل بتوسع يربح باستمرار ويمكن أن يجتاح كل هذا القطاع من العالم ويجد نفسه على درجة من القوة تمكنه من أن يمنع عنه وصول المؤثرات الغربية . وفي ١٩٥١ ، ردوا على اعتراف بريطانيا العظمى بنظام بكين ، بدعوة عضوين هامين من الكومنولث « الأبيض » ، اوستراليا وزيلاندة الجديدة ، ليوقعا مع الولايات المتحدة الميثاق : اوستراليا ـ زيلاندة الجديدة ـ الولايات المتحدة بغية حماية بلاد المحيط الهندي ضد كل محاولة تهديم يؤمر بها من الخارج . وفي السنوات التالية ، بدت هذه المحاولة تدبيراً تافهاً ، وبخاصة بعد نجاحات الصين الدبلوماسية وتقسيم كوريا وتقسم الهند الصينية .

وغداة مؤتمر جونيف قامت الحكومة الامريكية بمبادرة مجلس دولي جديد يضع أسس منظمة دفاع في هـذه المنطقة ، نوع من نسخة آسيوية عن منظمـة معـاهدة حلف شمال الاطلسي . وهكذا اجتمع في مانيلا ممثلو اوستراليا ، الولايات المتحدة ، بريطانيـا العظمى ، فرنسا ، زيلاندة الجديدة ، الباكستان ، الفيليبين ، والتـــايلاند ، وأعلنوا اشتراكهم في منظمة معاهدة جنوب شرقي آسيا التي تشكلت في ٨ ايلول ١٩٥٤ .

اقترح الميثاق الجديد فرض حد واضح ودقيق للأطماع الارضية للصين الشعبية وذلك بأن ثبت عند خط العرض ٢١°٣٠ شمالاً منطقـة الأمن التي تمتد عليها تغطيته .

وتشير ديباجة المعاهدة إلى إرادة الموقعين في « تنسيق جهودهم بغية دفاع جمـاعي لصيانة السلام والأمن » ، وفي الوقت نفسه « تشجيـع الازدهار والتنمية الاقتصادية لجميع شعوب المنطقة التي تغطيها المعاهدة » .

وفيما يختص بالدفاع ، تهدف منظمة معاهدة جنوب — شرقي آسيا إلى « ابقاء وزيادة الامكانيات الجماعية والفردية للبلاد الموقعـة ، ومقـــاومة الهجومات المسلحة ، وكذلك منع ومقـاومة النشاط الهـدام الآتي من الخارج ... » (المادة ٢ من المعاهدة) .

وبعد مؤتمر جونيف ١٩٦٢ ، الذي كرس حيـاده ، تخلت لاوس رسمياً عن حماية المنظمة الآنفة الذكر ، وتبعتهـا بعـد قليل كمبوديا . وانطلاقاً من ١٩٦٥ ، لم تمثل فرنسا في اجتماعات المنظمة إلا بمراقب .

من باندونغ الى هافانا : العالم الثالث يطالب بمكان تحت الشمس

وبينما تفتتح في جونيف المفاوضة المدعوة لانهـــاء الحرب الاولى في

الهند الصينية ، انعقد مؤتمر جديد وضم في كولومبو خمسة رجال دولة آسيويين . ومن ٢٨ نيسان إلى ٢ أيار ١٩٥٤ ، تباحث رؤساء وزراء الهند وباكستان وأندونيسيا وبورمانيا وسيلان بغية تقرير موقف مشترك أمام الدول الكبرى التي تعد نفسها لتثبيت مستقبل شعوب جنوب — شرقي آسيا وربما مستقبل جميع ممتلكاتها السابقة في العالم . وتحت ظواهر انسانية ألم تكن خطة كولومبو محاولة لاسترداد المستعمرات السابقة !

وهكذا ولدت فكرة مجابهة واسعة اشترك فيها زعماء الدول الافريقية الحديثة الاستقلال أو التي تكافح أيضاً في سبيل تحريرها .

وأشارت « الكتلة الافروآسية » ، المتشكلة في الأمم المتحدة في ١٩٥٢ ، إلى وحدة وجهات نظر أمم القارتين التي تبدي خصائص واحدة من التخلف وتتضامن مع بعضها ، وترى من مصلحتها أن تتحد لحل مشاكلها .

وفي ختام مهمة التحري التي عهد بها إلى الرئيس سوكارنو التقى من جديد برفقائه الأربعة في بوغور ، في اندونيسيا ، في ٢٨ و ٢٩ كانون الأول . وقرروا جميعاً الدعوة إلى مؤتمر يعقد في باندونغ ، من ١٨ إلى ٢٤ نيسان ١٩٥٥ ، وتشترك فيه « دول كولومبو الخمس » ، باعتبارها دولاً داعية ، وأربع وعشرون بلداً آخر منها ١٤ دولة من افريقية والشرق الأوسط .

ومهما يكن من أمر ، فان التجمع الأفروآسي لا يؤلف ، بشكل من الأشكال ، رداً على تجمع منظمة معاهدة جنوب — شرقي آسيا ، في شهر ايلول السالف . وأسدل الستار على مسرح جونيف منذ زمن طويل . وبالرغم من تحفظات الرئيس آيزنهاور وفوستر دالس قسمت الهند الصينية ووطد السلام من جديد ولو بشكل ضعيف .

وكان يقصد شيء آخر .

إن دولاً تختلف أنظمتها كالصين الشعبية وامبراطورية اثيوبيا ، والتايلاند وليبريا ، وفيت ـ نام الشمالية واليمن اضطرت إلى الاعتراف أن الاستقلال الذاتي السياسي وحده ، مهما غلا الثمن ، يبدو عاجزاً عن تأمين تحريرها .

لقد ولد العالم الثالث ، وطالب بمكانه تحت الشمس ، أي اعادة صهر كلي للبنيات الاقتصادية العالمية . وللبدء ، اعادة النظر بأسعار المواد الأولية التي يعتبر المجهز الأساسي لها وتجني الدول الصناعية منها أفضل ربح .

كان مؤتمر باندونغ حادثاً من أعظم حوادث ما بعد الحرب ،و « لحظة حاسمة لـ ٦٥٪ من سكان الكوكب » . ففيه استطاعت تسع وعشرون بلداً ، حديثة العهد بالحرية أو لم تتحرر بعد من الوصاية الأجنبية ، أن تسمع صوتها لأول مرة وتلقي نداءً مؤثراً للتعاون الدولي . وقد أضاف اليه نهرو دوراً من الصعيد الأول . فقد عمل على تبني « مبادىء باندونغ العشرة » التي تفرض بخاصة : احترام حقوق الانسان واحترام أهداف ومبادىء شرعة الأمم المتحدة ؛ واحترام سيادة الدول وسلامتها القومية ؛ ومساواة الشعوب والأمم ؛ وعدم التدخل في شؤون الدول الداخلية ؛ وتسوية الخلافات بالطرق السلمية ؛ واعلاء شأن المصالح المشتركة والتعاون .

إن الـ ٢٩ وفداً المشتركة في أعمال باندونغ تمثل البلاد التالية : الهند ، الباكستان ، اندونيسيا ، بورما ، سيلان ، أفغانستان ، الصين الشعبية ، التايلاند ، كمبوديا ، لاوس ، فيت ـ نام الشمالية ، فيت ـ نام الجنوبية ، نيبال ، الفيليبين ، مصر ، سورية ، الاردن ، العراق ، لبنان ، العربية السعودية ، اليمن ، اثيوبيا ، ليبيا ، ايران ، تركيا ، ساحل الذهب (الذي أصبح غانا) ، ليبريا ، اليابان .

ومن ٣ إلى ١٥ كانون الثاني ١٩٦٦ انعقد في هافانا « مؤتمر القارات الثلاث » بغية مشايعة حركات التحرير في امريكا اللاتينية لبرنامج باندونغ ، وبدا أن محركيه ، مع ذلك ، متشددون وغير متسامحين وعدوانيون أكثر من رجال التجمع الافروآسي . ولم يتبنوا كهؤلاء الأواخر مبدأ « الحياد الايجابي » بين الكتلتين الحرة والماركسية ورفضوا فكرة التعاون الصريح مع البلاد المجهزة الغنية وأعلنوها حرباً حقيقية على الدول « الاستعمارية الحديثة » الغربية .

وقد أعطى أحدهم، المهدي بن بركة ، الذي لاقى مصرعه المفجع بعد شهرين ، القدوة عندما صرح ، في الأول من ١٩٦٥ أمام اللجنة التحضيرية في القاهرة :

إن شعوب العالم الثالث التي تألمت طوال قرون من الاستغلال والذل ، وحكم عليها بالتخلف الاقتصادي والثقافي ، تملك مع ذلك موارد كبرى غير مستغلة لم تفد ، حتى الآن ، إلا في تسهيل الرخاء والابهة لأقلية ممتازة ... نحن كلنا لنا عدو واحد مشترك : الامبريالية » .

ودار المؤتمر في جو الحماسة الثورية ولاقت الخطب المؤثرة الهتاف الحار .

وإذا أخذنا بعين الاعتبار المزايدة التي لا يمكن اجتنابها في فوروم تتجابه فيها وفود ٨٢ بلداً ، ٢٨ منها لآسيا ، فان أعمال مؤتمر القارات الثلاث ، كأعمال باندونغ ، ساعدت بخاصة على ايضاح الثغرات التي يجب أن تسدها الدول التي توصلت إلى الاستقلال السياسي لتجعل ، أخيراً، من سيادتها واقعاً حياً .

وظهرت هذه الثغرات أيضاً في مؤتمر نيودلهي المنعقد تحت حماية

الأمم المتحدة وعقد جلساته طوال شهري شباط وآذار ١٩٦٨ . وبالرغم من حضـور ٢٥٠٠ خبير ، وزراء مالية واقتصـاد ، مندوبي ١٣٦ بلداً « غنية » ومتخلفة ؛ وبالرغم من دعوة السيدة غاندي المؤثرة ، لم تخرج أي خطة متماسكة في التعاون تتعلق ، بخاصـة ، باعـادة تسعير المواد الأولية . وحمل ممثلو العالم الثالث في ختام هذا النقاش الطويل انطباعاً عميقاً من تبدد الأوهام .

الحوار الضروري

لقـد فهمت خطة كولومبو بوضوح في الشرق الأقصى لمساعدة هـذه الدول الفتية الناشئة على التغلب على صعوباتها . وتضمنت منظمة معاهدة جنوب شرقي آسيا قطاعـاً اقتصادياً يهتم بتنمية البلاد الداخلة في منطقـة نفوذهـا . والمؤسسات الغربيـة أخـيراً عديدة : كالمكاتب الحكومية أو المشاريع الخاصة ، وهي توظف رساميل عظيمة في هذه المنطقة .

ولكن الذين يفيدون من هذه المساعدة كان يغريهم أن يكتشفوا فيها فخاً . وبانحـراف التعـاون الاقتصادي ألم يهـدف الحماة السابقون إلى أن يستعيدوا بيد ما أعطوه باليد الأخرى ؟ من هنـا الخوف المبرر أحياناً من « الاستعمار الحـديث » الذي يمـزج عطـاءه بالضغوط السياسية التي لا يتسامح بها والتي تفرض على البلاد المساعَدَة نظاماً من اختيارها .

وعلى الطرف الآخر ، الخوف من الشيوعية ، مدمرة النظـام المبني على المشروع الحر ، يشل كثيراً من التعاطفات التي لا تطلب إلا التعبير عن نفسها . ألا ترجع المبادرة بنجدة البلاد المتخلفة إلى اللعب لعبة الغر

المغفل ، تسليم الأسلحة إلى العدو ؟ هذا ما يتساءله آخر حماة الامبريالية التي ولى زمانها .

وينسى هؤلاء أن الشيوعية الآسيوية تختلف عن الماركسية الأوربية . لأن مفهوم نزاع الطبقات فيها قلما يفهم كمفهوم القومية الغاضبة . ولقد أظهرنا في بداية هذه الدراسة ان زعماء الكفاح في سبيل التحرير يفكرون بتحرير بلادهم من السيطرة الأجنبية أكثر مما يفكرون باحلال دكتاتورية الطبقة الكادحة .

ولا شيء يمنع فتح حوار في الشرق الأقصى لولا أن التدخل الامريكي الغاشم في فيت - نام قد أتى ليخطىء حدوده ويصلب موقف محدثينا المتوقعين . إن منافسة خطيرة تضع اليوم الولايات المتحدة ، التي تحاول فرض تفوقها بالقوة في هذه المنطقة من العالم ، في معارضة الصين المعتزة بقوتها الجديدة كل الجدة .

وهذان الاتجاهان لا يمكن دمجها أيضاً ، فهما يهددان بالنفوذ إلى نزاع يرفض الفكر تحديد نتائجه . لذا يجب التقرير ، والأبكر هو الأفضل ، بمجابهة واسعة لوجهات النظر بين الدول المصنعة بشكل عال والبلاد التي هي في طريق النمو . وعلى هذه أن تقبل من الاولى المساعدة الشريفة والكريمة ما أمكن . ولكن عليها أن تبني بأيديها الخاصة ، وفي احترام الكرامة البشرية ، النظم الحديثة ، الاقتصادية والاجتماعية ، التي تضعها تدريجياً على قدم مساواة مع الديموقراطيات الكبرى . وعندئذ تبلغ هذه البلاد رشدها وتصبح أمماً حقيقية .

ثبت الأعلام

A

Acheson, dean — آتشيسون، دين

Adenauer, K. — آديناور، كونراد

Adjoubei, A. — اجوبي

Adulyadejj — ادولايدي

Aidit, D. N. — ايديت

Alessandri, j — اليّساندري

Amory, H. — آموري

Anders, w. — اندرس

Anthonioz — انطونيوز

Aramburu (P.) — آرامبورو

Arbenz, j. — اربنز

Arevalo, j. j. — آريفالو

Argenlieu, g. thierry d'. — آرجانليو، غ. تييري دو

Arias, A. — آرياس

Armand, L. — آرماند، ل

Arnhem — آرنهم

Arosemena , Gomez — آروسيمينا غوميز

Ashkenasi, L. — آشكينازي. ل.

Assam — آسّام

Athénagoras — آثيناغوراس

Attlee, C. — آتلي كليمانت

Auriol (V.) — اوريول، فانسان

Avila, Camacho — آفيلا كاماشو

Azikiwé, N. — آزيكيويه

B

Badoglio, P. — بادوليو

Balaguer, j — بالاغير

Bandanaraïké — باندانارايكه

Bandung — باندونغ

Baodaï — باؤداي

Barangé — بارانجيه (قانون)

Barbade — بارباد

D

Dorticos, O	دورتيكوس
Dossetti	دوسيتي
Durate, Eva	دورات ، ايفا بيرون
Dubcek	دوبشيك
Dulles, J. F.	دلس ، جان — فوستر
Dumbarton Oaks	دمبرتون اوكز
Dupong, P.	دوبون
Dutra, E. G.	دوترا
Duvallier, F.	دوفاليه
Duvieusard	دوفيوزار

E

Echandi, M.	ايشاندي
Eden, A.	ايدن
Edimbourg, duc d'	ادمبره دوق
Einaudi, L	اينودي ، ل
Eisenhower, D. D.	ايزنهاور
Elisabeth II	اليزابيث الثانية
Equateur	اكواتور (خط الاستواء) ، (جمهورية اكواتور او اكوادور)
Erhard, L.	ايرهارد
Erler, F.	ايرلير
Estimé, D	استيميه
Eyskens, G	ايسكنس

F

Fanfani	فانفاني
Farge, y.	فارج
Faure, E	فور ، ادغار
Faure, M	فور
Fierlinger, Z.	فيرلنغر
Figueres, j.	فيغويريس
Flandin, P. E.	فلاندان
Fock, j.	فوك
Fontainebleau	فونتنبلو
Fortknox	فورنوكس
Fouchet, C.	فوشيه
Fourtseva, E	فورتسيفا
Frei, E.	فراي
Frey, R.	فري
Frieden	فريدن
Frondizi, A.	فروندیزي

G

Gagarine, y. A.	غاغارين

Gaillard, F.	غايار
Gaitskell	غيتسكيل
Gallegos, R.	غاليغوس ، ر
Gandhi, indira	غاندي ، السيدة انديرا
Garcia Godoy	غارسيا غودوا
Gaulle, Ch. De	غول ، شارل دو
Gdansk	غدانسك
Gdynia	غدينيا
Geismar, A.	غيسمار
Gerbrandy	غيربراندي
Gerö, E	غيرو
Gerstenmaier	غرستنماير
Gheorghiu - Dej, G.	غورغيو — دي ، ج
Giscard d'Estaing,	جيسكار ديستنغ
Glassboro	غلاسبورو ، مؤتمر
Goa	غوا
Goldwater, B.	غولدوتر ، ب
Gomulka, W.	غومولكا
Gottwald, K.	غوتوالد
Gouin, F.	غون ، ف
Goulart, j.	غولارت
Grâce - Berleur	غراس — برلور
Grenelle	غرونيل
Grol, M.	غرول
Gromyko	غروميكو
Gronchi, G.	غرونشي
Grotewohl, O.	غروتفول
Groza, P.	غروزا
Gueorguiev, K.	غورغيف ، ك
Guevar, E	غيفارا
Guichard. O.	غيشار
Guido, j. M.	غيدو
Gürsel	غورسيل
Gutt, C.	غوت

H

Haïti	هايتي
Hallstein, W.	هالشتاين ، و
Hammarskjoeld, D.	همرشولد ، داغ
Harmel, P.	هرمل ، ب
Harriman, A.	هاريمان
Hatta, M.	هاتا
Havane	هافانا

I

J

K

L

ماليتر	Maleter. P.
مالرو	Malraux, A
ماماي	Mamai
مانيلا	Manille
مانيو	Maniu, J
مانشولت	Mansholt, S.
ماوتسيه ـ تونغ	Maotsé — Tong
السوق المشتركة (الوحدة الاقتصادية الاوروبية	(C.E.E
مارسيلهاسي	Marcilhacy, P.
مارسينيل	Marcinelle
ماريان ، جزر	Mariannes
مارجولن	Marjolin, R
مارشال	Marshall (G. C.)
مارتينيك ، جزيرة	Martiniques
مارتينو	Martino. G.
مازاريك	Masaryk, J.
ماسّو	Massu, j
ماتسو (ارخبيل)	Matsu
ماودلينغ	Maudling, R.
مورير	Maurer, I. - G.
ماير	Mayer, D.
ماير	Mayer, R.
مازيللي	Mazilli, M. de
ميدينا آنغاريتاس	Medina Angaritas
ماير ، غولدا	Meir, G.
مولن	Melun
مانديريس	Mendérès, A.
مانديس فرانس ، بيير	Mendés France, P.
مانديز مونتينغرو	Mendez Montenenegro (Y . C)
مانتون	Menthon, F. de
مانزيس	Menzies, R
ميزوجيورنو	Mezzogiorno
ميشيل ملك رومانيا	Michel de Roumanie
ميهايلوفيتش ، د	Mihailovitch, D.
ميكلوس	Miklos
ميكولايتشيك ، س	Mikolajchyk, S.
ميكويان	Mikoyan, A
ميندسزانتي ، ج	Mindszenty, Y.
ميرو كاردوناس	Mero Cardenas
ميتيران ، ف	Mitterrand, F.
موبوتو	Mobutu, Y.

Moch, Y.	موك
Mollet, G.	موليه
Molotov	مولوتوف
Mondon	موندون
Monnet, j	مونيه ، ج
Montel, P	مونتيل
Montegomery, B.	مونتغومري
Montréal	مونتريال
Morawski	موراوسكي
Morgenthau, H.	مورجانتو ، هـ
Morrison, H.	موريسون
Mountbatten, L.	مونتباتن
Moutet, M.	موتيه
Munich	مونيخ
Mussolini, B.	موسوليني

N

Naegelen, M. - E	ناجيلين
Nagasaki	ناغازاكي
Nagy, F.	ناجي
Nairobi	نيروبي
Nanterre	نانتير
Nassau	ناسو
Nasution, A.	ناسوتيون آ
Nauru	نورو
Navarre, H.	نافار
Nehru, j.	نهرو
Népal	نيبال
Newdelhi	نيودلهي
Ngo Dinh Diem	نغو دينه ديم
Nguyen Cao Ky	نغوين كاوكي
Nguyen Van Thieu	نغوين فان تيو
Nicaragua	نيكاراغوا
Nigeria	نيجيريا
Nixon, R.	نيكسون
Norodom Sihanouk	نورودوم سيهانوك
Norodom Suramarit	نورودوم سوراماريت
Novotny, A.	نوفوتني
Nyassaland	نياسالاند
Nyerere, j.	نيريري

O

Ochab, E.	اوشاب
Oder - Neisse	اودير – نايس (حدود نهري اودير و نايس)

Pineau, C.	بينو
Pisani, E.	بيزاني
Pleven, R.	بليفين
Podgorny, N.	بودغورني
Pompidou, G.	بومبيدو ، ج
Porto Riko	بورتوريكو
Port Talpot	ميناء تالبوت
Posnanie	بوسنانيا
Potsdam	بوتسدام
Poujade, P	بوجاد ، ب
Poujade, R.	بوجاد ، ر
Powell, R.	باول ، ر
Poznan	بوزنان
Prado Ugarteche, M	برادو اوغارتيشه
Prêt - Bail	الاعارة والتأجير (قانون)
Profumo, J	بروفيومو
Punta Del Este	بونتا دل ايست (مؤتمر)
Puric	بوريك

Q

Quadros, J	كوادروس
Québec	كيبيك
Quemoy	كيموي ، ارخبيل
Queuille, H.	كوي
Quezon, M.	كويزون
Quiriño	كويرينو

R

Raab, J	راب
Radescu, N.	رادبسكو
Rajk, L.	راجك
Rakosi, M.	راكوزي
Ramadier, P.	رامادبه ، ر
Rankovitch, A.	رانكوفيتس
Rapacki, A.	راباكي
Reichstag	رايخشتاغ
Reid Cabral	رايد كابرال
Reims	رنس
Renard, A.	رونار
Reuther, W.	رويتر ، و
Revers, G.	روفير
Rey, H.	ري ، ه
Rey, J.	ري ، ج
Reynaud, P.	رينو ، بول
Rhee, S.	ري ، سيغمان

Rhodes	رودس
Ridgway, M.	ريدجوي ، م
Robles, M.	روبل
Roclore, M.	روكلور
Rocquencourt	روكنكور
Roosevelt, F. D.	روزفلت
Rosenberg, J.	روزنبرغ ، ج
Rostock	روستوك
Roth, w.	روث
Roxas, M.	روكساس
Rueff J.	روئيف
Ruhr	رور
Ruiz cortines	رويز كورتينيس
Rusk, D.	رسك ، دين

S

Saint - Domingue	سان دومينغ
Sainteny, j	سانتوني ، ج
Saint - Laurent	سان ـ لوران
Saint - Piere - Et-Miquelon	سان ـ بيير ـ و ـ ميكلون
Sakhiet	ساخيت
Salan, R.	سالان
Salvador	سالفادور
Samoa	ساموا
Sandys, D.	سانديس
Saragat, G.	ساراغات
Sarawak	ساراواك
Sarre	سار
Satomo	ساتومو
Sauvageot, j.	سوفاجو ، ج
Schaus	شاوس
Schermerhorn, W.	شيرميرورن ، و
Schmid, C.	شميد
Schroeder, G.	شرودير
Schumacher, K.	شوماخر ، ك
Schuman, R.	شومان
Segni, A	سيغني
Senanayake, D.	سيناناياك ، د
Sforza, C.	سفورزا
Shastri, L. B.	شاستري ، لال بهادور
Shore, P.	شور
Sik, O.	سيك
Siles Suazo	سيليس سوآزو
Simeon II	سيميون الثاني
Simla	سيملا

Thurmond تورموند
Tibet تيبت
Tildy,Z. تيلدي
Tillon, CH. تيلون ، ش
Tinh تينه
Tirana تيرانا
Tito تيتو
تيكسيه ـ فينيانكور
Tixier - Vignancour (j.L.)
Tobago توباغو
Togliatti, P. تولياتي ، ب
Togo توغو
توريس بوديه (ج)
Torres Bodet (j.)
Trudeau (P.E.) ترودو
Trujillo, R. تروجيلو ، ر .
ترومان ، الرئيس .
Truman (H.S.)
Tschombé, M. تشومبه ، م .

U

Ulate,O. اولات
Ulbricht, W. اولبريخت
Ulm اولم
U Nu اونو
Untung اونتونغ
Urrutia اوروتيا

V

Valera (E.DE) دوفاليرا
Valluy,j. فالوي
Van Acker, A. فان اكير ، آ
فاندنبرغ (آ . ه .)
Vandenberg (A.H.)
فاندين بوينانتس .
VandenBoeynants (P.)
Van Houtte, j. فان هوت ، ج .
Van Mook فان موك
Vanzeland, P. فان زيلاند ، ب
Varga فارغا
Vargas, G. فارغاس
Vatican فاتيكان
فيكتور ايما نويل الثالث .
Victor Emmanuel III
Viêt-Nam فيت ـ نام
Villaroel (G.) فيلا رويل
فيليدا موراليس
Villeda Morales
Vo Nguyên Giap فو نغوين جياب
فوروشيلوف (ك.)
Vorochilov (K.)
Vostok فوستوك

W

Y

Z

الفهرس

تاريخ عصرنا

منذ ١٩٤٥

المقدمة

الفصل الأول

فرنسا

الفصل الثـــاني

بريطانيا ـ العظمى

الفصل الثالث

بريطانيا ـ العظمى والكومنولث

الفصل الرابع

المانيا الاتحادية والمانيا الديموقراطية الشعبية

الفصل الخامس

ايطاليا

الفصل السادس

البينيلوكس

الفصل السابع

دمج اوربه

الفصل الثامن

اوربه الاشتراكية

الفصل التاسع

الولايات المتحدة

الفصل العـــاشر

امريكا اللاتينية

الفصل الحادي عشر

الشرق الأدنى

منطقة معقدة

الفصل الثاني عشر

الشرق الأقصى

أسماء الاشهر في البلاد العربية

كانون الثاني	=	ينـاير
شباط	=	فبراير
آذار	=	مارس
نيسان	=	ابريل
أيار	=	مايو
حزيران	=	يونيـه
تموز	=	يوليو
آب	=	اغسطوس
ايلول	=	سبتمبر
تشرين الأول	=	اكتوبر
تشرين الثاني	=	نوفمبر
كانون الأول	=	دسمبر

كلمة شكر

جزيل الشكر لكل من أسهم

في نشر هذا الكتاب

تاريخ العصر الوسيط

من اواخر العصر الروماني الى القرن الثاني عشر

تاريخ العصر الوسيط

من القرن الثاني عشر الى عصر النهضة

تاريخ عصر النهضة

تاريخ القرن السابع عشر

تاريخ القرن الثامن عشر

تاريخ النصف الاول من القرن التاسع عشر

تاريخ النصف الثاني من القرن التاسع عشر

تاريخ القرن العشرين

١٩٠٠ ـ ١٩٤٥

التاريخ الدبلوماسي

١٩٤٠ ـ ١٩٥٨

تاريخ عصرنا

منذ ١٩٤٥

قضايا عصرنا

منذ ١٩٤٥

تاريخ الحركات القومية (يقظة القوميات الأوربية)

أربعة أجزاء